

سچا نيل زابوروف الصليبيون

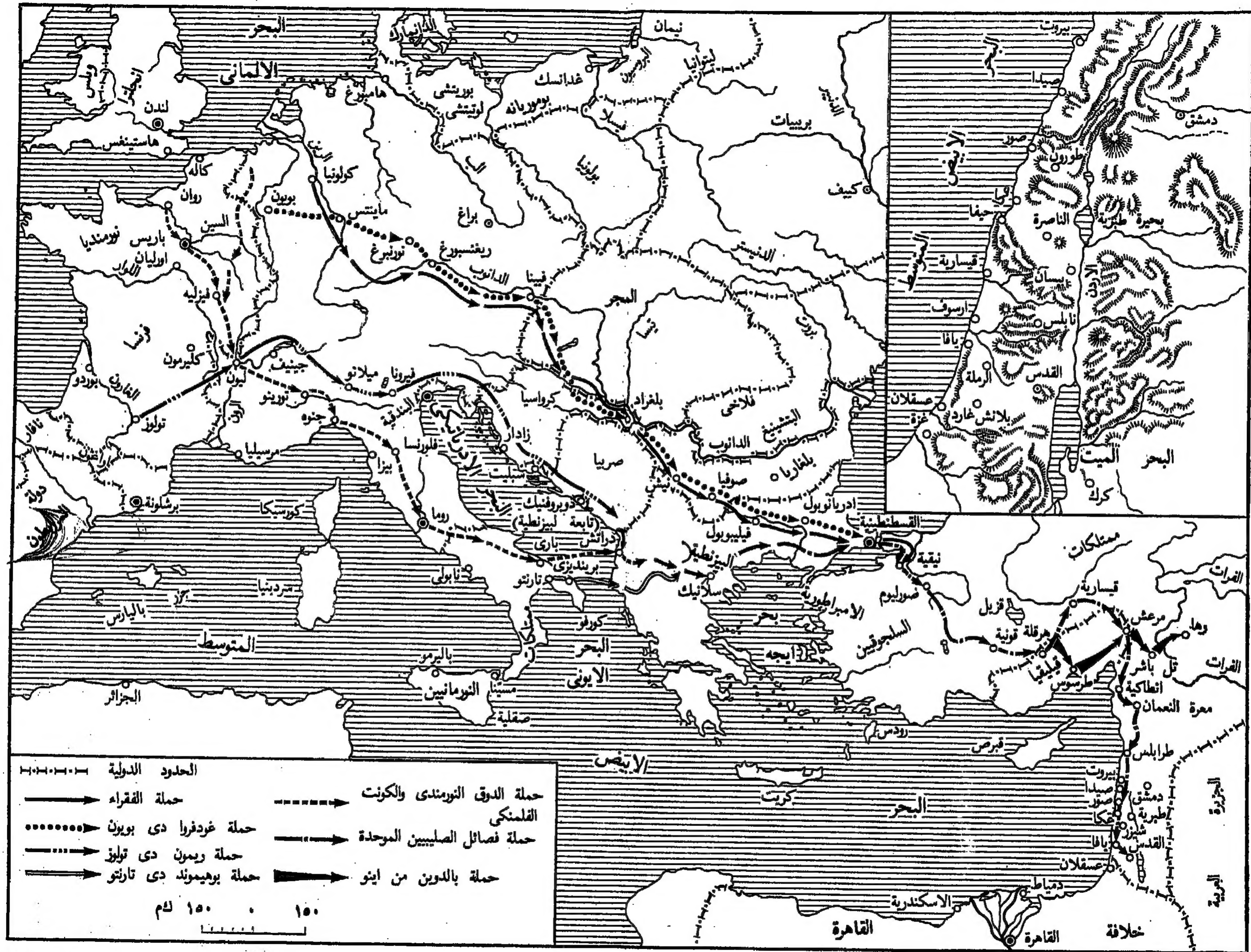
في

الشرق

والتيقدم
موسكو



ميخائيل زابوروف (من مواليد
سنة ١٩٢٠) ، مؤرخ سوفيتي
معروف . دكتور في العلوم
التاريخية . يعكف منذ سنوات
عديدة على دراسة قضية الحروب
الصليبية . وقد وضع بحوثا
عديدة في هذا الموضوع ، وكذلك
في مسائل تاريخ الدين في
القرون الوسطى . ومن أشهر
أعماله المؤلفات التالية :
«الحروب الصليبية» (سنة
١٩٥٦) ، «الباباوية والحروب
الصليبية» (سنة ١٩٦٠) ،
«الصليبيون وحملاتهم الى الشرق»
(سنة ١٩٦١) ، «مقدمة في
تاريخ الحروب الصليبية» (سنة
١٩٦٦) ، «علم تاريخ الحروب
الصليبية (الادب من القرن الخامس
عشر الى القرن التاسع عشر)»
(سنة ١٩٧١) ، «تاريخ الحروب
الصليبية في الوثائق والمواد»
(سنة ١٩٧٧) ، «بالصليب
والسيف» (سنة ١٩٧٩) ،
«الصليبيون في الشرق» (سنة
١٩٨٠) . وقد ترجم عدد كبير
من كتب زابوروف ومقالاته الى
اللغات الانجليزية والبلغارية
والاسبانية والالمانية واليابانية
والتشيكية وغيرها من اللغات .



میکائیل زابوون

الصليبين
في
الشرق



دار التقدم
موسكو

ترجمة الياس شاهين

~~М. А. Заборов~~
КРЕСТОНОСЦЫ НА ВОСТОКЕ
~~На арабском языке~~

© Главная редакция восточной литературы, издательство «Наука», 1980 г

© الترجمة الى اللغة العربية — دار التقدم ، ١٩٨٦

طبع في الاتحاد السوفييتي

3 $\frac{0504020000-248}{014(01)-88}$ без объявл.

ISBN 5-01-000748-7

شاهرو السيوف

(مقدمة)

الافرنج يجوسون المدينة . شاهري السيوف .
لا يشفقون على احد ، حتى على الدين يتوسلون الرحمة . . .
سقط شعب الكفار تحت ضرباتهم مثلما
تسقط جوزات البلوط المهترئة من شجرة البلوط حين
يهزون اغصانها .

فى هذه الاشعار ، الصريحة ، والخشنة فى مسحتها الطبيعية ، والمفعمة
بكل جلاء بالعداء «لشعب الكفار» ، يحكى مؤرخ قروسطى - نقلا عن اقوال
شهود العيان - عن المآثم والفظائع التى اقترفها الصليبيون فى القدس
العربية حين احتلوها فى ١٥ تموز (يوليو) ١٠٩٩ .
من كانوا هؤلاء «الافرنج» (او «الفرنجة») الذين شهروا السيوف آنذاك
ضد «الكفار» ؟ لاية اهداف ابدوا القساوة وعدم الرحمة ؟ اية مثل عليا
كانت تلهمهم وتشجعهم ؟ وهل تطابقت مع هذه المثل العليا النتائج العملية
لحروب «الفرنجة» التى استمرت حتى بعد الاستيلاء على القدس - على امتداد
زهاء قرنين ، فى القسم الشرقى من البحر الابيض المتوسط ؟
ان الاجابة عن هذه الاسئلة وعن كثير من الاسئلة الاخرى التى تواجه
حتمًا كل من يهتم بالعلاقات المتبادلة بين الغرب والشرق فى عصر
الاقطاعية ، انما تعنى التحدث عن تاريخ ما يسمى بالحروب الصليبية (او
الحملات الصليبية) .

وهل من داع الى ذلك ؟ افلا يتحدثون عن الحروب الصليبية فى الكتب الدراسية المدرسية والجامعية ؟ ثم لماذا نبعث امام انظار الجيل الحالى الذى يعيش فى عصر ترويض الفضاء الكونى والتحليقات الى القمر وحتى الى كوكب الزهرة ، فى عصر الآلات الحاسبة الالكترونية والمراكب الذرية ، تلك الازمان البعيدة التى كان فيها عقل البشرية يستيقظ للتو ؟ فما اقدم هذا الماضى ! قد يقول قارى : ان الحروب الصليبية قد ولت الى الابد ، ولذا من المشكوك فيه ان يكون ثمة معنى لتذكرها ، وبالاخرى لتذكرها بتفاصيل كبيرة . . .

ان الآراء من هذا النوع خاطئة تماما ، مهما كانت جذابة من النظرة الاولى بالنسبة لمن يغيب عندهم حب الاستطلاع التاريخى ويحاولون ان يبرروا غيابه بشتى الوسائل . من الممكن ايراد الكثير من مختلف الادلة على ضلال الموقف العدمى او شبه العدمى من ملحمة الحروب الصليبية . لنكتف على الاقل بابطال الاعتبارات القائمة فى مستوى واحد - الحروب الصليبية والواقع المعاصر .

وبالفعل ، لا يزال تعبيرا «الحرب الصليبية» (او «الحملة الصليبية») و«الصليبيون» شائعين الى الآن فى الاستعمال اليومى ، رغم ان الحروب الصليبية فى الشرق تعود الى الماضى البعيد . وهذان التعبيران لا يستعملان بالمعنى المباشر ، التاريخى وحسب ، بل ايضا بالمعنى المجازى ، كمجاز ، كصورة ، كرمز . وغالبا ما يتضمنان شتى المعانى ، تبعا لمن ومتى ولاى غرض يستعملهما ، تبعا لمن وكيف يفهم الحروب الصليبية فى القرون الحادى عشر والثانى عشر والثالث عشر . ولم يكن ثمة ابدا وليس ثمة اليوم اى وحدة فى الراى من حيث تفسيرهما . فان المؤرخين الكاثوليك يعتقدون ان هذه الحروب كانت تعبيرا عن شعور دينى عميق وصادق شمل المسيحيين فى الغرب ، وابقظهم واستحتهم فتمنطقوا بالسيوف واندفعوا ، باشارة من يد بابا روما ، الى انقاذ المقدسات الفلسطينية . اما الاختصاصيون ذوى التفكير السليم ، غير المتحيزين دينيا وطائفا ، فانهم يرون ان الغلاف الدينى للحروب من اجل «قبر السيد المسيح» ليس سوى قناع ، وان يكن من صنع العصر ، يستتر مع ذلك مطامع الفرسان الاوروبيين الغربيين الدنيئة وبحثهم فى الشرق عن رقع جديدة من الاراضى وعن ثروات جديدة . كذلك ظهرت وجهات نظر متوسطة ؛ فاحيانا ترد فى المرتبة الاولى البواعث الدينية للحروب الصليبية ، واحيانا البواعث الاغتصابية ، ولكن هذه البواعث وتلك كانت تلقى الاعتراف . ولا يندر ان يسود التشوش حتى فى مؤلفات العلماء ذوى التفكير الواقعى . وهذا التشوش كبير احيانا الى حد ان بعض الباحثين ، مثل

الفرنسي بول روسته ، «الذي ضل بين ثلاث صنوبرات» ، يشيرون بثمتي الوسائل الى طابع تعبير «الحرب الصليبية» الذي يبدو لهم «غامضا» ، «غير واضح» . وبين الفينة والفينة يستغرق بعض الباحثين في نصوص القرون الوسطى ويحاولون عبثا ان يجدوا فيها معناه «الحقيقي» اى الاولى ، حسب رأيهم ، ويتعثرون عن غير قصد في التفسير القروسطى ، الكنسى على الاغلب ، لظاهرة الحروب الصليبية .

اما في الاستعمال اليومي ، فان كلمتي «الحرب الصليبية» ترتبطان قبل كل شيء منذ مئات السنين بالتصور عن غيظ ديني متطرف ، عن التعصب الاعمى الذي اسفر عن فظائع لا تصدق ، والذي كان سببا لسفك الدماء بلا مبرر ولا معنى ، ولهلاك اعداد ضخمة من الناس بلا جدوى في الشرق الاسلامى وفي بيزنطية وفي اوروبا .

ان هذا التصور ينبع من نظرات المنورين الاوروبيين في القرن الثامن عشر . فقد كتب المفكر الحر الفرنسي الشهير في ذلك الزمن جان ميليه ان الايمان الاعمى يحمل المتعصبين على الدفاع عن دينهم حتى ولو تعرضوا لخطر الموت . ولهذا «يطاردون بعضهم بعضا على الدوام بالنار والسيف» ، «ليس ثمة اية من الفظائع والمآثم لا يلجأ اليها بعضهم ضد بعض بذريعة رائعة ولائقة ، ذريعة حقيقة دينهم المتخيلة» . ان هذه الآراء والآراء المماثلة التى ترقى الى اكثر من قرنين ونصف قرن قد حددت زمنا طويلا المعنى المجازى الدارج المهيمن حتى الآن لتعبير «الحرب الصليبية» ولمفهوم «الصليبيون» (فيما يتعلق بجميع الحروب الدينية) . المهيمن ، ولكن ليس الوحيد !

ان تعبير «الحرب الصليبية» ومفهوم «الصليبيون» والمفاهيم والتعابير المماثلة لهما ، تطابق عادة ، بمعناها المجازى ، المتحول ، نداءات وافعال المتهوسين المتعصبين ، والمدافعين عن الافكار الرجعية (وان لم تكن الزاما دينية) .

وفي الوقت الحاضر يضمن الكتاب ذوو الاتجاه الماركسي اللينيني هذين التعبيرين معنى مجازيا ساخرا ، وسلبيا دائما . وهم من حيث جوهر الامر كأنما يواصلون تقاليد التشهير والفضح التى ارساها ماركس وانجلس ولينين الذين استعملوا في آرائهم تعبير «الحرب الصليبية» بمعنى مجازى سلبى . ان استعمال التعبير القروسطى المدرك على هذا النحو قد اتاح لمؤسسى الماركسية-اللينينية ان يكشفوا بسطوع المضمون الطبقي للافعال الرجعية التى قامت بها البرجوازية الاوروبية والتى ارتكزت عموما واجمالا ،

كما عند صليبي الماضي ، على استشهادات بالدوافع الفكرية «السامية» وبواعت الفضيلة .

فى سنة ١٨٦٤ ، كتب ماركس فى «البيان التأسيسى لجمعية الشغيلة العالمية» (الاممية الاولى) مشيرا الى دور البروليتاريا الانجليزية الفعال فى درء تدخل انجلترا فى الحرب الاهلية بين الشمال والجنوب فى الولايات المتحدة الاميركية الى جانب ملكى العبيد : «فليست حكمة الطبقات السائدة ، بل المقاومة الباسلة من جانب الطبقة العاملة فى بريطانيا لجنونها الاجرامى هى التى انقذت اوروبا الغربية من مغامرة حملة صليبية مخزية لاجل تخليد ونشر العبودية فى الجانب الآخر من المحيط الاطلسى» * . وفى رسالة بتاريخ ٢٧ ايلول (سبتمبر) ١٨٧٣ الى زورغه ، الاشتراكى الالماني البارز ، تحدث ماركس عن هجوم الاوساط الحاكمة الاوروبية على الطبقة العاملة بعد هزيمة كومونة باريس سنة ١٨٧١ ونعت اعمال القمع الحكومية هذه قائلا : «عندما تشن الرجعية حملتها الصليبية . . .» * * ؛ ذلك ان اعمال القمع كانت تتستر وراء دوافع حماية النظام العام ووقاية المجتمع المتمدن من «المشاغبين الحمر» ، وما الى ذلك . ومثل ماركس ، تحدث بالمعنى ذاته الكتاب الديموقراطيون الذين تعاطفوا آنذاك مع قضية الكومونة .

واستعمل انجلس تعبير «الحملة الصليبية» فى النضال ضد اعداء الماركسية الذين يرتدون الالبسة الاشتراكية . وفى مقالته «عن السلطان» (سنة ١٨٧٤) قال ردا على حملات اولئك الاشتراكيين المزعمين على فكرة ديكتاتورية البروليتاريا : «شن بعض الاشتراكيين فى الآونة الاخيرة حملة صليبية حقيقية ضد ما يسمونه بمبدأ السلطان» * * * .

وهذا المعنى التشهيرى ضمنه لينين مفهوم «الحرب الصليبية» . مثلا ، فى معرض وصف نهوض الحركة التحررية لبروليتاريا ارلنده عشية الحرب العالمية الاولى ، وصم بالخزى والعار الاوساط الرجعية فى البرجوازية الارلندية ، لانها ، بمبادرة من رب العمل مارفى من دوبلن ، وجهت سلسلة من الملاحظات ضد النقابات التقدمية وزعمائها لاركن والآخرين ؛ وقد كتب

* ماركس ، انجلس . منتخبات فى ثلاثة مجلدات . دار التقدم ، المجلد ٢ ، الجزء ١ . ص ١٣ .

* * ماركس ، انجلس . رسائل مختارة . دار التقدم ، ص ٢٠٧ .

* * * ماركس ، انجلس . منتخبات فى ثلاثة مجلدات . المجلد ٢ . الجزء ٢ ،

ص ١٦١ .

يقول : «لقد أعلن مارفى الحرب الصليبية للبرنجوازية على لاركين و«اللاركينية»» .

وهذا التقليد فى استعمال تعبير «الحرب الصليبية» قصد الفضح والتشهير قد واصله رجال الحركة الشيوعية البارزون ، انصار الديموقراطية والسلام فى العهد المعاصر ، نافخين فى هذه الصيغة القروسطية حياة جديدة ، ولكنها مغايرة تماما بالمقارنة مع الحياة السابقة .

وغير مرة لفت العالم المجيد ، مؤسس حركة انصار السلام فريدريك جوليو - كورى الانتباه الى خطر بعث جو «الحرب الصليبية ضد الاشتراكية» بعد هزيمة الفاشية فى الحرب العالمية الثانية . وقد دعا الى «نبذ روح الحرب الصليبية»، ووضع حد لمحاولات اخنام التعايش السلمى «لاثارة التعصب بين السكان واعدادهم لافطع الحروب» . «بما اننا اعداء لجميع الحروب الصليبية ، فاننا سنناضل ضد الكذب ، ضد الخرافات والآراء الباطلة» . هكذا قال جوليو - كورى وظل امينا لهذا الشعار حتى ايامه الاخيرة . ومن الممكن ايجاد الكثير من الامثلة المماثلة فى اقوال قادة الحركة الشيوعية العالمية، وقادة الحزب الشيوعى السوفييتى البارزين .

ان ميدان الاستعمال الادبى والسياسى والعلمى المجازى لمفاهيم «الحلقة الصليبية» واسع ، ومن الممكن توضيحه بكثرة من الامثلة المشابهة . ولكننا نجد احيانا ادراكا مغايرا ، مناقضا تماما «للمفاهيم الصليبية» ، وذلك حين يعنون قضية عامة طيبة ، صالحة ، خيرة ، عادلة .

وهذا يصح اساسا على الصحافة السياسية والادب فى اوروبا الغربية والولايات المتحدة الاميركية ، حيث لا يزالون يفسرون الحروب الصليبية فى اغلب الاحوال بوصفها بالضبط مثالا على الخدمة المنزهة ، والمفعمة بالالهام الصادق ، لاهداف لائقة تماما . وحيانا يلجأ حتى الادباء والفنانون ذوو الميول التقدمية فى منتوجاتهم الى صور ومقارنات موشحة بهذا الضرب من التصورات (التي ترقى الى زمن الرومانطيقية ، الى اوائل القرن التاسع عشر) . البطل الرئيسى فى رواية الكاتب الاميركى العالمى الشهيرة ارنست هيمنغواى «لن تقرر الاجراس» ، الديموقراطى الاميركى ، المقاتل فى اللواء الاممى ، روبرت جوردان ، الذى حارب ببسالة كتفا الى كتف مع الجمهوريين الاسبان ضد الفاشيين فى اسبانيا (١٩٣٦-١٩٣٩) شعر ، كما يقول الكاتب ، بانه يشترك فى حرب صليبية . فقد كتب هيمنغواى كاشفا انحالات بطله قبل الاشتباك مع العدو : «انها الكلمة المناسبة الوحيدة مع ان الاستعمال قد بلاها وابتذلها الى حد ان معناها الحقيقى قد ضاع من زمان» .

ثم يصف هيمنغواي حالة المقاتل الاممي النفسية بالتعابير التالية : «شعر» روبرت جوردان «بذلك الشعور الذي كان يتوقعه فسي يوم تناول القربان المقدس للمرة الاولى . كان ذلك شعور الواجب الذي اخذه على عاتقه امام جميع المظلومين في العالم ، شعورا من المخرج والصعب التحدث عنه كما من المخرج والصعب التحدث عن النشوة الدينية ، ولكنه مع ذلك حقيقى مثل الشعور الذي تشعر به حين تسمع باخ او حين تقف وسط كاتدرائية شارتر او وسط كاتدرائية ليون وترى كيف يتساقط النور عبر الزجاج الهائلة او حين تنظر الى لوحات مانتينيا وغريكو وبريغل في برادو . ان هذا الشعور قد حدد مكانك في شيء ما ، فيما آمنت فيه بلا تحفظ ولا تردد ، وفيما انت ملزم له باحساس القرابة الاخوية مع جميع الذين اشتركوا فيه مثلك . كان شيئا لم تعرفه اطلاقا من قبل ، ولكنك عرفتة الآن ، واصبح مع الاسباب التي ولدته مهما بالنسبة لك الى حد ان موتك اصبح الآن لا معنى له ؛ واذا حاولت ان تتهرب من الموت ، فليس ذلك الا لكى لا يعيقك عن اداء واجبك» .

وهكذا نرى ان هيمنغواي يشبه بصورة مجازية مشاعر روبرت جوردان بانفعالات «المناضلين من اجل الايمان المسيحى» الذين كانوا يقاتلون اعداءهم حتى الموت ايفاء للنذر الدينى - اى لانتقاذ المقدسات الفلسطينية . للشاعر الالماني البارع والمناضل ضد الفاشية برتولد بريخت قصيدة مفعلة بالماساوية اسمها «حملة الاولاد الصليبية» (او الحملة الصليبية الطفولية) . وقد نظمها فور ان بدأت الجحافل الهتلرية تسفك دماء اوروبا . وقد كانت بولونيا من اولى البلدان التي تعرضت للغزو الفاشى .

فى بولونيا سنة ١٩٣٩
دارت رحى معركة دامية ،
محولة البيوت الى القاص ،
حارقة القرى الى النهاية .
الاخت فقدت اخاها ،
الزوجة كفت عن الانتظار ،
الطفل لم يستطع وسط الركام
ان يجد والديه .

ويروى الشاعر اسطورة رهيبة مفادها ان اولادا يتامى تجمعوا من شتى انحاء الارض البولونية المعذبة التي داستها الجزومات الفاشية ، وشكلوا

فصيلة من زهاء خمسين شخصا ، واندفعوا الى حيث تنظر عيونهم ، بدافع واحد فقط ، هو ان يتخلصوا من الاهوال التى انقضت بها عليهم بليسة الحرب .

انهم فى الطريق يحلمون
بالوصول الى موطن
لف النسيان فيه مخاوف الليل
وساد فيه السكون عوضا عن الحرب .

جميعهم («وكان بينهم الكاثوليكي والنازى والبروتستانتى») وحدتهم المصيبة المشتركة والسعى المشترك : ان يتخلصوا من الجوع والبرد والرصاص والقذائف والدبابات ، ان يجدوا مأوى فوق الرأس ، والخبز والسلام . تاهوا عبر العاصفة الثلجية ، من عزبة مدمرة الى عزبة اخرى ، دافنين الرفاق الذين ماتوا فى الطريق :

يبحثون عن ارض لا حرب فيها ابدا ،
وحل فيها السلام الى الابد ،
وابعد فابعد يتيهون ، وصفهم
يصبح لامتناهيا .

وفى آخر المطاف ، يموت الاولاد المتجمدون برذا وجوعا قبل ان يجدوا «موطنا وطريقا» . . .

ان قصيدة بريخت احتجاج غاضب ومر على الهمجية الفاشية والحرب التى رافقتها . ويسمى الشاعر بصورة رمزية المشتركين فى الحملة «بالصليبيين» . هذا التشبيه اوحى له به ذكريات تاريخية : فيما مضى ، فى القرون الوسطى وقعت بالفعل «حملتا الاولاد الصليبيتان» ؛ فان الاولاد من فرنسا والمانيا الذين تملكهم اليأس بسبب البؤس والجوع قد انطلقوا مع الكبار الى «انقاذ» الارض المقدسة من المسلمين املا فى ان يجدوا هناك ، فى الشرق البعيد ، كما اوحى الكنيسة ، مصيرا افضل . ومثل هؤلاء ، اتجه الصغار - «الصليبيون» سنة ١٩٣٩ هم ايضا باتجاه الجنوب . ومثل هؤلاء ، سقط الفتيان - «الصليبيون» سنة ١٩٣٩ ضحايا للحرب ، ووجدوا فى حملتهم الموت وليس الخلاص .

ان الحملة الصليبية هنا انما هى بنحو او آخر مفهوم يعنى شيئا ما منقذا ، موشحا بالحلم فى الخلاص من الاعباء والمشاق . ان النماذج

المأساوية التي ابتدعها خيال الشاعر لاولاد يسعون الى بيلغوراي حيث لا سفك الدماء ولا ويلات الجوع قد اكتسبت حياة جديدة في موطن بريخت .
ففي صيف ١٩٧٦ عرضت في برلين ، فسي معرض فن الصغار ، بين المعروضات الاخرى ، المجموعة النحتية المعبرة ، التي صنعها تلامذة احدى مدارس جمهورية المانيا الديموقراطية «حملة الاطفال الصليبية (حسب بريخت)» .

عندما نشبت «الحرب الباردة» ، برز عازف الفيلونسيل والموسيقار الشهير من كاتالونيا بابلو كازالس في عداد المناضلين الافذاذ من اجل السلام . وقد وضع اوراتوريو بكلمات قصيدة الشاعر الكاتالوني جوان الافدار الميلادية ، واخذ يطوف مع هذا الاوراتوريو على عواصم مختلف البلدان . وفيما بعد قال للكاتب الاميركي البرت كان : «في هذه الموسيقى بحثت عن وسيلة لحمل الناس على امان الفكر في تلك الآلام التي تعانيها البشرية ، وفي خطر الحرب النووية الرهيب ، وفي امكانية التمتع بالسعادة في الارض - حسب الناس فقط ان يتحدوا جميعهم كالاخوة في العمل السلمى» . وقد نعت كازالس في ذكرياته جولاته الفنية في ذلك الزمن بانها «حرب صليبية من اجل السلام» ، حرب كانت الموسيقى سلاحه الوحيد فيها . وهكذا ، استعملت صيغة «الحرب الصليبية» في هذه الحال ايضا كرمز لقضية نبيلة ، خيرة تستهدف بلوغ الخير الاسمى الا هو السلام .

ولكن الكتاب والعلماء ورجال الثقافة التقدميين هم على العموم براء من هذه الارتباطات الذهنية . وهذه الارتباطات لم تترسخ كذلك في الادب الاجتماعى والسياسى التقدمى .

اما المؤرخون والكتاب والساسة الذين يعملون في خدمة الطبقات السائدة في الغرب ويسترضون الاوساط الرجعية في الكنيسة الكاثوليكية ، فلا يندر لهم حتى الآن ، على العكس ، ان يجهدوا لتضمين مفهوم «الحرب الصليبية» ومفهوم «الصليبيون» مضمونا ايجابيا . وبقلهم يتحول المشتركون فى الحروب المقدسة للمسيحية الى معيار للنبل ، ويظهرون صورة مجسدة للاخلاص للمثل العليا ، ومثالا للتفانى والبطولة والنزاهة ، الناجمة ، كما يزعم ، عن الايمان الدينى الصادق .

اثمة مبرر لمحاولات تبرير الحروب الصليبية التاريخية وبالاخرى لتعظيمها ، وتصويرها بصورة ماثرة جديرة بالتمجيد اجترحتها المسيحية الغربية ، وقدمت للحضارة العالمية خدمة تفوق التقدير ؟ ام ان هذا ضلال واربا حتى خداع واع ، مقصود ، ملفق لاجل تمجيد الفاتحين الذين ستروا

انانيتهم وجشعهم بعلامة الصليب ؟ اولم يكن على حق الملحد العظيم من القرن الثامن عشر الفيلسوف بول هولباخ حين كتب بسخرية في مؤلفه «علم اللاهوت الجيبى» : «الحروب الصليبية حروب مقدسة منظمة بأمر من الباباوات بغية تحرير اوروبا من العديد من الانذال الاتقياء الذين مضوا بشجاعة يقتربون جرائم جديدة فى اقطار اخرى لكى يحصلوا من السماء على غفران الجرائم التى اقترفوها فى اوطانهم» ؟

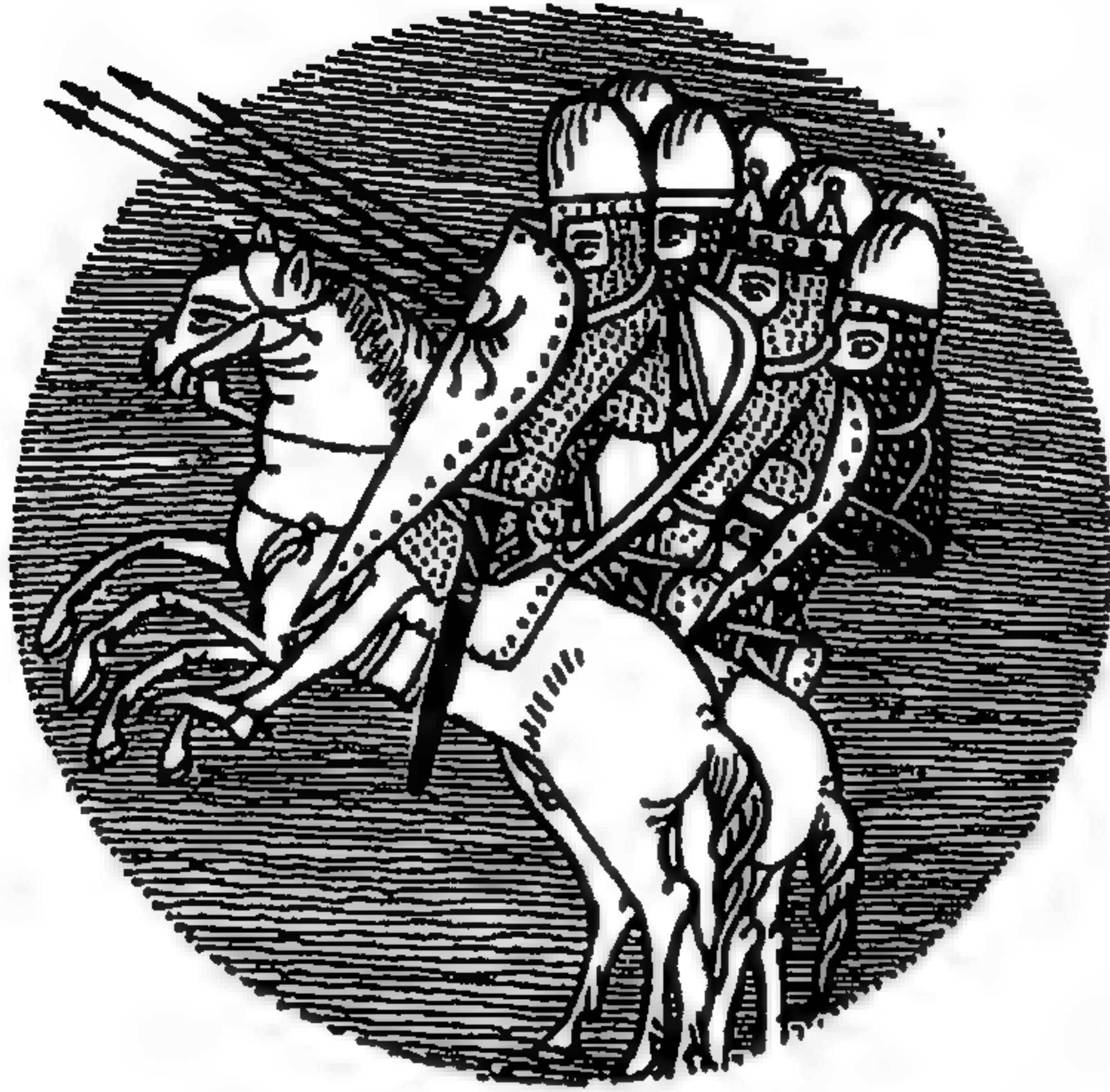
وهكذا ينبغى تحليل الاحداث التى وقعت منذ قرون ، وذلك على الاقل ، لاجل فهم وضع الامور الفعلى فهما صحيحا . ان الحروب الصليبية التى صارت طى الزمن تتصرم بكليتها فى الماضى ؛ فهى وثيقة الارتباط ، وان بصورة غير مباشرة ، بالعهد المعاصر ، ولا سيما بالصراع الايديولوجى والسياسى الجارى على الصعيد العالمى . وهذا ما يفسر ، فى كثير من النواحي ، الاهتمام المتواصل - سواء عندنا فى الاتحاد السوفييتى ام فى الخارج - بالحروب الدينية التى وقعت فى القرون الوسطى ، والخلاف الذى لا يزال قائما بين المؤرخين فى فهم الحروب الصليبية ، والمحاولات العديدة لتسليط النور كل مرة على تاريخها من جديد وفقا لحدث منجزات المعرفة التاريخية . وليس من قبيل الصدفة ان ظهر فى السنوات الاخيرة عدد كبير من البحوث فى هذا الموضوع فى البلدان الاشتراكية وفى البلدان الرأسمالية وفى البلدان النامية . ان تاريخ الحروب الصليبية يشغل العقول كثيرا ، وليس فقط فى اوروبا والولايات المتحدة الاميركية ؛ فعنه يكتبون ايضا فى آسيا وافريقيا وحتى . . . فى اوستراليا . ولا يكتبون لاجل ترضية حب المعرفة العلمية فقط .

وبما ان سوريا ولبنان وفلسطين ومصر كانت هدف الحروب الصليبية المباشر ، فان تاريخ هذه الحروب قد اجتذب من قديم الزمان ، عدا العلماء ، السياسة والديپلوماسيين والجواسيس من الدول الامبريالية ، جميع الذين ساعدوا الاحتكارات بكل قواهم على ابقاء شعوب الشرق الادنى فى ربة النير الاستعماري . ولا يخلو من الطرافة ، مثلا ، ان الجاسوس الانجليزى الشهير لورنس ، الذى تظاهر طوال حياته كلها بانه «صديق العرب» ، قد اختار ، حين كان طالبا فى جامعة اوكسفورد ، موضوعا لاطروحة الشهادة ، «تأثير الحروب الصليبية فى الهندسة المعمارية الحربية القروسطية فى اوروبا» . ولاعداد هذه الاطروحة ، راح صاحبها ، المتخصص فى علم الآثار ، الى لبنان وسوريا ودرس فيها جميع قلاع الصليبيين وقصورهم ، والاصح ، الانقاض التى بقيت منها .

وهكذا يتشابه العلم مع السياسة بكل وثوق في دراسة تاريخ الحروب الصليبية . ولهذا نجد في مؤلفات الباحثين البرجوازيين ، الحافلة بالوقائع ، تصورات مشوهة كثيرة عن تلك الصفحة من الواقع القروسطي التي دخلت التاريخ تحت اسم «الحروب الصليبية» .

ان هذا الكتاب الذي تقدمه للقراء لا يدعى بكمال عرض الوقائع ؛ فهو مفرط في الصغر لهذا الغرض . ومهمته ان يستعرض بالخطوط الكبرى احداث «الحروب المقدسة» وان يساعد بالتالى فى توضيح طابعها الحقيقى وجوهرها الفعلى .

نشوب الحروب الصليبية



استمرت الحروب الصليبية في الشرق مائتي سنة تقريبا ، من اواخر القرن الحادى عشر الى الثلث الاخير من القرن الثالث عشر . وقد كانت بصورة رئيسية حروب الفرسان . واسميت بهذا الاسم لان الذين اشتركوا فيها كانوا ، حين يتجهزون لمحاربة المسلمين (الأتراك والعرب) ، يخطون على ألبستهم - على الصدر او على الكتف - علامة الصليب من قماش احمر ، رمزا للدوافع والاهداف والنوايا الدينية ، وقوامها تحرير فلسطين ، اى الارض المقدسة فى تصورات المسيحيين ، من سلطة الكفار ، لان يسوع المسيح ، مؤسس الدين المسيحى ، كما تقول الاناجيل ، قد ولد هناك ، وعاش وصلب وسُمِّرَ على الصليب .

ولكن المعاصرين كانوا يجهلون تماما مفهوم «الحرب الصليبية» . ففى القرون الوسطى كان يشار الى هذه الحرب بمصطلحات اخرى - peregrinatio (الترحل ، التطوف ، التجوب) expeditio (الحملة) iter in Terram sanctam (الطريق الى الارض المقدسة) ، «التجوب ما وراء البحار» «السير على درب

الرب» . اما مصطلح «الحرب الصليبية» («الحملة الصليبية») ، فقد ظهر على تخوم الازمنة الحديثة . ففي فرنسا ، حسبما يبدو ، كان المؤرخ فى بلاط لويس الرابع عشر ، لويس ممبر ، اول من استعمله ، مسميا مباشرة بحته فى هذا الموضوع «تاريخ الحروب الصليبية» (سنة ١٦٧٥) ؛ وفى المانيا ، كما يفترض ، يعود تعبير «الحرب الصليبية» الى المنور الشهير ليسينغ . ولكن هل من الصحيح الظن ان الحروب الصليبية لم تكن تنطوى دائما وبالنسبة للجميع الا على الاهداف المعلنة فيها وعنهما ؟ واذا لم يكن من الصحيح ، فما هى اذاً الاسباب الحقيقية لذلك النزاع الذى لا سابق له - من حيث الابعاد والمدة - بين الغرب والشرق فى القرون الوسطى ؟ وعم نجمت تطلعات اقطاعيى اوروبا الغربية فى اواخر القرن الحادى عشر ومطامحهم العدوانية ؟ واى دور لعبه فى الوضع آنذاك الدين المسيحى الذى كان يسيطر على العقول والارواح فى اوروبا الغربية ، ولعبته الكنيسة الكاثوليكية التى كانت مركزا عالميا للنظام الاقطاعى ؟ كيف تكونت العلاقات المتبادلة بين الغرب الكاثولىكى من جهة ، والشرق الارثوذكسى والمسلم من جهة اخرى ؟ ان دراسة هذه المسائل فى صلتها الداخلية تتيح لنا ان نفهم المقدمات التاريخية والمنابع العميقة «للحروب المقدسة» التى خاضها الفرسان الاوروبيون فى الشرق .

ازمان الفتن

فى القرن الحادى عشر ، توطد نظام الاقطاعية والقنانة نهائيا فى بلدان اوروبا الغربية . وفى الوقت ذاته اخذت المدن تظهر وتتنامى ، ومعها بدأت العلاقات التجارية تتطور وترسخ تدريجيا ، - لا يــــن المدينة واقرب المحلات الريفية اليها وحسب ، بل ايضا على نطاق اوسع ، اى بين تجار اوروبا الغربية (ولاسيما منهم الفرنسيون الجنوبيون والايطاليون) وتجار بلدان البحر الابيض المتوسط ومنها بيزنطية ومصر وسوريا ولبنان . ثم ان الاقتصاد الطبيعى (العينى) الذى كان من قبل يحدد كليا سيماء الغرب القروى الاقتصادية ، اخذ يتراجع شيئا فشيئا . وطفقت النقود تتقحم حياة المجتمع الاقطاعى - حياة الفلاحين الاقنان ، وحياة الفرسان العائشين من ثمار عمل هولاء الفلاحين - بقدر اكبر فاكبر من التسلط والتحكم . ونظرا لذلك ، تغير مستوى حاجات الطبقتين الطبيعية وتغيرت بنيتها . فمن قبل كان الاقطاعيون يكتفون بالجزية العينية والسخرة من الاقنان . ومع ظهور المدن ،

وتطور التجارة ، تعاظمت شهوات الاسياد الاقطاعيين ومطامعهم ، فصاروا اشد تطلبا ، وطفقوا يزدون سنة بعد سنة من ابتزاز الاموال ، وادخلوا هنا وهناك فريضة المدفوعات النقدية عوضا عن الجزيات العينية ، الامر الذى كان مرهقا اقصى الارهاق بالنسبة للفلاحين . وعند جباية الفرائض كان الاقطاعيون يتحكمون ويستبدون بملء هواهم . ومن جراء ذلك ، كاد الفلاحون ، فوق ما هم عليه من فقر ، يتجاوزون باغليبتهم حدود البؤس المدقع ، وينزلون الى مهاويه .

وكانت الحروب الداخلية المتواصلة التى نشبت فى كل مكان فى القرنين العاشر والحادى عشر فى الغرب عاملا لا يستهان به من عوامل املاق الريف . وفى ذلك الزمن ، كانت بلدان اوروبا تعاني من سوء المواسم الزراعية ، ومن شتى ضروب الكوارث الطبيعية . كما كانت المجاعة تسود فى كل المناطق . وبلغت الامور حتى اكل لحم البشر . فان الراهب المؤرخ رادولف غلابر ، مثلا ، يذكر حالات كانوا يأكلون فيها اجسام الموتى . وامسى الجوع يحل اكثر فاكثر فى الريف فى اواخر القرن الحادى عشر ، اى فى ذلك الزمن العصيب الذى سماه المؤرخون «بالسنوات السبع العجاف» . وهذه السنوات سبقت الحروب الصليبية مباشرة . ومن سنة الى سنة ، اخذت المدونات والحوليات التاريخية تذكر بضمن وشح ، المعلومات ذاتها تقريبا . وقد نعت الراهب سيغبرت من جامبلو سنة ١٠٨٩ بسنة «الطاعون» ؛ فان وباء «الطاعون النارى» (المرض البذيرى) الذى ينشأ عادة فى سنوات قحط الموسم الزراعى قد حمل الموت المؤلم الى العديدين من سكان اللورين ، وحول كثيرين آخرين الى مشوهين ومقعدين . وفى السنة ذاتها ، وقعت هزات ارضية فى المانيا الشمالية وفى برايان ؛ وفاضت الانهر فى بعض الانحاء ، الامر الذى اشارت اليه حوليات دير القديس يعقوب وغيرها من المدونات التاريخية . وتذمر سيغبرت من جامبلو من ازدياد جدوبة التربة فى سنة ١٠٩٠ واعرب عن المخاوف بصدد «الجوع الزاحف تدريجيا» . وكتب المؤرخ الالماني ايكهارد من اورا عن مرض رهيب اصاب الناس والمواشى معا فى سنة ١٠٩٢ ، ونجم عن الجوع وعن النقص الى المنتوجات الغذائية والاعلاف اللذين تسبب بهما القحط الناشئ بدوره من برد الربيع . وفى اول نيسان (ابريل) تساقط الثلج . وكان الصقيع والجليد ، على حد قول برنولد سان بليه ، كما فى الشتاء . وسنة ١٠٩٣ تميزت انجلترا بالعواصف وسوء الطقس : ففي الربيع فيضانات ، وفى الشتاء صقيع قارس ؛ وقد

تجمدت وهلكت جميع المبذورات . وفى السنة ذاتها كانت الغلة فى المانيا ضئيلة ، وجاع الالمان .

وفى معرض الكلام عن الاحداث المشهورة فى سنة ١٠٩٤ ، اشار المؤرخون الى الوفيات بالجملة من جراء الوباء الشامل الذى شمل بلداناً مختلفة . ففي ريغنسبورغ ، مات فى ١٢ اسبوعاً ٨,٥ آلاف نسمة ؛ وفى احدى القرى مات فى ٦ اسابيع ١٥٠٠ شخص ، وفى قرية اخرى ٤٠٠ شخص . وانتقل الوباء من المانيا الى فرنسا وبورغونيا وايطاليا . ومن جديد تسببت الهواطل الغزيرة للموسم الزراعى بضرر فادح . وفى اراضى هولندا استمرت الفيضانات من تشرين الاول (اكتوبر) ١٠٩٤ الى نيسان (ابريل) ١٠٩٥ . وفى فرنسا الجنوبية ، وجزئياً فى المانيا ، كان الجوع قد خف ، ولكنه انفجر بقوة جديدة فى فرنسا الشمالية وفى انجلترا . ويفيد الراهب والمؤرخ النورماندى ، اورديريك فيتالى (الذى كتب ، والحق يقال ، فى القرن الثانى عشر ، ولكنه اعتمد على شهادات شهود العيان ، وعلى وثائق كثيرة وعلى الادب المعيشى من زمن ابكر) ان «الجفاف الرهيب حرق العشب فى المروج واباد السنابل والخضراوات وتسبب بالتالى بجوع فظيع» . وفى سنة ١٠٩٥ ، «كانت نورمانديا وفرنسا مرهقتين بنسبة عظيمة من الوفيات افرغت الكثير من البيوت» ، ودفع الجوع الاقصى البلى الى اقصى الحدود» .

ويتحدث المؤرخون جميعهم تقريبا عن العوز الشديد الذى ساد فى الغرب بسبب قحط المواسم الزراعية والكوارث الطبيعية والابوثة الفتاكة وجائحة المواشى .

ولكن النير الاقطاعى كان يشتد اكثر فاكثراً ، ويشير استيلاء الفلاحين المشروع . واحياناً كان الزراع الذين عذبهم العوز والجوع يحرقون الضياع ويخربونها وينكلون بالاسياد الاشد مدعاة للكره . ولكن احتجاج الفلاحين الاقنان العفوى كان فى معظم الاحوال يتخذ اشكالا سلبية ، هامة . واحياناً كان الفلاحون ينزحون قرى بكاملها من الاماكن المألوفة الى حيث تقودهم الصدفة . كان فرار الفلاحين ظاهرة جماهيرية فى القرن الحادى عشر . وعنها تروى الشهادات ومدونات الاخبار ، وسير القديسين ، وغير ذلك من الآثار الادبية . كان الفلاحون يفتشون فى الفرار عن الخلاص من الابتزاز والبص بالعرف ، ومن غارات العصابات الاقطاعية اللصوصية ، ومن الجوع الضار والابوثة الفتاكة . وفى الوقت ذاته ، كانت تشتد مختلف مظاهر التقشف والزهد الدينى ، ويشتد الميل الى دخول الدير ، والنسك ، ولاسيما على امتداد «السنوات السبع العجاف» ، حين انتشرت فى بلدان اوروباً «روح

النسك والزهد» الحقيقية . ان هذه السيمة من سمات النفسية الاجتماعية السائدة في الفئات السفلى من المجتمع مهمة جدا لفهم اسباب الحروب الصليبية ؛ فهي تفسر في كثير من النواحي قابلية الجماهير الواسعة لفكرة المأثرة الدينية .

ان تعاضم الميول الدينية في الريف قد نجم عن ظروف حياة الفلاحين الاقنان التي لا تطاق . فان الاقنان كان يسحقهم العوز ، وتضغط عليهم التبعية الشخصية حيال السيد ، وكانوا مهانين واذلاء بسبب جهلهم . وهذا الجهل كان رجال الدين الكاثوليك يحافظون عليه ويطالبون الفلاحين بالصبر الطويل والاستكانة لاسياد ، ويبثون الخوف من نيران جهنم . وبموجب التعاليم المسيحية كانت عذابات جهنم تنتظر فـسـى «العالم الآخر» العصاة والمتوردين على السلطات . كان الفلاح الجاهل والامى الذى اعتاد على العوز والذى لم ير شيئا ابعد من كوخه ، يتقبل ويدرك البلايا الاجتماعية والطبيعية من خلال موشور مفهومه البدائى . قحط الموسم الزراعى ، الجوع ، «الطاعون النارى» الذى يسوق زوجته واولاده الى القبر - كل هذا كان يتصوره بصورة عقاب من السماء نزل عليه من اعلى بسبب خطايا مجهولة . ومن هنا نشأت عفو الخاطر فكرة ، والاصح القول ، شعور غامض يأنسه لا يمكن التخلص ، اغلب الظن ، من العذابات اليومية الدائمة الا بطلب الرحمة من الرب الغاضب . ولكن باى نحو ؟ قبل كل شيء ، باجتراح مأثرة ما ، خارجة عن المالوف ، بطولية - ولكن بالمعنى الدينى على وجه الدقة ، - لاجل «التكفير عن الذنوب» ، لاجل «غفران الخطايا» ، من نوع الاستشهاد باسم الايمان ا

وهكذا انعكس التحرق الى الخلاص من اضطهاد الاسياد ، والسعى الى خلع سلاسل القنانة والتفلت من براثن العوز فى دماغ الفلاح المرهق بمشقات العيش انعكاسا فاسدا ، مشوها ، وتحولا الى رغبة عارمة فى اجتراح مأثرة دينية .

وكانت التطورات الاقتصادية ، كما سبق ان قلنا ، قد مست الطبقة السائدة ايضا . وكانت امكانيات تلبية الحاجات الجديدة على حساب الاقنان محدودة للغاية ، فسلكت الاقطاعيون سبيل الاستيلاء على الاراضى . وكانوا ، بدافع اية ذريعة ، مهما كانت تافهة ، يشنون الحروب الدامية المتواصلة فيما بينهم - اى «الفيد» . ولجل شن الحروب بنجاح كان يتعين على الاسياد ان يمولوا عددا عديدا من الاتبياع - الفرسان (تابع مُقْطَع - vassal) الملزمين باداء الخدمة العسكرية له . ولقاء الخدمة كان ينبغى المكافأة بعقار .

ولكن الاراضى الحرة فى الغرب لم يبق لها وجود . ولهذا دخل كثيرون من الاسياد الميالىن الى القتال طريقا مسدودا : اين يحصلون على العقارات والاقنان ، من اين يأخذون الاموال التى لم يبق بمقدور الاقنان ان يؤمنوها ، رغم جميع الاسباب على اختلافها ؟

ثم ان الوضع ازداد تعقدا لكون عقارات المالكين الصغار والمتوسطين اخذت تصبح اكثر فاكثر غنيمة للطواغيت الذين كانوا يستولون على هذه العقارات فى زمن «الفيد» . وفى الحاصل تشكلت فى الغرب شريحة واسعة من الفرسان الذين لا يملكون ارضا . وهذا ما اسهم به كذلك نظام وراثية الاقطاعات — نظام البكورة (او حق البكورة) — ومفاده انه لا يجوز تقسيم ممتلكات السيد بعد وفاته على ابنائه ، بل يجب ان تعود بكليتها الى الاكبر (البكر) بينهم . اما الباقيون ، فلم يكونوا يرثون سوى الاموال المنقولة — الخيل ، والدروع والخوذ ، والاسلحة ، والالبسة . وظهر فى عائلات الاقطاعيين عدد لا يستهان به من الابناء الاصغر سنا المحرومين من الارض — وكانوا احيانا يلقبونهم القابا سخريه ولكنها تتطابق تماما مع وضعهم الحقيقى ، وتصبح فيما بعد القابا عائلية : «بلا ارض» ، «المعدم» . وغدا اقتناء العقارات حلم اخلاف الاعيان هؤلاء . وكان الفرسان يعتبرون ، بالطبع ، العنف المسلح اسهل وسيلة لاصلاح امورهم . فعمدوا افرادا وعصابات الى التجوب فى الاراضى المجاورة والبعيدة ، واخذوا يهاجمون القرى ، وينتزعون من الفلاحين كل ما كانت تقع عليه ايديهم . بل انهم كانوا لا يترددون عن قطع الطرق وسلب المسافرين . وقد امست بعض القصور اوكارا لصوصية حقيقية ومأوى لعصابات الفرسان . واحيانا كانت هذه العصابات تتجاسر على شن الغزوات على العقارات الكبيرة ايضا . وقد كانت الممتلكات الغنية لدى الكنائس والاديرة الطعم الاكثر اغراء .

ان اعمال العنف التى كان يقترفها الفرسان المنحطون كانت تستكمل خراب الفلاحين ولكنها كانت تتسبب بالضرر لعقارات الكنائس والاديرة التى لم تكن تتوفر لها الحماية المسلحة الكافية . وفى قلب الطبقة السائدة نشب الصراع ، الامر الذى بث القلق فى اوساط الفئات العليا الحاكمة من المجتمع الاقطاعى فى الغرب ، واجبرها على البحث عن مخرج ما من المصاعب الناشئة . بوار المواسم الزراعية ، المجاعات ، الوبئة ، فرار الفلاحين بالجملة ، واحيانا انتفاضاتهم («الفتن» ، حسب تعبير مدونى الاخبار) ، ناهيك عن لصوصية الفرسان «المعدمين» وتعسفهم ، والنزاعات بين الاقطاعيين والتكتلات الاقطاعية . . .

وقد نشأ في أوروبا وضع مقلق ، وضع زمن الفتن ؛ فان الحياة الاجتماعية اخذت تكتسب طابعا اقل فاقل استقرارا . وبعد فترة من الوقت ، كتب اورديريك فيتالي عن هذه العقود من السنين : «الفتن والهموم الحربية شغلت بال المعمورة كلها تقريبا (كان الغرب في تصوره يعنى العالم كله ! - المؤلف) . وكان الناس ينزلون بعضهم ببعض بلا شفقة افدح المصائب بعمليات القتل والنهب . وبلغ الشر بجميع صوره اقصى الحدود وتسبب لمن قام به ببلايا لا عد لها» .

ان مصالح الاقطاعيين الملحة والحيوية قد طرحت امامهم بوصفهم طبقة مهمة عاجلة قوامها البحث عن اسلوب لحل القضايا الناشئة يتيح لهم تلبية حاجاتهم المتعاضمة الى الاراضى والايدي العاملة الاجبارية والنقود والثروات من كل نوع ، ويخلص كبار الاسياد من مآثم صغار الفرسان ، والفرسان من مصير ونصيب المعدمين و«الذين لا ارض عندهم» ، ويثبت ويوطد في الوقت نفسه دعائم النظام القائم . وهذه المهمة لم يدركها بالطبع شخص ما بمثل هذه الصورة المحللة والمفهومة بدقة ووضوح ، بل ظهرت كضرورة عملية ، ناجمة في هذا الصدد او ذاك ، ولكنها كانت على العموم تصبح اكثر فاكثرا الحاحا .

وقد كانت الكنيسة الكاثوليكية الابعد نظرا في المجتمع الاقطاعي ، فاخذت على عاتقها ان تنتشل وتخلص الطبقة السائدة من البلايا الزاحفة عليها .

كلوئى وعدوان الفرسان

في تلك الازمان كانت الكنيسة مالكة غنية للحقول والمروج والبساتين ، وكانت تستثمر الفلاحين الاقنان الذين يخصصونها استثمارا وحشيا . وعدا ذلك ، كان رجال الدين يجبون بانتظام من جميع الزراع ، سواء كانوا من اتباعهم ام من الغرباء ، اتاوة عامة اخرى هي ضريبة العشر . وبما ان الكنيسة كانت اكبر ملاك عقارى اقطاعي ، فقد كانت حصنا روحيا لعموم طبقة الاقطاعيين ؛ وفي ذلك كانت تتلخص وظيفتها الاجتماعية . وكان رجال الدين يساعدون الاقطاعيين في السيطرة على الفلاحين والحرفيين ، وذلك بالوعظ بالتعاليم المسيحية التي تقول ان النظم الارضية هي من صنع الرب وانه لا يصح ولا يمكن بالتالى تغييرها ، وبمطالبة الكادحين بالخضوع التام لاسيادهم ، وبوعد الودعاء بالنعيم في الجنة بعد الموت ، وبتهديد المتمردين والعصاة بالعذابات الابدية في الجحيم . وكانت الكنيسة تدافع دائما وفي كل شيء

عن مصالح الاقطاعيين - سواء فى ميدان الايديولوجية او فى ميدان السياسة .

وعندما اخذ الاقنان فى القرنين العاشر والحادى عشر يهبون فى كل مكان ضد الاسياد او يلوذون بالفرار ، وعندما اخذت مآثم وموبات الفرسان «المعدمين» تتسبب بضرر افدح فافدح للرهبان والاكليريكيين ، قلقت الكنيسة جديا ، وقبل كل شىء على ممتلكاتها بالذات . ولوقايتها من الخطر المزدوج (من جانب الرعاع ومن جانب الفرسان) ، عمدت الاديرة حتى فى القرن العاشر - وكانت اقوى المؤسسات الكنسية من الناحية الاقتصادية - الى اجراء مختلف التحويلات . وكان مغزى هذه التحويلات العام توطيد مواقع الكنيسة ، المادية منها والمعنوية ، وتحسين تنظيمها ، وزيادة قواها ، ورفع مكانتها .

ان الحركة الكنسية الاصلاحية فى ذلك الزمن قد دخلت التاريخ تحت اسم الحركة الكلوونية ، اذ ان دير كلونى فى بورغونيا كان المبادر اليها ، وقد حاول رجال كلونى ان ينشئوا بيئة كنسية ممرزة ولذا اسهموا فى رفع مكانة السلطة البابوية التى عانت الانحطاط زمنا طويلا . وفى عداد الاصلاحات التى قاموا بها ، يبرز واحد هو منع العمليات الحربية - سواء لآجال طويلة («السلام الربانى») ام لآجال قصيرة («الهدنة الربانية») ، مثلا ، من مساء السبت حتى صباح الاثنين . ان هذا الاجراء الموجه ضد عمليات النهب والسلب التى يقوم بها صغار الفرسان وضد النزاعات المسلحة الاقطاعية ، لم يكن له مفعول بيتن . واذا ذاك طفقت الكنيسة تتلمس سبلا اخرى من شأنها ، برأى قادة الكنيسة ، ان تصون الفئات العليا من الاقطاعيين من غضب «الذين لا ارض عندهم» و«المعدمين» ، وان تحسن فى الوقت ذاته الى الاقطاعيين الفقراء ، وتروى عطشهم الى العقارات والثروات . وبقينا ان «البحوث» ذاتها كانت عبارة عن عملية عفوية كان يشترك فيها الاقطاعيون الاعيان والفرسان البسطاء . وفى كل حالة بمفردها كانوا يستهدفون اهدافهم القريبة ، المباشرة ، دون التفكير اطلاقا فى القضايا الكبيرة الابعاد ذات الطابع الاجتماعى والسياسى . ومع ذلك ، كانت اعمالهم التى تملوها اعتبارات آنية كأنما تشق طريقا يودى فى المستقبل الى ايجاد حل للقضية التى تهتم جميع الاقطاعيين . وهنا عاد دور كبير الى الباباوية التى كانت تعزز مواقعها تدريجيا .

ان لوحة اعداد الاحداث التى اطلق نداء البابا «الى الشرق !» اشارتها فيما بعد كانت معقدة ومتعددة الابعاد . وهنا يشغل مكانا خاصا الحج من بلدان

الغرب الى فلسطين ومركزها المقدس ، القدس . ان هذا الطقس المسيحي القديم الذى ظهر فى القرن الرابع ، والذى قلما كان ملحوظا على العموم فى القرون التالية ، قد انتشر بقوة هائلة فى القرن الحادى عشر . فقد اخذ يشترك فى الحج الى القدس عدد اكبر فاكبر من الناس . واخذت عمليات الحج تتكاثر وتكتسب طابعا جماهيريا . ويقول رادولف غلاير الذى تلاقى مع كثيرين من الحجاج وسمع عن غيرهم ان «جموعا لا تحصى كانت تمضى من جميع انحاء الدنيا» الى القدس . واضاف هذا المؤرخ قائلا : «من قبل لم يكن من الممكن ان يصدق احد ان هذا المكان سيجتذب مثل هذا التجمع المدهش من الناس» . ان عمليات الحج ، او زيارات الاماكن المقدسة ، اى اسفار التقى والورع قد انتشرت على درجة من السعة بحيث ان هذا قد انعكس على كل نظام قيم المجتمع الاقطاعى الروحية وفى المقام الاول على التصورات عن القداسة ، التى كانت لها اهمية كبيرة فى الايدولوجيا الاقطاعية . واصبحت عمليات الحج بمثابة قسم الزامى من الزهد والنسك ، والمشى الى القدس سمة لا غنى عنها فى سيرة اى من ابطال الادب المقدس (سيرة القديسين) . وكل من كان يريد ان يخلق ويثبت لنفسه سمعة الطاهر «الفقير بالمسيح» كان يذهب الى القدس للهدف التالى - وذلك كان على كل حال الفهم العادى لهذا العمل - وهو تكريم المقدسات المسيحية المتواجدة هناك من قديم الزمان ، والصلاة فى كنيسة قبر السيد المسيح ، والتمتع باجلال ومهابة بمشاهدة جميع الاماكن التى وطأتها ذات يوم قدم المسيح . وقد ترابطت عادة الحج فى مفاهيم العهد بممارسة سلوك النساك المقدسين الحياتى بدرجة من الوثوق الى حد انه كان لا يندر لسير القديسين ان تنسب السفر الى القدس حتى الى الذين كانوا «يكرمونه» باذاعة صيتهم كقديسين مع انهم لم يكونوا يوما فى فلسطين . واحيانا كانت سير القديسين تشير بكل بساطة الى نية قديس ما فى الذهاب الى القدس ، والى ان هذه الظروف غير المتوقعة او تلك قد حالت دون تحقيق هذه النية . وكان النية كانت بحد ذاتها تصف الاستعداد لمآثرة التقى والورع العليا .

خلاصة القول ان السفر الى الارض المقدسة قد صار قانونا فى سرد سيرة القديسين وصار واقعة ثابتة ان لم يكن الواقعة المركزية . وحقا نقول ان هذا السفر على وجه الضبط هو الذى رمز الى «تحول» الانسان العادى نهائيا الى قديس . وكان الحج كان يشكل ذروة الصعود الى قمم تلك الحياة المكرسة كليا لهماوم العالم الآخر . وقد صار اهم علامة على واقع ان الانسان قد قطع صلته بالعالم الباطل ، وغدا رمز التعود على العصمة عن الخطيئة

و«الطهارة» اللتين تؤمنان بالتأكيد الخلاص السماوى . ان الاسفار الى القطر الذى اجترح فيه فيما مضى يسوع المسيح العجائب ، والذى يحفظ الكثير من ذخائر حياته وموته ، انما كانت الكنيسة تعتبرها ماثرة كبيرة امام الله . وكان يُنسب الى الصلاة فى الارض المقدسة مفعول خاص . وكل هذا كان يضيف على القدس جاذبية كبيرة .

كانت اسفار التقى والورع الى هناك عاملا جوهريا من عوامل نشوب الحروب الصليبية . وبفضل الحج بقدر كبير ، قام فى اوروبا الغربية جو مفعم بامزجة الانقطاع عن خيرات الدنيا والندم والتكفير عن الذنوب ، جو من الزهد الدينى نبع اصلا ، كما رأينا ، من اضطراب كل الوضع الاجتماعى فى الغرب ، الذى اسفر (فى المقام الاول بين الفئات الدنيا ، وجزئيا بين ممثلى الطبقة السائدة) عن ظهور الاحساس بالاضطراب والاعتلال وعن السعى الى التغلب من المصائب الحياتية ، وان على الاقل ، فى السبل التى يفتحها الدين . وكانت عمليات الحج تسهل كثيرا على الباباوية اختيار وتعيين اتجاه عدوان الفرسان ، الاتجاه الذى كان من الممكن ان تتلاقى فيه الرغائب المتناقضة لمختلف فئات الاقطاعيين .

كانت عمليات الحج من حيث التركيب الاجتماعى للمشاركين فيها حركة مبرقشة جدا . فقد كتب رادولف غلابر يقول : «فى بادىء البعد مضى الى هناك (الى القدس - المؤلف) الشعب البسيط ثم الناس الميسورون» . وينبىء مدون الاخبار عن حالات الحج الذى قام به «الملوك الجبابرة» والكونتات والمركيزات والاحبار . كذلك كانت اهداف الحجاج الفعلية مختلفة . رغم ان الحج كان يبدو لهم انفسهم مشروعا دينيا صرفا . وكانت روح الحج عند المتحدرين من الفئات الدنيا فى القرى والمدن ، كما نعرف ، تعبيرا مغلفا بخلاف الدين عن امانى التحرر . وفى عيون الاسياد ، كان للاعتبارات الدينية كذلك وزن معين ، ولكن اكثر ما استحثهم على السفر ما وراء البحار انما هو البواعث الدنيوية ، اى الرغبة فى اكتساب سلع البذخ فى الشرق ، ورؤية اماكن جديدة ، والتخلص ، ولو مؤقتا ، من رقابة الحياة القروية مع همومها اليومية - الصيد ، والولائم الصغيرة ، والشؤون الاقتصادية . وليس عبثا يؤكد مدون الاخبار فى معرض حديثه عن حاج وجيه من هذا الطراز هو البورغوندى ليوتبالد من اوتن الذى سافر برفقة عدد كبير من الناس . ان هذا الحاج «قد قام بسفرته الى القدس ، لا بسبب الغرور مثل كثيرين غيره الذين يذهبون لى يتباهوا بذلك بعد عودتهم» .

وبالفعل ، كانت اسباب المكانة حافزا مهما بالنسبة لافراد الوسط

المذكور . وهذا ما يصح بالقدر نفسه على ذوى المراتب الكنسية العليا -
الاساقفة ورؤساء الاديرة - ام على الاسياد الدنيويين . فان اودالريك ،
اسقف اورليان ، قد اشترى ، اثناء وجوده فى القدس ، قنديلا نفيسا من
بطريك القدس مقابل رطل من الذهب . وقد كتب رادولف غلابر يقول ان
الاسقف «حمله الى اورليان لاجل تجميل كنيسة حيث عاد على المرضى بكثير
من النفع» . وهذا يعنى ان الاسقف استخدم الثروة لاجل رفع مكانة كنيسة .
والدوق روبر الاول النورماندى (الشيطان) الذى انطلق الى الشرق فى سنة
١٠٣٥ اجبر اتباعه الكبار ، قبل بداية الحج ، على حلف اليمين والاعتراف
بابنه غير الشرعى ، غليوم ابن الزنى (Guillaume le Batard) (الفاتح فيما
بعد) وريثا له . وهكذا كان الحج فى هذه الحالة ذريعة مناسبة لاجل بلوغ
هدف سياسى معين . واثناء السفر كان الحجاج من الاعيان يوزعون شتى
المجوهرات التى اخذوها معهم لهذه الغاية . وكان الاعيان يعتبرون هذه
التوزيعات وسيلة موثوقة لتوطيد نفوذهم فى اوساط الشعب البسيط ،
وكانت الكنيسة تشجع هذه التوزيعات بوصفها فعلا يرضى الله .
وعادة كانت جموع الفرسان تنضم الى كبار الاسياد . وفى سنة ١٠٦٥
انطلق من المانيا الى الحج زهاء سبعة آلاف شخص (او ١٢ الفا) . كان «الذين
لا ارض عندهم» و«المعدمون» يفتشون فيما وراء البحار عن الفرص لاصلاح
اوضاعهم ، وكان بعض منهم يرغبون فى غفران الجرائم التى اقترفوها فى
بلدهم . وواقع ان الفرسان نهبوا فى بلدهم الكنائس والاديرة لم يمنعهم
من ان يكونوا اناسا متدينين . فقد تقبلوا العقائد المسيحية على طريقتهم ،
كما فهموها ، وكيفوها للمفاهيم المألوفة على الاقطاعيين . وكانوا يتصورون
الرب بصورة المولى الاعلى الذى يكافى اتباعه الارضيين بسخاء على خدمتهم
الامينة ، ويغفر الخطايا ، ويمنح الغبطة الابدية فى الجنة . ان خلاص الروح
كان مسألة تهم الفرسان الجهلة بقدر لا يقل عما تهم الفلاحين الاقنان . وكان
الفرسان على العموم يتقيدون بكل دقة بالطقوس الكنسية ، حتى وان «كانت
قواعد الاخلاق المسيحية» ، كما لاحظ احد المؤرخين بدقة وصواب ، «تمارس
فيهم تأثيرا ضعيفا جدا» .

كل هذا يفسر واسع اشتراك الفرسان فى عمليات الحج . وهذه العمليات
كانت تلقى التحبيذ التام من جانب رجال كلونى . وكانت اخوية دير كلونى
تشجعها فى الواقع بجميع الوسائل ؛ فقد بنى رجالها على جوانب الطرق الفنادق
لاجل الحجاج ، وكانوا يجمعون بانفسهم الحجاج فى فصائل ، ويساعدون بغيرة
خاصة فى تجهيز الناس المقيمين فى جوار اديرة كلونى وفى ارسالهم الى

الحج . وبهذه الطريقة كانوا يستبعدون العناصر التي تشكل خطرا على ممتلكات الكنيسة . وبالنسبة للقتلة ، كان الحج غالبا ما يصبح ، بفضل خفة يد رجال كلوني ، اسلوبا مطبقا عمليا ، تقليديا تقريبا ، «للتطهير من الخطيئة المميتة» .

ان حركة الحج قد هيأت الحروب الصليبية فكريا وعمليا ؛ فقد اسهمت في تعاظم الامزجة والميول الدينية الزهدية ، وعرفت الاوروبيين على الطرق الى الشرق ، وعلى الوضع في البلدان الشرقية ، والرئيسي انها هيجت تعطش الاقطاعيين الذي لا يرتوى الى امتلاك الاراضى فيما وراء البحار .

وفضلا عن الحج ، هيأت الحروب التي نشبت في القرن الحادى عشر في الغرب بالذات والتي جرت احيانا هي ايضا تحت رايات دينية ، التربة من اجل التوسع الاقطاعى الواسع الى الشرق . فان الفرسان الفرنسيين ، مثلا ، قد انخرطوا في الصراع من اجل استعادة الاراضى التي سبق ان احتلها العرب في اسبانيا - الريكونكيستو (Reconquisto) . ففي سنتى ١٠٦٣ و ١٠٦٤ انطلق الى ما وراء جبال البيرينيه فرسان دوقية اكييتين ودوقية تولوز ، وهزموا العدو في المعركة بجوار برباسترو . ثم قام الجديد تلو الجديد من الحملات على اسبانيا . وفي اوائل السبعينيات تحركت الى اسبانيا وحدات من الفرسان برئاسة الكونت ايبولى دى روسى * . وعندما انتزع ملك كاستيليا الفونس السادس الجرى مدينة طليطلة من العرب في سنة ١٠٨٥ ، لم يشترك في هذه العملية الفرسان الفرنسيون وحسب ، بل اشترك فيها ايضا الفرسان الالمان . وبعد ان سحق العرب المرابطون القوات المسيحية في المعركة بجوار الزلاقة عام ١٠٨٦ ، تشكلت في فرنسا عام ١٠٨٧ وحدات اقطاعية قوية ، ترأسها هوغ (Hugues) الاول ، دوق بورغونيا وريمون دى سانجيل ، كونت تولوز ، القائد المقبل للفصائل من بروفانس في الحملة الصليبية الاولى . وقد اشترك في اعمال هذه الوحدات سيد آخر مضى بعد بضعة سنوات يحارب من اجل القدس هو غليوم شاربانتيه ، فيكونت ميلون .

وليست اسبانيا وحدها هي التي اجتذبت الضواري الاقطاعيين ، الصغار منهم والكبار . فمنذ سنة ١٠١٦ ، اخذ اخلاف الفيكينغ السكائدينافيين (النورمانيين اى الشماليين) الذين سبق ان احتلوا نورمانديا (ولذا يسمونهم كذلك بالنورمنديين) في اوائل القرن العاشر يندفعون الى الاستيلاء على

* كتابة اسماء الاشخاص والمدن والمناطق والبلدان تختلف في المطبوعات العربية باختلاف المؤلفين والمترجمين . الناشر .

المناطق الخصبة في ايطاليا الجنوبية ، وبعد صراع ضار ضد العرب وبيزنطية ، اسسوا هنا جملة من الامارات الاقطاعية ، ومن سنة ١٠٦١ الى سنة ١٠٧٢ استولى النورمنديون على صقلية ايضا . وفي سنة ١٠٦٦ ، تعرضت انجلترا ايضا لغزو كاسح قامت به فصائلهم القتالية . وفي سنة ١٠٧٣ ، استقر المغامر النورمندي روسل دي بايل ، العامل في خدمة بيزنطية قبل ذاك ، في وسط آسيا الصغرى بالذات مع مقاتليه . وهنا نشأت امارة نورمندية ، كانت النموذج المسبق للامارة التي اسسها نورمانيو* ايطاليا الجنوبية في سوريا بعد مرور ٢٥ سنة . الا ان امارة روسل دي بايل (Roussel de Bayle) لم تصمد ، والحق يقال ، سوى سنة واحدة ؛ فان هذا الامير قد وقع ، من جراء خيانة احد ابناء قبيلته ، في يد القائد العسكري البيزنطي الكسيوس كومنينوس (الامبراطور فيما بعد) ، وزالت الدولة النورمانية في آسيا الصغرى بعد حياة قصيرة ، ولكن محاولة تأسيسها واسعة الدلالة بحد ذاتها .

حفل القرن الحادي عشر كله بمغامرات جماعات الفرسان وحملاتهم اللصوصية . فحيثما كانت تنشب الحرب ، كان دائما يتواجد عدد كبير من الراغبين في اشهار السيوف املا في غنيمة سهلة المنال . وهذه الحملات العدوانية الاغتصابية استرعت هي ايضا انتباه الكنيسة . فقد استحث رجال كلوني الاسياد والفرسان الفرنسيين بجميع الوسائل على الاشتراك في (ستعادة اسبانيا (الريكونكيستو) . وحذت الباباوية بدورها هذه الحملات . فقد رأى الباباوات في الريكونكيستو وسيلة يمكن بها رفع مكانة الكرسي الرسولي ، وارسال الفرسان الى طرف اوروبا الغربية ، وتدلل محبى القتال المزعجين الى ميدان جديد للقتال ؛ فبفضل ذلك ، كانت عقارات الاعيان الدنيويين والكنسيين تتخلص ، وان جزئيا ، من خطر غزوات الفرسان «المعدمين» اللصوصية !

ولتسعين نيران حمية الفرسان القتالية الدينية في فرنسا ، حاولت الكورية الرومانية (الباباوية) ان تحيط المشتركين في الحملات الاسبانية بهالة الاستشهاد من اجل الدين والايمان . ثم ان رجال كلوني الذين افلحوا

* فيما يلى ، اذ نستعرض تاريخ الحملات الصليبية التي اشترك فيها سواء النورمنديون من ايطاليا الجنوبية وصقلية ، ام النورمانيون من البلدان السكالدينافية . سنشير الى هؤلاء واولئك بالمفهوم التقليدي «النورمانيين» تحاشيا لضرورة التدقيقات المتكررة في المصطلحات .

فى التسرب الى شبه جزيرة البيرينه وفى بناء اديرة لهم هناك ، اعلنوا الحروب ضد المسلمين فى اسبانيا حروبا مقدسة . واعلن البابا الكسندر الثانى ، الذى بارك حملة ١٠٦٣-١٠٦٤ ، ان الكنيسة تغفر خطايا كل من يذهب الى اسبانيا للقتال من اجل قضية الصليب ، بل انه ارسل نائبا (قاصدا رسوليا) عنه الى فرسان فرنسا الجنوبية الذين اعتزموا الذهاب الى اسبانيا . ان نشاط الكرسي الرسولى فى الريكونكيستو لم يغيب عن نظر المعاصرين ؛ ومن الطريف ان المؤرخ العربى ابن حبان ، فى معرض حديثه عن معركة برباسترو ، ينعت قائد القوات المسيحية بانه «رئيس فرسان روما» . ولجل حث الفرنسيين على القيام بمثل هذه الحملة ، سمح لهم البابا غريغوريوس السابع فى سنة ١٠٧٣ بامتلاك الاراضى التى ينتزعها المسيحيون من «الكفار» ، ولكن ، والحق يقال ، بشرط واحد هو اعتراف الفرسان الفرنسيين بالسلطة العليا لكاهن روما الاول على الاراضى المنتزعة ، ذلك ان اسبانيا ، كما قال غريغوريوس السابع ، كانت تخضع ، بزعمه ، منذ قديم الازمنة للقديس بطرس .

وهذا البابا غفر هو ايضا مقبلا خطايا الذين يقتلون فى المعارك من اجل الدين والايمان .

كانت حروب الفرسان الفرنسيين فى اسبانيا بمثابة حروب صليبية قبل الحروب الصليبية - من حيث الشعارات ، ومن حيث الالبسة والرايات ، ومن حيث المضمون . وقد نعت ماركس فى مؤلفه «نبذات تاريخية متسلسلة» حملة ملك كاستيليا الفونس السادس على العرب فى طليطلة بانها كانت «مقدمة للحرب الصليبية الاولى» .

كذلك دعمت الباباوية ، وان لم يكن فى الحال ، مشاريع النورمانيين الاغتصابية العدوانية فى ايطاليا الجنوبية وصقلية ، واستغلتها فى اهدافها السياسية . وان قائد الفاتحين النورمانيين روبر غيسكار (Robert Guiscard) الذى صار دوق ابوليا وكالابريا ، قد اعترف فى سنة ١٠٥٩ ببابا روما مولى وسيدا له ، وتعهد بان يدفع له جزية سنوية ويقدم العون العسكرى ويدافع عن حرمة كرسيه ، الكرسي الرسولى ، دون تطاولات الاباطرة الالمان . وقد صادقت الباباوية على هجوم الدوق فى سنة ١٠٦١ على صقلية التى انتزعها النورمانيون من العرب فيما بعد . كذلك ساعدت الباباوية الفرسان النورمانيين التابعين لخليوم الفاتح الذين استولوا فى سنة ١٠٦٦ على انجلترا . وفى كل هذا ، يتبدى بكل جلاء خط سياسى واحد للكورية الرومانية قوامه تنظيم عدوان الفرسان فى اطراف اوربا الغربية ، وبخاصة فى حوض

البحر الابيض المتوسط وتشجيعه الى اقصى حد . وفضلا عن ذلك كانت روما لا تبارك فتوحات الفرسان وحسب ، بل ان اسطول مدينة بيزا التجارية فى ايطاليا الشمالية الذى شن فى سنة ١٠٦٣ غارة على باليرمو قد اشترك كذلك فى حروب النورمنديين من اجل صقلية . وفيما بعد ، انخرط التجار فى المدن الساحلية الاخرى فى ايطاليا فى النضال من اجل اقضاء العرب من حوض البحر الابيض المتوسط . وقد ساندت الباباوية مبادرات سكان المدن هذه كل المساندة . وفى عام ١٠٨٧ ، عندما اقتحم الاسطول المتحد لمدينة بيزا وامالفي وجنوه ميناء المهديّة فى افريقيا الشمالية واحتل المقاتلون الكاثوليكيون مدينة العرب هذه ، كرس البابا فكتور الثالث نهبا . ودليلا على عطفه الشديد ، ارسل الى القراصنة راية القديس بطرس وغفر لهم خطاياهم . وقد شكر اهالى بيزا الكرسي الرسولى ، بالتبرع بالاموال التى استحصلوها من نهب المهديّة لاجل بناء كنيسة اخرى فى مدينتهم سموها تكريما للنصر المحرز بكنيسة القديس سيكست (وقد تطابق يوم الاستيلاء على المهديّة مع يوم عيد هذا القديس) . وقد كان المشروع البحرى فى افريقيا الشمالية وثيق الارتباط بحرب الفرسان الدائرة رحاها آنذاك ضد المرابطين فى اسبانيا (وفيما بعد ايضا ، فى سنة ١٠٩٢ ، ساعد اهالى بيزا ملك كاستيليا الفونس السادس فى محاربة المغاربة فى فالنسيا) .

وهكذا كانت الاصلاحات الكنسية فى القرن الحادى عشر احدى المقدمات المباشرة للحروب الصليبية فى الشرق ؛ فقد ضمنت للباباوية مكانة راسخة لا جدال فيها واجبرت العالم الاقطاعى على الاصغاء بانتباه الى صوت الحبر الاول فى روما .

ولكنه صار من الواضح نحو اواخر القرن الحادى عشر ان الطرائق التى لجأت اليها الكنيسة ولجأ اليها الاقطاعيون الدنيويون لاجل تأمين مصالحهم كانت قليلة الفعالية . فقد منى الفرنسيون فى اسبانيا بالاخفاقات ، لان الاقطاعيين المسيحيين الاسبان كانوا لا يرغبون فى ان يسلموا حلفاءهم لا اراضيهم ، ولا ثرواتهم . ان النزاعات مع الاسبانيين - وكان هؤلاء حتى يتكلمون احيانا مع الامراء العرب * - قد حكمت بالفشل سواء على خطط الاعيان الفرنسيين ام على خطط الباباوية المتعلقة باسبانيا ، ناهيك بان العرب

* يستفاد من اقوال المؤرخ الالماني اردمان ان الفونس السادس لم يكن مناغلا طليعيا من اجل الدين المسيحى ؛ فحين دعا الفرسان الفرنسيين الى مساعدته (بعد هزيمته فى جوار الزلاقة) بلغ به الامر ان هدد باعتناق الاسلام اذا ما رفضوا مساعدته .

قاوموا هناك بصلاية وثبات . ولكن نحو ذلك الزمن بالذات ، بدأ يرتسم هدف جديد سيوجه اليه رئيس الكنيسة عما قريب افكار ومقاصد الاقطاعيين المياليين الى القتال . ان اختيار الهدف بالذات والوسائل لبلوغه قد حدد سلفا الوضع الدولى .

فى الثلث الاخير من القرن الحادى عشر ، اخذت خيوط السياسة الاوروبية تمتد اكثر فاكثر الى الكورية الرومانية . وقد غدت هذه الكورية المركز الذى يستطيع وحده دون غيره ان يوحد قوى الغرب الاقطاعى المتفرقة ، ذلك ان السلطة الملكية كانت لا تزال هناك ضعيفة جدا . ومنذ عهد حكم البابا غريغوريوس السابع (١٠٧٣-١٠٨٥) ، سعت الباباوية الى توطيد الوضع المبلوغ بصورة رئيسية بفضل نجاحات حركة كلونى ، ولذا طفقت تفصح بالحاف عن ادعاءاتها بالزعامة ، لا فى الكنيسة المسيحية وحسب ، بل ايضا على الحكام الزمنيين . فان البابا غريغوريوس السابع قد اعلن على المكشوف فى رسالته الشهيرة «امر البابا» انه يحق للمكرسى الرسولى ان يتصرف بالتيجان ويعين ويعزل الاساقفة والدوقات والملوك والاباطرة ؛ وكل سلطة ، ايا كانت ، لن تكون فعلية وحقيقية الا بقدر ما تنجم من رئيس الكنيسة ، ممثل العلى الاعلى فى الارض . وقد رسم غريغوريوس السابع خطة لاختضاع جميع الدول المسيحية للكورية الرومانية اخضاعا تاما . كذلك اتخذت تدابير عملية لاجل تنفيذ هذا البرنامج التيوقراطى (من الكلمة اليونانية التى تعنى «حكم الرب») - وهو برنامج يرمى الى انشاء ملكية اوروبية عامة ، او ، حسب مصطلحات ذلك الزمن ، كلية ، اى عالمية ، على رأسها الباباوية ، واجبار جميع الملوك المسيحيين على حلف اليمين الاقطاعى للمكرسى الرسولى . ولكن هذه السياسة قوبلت بالصد من جانب كثيرين من الملوك ، وبخاصة من جانب الاباطرة الالمان ، الذين استمروا النضال ضدهم ، بنجاح متقطع فى صالح روما ، فى عهد اخلاف غريغوريوس السابع .

ان سعى باباوات روما الى انشاء تيوقراطية كلية فى اوروبا دليل ساطع على الاهمية التى اكتسبتها هناك فى القرن الحادى عشر الكنيسة (الكاثوليكية الرومانية الغربية) ومركزها القيادى - الكورية الباباوية . وبما ان الكنيسة كانت اغنى المؤسسات الاقطاعية ، فقد كانت لها مصلحة حيوية فى توطيد النظام الاقطاعى . ولهذا اعتزمت الباباوية ان ترص تحت سلطتها العليا قوى الاقطاعيين المتفرقة لكى تعزز بالتالى مواقع الملكية العقارية الاقطاعية حيال الفتن التى تتهددها .

وكانت فكرة القضاء على استقلالية الكنيسة الشرقية الارثوذكسية ، التي انفصلت نهائيا عن الكنيسة الكاثوليكية الرومانية في سنة ١٠٥٤ ، جزءا لا يتجزأ من برنامج الباباوية التيوقراطية . ولمناسبة هذه المحاولات على وجه الضبط ، ظهرت الخطوط الاولى من مشروع حملة الفتح ضد الشرق الاسلامي .

بيزنطية والغرب والسلجوقيون

كانت بيزنطية ، وريثة الامبراطورية الرومانية ، قد فقدت من زمان بعيد الكثير من ممتلكاتها السابقة في الشرق . وغدت مواقع القسطنطينية في آسيا الصغرى اقل فاقل صلابة . وكان زحف الرحل الاتراك - السلجوقيين (او السلاجقة نسبة الى القائد سلجوق شبه الاسطوري الذي وحد في النصف الثاني من القرن العاشر قبائل اوغوز في آسيا الوسطى) الاشد خطرا على الدولة البيزنطية . وفي عهد السلطان الب ارسلان (١٠٦٣-١٠٧٢) اقتحم السلجوقيون مقاطعة ارمينيا البيزنطية واشتبكوا في حروب ضد جورجيا ، وتغلغلوا اوسع فاعوسع في اقليمي بيزنطية في آسيا الصغرى - قبدوقية وفريجيا .

وقد حاول الامبراطور رومانوس الرابع ديوجين (١٠٦٨-١٠٧١) ان يضع حدا لتقدم السلجوقيين . فشنت القوات المسلحة البيزنطية ضدهم حملتين ناجحتين . وامكن عقد هدنة مع الب ارسلان ولكن رومانوس الرابع دفع فجأة فيما بعد ضد العدو جيشا آخر ، من ٣٠٠ الف رجل او يكاد ، اى اقوى جيش بين الجيوش التى جهزها قبل ذاك . كانت قواته المختلفة القوميات تتألف اساسا من المرتزقة وكانت داخليا هشة ، ضعيفة ، غير موثوقة . وعشية الاشتباك العام ، انتقلت الفصائل التركية من قوات رومانوس الى جانب اخوانها الاتراك . كذلك كانت الخيانة تعشعش بين القادة العسكريين البيزنطيين انفسهم .

فى ١٩ آب (اغسطس) ١٠٧١ دارت رحى معركة هائلة بمقاييس ذلك الزمن شمالى بحيرة فان (ارمينيا) ، غير بعيد عن المدينة-القلعة مانزكرت (باليونانية مانتسيكرت) . وقد منيت عساكر الامبراطورية البيزنطية بهزيمة ماحقة انزلها بهم السلجوقيون الذين لجأوا الى الحيلة التكتيكية التى سبق لهم ان خبروها مرارا : فقد تراجعوا فى الظاهر لكى يغروا البيزنطيين ثم ارتدوا فجأة عليهم وشنوا حملة عاصفة بالخييل على العدو . وقد ابعد جيش رومانوس الرابع كليا تقريبا ، ووقع الامبراطور نفسه فى الاسر - الامر

الذى لم يحدثا يوما قبل ذاك فى تاريخ بيزنطية ، وطرح ارضا عند قدمى السلطان الظافر . وسرعان ما اخلى السلطان سبيل الاسير النبيل ، ولكن نتيجة الكارثة فى معركة مانزكرت كانت وبالا على الامبراطورية ، اذ فقدت ممتلكاتها الغنية فى آسيا الصغرى . وبين سنة ١٠٧٨ وسنة ١٠٨١ ، رسخ السلجوقيون اقدامهم فى مناطقها الغربية ايضا ؛ وبالكاد استطاعت بيزنطية ان تحتفظ لنفسها بعدد قليل من المدن على ساحل بروبونتيدا (بحر مرمرة) . ومن نوافذ القصر الامبراطورى فى القسطنطينية ، اخذت تبدو الآن الجبال فى الشرق التى لم تبق ملكا للفاسيلفس الجبار فى الماضى (الامبراطور البيزنطى) .

كانت بيزنطية تعاني من الفوضى فى اكمل مظاهرها . فقد كانت مختلف تكتلات الاعيان الاقطاعيين ، فى العاصمة والارياف على السواء ، تتخاصم وتتهاثر بلا نهاية بعضها مع بعض ، وتحاول بشتى المكائد والدسائس ان تزيد امتيازاتها وسلطتها . وكان من المستحيل تقريبا الاعتماد على الجيش المؤلف على الاغلب من المرتزقة . وكانت الخزينة تشكو على الدوام نقصا فى الاموال ؛ فمئذ ان تحول الفلاحون الاحرار الى اقنان طفق ينضب المصدر الرئيسى لواردات الضرائب . ومع مر الزمن ، صارت بيزنطية تتعرض بمزيد من الشدة للتقسيم الى ممتلكات اقطاعية شبه مستقلة فى الميدان السياسى . ومنذ ذاك ، بدأت قوة الامبراطورية تتوقف على الفصائل العسكرية التابعة لملاكى الاراضى الجبابة فى الارياف ؛ بل ان الهزيمة فى معركة مانزكرت كانت قبل كل شىء ثمرة الاقتتال بين الاريستقراطيين ؛ فان بعضا منهم كانوا على استعداد (وهذا ما حدث بالضبط فى سنة ١٠٧١) للخيانة السافرة شرط ان يحتفظوا ويكثروا امتيازاتهم . وعندما افرج السلطان السلجوقى عن رومانوس ، انفجرت فى الامبراطورية حرب حقيقية بين الزمر الاقطاعية . واضطر الامبراطور السابق الى الاستسلام للاقطاعيين ووضع نفسه تحت رحمتهم ، ولكنهم اسروه وسلموا عينيه .

ولم يلبث البابا غريغوريوس السابع ان استغل مصاعب بيزنطية التى اضعفتها وانهكتها الحروب ضد السلجوقيين والاضطرابات الداخلية ، وذلك لى يجعل الكنيسة الارثوذكسية الشرقية تابعة للكرسى الرسولى ، ولكى يخضع فيما بعد بيزنطية نفسها ايضا للكرسى الرسولى ، الامر الذى كان من شأنه ان يوسع الموارد المادية لدى الكنيسة الكاثوليكية الرومانية ويسهل على الباباوية تحقيق برنامجها التيوقراطى الكلى فى الغرب .

فى البدء لجأ غريغوريوس السابع الى التدابير الدبلوماسية : ففي صيف

١٠٧٣ بدأ يتفاوض مع الامبراطور البيزنطى ميخائيل السابع دوكا . وقد قال البابا فى رسالة الى الامبراطور انه ينبغى تجديد الوفاق القديم بين كنيسة روما وكنيسة القسطنطينية . ولكن ادعاءات البابا لقيت الصدى فى القسطنطينية . وآنذاك خطرت فى بال البابا فكرة التوصل الى الاهداف المنشودة بقوة السلاح وذلك بتنظيم حملة حربية يشنها الفرسان على الشرق بحجة حماية الدين المسيحى وتقديم العون للارثوذكس ضد المسلمين السلاجوقيين . وبما ان العساكر الغربية ستكون كثيرة ، فمن المؤكد ان الامبراطور البيزنطى سيكون اكثر تساهلا وتنازلا ، وبعد ذاك ، من ذا الذى يعلم كيف ستتطور هذه المبادرة ؛ وخاصة اذا تكللت بالنجاح . والقدس ليست بعيدة جدا عن القسطنطينية !

فى سنة ١٠٧٤ وجه البابا رسالة الى الكونت غليوم الاول البورغونى والى الامبراطور الالماني هنريخ الرابع الذى امسى فيما بعد عدوه اللدود ، والى ماتيلدا ، مارك-كونتية توسكانا ، واخيرا «الى جميع الاوفياء للقديس بطرس» ، دعاهم فيها الى تخليص الكنيسة الشرقية من البلية والى الاشتراك لهذا الغرض فى الحرب فى الشرق . ولم يضمن غريغوريوس السابع بالوعود بالمكافآت السماوية على الذين يوافقون على محاربة «الكفار» . وقد نصح البابا الكاثوليك فى رسائله : «قاتلوا بجرأة ، لكى تناولوا فى السماء مجدا يتجاوز جميع توقعاتنا . تسنح لكم الفرصة لاكتساب الغبطة الابدية بعمل طفيف» . وعلق غريغوريوس السابع اهمية جدية على المشروع الذى حاكه . فقد ردد غير مرة فى رسائله انه ينوى ان يسير شخصيا فى طليعة قوات المسيحيين الغربيين ويمضى الى ما وراء البحار . وكان لا بد لهذا المشروع ان يستتبع صدى ملائما عند «المعدمين» و«الذين لا ارض عندهم» الذين سبق لهم ان حاربوا العرب تحت الراية الدينية وبموافقة الباباوية . كتب البابا الى ماتيلدا من توسكانا : «اؤمن فى ان كثيرين من الفرسان سيساعدوننا فى هذه القضية» .

وبديهى ان شعار حماية الدين المسيحى من الانجاس (الوثنيين) لم يكن غير قناع ؛ فان نوايا روما لم تكن تمت باى صلة الى انقاذ المسيحية ، الامر الذى لم يطلب احد من البابا فعله . ثم ان المصالح الدينية التى ابرزها غريغوريوس السابع بمثل هذا الاصرار فى المرتبة الاولى فى رسائله لم تلعب يوما على الاطلاق دورا اوليا بنظر هذا السياسى الكنسى . وكان البابا لا يرى من الضرورى الاصرار على اية خلافات مبدئية بين المسيحية والاسلام اذا كانت مصالح روما السياسية تتطلب ذلك ؛ ففي سنة ١٠٧٦ بلغ الامر

بالبابا غريغوريوس ان صرح فى رسالة الى امير مدينة بجاية الجزائرية الناصر «اننا نحن وانتم نؤمن فى اله واحد وان يكن بأساليب مختلفة» .
اما الجوهر الحقيقى لمشروع الحرب ضد السلجوقيين ، فقد كان مغايرا ، وقوامه اعادة الكنيسة البيزنطية ، الارثوذكسية الى حضن الكنيسة الرومانية ، وتوسيع منطقة نفوذ الكاثوليكية ، بادراج بيزنطية بالعنف فى فلك التأثير الباباوى ، وامتلاك ثروات الكنيسة الارثوذكسية .

ان نداءات البابا التقية الورعة قد سبقت من حيث الجوهر شعارات الحرب الصليبية المقبلة . اغلب الظن ان هذه النداءات قد لقيت التفهم من جانب الفرسان . على كل حال اكد البابا نفسه فى اواخر ١٠٧٤ للامبراطور الالماني هنريخ الرابع انه تسنى له هو البابا ان يجمع جيشا من ٥٠ الف ايطالى وفرنسى لاجل المشروع فيما وراء البحار ضد الوثنيين . وقد لقي البابا الدعم ، مثلا ، من بعض الطواغيت الاقطاعيين فى فرنسا الجنوبية مثل غليوم البورغونى وريمون من تولوز .

ولكن غريغوريوس السابع لم يستطع ان يحقق مقاصده . فان الصراع الذى بدأ ضد الامبراطورية الالمانية قد صرف انتباهه عن بيزنطية لزمّن طويل . ومع ذلك عاد فيما بعد غير مرة الى فكرة اعادة الكنيسة الارثوذكسية الى «حضن الام» . وعندما هاجم روبر غيسكار ممتلكات بيزنطية فى ايطاليا سنة ١٠٨٠ باركه البابا غريغوريوس السابع على هذه الحرب . وطلب البابا ان يدعو رجال الدين فى ايطاليا الجنوبية الفرسان المحليين الى الاشتراك فى حملة الزعيم النورماندى واعداء لقاء ذلك بغفران الخطايا . وبعد ان اقتحم النورمانيون شبه جزيرة البلقان فى سنة ١٠٨١ واستولوا على قلعة دراتش البحرية فى ابيروس وتغلغلوا فى اعماق البلاد ، هنا غريغوريوس السابع روبر غيسكار بالنصر دون ان ينسى تذكيره بانه مدين بنصره الى حماية القديس بطرس . صحيح ان غريغوريوس السابع كان فى السنوات التالية مستغرقا كليا فى الصراع ضد هنريخ الرابع ، ولكن ثمة امر لا ريب فيه هو ان الاستعدادات التى قام بها البابا فى السبعينيات لشن حرب فرسانية كبيرة «لحماية بيزنطية» قد كانت نقطة انطلاق مهمة للخطة التى نضجت فيما بعد لاجل تنظيم حملة فتوحات واغتصابات فى الشرق .

ان القضية التى دبرها غريغوريوس السابع قد طورها فيما بعد اقرب خلفائه من الباباوات . وكان الوضع الذى نشأ فى العقود الاخيرة من القرن الحادى عشر فى بلدان القسم الشرقى من حوض البحر الابيض المتوسط يناسب تحقيق مقاصد الباباوية . وفى ذلك الوقت احتل السلجوقيون آسيا

الصغرى وسوريا وفلسطين . وفى سنة ١٠٧٠ احتلوا دمشق وحلب وغيرهما من المدن السورية وفى سنة ١٠٧١ احتلوا مركز الاديان الثلاثة بما فيها الدين المسيحى ، مدينة القدس ، التى كانت حتى ذاك خاضعة لسلطة خلافة الفاطميين فى مصر (لم ترسخ اقدام السلجوقيين الى هذا الحد او ذاك فى القدس الا نحو اواخر السبعينيات) . وفى سنة ١٠٨٤ ، انتزع السلجوقيون انطاكية من بيزنطية واستولوا عليها . وفى عهد ملكشاه (١٠٧٢-١٠٩٢) ، شملت ممتلكات السلجوقيين قسما كبيرا من اراضى سوريا ولبنان والاردن وفلسطين .

وهكذا شملت فتوحات السلجوقيين رقعا شاسعة من الاراضى . ولكنهم لم يؤسسوا دولة مملكة . ولم تكن دولة السلجوقيين قائمة الا بالاسم . اما فى الواقع ، فقد كانت عبارة عن اتحاد ضعيف العرى بين كثرة من الاقطاعات شبه المستقلة . واهمها كانت السلطنة الرومية (سلطنة سلاجقة الروم او دولة الروم السلاجقة) التى تشكلت سنة ١٠٧٧ فى آسيا الصغرى ، وكان مركزها فى البدء نيقية ، ثم قونية . وكان السلاطين يطمحون الى وراثة الامبراطورية البيزنطية ولذا سمو دولتهم بالدولة الرومية ، لان البيزنطيين كانوا يسمون انفسهم بالروم (بالرومانيين) . واخذ السلطنة هذا الاسم كما اخذوا الادعاءات المناسبة . وبعد سنة ١٠٩٢ تداعت الدولة السلجوقية كليا . وتفجرت الخلافات والمخاصمات بين الحكام الكبار والصغار وصارت آسيا الصغرى مسرحا لحروب لا انقطاع فيها .

وبعد حقبة طويلة من الزمن ، اى بعد ان تعاظمت الحركة الصليبية ، اختلق مدونو الاخبار الغربيون لتبريرها مختلف الاساطير عن الملاحظات والمطاردات التى قام بها ، بزعمهم ، السلجوقيون ضد المسيحيين فى البلدان الشرقية وعن اهانة وتدنيس الوثنيين للمقدسات المسيحية ، وبخاصة عن مطاردات الحجاج المتجهين الى القدس . وقد تلقف المؤرخون الاوروبيون فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، ولاسيما منهم الكاثوليكيون ، هذه الاساطير وزينوها بشتى التفاصيل . وقد وصف مؤلفو «تواريخ الحروب الصليبية» - وهى تواريخ عديدة - الوضع بسمات متماثلة تقريبا : كان السلجوقيون يشكلون خطرا على المسيحية ، ولذا كان صد هذا الخطر يتطلب تدخل الكاثوليك المسلح . واخذ بابا روما على نفسه قيادة الكاثوليك . ومن هنا نشأت الحروب الصليبية . وهذا يعنى ان هؤلاء المؤرخين ، رغبة منهم فى تفسير منشأ حروب المسيحيين الغربيين ، نقلوا مركز ثقل الاحداث التى استتبعته الحروب الصليبية الى الشرق ؛ فمن وجهة نظرهم ، كان كل شيء

يعتمد على فتوحات السلجوقيين ، وبينها فى المقام الاول القدس ، مهد المسيحية .

وهذا الضرب من التصورات عن اقرب اسباب الحروب الصليبية لا يزال واسع الانتشار الآن فى الغرب ، واليوم يصدر هناك عدد لا يستهان به من الكتب التى تبدأ ابدا ودائما بوصف العقبات التى اقامها السلجوقيون ، كما يزعم ، فى طريق الحجاج الاتقياء ، وبوصف المصاعب التى واجهها الحجاج فى الارض المقدسة . ان هذا التفسير للاحداث لا يتطابق البتة مع الوقائع التى قررها المؤرخون المسيحيون القروسطيون .

فان السلجوقيين لم يكونوا يتصفون اطلاقا بالتعصب الدينى الاعمى . يقينا ان فتوحاتهم قد رافقها هلاك الناس وآلامهم ، ورافقها الدمار ، اى رافقها كل ما يرافق اية حرب كانت . ولكن هذا لم يكن له البتة اية علاقة بالدين المسيحى . فحيال ذوى الاديان الاخرى ، انتهج السلجوقيون تلك السياسة الوفيية التى استقرت منذ زمن السيطرة العربية . ذلك ان المسيحيين ، شأنهم شأن اليهود ، هم بموجب تعاليسم محمد ، مؤسس الاسلام ، مؤمنون ، اذ انهم يؤمنون فى اله واحد ، ولكنهم انحرفوا عن الصراط المستقيم ، عن الكتب المقدسة . ولئن كان ينبغى ، بموجب تعاليم القرآن ، اما قتل الوثنيين ، واما ادخالهم بالقوة فى الاسلام ، فانه ينبغى التحلى بالصبر حيال المسيحيين واليهود باعتبارهم مؤمنين ضالين ، خرجوا عن «الصراط المستقيم» . وبالفعل ، كانت مستحداثات خاصة الجور فى البلدان التى وقعت ذات يوم تحت سيادة الفاتحين المسلمين تتلخص فى اقرار اتاوة عامة هى الخراج ؛ وكان الخراج يشمل جميع السكان بصرف النظر عن عقائدهم الدينية . وكان الفاتحون يبقون الباقي ، على العموم ، كما كان ، دون اجراء اى تغيير ؛ فبقدر ما ، كان يبقى حتى جهاز الدولة السابق الذى كان يمكن للمسيحيين واليهود كذلك ان يشغلوا وظائفه ؛ وكانت تتوفر للمسيحيين واليهود امكانية ممارسة شعائرهم الدينية بلا عائق . وقد واصل السلجوقيون تقليد التساهل هذا ولم يفرضوا اية عقبات جدية فى وجه المسيحيين تعيقهم فى شؤونهم الدينية .

وفضلا عن ذلك ، عنى الفتح السلجوقى بالنسبة لذوى العقائد المسيحية المهيمنين فى آسيا الصغرى وسوريا وفلسطين (الارثوذكس ، المونوفيسيين (القائلين بان للمسيح طبيعة واحدة) ، النسطوريين ، الغريغوريين ، وغيرهم) حتى نوعا من خير ونعمة ، اذ تخلصوا من مظالم الكنيسة البيزنطية ، الدينية والضرائبية . وهكذا بالذات يوضح الاوضاع المؤرخ الارمنى متى الزهاوى

(توفي سنة ١١٤٤) ، وصاحب «كتاب الحوليات» ميخايل السرياني (١١٢٦-١١٩٦) والمؤلف المجهول لكتاب «تاريخ بطاركة الاسكندرية» وغير ذلك من كتب المؤلفين المسيحيين الشرقيين .

ثم ان السكان انفسهم في بلدان القسم الشرقي من حوض البحر الابيض المتوسط ، المنتمين الى مختلف التيارات والطوائف المسيحية ، لم يفتشوا يوما ، لا في الغرب ولا في بيزنطية ، عن الحماية من الملاحقات الدينية المنسوبة الى السلجوقيين . وكان بوسع الحجاج ان يزوروا القدس كما في السابق . اما مشاعرهم الدينية فلم تكن تتعرض للاهانة من قبل الحكام السلجوقيين . بديهى انه كان يتعين على الحجاج ان يكونوا على يقظة : ففي فلسطين كانوا على كل حال في ارض العدو . وليس عبثا اخذت عمليات الحج تتخذ شيئا فشيئا طابعا مسلحا . ولكن السلجوقيين لم يهتموا البتة بمصالح الحجاج الدينية وعبادتهم للمقدسات المسيحية في القدس وبيت لحم وغير ذلك من الاماكن المقدسة . وكان الفاتحون يتقاضون من الحجاج جزية معينة لقاء زيارة المدينة المقدسة ، ولكن مثلما كان الحجاج ملزمين في القسطنطينية ايضا بدفع ضريبة للسلطات البيزنطية . وفي القدس ظل يعمل كما من قبل فندقان بنتهما وظلت تشرف عليهما وتمولهما مدينة امالفي الايطالية . وان المقدس الرئيسى - الانشاء المعمارى فى احدى كنائس القدس الذى سماه المسيحيون «القبر المقدس» (بموجب الانجيل ، حمل يوسف من الرامة تلميذ يسوع المسيح ، جثمان معلمه ودفنه سرا فى قبر محفور فى الصخر وغُطّي فيما بعد بالحجارة) ، - كان سليما تماما . صحيح ان الحجاج اضطروا الى الاستعاضة عن الطريق البرى بالطريق البحرى لان الوضع الحربى المقلق فى آسيا الصغرى كان يصعب الاسفار الى القدس فى البر ، ولكن هذا الظرف لم يكن يمت هو ايضا باية صلة الى المطاردات الدينية .

ان الاقاويل عن آلام المسيحيين الشرقيين فى ظل حكم السلجوقيين وعن العقبات التى اقاموها فى وجه الحجاج هى بقدر كبير ، اختلاقات باطلة تفتق عنها خيال كتاب كنسيين احدث عهدا الينا - هم جزئيا بيزنطيون ، ولكنهم غربيون وشرقيون - من امثال غليوم الصورى (١١٣٠-١١٨٦) . فاحيانا كثيرة كانوا قصدا وعمدا ينشرون الاشاعات عن مآثم السلجوقيين من كل شائكة وطراز ضد المسيحية ، قائمين بذلك ، كما قد نقول اليوم ، لاغراض دعائية بحتة ، - لكى تسهم الاشاعة عن الخطر الذى يشكله «الكفار» على الاماكن المقدسة فى تدفق قوات مسلحة جديدة من الغرب . وهذا الضرب من الاشاعات كان ينطلق وينتشر من روما الباباوية . وقد استغل الباباوات

ضعف اطلاع اوروبا الغربية على ما كان يجرى فعلا فى الشرق ؛ وبما انهم كانوا هم ايضا ، فضلا عن ذلك ، قليلي الاطلاع على الوضع فى الاراضى ما وراء البحار ، فقد انصرفوا ، من حيث جوهر الامر ، الى تضليل العالم الكاثوليكي . ويلاحظ المؤرخ المستشرق الفرنسى المعاصر كاين ان روما قد صورت الكارثة التى حلت ببيزنطية بصورة كارثة حلت ، بزعمها ، بالمسيحية الشرقية على العموم .

اما فى الواقع ، فان الفتح السلجوقى ، اذا كان قد شكل حجة لاعداد حرب الغرب ضد الشرق لاجل اهداف دينية كما يزعم ، فليس ذلك الا بقدر ما سدد ضربة الى بيزنطية التى كانت من زمان بعيد موضع مطامع الكورية الرومانية . ثم ان انتشار الفتوحات السلجوقية لاحقا فى السبعينيات والثمانينيات فى آسيا الامامية ، وتقسيم دولة ملكشاه الذى جرى فى الوقت نفسه ، لم يوفر للباباوية فرصة التوصل الى تحقيق خططها القديمة الموجهة ضد بيزنطية وحسب ، بل اتاحا كذلك توسيع تطلعاتها التوسعية توسيعا كبيرا ، باشاعة كذبة بينة عن الخطر الذى يتهدد المسيحية اجمالا ، والذى يزحف ، حسب زعمها ، من الشرق .

ومشاريع غريغوريوس السابع بعثها بكليتها واكملها بصورة جوهرية خلفه البابا اوربان الثانى (١٠٨٨-١٠٩٩) ، الفرنسى الاصل . ووفقا لارشاداته كان ينبغى ان يخضع كل القسم الشرقى من حوض البحر الابيض المتوسط لحكم وسيطرة الكنيسة الكاثوليكية الرومانية وخدمها الامناء ، الفرسان الغربيين . ولكن اوربان الثانى احاط مشاريعه باللواحق الدينية بقدر اكبر بكثير من التفصيل والتبصر . وفى اداء هذه المهمة ساعده كذلك الوضع العصيب الذى واجهته بيزنطية فى الثمانينيات واولئل التسعينيات من القرن الحادى عشر .

فان النورمانيين الذين كان يقودهم روبر غيسكار ، واصلوا الفتوحات فى الاقاليم الاوروبية من الامبراطورية البيزنطية زارعين الدعر فى القسطنطينية . وكان بمقدور الفاسيلفس الجديد ، الكسيوس كومنينوس ، (١٠٨١-١١١٨) ان يقضى على الخطر النورمندى باللجوء الى قوة السلاح والى وسائل الديبلوماسية البيزنطية الماكرة الداهية ، ولكن السحب اخذت تتلبد فى ذلك الوقت فى شمال وشرق بيزنطية . فقد ثار عليها السلاف القاطنون على ضفاف نهر الدانوب فى بلغاريا ، بسبب ما كانوا يعانونه من بلايا من جراء ابتزازات الموظفين الامبراطوريين . فاستنجدوا بالرحل البتشيخين . وفى سنة ١٠٨٨ انزل البتشيخين بالامبراطور الكسيوس كومنينوس هزيمة شنعاء

فى جوار سيليسترا ؛ ودمر الرحل ادريانوبول وفيليبوبول ، ووصلوا حتى اسوار العاصمة بالذات . وجيز الامير السلجوقى تشاهبا الذى استقر فى غرب آسيا الصغرى وفى بعض جزر بحر ايجيه ، اسطولا ضد العاصمة البيزنطية . وجرى تشاهبا مفاوضات مع البتشيئينغ بشأن العمليات المشتركة . ووضعت خطة مشتركة لهجوم البتشيئينغ والسلجوقيين على القسطنطينية .

وخيل ان الايام الاخيرة قد حلت بالنسبة للقسطنطينية . ولكن الباباوية ، كما منذ نحو ١٥ سنة ، قامت من جديد بمحاولة للضغط على القسطنطينية ، فان رسل اوربان الثانى الذين ارسلوا الى القسطنطينية فى اوائل سنة ١٠٨٨ تقدموا من الامبراطور بعرض زعموا فيه انهم يكرهون اللاتين (الكاثوليك) فى دولته على ممارسة الخدمات الكنيسة حسب الطقس الارثوذكسى . فرد الكسيوس الاول على البابا بلهجة المصالحة بل انه وافق ، من باب التظاهر ، على اجراء تنازلات فى صالح روما . وقد تحدد موعد انعقاد المجمع الكنى فى القسطنطينية ، وذلك ، كما كان من المرتأى ، لاجل تسوية الخلافات العقائدية والطقسية بين الكنيستين . ومن جديد جرت مفاوضات بشأن الاتحاد . وقد اعربت الاوساط العليا الحاكمة فى بيزنطية ، على الاقل بالاقوال ، عن استعدادها لمساومة لاهوتية ولازالة اسباب الخصام بين روما والقسطنطينية ؛ فان ضغط البتشيئينغ والسلجوقيين كان يشد الوثاق على بيزنطية حقا وفعلا ، وكان الكسيوس الاول المضغوط فى حلقة الاعداء يفتش عن حلفاء .

فى سنتى ١٠٩٠-١٠٩١ ، عندما كانت شئون الامبراطورية فى البحر والبر فى وضع شاق جدا ، على حد قول المؤرخة البيزنطية حنة كومنينة (ابنة الكسيوس الاول) ارسل الامبراطور البيزنطى الرسائل الى ملوك وامراء الغرب مفادها ان بيزنطية تطلب معونة عسكرية . كذلك بعث الامبراطور كومنينوس بالرسائل الى بابا روما . وكان يعلق عليه هو ايضا الامال . كان ينبغى مد عساكر الامبراطورية مهما كلف الامر . وقبل ذاك ، كان الغرب قد قدم لجيش الروم عددا لا يستهان به من المرتزقة ؛ فقد كان يخدم فيه النورمنديون والسكاندينافيون والانجلوساكسونيون . والآن احتاجت القسطنطينية ميسر الحاجة الى العساكر ، وكان بوسبع روما ان تقدم لبيزنطية مساعدة مهمة فى اجتذاب عصب المرتزقة . وهذا ما يفسر تنازل الحكومة البيزنطية (او اليونانية) الظاهري فى المفاوضات مع الباباوية بصدد

الاتحاد ، ومع ذلك لم يعتزم الفاسيلفس الاعتماد كلياً على الكورية الرومانية ؛
فان ادعاءاتها بالزعامة كانت معروفة جيداً من زمان فى القسطنطينية .
ومع اجراء المفاوضات مع البابا بشأن اتحاد الكنيستين ، ومع اغراء
الاسياد الغربيين بإمكان نهب البلدان الشرقية ، اتخذت الحكومة البيزنطية
تدابير اخرى اكثر وثوقاً لاجل شق طوق السلجوقيين والبتشيينغ . فوجهت
ضد البتشييينغ حلفاء الامبراطورية الجدد - البولوف (البولوفتسيين) . وفى
٢٩ نيسان (ابريل) ، نزلت هزيمة ماحقة بجحافل البتشييينغ الضخمة فى
المعركة على ضفة نهر ماوروبوتام (رافد نهر ماريتسا) ؛ اذ ان اسطول الامير
تشاها لم يفلح فى الوصول الى نجدتهم ؛ وفيما بعد ، انشد الغالبون
ساخرين من المغلوبين ، «بسبب يوم واحد لم يتسن للسقيتين ان يروا
ايار» . وبعد حقبة وجيزة ، استطاعت بيزنطية ان تتخلص من الامير تشاها
ايضا . فان الامبراطور قد حرض على تشاها سلطان نيقية قلع (او اقليج)
ارسلان الاول (١٠٩٢-١١٠٧) فقتل تشاها اثناء وليمة . وهكذا ، باللجوء
تارة الى القوة المسلحة ، وطورا الى الدسائس والرشوة ، تخلص الكسيوس
الاول فى آخر المطاف من المخاطر التى تتهدد القسطنطينية . واعادت بيزنطية
الى ما تحت سلطتها عدداً من المدن الساحلية فى بروبوتيد ، وجزر هيوس
وساموس ولسبوس . وازيح السلجوقيون . وفى هذه الحال لم يبق ثمة
داع الى مغازلة روما . ودخلت المفاوضات بصدد الاتحاد طريقاً مسدوداً .
ولم تقبل بيزنطية عملياً مقترحات اوربان الثانى ، لما فيه حزنه وكدره .
والمجمع المرسوم لم ينعقد هو ايضاً ، وبقيت الخلافات الدينية معلقة .
ولكن النداء الموجه الى الغرب بطلب العون فى لحظة حرجة بالنسبة
لبيزنطية لم يمر دون ان يترك اثراً . فان الشرق مع مدنه التجارية الكبيرة ،
والمتطور فى الميدان الاقتصادى اكثر من الغرب ، القروى اساساً ، كان يبدو
للفرسان المنحطين والطواغيت الاقطاعيين الطموحين مصدراً لكنوز عظيمة .
وكانت اقاصيص الحجاج العائدين من القدس والقسطنطينية تصور بالخيال
المعابد والقصور الرائعة فى المدن الشرقية وعجائب البذخ التى تغمر الاغنياء
البيزنطيين والعرب . وعن هذه العجائب نشأت اساطير كان ينقلها المغنون
القصاصون المتجولون الى قصور الفرسان . وها هى الغنيمة اللذيذة تقع فى
ايدى السلجوقيين !

وهذا ما اقلق على الاخص النورمنديين الذين استقروا فى ايطاليا الجنوبية
وفى جزر البحر الابيض المتوسط . وخلال عشرات السنين كانوا مرتبطين

مباشرة ببيزنطية - بصفة قراصنة تجار ، وبصفة محاربين مرتزقة . ومن ذا الذى كان بوسعه خيرا منهم ان يقدر ثروات القسطنطينية ؟
وكان مصير بيزنطية يشير القلق كذلك فى نفوس الكثيرين من الامراء والفرسان الآخرين فى الغرب ، الذين كانوا ينتظرون وحسب الفرصة لكى ينقضوا على ثروات الامبراطورية البيزنطية (او امبراطورية الروم) . ذلك ان الشرق كله كان يبدو ارض الامبراطور البيزنطى بنظر البارونات والمارك-كونتات والدوقات والفيكونتات القليل الاطلاع على الجغرافيا . ولم يكن من الجائز ان تصبح هذه الارض فى حوزة الهراطقة السلجوقيين !
ان الباباوية التى كانت تبتغى اهدافها كانت تأخذ بالحسبان ، عن وعى او بلا وعى ، مصالح الاقطاعيين الغربيين المشتركة ؛ فلم تغب عن بالها الميول العدوانية المشتدة اكثر فاكثر بين الفرسان والطواغيت الى الفتوحات . وكان الوضع الذى نشأ نحو اوائل العقد العاشر من القرن الحادى عشر صالحا للغاية لتحريك تلك النوايا التى جربت الكورية الرومانية تحريكها منذ عشرين سنة .

وكان الجو فى الغرب يزداد توترا باستمرار . فان مشقات الفلاحين فى غضون «السنوات السبع العجاف» قد بلغت الذروة ، وكان استياء الفئات الدنيا يتفاقم سنة بعد سنة . وكان الفرسان «المعدمون» ينهبون ويسلبون بجموح مشدد ابدا . وكان عدم الثقة بالغد يستحوذ بصورة اقوى فاقوى على الاسياد ، سواء منهم الكنسيون ام الدنيويون . وفى مثل هذا الوضع جاء نداء بيزنطية بطلب العون فى الوقت المناسب تماما . وكان الحجاج قد شقوا الطريق الى الشرق . وكانوا فى القصور الاقطاعية يظنون انه سيكون من السهل الاستيلاء على بلدان الشرق . والامل فى هذا خلقته الفوضى السائدة فى الدولة السلجوقية المقسمة الى اقطاعات شبه مستقلة . وكان الحكام السلجوقيون لا يضايقون بعضهم بعضا وحسب ، بل كانوا يتنافسون كذلك مع الملوك والامراء العرب ، وعدا ذلك ، قامت فى مدن سوريا ولبنان فى العقود الاخيرة من القرن الحادى عشر حركة من اجل الاستقلال الذاتى ، وضد سيادة الخلفاء المصريين من سلالة الفاطميين ؛ وهذه الحركة شملت ، فيما شملت ، صور وطرابلس ، اللتين طلبتا حتى المساعدة من السلجوقيين . واستغل السلجوقيون بدورهم الذريعة المناسبة لكى يستولوا على صيدا . وفى سنة ١٠٨٩ فقط ، استطاع الخليفة المصرى ان يستعيد السلطة على صور وسائر المدن التى انفصلت عنه . ولكن اضطرابات جديدة نشبت فى صور . وفى سنة ١٠٩٤ حاصرت القوات الفاطمية التى انطلقت باتجاه الشمال

هذه المدينة المينائية الكبيرة واستولت عليها بعد مرور ثلاث سنوات بانقضاض عاصف ، واعملت فيها نهبا وسلبا .

ومن المؤكد ان الكثير من تفاصيل الوضع المتقلقل سياسيا فى بلدان القسم الشرقى من حوض البحر الابيض المتوسط لم يكن معروفا فى الغرب ، ولكن فكرة عامة عن سوء الاحوال فى هذه المناطق كانت تكونها الانباء التى يحملها الحجاج واخبار التجار العائدين من الشرق ، . والتقارير الدبلوماسية التى كانت تتوافد الى الكورية الرومانية . ولهذا ، عندما طلبت بيزنطية من امراء الغرب ومن البابا العون ، لم يعمد الفرسان الى المماطلة فى الرد على هذه الطلبات . فقد فهموها وتقبلوها كدعوة الى شن حملة على الشرق لانتقاذ بيزنطية .

ولكن الاقطاعيين انفسهم كانوا فى حالة من التششت المفرط فلم يكن بمقدورهم بالتالى ان يقوموا باعمال منظمة على مثل هذه الابعاد الكبيرة ، الاوروبية من حيث الجوهر . فكان لا بد من تدخل قوة كانت ، كما رأينا ، المعبرة الرئيسية عن مصالح الاقطاعيين الغربيين الطبقية - عنيينا بهذه القوة الكنيسة الكاثوليكية ورئيسها ، وما لبث هذا التدخل ان ظهر . فان البابا اوربان الثانى ، وقد اقتنع بعقم المحاولات لتحقيق الاتحاد بالوسائل الدبلوماسية ، سلك سبيل غريغوريوس السابع . فقد عزز خطه بالضغط المسلح على بيزنطية بحجة تقديم العون لها ضد «الكفار» . واخذ البابا بالحسبان الميول العدوانية للحكام الاقطاعيين فى الغرب وحاول ان يستخلص من كل هذا اقصى النفع لاجل الكنيسة الكاثوليكية . فقد وفر تجمع الظروف وتطورها فرصة مناسبة لتحقيق المقاصد التوسعية القديمة للكورية الرومانية بمساندة الفرسان ، والقيام بخطوة مهمة لاجل تأسيس دولة تيوقراطية عالمية . وقررت الباباوية ان تستغل الوضع الناشئ فى العلاقات الدولية وتبلغ اهدافها السياسية الخاصة مع تلبية حاجات الاقطاعيين الغربيين الناضجة على حساب الغير .

واخذ البابا اوربان الثانى على نفسه زمام المبادرة الى تنظيم حملة جماهيرية على الشرق كانت فكرتها قد انتشرت فى الاوساط الاقطاعية فى اوروبا الغربية . وفى سنة ١٠٩٥ طرح برنامجا واسعا لتوحيد الفرسان لاجل فتح البلدان الشرقية تحت شعار مساعدة الروم من الاخوة فى الدين وتحرير قبر السيد المسيح .

هكذا نضجت فكرة الحرب الصليبية . وقد وقعت فى تربة مهياة تماما .

الحملة الصليبية الاولى



الدعوة الى العرب واصداؤها . تكوين ايدولوجية الحرب الصليبية

في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٠٩٥ ، عقد بابا روما اوربان الثاني مجمعا لرجال الدين في مدينة كليرمون فران الفرنسية . ان البابا لم يأت الى فرنسا لكي يضبط شؤون الكنيسة فيها وحسب . فعندما وطأت قدماه الاراضي الفرنسية ، انبا كذلك انه ينوى ان يساعد الاخوان المسيحيين الشرقيين . اغلب الظن ان البابا كان قد رسم في الوقت المناسب خطة ما للعمل ، قد لا تكون بعد كاملة الخطوط ، ولكنها واضحة الى هذا الحد او ذاك من حيث اهدافها ومغزاها العام . الا انه كان لا بد من بضعة اشهر لكي تكتسب هذه الخطة ملامح على ما يكفي من الدقة .

بعد ان وصل اوربان الثاني الى فرنسا ، اخذ يطوف على الاديعة الكلونية في جنوب البلد واحداً بعد آخر (فقد سبق له في حينه ان كان رئيس دير كلوني) . وهناك جرت مفاوضات اولية بصدد الحرب المقبلة التي كان لا بد لها ، من حيث ابعادها ، ان تتجاوز كثيرا حملات الفرسان الفرنسيين . منذ امد قريب الى ما وراء جبال البيرينيه . ومع من كان بمقدور البابا ان يتشاور

بشأن مشروعه وسبل تحقيقه ان لم يكن مع الرهبان الكلونيين ؟ كان الكلونيون لا يذكرون وحبيب ، خيرا من اى آخر ، ضرورة التدابير الجزرية التى من شأنها ان تقضى على الفتن الخطيرة التى تهدد الملكية العقارية الكبيرة فى الغرب ، بل كانوا كذلك يدركون بصورة اوضح من اى آخر تلك الوسائل العملية التى يمكن استعمالها لاجل بلوغ هذا الهدف . وقد تكدست عندهم تجربة لا يستهان بها فى الدعوة الى الحروب المقدسة والحج . وكان بمقدورهم ان يوحوا للبابا اوربان الثانى بامور وافكار كثيرة ، وما هو اهم ، ان يكونوا ذوى نفع فعال له فى تحقيق المشروع .

لم يكتف اوربان الثانى بزيارة ديور الرهبنة الكلونية . فان الحرب المقدسة التى كان يهين لها الكرسى الرسولى كانت تحتاج ، بالطبع ، الى واعظين يرفعون بايديهم صليب البركة ، ولكنها كانت تحتاج فى المقام الاول الى مقاتلين يملكون السيوف والرماح ، وكذلك الى قادة ذوى مكانة . وفيما بعد فقط ، اعلن اوربان الثانى ان الاحداث التى وقعت بغد مجمع كليرمون هى «قضية السيد الاله» . هذه الكلمات وضعها مدون الاخبار فولهير من شارتر (فرنسا) على لسان البابا . من الممكن ان يكون البابا قد نطق فعلا بهذه الكلمات ، ومن المحتمل انه حتى آمن فى صحتها . ولكن تلميذ غريغوريوس السابع كان سياسيا على ما يكفى من ثاقب النظر لكى يفهم هذه الحقيقة المعيشية البسيطة وهى انه ليس من مصلحة المكانة البابوية ، بل ليس من المعقول القيام بمشروع قبل التأكد سلفا من ان هذا المشروع سيحظى منذ بادىء بدء بمساندة اوسع الاسياد الدنيويين والكنسيين نفوذا على الاقل . ولقد اجتهد البابا لنيل مساندتهم سلفا .

ففى الطريق الى كليرمون قام بزيارتين مهمتين . فى آب (اغسطس) ١٠٩٥ تقابل اوربان الثانى فى مدينة بوى مع صاحب المقام الرفيع الكنسى البارز ، الاسقف اديمار من مونتيل (Adémar de Monteil) . يبدو ان البابا استطاع ان يتفق معه على ان يأخذ هذا الحبر الجليل على نفسه مهمة رئيس الصليبيين الدينى . كذلك زار اوربان الثانى ريمون الرابع كونت تولوز فى مقره الرئيسى - قصر سان جيل . وبنتيجة المفاوضات ، وافق هذا السيد ، - وكان من اكبر الاسياد فى اوروبا الجنوبية - ، على الاشتراك فى الحملة . وقد تجاوب الكونت ريمون الرابع بكل طيبة خاطر مع رغائب البابا ؛ فان الحرب التى كانت تهين لها روما كانت تتطابق تماما مع مصالحه بالذات .

ولئن كان اديمار من بوى وريمون دى سان جيل مطلعين على مقاصد

البابا ، فان الاقطاعيين الآخرين ، كما يجب الظن ، كانوا يظنون ان اوربان الثانى جاء الى فرنسا لاهداف اكبر من حل قضايا الكنيسة الداخلية . كذلك كان شعور مسبق غامض باحداث جدية ما ترتبط بوصول الرسول الاعظم (هكذا يسمى المؤرخون البابا احيانا) يستحوذ على الفئات الدنيا من الشعب التى ارهقتها واضنتها تماما بلايا السنوات الاخيرة .

فلا غرابة اذا كان قد توافد الى كليرمون آلاف الفرسان وعدد كبير من ذوى الالقاب الدينية ، واذا كانت قد تجمعت جموع لا تحصى من بسطاء الناس . وكل هذا الجمهور من الناس لم يكن من الممكن ان تتسع له المدينة حيث انعقد المجمع . ومع ان المجمع بحث فى سياق اسبوع (١٨-٢٥ تشرين الثانى - نوفمبر ١٠٩٥) مواضيع عادية ومألوفة بالنسبة لمثل هذا الضرب من المداولات - وفى المقام الاول مسألة «السلام الربانى» ، الا انه ضم عددا استثنائيا من الناس . يستفاد من بعض المعلومات انه ضم اكثر من ٢٠٠ (وحسب معلومات اخرى اكثر من ٣٠٠) من الاساقفة و ٤٠٠ من رؤساء الاديرة . ان عدد المشتركين فيه غير معروف بدقة ؛ فان الارقام التى ساقها فى هذا الصدد فولهير من شارتر وغيبرت من نوجان وغيرهما من مدونى الاخبار تختلف بعضها عن بعض ، بينما الوثائق التى وردت فيها اسماء جميع رجال الدين الذين توافدوا الى كليرمون لم تسلم . والمواد الرسمية التى وصلت الينا لا تعطى تصورات وافية كافية عن عدد المشتركين فى المجمع . مثلا . هناك وثيقة من الوثائق التى صادق عليها المجمع ، تحمل توقيع ١٢ من كبار الاساقفة ، و ٨٠ من الاساقفة ، و ٩٠ من رؤساء الاديرة ، ولكنه توجد معطيات اخرى . على كل حال ، تميز مجمع كليرمون بالفخامة وسعة التمثيل .

وبعد انتهاء جلسات المجمع الرسمية ، وبعد ان «وعد جميع الحاضرين ، سواء منهم رجال الدين او المؤمنون ، بمراعاة قرارات المجمع بأمانة» ، كما كتب احد مدونى الاخبار ، القى البابا اوربان الثانى فى ٢٦ تشرين الثانى (نوفمبر) ١٠٩٥ خطابا احتفاليا فى الهواء الطلق مباشرة امام حشد الذين تجمعوا فى السهل بجوار المدينة . وهذا الخطاب سبق ان فكر فيه البابا عميقا وجيدا ، ولم يكن البتة خطابا مرتجلا «من وحى الرب» . فقد دعا البابا الكاثوليك الى حمل السلاح لاجل الحرب ضد «قبيلة الأتراك الفارسية . . . الذين وصلوا الى البحر الابيض المتوسط . . . ذبحوا واسروا كثيرين من المسيحيين ، ودمروا الكنائس واجتاحوا مملكة الرب (المقصود هنا

الامبراطورية البيزنطية - المؤلف) . وهذا يعنى انه اطلق فى كليرمون
النداء الذى دعا الغرب الى الحرب الصليبية فى الشرق .

وقد حاول اوربان الثانى ان يصور الحرب التى استتحت «المؤمنين» على
شنها بصورة مشروع يجب القيام به لتحرير قبر السيد المسيح فى القدس
ولانقاذ «الاخوة العائشين فى الشرق» ، اى المسيحيين الشرقيين . ودعا البابا
المستمعين باسم الرب العلى : «انا اقول هذا للحاضرين واكلسف بابلاغ
الغائبين - هكذا امر يسوع المسيح» .

وفى وقت كان فيه الفرسان لا يفكرون نهارا وليلا الا فى ايجاد مجال
لميلهم الى القتال ، لم يكن من الممكن ان لا تجد دعوة اوربان الثانى التقية
والورعة ، وقد وجدت فعلا ، صدى من التعاطف فى الجمهور الواسع الذى
استمع اليها . ناهيك بان اوربان الثانى وعهد المشتركين فى الحرب
الصليبية ، «المناضلين فى سبيل الايمان» ، باسم الرب العلى مرة اخرى ،
بغفران الخطايا ، كما وعد المقاتلين الذين يستشهدون فى المعارك ضد
«الكفار» بالثواب الابدى فى الجنة السماوية . وهذا الوعد اضيف على اقوال
البابا وزنا خاصا فى عيون ذلك الجمهور اللجب من الاسياد ومن حملة
اسلحتهم الذى تجمع من جميع انحاء البلاد فى سهل اوفيرن ، كما قال مدون
الاخبار من بريتانيا ، وشاهد عيان مجمع كليرمون ، بودرى دول . وكثيرون
من هؤلاء الاسياد سبق ان حجوا للتكفير عن ذنوبهم وقاتلوا العرب فى حروب
مقدسة . ان تحرير قبر السيد المسيح ، الذى صوره البابا بصورة هدف
الحرب ، قد اتمن بالتاكيد غفران جميع الجرائم التى اقترفوها من قبل ؛ فقد
كان ذلك بحد ذاته مفرطا فى الاغراء بحيث لم يترك الفرسان عديمى الاكثارات
باقوال ومصطلحات اوربان الثانى التقية والورعة ولم يكن من الممكن الا
تفعل فعلها فيهم ملامات البابا الذى ضرب على وتر مشاعرهم الدينية وبسالتهم
القتالية . وان الراهب روبر من مدينة ريمس الذى اشترك فى مجمع كليرمون
قد نسب الى اوربان الثانى انه وجه الى الفرسان كلمات التملق والتزلف .
ولكن بواعث ودوافع اخرى انداحت من خطاب البابا . فان الذين يقطعون
على انفسهم عهدا ونذرا بالذهاب الى الارض المقدسة لا ينتظروهم الخلاص فى
الجنة السماوية وحسب ؛ فان النصر على «الكفار» سيعود عليهم كذلك بمنافع
ارضية محسوسة . الارض هنا ، فى الغرب ، - كما قال البابا اوربان
الثانى - لا تفيض بالثروات . اما هناك ، فى الشرق ، فانها تسيل عسلا
ولبنا ، و«القدس» انما هى محور الكون ، منطقة فائقة الخصب بالمقارنة مع
المناطق الاخرى . . . جنة ثانية» . ومن المؤكد ان الوعود كانت اقوى حجة

فى خطاب البابا . «ان من لهم الحزن والفقر هنا ، فى الارض سيكون لهم الفرح والغنى هناك ، فى السماء» . هكذا يعطى فولهير من شارتر هذه الفقرة من خطاب البابا ، محورا احكام الانجيل . ويروى روبر من ريمس ان هتافات مدوية قاطعت هذه الفقرة من خطاب اوربان الثانى : «هذه هى ارادة الرب ! هذه هى ارادة الرب !» لربما كانت هذه الهتافات مقررة سلفا ، ولكنه ليس من المستبعد انها كانت رد فعل عفويا من المستمعين المتكيفين لهذا الجو . وخطب البابا اوربان الثانى فى المقام الاول الفرسان المعدمين الذين تكاثروا ! : «اجل ، لا يجتذبكم ملك ما اليه ، ولا تقلقكم شؤون عائلية ما ، لان هذه الارض التى تسكنونها انما يضغط عليها من كل جانب البحر وسلاسل الجبال ، انها ضيقة بسبب كثرتكم (الاشارة لنا - المؤلف) . . . ومن هنا ينجم انكم تعضون وتلتهمون بعضكم بعضا وتخوضون الحروب وتتسببون بعضكم لبعض بكثرة من الجراح المميتة» . وقد دعا البابا الفرسان الى وقف الحروب والمذابح ، والتحرك الى فتح البلدان الشرقية : «روحوا فى الدرب المؤدى الى القبر المقدس (هكذا كانوا يسمون آنذاك طريق الحجاج الى القدس) ، انتزعوا هذه الارض من الشعب الكافر ، افتحوها لانفسكم !» . صحيح ان صراحة البابا اوربان الثانى تبدو من النظرة الاولى غريبة نوعا ما على لسان الراعى المسيحى الاعلى الذى كانما نسى وعظ الانجيل بحب القريب ، بحب الغير ، ولكن هذه الصراحة ليست مدهشة اطلاقا ، اذا اخذنا بالحسبان ان البابا كان يعرف جيدا من يخاطبهم ومن يتعامل معهم .

لم يكن للكنيسة ان تتوقع اى خير من قطاع الطرق النبلاء ، الامر الذى اقتنع به اوربان الثانى مرة اخرى اثناء اقامته فى فرنسا . فعشية انعقاد مجمع كليرمون تقريبا ، اضطر الى الاهتمام بقضية واحد من هؤلاء الفرسان الذين يعيشون فسادا ، هو المدعو غارنيه من ترنيل ، الذى اسر الاسقف لامبر من اراس . وكان هذا الحبر الجليل فى طريقه الى كليرمون حين اختطفه فى جوار مدينة بروفن بصورة لم يكن يتوقعها فارس كان يحسب ان يتقاضى فدية كبيرة عن اسيره الثمين ، الرفيع المقام . ان تدخل البابا الذى هدد مدنس المقدسات بالحرم من الكنيسة هو وحده الذى اجبر غارنيه على التخلي عن غنيمته «بخفى حنين» ، «لوجه الله» .

وامثال هؤلاء العلوج الذين كانوا من قبل مرتزقة لقاء جزاء زهيد هم الذين قصدهم البابا اوربان الثانى فى المقام الاول فى خطابه فى كليرمون . وبالطبع ، كانت الغبطة الابدية فى الجنة السماوية لا تكفيهم ؛ فقد كانوا يتحرقون الى الدور والعقارات ، والى القطع النقدية الرنانة ، وغير ذلك من

خيرات الارض ونعمها . والشئ نفسه يصح على الاسياد المالكين الذين اخذوا يشعرون بالضيق في ممتلكاتهم والذين كانوا يسعون الى توسيعها بأى ثمن كان . وقد توجه اوربان الثانى فى خطابه الى هؤلاء الطواغيت الاقطاعيين ايضا ناعتا اياهم بـ «بتملق وتزلف» بالمقاتلين الجابرة وباخلاف الاجداد القهارين» .

يزعم بعض المؤرخين الغربيين المعاصرين ان الباباوية كانت تهتم ، اكثر ما تهتم ، بتنظيمها الحملة الى الشرق ، بالسلام فى اوروبا ، وانها حملت ورفعت فكرة مجردة ما ، مسيحية من حيث جوهرها واصولها ، هي فكرة السلام . اما فى الواقع ، فان مطالب الاقطاعيين الاجتماعية والسياسية المحددة تماما قد قامت فى اساس الكرز البابوى بالحرب الصليبية (المعروضة ، طبعا ، بوصفها شرطا الزاميا للتصالح والسلام ، فى داخل الطبقة السائدة فى الغرب) . لقد ارادت الكنيسة الكاثوليكية ان توجه الى الشرق البعيد تطلعات الفرسان المدممين الجشعة الانانية لكنى قلوبهم تحرقهم الى الاراضى والنهب والسلب ولكن خارج حدود اوروبا . ولذا كان من شأن الحرب الصليبية ان توطد وتوسع سلطة الكنيسة الكاثوليكية بالذات ايضا ، وليس فى الغرب فقط ، بل ايضا على حساب بلدان الشرق .

وفى هذا ، والحق يقال ، تلخصت ، من وجهة نظر الباباوية ، مهمات الحملة التى اعلنت فى سهل كليرمون . وليس عبثا اكد البابا اوربان الثانى على ضرورة وقف الحروب الاقطاعية الداخلية التى تتسبب بضرر فادح للملكية العقارية الكنسية : «ليكف الكره بينكم ، لتصمت العداوة ، لتهدأ الحروب ، وتندثر الخصومات والنزاعات على اختلافها» .

لقى خطاب اوربان الثانى صدى حيا ، حماسيا بين المجتمعين . وحظى برنامج الزحف على الشرق بتحييد الاقطاعيين .

لن نبسط التاريخ ؛ فان الفرسان لم يبقوا عديمي الاكتراث بشعارات الزحف الدينية التى صاغها البابا . فان الاقطاعيين كانوا باغليبيتهم يتصورون الاهداف الفعلية من الحرب ، اى اهداف النهب والسلب ، ملفوفة بغطاء دينى . ان انقاذ المقدسات المسيحية كان يرمز فى مخيلة السيد ماثرة تمتزج فيها الاهداف السامية ، الدينية ، مع التطلعات الدنيوية ، العدوانية والاغتصابية المحضة . وحسب التصورات القروسطية ، لم يكن ثمة اى تناقض بالفعل فى تمازج مبادئ متنافرة على ما يبدو . ان الحرب الصليبية كانت تبدو للفرسان مواصلة للحج اى ، بتعبير آخر ، ضربا من حج مسلح . وفى هذه الحرب كان يتجسد انكار الذات من اجل الاهداف العليا ، المرتبط

بالتخلي عن الباطيل والبهارج الارضية وعن القيم المألوفة - لاجل انقاذ الروح بنحو اكيد للغاية ، وفعل الندم والتوبة ، والتكفير عن الذنوب ، علما بان الفرسان انفسهم كانوا يتوهمون انفسهم - وبمثل هذه المصطلحات بالضبط تعرب عن وعيهم الذاتى الاخبار المدونة وغيرها من شهادات معاصريهم - «فقراء بالمسيح» يزدرون ، «حبا للمسيح» ، المصالح العملية الدنيئة . وفى الوقت نفسه كانت الحرب الصليبية تجسد ماثرة المشتركين فيها امام الرب العلى الذى يجازى ابناءه المخلصين له بالنصر ، وبالغنيمة والثروة والاراضى مع النصر ، والذى يعرب لهم عن نيته الطيبة ، ويبرهن لهم عن اختيار الرب «للاوفياء» المستعدين للتضحية من اجله ، هو السيد ، «بارواحهم» .

منذ اواخر القرن الحادى عشر ، وبخاصة منذ زمن خطاب البابا اوربان الثانى ، اخذ ينشأ ايمان صلبى اصيل امتلا به الفرسان ، ايمان كان يجمع تكران الذات الدينى مع الافكار عن المكافاة الارضية السخية ، التى يجازى بها الرب جهود ابنائه المحبوبين القتالية . بهذا الباعث المزدوج كان مفعما خطاب اوربان الثانى فى كليرمون ، وهذا الباعث يتبدى فى جميع الاخبار التاريخية وفى سائر النصوص المحفوظة منذ زمن الحرب (او الحملة) الصليبية الاولى . ان خلاص النفس والاثراء الارضى لم يكونا يتناقضان ، بل كانا يكملان احدهما الآخر . «ليكلل الثواب المزدوج اولئك الذين كانوا (من قبل) لا يرحمون انفسهم لما فيه ضرر اجسادهم وارواحهم» . هكذا قال البابا داعيا الفرسان ، النهايين وقاطعى الطرق فى الامس ، الى الاستيلاء على ثروات الاعداء وارض القدس التى يسيل فيها العسل واللبن انهارا ، مانحا غفران الخطايا ، وضامنا الضبطة السماوية للمقاتلين الصليبيين المقبلين .

ان العالم الايطالى المعاصر ميكولى الذى حل تمازج دوافع الفرسان الدينية والاغتصابية ، المرفقة بالامل فى الاثراء الحقيقى ، قد وصف هذا التمازج وصفا صائبا وفكها بانه نصل ذو حدين للدين الصليبي . وكان من الاصح القول - نصل ذو حدين للايديولوجية الصليبية ، لان تصورات الصليبيين القيمة كانت تركز فى آخر المطاف على المفاهيم المسيحية العامة ، وان محولة وفقا لظروف حروب الفتوح والاغتصاب فى الشرق ، على الايديولوجية المسيحية .

وهذه الايديولوجية الصليبية اى مجمل النظرات التى صاغتها الكنيسة واستوعبها المقاتلون الصليبيون تطورت تطورا تاما ، فيما يخص اهداف الحروب الصليبية ومضمونها ، فى القرن الثانى عشر والقرن الثالث عشر ، فى سياق توسع الحركة الحربية الاستعمارية والاستيطانية فى القسم الشرقى

من حوض البحر الابيض المتوسط تحت الرايات الدينية ، وآنذاك تحولت جميع العناصر المبرقشة المتنوعة لهذه الايديولوجية الى قوالب (معايير) قيمة دقيقة يشكل مجملها الترسانة الفكرية للدعاية الكنسية لجميع الحروب الصليبية . وهنا اجتمعت فى كل واحد تصورات مختلفة . فمن جهة ، التعليم الخيالى الغريب المعتمد على «رؤيا يوحنا» وعلى كتابات آباء الكنيسة (وبينهم بصورة رئيسية اوغسطين البار) عن القدس السماوية او مدينة الرب ، التى يشكل بلوغها اسمى دعوة للمسيحى الحقيقى (علما بان القدس السماوية تماثلت فى مخيلة الفارس الجاهل مع القدس الفعلية ، الفلسطينية) ؛ ومن جهة اخرى ، انضمت الى هذا التعليم نظرية الخدمات والافضال المقدمة للكنيسة والتى تؤمن رحمة الرب ، علما بان رحمة الرب تصرف عقابات السماء ، وتعطى ، على العكس ، الخلاص الابدى . والى هذا انضمت فكرة اخرى ، فكرة الاستشهاد المقدس فى القتال ضد «الكفار» بوصفه آمن وسيلة لامتزاج روح المسيحى بالرب ، وافكار كثيرة اخرى .

وهذه الايديولوجية كانت منذ بادى بدء عاملا جبارا جدا اسبل رداء دينيا على تطلعات الفرسان الفعلية ، الارضية تماما . واحاطت دوافع الفتح والاغتناب بهالة القداسة فى عيون الفرسان انفسهم ، وصورت الحرب الصليبية بصورة مشروع لخلاص النفس وللفتح والاغتناب فى آن واحد . وكانما عرضت على الفرسان تبريرا مقنعا لعمالهم بشكل ، حسب تعبير الباحثة الكاثوليكية الاوسترالية مورين برسل ، «مزيجا» اصيلا ، فريدا (لا مرد له ، كما ترى هذه الباحثة) «من مكافاة دينية ومكافاة دنيوية» . المكافاة الاولى يمنحها البابا ، المكافاة الثانية - الاستيلاء - يصادق عليها . وتزعم هذه السيدة العالمة من راهبات القديسة آنا ان فكرة الحرب الصليبية فى ردائها المزدوج قد اصبحت فكرة من اوفر الافكار خصباً فى تاريخ البشرية . ويقينا انه لا تمكن الموافقة على هذا التقييم ، وسنرى فيما بعد اية ثمار حقيقية فعلية اسفر عنها تطوير الايديولوجية الصليبية وتطبيقها ، وليس فى محاكمات مورين برسل من صحيح غير قولها ان البابوية فى شخص اوربان الثانى استطاعت بالفعل ان تجد على الصعيد النفسانى طريقة للتقرب من الاقطاعيين ، استطاعت ان تضرب على الاوتار التى تجعل قلوبهم تنتفض وتترقص ، وتحمل اولئك الذين ، كما قال البابا ، «كانوا يحاربون فى الازمنة السابقة ضد الاخوة والاقرباء» ، على امتشاق السيف وتوجيهه الى هدف يبدو مفعما بالشهامة والنبيل .

ولكن خطاب اوربان الثانى النارى لم يستمع اليه الفرسان والاسياد

وحدهم . فقد استمع اليه كذلك اهل الريف المتضورون جوعا والمعدبون في العبودية القنية . وكان الفلاحون الفقراء يرغبون ، اشد ما يرغبون ، فى التخلص من نير الاقطاعيين ، ولهذا ، السبب بالذات كانوا يحلمون بالمآثرة التكفيرية . وان البابا ، سواء شاء ام ابى ، قد اوضح لهم الآن من حيث الجوهر ، مباشرة وصراحة ، ما يجب ان يكون عليه قوام هذه المآثرة . وليس الى مشقاتهم ألمح حين قال ان هذه الارض بالكاد تطعم الذين يحرقونها ؟ وبالوعد بخلاص «الشهداء» الابسدى ، بخلاص المناضلين من اجل القضية المقدسة ، واكثر من ذلك بالشفقات عن بلد الحكايات حيث يسيل العسل واللبن انهارا ، اهاج البابا الفلاحين الفقراء ايضا . الارض والحرية . هذا ما كان يتراءى فى خطابه للزراع والكراميين المغبونين والمحرومين . وهذه وتلك - الارض والحرية - كانتا تبدوان لهم ممكنتى البلوغ تماما ؛ ذلك ان البابا ، سعيا منه الى التعجيل فى حملة الفرسان الذين كانت مآثرهم اللصوصية تهدد رفاهية كبار المالكين الاقطاعيين وطمانينتهم ، قد اكد للصليبيين المقبلين ان السبيل الى القدس ليس طويلا وان بلوغ المدينة المقدسة لا يتطلب جهودا جديدة ما . ولربما كان هكذا يفكر ايضا بالفعل ؛ ذلك ان التصورات عن البلدان الآسيوية فى اوربا كانت لا تزال فى ذلك الزمن غامضة جدا ومتغيرة على العموم ؛ ولكن لربما استصغر البابا قصدا وعمدا اعباء الحملة المقبلة امام المستعمرين الذين كانوا يعرفون حقيقة الامر اقل من البابا نفسه ، لادراكه ان الهلاك المحتم يتهدد الآلاف «ممن لا ارض عندهم» ومن الفلاحين الفقراء الذين يدفعونهم الآن فى درب الرب العلى .

ومهما يكن من امر ، فقد سرى مفعول خطاب البابا اوربان الثانى فى كليرمون ، متجاوزا كثيرا توقعات البابا بالذات ، وحتى غير متطابق بقدر ما ، مع مصالح المبادرين الاقطاعيين الى الحرب الصليبية . اغلب الظن ان البابا حذر احتمال مثل هذا الصدى ، والا لما طفق ينصح الناس الضعفاء ممن لا يحسنون استعمال السلاح بالبقاء فى مطارحهم ؛ فان هؤلاء الناس ، كما قال البابا ، هم عقبة كبيرة اكثر منهم عون ، وهم بالاحرى عبء ، ولن يعودوا بالنفع . ولكنه كان من المستحيل ايقاف الفقراء وردعهم .

اما الفرسان والاسياد ، فان النداء الى تحرير الارض المقدسة قد وقع بينهم فى تربة صالحة تماما . ذلك ان الاحداث السابقة قد هيات الاقطاعيين تماما لكى يتلقفوه فى الحال ويندفعوا الى فتح البلدان فيما وراء البحار بحماسة مشتدة اسهم فى تسعير نارها كون شروط «الهدنة الربانية» ، كما قرر مجمع كليرمون ، تشمل الصليبيين الذين يعودون من الحرب ، وتشملهم

لمدة ثلاث سنوات (او حتى طوال مدة غيابهم عن الوطن) . وكان هذا يعنى ان الكنيسة تأخذ على عاتقها حماية عائلاتهم واموالهم . وهكذا كان بوسع الفرسان ان ينطلقوا دون ان يشعروا بالقلق على اهلهم واموالهم .

حملة الفقراء

نشرت الشائعة على آلاف الالسن بسرعة فى عموم الغرب بما فيه الجزر البحرية الانباء عن مجمع كليرمون وعن الحملة العتيدة الى القدس . وقد بدأت الاستعدادات فى فرنسا قبل كل شىء لانه كان يسود فيها بالذات جو مفعم كليا بالانفعال الدينى . وقد ساعد نشاط رجال الكنيسة الوعظى بقسط كبير فى تسعير نيرانه . فان البابا اوربان الثانى قد جمع الاساقفة فى اليوم التالى من القاء خطابه وعهد اليهم بان يشنوا «بكل الروح والقوة» حملة وعظ فى كنائسهم من اجل الحرب الصليبية . وبعد فترة قصيرة ، كلف خصيصا بمثل هذه المهمة بعضا من اوسع الاساقفة ورؤساء الاديرة نفوذا ؛ بعضهم كلفهم بالوعظ فى وادى اللوار وبعضهم الآخر ، فى نورمانديا ، والنخ . .

والبابا اوربان الثانى نفسه بقى فى فرنسا ، وذلك لمدة ثمانية اشهر بكاملها . وفى هذه الحقبة ، راح الى ليموج وانجيه ، والقى خطابات فى مجمعى تور ونيم ، ودعا الى الحرب الصليبية . كتب مؤرخ فرنسى : «حيثما كان ، كان يأمر فى كل مكان باعداد الصليبان وبالتوجه الى القدس لاجل تحريرها من الاثراك (اي من السلجوقيين - المؤلف)» . كذلك ارسل البابا رسائل بمثل هذه الدعوات الى الفلاندر والى مدينتى بولونيا وجنوه الايطاليتين .

وفضلا عن ذوى المقامات الرفيعة فى الكنيسة ، اخذ يدعو الى الحرب الصليبية وعاظ متعصبون من عداد الاخوة الرهبان ظهورا فى مختلف الاماكن ، وكذلك مجرد معتوهين شرعوا يدعون المستمعين الى القتال من اجل المقدسات المسيحية . فان الحرب الصليبية ، كما كانوا يقولون ، عمل ربانى وليست عملا انسانيا ؛ وللبرهان على ذلك كانوا يروون شتى الخرافات والسخافات - عن الرؤى النبوية ، وعن ظهور المسيح ومريم العذراء والرسل والقديسين ، وعن العلامات السماوية التى تنبئ بمعركة المسيحيين المقبلة ضد اتباع الاسلام .

ان رئيس الدير والمؤرخ الالماني ايكهارد من آوور ، الذى كتب فى

اوائل القرن الثانى عشر ، اى بعد الحرب الصليبية الاولى ، والذي كان مقتنعا حقا وفعلا بان حرب القدس لم يقررها الناس بقدر ما قررتها الافضال الربانية ، وبانها قامت وفقا للتنبؤات الانجيلية ، يورد فى الفصل العاشر من مؤلفه («عن اضطهاد وتحرير وبعث كنيسة القدس المقدسة») قائمة طويلة بالعجائب التى وقعت سنة ١٠٩٦ عشية الحملة . وفى هذه القائمة الفريدة نجد سحبا حمراء دموية تسبح من الشرق الى الغرب ثم تتصادم فيما بينها ، ويقع تظهر على الشمس ، ومذنبات متطايرة بسرعة خاطفة . وانبا احد الكهنة رعيته انه رأى فى السماء فارسين يتقاتلان . وقد انتصر ذاك الذى قاتل حاملا بيده صليبا كبيرا . وكانوا يتحدثون عن هدير المعارك المنداح فى السماء وعن مدينة سماوية تراءت لاحدهم ولم تكن بالطبع سوى القدس .

وانتشرت على نطاق واسع شهادات زعم انها سقطت من السماء واعلن فيها الرب عن عزمه على حماية فرسان الرب ، المقاتلين من اجل الرب . ويؤكد ايكهارد من آوورانه امسك فى يديه نسخة عن هذه الرسالة السماوية (اما الاصل ، فيزعم انه كان محفوظا فى كنيسة القبر المقدس فى القدس) . وكتب رئيس الدير المؤرخ ان بعض الناس «كانوا يعرضون علامة الصليب منطبعة من تلقاء ذاتها ، بطريقة ربانية ، على جباههم او على البسّتهم او على جزء ما من اجسامهم» ، وانها كانت حسب رأى الجميع ، اشارة من الاله العلى بانه يجب بدء الحرب ضد الهرطقة . والظواهرات غير العادية فى الطبيعة وفى الحياة البشرية ، ايا كانت ، ومنها ، مثلا ، وضع المرأة قبل الموعد ، كانوا يعتبرونها دليلا على اقتراب احداث رهيبة .

ولئن كانت مواعظ الاساقفة ورؤساء الاديرة معدة لاجل الفرسان ولاجل الاعيان الاقطاعيين ، فان الرهبان والمعتوهين كانوا يخاطبون الناس البسطاء . ان كبار رجال الكنيسة - والواقع ان بعضهم قد اخزى نفسه فى عيون الفقراء بالطمع السافر بالمال (ولم يكن من النادر ان يشتري الاساقفة بالنقود منصبهم الرابع) - لم يكونوا يوحون للفئات الدنيا بالثقة . وكانت هذه الفئات تتصور الراعى المثالى فى صورة انسان يقلد يسوع المسيح ورسله الذين كانوا لا يملكون شيئا . ولهذا اكتسب آنذاك اكبر قدر من الشعبية بين الجماهير الراهب روبير دابريسيل ولاسيما الراهب بطرس الناسك من بيكاردي ، الراهبان المتعصبان لحرب المقدسة ، اللذان خطبا فى شتاء ١٠٩٥-١٠٩٦ بصورة رئيسية فى القسم الشمالى الشرقى من فرنسا وفى اللورين ، علما بان بطرس الناسك وعظ كذلك (بعد فترة من

الوقت) فى مدن منطقة الرين فى المانيا . وهذا وذاك عملا ، حسب كل احتمال ، بموجب تكليف من اوربان الثانى .

يصور مدونو الاخبار ومن بعدهم كثيرون من المؤرخين من القرن التاسع عشر والقرن العشرين بطرس الناسك بصورة متعصب متحمس مهووس . وهو ايضا عرض رسالة تلقاها ، حسب زعمه ، من الرب يطالب فيها الكلى القدرة بتحرير القدس . وكان بطرس الناسك يروى للجموع المحتشدة حوله انه ، اثناء الحج فى القدس ، رأى فى نومه الرب بذاته ، وان الرب امره ، هو الراهب الوضيع بان يوجه اقدامه الى بطريك القدس ، وبان يعرف منه بلايا الارض المقدسة تحت نير الكفار ، وبان يعود الى الغرب ويوقظ فيه «قلوب المؤمنين لاجل تطهير الاماكن المقدسة» . وها هو ذا الآن ، بطرس ، الذى اجتاز البحر بمصاعب كبيرة وثقل ارادة الرب الى بابا روما ، يدعو مستمعيه الى امتشاق السلاح .

من قديم الزمان اثبت الباحثون بطلان هذه الخرافات . ولكنه من المعلوم كذلك ان بطرس الناسك (او بطرس من اميان ، كما يسمونه احيانا نسبة الى مسقط رأسه) كان يتحلى بموهبة خطابية ممتازة ؛ فان خطابات هذا الراهب لم تكن تؤثر فى الشعب وحسب ، بل ايضا فى الفرسان . ان نمط حياة بطرس الناسك ، وتقشفه وزهده ، ونزاهته وعدم تغرضه (كان يمضى مرتديا اسما لا صوفية على جسم عار ، ولم يكن يأكل لا الخبز ولا اللحم ، وكان يتغذى بالسّمك فقط ، وكان ملكه الوحيد بغلا) ، وكذلك توزيعاته النقدية السخية على الفقراء (لا يذكر مدونو الاخبار المصادر التى كان يستمد منها الاموال اللازمة) - كل هذا ، مرفقا بالخطابات النارية ، كان يكسبه شهرة كبيرة بين الفلاحين ؛ فكانوا يرون فيه رجل الرب وكانت الجموع تسيّر وراءه كأنما وراء قديس او نبي . كان يستهويهم فقره وسمعته كراهب براء من كل بذخ ، ويعرف كيف يصلح بين المتجادلين والمتنازعين . ويروى غيبرت من نوجان : «كان كثيرون ينتفون الصوف من جلد بغله لكى يحفظوه كذخيرة . . . انا لا اذكر شخصا حظى ذات يوم بمثل هذا التشريف» .

وقد فهمت الجماهير الشعبية على طريقته الاهداف التى نادت بها الباباوية من الحملة الصليبية ؛ فان برنامج الكنيسة الكاثوليكية كان يتحول فى وعى الفلاحين وفقا لمصالحهم ، المعادية من حيث الجوهر لمصالح منظمى وملهمى الحملة الصليبية الكنسيين والاقطاعيين . ومع ان بطرس الناسك ، مثله مثل الواعظين الآخرين من امثاله ، كان يطبق خطط البابا فعلا

ورسميا ، الا انه كان يعبر فى الوقت نفسه على طريقته ، والى حد ما ، عن
امانى الفئات السفلى . على كل حال ، من المشكوك فيه ان يكون البابا اوربان
الثانى قد فكر فى انتزاع الكادحين من اماكنهم ، اى من حيث الجوهر ،
الاسهام فى فرار الاقنان من الاسياد ؛ وفى افضل الاحوال ، كان يريد ،
اغلب الظن ، ان يحمل الشعب على تقديم الدعم المادى للفرنسان . وحين
رأى رجال الكنيسة بعد فترة وجيزة اى غليان واسع استثارته فى الفئات
الدنيا ، وفى المقام الاول بين الفلاحين ، النداءات الى الحرب الصليبية ،
قاموا بمحاولات لحجز الاقنان ، ولكن عبثا .

فى شتاء ١٠٩٥-١٠٩٦ اجتمعت فى فرنسا قوات مدنية غفيرة من الفقراء
المستعدين للذهاب الى المناطق البعيدة .

ان افعال جماهير الفلاحين قد اشترطها العوز المدقع والرهيب الذى
كانت تعانيه القرى آنذاك واشترطها اقوى بكثير مما اشترطتها المواعظ
التقية . كان الجوع يجبر الفلاحين على التسرع ، ولذا كانت تجمعاتهم تجرى
فى تسرع محموم . كان الفلاحون الفقراء يتركون اكواخهم ، ويبيعون بابخس
الاثمان من اى كان كل ما يمكن بيعه . يتذكر شاهد عيان : «لم يكن احد
يا به لشح المداخيل ، او يحرص على بيع البيوت والكروم والحقول بأسعار
مناسبة . . . كان كل يحاول بجميع الوسائل جمع مبلغ ما من النقود ،
فيبيع على يبدو كل ما كان عنده ، لا حسب قيمته ، بل بالسعر الذى يعينه
الشراة ، شرط ان لا يكون الاخير فى السير على درب الرب» . كان كل
امرى ، كما يقول مدون الاخبار هذا ، «يبيع افضل قسم من امواله بسعر
زهيد ، كأنما كان فى عبودية قاسية او كان معتقلا فى السجن وكان المقصود
افتدائه بأسرع وقت» .

يقينا انه لم يكن بمقدور غيبرت من نوجان ان يفهم الى النهاية دوافع
الفلاحين الحقيقية . وقد نشأ عنده انطباع كان الفلاحين الفقراء كانوا يخربون
قصدا وعمدا انفسهم بانفسهم : «كانوا يشترون كل شىء بأسعار غالية
ويبيعون بأسعار بخسة . . . كانوا يشترون بأسعار غالية كل ما كانوا بحاجة
الى استعماله فى الطريق ويبيعون بأسعار بخسة ما يجب به تغطية
التكاليف» . ويؤكد مدون الاخبار انهم كانوا يتسرعون ، وهذا التعبير يصف
بكل دقة مزاج الجماهير الفلاحية . وعن التسرع الاعظم الذى كان يحاول
الفلاحون الفقراء النزوح به يكتب آخرون من مدونى الاخبار . كان يخيل -
وكان ذلك بالفعل - ان الفلاحين يتحرقون من فارغ الصبر للذهاب الى ملاقة
الخطر .

وبديهي ان كثيرين منهم كانوا منتشيين بالحماسة الدينية المفرطة ؛ كان الذاهبون يصلون بفائق الحرارة ، وكان بعضهم يوسم بالنار صليباً على جسمه ؛ وكان ذلك مطابقاً تماماً لروح الزمن . ولكن فقراء الريف كانوا يسرعون قبل كل شيء لانهم كانوا لا يريدون انتظار الاسياد . كان الاقنان يسرعون بالاحرى للخلاص من مضايقات الاسياد ، وهذا السعى كان يخلق جميع دوافع التقى فى جماهير الفلاحين .

فى آذار (مارس) ١٠٩٦ نهضت اول جموع الفلاحين الفقراء من فرنسا الشمالية والوسطى ومن الفلاندر ولورين والمانيا (من الرين الاسفل) ثم من بلدان اخرى فى اوروبا الغربية (مثلاً ، من انجلترا) الى «الحج المقدس» . كان الفلاحون يمضون بلا سلاح تقريباً . كانت الهراوات والمناجل والفؤوس والمذارى تقوم عندهم مقام الرماح والسيوف ، ناهيك بان ليس الجميع كانوا يملكون ادوات العمل الزراعى هذه . «الجموع العزلاء من السلاح» . هكذا ستسميهم فيما بعد الكاتبة والمؤرخة اليونانية حنة كومنينة . ولم يكن معهم اى حصان او اية احتياطات تقريباً . كانوا يتحركون مثل حشود غير منتظمة من النازحين ، بعضهم مشياً على الاقدام ، وآخرون على عربات من عجلتين تجرها ثيران منعلة ، مع نسائهم واولادهم وامتعته البيتية الحقيرة . كان الاقنان يبتعدون عن الاسر الاقطاعى ، عن المضايقات والمجاعة ، آملين سرا فى تدبير امورهم بنحو افضل فى اماكن جديدة ، فى «ارض الميعاد» . وعلى الطرقات التى سبق ان طرقها الحجاج - بمحاذاة نهر الرين ونهر الدانوب وابتعد الى الجنوب الى القسطنطينية ، كانت تمتد ارتال العربات .

كانت ثمة طريقان كبيرتان تجتازان شبه جزيرة البلقان وتؤديان الى عاصمة بيزنطية . كانت احدهما تبدأ فى دراتش وتمر عبر اوهريد وفودينا سلانيك (تسالونيكي) وريدستو وسليمفريا . وهذه الطريق القديمة سبق ان شقت فى ازمة روما القديمة ، وكانت تسمى كما من قبل بطريقاً اغناطيوس . وكانت الطريق الثانية تمر اولاً فى اراضى المجر ثم تنطلق من بلغراد وكذلك عبر ممتلكات بيزنطية فى بلغاريا ؛ وبمحاذاة الطريق كانت تنتصب مدينة نيش وسرديتس (صوفيا) وفيليبوبول وادريانوبول . وفى هذه المناطق ، كما نعرف ، لم يكن الحال هادئاً بسبب من غارات قبائل البتشيخين ، وكان الحجاج يمضون عادة على طريق اغناطيوس . ولكن فصائل الفلاحين الفقراء كانت تندفع بالضبط عبر بلغراد - نيش ، الى الجنوب الشرقى ، الى القسطنطينية .

كان يمضى عشرات الآلاف من الناس . كانت فصيلة الفلاحين من فرنسا

الشمالية الذين كان يقودهم الفارس غوتيه المعدم (Gautier Sans Avoir) تضم زهاء ١٥ ألفا (كان ٥ آلاف منهم فقط مسلحين كيفما اتفق) ؛ وكانت الفصيلة برئاسة بطرس الناسك تضم زهاء ١٤ ألفا . وكان ٦ آلاف فلاح يسيرون بامرة الفارس الفرنسي فولهير من اورليان . والعدد نفسه تقريبا من الفلاحين سار وراء الكاهن غوتشالك الذى ليس عبثا نعتة ايكهارد من آوورا «بالخادم الكذاب للرب» ؛ وكانت الفصيلة الانجليزية اللورينية تتألف من زهاء الفين . وجميع فئات الصليبيين هذه كانت تتصرف متشتتة ، دون تناسق . وكانت محرومة من كل انضباط وطاعة .

وآنذاك ، حاول اشد الفرسان نزعة الى القتال استغلال الحركة الفلاحية فى اهدافهم . ومن هؤلاء كان الفرسان الفرنسيون غوتيه المعدم واخوته الثلاثة وعمه (واسمه غوتيه ايضا) ، وفولهير من اورليان ، وجليوم النجار ، وفيكونت ميلان وغاينيه (قد نال لقبه بسبب قوة الضربة ؛ وقبل ذاك ببضع سنوات كان الفيكونت قد سعى وراء السعادة فى اسبانيا) ، وكلاريمبود من الفنده ، ودروغو من نيل ، وغيرهم من القادة ذوى الالقاب ولكن المفتقرين . ومع الفلاحين الذين انطلقوا من المانيا ، توجهت كذلك جملة من الفرسان المغامرين - من مقاطعات الرين وفرنكونيا وشوابيا وبافاريا . وكان منهم المدعو فولكمار ، والكونت اميخ من لينينغن ، الذى لم يكن من فئة الفقراء (فان ممتلكاته كانت تقع بين ترير وماينتس وكان على قرابة مع رئيس اساقفة ماينتس) ، ولكنه كان يتميز ببخل لا يصدق وباخلاق اللصوص وقطاع الطرق ، وهوغ توبينغن ، والكونت هارتمان فون ديللينغن .

اراد الفرسان ان يستولوا على قيادة الشعب البسيط ، وقد افلحوا جزئيا فى ذلك . فان الفرسان القادة من طراز غليوم النجار واميخ من لينينغن كانوا يبدون اثناء الزحف اكبر قدر من الوقاحة والقساوة . وللمناسبة نقول ان هذين الاثنين قد نهبا قبل سفرهما الكنائس فى ممتلكاتهما لى يؤمنا لنفسيهما النقود للطريق .

صحيح ان فصائل الفلاحين كانت تتخللها عناصر اقطاعية ، ولكن طابع الحركة بمجملها لم يتغير ، بل انها احتفظت حتى بسيمائها الخارجية . ان حركة الفلاحين ، العفوية منذ نشأتها ، قد جرت بدون اى تنظيم صحيح ، بدون خطة عامة . كان الفلاحون الفقراء الصليبيون يتصورون تصورا غامضا للغاية مكان الهدف النهائى من حملتهم . ويستفاد من اقوال غيبرت من نوجان ان الاولاد الصغار الذين كانوا مع الكبار فى العربات والذين كانوا

يستمعون الى احاديثهم عن المدينة المقدسة المجهولة ، كانوا كلما رأوا في الطريق قصرا او مدينة ما ، يسألون ما اذا لم تكن هذه القدس التي يمضون اليها .

في مقدمة فصيلة من فصائل بطرس الناسك ، كانت تسير . . . وزة وعنزة . كائتا تعتبران مفعمتين بالهناأة الربانية وتتمتعان باحترام كبير بين الفلاحين ؛ يقول ألبر من آخن انهم كانوا «يبعدون» ازاءهما «علائم الاحترام التقى فوق الحد ، وكانت العساكر العظيمة ، مثل الماشية ، تسير اثرهما مؤمنة في ذلك من صميم الروح» . كان الفلاحون يرون في الحيوانين زعيمين للفصيلة . ان الراهب ألبر من آخن الذي استبد به الغضب من «الجريمة الشنيعة التي يقتربها الجمع الماشى الغبي والمتهوس» قد ادرج في حديثه الواقعة الشهيرة التي حدثت للاوزة والغنزة . فان هذا ، بنظره هو خادم الكنيسة ، ضلال وثنى . وبالفعل ، كانت تتشابك بشكل عجيب في تصورات الفلاحين الدينية العقائد المسيحية والعقائد السابقة للمسيحية - فقد كان احترام الحيوانات الداجنة يتعايش تماما مع الايديولوجية الكنسية الرسمية . ذلك ان الفلاحين كانوا يتفهمون هذه الايديولوجية على طريقتهم الخاصة ؛ ولربما في بقايا الوثنية على وجه الدقة كانت تنعكس بنحو اصيل وفريد وجهة زحف الفلاحين الفقراء المعادية للاقطاعية .

صحيح ان الفرسان انضموا الى جموع الفلاحين ، ولكن الاقنان انفسهم كانوا يحاولون ان يتخلصوا قدر الامكان من رفاق الطريق النبلاء . وعندما وصلت فصيلة بطرس الناسك الى كولونيا (١٢ نيسان - ابريل ١٠٩٦) تابع جمهور الفلاحين سيره بعد ثلاثة ايام ، كما يفيد مدون الاخبار اوردريك فيتالى . وبقي مع بطرس الناسك فسى كولونيا زهاء ٣٠٠ فارس فرنسي لم يغادروا المدينة الا بعد مرور اسبوع على الاقامة فيها . وكان من الجلي ان الاقنان لا تطيب لهم رفقة الفرسان في الطريق . كان يتعين عليهم احيانا ان يقبلوا المغامرين الاقطاعيين بصفة آمريين عسكريين ؛ ولكن تطلعات الفلاحين الفقراء وتطلعات الفرسان كانت من حيث جوهرها متضادة تماما .

في الطريق سلك الصليبيون سلوك النهايين . فائناء مرورهم في اراضي المجريين والبلغار ، كانوا ينتزعون المأكولات بالعنف من السكان ، ويسوقون الاحصنة والبقر والغنم ويقتلون ويغتصبون ويتعسفون . كان النهب بالنسبة للفقراء الاسلوب الوحيد لتحصيل ما يأكلونه . وكان الصليبيون يواصلون النهب والسلب بعد دخولهم اواضي بيزنطية . لم يكن لدى الفلاحين نقود لكي يدفعوا ثمن المؤونة المقدمة لهم بامر الامبراطور الكسيوس كومنينوس .

ناهيك بان عددا لا يستهان به من العناصر المتفسخة طبقا اى من المجرمين الجنائيين الذين كانوا يرون فى المشروع الصليبي مجرد وسيلة ملائمة لاجل النهب والسلب ، - كان يشترك فى زحف الفلاحين الفقراء . «ان كثيرين من شتى الاوباش قد التحقوا بالعسكر الصليبي ، لا لكى يكفروا عن الخطايا ، بل لكى يقتربوا خطايا جديدة» . هكذا يصف احد مدونى الاخبار هؤلاء الصليبيين .

ويقع قسط كبير من المسؤولية عن النهب والسلب فى اراضى المجرين والبلغار على عاتق عصابات الفرسان التى انضمت الى جموع الفلاحين . رد المجرىون والبلغار واليونانيون ردا حازما على محررى قبر السيد المسيح غير المنتظرين . فقد كانوا يبيدون الصليبيين بلا رحمة ، وينتزعون منهم الغنيمة التى استولوا عليها ، ويطاردون الباقين . وفى الاشتباكات كان الصليبيون يكابدون خسائر كبيرة . ويستفاد من شهادة البر من آخن ان فصيلة بطرس الناسك التى اضطرت الى مقاتلة عساكر بيزنطيين فى جوار مدينة نيش قد غادرت المنطقة بعد ان خسرت ربع اعضائها .

اتجه الفلاحون الفقراء الصليبيون نحو عاصمة الروم متجنبين فيليبوبول وادريانوبول . وشرعت جموع الفلاحين تصل الى العاصمة منذ اواسط تموز (يوليو) ١٠٩٦ . وكانت قد نقصت كثيرا : ذلك انه كان قد تصرف اكثر من ثلاثة اشهر منذ بداية الحملة . كانت فصيلة غوتيه المعدم اول فصيلة تقترب ، ثم بعد اسبوعين ، فى اول آب (اغسطس) ، انضمت اليها فصيلة بطرس الناسك . ان كثيرين من الفلاحين الذين كانوا ياملون فى نيل الحرية فى اراضى العرب ، لم يتسن لهم حتى ان يصلوا الى القسطنطينية ؛ فان الصليبيين قد خسروا فى اوروبا زهاء ٣٠ الف رجل . وكادت تهلك كليا فصائل فولكمار وغوتشالك واميج لينينغن ، رغم ان قادتها انفسهم سلموا ووصلوا الى القسطنطينية .

ان الصليبيين الذين فسدت معنوياتهم باعمال السلب والنهب السابقة قد سلكوا فى عاصمة الامبراطورية البيزنطية ايضا سلوكا منفلتا لا ضابط له . فقد كألوا يدمرون ويحرقون القصور فى ضواحي المدينة ، ويتخاطفون صفائح الرصاص التى كانت سطوح الكنائس مصنوعة منها .

فى البدء حاولت الحكومة البيزنطية ان تبدى التماسك والصبر حيال القادمين ذوى الثياب الرثة . حتى ان الامبراطور الكسيوس كومنينوس استقبل فى قصره بطرس الناسك وفولكمار . ويروى البر من آخن فى مؤلفه «تاريخ القدس» عن هذا اللقاء كما يلى : «كان بطرس ، على صغر قامته ،

يتحلى بعقل عظيم ويتميز بالبلاغة . وقد ساقه رسل الامبراطور وحده فقط مع فولكمار الى الامبراطور ، لكي يتأكد من صحة الشائعة التي بلغته عن بطرس . ووقف بطرس بثقة امام الامبراطور وحياء باسم السيد يسوع المسيح وحدثه بجميع التفاصيل عن مغادرته لوطنه بدافع حبه للمسيح ورغبته في زيارة قبره المقدس . كذلك ذكر البلايا التي اضطر الى تحملها في وقت قصير وقال للامبراطور ان الاسياد الجبابرة ، والكونتات ، والدوقات اللامعين سيظهرون عما قريب على اثره (اي على اثر بطرس - المؤلف) . ونصح الامبراطور الكسيوس الاول بدوره زعيم الصليبيين ذوى الثياب الرثة بانتظار الصليبيين الفرسان . وقال : «لا تعبروا البوسفور قبل وصول القوات الرئيسية من العساكر الصليبية ، فائتم قليلون للغاية حتى تقهروا الاترك» . بل ان الفاسيلفس زود الفقراء ببعض الاموال لكي يمكنهم من البقاء بعض الوقت في العاصمة . ولكن عبثا !

كان الفلاحون يندفعون الى «ارض الميعاد» ؛ وبما ان الامبراطور الكسيوس الاول قد اقتنع بان لا جدوى من محاولات الاقناع ، فقد رأى ان من الافضل التخلص بأسرع وقت من الحلفاء غير المدعوين . وبعد مرور اقل من اسبوع على وصول بطرس الناسك الى القسطنطينية ، بدأ الامبراطور ينقل الصليبيين الى الساحل الآسيوي من البوسفور . وقد جمعوا جموع القادمين واسكنوهم مخيما على الساحل الجنوبي من خليج نيقيديا ، على بعد زهاء ٣٥ كم الى الشمال الغربى من مدينة نيقية . ومن هنا ، اخذت بعض الفصائل تقوم على عهدها ومسؤوليتها بغارات بعيدة الى هذا الحد او ذاك وتقاتل السلجوقيين . واخذ بطرس الناسك على نفسه مهمة القيادة العامة ، ولكنه لم يكن يصلح لها البتة ؛ وقد حاول ان يوقف عساكره ، ولكن عبثا . فعاد الى القسطنطينية .

وبعد فترة وجيزة سرت في المخيم الرئيسى اشاعة مفادها ان النورمانيين احتلوا نيقية . فهيج هذا الخبر سائر الصليبيين الذين كانوا يخافون من تفويت نصيبهم من الغنيمة . واندفعوا فى الحال الى نيقية . وقبل ان يصلوا اليها ، قابلتهم العساكر السلجوقية التى استعدت فى الوقت المناسب للاشتباك مع عساكر المسيح (هكذا يسميهم فى المعتاد مدونو الاخبار الاثينيون) . وفى ٢١ تشرين الاول (اكتوبر) ١٠٩٦ سحق السلجوقيون فصائل الصليبيين من ٢٥ الف رجل . وفى عداد من سقطوا ، كان بعض القادة وبينهم غوتيه المعدم . ووقع كثيرون من الفلاحين الفقراء فى الاسر وبيعوا عبيدا . واستطاع زهاء ٣ آلاف رجل تحاشي القتل والاسر بالفرار

العاصف الى القسطنطينية . وحاول بعضهم بعد بيع امتعته هنا ان يعود الى الوطن ، وبقي الآخرون ينتظرون وصول الكونتات والدوقات اللامعين . هكذا كانت النهاية الفاجعة لمحاولات الاقنان الفرار من سلطة الاسياد . ان حملة الفقراء الصليبية لم تكن في اساسها سوى عمل اصيل ، مزين برداء الدين ، اعرب به الاقنان عن احتجاجهم الاجتماعى على الاوضاع الاقطاعية . وكانت نوعا ما مواصلة لنضالات الريف القنى السابقة ، الهامدة ، ضد الاقطاعية . وتأتى لجماهير الاقنان ان تدفع ثمنا غاليا لمحاولتها تحقيق حلمها فى التحرر باجتراح ماثرة دينية . ان الاوهام الساذجة التى غذتها الكنيسة فى جماهير الاقنان المسحوقة تحت وطأة الفقر الفكرى قد تبددت لدن اول اصطدام بالواقع الفعلى . ان الفلاحين لم يكسبوا فى الشرق الارض والحرية ، بل كسبوا هلاكهم وحسب .

بداية حرب الفرسان

بينما كان الاقنان الذين اندفعوا نحو الشرق اما قد لقوا مصرعهم واما فى الطريق الى هذه النهاية ، بدأت حرب الفرسان والاعيان الصليبية ، والاصح القول ، الحرب التى كان يعود فيها الدور الحاسم اليهم ، اذ ان جماهير الفلاحين الفقراء التى كانت تابعة للكونتات والدوقات قد اشتركت فيها . فى آب (اغسطس) ١٠٩٦ ، تحركت طوابير كبيرة من اللورين ومن على الضفة اليمنى من نهر الرين . وكان يرأسها دوق اللورين السفلى (وقد امتلكها منذ سنة ١٠٨٧) غودفروا دى بويون الرابع (Godefroy IV de Boulogne dit de Bouillon) (بويون قصر فى جبال الاردن) . الا ان اللقب الدوقى والاصل النبيل الارىستقراطى (دوقات بولون الذين يعود اصله اليهم كانوا ينتسبون الى الكارولينجيين) لم يؤمنا له ثبات ممتلكاته ؛ فلم يكن سيدا مطلق السيادة الا فى دوقية انفرس وفى قصر بويون ، بينما القسم الباقى من اللورين السفلى كان الامبراطور الالماني قد انعم به عليه كاقطاع . وبفتح الاراضى فى البلدان الشرقية كان غودفروا الرابع يأمل فى شغل مواقع اشد رسوخا وثباتا فى العالم الاقطاعى .

والى غودفروا دى بويون انضم اخوه الاكبر الكونت يفستافى من بولون واخوه الاصغر بودوان (Baudouin) ، من بولون ايضا . وهذا الاخير كان من قبل من رجال الدين ، ولم يكن يملك البتة فسى الوطن اية ممتلكات ، وكانت الرغبة فى كسب الممتلكات تشكّل الحافز الرئيسى الذى دفعه الى

الاشتراك فى الحرب المقدسة . والى دوق دى بويون انضم كثيرون من اتباعه ، بمن فيهم بودوان له بورغ ، ابن عم غودفروا الرابع ، والكونت بودوان من اينو ، والكونت رينو من تول . وكان كل منهم يقود فصائله المسلحة . وجميع هذه القوات الفرسانية (اساسا) اتجهت نحو نقطة تجمع الصليبيين - القسطنطينية - على طريق الرين - الدانوب التى سارت عليها قبل ذاك بقليل فصائل الفلاحين الفقراء .

ان الملك المجرى كولومان - الذى مرت للتو فصائل الفلاحين فى اراضيه قائمة بالتهب والسلب - لم يوافق على منح حرية عبور اراضيه الا شرط ان يعطوه ضمانات معينة قوامها ان لا تصاب المجر باية خسارة . ولدعم هذه الضمانات كان على غودفروا الرابع ان يبقى له رهائن . تقابل كولومان والدوق على جسر فوق نهر ليتا ، ثم مرة اخرى فى القصر الملكى ؛ وبعد مفاوضات طويلة ، عقدا اتفاقية . وقد تركوا بودوان دى بولون مع اقرب الناس اليه رهائن فى يد كولومان . وعندما وصلت قوات غودفروا الى بلغاريا وعبرت نهر سافا ، اعاد المجرىون الرهائن . وكان ذلك فى تشرين الثانى (نوفمبر) ١٠٩٦ . وواصل الصليبيون من اللورين سبيلهم الى الممتلكات البيزنطية . وبدون حوادث تذكر ، وصلوا قبيل عيد الميلاد الى ضواحي القسطنطينية .

ان الاساطير من زمن اقرب الينا قد جعلت من غودفروا الرابع البطال الرئيسى فى الحرب الصليبية . وقد نسبوا اليه غيرة دينية خاصة ، وشجاعة شخصية مدهشة وكفاءات بارزة كقائد عسكري . وان البر من آخن ، الذى يشكل مؤلفه «تاريخ القدس» مديحا لدوق اللورين ، يعتبر ان هذا السيد كان يستهدى بدوافع تقية حصر . وعندما اعتزم السير فى درب الرب ، «كان غالبا ما يطلق الزفرات ، لان زيارة مدينة القدس المقدسة ورؤية قبر السيد يسوع قبل كل شئ كانتا اكبر رغائبه ، وغالبا ما كان يكشف مكنون قلبه لاقربائه» . واثناء الحملة بالذات ، كان تدخل غودفروا الرابع تدخلا جريئا فى المعركة العامل الحاسم فى انتصار الصليبيين . حسبته ان يظهر على صهوة حصان حتى «يطلق» السلجوقيون «الاعنة لخيولهم ويولوا الادبار بسرعة عاصفة ، بعد تأكدهم من صلابة روح الدوق ومقاتليه» . ويتمتع الدوق باحترام جميع العساكر ، وهؤلاء يمثلون جميعهم ، كبارا وصغارا ، لصوته ونصائحه . ويشبهه مدون اخبار آخر غودفروا دى بويون - من حيث القوة ، والضراوة فى القتال ، والالهام - بالبطل هكتور من ملحمة هوميروس .

ان جميع هذه المدائح لا تتفق مع الواقع . فمعلوم ان هذا السيد التقى
كان في موطنه يقوم بدأب وانتظام بنهب الاديعة في جوار بويون . ولكي
يعزز غودفروا الرابع سمعته ومكانته ، عمد بنصيحة امه ، قبل انطلاقه
في الحملة ، حتى الى تقديم بعض الهدايا والتبرعات الى الاديعة التي نهبها .
اما المواهب العسكرية ، فلم يتميز بها . وعلى العموم ، لعب غودفروا الرابع
في المشروع كله دورا متواضعا جدا ؛ واغلب الظن ان كفاءاته المتوسطة
تماما ، وميله الى الحلول الوسط في الجدالات الحادة ، - خلاصة القول ،
انتماءه الى انصار الوسط الذهبي ، - كل هذا بالذات هو الذي قدم له
خدمة معينة في ترقيه ، الذي بدأ بنجاح بعد نهاية الحملة الصليبية ، ولكن
الذي سرعان ما قطع الموت المفاجيء حبله .

وكان قائدا فصائل الفرسان من ايطاليا الجنوبية وفرنسا الجنوبية الامير
بوهيموند من تارنتو Bohémond de Tarente ، وريمون دي سانجيل ،
كونت تولوز ، شخصيتين ابرز من غيرهما في الحرب الصليبية .
فقد ترأس الاول الفرسان النورمانيين الايطاليين . وكان ماضي هذا
الامير مرتبطا بحروب النورمانيين ضد بيزنطية . وفي اوائل الثمانينيات
اشترك في حملة والده روبر غيسكار ، وسعى الى اقتطاع ارض لنفسه في
البلقان . الا ان الروم هزموه في سنة ١٠٨٣ في جوار لاريسا . والآن
سنحت لهذا الامير فرصة ملائمة لتحقيق نواياه المزمنة . كانت ممتلكات
بوهيموند في ايطاليا الجنوبية تافهة ؛ فلم يرث غير امارة تارنتو الصغيرة ؛
اما جميع اراضي غيسكار الاخرى ، فقد ورثها ابنه من زواجه الثاني ، روجيه
بورسا . وتلاحظ حنة كومنينة التي تحدثت فيما بعد عن عساكر بوهيموند
انها لم تكن كثيرة لان هذا القائد كانت تنقصه النقود . ان الحملة الى الشرق
التي دعا اليها البابا جاءت توفر لامير تارنتو امكانيات واسعة ؛ وكان قد سمع
الكثير عن ثروات البلدان الشرقية وعن الخلافات بين حكامها ؛ فقد كان يحمل
الانباء عن كل هذا تجار باري وامالفي ، بعد عودتهم من سوريا وفلسطين .
وقد اصبح تأسيس امارة مستقلة في الشرق هدف بوهيموند الحميم . وخلافا
لغودفروا دي بويون ، كان يتحلى بكفاءات عسكرية وديبلوماسية غير عادية ،
وبخبرة الامر العسكري طوال سنوات عديدة ؛ ومنذ بادىء بدء اخذ يطبق
برنامجا بصورة منهجية وبعد تفكير عميق .

ان صاحب الاخبار «افعال الفرنجسة» ، الفارس النورماني من محيط
بوهيموند ، يصور ظروف انطلاق بوهيموند في الحملة من باب الصدفة .
فثناء حصار امالفي المنتفضة ، رأى بوهيموند قوات الفرسان الفرنسيين تمر

على غير بعد كبير عنه ، وحين علم انها تمضى للقتال من اجل القبر المقدس ، اعلن في الحال انه هو ايضا يأخذ الصليب (اي يأخذ النذر باشتراكه في الحملة الصليبية) . ومزق الامير معطفه مزقا ، وصنع منها صلبانا وشرع يوزعها على الراغبين . وتواجد من الراغبين عدد كاف لانه كان في ايطاليا ، كما يقول مدون آخر للاخبار هو غوفريد مالاتير ، كثيرون من الفرسان الشبان المتحرقين الى المغامرات ، الامر الطبيعي جدا في عصرهم .

اما في الواقع ، فان بوهيموند ، كما بينت الاحداث اللاحقة ، كان يعرف من زمان عن المشروع البابوي وقد بنى في هذا الصدد خططا بعيدة المدى . هناك امر صحيح واحد فقط ، هو ان كثيرين من الاسياد الصغار من ايطاليا الجنوبية وصقلية قد اقتدوا به بالفعل في الحال ؛ فانها لمعروفة اسماء ابني عمه ريتشار من ساليرنو وراينولف وابنه ريشار ومحاربين نورمانيين آخرين . واخذ الصليب ابن اخي بوهيموند ، المقرب منه ، تنكريد (Tancrede) ، البالغ من العمر عشرين سنة ، والذي لم تكن له حصة من الارض ، ولذا كان فارسا يتميز بنزعة حادة ، خاصة ، الى القتال ، وكان بلا ريب جريئا وباسلا (ويشبهه مدون الاخبار راوول من كايان شجاعته بشجاعة الاسد) ، ولكنه كان مغامرا جشعا ، انانيا ، شقيا ، متغطرسا ، مكارا ، وخاليا تماما من صفات القائد العسكري .

وهكذا رفع الحصار عن امالفي ؛ وفي تشرين الاول (اكتوبر) ١٠٩٦ ، ركب مقاتلو بوهيموند من تارنتو السفن في باري . اجتاز النورمانيون بحر الادرياتيك ونزلوا في ثغر افلونيه في ابيروس . ومن هناك ، تحركوا عبر مقدونيا وتراقيا الى عاصمة بيزنطية . ولا ريب في ان قائد هذا الجحفل بوهيموند من تارنتو كان من بين جميع زعماء الصليبيين اوفرهم موهبة وذكاء وفكرا سليما ، كما كان في الوقت نفسه اكثرهم وقاحة وصفاقة في وسائل بلوغ الاهداف المنشودة .

وكما عند غودفروا دي بويون ، ظهر كذلك عند بوهيموند ، مع مرور الزمن ، متملقون في عداد مدوني الاخبار . فان النورماني راوول من كايان يصوره بصورة صاحب المبادرة او يكاد الى الحرب الصليبية ، ويصوره على كل حال بصورة زعيم سائده شعب بلاد الغال بأسرها ، وشعب ايطاليا بأسرها ، وفضلا عن ذلك ، شعوب اوروبا بأسرها . «ليس ثمة بلد من ذلك الجانب من جبال الالب ، من ايليريا الى المحيط ، يمتنع عن تقديم المساندة المسلحة لبوهيموند» . هذه ، بالطبع ، مبالغة شديدة . ولكن بوهيموند لعب بالفعل دورا بارزا في احداث الحرب الصليبية .

آنذاك ، فى تشرين الاول (اكتوبر) ١٠٩٦ ، انطلق جيش كبير من فرنسا الجنوبية . وكان ريمون دى سانجيل ، كونت تولوز ، على رأسه . ولقد سبق ان دفعه التحرق الى الفتوحات فى الثمانينيات الى الاشتراك فى الريبونكيستو الاسبانية ، ولكنه منى هناك بالافاق (مثلا بوهيموند من تارنتو لم يبلغ شيئا فى بيزنطية) . غير ان هذا الفشل اسعر حمية الكونت كثيرا . ورغم تقدمه فى السن (وكان قد تجاوز الخمسين كثيرا) ، كان اول من استجاب لخطاب اوربان الثانى فى كليرمون .

يصف مدون الاخبار بودرى من دول وصفا معبرا المشهد الذى جرى فى كليرمون بعد خطاب البابا . فقد ظهر هناك رسل ريمون دى تولوز ، واصلوا امام الملا عن رغبة الكونت فى الدفاع عن قضية الايمان المسيحى استجابة لنداء الكرسي الرسولى . ولكن ما قام به رسل الكونت الفرسان فى كليرمون لم يكن سوى مشهدية مؤثرة ظاهرية . فان الكونت ريمون دى سانجيل ، كما يسميه فى المعتاد مدونو الاخبار ، كان قد تجنّد فى عداد المشتركين فى الحرب الصليبية قبل زمن طويل من اعلانها رسميا . وكان ريمون الرابع يقوم بكل اعماله وتصرفاته بالاتفاق مع البابا اوربان الثانى ؛ وقد تلاقى معه ، كما نعلم ، فى كاتدرائية كليرمون . وفى البدء ، كان البابا قد اعتزم حتى تعيين الكونت رئيسا للقوات الصليبية ، ولكن التخوف من اثاره استياء الاسياد الآخرين ، المفعمين بالطموح ، المشتركين فى الحملة ، حال دونه ودون تحقيق عزمه .

استعد ريمون الرابع سنة بكاملها للحملة . فقد كان يحسب ان يثبت قدميه ويستقر فى الشرق ، بانشاء امارة له هناك . وليس عبثا اقسام الكونت اليمين قبل انطلاقه على ان يكرس ايامه الباقية بكليتها للحرب الصليبية وعلى ان لا يعود الى الوطن . وقد اخذ معه زوجته الفيرا من كاستيليا (التي ولدت له ابنا ثانيا اثناء حصار طرابلس) وعهد بممتلكاته فى فرنسا الى ابنه برتران .

سار تحت راية ريمون دى سانجيل ، كونست تولوز المئات ولربما الآلاف من الاقطاعيين المتوسطيين والصغار من فرنسا الجنوبية - من بورغونيا وغاسكونيا واوفرنيه وبروفانس وغيرها من المقاطعات ، بمن فيهم بضعة اساقفة . وبين كبار الاحبار ، برز نائب البابا (القاصد الرسولى) اسقف مدينة بوى ، اديمار . فقد عهد اليه بالسهر على مصالح الكورية الباباوية السياسية اثناء الحملة . ولكن خادم الرب هذا كان فى الوقت ذاته محاربا محنكا . يروى مدون الاخبار ان اسقف بوى كان يرتدى خوذة الفارس ودرعه

ويتسلح بأسلحته ويقاقل الاسياد المجاورين الذين يعتدون على املاك الكنيسة فى ابرشيته . وكان يجيد استعمال السلاح ، وكان ، كما يقول معاصروه ، يجيد ركوب الخيل . ولكنه لم يكن بمقدور الاسقف ان يأخذ على عاتقه واجبات القائد العسكرى للمقاتلين الصليبيين . فان اديمار ، اسقف بوى ، مثله مثل ممثلين آخرين ارسلهما البابا اوربان الثانى ايضا الى الصليبيين ، لم يقيم الا بدور الرئيس الروحى للصليبيين ، وكان يؤدى بعض الوظائف التنظيمية .

تحركت قوات فرنسا الجنوبية عبر جبال الالب وبمحاذاة بحر الادرياتيک ، وتجنبست استريا ودلماسية ، ثم واصلت سيرها على طريق اغناطيوس نحو العاصمة البيزنطية .

وفى الوقت نفسه تقريبا ركب فرسان فرنسا الشمالية والوسطى خيولهم . وقبل الجميع ، انطلق هوغ فرمندوا - (Vermandois) الشقيق الاصغر لملك فرنسا ، فيليب الاول ، الفارس المغرور ، الذى لم يكن يملك سوى كونتية صغيرة جدا ، كانت دوة (صداق) زوجته ، ولذا كان يسعى بمثابرة وعناد وراء السلطة والثروة . وقد جمع فصيلة غير كبيرة من اتباعه واتباع الملك ، وانطلق فى آب (اغسطس) ١٠٩٦ الى ايطاليا . وفى الطريق ، عرج على روما ، حيث سلمه البابا راية القديس بطرس ؛ هذه الراية كان القصد منها ان ترمز الى تطلعات الكونت الدينية ، فى طريقه الى الحرب المقدسة . ومن بارى سافر بحرا الى سواحل بيزنطية . الا ان هذا المغامر المنحوس لم يحالفه الحظ منذ الخطوات الاولى بالذات ؛ فان العاصفة قد حطمت مراكبه عند سواحل الادرياتيک الشرقية ، وهلك كثيرون من الفرسان والمجدفين ؛ وهوغ ذاته ، كما تقول حنة كومنينة ، قذفته الامواج الى ساحل بجوار دراتش . وكان قد سبق للكونت الذى سمي نفسه بفخامة وبلاغة «اعظم الاحياء تحت السماء» ان اعلم من بارى الحاكم البيزنطى فى هذه المقاطعة الدوق يوحنا كومنين ، ابن اخى الامبراطور ، عن قرب وصوله . والى هنا كان قد ارسل فى الوقت المناسب بعثة من ٢٤ فارسا فرنسيا . الا ان الابلاغ المسبق كان نافلا بكل جلاء ؛ فقد قادوا «البطل» الذى منى بغرق سفنه ، برفقة حرس امبراطورى فخرى ، الى القسطينية ، كاسير فخرى فعلا .

بعد فترة وجيزة ، انطلقت جموع الفرسان الفرنسيين المسلحة اللجبة بقيادة روبر ، دوق نورمنديا ، وايتيان ، كونت بلوا وشارتر ، المتزوج من

اخت الدوق اديل ، وروبر ، كونت الفلاندر (ابن الحاج المذكور سابقا ، روبر الاول من فريزيا) .

كان روبر النورمندى ، الملقب «بالسراويل القصيرة» ، والابن البكر لـ غليوم الفاتح ، فى احوال حرجة جدا . كان يقاتل على الدوام ضد اخيه ملك انجلترا ، غليوم الثانى الاشقر ، وكان ينازعه عبثا على حقوقه فى العرش . وكان «السراويل القصيرة» يخسر نورمنديا ذاتها . وجاءت الحملة الصليبية تخلصه من جميع المشاكل والمخاضات ، وتعهده بفتح الاراضى .

وكانت دوافع مختلفة ، دنيوية وعادية تماما ، تدفع الى الاشتراك فى الحملة الصليبية ، ايتيان ، كونت بلوا من شارتر ، الميسور جدا ، ولكن الطامح الى اكثر ، وان يكن صغير النفس للغايسة ، وكونت الفلاندر روبر الثانى . ولم ينضم الى دوق نورمنديا اتباعه الفرنسيون وحسب ، بل انضم اليه بارونات وفرسان من انجلترا واسكتلنده . كذلك التحق عدد لا يستهان به من الصليبيين بقائدين آخرين . فعند كونت الفلاندر ، مثلا ، كان زهاء الف تابع ؛ وقد اشترك كثيرون منهم فى الحملة الصليبية .

جميع هذه الجحافل الفرنسية الانجليزية عبرت جبال الالب ووصلت فى تشرين الثانى (نوفمبر) ١٠٩٦ الى ايطاليا حيث بقى معظمها لقضاء الشتاء . وفى لوكا ، تقابل روبر النورمندى وروبر الثانى من الفلاندر ، وايتيان دى بلوا «وغيرهم من جماعتنا ممن ارادوا» ، كما يكتب فولهير من شارتر ، مع البابا اوربان الثانى الموجود هناك وتحدثوا معه ، ونالوا بركته . وقد ذكرهم البابا بانه يجب على الصليبيين ان يعملوا حسب مصالح الكنيسة . وفى ربيع السنة التالية فقط ، وليس بدون مغامرات (فى برنديزى ، عشية الابحار ، انقلبت فجأة سفينة قرب الشاطئ بالذات ، كما يروى فولهير من شارتر ، ولقى اربعمئة شخص من ذكور واناث مصرعهم) ، انطلقوا بحرا الى دراتش ، ومن هناك على طريق اغناطيوس الى القسطنطينية .

وهكذا ، بسبب مختلفة ، ولكن بدوافع واحدة تقريبا ، انطلقت فى الحملة الصليبية فصائل الفرسان والامراء ، ومعها جموع ضخمة جديدة من الفقراء الذين كانوا ياملون كما من قبل فى مصير افضل فى البلدان البعيدة . كان الفرسان مهئين للحملة افضل بما لا قياس له من جموع النازحين من الفلاحين التى سبقتهم . فقد تزودوا للطريق . وكثيرون رهنوا او باعوا عقاراتهم واملاكهم الاخرى . وعقد غودفروا دى بويون صفقات مع اسقف ليج واسقف فردان ؛ فقد باعهما مقابل ٣ آلاف مارك فضى بعضا من ضيعه ، بل انه رهن عند اسقف ليج قصر بويون السلالى ، المتوارث ابا عن جد .

والشيء نفسه فعله ريمون دى تولوز وعدد من انصاره المقبلين من الانغيدوك ببعض ممتلكاتهم . كذلك روبر ، دوق نورمانديا ، اختطف ١٠ آلاف مارك فضى من اخيه المتوج ؛ وبحثا عن هذا المبلغ ، فرض هذا الملك بدوره ضريبة استثنائية على رعاياه بالذات بمن فيهم رجال الدين ، فاعرب هؤلاء عن تدميرهم . ثم ان الاقطاعيين من مرتبة ادنى باعوا هم ايضا حقوقهم (الحقوق القضائية ، حقوق الصيد) ورهنوا الاموال غير المنقولة .

ان رهبان كلونى الذين كانوا يذمون ببلاغة وبالاقوال الجشع والطمع ، لم يكونوا ضد اكنار ثروات اديرتهم على حساب الصليبيين . كذلك حاول الاساقفة ورؤساء الاديرة فى اللورين وفرنسا الجنوبية وغير ذلك من المقاطعات ، ان لا يفوتوا الفرص السانحة ؛ فقد كان الصليبيون بحاجة الى النقود ، بينما هبطت اسعار الاموال غير المنقولة . فاشترى اهباء الكنيسة بالرخص ضيع الاسياد والفرسان الذين اعتزموا الذهاب الى الحرب الصليبية . وهكذا ، كما قال المؤرخ الاميركى دانكلف ، قامت الكنيسة ببنس جيد فى المشتريات وفى رهن ممتلكات الصليبيين لقاء النقود .

تزود الفرسان بالنقود الرنانة ، واهتموا فى الوقت نفسه بالسلاح . كانت اسلحة القوات الاقطاعية واعتدتها ارقى بكثير مما لدى الفلاحين . كان لكل فارس سيف قاطع من الفولاذ ذو حدين . واحيانا كانوا يستعملون السيف من هذا النوع للاغراض الدينية . فان العارضة التى تفصل القبضة عن الشفرة كانت تضافى على السيف شكل الصليب وكان بوسع الفارس ، بغرز السيف فى الارض ، ان يصلى امامه . كذلك كان للفارس رمح خشبى ذو سنان معدنية ، شكله فى المعتاد بشكل المعين . وكان الرمح علاوة على الغاية المباشرة منه - طعن العدو - يؤدى وظيفة معاونة ؛ فتحت السنان كان الفارس يعلق راية ذات اشربة طويلة كانت تخيف حصان العدو اذ ترف وتخلق اثناء ركض الحصان . كذلك كان الدرع (المستدير او المستطيل) الخشبى الملبس بصفائح معدنية من ضروريات سلاح الفارس . وكان الفارس يمسكه اثناء القتال بيده اليسرى . وكان الفارس يغطى راسه بخوذة ، وجسمه بصدرة مزودة (مزدوجة احيانا) او بدرع . وكان يغطى كلا من ركبتيه بواقية جلدية او يحتذى حذاء مزودا بصفائح معدنية . وكان الفارس يبدو بكامل اسلحته اشبه بقلعة متحركة على حصان . وعلاوة على الاسلحة والاعتدة كان الفرسان يأخذون معهم كلاب الصيد والاقفاص مع الصقور (لاجل الصيد فى الطريق) .

كذلك كانت البنية التنظيمية لقوات الفرسان اصح نسبيا (بالقياس الى ما كانت عليه عند الفلاحين) . ومع ذلك لم تكن البتة ، منذ بداية الحملة حتى نهايتها ، عبارة عن قوات موحدة . فلم يكن ثمة شيء يربط مختلف الفصائل بعضها ببعض . وكان كل سيد يمضى مع عصبته . ولم يكن ثمة قادة ، لا كبار ولا صغار ، معينون رسميا من قبل احدا ما ، ولم تكن ثمة قيادة واحدة ، مشتركة للجميع . ولم يكن يخطر فى بال احد ان يرسم خطة عامة ، مشتركة ما للحملة ، او ان يقرر على الاقل مسيرة دقيقة لاجل الفصائل . وكان قوام مختلف الوحدات المتجمعة عفويا حول اشهر الاسياد يتغير لان الفرسان كانوا غالبا ما ينتقلون من قائد الى آخر بأمل الحصول منه على هذه الفوائد او تلك .

وهذه العساكر اللصوصية المزينة بالصلبان على صدورهما بدأت تنهب وتغتصب قبل ان تصل الى القسطنطينية . فان الفرسان اللورينيين قد امضوا ثمانية ايام بكاملها فى اعمال النهب والسلب فى تراقيا السفلى ؛ وكانت الذريعة لمقاتلى غودفروا دى بويون النبأ القائل ان هوج فرمندوا اسير عند الامبراطور الكسيوس . ونكل الفرسان النورمانيون التابعون لبوهيموند من تارنتو تنكيلا قاسيا بسكان ابيروس ومقدونيا وتراقيا . ويعترف فارس مجهول دون الاخبار وكان فى هذه الفصيلة بانهم كانوا ينتزعون من السكان كل ما يجدونه . وبين مدينة كاستوريا ونهر فاردار ، دمر النورمانيون مدينة بكاملها ؛ فقد كان يسكنها الهراطقة فى ايام بولس الرسول وكان ذلك كافيا لبادتهم عن بكرة ابيهم .

كذلك تميز مرور صليبيى كونت تولوز عبر دلماسية باعمال لصوصية لا تقل وحشية . فان مدون اخباره كابيللانه (ومعروفه وامينه) ريمون من اجيل ، يروى فى مؤلفه «تاريخ الفرنجة الذين استولوا على القدس» كيف ان سكان دلماسية (سلافونيا) ، «البلد الصحراوى والجبلى والخالى من الطرق ، الذى لم نر فيه طوال ثلاثة اسابيع لا وحوشا ولا طيور» ، قد رفضوا ان يبيعوا الفرسان شيئا ما وان يعطوهم الادلة ، وانهم كانوا يفرون من القرى لدن اقتراب الفرسان ويذبحون المواشى لكى لا تقع فى ايدى المقاتلين ذوى الرايات المزينة بالصلبان ، وكانوا يتخفون ، لعلمهم جيدا بالاماكن ، فى المغاور الجبلية والغابات الكثيفة ، حيث «لم يكن من السهل على فرساننا المسلحين ان يطاردوا قطاع الطرق هؤلاء غير المسلحين» - هكذا ينعت مدون الاخبار من پروفانس (فرنسا الجنوبية) سكان دلماسية المسالمين . اما فى الواقع ، فان الصليبيين انفسهم كانوا بالطبع قطاع الطرق .

فقد كسب ريمون دى تولوز لنفسه سمعة مؤسفة ، مخزية فى دلماسية بوحشياته : فذات مرة (وكا بيللانه يروى الحادثة وليس بدون اطراء ومديح) امر بسمل عيون ستة من الدلماسيين اسرهم الفرسان وبتر انوفهم ، وقطع ايديهم وارجلهم . وفى مدينتى روستا وريدستو فى تراقيا ، استحصل فرسان الكونت ريمون دى سانجيل ، كما يقول مدون الاخبار ذاته ريمون من اجيل ، على غنيمة هائلة . فقد هاجموا مدينة روسا مطلقين الصيحة القتالية «تولوز ! تولوز !» واقتحموها واعملوا بسكانها قتلا وذبحا .

ان تقدم الصليبيين فى شبه جزيرة البلقان قد رافقته اعمال النهب والسلب بلا حسيب ولا رقيب . ولكن هذا لم يكن سوى البداية . فان الصليبيين سيظهرون فيما بعد بكل قباحتهم وسفالتهم ووحشيتهم .

الصليبيون فى بيزنطية

قلق الامبراطور الكسيوس الاول وحاشيته اقصى القلق من الانباء القائلة ، كما كتبت حنة كومنينة فيما بعد ، ان الغرب كله ، وجميع قبائل البرابرة ، وجحافل الفرنجة التى لا عد لها تتجه الى القسطنطينية . ان زحف هؤلاء «المخلصين» المندفعين صوب الشرق بنوايا الفتح ، كان من الممكن ان يكون فادح الخطر على بيزنطية ؛ ذلك ان عدد الصليبيين لم يكن يقل عن ١٠٠ الف . ناهيك بانه كان بينهم قادة معادون من قديم الزمان لبيزنطية ، من امثال بوهيموند وانصاره ، وكانوا ، كما قالت حنة المذكورة اعلاه ، يتحرقون من قديم الزمان للاستيلاء على امبراطورية الروم . ان الكاتبة البيزنطية تتخذ موقفا احادى الجانب ، اذ افترضت - وغنى عن البيان ان هذا الراى كان واسع الانتشار فى الاوساط الحكومية البيزنطية ايضا - ان «الكونتات وبخاصة بوهيموند كانوا يكونون عدواة قديمة للامبراطور وكانوا يترصدون الفرصة السانحة وحسب للانتقام منه لذلك النصر الباهر الذى احرزه على بوهيموند الذى تقاتل معه فى جوار لاريسا» (سنة ١٠٨٣) . وتعتبر حنة كومنينة خطأ انهم «كانوا يحلمون فى النوم كيف يستولون على العاصمة» .

اما فى الواقع ، فقد كان للصليبيين هدف آخر . ولكن ظهورهم ضمن حدود الامبراطورية اثار قلقا مشروعا فى اوساطها الحاكمة ، وقابل الامبراطور الكسيوس الاول الصليبيين بالحذر وعدم الثقة . واتخذ التدابير لاجل تجنب الممتلكات البيزنطية التى تمر بها جموع الفرسان المسلحة انفلات اللاتينيين

قدر الامكان . فصدر الامر الى فصائل قبائل البتشيخين العاملة فى خدمة الامبراطورية ، كما تفيد حنة كومنينة ، بان «تتبع وتراقب البرابرة ، وتطلق النار على فصائلهم وتطردها اذا ما شرعت تهاجم وتنهب الاراضى المجاورة» . وهذا الامر جرى تنفيذه بكل دقة ، الامر الذى يحكى عنه مدونو الاخبار اللاتين بامتعاض .

الا ان الامبراطور الكسيوس الاول ، رغم خوفه من المقاتلين الصليبيين ورغم اقامته مختلف العراقيل فى طريقهم ، لم يكن ضد استغلال قوات القادمين من الغرب فى مصلحة بيزنطية . فقرر ان يستميل زعماءهم الى حلف يمين التبعية الاقطاعية له عن جميع الاراضى التى سيستولى عليها الصليبيون والتى خسرتها بيزنطية من قبل نتيجة لنجاحات السلجوقيين وسائر الشعوب الشرقية : اى آسيا الصغرى وسوريا ولبنان وفلسطين . ولكى يجعل الفاسيليفس زعماء الفرسان اسهل للانقياد ، بدأ (حتى عندما كان الصليبيون لا يزالون يعيشون فسادا فى البلقان) يسدد اليهم ضربات محسوسة بوساطة خيالة البتشيخين . وقد هزم البيزنطيون فى جوار ويدستو بضعا من فصائل ريمون دى تولوز ؛ وقد فر الصليبيون من ساحة الوغى رامين السلاح والحمولة .

وفى الوقت نفسه ، بدأت الدبلوماسية البيزنطية تعمل بكل مهارتها وفنها ؛ وكان البيزنطيون اساطينها الذين لا يضاهيهم احد . فقد ارسل الامبراطور الى لقاء فصائل الصليبيين موظفيه ، وامرهم ، كما كتبت حنة كومنينة ، بان «يقابلوا بمودة الذين عبروا البحر (بحر الادرياتيك - المؤلف) ويضعوا فى طريقهم وفرة من احتياطات المؤن» . وعندما قذفت العاصفة البحرية فى تشرين الثانى (نوفمبر) ١٠٩٦ الى الساحل هوغ فرمندوا ونقلوه الى القسطنطينية ، «استقبله» الكسيوس الاول ، كما تروى ابنته ، «باجلال واعرب له بجميع الوسائل عن عطفه ، واعطاه الكثير من المال ، واقنعه فى الحال بان يصبح تابعا له ، ويقسم له اليمين العادية عند اللاتين» . وبذلك تحقق ضرب من سابقة .

ولكن فرض علاقات التبعية على سائر قادة الصليبيين كان مع ذلك اصعب . فعندما اقتربت فصائل غودفروا دى بويون من اللورين ومن المانيا فى ٢٣ كانون الاول (ديسمبر) ١٠٩٦ من القسطنطينية ، واقامت معسكرا لها فى جوار مدخل خليج القرن الذهبى ، نشأ وضع نزاعى حاد . فقد تهرب الكونت من حلف اليمين التبعية الاقطاعية للامبراطور البيزنطى رغم ان هوغ فرمندوا

نفسه استماله الى ذلك باسم الامبراطور . آنذاك ، طرح الكسيوس الاول الملابس الديبلوماسية جانبا ، وطوق معسكر غودفروا بخيالة البتشيخينغ . في ٢ نيسان (ابريل) ١٠٩٧ ، وقع اشتباك بين فصائل الامبراطور وفرسان اللورين ؛ فقد انهال عليهم قواسو الكسيوس الاول من اسوار القسطنطينية بوابل من الاسهم . صحيح ان الامبراطور ، كما تزعم حنة كومنية ، امر «التصويب خطأ بصورة رئيسية» ، لاجل تخويف اللاتين وحسب ، ولكن معركة حقيقية نشبت ، وليس البتة صورة عنها ، كما يتبين من وصف حنة كومنية نفسها للاحداث : «دارت رحى معركة ضارية ورهيبة ؛ فبعناد قاتل الفرسان خارج المدينة وقاتل الذين وقفوا على الاسوار . وزج الامبراطور في المعركة بقواته الخاصة (حرسه الشخصى - المؤلف) وحمل كتائب اللاتين على الفرار» .

منى الصليبيون بهزيمة شنعاء ، فاضطر غودفروا دى بويون الى التراجع والتنازل : «عندما جاء اليه (الى الفاسيلفس - المؤلف) ، حلف اليمين التى طلبها منه» . ويستفاد من شهادة البر من آخر ان الكسيوس مضى حتى الى تبني تابعه الاقطاعى الجديد ، وفقا للعادات البيزنطية . وخصصوا له الكثير من الاموال ، واقاموا على شرفه المآدب الفاخرة ثم نقلوه بتسرع عبر البوسفور . ومن جديد صدر الامر بتأمين الوفرة من شتى المؤن للصليبيين الذين انطلقوا من خلقيدون فى الطريق الى نيقوميديا ونصبوا مخيمهم فيما بعد فى بيليكان .

كان للتسرع فى عبور البوسفور اسبابه ؛ فان الكسيوس لم يشأ ان يسلم باقامة جميع فصائل الصليبيين فى آن واحد بجوار القسطنطينية ، اى باقامة تجمعات المقاتلين البرابرة الذين كانوا يهددون باحباط مشاريعه . وقد تخوف الامبراطور على الاخص من قوات عدو بيزنطية المزمين ، قائد النورمانيين الايطاليين الصقليين بوهيموند من تارنتو ، - وكانت هذه القوات تقترب من العاصمة . ولكن بوهيموند بالذات ، فى الآونة الاولى على الاقل ، هو الذى تسبب للامبراطور باقل عدد من المشاكل والهموم . فقد وصلت فصائله الى القسطنطينية فى ٩ نيسان (ابريل) ١٠٩٧ ، وبما انه «فهم وضعه» ، كما تقول حنة كومنية ، فقد وافق بدون تردد ودون مماطلة على ان يصبح من اتباع الكسيوس الاول .

وبديهي ان الامبراطور اضطر كذلك الى التنازل عن شئ ما ؛ فمع عدو غدار من طراز بوهيموند كان ينبغى التصرف باحتراس وبعد النظر . ان مدون الاخبار النورمانى الذى اطرى مآثر بوهيموند فى الحملة الصليبية ، قد كتب

فيما بعد ان بطله اخذ الصليب بدوافع الروح الدينية لاعتبار الحملة على الشرق «حربا مقدسة» . اما الامبراطور الكسيوس كومينوس ، وهو ابعد نظرا ، فقد حكم على نوايا القائد النورمانى حكما اصح من حكم مداحيه الغربيين ؛ فاثناء المفاوضات بشأن يمين التبعية الاقطاعية ، وعد ، كما يعترف مدون الاخبار نفسه ، بان يمنح بوهيموند ارضا على مقربة من انطاكية «طولها ١٥ يوما مشيا وعرضها ٨ ايام» . ان هذا الوعد قد طاب بقدر ما للقائد النورمانى ، الذى كان ، كما يكتب ريمون من اجيل ، «يتحرق بدافع الغرور والطموح الى ان يصبح امير مدينة انطاكية» ، رغم انه كان يطمح فى اكثر . وسعى بوهيموند الى نيل لقب «دومستيك الشرق الاعظم» اى بالفعل لقب آمر جميع القوات المسلحة البيزنطية فى آسيا ولكن طلبه قوبل بالرفض .

ومهما يكن من امر ، فقد عقدت الصفقة . ولكن الباحث النورمانى عن الغنائم لم يعلق اية اهمية على يمينه ، رغم انه اغدق بالتاكيدات الودية («جئت اليك كصديق لجلالتك») . الا ان الكسيوس الاول ، مع اغداقه الوعود وانعامه على بوهيموند بالجواهر ، احتفظ باليقظة والريبة حيال التابع الجديد ، ولم يعتزم - كما بينت الاحداث اللاحقة - ان يأخذ على محمل الجد التعهدات الناجمة بالنسبة له من وضعه كملك سيد .

فى اواخر نيسان (ابريل) انتقلت قوات امير تارنتو ايضا الى آسيا الصغرى .

فى هذه الاثناء ، ظهرت فى جوار ريديستو فصائل مهيبة بقيادة ريمون دى تولوز . كذلك اخذت تقترب من القسطنطينية فصائل اخرى من الفرسان . واحتشدت عند اسوار العاصمة قوات كبيرة جدا من الحجاج المسلحين . وعاشت المدينة اياما حافلة بالقلق . الا ان الكسيوس الاول ، والحق يقال ، حرص على ان لا يغمر «مخلصو قبر السيد المسيح» العاصمة . فلم يسمح لهم بدخول المدينة الا زمرا صغيرة . ولكن تدابير الاحتراز هذه كانت قليلة الفعالية . فلم يكن من النادر ان تقع فى الشوارع مصادمات بين الروم والصليبيين . وقد بدا الفرسان للاريسقراطية البيزنطية متوحشين ، وكان القادمين حاولوا بسلوكهم ان يؤكدوا هذه السمعة ؛ كانوا يتصرفون تصرفا فظا ، متحديا ، صلفا . فاثناء حفل استقبال فى القصر الامبراطورى ، مثلا ، جلس احد اصحاب الالقاب الجهلاء الغربيين على عرش الفاسيلفس . وكان الصليبيون ينهبون ضواحي القسطنطينية ، وينتزعون من الروم المؤن . وما كانت تقدمه السلطات كان قليلا لسد نهم حشود الصليبيين الذين كانوا لا

يميلون الى الانهماك فى الركوع والصلوات فى الكنائس وحسب ، بل كانوا ايضا يتحرقون الى جميع ثروات المدينة العظيمة . لقد احدثت هذه المدينة فى نفوسهم انطبعا قويا ؛ وليس من قبيل الصدفة ترك مدون الاخبار فولهير من شارتر الذى اشترك فى الحملة وزار القسطنطينية وصفا عنها حافلا بالتفاصيل الواقعية . وهذا الراعى التقى لا يكل من الاعجاب ومن تعداد الهبات التى نالها الفرسان من الملك البيزنطى الذى اعطاهم «وفرة من كنوزه - الالبسة الحريرية والخيول والنقود» .

كان الامبراطور ، مع تملقه البعض ، ومع اغداقه الوعود والهدايا على البعض الآخر ، ومع اخفائه مخاوفه بمهارة ، يسير بثبات على خطه ؛ فقد طلب من رؤساء الصليبيين ان يقسموا اليمين بان يعيدوا الى بيزنطية جميع المدن والاراضى التى يفلحون فى استرجاعها من السلجوقيين . ولكن ليس فى الحال وافق الكثيرون على الاستجابة لهذا الطلب . ورفض ريمون دى تولوز قطعا ان يحلف يمين التبعية الاقطاعية ، معلنا انه اخذ الصليب لا لكى يصبح هو نفسه سييدا ولا لكى يحارب من اجل احد غير الرب وحده ؛ فمن اجل الرب ، ترك اراضيه واثرواته . واضطر بوهيموند من تارنتو الى اقناع البروفنسى العاصى الذى لم يكن يتحلى بالمرونة النورمانية . ومع محاولة اقناع ريمون الرابع ، ومع استشفافه فيه منافسا (ذلك ان كونت تولوز كان يجهد لكى يصبح الامر الاعلى لعموم القوات الصليبية) ، كان بوهيموند نفسه يأمل فى كسب ثقة الامبراطور . ولكن محاولات الاقناع اخفقت .

واذ ذاك حاول الكسيوس الاول ان يلحق ريمون درسا بالقوة ، باللجوء الى الاسلوب الذى عاد عليه بالثمار المنشودة اثناء المفاوضات مع غودفروا دى بويون . ولكن عبثا ! فان كونت تولوز - وكان ، حسب تعبير احد المؤرخين ، تقيا ورعا مثل الراهب ، وطماعا وبخيلا مثل النورمانى ، - كان يتخوف من ان يحرمه يمينه للامبراطور الاراضى التى كان الاستيلاء عليها هدفه الحميم .

وفى آخر الامر ، وافق ريمون الرابع فى ٢٦ نيسان (ابريل) ١٠٩٧ على تعهد مائع فقط ، قوامه ان لا يتسبب بضرر للامبراطور وحياته وشرفه . كان هذا اشبه بيمين التبعية الاقطاعية ، لا اكثر . ومع ذلك ارضت هذه اليمين المصطنعة الامبراطور الكسيوس الاول . وسرعان ما تقارب الامبراطور وكونت تولوز بوثوق ؛ فان عدواتهما المشتركة لبوهيموند من تارنتو كانت التربة لهذا التقارب .

فى الآونة الاولى ابدى تنكريد ، ابن اخى بوهيموند العناد والتشبث .

ولكى يتجنب حلف يمين التبعية الاقطاعية ، غير لباسه ، وغادر القسطنطينية ليلا مع فريق من الفرسان وعجل فى عبور المضيق . ويقول راوول من كايان ان هذا الفارس المغامر تأسف اقصى الاسف لكون بوهيموند قد اقسام يمين التبعية والولاء للامبراطور البيزنطى ؛ لان الامير «مضى لى يحكم فوجد نيرا . راح لى يرتفع ولكنه ساعد فى رفع غيره بينما انحط هو نفسه» . وكان تنكريد يعتقد ان ممتلكات الروم السابقة فى الشرق ، المتواجدة حاليا تحت حكم السلجوقيين ، يجب ان تنتقل الى الصليبيين . وبما ان الروم فقدوا هذه الممتلكات بتسليمها للسلجوقيين ، فلا داعى ، بعد تثبيت الدين المسيحى هناك الى اعادة هذه الاراضى الى حماة بمثل هذا الضعف . لا يمكن ان يؤمن الدفاع عنها غير الفرنجة . ان اعادة المدن والقلاع الى الروم تعنى اعادتها الى الاتراك . تلك كانت وجهة نظر تنكريد .

وفى آخر المطاف كانت الغلبة لاحابيل البيزنطيين الدبلوماسية على عناد القادة الصليبيين وجشعهم . فقد غدوا جميعهم تقريبا اتباعا للامبراطور الكسيوس الاول . وفى هذا المجال لعبت بالطبع دورها حيل الدبلوماسية المحنك - الفاسيلفس . فان ايتيان دى بلوا كتب باعجاب غير متصنع بسخائه ولباقة الى زوجته اديل عن اقامة الفرسان فى القسطنطينية : ان الامبراطور «يهدى امراءنا بفائق السخاء ، ويخفف وضع الفرسان بالعطايا ، يطعم الفقراء بالتوزيعات . ان والدك ، يا حبيبتي (غليوم الفاتح - المؤلف) قد وزع الكثير وعلى الكثيرين ، ولكن من المشكوك فيه ان يكون وزع بالقدر ذاته» . ولكن امرا آخر كان يتسم باهمية كبيرة ، فقد اضطر الفرسان الى الاقدام على مساومة ، لانه كان واضحا لابعد قادتهم نظرا ان نجاح الحرب ضد السلجوقيين يتوقف بقدر لا يستهان به على العلاقات بين الصليبيين وبين بيزنطية الباقية فى مؤخرتهم . وغنى عن البيان ان اتباع الفاسيلفس الجدد ، اذ كانوا يتذكرون الاوضاع السائدة فى اوطانهم ، قد فهموا باغلبيتهم امرا آخر هو ان النسبة الفعلية بين القوى ، وليس الشكليات الحقوقية ، هى العامل الحاسم الذى يقرر مصير الفتوحات المقبلة .

معركة نيقية

فى نيسان وايار (ابريل ومايو) ١٠٩٧ ، نقلت فصائل الفرسان الى آسيا الصغرى .

دارت رحى المعركة الاولى ضد السلجوقيين من اجل نيقية ، عاصمة

السلطان الرومى قلعج ارسلان ابن سليمان . وكان الاستيلاء عليها شرطا ضروريا لتقدم الصليبيين لاحقا بنجاح عبر منطقة الاناضول ، التى كانت الطريق العسكرية اليها تمر بهذه المدينة . كذلك كان الاستيلاء على نيقية مهما بالنسبة لبيزنطية ايضا ؛ فان مخمس الاسوار الجبارة فى نيقية مع ابراجها الـ ٣٠٠ كان عبارة عن استحكام قوى كان من الممكن ان يشكل ، فيما اذا خسره السلجوقيون ، حماية مأمونة للقسطنطينية من اية اعتداءات من جانبهم .

غادرت جحافل الفرسان بيليكان ونيقوميديا ، واقتربت الواحد تلو الآخر فى ٦ ايار (مايو) ١٠٩٧ من نيقية وشرعت تحاصرها . سدت فصائل غودفروا دى بويون منافذ المدينة من الشمال ، وسد نورمانيو تنكريد (وسرعان ما انضم اليه بوهيموند مسرعا من القسطنطينية) ، منافذ المدينة من الشرق ، وسد كونت تولوز الذى وصل فى ١٦ ايار مع رجاله من بروفانس منافذ المدينة من الجنوب . لم يكن تطويق المدينة كاملا ؛ فقد بقى قسمها الجنوبى الغربى حرا ؛ ومن هنا كانت تمتد بحيرة الى نيقية ؛ وعلى الماء لم يكن ثمة شىء يقطع الطريق الى المدينة .

آنذاك ، كما يروى المؤرخ الارمنى متى الرهاوى ، كان السلطان قلعج ارسلان ابن سليمان يحارب امير قبدوقية حسن دانشمند من اجل مدينة ملطية . وقد بوغت السلطان بنبا محاصرة الصليبيين لمدينة نيقية ؛ فامسلا فى مناعة اسوارها ، ترك فى المدينة عائلته وقسما كبيرا من الخزانة . وكان من المستحيل نقل الجيش فى الاتجاه المعاكس من ملطية الى نيقية فى وقت قصير . ومع ذلك ، وقع قلعج ارسلان الصلح بسرعة مع حسن دانشمند واسرع الى الغرب .

فى ٢١ ايار وصل السلجوقيون الى مشارف المدينة من الجنوب ؛ ودون ان يتوقفوا ، انقضوا على مواقع البروفانسيين القتالية هناك . فهبت فصائل اللورين الى نجدة البروفانسيين . استمر القتال يوما بكامله . ولحقت خسائر كبيرة بالصليبيين (نحو ثلاثة آلاف رجل) وخسائر اكبر بالسلجوقيين ؛ وقد اضطر هؤلاء الى التراجع . وادرك قلعج ارسلان انه لا جدوى من مواصلة بذل الجهود ، فسحب قواته الى الجبال وترك المدينة للمقدر . وابلغ حماة نيقية بان يتصرفوا مستقبلا كما يرون مناسبا .

هلل الصليبيون رغم ان اسوارا رهيبة كانت لا تزال تنتصب امامهم ورغم ان حامية نيقية كانت تصمد بصلاية . وقد تلقت الحامية مددا عبر البحيرة . ومع ذلك ، كان النصر يبدو قريبا . وتروى حنة كومنينة ان السلت (هكذا

تسمى اللاتين احيانا - المؤلف) ، «كانوا يعودون (من ساحة الوغى - المؤلف) غارزين رؤوس الاعداء بالرماح وحاملينها مثل الرايات لكى يراها الاعداء (السلجوقيون - المؤلف) من بعيد ويخافوا من هذه البداية ويقلعوا عن العناد فى القتال» . ولكن هذه المظاهر المرعبة لم تسفر عن اية نتيجة . واذ ذاك حاول ريمون دى تولوز ان يحفر نفقا تحت احد الابراج بواسطة اساطين شؤون الحصار ، محطى الاسوار وغيرهم ممن يستطيعون ان يصدعوا الابراج من اسسها بواسطة الادوات الحديدية . وهذه المحاولة ايضا لم تتكفل بالنجاح .

واخيرا فى ١٩ حزيران (يونيو) ١٠٩٧ ، شن الصليبيون هجمة مشتركة عامة . وكانت قد انضمت الى الفرسان قوات بيزنطية بقيادة الدوق مانويل فوتوميت ؛ فقد ارسل الامبراطور الكسيوس الاول بضع سفن (نقلوها على العربات من نيقوميديا وانزلوها فى البحيرة) لاجل قطع حامية نيقية من الجنوب الغربى . كذلك ارسل قوات برية . وقد فعل الامبراطور ذلك بالحاح من الصليبيين انفسهم ، وكذلك ، على الاغلب ، سعيا منه الى بلوغ اهدافه بالذات ، مع تقديم المساعدة لهم .

انتهت المعركة بصورة لم يكن يتوقعها الصليبيون انفسهم . ففى اوج الهجوم ، عندما اخذ الفرسان ، كما تروى حنة كومنينة ، يتسلقون الاسوار ، سمح لوحدة الروم ، لما فيه دهشة المهاجمين ، بدخول المدينة ؛ وفى الحال سدت الابواب امام الصليبيين . وعلى ابراج نيقية ، خفقت الرايات البيزنطية ، و«حيا» فوتوميت «الملك باصوات الابواق والاصوار» . ولم يكن الصليبيون على علم باللعبة المزدوجة التى لعبها الامبراطور الكسيوس كومنينوس . فقد كان الامبراطور يدرك جيدا قيمة تعهدات زعمائهم التبعية ، وكان يعتقد ، وليس بدون مبرر ، ان الصليبيين ، ما ان يستولوا على المدينة ، حتى يمتنعوا عن تنفيذ شروط المعاهدة مع بيزنطية ، فاجرى مفاوضات من وراء ظهورهم مع قيادة الحامية السلجوقية . وقد وافق السلجوقيون على تسليم المدينة للبيزنطيين . ناهيك بانهم كانوا قد تلقوا تعليمات مناسبة من قلعج ارسلان .

وهكذا استولى الروم - من وجهة نظر الفرسان - على نيقية بالغدر . وقد تبددت توقعات الصليبيين ؛ فقد كانوا يأملون فى غنيمة كبيرة وكذلك فى فدية عن السلجوقيين المأسورين . وعوضا عن ذلك تفضل فوتوميت وسمح لهم بدخول المدينة (لكى يصلوا فى الكنائس) جماعات كل جماعة من عشرة اشخاص . فقد كان ، على حد قول حنة كومنينة ، يعرف جيدا اخلاق

السلت . وكانت قوات الروم تحمى المدينة . واشد ما اهان الصليبيين واغضبهم ، ان عائلة قلعج ارسلان والاعيان السلجوقيين سيقوا الى القسطنطينية ، وانه سرعان ما اطلق سراحهم للالتحاق بالسلطان قلعج ارسلان .

وقد توقع الامبراطور الكسيوس كومنينوس استياء اتباعه الغربيين وتذمرهم ، فاتخذ التدابير اللازمة لتهدئتهم ؛ فتعويضاً عن الخسائر التي لحقت بهم ، اعطاهم الكمية الزهيدة من الفضة والذهب التي استولى عليها الروم في خزينة السلطان . ان الاستيلاء على نيقية كان يساوى تقاسم شيء ما مع البرابرة اللاتين . كتب كونت دى بلوا الى زوجته : «جميع الاشياء النفيسة مثل الذهب والالماس والفضة والالبسة والخيول وما شابه كانت من نصيب الفرسان ؛ اما المأكولات فمن نصيب المشاة . وعلاوة على ذلك ، وعد (الكسيوس الاول - المؤلف) باعطاء الامراء من الكنز» . وللمناسبة نقول ان الفاسيلفس طلب في بيليكان حيث اجتمع قادة الصليبيين حلف يمين التبعية الاقطاعية من جميع الذين لم يحلفوها بعد . وهنا فقط استطاع بوهيموند ، مثلاً ، ان يحمل تنكريد على ان يصبح تابعا للامبراطور . فان شهامة الكسيوس كومنينوس ازاء السلجوقيين ، وازدواجية سياسته قوضتا ثقة الصليبيين في حليفهم . ومنذ ذاك طفقوا يعتبرونه خائناً للقضية المسيحية .

ان معركة نيقية قد كانت في تاريخ الحروب الصليبية المعركة الوحيدة التي انتهت وفقاً لخطط بيزنطية . واستغلالاً للنصر في نيقية حاول الامبراطور الكسيوس الاول ان يعزز سلطته قبل كل شيء في الاراضى المجاورة للقسطنطينية . وبقدر ما كان الصليبيون يتوغلون في الشرق وبقدر ما كانت الاوساط الحاكمة في الامبراطورية تفكر اقل فأقل في تقديم العون للصليبيين ، بقدر ما كانت تنقلص امكانيات تحقيق خطط الفاسيلفس الواسعة المرتبطة بالحملة الصليبية . وبعد الاستيلاء على نيقية ، سحب قسم كبير من قوات الروم المسلحة الى العاصمة ؛ ووراء ستار الصليبيين المندفعين الى الامام ، شرع الكسيوس الاول يستعيد الاراضى البيزنطية على الساحل الغربى والساحل الشمالى الغربى من آسيا الصغرى ومن بينها فى المقام الاول مقاطعة امارة ازميز (سميرنا) . ولم يبق مع الصليبيين سوى فصيلة مسلحة صغيرة من الروم بقيادة البريميكيير (لقب عسكرى بيزنطى) الاعظم تتيكيوس .

عبور آسيا الصغرى

فى ٢٦ حزيران (يونيو) ١٠٩٧ ، اتجه الصليبيون من نيقية فى جيشين (احدهما اثر الآخر على مسافة يوم واحد تقريبا من السير) نحو الجنوب الشرقى . وبدأ زحف حافل بالمشقات والمصائب والحرمانات عبر المناطق الداخلية من آسيا الصغرى . ناهيك بان الخطر المشترك حمل قلع ارسلان على التصالح وحتى على الاتحاد مع الذين كانوا اعداءه منذ وقت غير بعيد - امراء قبدوقية . وفى ٣٠ حزيران رابطت القوات السلجوقية فى وادى نهر غير بعيد عن ضورليوم (دوريله) ، بانتظار العدو .

فى اول تموز (يوليو) اشتبكت قوات السلجوقيين المتحدة التى شغلت ليلا مواقع على التلال المجاورة ، مع الصليبيين . فقد هاجمت مخيمهم فى الصباح الباكر ، منقضة على الوحدات الامامية التى يقودها بوهيموند من تارنتو وروبر السراويل القصيرة . وانهال السلجوقيون على الصليبيين بوابل من الاسهم من جميع الجوانب . صد بوهيموند الهجوم . واخذت المعركة تكتسب طابعا اقصى فاقسى . ونحو منتصف النهار ، وصلت طليعة القسم الثانى من جيش الفرسان ، السائر فى الاثر ؛ وكان برئاسة ريمون دى تولوز ، الذى ارسلوا اليه منذ الصباح ، ما ان نشب القتال ، رسولا ينبئه بالخطر الذى يتهدد النورمانيين والفرنسيين . وكان الدوق غودفروا دى بويون والكونت هوغ فرمندوا يأمران الطليعة التى اسرعت الى النجدة . وفى الحال ، دخلت المعركة . وبعد فترة وجيزة وصلت بقية القوات ؛ والى مقاتلى بوهيموند انضم البروفانسيون . وهكذا صار التفوق فى العدد الى جانب الصليبيين . واستطاعوا ان يزعزحوا العدو كثيرا . وتبين ان السلجوقيين الواثقين فى الهجوم لم يكونوا مستعدين للدفاع .

وقد اثرت الاعمال التى قامت بمبادرة من اديمار دى بوى ، نائب البابا ، تأثيرا لا يستهان به فى مآل المعركة . فقد تسلم هذا الاسقف بدبوس واثقظ على رأس فصيلة كبيرة من البروفانسين ، بصورة مفاجئة (حتى للزعماء الصليبيين الذين لم يتمكن من التشاور معهم) على السلجوقيين من المؤخرة . واذا السلجوقيون ، وقد اشتد عليهم الضغط من جانبين ، يولون الادبار بخوف وذعر ، بل انهم تركوا كل المعدات وحتى خيام السلطان والامراء مع الاشياء النفيسة المتواجدة فيها . وفيما بعد كتب مؤلف «افعال الفرنجة» بشعور من الرضى والسرور : «واخذنا غنيمة كبيرة - الذهب والفضة والخيول والحمير والجمال والغنم والثيران واشياء كثيرة اخرى» .

وهكذا منى السلجوقيون فى جوار ضورليوم بهزيمة ماحقة ، قررت من حيث جوهر الامر سير الحرب لاحقا فى آسيا الصغرى . وامام الصليبيين انفتح الطريق الى سوريا . وللمناسبة نقول ان هزيمة السلجوقيين قد ضمنت سلامة بيزنطية وامنها لزمان طويل .

وبعد ان استراح الصليبيون يومين ، انطلقوا فى ٣ تموز (يوليو) ، دون ان يبعثوا قواتهم ، الى ابعد ، نحو قونية ثم اتجهوا جنوبا نحو هرقله . وبصعوبة كبرى ، تم عبور الانحاء الجبلية ، الصحراوية ، الفارغة ، غير الاهلة احيانا ، فى قيظ تموز الالهاب . وقد اضنى القيظ الصليبيين . وكان السلجوقيون يعيقون بجميع الوسائل تقدمهم ؛ كانوا يدمرون الجسور فوق الانهر ، ويجعلون الآبار غير صالحة ، ويكتسحون الحقول ، ويسوقون سكان المدن والقرى الواقعة فى طريق الصليبيين . ونقصت الفرسان والفقراء المرافقين لهم المأكولات ، وكان نقص الماء يعذبهم بنحو خاص . وبسبب نقص الماء كانت تهلك الخيول . واضطر بعض الفرسان الى الترحل رغم ثقل طواقمهم وتجهيزاتهم ، واضطر بعضهم الآخر الى ركوب الثيران ، وشحن المعدات والذخائر على عربات قرنوا بها رؤوس الماعز والغنم وحتى الكلاب . وقد تحدث البر من آخن بصورة معبرة عن مشقات الصليبيين فى صحراء تراقيا ، ووصف العذابات القاسية التى كابدها الرجال والنساء بسبب العطش . «وفى وسط السهل ، تراكم الرضع الموتى وشبه الاحياء . . . والرجال ، الذين انهكهم العرق الغزير والقيظ الخارق ، كانوا بالكاد يمشون بافواه مفتوحة يتلقفون الهواء النقى للغاية ، لكى يخففوا العطش» . ومن العطش كان يموت الناس ، كما كانت تموت «الصقور وسائر الطيور الكاسرة التى تشكل سلوى الاعيان والنبلاء فى ايدى الذين يحملونها مباشرة ؛ وحتى الكلاب المروضة لفن الصيد الرائع كانت تموت بالنحو نفسه بسبب العطش فى ايدى اصحابها» .

وفى هذا الوضع لم يكن خال الادلة الروم سهلا ؛ فقد اخذوا اكثر فاكثر يرتابون فى خيانتهم .

فى ١٥ آب (اغسطس) ١٠٩٧ وصل الصليبيون الى قونية (وبعد بضع سنوات صارت قونية عاصمة السلطنة السلجوقية) . وهنا توقف الصليبيون لمدة اسبوع ، اذ اخذت الامراض تحصدهم . ان الواحة التى كانت هذه المحلة كانت تصلح تماما لاجل راحة المقاتلين وبعث قواهم . ثم واصل الجيش سيره . وقرب هرقله ، انزل بوهموند هزيمة اخرى بالامراء السلجوقيين الذين كانت عساكرهم تنتظر الصليبيين هنا من جديد ، وذلك اغلب الظن ،

بأمل ان تفلح في اجبارهم على العودة الى جبال طوروس ؛ وفي هذه الحال ، تبقى ممتلكات السلجوقيين انفسهم بعيدة عن مجال زحف الفرنجة . الا ان حملة بوهيموند الجريئة بددت هذه الآمال . واضطر السلجوقيون مرة اخرى الى التراجع . وبعد احراز النصر في جوار هرقله ، سمح القادة العسكريون لانفسهم بفترة استراحة قصيرة وقرروا الصيد .

في ايلول (سبتمبر) اتجهت جحافل الصليبيين الرئيسية من هرقله نحو الشمال الشرقي من آسيا الصغرى ، عبر قيصرية وكومانا ، لكي تطل على مرعش ، متجنبه سلسلة جبال انتى طوروس . وهذا الطريق اوصى به آمر الفصيلة البيزنطية تتيكيوس . وكان يبتغى اهدافا تمليه مصالح الامبراطورية السياسية ؛ وهى ان يحاول اعادة الامراء الارمن الى الخضوع لسلطتها ، لانهم كانوا اسما فقط يعتبرون تابعين للقسطنطينية البعيدة عنهم . وعمل قادة الصليبيين بنصيحة تتيكيوس لان الطريق التى دلهم عليها كانت مع ذلك اقل خطرا من طريق اخرى ، وان اقصر ، تمر عبر جبال طوروس وتؤدي راسا ، عبر الممرات الجبلية فى قيليقيا وسوريا ، الى وادى نهر العاصى ، الى الطاكية . وكانت آنذاك طريقا ضيقة جدا ، وعسيرة الاجتياز فى اوقات المطر ناهيك بان الانحاء التى كانت تمر بها كانت فى سلطة السلجوقيين بينما كان الارمن ، المسيحيون من حيث العقيدة الدينية ، يعيشون فى المناطق التى نصحبهم تتيكيوس بعبورها .

لم تطب نصيحة الامر البيزنطى لبعض الصليبيين ؛ فقد تذكروا غدر الامبراطور الكسيوس كومنينوس عند الاستيلاء على نيقية ، وكانوا دائما يرتابون بالروم وبتدبيرهم لخبايات جديدة ، فعمدوا الى التصرف كما يرتاون . ونحو العاشر من ايلول (سبتمبر) انفصل تنكريد مع مئة من الفرسان النورمانيين ومائتين من المشاة عن الجيش الرئيسى قرب هرقله ، وغادر معسكر الجيش ، واستدار بحدة صوب الجنوب ، صوب بوابات قيليقيا . وبعد بضعة ايام عمل على غزاه بودوان دى بويون وبودوان له بورغ وغيرهما من فرسان اللورين ، وزهاء ٥٠٠ فارس ، كما انطلق معهم ايضا زهاء الفين من المشاة .

وفى قيليقيا الارمنية نشب خصام ضار بين تنكريد وبودوان دى بويون بسبب مدينة طرسوس . فى البدء عرض الكونت بودوان بما يكفى من الوقاحة على تنكريد ان يهاجما معا هذه المدينة المسيحية ، رغم وقوعها آنذاك فى حوزة السلجوقيين وتحت سيادتهم ، وان ينهبها ويتقاسما الغنيمة التى يمكن اخذها هناك : «لنهاجم معا هناك ، وننهب المدينة ، ومن

يستطيع الحصول على اكثر يحصل ، ومن يستطيع ان يأخذ اكثر يأخذ» . هكذا كتب مؤلف نورمانى مجهول عن مقاصدهما . ولكن هذه المقاصد اللصوصية لم تتحقق . فبعد ان خرج السلجوقيون من المدينة الى لقاء الصليبيين ، ردهم الصليبيون على اعقابهم ، قولوا الادبار ليلا ، وبعد ان فتح سكان المدينة المسيحيون البوابات امام تنكريد ورجاله النورمانيين ، رأى بودوان على الابراج رايات خصمه ، فطالب بتسليمه المدينة . واضطر المغامر النورمانى ، رغم حنقه وسخطه ، الى التراجع ، فان عدد فرسانه كان يقل كثيرا عن فصيلة بودوان المؤلفة من الفين وخمسمئة مقاتل . واثبت بودوان مواقعه فى طرسوس ؛ وبعد فترة وجيزة حظى بمساندة اسطول القرصان البحرى غينيمر من بولون الذى وصل الى مرفأ لونغياد ؛ فان طاقم السفن كان يتألف من دانماركيين وفلمنكيين وفرنسيين . واقسم غينيمر يمين التبعية الاقطاعية لبودوان ، فعينه هذا حاكما على طرسوس . وصار اسطول القرصنة اول اسطول عند الصليبيين .

وفى هذه الاثناء اغار تنكريد على مدينتين اخريين فى فيليقيا هما ادنة ومميسترا . وتعين تسليم ادنة للفراس البورغونى فلف الذى احتل قلعة المدينة . وفى جوار مميسترا اشتبك تنكريد وبودوان على المكشوف . ولم يحالف التوفيق تنكريد فى المعركة . وفى سياق القتال سقط عن حصانه ووقع فى اسر ريشارد دي ساليرنو الذى سبق له ، كما افاد البر من آخن ، ان دعا تنكريد ببالح الالاح الى الرد على بودوان لقاء طرسوس . وكان ريشارد خاطب تنكريد قبل المعركة ولامه على ترده قائلا : «انت ترى امامك بودوان الذى حرمك طرسوس بسبب جوره وحسده . آه ، لو كنت تتحلى بقدر ما من البسالة ، لكنت جمعت جميع مقاتليك وانتقمتم للاهانة الموجهة اليك بضربه على جبهته ا»

وفى آخر المطاف سوى المتخاصمان خلافتهما ؛ فقد عقدا صلحا ابقى على وضع الامور المتكون فعلا ، او ، كما لاحظ مدون الاخبار راوول من كايان ، اقام المتخاصمان وضعاً بموجب المثل القائل : «من يملك ، فهو يملك ، ومن خسر فقد خسر» . وبعد ذلك ، استولى تنكريد ، وهذه المرة بمساعدة غينيمر من بولون واسطوله على مرفأ الاسكندرونة ، وابقى فيه فصيلة من فرسانه . كان للاستيلاء على الاسكندرونة اهمية كبيرة بالنسبة لاعمال الصليبيين اللاحقة . واجمالا لم يبق اقتحام قيليقيا بدون عواقب على مصائر المشروع الصليبي . فان حاميات الافرنج المتروكة فى المدن الارمنية قد حالت لاحقا دون السلجوقيين ودون الاعتماد على هذه الاراضى بوصفها

قاعدة للاحتفاظ بانطاكية . ومن جهة اخرى ، كان التنافس بين القائدين الصليبيين بمثابة درس مرئى محسوس للسكان المحليين ، من مسيحيين ومسلمين ، اذ ادركوا ان علاقات الفرنجة فيما بينهم لا بعد من ان تكون على خير ما يرام ، وان من الممكن عند الاقتضاء استغلال هذا الظرف .

لم يكن الخصام بين تنكريد وبودوان فى قيليقيا غير نزاع من اولى النزاعات بين «الصليبيين المتحدين فى الايمان» ، رغم ان مدونى الاخبار اللاتين الميالين الى الاطراء والمديح حاولوا ان يشيروا بجميع الوسائل الى وحدتهم وتلاحمهم فى النضال من اجل المثل العليا الدينية . فان فولهير من شارتر ، كابيلان بودوان من بولون ، مثلا ، قد كتب : «صحيح اننا كنا نتكلم لغات مختلفة . ولكن تبين اننا اخوة واقارب واهل ، متحدين فى حب الرب» . ان بعض المؤرخين البرجوازيين المعاصرين ينظرون الى هذا الضرب من الفقرات فى مؤلفات مدونى الاخبار اللاتين نظرة غير انتقادية ، فيصورون الحروب الصليبية بصورة عرض «لعظمة الغرب ووحدته» فى الصراع ضد الشرق الاسلامى . ولكن الوقائع التى يورد منها مدونو الاخبار انفسهم وفرة وفيرة ، تقوض من الاساس المحاولات لاضفاء اجماع استثنائى ما على الصليبيين ، قائم فى تربة الدين . فان مطامع الاغتصاب والفتح قد صدعت غير مرة التضامن الوهن بين النهايين والغزاة . وان مفاصمات تنكريد وبودوان فى قيليقيا مثال ساطع على الصدام بين مصالح الصليبيين الفعلية ؛ فكان الزعيمين نسيا ، لا تعهداتهما التبعية ازاء بيزنطية وحسب ، بل ايضا وحدة العقائد الدينية . وهذا المثال لا بعد من ان يكون المثال الوحيد .

وقد تفجرت النزاعات بملء قوتها فيما بعد ، وهذه المرة فى صفوف جيش الصليبيين الرئيسى .

اجتاز الصليبيون قيصرية التى اكتسحها السلجوقيون كليا ، واستداروا نحو مدينة كومانا الارمنية . ومنها اندفعت فصائل بوهيموند تطارد ، - عبثا ، والحق يقال - بقايا جيش دانشمند المهزوم . وبعد ثلاثة ايام دخل الصليبيون كوكيسوس . وبما ان كونت دى تولوز سمع ان الاتراك غادروا انطاكية ، فقد ارسل الى الامام على جناح السرعة فصيلة من ٥٠٠ بروفانسي بقيادة بيار دى كاستيون لكى يسبق الآخرين ويستولى على المدينة طالما كان بوهيموند مشغولا بالعمليات الحربية فى مكان آخر ما . الا ان الاخبار عن رحيل السلجوقيين من انطاكية لم تثبت صحتها . ومع ذلك ، استولت وحدة من فصيلة ريمون دى تولوز ، برئاسة الفارس بيار دى روى ، على بضع قلاع فى طريقها . وعندما علم بوهيموند بغدر ريمون دى تولوز ، لم

يكن لغضبه حدود . وهذه الحادثة ارسيت بداية العداء السافر بين امير تارنتو والكونت ريمون دى سانجيل - اى بين اثنين من ابرز زعماء الصليبيين - وهذا العداء لم تهدأ ناره على امتداد الزحف اللاحق كله .

كذلك اندفع الفرسان من مرتبة ادنى فى السباق الى كسب الممتلكات من الاراضى . فان الفارس البروفانسى بيار من اون تقدم من القادة ، بعد خروج القوات المسلحة من قيصرية ، بطلب منحه السلطنة على كومانسا (بلاستينيتسا) ، «المدينة الجميلة والفائقة الغنى» التى تعهد بالدفاع عنها «خادما الرب والقبر المقدس بأمانة ، وكذلك الاسياد والامبراطور» .

بنصيحة تتيكيوس (الذى كان يعرف ان ييسار من اون قد خدم الفاسيلفس فيما مضى) ، استجاب زعماء الصليبيين بطيبة خاطر لطلب الفارس ؛ فقد تنازلوا له عن كومانسا ، رغم ان وعده بالدفاع بأمانة عن القبر المقدس لم تكن بالطبع سوى ستار لائق لادعاءات من الجلى انها غير لائقة ، لادعاءات اغتصابية بحتة .

وتحركت قوات الصليبيين الرئيسية ، متجربة مدينة كوكيسوس ، نحو مرعش ، عبر جبال عالية ، «شيطانية» ، كما يقول مدون اخبار نورمانى ، حيث كانت ظروف العبور حتى فى افضل اوقات السنة ، خارقة الصعوبة . وحل شهر تشرين الاول (اكتوبر) . وانهمرت الامطار ؛ وجرفت المياه الدروب الجبلية الضيقة . وسار عليها الصليبيون ، تارة صاعدين صعبا ، وطورا منزلقين على الجروف الساقطة .

واحيانا كان الناس والخيول على السواء يتدهورون ويسقطون فى الهاوى العميقة . والمصير ذاته كان من نصيب مواشى الجر . جربوا ربطها بعضها ببعض ، ولكنها كانت بين الفينة والفينة تسقط فى الهاوى جارة بعضها بعضا . كتب مدون اخبار نورمانى مجهول عن احدى عمليات الصعود والنزول هذه : «لم يتجرا احد منا على ان يكون اول من يسير فى درب يمتد على حافة الجبل . . . كانت الخيول تتدهور هناك ، وكان طاقم من الدواب يجبر آخر» . ولم يكن من النادر ان يعمد الفرسان الغارقون فى الوحل الى رمى عتادهم العسكرى ، اذا لم يفلحوا فى بيعها باسعار رخيصة من المشاة .

وبأسف وكآبة كتب مدون الاخبار المذكور اعلاه : «كان الفرسان يقفون فى كل مكان حزاني ، ويضربون انفسهم بسبب من خارق الاسف والمرارة ؛ وبسبب عدم علمهم بما سيحل بهم وسلاحهم ، كانوا يبيعون دروعهم وخيرة صدراتهم المزودة مع الخوذ مقابل ثلاثة او خمسة دنائير (مدون الاخبار

الفارس لا ينسى قدقيق الثمن ١ - المؤلف) او بقدر ما يستطيع ان يحصل .
والذين كانوا لا يفلحون في بيعها بأسعار زهيدة كانوا يرمونها جانبا
ويمضون (الى ابعد) .

دولة الصليبيين الاولى

في تشرين الاول (اكتوبر) ١٠٩٧ وصلت جحافل الصليبيين الى مرعش .
واليها جاء ايضا بودوان من بولون مع الفوارس المائة الباقين لديه . ان
الخصام مع تنكريد قد قوض سمعة الكونت بين الصليبيين ، ففضل مغادرة
قيليقيا لبحث عن السعادة في مكان آخر . وبالفعل لم يقض الفاتح الذي لا
يكل في مرعش سوى يومين ؛ ثم اتجه ، بناء على نصيحة اخيه ، دوق دي
بويون ، باتجاه الجنوب الشرقي ، نحو الفرات . ولم تفارقه فكرة تأسيس
امارة خاصة به . ولا وفاة زوجته ، ولا اية اعتبارات اخرى استطاعت ان
توقفه . وبالاعتماد على دعم بعض الحكام الارمن ، استولى كونت دي بولون ،
دون ان يلقي مقاومة الا من جانب بلدوخ ، امير سميساط ، ناهيك بانها
مقاومة ضعيفة ، على قلعتين مهمتين بين عين تاب والفرات - هما قلعتا
راوندان وتل بشير (ومدو نو الاخبار اللاتين يسمونهما على الطريقة الفرنسية
رافندل وتوربيسل) ، وفي ٦ شباط (فبراير) من السنة التالية ، سنة
١٠٩٨ دخل مدينة الرها الارمنية الغنية التي احتلها السلجوقيون قبل ذلك
بأحدى عشرة سنة (سنة ١٠٨٧) .

وهذا المركز الكبير للحرفة وتجارة القوافل ، الرها او اورفا ، الواقعة
على طريق من بلاد ما بين النهرين الى سوريا ، كان يحكمه (في البدء باسم
حاكم سوريا السلجوقي تتش ، ثم بصورة مستقلة) الامير الارمني طوروس
الذي سبق ان منحته بيزنطية اللقب الرفيع - «كوروبالات» . وقد جاء
بودوان ، مع ٨٠ فارسا فقط ، بوصفه محررا للارمن من سيطرة الكفار ،
فكسب بالدهاء والحيلة ثقة الامير طوروس ، بل انه افلح في حمل الامير
طوروس وزوجته على تبنيه . ولمناسبة هذا التبني اقيمت علنا حفلة خاصة
وصفها البر من آخن ؛ فان الامير «شده» (اي شدد بودوان - المؤلف) الى
صدره العاري ، ثم التف بردائه الملقى على مقربة ، وعانقه ، وهكذا اقسما
يمين الولاء احدهما للآخر وهما ملفوفان بالرداء .

اصبح بودوان شريكا في الحكم للامير طوروس ، فاثبت اقدامه في الرها
وطفق يتقرب من قسم الاعيان الارمن المعادي للامير طوروس ، وبدأ يضطهد
بجميع الوسائل سكان المدينة وزراع الضواحي . وبعد فترة وجيزة ، حاکت

جماعة من الاربيستقراطية المجلية مؤامرة ضد طوروس ، واثارت ضده سكان المدينة . وقد اشترك ابن طوروس بالتبني وشريكه فى الحكم ، بودوان ، فى المؤامرة سرا . وبالنتيجة نكل «اناس غدارون ومجرمون» ، كما يسميهم مدون الاخبار الارمنى متى الرهاوى ، بالامير طوروس . واذا الامير الذى «تحاشت الرها بفضل ذكائه وحكمته وشجاعته ودهائه وحذاقته وضع دافع الجزية والخادم» للسلجوقيين يسقط ضحية للمتآمرين . وحين حاول ان يهرب من القلعة ، «ثقت آلاف السهام جسده فى لحظة واحدة ، فلقى مصرعه» .

وجعل بودوان من نفسه حاكما وسيدا لمدينة الرها . واستجابة لدعوته جاء الى الرها بعض من الاسياد الافرنج الآخرين ؛ فان الرها القريبة قد اغرتهم اكثر بكثير من القدس البعيدة آنذاك . ويقول مدون الاخبار ان بودوان «يغدق الكثير من الهدايا من البيزانتات والتالانتات (قطع نقدية بيزنطية - المؤلف) الذهبية والانية الفضية» . كان ينهب المدينة حقا وفعلا . وكان اتباعه يسرقون ويختلسون الضيع والوظائف والخزينة . فى كانون الاول (ديسمبر) ١٠٩٨ ، تمرد الشعب البسيط الذى اضطهده واذله «المحررون» - الصليبيون . بل ان الارمن استغاثوا بالسلجوقيين . بامر من بودوان اعتقلوا المبادرين الى التمرد واعدموهم ، واحالوا اموالهم الى الفرسان الافرنج . وزجوا فى السجون بالكثيرين ممن اشتركوا فى الفتنة . وافلح بعض من الموسرين فى الافلات من السجن بدفع فدية تتراوح بين ٢٠ الف بيزانت و٦٠ الف بيزانت ومد ذاك ، لم تعد تستند سلطنة بودوان فى الرها الا على الارهاب ضد الارمن «المحررين» ، وقد كتب متى الرهاوى عن ثبوت اقدام الافرنج فى الرها : «وقد اقترفوا هذه الاعمال التى لا عد لها والتى لا سابق لها لاجل نهب الكنوز ، وانزلوا بالبلد الخراب الشامل ، وبالناس العذابات القاسية . ولم يكونوا يفكرون الا بالشر ، وكانوا يفضلون درب المآثم والموبقات» .

وقد بذل بودوان جهده ، بعد ان اصبح سيد المدينة ، لكى يوسع قدر الامكان حدود ممتلكاته . وفى الجنوب الغربى شغل مدينة سروج وحولها الى حصن لممتلكاته الجديدة . ثم استولى الفرسان على مناطق تقع غربى وشرقى المجرى الاعلى لنهر الفرات .

وهكذا ارسيت بالقوة والعنف بداية اول دولة للصليبيين فى الشرق ، - كونيية الرها . وقد اصبحت هذه الكونيية مخفرا اماميا مهما للدول الصليبية الاخرى التى تشكلت فيما بعد .

فتح انطاكية

فى ٢١ تشرين الاول (اكتوبر) ١٠٩٧ وصلت قوات الصليبيين الرئيسية التى دخلت سوريا الى مشارف انطاكية . كانت انطاكية الواقعة على بعد ١٢ ميلا عن البحر ، على الضفة الشرقية من نهر العاصى ، من اهم مدن القسم الشرقى من البحر الابيض المتوسط (من الناحية الاقتصادية والعسكرية والسياسية) . وكان تاريخ انطاكية يرقى الى زمن الامبراطورية الرومانية . ومنها انتقلت الى بيزنطية ، ثم احتلها العرب فيما بعد . وفى الثلث الاخير من القرن العاشر ، احتلها البيزنطيون من جديد ، ولكن لزمّن قصير ؛ ففى ١٠٨٤-١٠٨٥ احتلها السلجوقيون . ومنذ سنة ١٠٨٧ حكمها الامير ياغى سيان الذى استغل العداوة بين دقاق صاحب دمشق ورضوان بن قتش صاحب حلب ، وتوصل فعلا الى الاستقلال السياسى .

كانت انطاكية عبارة عن قلعة من صنع الطبيعة بالذات : ففى الجنوب الغربى ، كانت تحميها الجبال ، وفى الشمال الغربى كان يحميها النهر والمستنقعات ، وفى الغرب كان يحميها البحر . وفى عهد الامبراطور يوستينيان (القرن السادس) بنوا حول المدينة - فى الانحاء المستنقعية وفى السفوح الجبلية - اسوارا منيعة . وبعد استرجاع المدينة من العرب ، عززوا الاسوار اكثر من ذى قبل ؛ فقد بلغت من السماكة بحيث انه كان من الممكن ، كما قال المعاصرون ، ان يتسع اعلاها لاربعة حصنة وبنى فى الاسوار ٤٥٠ برجا . وفى القسم الجنوبى الشرقى من المدينة ، فى اعلى منطقة فيها ، - على سفح جبل سيلبيوس ، كانت تقع قلعة داخلية عززها السلجوقيون باتقان ومتانة .

كانت انطاكية الموصولة بالبحر ، عبر خليج القديس سمعان ، بمدن الساحل المينائية الاخرى ، تضطلع من قديم الزمان بدور كبير فى تجارة المشرق . ولهذا كان الاستيلاء عليها بالنسبة للصليبيين امرا مغريا جدا . ولكن كان الدفاع عن المدينة - القلعة من الداخل اسهل من اخذها من الخارج ؛ فان العوائق الطبيعية وكذلك الاسوار والابرار كانت تجعلها عسيرة المنال رغم ان حامية ياغى سيان لم تكن كبيرة .

ان النبأ القائل ان بودوان صار كونت الرها قد اجج شهوات الامراء الباقين ، وفى المقام الاول بينهم بوهيموند من تارنتو وريمون دى تولوز . وقد اقترح هذا الاخير مهاجمة انطاكية فى الحال . الا ان هذا الاقتراح المحفوف بالمخاطر لم يلقى الدعم من جانب القادة الآخرين . فقد كانوا يخشون

يخرجوا من المدينة ويقلقوا المحاصرين ويشبطوا معنوياتهم بغاراتهم . ولكي يحمي الصليبيون انفسهم من هذه الطلعات والغارات ، بنوا على مقربة من باب الحديد برجا حصاريا هو برج بالريغار ؛ وقد بنوه على سفح جبل سيلبيوس ، غير بعيد عن سور القلعة . وفي الشهر الثالث من الحصار ، حين اقترب الشتاء وانهمرت الامطار الباردة اللامتناهية ، تبين ان المأكولات عند الصليبيين توشك ان تنتهي ؛ وحتى ذاك ، كانوا يؤمنون لانفسهم الطعام ناهبين الضواحي الغنية لانطاكية ودون ان يحرموا انفسهم من اى شيء . وبدأ الجوع فى المعسكر . ويستفاد من مدون للاخبار ان واحدا من كل سبعة من الصليبيين قد مات جوعا . ولم يستفد المقاتلون من اللحوم والفواكه والخمور التى ارسلها لهم من قبرص ، بناء على طلب من اديمار ، نائب البابا ، البطريك سمعان ، بطريك الروم للقدس ، الموجود آنذاك فى قبرص . فان هدايا البطريك لم تكف الا لمدة قصيرة . اما سكان المناطق المجاورة ، من ارمين ويونانيين وسوريين (وهؤلاء مسيحيون من شتى الطوائف والتيارات . وهؤلاء جاء الصليبيون «يحررونهم» من نير الكفار) فقد كانوا يبيعون المنتوجات الغذائية بأسعار مفرطة الغلاء . ويورد فارس نورمانى اشترك فى حصار انطاكية قائمة كاملة بأسعار الخبز والدجاج والبيض والجوز والخمور ولحوم الحمير ، والخبز . ويعتبر هذه الاسعار غالية جدا . ويقول : «بل ان كثيرين منا ماتوا هناك لانهم لم تكن معهم اموال يستطيعون بها ان يشتروا بمثل هذه الاسعار الغالية» . ان اولئك الذين كانوا ينهبون ويخربون ضواحي انطاكية بوحشية وهمجية غير آبهين بالعواقب ، شرعوا الآن يجنون ثمار لصوصياتهم .

وهبطت معنويات الفرسان والفقراء بسرعة كبيرة . وطفق اصغرهم نفسا يفارقون العساكر . وفى صباح من شهر كانون الثانى (يناير) ١٠٩٨ اختفى من المعسكر بطرس الناسك (وكان قد انضم الى الفرسان فى القسطنطينية) ومعه صديقه الحميم الفيكونت غليوم النجار (الذى سبق له ان فر مرة من اسبانيا) وغيره . فجهزوا تنكريد لمطاردة الفارين ، واعادوا الفارين ، بل انهم اجبروا الفيكونت على حلف اليمين بان يحتفظ بالصلابة حتى نهاية المشروع . ولكن «صغر النفس السقيم» ظل «يسيل من عساكرنا» ، كما كتب مدون الاخبار البروفانسي ريمون من اجيل ، لائما الفارين لا على انهم كانوا بسلوكهم يقللون عدد المحاصرين وحسب ، بل ايضا على اعطائهم مثالا سيئا .

الا ان الامدادات بدأت تصل ، والحق يقال ، من الغرب . فمن سواحل

الاطلسي والقسم الغربي من البحر الابيض المتوسط ، اندفع التجار والقراصنة الى انطاكية على سفنهم كأنما ، احسوا بالنفع المقبل . وفي تشرين الثاني (نوفمبر) ١٠٩٧ رمت ١٤ سفينة من جنوه مراسيها في خليج القديس سمعان . وفي آذار (مارس) ١٠٩٨ ، ارست ٤ سفن انجليزية بقيادة ادغار ايتلينغ . وقد عرجت هذه السفن في طريقها على القسطنطينية وشحنست ادوات ومعدات للحصار ومواد لاجل تركيبها . وعلى متن هذه السفن وصلت كذلك فصيلة من المقاتلين من ايطاليا . كذلك هرع غينيمر من بولون (من الاسكندرونة) الى مساعدة الصليبيين واخذ الصليبيون انفسهم يطوقون انطاكية بابراج الحصار .

ولكن ياغى سيان استنجد بالحكام السلجوقيين الآخرين . وارسل على الاخص ابنه شمس الدين الى دقاق ، صاحب دمشق ، فارسل هذا الى انطاكية قوات كبيرة . وفي الاشتباك السافر برهن الفرسان الصليبيون ذوو الاسلحة الثقيلة عن تفوقهم على العدو ؛ ولم يستطع السلجوقيون تحريك الخيالة الخفيفة . وفي اواخر كانون الاول (ديسمبر) ١٠٩٧ ، منيت قوات دقاق في جوار البارة بهزيمة انزلتها بها فصيلة متحدة تضم عشرين الف عنصر من قوات بوهيموند من تارنتو وروبر من الفلاندر ، اللذين قاما آنذاك بغارة في الجنوب من انطاكية بحثا عن المأكولات . الا ان المنتصرين تكبدوا خسائر خطيرة ؛ فان فصيلة روبر من الفلاندر السائرة في المقدمة طوقوها وبالكاد استطاعت ان تخرج من الطوق . نهب الصليبيون قريتين وعادوا الى المعسكر في جوار انطاكية بدون نجاحات خاصة فيما يتعلق باحتياطات المؤن . وبعد فترة وجيزة ، في شباط (فبراير) ١٠٩٨ ، استطاع الصليبيون ان يصدوا قرب جسر الحديد ضغط القوات التي دفعها الامير رضوان صاحب حلب الذي وقع معه ياغى سيان الصلح بعد ان كان معاديا له قبل ذاك . واكره الصليبيون السلجوقيين على التراجع . وقد لعب بوهيموند الدور الرئيسي في هذه الانتصارات الجزئية على السلجوقيين . فقد ابدى كل همته وكفاءته كقائد عسكري ؛ ذلك ان امير تارنتو كان يأمل بكل رسوخ بان انطاكية ستكون له وحده دون غيره .

ومع ذلك ، ضعفت بكل جلاء مواقع الصليبيين المتجمدين بردا . وكانت تنقص الاعلاف . ولم يبق في المعسكر غير ٧٠٠ حصان ، بينما ماتت الاحصنة الاخرى .

حاول البارونات ان يستغلوا في مصلحة الحرب الصليبية التناقضات بين السلجوقيين والفاطميين في مصر . ففي اوائل آذار (مارس) ١٠٩٨ وصل

من مصر الى جوار انطاكية رسل الوزير الافضل . ولكن الخليفة الفاطمي المصري عرض على زعماء الصليبيين شروطا غير مقبولة ابدا بنظرهم : تقاسم سوريا وفلسطين على ان تبقى القدس لمصر . رفض البارونات هذه العروض . ولكنهم قرروا ان يواصلوا المفاوضات مع المصريين في القاهرة . والى القاهرة راح مع رسل الافضل مفوضو الصليبيين . وكان قادة الصليبيين يأملون في عقد معاهدة تحالف مع مصر ضد السلجوقيين .

ويتبين من هذه الوقائع ان الاعتبارات الدينية لم تمنع الصليبيين من الدخول في علاقات ديبلوماسية من الجلي انها غير جائزة ، على ما يبدو ، بالنسبة لاصحاب الاسلام عن اقتناع . ولكن . . . الايمان هو الايمان ، والدين هو الدين ، بينما المنافع السياسية الفعلية تعلو مع ذلك على كل شيء ! ومن الطريف ان ريمون من اجيل ، الذي افاد عن هذه المفاوضات ، يزعم ، رغبة منه في تبريرها كيفما اتفق ، ان السلطان المصري اتخذ تدابير في صالح المسيحيين وان رسله ابلغوا الصليبيين بذلك .

وهناك تفصيل آخر من نوع مغاير تماما واسع الدلالة ، هو ان جشع الصليبيين لم يقل رغم كل ما عانوه من شقاء وبلايا . ويروى مدون الاخبار البروفانسي الواقعة التالية : بعد ان دفن السلجوقيون في مدفن ما وراء نهر العاصي مقاتليهم الذين لقوا مصرعهم فلى الاشتباك مع الافرنج (آذار - مارس ١٠٩٨) ، اندفع الفرسان الصليبيون في صباح اليوم التالي الى المدفن ونزعوا المجوهرات عن الجثث !

واستغل بوهيموند من تارنتو في الحال مصاعب فصائل الفرسان ، وكان من زمان يحلم في تنصيب نفسه اميرا على انطاكية . فوجه جميع افكاره الى امتلاك هذه المدينة . قبل كل شيء حاول ان يتملص بالحيلة والدهاء من وصاية الفاسيلفس . كانت قوات الروم المسلحة بقيادة البريميركير الاعظم تتيكيوس المرابطة في معسكر بجوار انطاكية اداة سياسة الفاسيلفس حيال الصليبيين . وكان بوسع تتيكيوس ان يحول دون تحقيق مشاريع الامير النورمانى ؛ ذلك ان هدف اقامة الروم هناك مع الصليبيين لم يكن يتقوم البتة في مساعدتهم ، كما كانت تفترض الاتفاقيات الرسمية . فان فصائل الروم المسلحة كانت مفرطة في القلة لاجل تقديم مساندة جدية . وكانت مهمة تتيكيوس الرئيسية تتلخص في صيانة مصالح الامبراطورية البيزنطية : ففي كل حالة بمفردها ، لدى كل نجاح يحرزه الصليبيون ، كان على تتيكيوس ان يطالب زعماء الصليبيين بان يعيدوا الى الامبراطور البيزنطى المدن التى «يعيدها الرب» ، حسب تعبير حنة كومنينة .

استطاع بوهيموند ان يخيف تتيكيوس بابلاغه «من باب الائتمان والثقة» ، ان البارونات يحكون الخطط السيئة النية ضده ، هو القائد العسكرى البيزنطى ؛ فهناك شائعة مفادها ان السلجوقيين يهرعون الى نجدة انطاكية ، وان هذه العملية هى من صنع تتيكيوس ، وان هناك مؤامرة تهدد حياة البريميكيير الاعظم . وآنذاك كان القائد العسكرى الرومى نفسه يميل اكثر فاكثرا الى فكرة ضرورة سحب فصائله من المعسكر نظرا لوضع الصليبيين المتقلقل للغاية ، ان لم يكن الميؤوس منه ، اذ انهم حاصروا عبثا انطاكية طوال سبعة اشهر . كذلك اقتنع تتيكيوس بامر آخر ، هو انه ليس بمقدوره فعلا ان يؤثر بقواته القليلة فى مجرى الاحداث . والامر الوحيد الذى افلح فيه الرومى الغدار - وليس عبثا امل الامبراطور الكسيوس الاول فى مهارته الديبلوماسية - هو اثارة وتاجيع نيران العداوة بين بوهيموند من تارنتو وريمون دى تولوز ، بسبب امتلاك انطاكية مستقبلا .

على كل حال ، غادر القائد العسكرى الرومى المعسكر وراح الى قبرص فى شباط (فبراير) ١٠٩٨ منسقا موقفه بالتاكيد مع رغبة الامبراطور الكسيوس الاول ، وواجدا حجة مناسبة : سيجلب للفرسان مساعدة قوية . وقبل السفر ، انعم تتيكيوس ، باسم الفاسيلفس ، على بوهيموند بقليليقيا كلها تقريبا ، مضافا بالتالى الصفة الشرعية على فتوحات تنكريد ، وملمحا فى الوقت نفسه للنورمانيين ان العاهل البيزنطى هو الذى يتصرف بقليليقيا على كل حال .

ادى رحيل تتيكيوس الى استمرار انتشار الشائعة عن الخيانة البيزنطية ، الامر الذى كان ينعدم مأرب بوهيموند : فليفكر فيما بعد قادة الصليبيين الآخرون فى طرح مسألة تسليم انطاكية للامبراطور الكسيوس الاول بوصفه سيدهم الاعلى !

وبعد ذلك ، اجرى امير تارنتو الداهية مفاوضات سرية مع الامر السلجوقى فيروز الذى كان مكلفا بحراسة ثلاثة ابراج فى الجانب الغربى من اسوار انطاكية ، واستطاع ان يستميل فيروز الى الخيانة : فلقاء رشوة معينة ولقاء الوعد بمكافأة اخرى ، اكبر ، وافق فيروز على السماح للفرسان الصليبيين بدخول الابراج التى يحرسها .

فى اواخر ايار (مايو) ١٠٩٨ ، عندما يتس الصليبيون تماما وقد عذبتهم آلام الجوع وتملكهم الخوف من المستقبل ، ابلغ بوهيموند فى مجلس القادة انه يعرف وسيلة للاستيلاء بسرعة على انطاكية ولكنه اشترط وضع

المدينة تحت سلطته بعد فتحها . فى البدء قابل زعماء الصليبيين بالرفض القاطع عرض المغامر النورمانى وشرطه الوقح . ذلك ان بعضا منهم ، مثل ريمون دى تولوز ، كانوا يرغبون هم ايضا فى ان يصبحوا امراء انطاكية . انهم ، كما يروى الفارس مدون الاخبار القريب من يوهيموند ، «قد عارضوا قطعاً وردوا هذه المقترحات واعلنوا : «هذه المدينة لن تكون من نصيب احد بمفرده ، بل سنملكها جميعا بانصبة متساوية ؛ وبما اننا بذلنا بالقدر نفسه فى هذه القضية جهودنا القتالية ، فينبغى ان نحصل على تشريفات واحدة» . ولكن امير تارنتو لم يعتزم التراجع عن مساعيه . وحين اصطدم بمعارضة قادة الصليبيين ، تظاهر بأنه يتخلى عن هذا المشروع ، وحتى صرح علنا وجهارا انه ينوى العودة فى الحال الى الوطن ، اذ ان الشؤون البيئية تتطلب ، بزعمه ، وجوده فى تارنتو . وبقينا ان ذلك كان مجرد مناورة وابتزاز . ولكن مفعولهما سريا لسبب بسيط ، هو ان نبأ رهيبا اذهل آنذاك بالضبط الفرسان مثل البرق هو ان الاعداء سيلقون عوناً من الشرق . وبالفعل ، كان جيش اسلامى لجب يقترب من انطاكية بقيادة اتابك الموصل كربقا . ١

ذلك ان زحف الافرنج اقلق الاعيان السلجوقيين . فارسل كثيرون من حكام السلجوقيين قواتهم الى كربقا ، ومنهم امراء القسمين الاوسط والشمالى من بلاد ما بين النهرين ، ودقاق صاحب دمشق ، وامراء المقاطعات الفارسية . فى البدء تحرك هذا الجيش من آلاف المقاتلين نحو الرها . فقد اراد كربقا قبل كل شىء ان يقضى على المخفر الامامى للسيادة الفرنجية التى اخذت ترتسم بجلاء فى الشرق . وكان يتخوف من وجود كوثية الرها التى كان بمقدورها ان تقطع مواصلات السلجوقيين . ولكن جيش اتابك الموصل لم يتوقف فى جوار الرها سوى ثلاثة اسابيع ، واستدار فى اتجاه انطاكية دون ان يبلغ هدفه (فقد تبين ان اسوار المدينة منيعة لا تؤخذ) .

ان الشائعة التى انتشرت بين الصليبيين عن هذه الاحداث قد بذرت الرعب فى صفوفهم . ويروى مدون الاخبار البروفانسى شاهد العيان ريمون من اجيل منددا بصغار النفوس ان كثيرين من الجبناء شرعوا يهربون من جوار المدينة ، وبينهم فر الكونت ايتيان دى بلوا ، السيد الملاك الكبير الذى كانوا يقولون عنه فى فرنسا ان عنده من القصور بعدد ايام السنة . واثناء الحملة ، اكثر من املاكه . وقد كتب ايتيان دى بلوا الى زوجته من جوار انطاكية : «صدقينى ، يا عزيزتى ، ان عندي الآن من الذهب والفضة ضعف ما كان عندما فارقتك» . ان هذا الصليبي الرفيع المقام الذى اغتنى

لم يرغب في ان يعرض للخطر الغنائم التي نهبها في الشرق ، من اجل قضية معلقة وموضع شك ، قضية تحرير قبر السيد المسيح ؛ فركب سفينة مع الفرسان الذين التحقوا به ، وراح الى الاسكندرونة ، ومنها عاد الى بيته عبر آسيا الصغرى .

اضطر زعماء الصليبيين ، وقد اقلقهم اقتراب كربقا ، الى التنازل لا دعاءات بوهموند الوقحة . فقد وافقوا «بقلب مفتوح» ، اذا صدقنا مدون الاخبار ، ولكن قسرا بالفعل ، على منحه المدينة ، اذ كان يستطيع ان يستولى عليها وحده او بمساعدة احد ما في القريب العاجل ؛ الا انه تم الاتفاق ، والحق يقال ، بصدد تحفظ مفاده انه سيتعين لاحقا على كل حال ، بموجب المعاهدة مع الامبراطور البيزنطي ، احترام حقوقه في انطاكية ، التي كانت فيما مضى تخص ملوك القسطنطينية . بيد ان التحفظ كان غامضا : «اذا وصل الامبراطور الى نجدتنا في الوقت المناسب» .

على كل حال شرع بوهموند ، وقد نال من القادة الموافقة المطلوبة على امارة انطاكية ، ينفذ فوراً ما فكر فيه . ففي ليلة الثاني الى الثالث من حزيران (يونيو) ١٠٩٨ قاد فصيلته عبر الابراج التي فتحها له الامر فيروز ، واقترب الفرسان النورمانيون من السلم التي كان قد سبق نقلها وتثبيتها بكل رسوخ الى سور المدينة ، وصعد ٦٠ منهم عليها وتوزعوا على الابراج التي يحرسها فيروز . وفي الوقت نفسه هاجم الصليبيون المدينة من اما كن اخرى .

أخذ السلجوقيون على حين غرة ، وانتقلت المدينة النائمة الى ايدي الصليبيين . ولم تستسلم القلعة القائمة قرب اعلى قسم من السور ، على سفح جبل سيلبيوس ؛ فقد دافعت عنها بصلافة الحامية السلجوقية وكذلك اولئك الاتراك (نحو ٣ آلاف) الذين استطاعوا الاحتماء فيها . وقد كتب المؤرخ العربي ابن القلانسي : لقد تحصنوا هناك «وسلم من كتب الله سلامته» * . ويقول مؤرخ عربي آخر ، هو ابن الاثير ان الامير ياغي سيان قد لقي مصرعه اثناء الاستيلاء على انطاكية . وعن هذا تفيد المراجع اللاتينية ايضا . ولكن ظروف مصرعه توصف بصور مختلفة . وحسب جميع الدلائل ، حاول ان يهرب ، ولكن حراسه فارقوه وقتله السكان المحليون . وفي رسالة الى البابا اوربان الثاني ، مكتوبة بعد فترة من الزمن ، تباهى

* تاريخ ابن معلى حمزة ابن القلانسي . بيروت ، ١٩٠٨ ، ص ١٣٥ .

قادة الصليبيين. بانتصارهم ونسبوا مصرع الامير ياغى سيان الى بسالتهم بالذات («وقسبيان اى ياغى سيان نفسه امتناه»).

ومهما يكن من امر ، فقد استولى الصليبيون على مدينة انطاكية . ولم يضيع بوهيموند الوقت ، كما يقول مسدون الاخبار : فما كاد المحاصرون يقتحمون المدينة حتى «امر» الامير النورمانى «الفرسان بنصب رايته على المرتفع ، المقابل مباشرة للقلعة» .

واضعافا مضاعفة كافا المنتصرون انفسهم على الحرمانات التى عانوها فى اشهر الحصار . فقد نهب الصليبيون المدينة كليا وتاما . ويوضح ريمون من اجيل خبره عن اعمال النهب التى قام بها الصليبيون بعد الاستيلاء على المدينة : «ليس بمقدورنا ان نقول كم من الغنائم اخذت اجمالا فى انطاكية ؛ فاذا تصورتم باقصى ما يسمح خيالكم ، فاحسبوا اكثر من ذلك» . واقام الصليبيون حفلات ومآدب تهتكية ، واكلوا - لما فيه مصيبتهم - جميع الاحتياطات التى كانت لا تزال فى انطاكية بعد حصار دام سبعة اشهر ، رغم كل قلتها . وقتلوا المئات من سكان المدينة . وانتشوا بسيول الدماء التى سفكوها ، ولم يفرقوا بين مسيحي ومسلم . وافاد ريمون من اجيل : «لم يأسروا ايا ممن التقوا بهم فى الطريق» . وقد امتلات جميع الساحات ، كما يشهد شاهد عيان آخر ، بجثث القتلى ، «بحيث ان احدا لم يكن بوسعه ان يتواجد هناك بسبب الرائحة الكريهة القوية ؛ ولم يكن بوسع احد ان يمر فى الشوارع الا (بالسير) على الجثث» . وينعت مدون الاخبار الارمنى متى الرهاوى المذابح التى اقترفها الفرسان الصليبيون فى انطاكية بالمجزرة الرهيبة . ويقول ابن القلانسي ان عددا لا يحصى من سكان المدينة من رجال ونساء واولاد قد قتلهم الصليبيون او اعتقلوهم وساقوهم الى الاسر .

«معجزة الحربة المقدسة»

فى ٥ او ٦ حزيران (يونيو) ١٠٩٨ ، اى بعد مرور ٣ او ٤ ايام على احتلال الصليبيين لمدينة انطاكية ، اقترب من المدينة جيش كركى الموصل - كما يقول مدون للاخبار - «كثرة لا نهاية لها من الاتراك توزعت فى الحقول» . طوق الاتراك المدينة من جميع الجوانب ، واذا الصليبيون الذين كانوا امس يحاصرونها يصبحون هم انفسهم محاصرين . وفيما بعد ابلغ الصليبيون بابا روما ان السلجوقيين «طوقونا من كل مكان بدرجة من الاحكام بحيث ان احدا منا لم يكن بوسعه ان يخرج وان احدا لم يكن بوسعه ان

يتسرب اليها» . وفي الحال شعر المحاصرون بمشقات الوضع . لم يكن ثمة مأكولات . كان الفرسان يموتون جوعا ويهلكون من شتى البلايا الأخرى . وكانوا يذبحون خيولهم وحميرهم الهزيلة ويأكلون لحومها . هكذا ابلس الصليبيون روما فيما بعد . وقد اجبر العوز الكثيرين على استهلاك العشب وقشر الشجر والحبال وطقوم الخيل الجلدية ، بعد غليها . بل انهم لم يأنفوا عن اكل الكلاب والقطط والفئران الميتة وشتى الجيف .

واستحوذ اليأس على المحاصرين . واخذ الفرسان البواسل والاجرياء يفرون من انطاكية بالعشرات والمئات ، افرادا وجماعات . وعادة كان الفارون ينزلون ليلا على الحبال المتدلية من الاسوار ويحاولون تحت ستار الليل ان يصلوا الى السفن الراسية قرب ارضة خليج القديس سمعان ؛ ولهذا نعتوهم في صفوف العساكر بالفارين الحبليين . وكان قريب بوهموند ، غليوم دي غرانمينيل ، اول الفارين من انطاكية ؛ وفيما بعد انضم الى ايتيان ي بلوا . وسار على منواله بعض المقاتلين الاقطاعيين الآخرين الذين خافوا من احتمال الوقوع في الاسر وفقدان ما نهبوه .

واخذ مزاج اليأس يتغلغل اعمق فاعمق في اوساط الصليبيين ، المحصورين في المدينة التي فتحوها . بعضهم كان ، بدافع القنوط ، تتملكه النشوة الروحية الدينية فيركع من الصباح الى المساء في كنائس انطاكية ، مكررا الركعات امام تماثيل وايقونات يسوع ومريم العذراء والقديسين المفضلين . وكانت بلايا الحصار تؤثر في الآخرين باتجاه مضاد تماما ؛ فقد فقدوا الثقة في مال ملاتم ، ففقدوا بالتالي الحماسة الدينية التي كانت تتملكهم من قبل الى هذا الحد او ذاك .

وغنى عن البيان ان الدوافع الدينية كانت عند البعض منذ بادى بدء ظاهرة وسطحية في شيء ما ، وان الغنائم والمكتسبات من الاراضى كانت بنظرهم الامر الرئيسى ؛ ومع ذلك ، كان جمهور القوات من الفرسان والفلاحين لا يدرك الواقع الا من خلال موشور المزاج الدينى . وان البلايا فى انطاكية قد ادت الى نشوء ميول الوهن والانحطاط ، والهبت الخيال الدينى لدى اغلبية الفرسان والفلاحين ، واسفرت عن تفاقم عدم الثقة فى ربانية الحملة الصليبية : فمن الجلى ان الرب قد حكم بالآلام وعذابات مفرطة فى المشقة على الذين كانوا يعتزمون التضحية بحياتهم من اجله . وفى جو النشوة الدينية التى استحثتها وعززتها المجاعة ، اخذت تحدث فى الخيال المشوش عند بعض المشتركين فى الحملة الصليبية تطورات ملحوظة ؛ فقد بدأت تظهر الهلوسات : وفى الليالى ، كان هؤلاء او اولئك من الصليبيين ، كما كان

يتبين فى الصباح ، يحلمون فى النوم احلاما غير عادية ، نبوئية كما كانوا يزعمون . كان يتراعى لهم القديسون والرسول ، وعلى السنة هؤلاء ، كان الرب ينبيه بارادته فى هذه الاحلام . وطفقوا يعتبرون ابسط ظواهر الطبيعة علائم ربانية .

يقينا ان البحوث بعذاب وألم عن مخرج من المصاعب الفعلية التسي انقضت فجأة على المنتصرين منذ امد قريب قد انعكست بنحو معاكس فى لعبة الخيال الموجه توجيهها دينيا ، ولكن الوقائع من هذا النوع كانوا يفسرونها فى بيئتهم - وتلك خاصة عادية من خواص الوعى الدينى والنفسية الدينية على العموم ا - كشيء نبوى . وفى الدين كان الخداع الذاتى والايقاع الذاتى يضطلعان دائما بدور بالغ . وبأكبر قدر من القوة كانت هذه العوامل - تفعل فعلها حين كانت الانفعالات الدينية من جراء ظروف خارقة تتلقى دفعة قوية من الخارج .

وهكذا بالذات حصل اثناء وجود الصليبيين فى انطاكية التى طوقها واغلقها كربقا ، فى حزيران (يونيو) ١٠٩٨ . وقد بدا كان المؤمنين المتعرضين كليا للتخدير الذاتى عاجزون عن التمييز بين ثمار خيالهم الدينى الملتهب وبين الخداع المتعمد الذى لجأ اليه بنجاح كبير فى مثل هذا الوضع خدام الكنيسة الذين استسلموا هم ايضا - وبقوة خاصة ا - لهذا التخدير الذاتى ، ونقلوا هذا الخداع الى عقول رعاياهم .

وبالفعل اخذ رجال الكنيسة المشتركون فى الحملة يوحون بدورهم ، ببالح الجهد ، «بالرؤى النبوية» التى تراءت لجنود المسيح ، وبالعجائب المفسرة بانها علائم على رضى الرب وعطفه ، وبذلك كانوا يؤججون اجواء التهيج الدينى فوق ما هى عليه من سعي . وانقض سيل متواصل هائل من العجائب فى فترة وجيزة على المحاصرين ا ان الهدف من هذه التمثيلات الدينية ، الذى كان مستورا عن الملهمين والمشاركين ، والذى كالمسوا لا يدركونه ، كان يتلخص ، اغلب الظن ، فى امر واحد ، هو درء خيبة الامل ، المحتملة فى ظروف الاخفاقات الشاقة ، لدى المشتركين فى المشروع الصليبي المقدس ، انهاض روحهم القتالى ، تسعير اوار التعصب الدينى القتالى فوق ما هو عليه من تاجع . عن هذا الطريق فقط كان يمكن رص صفوف الفرسان الصغار ، والفلاحين الفقراء ، حول الامراء القادة ، وتجميل الايام المضنية واعباء الحملة المنهكة بآفاق الحياة فى الجنة بعد الموت ، وحمل المشتركين فى الحملة ، فى آخر المطاف ، على صد السلجوقيين بهمة وعزم

. . . اليكم حادثة يرويها البروفانسي ريمون من اجيل فى مؤلفه «تاريخ

الفرنجة الذين استولوا على القدس» . ان هذا المعلم الكنسى لم يكن مجرد شاهد حيادى للاحداث التى يصفها ، بل كان يؤدى كذلك وظائف الكابيلان عند ريمون دى تولوز ، وكان ينفذ بنشاط وهمة خطته السياسية اثناء الحملة . اليكم هذه الحادثة .

حين بلغ الصليبيون المحاصرون فى المدينة حد اليأس وطفقت هلوسات الجوع تعكر صفو عقول الكثيرين منهم ، اعتبر ريمون دى تولوز ، المدعى بانطاكية ، ان الفرصة قد سنحت لكى يرفع مكانته وسمعته بالذات فى عيون المقاتلين الصليبيين - على حساب منافسه بوهيموند من تارنتو . ولهذا الغرض قرر ان يستفيد من خدمات كابيللانه ، الرجل التقى الورع والفارح ، الذى يعرف كيف يسهر على مصالح سيده . ان تاجع عواطف الصليبيين الدينية قد خلق وضعاً ملائماً جداً لاجل تنفيذ العملية الدينية السياسية المخططة فى محيط الكونت والهادفة الى زيادة حظ ريمون دى سانجيل ، كونت تولوز ، فى الصراع ضد بوهيموند من اجل امتلاك انطاكية . لقد هبطت معنويات الصليبيين ولذا يجب القيام بامر خارق لكى ينتعشوا ويتشجعوا ، علما بان مصدر الهامهم (الربانى الاصل بالطبع) يجب ان يكون على مقربة من الكونت ريمون دى سانجيل . والافضل ان يقودهم الى هذا المصدر رجل صادق يعيش بخوف الله .

حاول كابيللان الكونت ان ينفذ بكل مهارة وحذاقة نوايا سيده ، التى كان يفهم جيداً مغزاها على ما يبدو . فقد وجد فى صفوف الجحفل البروفانسى فقيراً اسمه بيار بارتيليمى (Barthélemy) واذا بهذا الرجل يعلن ذات مرة لرفاقه فى السلاح انه رأى فى المنام - وليس مرة واحدة بل خمس مرات - الرسول اندراوس وان الرسول اسر اليه بما يلى : فى كنيسة القديس بطرس بمدينة انطاكية توجد حربة مطمورة هى الحربة التى طعن بها ، كما جاء فى الانجيل ، المحارب الرومانى فخذ يسوع المسيح المصلوب على الصليب . فاذا وجد الصليبيون هذه الحربة المقدسة المغمسة بدم ابن الاله ، فقد خلصوا ! تلك كانت الارادة السماوية التى نقلها اليه ، هو بيار بارتيليمى ، الرسول اندراوس فى حلم الليل .

وعلى الفور ، حسبما روى ريمون من اجيل ، راح الرجل البروفانسى الذى استحق رسالة السماء يروى لريمون دى سانجيل ، عن هذه الرسالة . وبالطبع استقبل الكونت استقبالا حاراً النبا المشجع الذى حمله له موطنه صاحب الرؤيا والنبوءة . يقينا ان بيار بارتيليمى قروى بسيط والبسته ممزقة ، ولكن هذا افضل بكثير مما لو ظهر الرسول اندراوس للفارس . فان

الصلبيين الذين يحلمون نهارا وليلا بالخلاص سيصدقون هذا الرجل البسيط بصورة اسرع ا عهد الكونت بيار بارتيليمي الى الكابيلان ريمون من اجيل ، وامر في الحال بالتنقيب في الكنيسة .

ارسلوا الى الكنيسة فصيلة من ١٢ رجلا ، من فرسان وكهنة ، فضلا عن بيار بارتيليمي نفسه . واخرجوا جميع الناس الآخرين من الكنيسة . رفعوا صفيحة وطفقوا يحفرون الارض تحتها . حفروا زمنا طويلا جدا ، يوما كاملا (١٤ حزيران ١٠٩٨) واخيرا - يا للعجبة ! - ظهرت في الغسق ، في قاع الحفرة ، قطعة من حديد صدي . وكما كتب ريمون من اجيل ، «تعطف الرب على شعبه التقى وظهر لنا الحربة . وانا الذي كتبت هذا قبلتها حين ظهر بالكاد طرف الحربة من الارض» .

وهكذا تحققت. اشارة الرسول اندراوس «النبوية» ، وعشر على الحربة المقدسة التي «اعلم» عنها في الحلم بيار بارتيليمي ، واستخرجت من الارض . ومع هتافات التهليل ، وبمصاحبة انشاد النشيد الكاثوليكي «الحمد لك ، يا الله» ، وضعوا الذخيرة على مذبح كنيسة القديس بطرس . وسرعان ما انتشر نبا اللقية في معسكر الصليبيين . فارتفع في الحال مزاج الصليبيين . كتب الفارس انسلم دي ريموننته الى الاسقف منسى في ريمس (فرنسا) : «ان لقية الحربة المقدسة قد انعشت قلوبنا من جديد» . ويقول مدون اخبار فرنسي : «فرحت جميع العساكر واي فرح ، وكان كل يستحث الآخر على الشجاعة ، ولم يكن من الممكن ان يشبعوا من التحدث عن العون الرباني الذي جاءهم» . ويردد مدون اخبار آخر : «الشعب كله ، ما ان سمع بذلك ، حتى حمد الرب» .

ان الصليبيين الذين كانوا يتحرقون رغبة في شق الحصار ، والذين احسوا بنهوض العواطف الدينية ، قد امتلأوا بالحماسة القتالية . فمن المؤكد ان الحربة العجيبة ستنتشلهم من المصيبة !

وبالفعل ، بعد اسبوعين ، - في ٢٨ حزيران ١٠٩٨ ، - تحقق الفصل الثاني من المعجزة التي انبا بها الرسول اندراوس «بصورة نبوية» في الحلم . فان الصليبيين الواثقين بان الرمح المقدس سيؤمن لهم النصر على عدوهم كربقا ، قد اندفعوا الى القتال بالبلط والسيوف والرماح ، مستعدين للاقدام على اية مجازفة وتهور لاجل قهر الوثنيين . قاتل الصليبيون بضراوة وعنف . كذلك اشترك الكابيلان ريمون من اجيل في المعركة : فقد حمل في يديه ، سائدا اثناء سيره رداءه الكهنوتي ، حربة السيد المسيح ، فكان لا بد لمنظره ان يبعث القوى في المهاجمين . وفي ذلك اليوم ، هزم

الصليبيون ، وقد شجعتهم لقية الذخيرة النفسية ، جيش كربقا فى معركة فاصلة . وقد فر جيش كربقا ؛ ومنذ ذاك انتقلت انطاكية نهائيا الى ايدى الغزاة الغربيين . !

الا ان المقاصد السياسية التى رسمها ريمون دى سانجيل ، كونست تولوز ، والتى اخرجت من اجلها المسرحية الدينية قبل المعركة ، لم يكتب لها النجاح . فان بوهيموند من تارنتو ، منافس ريمون دى سانجيل ، هسو الذى كان عمليا ، هذه المرة ايضا ، منظم النصر على كربقا . وعهد الاسياد الى النورمانى ، رغم عدم رغبتهم ، بالقيادة العليا ؛ وله بالذات كان الصليبيون مدينين من جديد بالنصر على السلجوقيين . وعجزت الحربسة المقدسة عن توفير كسب سياسى للكونت ريمون .

اما الدور الرئيسى فى نجاحات الصليبيين ، فلم تلعبه بسالتهم الحربية بقدر ما لعبته الخلافات التى نشبت بين الامراء السلجوقيين عشية المعركة . فقد تازمت العلاقات بين كثيرين منهم وبين الموصل . وفارق دقاق ، صاحب دمشق ، كربقا ، عندما ابلغوه ان المصريين يستعدون لمهاجمة فلسطين من الجنوب ، كذلك فارقه بعض القادة العسكريين السلجوقيين الذين استاؤوا ، كما يفيد المؤرخ العربى ابن الاثير ، من غطرسة القائد العام الاعلى فى معاملتهم . وانخفض كثيرا عدد افراد قوات المسلمين . وللمناسبة نقول ان الصليبيين لم يعرفوا شيئا عن هذه الخلافات ؛ ففي ٢٧ حزيران اجروا مع كربقا مفاوضات بشأن رفع الحصار عن انطاكية (وكان بطرس الناسك احد المفوضين المرسلين الى السلجوقيين لاجراء المفاوضات) . اخفقت المفاوضات ؛ وفى اليوم التالى قسم بوهيموند جيش الصليبيين الى ست فصائل ، وساق هذه الفصائل الى الهجوم ، وتكلم الهجوم بالنجاح . فعند رؤية الصليبيين يخرجون صفوفسا منتظمة من باب انطاكية ، استحوذ الذعر على السلجوقيين الذين كان قد قل عددهم كثيرا . وسرعان ما ولوا الادبار .

فيما بعد كتب الصليبيون الى البابا : «ما ان احرنا النصر حتى طاردنا العدو طوال اليوم بكامله ، وقتلنا كثيرين من مقاتلى العدو ، ثم تحركنا الى المدينة بفرح وابتهاج» . وهذه المرة استولوا كذلك على قلعة المدينة . فقد حاصرتها فصيلة كونت تولوز ، ولكن آمر القلعة احمد ابن مروان استسلم مع المحاربين الالف الموجودين فى القلعة لبوهيموند عند وصوله الى القلعة ؛ اغلب الظن انه كان قد تم الاتفاق معه بشأن شروط الاستسلام .

بعد ان هزم الصليبيون العدو ، نهبوا كليا معسكر كربقا الذى كان مقاتلوه قد «تركوا خيامهم والذهب والفضة وكثرة من المجوهرات وكذلك

الاغنام والابقار والاحصنة والبغال والجمال والحمير والحبوب والخمور وكثيرا من الاشياء الاخرى التى كنا نحتاج اليها» ؛ هكذا يعدد مدون نورمانى للاخبار الغنائم بنشوة وابتهاج .

الا ان قصة الرمح المقدس ظلت زمنا طويلا تثير المجادلات بين المعاصرين ، بما فى ذلك بين الصليبيين انفسهم .

ان المشتركين فى الحملة الصليبية واولئك الذين عرفوا عن لقية الحرب المقدسة من شهود العيان او من اشخاص ثالئين ، يزوون هذه الحادثة بأشكال مختلفة . والفوارق فى السرد تعكس الفوارق فى مواقف المؤمنين فى اواخر القرن الحادى عشر واولئل القرن الثانى عشر ، فى مواقفهم من هذا الضرب من الخداع الذاتى الدينى ، الخداع التقى .

عن لقية الحرب المقدسة يحكى باكبر قدر من التفاصيل ملهم اللقية ومنفذ المعجزة ، الكابيللان - مدون الاخبار ريمون من اجيل . فهو يخفى بعناية ودقة الجانب غير المنظور من كل هذه الحكاية التى تشير بالـشكوك . فهو يصور فى حكايته لقية الذخيرة المكتشفة بامر من الاعلى بصورة حدث عجائبي حقا ، بصورة ثمرة وحى ربانى وصل الى الصليبيين بواسطة الرسول اندراوس . فرغبة فى «تعزيتهم فى اقصى الحزن» ، اعرب الرب عن عظيم عطفه وطيبته وجبروته «باختياره (لهذا الغرض) فلاحسا فقيرا ، بروفانسى المولد» . «بواسطته قوانا الرب جميعنا» . ذلك هو جوهر حكاية ريمون من اجيل البسيطة ظاهريا .

فان بعض الباحثين ممن جاؤوا بعده ، مثل فون زيبل ، قد اعتبروه متعصبا يؤمن حقا وفعلا فى وحى الرب ، وفى الطابع العجائبي لما حدث . وعلى العكس يرى آخرون ، ومنهم كلاين ، انه كذاب «جزويتى حقيقى قبل لويولا» * ، لاعتبارهم انه لم يكن البتة تقيا على العمياء ، بل لجأ عن كامل الوعى والمعرفة ، قصدا وعمدا ، الى الاحتيال الدينى ثم صوره فى مؤلفه بصورة حدث سماوى الاصل حقا . اما الحقيقة فقد كانت بالفعل بين بين . فان ريمون من اجيل كان هذا وذاك . فاذا كان قد لجأ الى الحيلة والكذب ، فان هذا لا ينفى صدق عقائد الكاهن البروفانسى الدينية . لقد تصرف بعميق اليقين والاقتناع بان لقية الحرب المقدسة التى انبى بها بيار بارتيليمى بصورة نبوية فى الرؤيا الرسولية معجزة ربانية . ان التخدير الذاتى من قبل المتعصب قد اجتمع بصورة متناقضة عند الرجل الواحد ذاته مع ممارسة

* مؤسس الرهبنة اليسوعية .

الخداع الدينى . وفى هذا تكمن السمة الاصلية الملازمة للوعى الذاتى الدينى وللعمل الدينى النابع منه لدى المؤمنين من هذا الطراز فى القرون الوسطى . فقد كانوا اشبه بالاطفال .

ان المؤمن الذى كان يدوخه فى تلك الازمنة هيجان خياله ، مثل الكاهن ريمون من اجيل الذى كان يملك خيالا متوقدا على الطريقة البروفانسية ، كان من الممكن تماما ان يؤمن فى حقيقة وصدق الرؤية التى رآها بيار بارتيليمى ، لكن كان من الممكن تماما ان يمثل بضمير نقى البحث عن الحربة المقدسة التى سبق ان اوحى الرسول اندراوس بموقعها ، كما يقال . فضلا عن ذلك ، اراد ريمون من اجيل حتى ان يثبت بمؤلفه التاريخى صحة وحقيقة معجزة الحربة المقدسة . ان الهدف من مؤلفه «تاريخ الفرنجة الذين استولوا على القدس» يتلخص بالضبط فى تبديد شكوك معاصريه بشأن هذه القصة . وبامتعاض جلى ، كتب فى «مقدمة» مؤلفه عن اولئك الصليبيين الجبناء وغير الصالحين للحرب ، الذين فروا من صفوف القوات المسلحة ، وشوهوا ويشوهون باقاصيصهم ، حسب زعمه ، الحقيقة التى يعرفها كليا ويعرضون الكذب على انه حقيقة .

لا تناقض هنا ؛ فكان اصدق وجوه الايمان ، واسمى انطلاقات الخيال الدينى واعمق التخدير الذاتى تلقى مواصلة وازدواج لها فى الخداع المباشر . وهذا الانتهاك للفكر السليم والمنطق الاولى هو من سياق الامور بالنسبة للمؤمن فى القرون الوسطى ؛ فان الحاجز بين الخيال والواقع ، بين الخيالى والفعل ، بين الظاهرى والحقيقى محطم عنده .

ومع ذلك ، لم يقض الايمان الاشد حرارة قضاء تاما فى وعى المؤمنين على المبدأ العقلانى ، ولم يقض لعب الخيال الاشد انفلاتا فى التربة الدينية على الفكر السليم حقا ، الامر الذى تدل عليه حادثة ذخيرة انطاكية وعرض وتوضيح هذه الحادثة فى مؤلفات مؤرخى القرن الثانى عشر . لقد احتفظ المؤمنون بقسط من الفكر السليم ، متفاوت القدر ، واحتفظوا بالقدرة على النظر الى «المعجزة الربانية» نظرة انتقادية .

فى قصة الحربة المقدسة يتبدى بجلاء التصادم بين النزعة الدينية والنزعة العقلانية الذى صار سمة تميز التفكير المسيحى فى ذلك الزمن . فمن جهة ، يتواجد الوعى الدينى ، المتجذر عميقا ، التقليدى ، المدفوع الى اقصى حد ، والنفسية الدينية ، ونشوة الخيال الذاتية التى تؤدى الى الاستعاضة عن العلاقات والروابط الفعلية بعلاقات وروابط متخيلة ؛ ومن جهة اخرى ، يتواجد موقف من الواقع ارضى ، منطقى ، عقلانى يتغلغل

بصورة ارسخ في العقول ، علما بأنه ينشأ وينصقل في حضان هذه النظرة القديمة نفسها الى العالم وينتشر في الميدان الدينى .

ولقد تواجد في معسكر الصليبيين عدد لا يستهان به ممن ارتابوا في صحة خبر بيار بارتيليمى عن الرؤيا النبوية كما ارتابوا فى صحة ظروف البحث عن الذخيرة وايجادها فى كنيسة القديس بطرس . يستفاد من اقوال فارس ومدون ايطالى نورمانى مجهول للاخبار ، اشترك مباشرة فى الاحداث ، وصاحب المؤلف التاريخى المسمى «افعال الفرنجة وغيرهم من القديسين» ، ان الشعب لم يصدق بيار بارتيليمى عندما روى عن ظهور الرسول اندراوس ونبوءته . «كيف يمكننا ان نصدق هذا ؟» . مثل هذه الاحاديث كانت تدور بين الفرسان ذوى الميول التقية تماما . وعندما وجدوا الذخيرة - وبالضبط فى المكان الذى اشار اليه الرسول اندراوس - لم يبدد هذا البتة الشكوك فى صحة المعجزة التى حدثت ، هذه الشكوك التى ترسخت فى نفوس بعض الصليبيين منذ بادى بدء . واكتسبت وجهة النظر الارتيازية الانصار حتى بين رجال الدين بمن فيهم كبار اصحاب المقامات الكنسية ممن رافقوا قوات الصليبيين . فقد رفض اديمار ، اسقف فونتيسل ، رفضا قاطعا ان يصدق المعجزة ، مع انه كان يقوم فعلا بواجبات ممثل البابا لدى قوات الصليبيين ، ومع انه كان على مقربة من الكونت ريمون دى سانجيل ! ان الاسقف ، كما كتب بامتعاض واستياء مؤلف «تاريخ الفرنجة الذين استولوا على القدس» ، لم ير فى قصة بيار بارتيليمى «شيئا غير مجرد كلمات» . ان ريمون من اجل لم يستطع ان يكبح غضبه ، واذا به ، كمؤرخ ، يعاقب الاسقف الجزيل الاحترام بارسال روحه . . . الى جهنم . وتبين فيما بعد ، بعد وفاة الاسقف (فى اول آب - اغسطس ١٠٩٨) ، انه هو نفسه روى عن المصير المنير الذى لقيه بعد وفاته بسبب عدم تصديقه فى قصة الحرب المقدسة ، وروى ذلك لا لاي كان بل بالضبط لبيار بارتيليمى الذى ظهر له فى الحلم فى كنيسة الرسول بطرس حيث دفن . وقد اعترف اديمار لبيار بارتيليمى انه رحل الى جهنم حيث عذبوه بقساوة وقال له : «حرقوا رأسى ووجهى كما بوسعك ان ترى» . هذا هو ، برأى ريمون من اجل ، الذى كتب مؤلفه التاريخى لارشاد المعاصرين والاخلاف ، المصير المعد بعد الموت لمن يرتابون فى صدق قصة الحرب المقدسة !

ولكن الاسقف اديمار دى بوى لم يكن المرتاب الوحيد . فهناك وجه دينى آخر هو فولهير من شارتر (الذى اكد ، كما نقول للمناسبة ، ان اديمار دى بوى قد اعتبر الحرب التى وجدوها فى الكنيسة مصطنعة ، مقلدة) ،

وكان ، اغلب الظن ، من عداد المرتابين في صحة قصة الحربة المقدسة ؛ وعلى كل حال ، يكتب هذا المؤرخ الكاهن بخارق الشح وبدون اية حماسة في مؤلفه «تاريخ القدس» عن اللقية العجيبة . اما مدون الاخبار ورئيس الدير غيبرت من نوجان ، الذي كان يبني وجهة نظر معاكسة تماما ، فقد روى فيما بعد باستياء وسخط ان بيار بارتيليمي كان ، برأى فولهير ، «مذنبا فسي تقليد الحربة» . ان كتاب «تاريخ القدس» يخلو ، والحق يقال ، من مثل هذا النص ، ولكن ارتياب مؤلفه يتبدى فيه (وليس عبثا يصوغ غيبرت من نوجان نفسه وجهة نظر فولهير ببالح الاحتراس : «كما يقولون عنه . . .») . بعد وفاة الاسقف اديمار دى بوى بفترة وجيزة ، ترأس المرتابين الاسقف ارنولف ، كابيللان روبر ، دوق نورمنديا . وقد اخفت جميع محاولات الذين كانوا يؤمنون في المعجزة (او يتظاهرون بالايان فيها) لحمل ارنولف على التخلي عن شكوكه .

وهكذا تنوعت ردود فعل الراى العام في صفوف الصليبيين على قصة الحربة المقدسة : فان اكثرهم سذاجة - وهؤلاء كانوا الاغلبية - قد اعتبروها بدون اى تحفظ معجزة حقيقية اجترحها الرب ، بينما ارتاب آخرون من ذوى التفكير السليم بوجود حيلة بارعة . كتب المؤرخ والشاعر النورمانى راوول من كايان في مؤلفه «افعال تنكريد» عن التفسيرات بصد الحدث العجيب الذى آلم جميع المقاتلين : «كان البعض يمجدون ، وكان الآخرون ينددون ، بحيث ان احدا لم يبق في معزل» .

وفيما بعد ، تزايد عدد المتشككين وذلك على الاخص لان اهل السماء الذين كانوا «يزورون» بيار بارتيليمي المرة تلو المرة ، غيروا فجأة وجهتهم : فان الرسول اندراوس الذى كان فيما مضى يخاطب الكونت سانجيل بواسطة هذا الفقير ، نصح في احدى الرؤى الصليبيين باعطاء بوهيمونند انطاكية . يبدو ان بوهيموند قد استطاع ان يستغل «موهبة الرؤيا» عند هذا الفلاح في مصلحته .

تحت ضغط الصليبيين الذين انكروا وحى الرب بنبوءات البروفانسى ، اضطر منظمو المعجزة الى الاقدام بعد مرور فترة وجيزة من الزمن على اخراج تمثيلية دينية جديدة لاجل اقناع قليل الايمان . وبما ان الرسل والقديسين لم يكفوا فيما بعد عن الظهور لبيار بارتيليمي لكى ينقل ارادة الرب الى زعماء الصليبيين ، تقرر احالة هذا التعيس الى ما يسمى بمحكمة الرب . ففي نيسان (ابريل) ١٠٩٩ ، عرضوا بيار لامتحان النار ، وهكذا اصبح صاحب لقية الحربة المقدسة ضحية لهلوساته بالذات وللمؤامرات الدينية

السياسية التي حاكها زعماء الصليبيين المتنافسين بعضهم ضد بعض ، ومات بعد مرور ١٢ يوما على محكمة الرب من الحروق التي اصيب بها اثناء الامتحان .

لماذا لم يعترف رجال الدين النافذون بصحة معجزة الحربة المقدسة ؟ كان السبب بسيطا : فحتى في مرحلة ازدهار الصوفية الدينية ، كان رجال الكنيسة يبدون على الدوام قدرا معينا من التعنت حيال العجائب . ومن زمان كان الاباطرة البيزنطيون يطمحون الى امتلاك الحربة المقدسة . وبموجب التقاليد البيزنطية ، نقلت هذه الذخيرة الى القسطنطينية بعد استيلاء الفرس على القدس في سنة ٦١٤ . وفي القرن الحادى عشر كانت محفوظة في كنيسة والدة الاله بمدينة فاروس . ويقول مدون الاخبار الفرنسى روبر دى كلارى ان الفرسان الذين اشتركوا في الحملة الصليبية الرابعة واستولوا في نيسان (ابريل) ١٢٠٤ على العاصمة البيزنطية قد وجدوا هناك ، فيما وجدوه من مقدسات ، الحربة «التي طعن بها سيدنا المسيح» . ولربما رأى رجال الدين الذين كانوا في صفوف صليبيى الحملة الاولى الذخيرة ، مثل الاسقف اديمار دى بوى او عرفوا بمكانها . ومهما يكن من امر ، فقد تخوفوا من ان تؤدى الاختلاقات والاحابيل الدينية البيئة الكذب والسهولة على الدجس والتشهير ، الى تقويض مكانة الكنيسة في صفوف الشعب وليس الى توطيدها . ان ما كان يتحلى به الاسقفان اديمار دى بوى وارنولف النورمندى ، والكاهن فولهير من شارتر وغيرهم من القادة الدينيين لجنود المسيح من فكر سليم له خلفية ووجهة اجتماعية ، مرتبية وقائية ؛ وفى هذه الحالة ، انقذ عدم الايمان بمعجزة الحربة المقدسة مكانة الكنيسة .

ان التمييز بين العجائب الحقيقية والعجائب الكاذبة ، وروح النقد حيال العجائب من الفئة الثانية ، والسعى الى التنصل من الخرافات المقدسة الجلية الخرافة والسخافة التي يختلقها المتعصبون في حِمى الهذيان ، ومن اقاويلهم البعيدة عن التصديق كل البعد - كل هذا كان على العموم سمة مميزة للوعى الدينى في اواخر القرن الحادى عشر واولئل القرن الثانى عشر ، تتبدى بوضوح فى كثير من اخبار المؤرخين الكنسيين . ولا ريب فى انهم كانوا اناسا مؤمنين ، ولكنهم لم يكونوا براء من عناصر ضرب من العقلانية تطور فى قلب التفكير الدينى نفسه (وقد انعكست هذه العقلانية بتتابع فى الكلامية - السكولاستية - بسبيل النشوء آنذاك) .

وكانت النزعات العقلانية الارتياحية تلازم بقدر اكبر نظرات بعض الفرسان الديويين والامراء ممن اشتركوا فى الحملة الى الشرق وممن كان

افقهم الفكرى غير مغلق كلياً بالالوهام الدينية ، كما عند بيار بارتيليمى وريمون من اجيل مثلاً .

ان واقعة العثور على الحربة المقدسة بفضل بيار بارتيليمى هي بنظر المؤرخ والفارس النورمانى راوول من كايّان مجرد خداع من اعداد ريمون دى تولوز ومقربيه . والفلاح بيار بارتيليمى الذى زعم ان الرسول اندراوس كشف له فى رؤى عديدة مكان الذخيرة وتنبأ له بالنصر على الكفار فى حال العثور على هذه الذخيرة المقدسة («بهذه العلامة تنتصر ا») كان مجرد «مخترع داه للكذب» . ولقية الحربة المقدسة فى الكنيسة هي نفسها من صنع هذا الكذاب . وقد كتب راوول من كايّان بسخرية عن البحث الذى استمر يوما كاملاً عن الذخيرة تحت بلاط الكنيسة والذى لم يتكلل بالنجاح فى الآونة الاولى . وغير ذلك لم يكن من الممكن توقعه ، «لان الارض الرطبة لم يكن بوسعها ان تعيد ما لم يعهد اليها به يوما ، ما لم تتلقاه يوما» .

ويستطرد راوول من كايّان : اما اذا كانوا قد عثروا فى آخر المطاف على الحربة فى كنيسة القديس بطرس ، فليس ذلك الا لان بيار بارتيليمى قام بتقليد جلي : فلاجل الكذب والخداع ، استعمل حربة عربية عثر عليها صدفة واخفاها عنده ، قصد استعماله للخداع . وكان هذا البروفانسى يحسب على الاخص استغلال قطعة الحديد هذه لانها لم تكن تشبه من حيث شكل الحربة وقياسها الحربة العادية . ثم يورد المؤرخ راوول من كايّان التفسير الذى شاع ، اغلب الظن ، فى اوساط المرتابين والذى كان ، كما ينبغى الظن ، غير بعيد عن الحقيقة . «كان (بيار بارتيليمى - المؤلف) مسلحاً بمعول ؛ وقد اختار اللحظة المناسبة لاجل خداعه ، وقفز الى الحفرة (المحفورة تحت بلاطة فى الكنيسة) مع المعول واقترب من حافة (الهوة) ، وقال «هنا يجب الحفر» . وضرب بيار الارض مراراً عديدة بالمعول وبلسنخ اخيراً الهدف المنشود : فان الحربة التى دفنها بنفسه بالخداع قد ظهرت فى التربة» . «العتمة ساعدت فى الخداع ، وتجمع الناس ساعد العتمة ، وضيق المكان يسّر تجمع الناس» . بمثل هذه التعابيس يكشف راوول من كايّان سر المعجزة ، مجلبياً بالخرى والعار بيار بارتيليمى وكذلك - وهذا مهم جداً - الذين كانوا يقفون وراءه .

ومن هنا ينجم ان القصة المغلفة بالضباب الدينى عن لقية الحربة المقدسة ، بوحى من الاعلى ، كما زعم ، تبدو فى مؤلف المؤرخ النورمانسى فى ضوء عقلانى بحث ، وتبدو مختلفة سلفاً . ويبدو بيار بارتيليمى مجرد

«خالق للخداع» (وهذا التعبير يردده مؤلف «أفعال تنكريد» مرتين) .
وهناك واقع آخر واسع الدلالة . ان اللوحة التسمى رسمها الكاثوليكي راوول من كايان تتطابق في الرئيسي والجوهري مع اللوحة التي رسمها المؤرخ العربى من القرن الثانى عشر والقرن الثالث عشر ابن الاثير ، الرجل من عالم مغاير تماما ، عالم الشرق وعالم الاسلام . ففي معرض الحديث فى مؤلفه «الكامل فى التاريخ» عن المصائب التى عاناها الفرنجة فى انطاكية التى احتلوها ، كتب يقول : «وكان معهم راهب مطاع فيهم . . . فقال : ان المسيح عليه السلام كان له حربة مدفونة بالقسيان الذى بانطاكية . . . فان وجدتموها فانكم تظفرون وان لم تجدوها فالحلاك متحقق وكان قد دفن قبل ذلك حربة فى مكان فيه وعفا اثرها وامرهم بالصوم والتوبة ففعلوا ذلك ثلاثة ايام ، فلما كان اليوم الرابع ادخلهم الموضع جميعهم ومعهم عامتهم والصناع منهم وحفروا فى جميع الاماكن فوجدوها كما ذكر فقال لهم ابشروا بالظفر» * . ثم يتحدث المؤلف عن هزيمة السلجوقيين فى جوار انطاكية ويفسرها بالخلافات بين الامراء وكربقا .

اما ان قصة لقية الحربة المقدسة كانت حيلة بدائية بنظر المؤرخ المسلم ، والعدو المقتنع والمتيقن للافرنج الصليبيين ، والمشارك فى حروب السلطان المصرى صلاح الدين الايوبى ضد مملكة القدس ، فلا داعى الى استغراب ذلك . ولكن من اين تنبع هذه النظرة السليمة الصائبة عند راوول من كايان ، الرجل الذى يقف عموما فى تربة العقيدة المسيحية القائلة بالعبادة الالهية ؟ ان موقفه العقلانى الى هذا الحد من المعجزة ينبع بقدر كبير من عامل سياسى بحت . فان راوول من كايان قد اعرب قبل كل شئ وبصورة رئيسية عن نظرات القادة النورمانيين فى الحملة ، بوهيموند من تارنتو واتباعه وحلفائه . فان امير الايطاليين - النورمانيين بوهيموند ، الطامع بمدينة انطاكية ، قد استقبل ، طبعاً ، بعدم الثقة وحتى بالعداء قصة الوحي الربانى بلقية الحربة المقدسة ، اذ انها صدرت من بيئة الصليبيين البروفانسيين ، من وسط افراد قريبين من منافسه فى الادعاءات بمدينة انطاكية ريمون دى سانجيل . وكان هذا كافياً لى ينظر النورمانيون بحذر واحتراس الى قصة الحربة المقدسة .

وفى مجلس الزعماء حيث احتدم الجدل بصدد ظروف العثور على البخيرة

* ابن الاثير . «الكامل فى التاريخ» . المجلد ٨ . القاهرة ، عام ١٩٤٠ ، ص ١٨٧ .

وقيمتها الحقيقية ، سخر امير تارنتو على المكشوف من حيلة منافسه . والقى خطابا طويلا حلل فيه هذه الظروف بفائق الدقة ، اذا صدقنا راوول من كايان ولم يترك حجرا على حجر من القصة البروفانسية . وخطوة فخطوة بعثت بوهيموند جميع تفاصيل المسرحية التقية التي اخرجها ريمون دى سانجيل ، وابان خراقة القصة المقدسة التي اشاعها عن المعجزة . ونعت بوهيموند هذه القصة «بالاختلاق الرائع» . وظهور الرسول اندراوس لبيار بارتيليمي كان ايضا بنظرة اختلافا من هذا النوع . ويقال ان امير تارنتو صاح فى المجلس : «يا للغباوة القروية ! يا للسذاجة الفلاحية !» .

ان راوول من كايان ، اذ يروى هذه الواقعة ، لا يكتفى بتفسير بواطن المعجزة ، بل يمضى كذلك الى ابعد ويبين لماذا كانت تولوز بالضبط الى الخداع الورع . فان الكونت اراد ان يستخلص فوائد مادية وسياسية ومعنوية معينة من اختلاقه . فبعد النصر على كربقا ، اخذ ريمون ، كونت تولوز ، وافراد محيطه الذين كانوا قبل ذلك يؤكدون على مآثر البروفانسيين فى اكتشاف الحربة المقدسة ، وبالتالى على تثبيت انطاكية للصليبيين ، يؤكدون بمزيد من الاصرار والمثابرة على ان الكونت ريمون دى سانجيل بالذات هو الذى يجب ان ينسب اليه مجد هذا النصر ؛ ففى مععان المعركة حمل المقاتلون الى الامام الحربة بمصاحبة هتاف البروفانسيين .

وهذا يعنى ان ترهة الحربة المقدسة قد رأت النور ، براى راوول من كايان ، لاجل تحليل ادعاء الزعيم البروفانسى بمدينة انطاكية . و«الكونت دعمه بعض من الامراء الذين تملقهم او قيدهم بروابط التبعية» .

ولكن بوهيموند الذى كان كذلك من جهته على اقتناع بان النصر على كربقا هدية من الرب العلى للصليبيين اعرب عن استيائه من كون البروفانسيين يلجؤون الى كذب مهين للمقاتلين و«ينسبون نصرا الى قطعهم الحديدية» وصاح امير تارنتو باعتزاز : «لينسبه الكونت البخيل الى حربته . ليسلك الشعب الغبى هكذا ايضا . اما نحن ، فقد انتصرنا ولسوف ننتصر باسم السيد الاله يسوع المسيح» .

امامنا نموذج ساطع من نماذج النزعة الدينية المزينة بالعقلانية والمدعمة بالعقلانية . فان ازدواجية الوعى الدينى القروسطى المشرب بالمبادئ العقلانية الى هذا الحد او ذاك ، تظهر بما يكفى من البروز والسطوع فى الواقعة الموصوفة . ولهذه الازدواجية تفسيرها ؛ فهى تنبع من خصائص فلسفة العناية الالهية التى تعرضت فى اواخر القرن الحادى عشر واوائل القرن الثانى عشر للتفسير السكولاستى (الكلامى) . ثم ان الارتياحية حيال

مسرحيات المعجزات ، المسرحيات المصطنعة او المتفننة بنحو غير كاف ، قد نشأت فى آخر المطاف وقبل كل شىء عن ضرورة تأمين مصالح الكثرة بداب وتتابع . ولم يكن من شأن دعم المعجزات الكاذبة ، كما يرى رجال الدين ، سوى ان يضر بالايمان والدين . ان الشك فى صحة وحقيقة هذه المعجزة او تلك او حتى انكارها ، كان يستهدف من حيث الجوهر ، التوصل الى اكمل واعمق فهم لاشتراك القوى السماوية «الحقيقى» ، «الفعلى» فى الشؤون الارضية . ولكن ادخال العناصر العقلانية فى تفسير الاحداث التاريخية من وجهة نظر العناية الالهية ادى موضوعيا ، خلافا لنوايا الذين حاولوا توطيد الايمان ، الى تقويض دعائم التصورات الدينية السائدة . تلك كانت نتيجة التغلغل المتبادل والمواجهة بين مبدئين متضادين من حيث الجوهر لتفهم الواقع وتقبله وادراكه : مبدأ الادراك المشوه ، الخيالى (المبدأ الدينى) ، ومبدأ الادراك السليم منطقيا ، النابع من الفكر السليم ، مبدأ الادراك العقلانى .

فى تلك الازمنة التى نتحدث عنها ، كان المبدأان يتعايشان فى اطار عقيدة دينية مشتركة تسود على العقل والمشاعر . ولكن لا المتعصبون الدينيون ، ولا العقلانيون الذين حملوا الى ايمانهم هذه القيود او تلك ، التى يملئها العقل ، كانوا يملكون على الصعيد الاخلاقى والمعنوى اية مزايا يتفوقون بها بعضهم على بعض ؛ فان الناس الاتقياء بغيرة وحماسة من طراز ريمون من اجيل ، والفرسان الميالين الى القتال وذوى التفكير المعيشى الارضى من طراز تنكريد ، كانوا فى آخر التحليل يعتنقون ايمانا واحدا ، ودينا واحدا ، ونظرات واحدة وكانوا يتمسكون باخلاق واحدة ، فى ذلك الزمن كان فجر العقل لا يزال فى مطلعته * .

امارة انطاكية . مواصلة الحملة

بقى الصليبيون فى منطقة انطاكية نصف سنة . واسباب ذلك مختلفة : التعب العام ، والرغبة فى تجنب قيظ الصيف المضنى الذى لا يطاق ، ونقص المأكولات ، والسعى الى الخروج من المدينة ، وان موقتا ، نظرا للوباء الذى

* تجدر الاشارة الى ان الكردينال بروسبيرو لامبرتيني ، الذى صار فيما بعد البابا بنديكطوس الرابع عشر (١٧٤٠-١٧٥٨) قد انكر رسميا فى القرن الثامن عشر صحة قصة الحربة المقدسة الانطاكية .

نشأ هناك (اغلب الظن ، وباء التيفوس ؛ وفي اول آب - اغسطس ، كما سبق ان قلنا ، توفي الاسقف اديمار دى بوى نفسه) . ولذا صارت الاقامة فى انطاكية محفوفة بالمخاطر . اما السبب الرئيسى ، فقد تلخص فى تحرق الدوقات والفيكونتات الى تثبيت الاراضى المجاورة للمدينة لانفسهم . والى هذه الاراضى راحوا مع فرسانهم وحملة سلاحهم . اتجه بوهيموند الى قيليقيا - لاجل تعزيز الحاميات المتروكة هناك - وغودفروا دى بويتون الى تل بشير ورافندان ، وروبر النورمندى الى اللاذقية ، من حيث سرعان ما طرده السكان المحليون مفضلين على فرسان الدوق الحامية البيزنطية التى قدمت من قبرص .

ولم يرجع رؤساء المقاتلين الصليبيين مع فصائلهم الى انطاكية الا فى ايلول (سبتمبر) ، ولكن الوقفة فى الحملة استمرت بعد ذلك . وتورط الصليبيون هنا بضعة اشهر اخرى . وفى ١١ ايلول (سبتمبر) ١٠٩٨ وضع القادة ، تبريرا لموقفهم ، رسالة طويلة الى البابا اوربان الثانى ، فتحدثوا بالتفصيل عن حصار انطاكية وفتحها وعن قصة الحرب المقدسة وظروف هزيمة كربقا . وختاماً ، خاطب «قديسو يسوع المسيح» ، كما سمي اصحاب الرسالة انفسهم ، البابا داعينه الى ان ينجز بشخصه بالذات المشروع الذى قاموا به استجابة لندائه : «تعال الينا ، واقنع جميع من تستطيع اقناعهم بالمجيء معك» . وآنذاك ، كما وعد الصليبيون البابا ، «سيخضع العالم كله لك» . وبانتظار الجواب ، لم يستعجل الامراء التحرك من مكانهم . ولكن هذا ايضا لم يكن سوى ذريعة لاجل التأخر . من ذا الذى سيملك انطاكية ؟ ذلك هو السؤال الذى واجه الزعماء على المكشوف واثار خلافات عميقة بينهم . وهذا بالذات هو ما حال دون الصليبيين ومواصلة الزحف .

كان بوهيموند من تارنتو وريمون من تولوز المدعين الرئيسيين بانطاكية . وكان فرسان الاول يشغلون قلعة المدينة وقسما كبيرا من المدينة ؛ وكان فرسان الثانى يشغلون قصر ياغى سيان والبرج قرب الباب ، وقرب جسر نهر العاصى . وفى كنيسة القديس بطرس بانطاكية كانت تجرى مداولات لا نهاية لها لرؤساء الصليبيين ؛ كانوا يتناقشون حتى البجاح فى الحل العادل لاهم قضية بالنسبة لهم فى اللحظة المعنية ، قضية تسليم السلطة على انطاكية . وكان كل من المتنافسين يحاول ان يثبت ، والزبد على شفتيه ، مقدار اهمية القسط الذى اسهم به فى فتح المدينة ، وبالتالى حقوقه المفضلة بالذات فى امتلاك المدينة . حظى بوهيموند بدعم الفرسان النورمانيين والفرسان الفرنسيين الشماليين ، والكونت ريمون دى سانجيل

بدعم الفرسان البروفانسيين . كتب راوول من كايّان : «الناربونيون ، والافرنيون والغاسكونيون - جميع هذه القبائل التحقت بالبروفانسيين ؛ اما الى الابولين (اي النورمانيين - المؤلف) ، فقد مالت كل بقية بلاد الغال في المؤامرات» .

لم تكن اغلبية الاسياد ترغب في مشاطرة وجهة نظر ريمون دي تولوز ، الذى كان يؤكّد بعناد غير مفهوم انه يجب تسليم انطاكية - بموجب التزامات التبعية - الى الامبراطور البيزنطى . ذلك انه هو بالذات ، الكونت ريمون دي سانجيل ، رفض قطعاً منذ وقت قريب حلف يمين التبعية للامبراطور الكسيوس الاول ! وها هو الآن يفضل بكل وضوح زعامة بيزنطية الاسمية على انتقال السلطة فعلاً الى بوهيموند من تارنتو .

ان موقف كونت تولوز بدا لغودفروا دي بويّون ، وروبر من الفلاندر ، وروبر من نورمانديا وغيرهم من الاسياد والاساقفة البارزين غير مقبول . خصوصاً وانه اصبح من الجلى في ذلك الوقت انه لا يمكن توقع اية مساعدة فعالة نوعاً ما من بيزنطية . وبالفعل ، عندما ارسلوا هوغ فرمندوا (وكان يرغب فى العودة نهائياً الى فرنسا) - الى الامبراطور الكسيوس كومنينوس لاستيضاح نواياه (وكان ذلك فى تموز - يوليو ١٠٩٨) وجد الامبراطور فى القسطنطينية . وتبين ان الامبراطور لا يفكر البتة فى مساعدة الصليبيين . وبينما كان الصليبيون يقاتلون فى سوريا ، استغل الفاسيلفس الداهية وضع السلجوقيين الصعب ، وانتزع منهم واعاد الى الامبراطورية ازمير وافسس وبعض المدن والمناطق الاخرى سواء فى الغرب ام فى المقاطعات الداخلية من آسيا الصغرى . واخذ يعتبر الآن انه لا امل فى احتمالات نجاح الحملة الصليبية ؛ فان الفارين الذين غادروا انطاكية اثناء حصارها من قبل كربقا وفى المقام الاول الكونت ايتيان دي بلوا ، كانوا ينقلون الواحد تلو الآخر الى الكسيوس الاول اخباراً سيئة عندما كان مع قواته فى اعماق آسيا الصغرى ، قرب فيليوميل . لم يبق من الممكن انقاذ الصليبيين ! وان بيار من اولن ، ذلك الفارس الذى سعى الى الحصول على كوماننا ونالها ، قد ابلغ الامبراطور ان الروم ، اذا ما مضوا الى انطاكية ، قد يتعرضون قبل الوصول اليها لهجوم جيش سلجوقى آخر يتجه الى ابادة الصليبيين . كذلك اوصى مستشارو الفاسيلفس بالاجماع ان يتخلى عن الصليبيين ، فانطلقت قواته شمالاً ، الى عاصمة الامبراطورية . مصالح بزنطية - ذلك ما يجب مراعاته فى المقام الاول ! وانقطعت عملياً جميع الاتصالات مع الفرسان .

فى هذه الحالة اقترف الامبراطور البيزنطى خطأ سياسياً ؛ فقد ترك

الصلبيين وشأنهم ، لحكم القدر ، وبذلك قوض الثقة فيه ، فوق ما هي من ضعف وتقلقل . ثم ان رفض الامبراطور مساعدة الصليبيين زاد من حظ بوهيموند في خلافه مع ريمون دى سانجيل ؛ فان قادة الصليبيين وقفوا بمعظمهم الى جانب امير تارنتو . وبعد مهاجمات طويلة فى المجلس فى ٥ تشرين الثانى (نوفمبر) ١٠٩٨ (وكادت الامور ، حسب ما قاله مدون الاخبار البروفانسي ، تصل الى حد التضارب) تقرر تسليم بوهيموند انطاكية . الا ان ريمون دى سانجيل ، ظل حتى رغم مرضه الشديد الوطأة ، يحتفظ بعناد فى المدينة بالمواقع التى يشغلها . وكان الجميع يكرهون الكونت ريمون دى سانجيل ، كما يقول معترفه ، بسبب جشعه الذى لا حد له ! ومهما يكن من امر ، كانت ثلاثة ارباع انطاكية تقع فعلا تحت رقابة الخصم النورمانى . صحيح ان بوهيموند اقسام اليمين امام الملأ - كما طالب ريمون دى تولوز - بان يشترك فى الحملة حتى القدس بالذات ، ولكن كان من الواضح للكثيرين انه قد بلغ هدفه فى سوريا . وهكذا ، فى اواخر سنة ١٠٩٨ ، تأسس كيان كبير ثان للصليبيين فى الشرق ، عنيينا به امارة انطاكية .

الا ان سائر زعماء الصليبيين لم يستعجلوا هم ايضا فى مواصلة الزحف ؛ فقد انصرفوا كليا الى عمليات الاغتصاب والنهب والسلب فى المناطق المجاورة لانطاكية . فان منال بودوان من الرها وبوهيموند من انطاكية كان معديا . وقد خيل ان الفرسان نسوا تماما الارض المقدسة . وبقدر ما كان يمر الزمن ، بقدر ما كان يتجلى طابع الحملة الصليبية العدوانى الاغتصابى . واكثر فاكثر كانت تنشعب الخلافات والخصومات بين الغزاة . كتب احد مدونى الاخبار : «كل مكان اعطانا اياه الرب كان يشير الجدل» .

كان كبار القادة وبسطاء الفرسان على السواء يعادون بعضهم بعضا ، «بحيث انه كان ثمة قليلون من الناس» - كما لاحظ ريمون من اجيل - «لم يتخاصموا مع زملائهم او مع خدمهم بسبب الغنيمة او بسبب المسروق» . كان كل يجهد لاستباق الآخرين فى الاستيلاء على القرى والمدن والقلاع السورية . وكانت حصنة الاسد من الغنيمة من نصيب الاقوياء . ولم تكن المخاصمات تنشعب بسبب الاراضى الشاسعة نسبيا وحسب ، بل ايضا بسبب رغبة كل من الطامعين فى ان يثبت لنفسه دائرة معينة من مدينة ما ، او افيد استحكاماتها وابراجها وبواباتها وجسورها موقعا .

وقد شق نزاع حاد صفوف قوات الصليبيين فى قلعة معرة النعمان

السورية (جنوب شرقي انطاكية) الى حيث راحت في اواخر تشرين الثانى (نوفمبر) فصائل البروفانسيين التابعة لكونت تولوز . فان بوهيموند لم يشأ ان يتنازل لخصمه عن هذه القلعة المهمة واسرع فى اثره . استمر حصار القلعة اسبوعين . وتم فتح المدينة فى وقت واحد تقريبا - من جوانب مختلفة - من قبل النورمانيين والبروفانسيين (١١ كانون الاول - ديسمبر ١٠٩٨) . نهبوا المدينة بلا رحمة وابدوا السكان بلا شفقة . قال فارس من حاشية بوهيموند : «كان الافرنج يقتلون اكل مسلم ، سواء كان رجلا ام امرأة ، حيثما يجدونه» . وقد تميز بوهيموند فى معركة النعمان ببالح القساوة والجشع والغدر . فعند احتلال المدينة ، امر بواسطة المترجمين بان «يجتمع» سكان المدينة «مع نسايتهم واولادهم واموالهم فى القصر القائم اعلى من البوابة واعدوا شخصا بانقاذهم من الموت» . وعندما اجتمع السكان هناك ، «قبض عليهم الامير وانتزع منهم كل ما معهم اى الذهب والفضة ومختلف المجوهرات . . . امر بقتل بعضهم ، وبسوق البعض الآخر الى انطاكية لاجل البيع» . كذلك برهن خصمه ريمون دى سانجيل عن القساوة ذاتها . بل ان البروفانسيين تفوقوا على النورمانيين فى نهب المدينة ؛ فقد قرروا اجبار السكان الذين اختبأوا فى الاقبية على الخروج منها بفعل النار والدخان . ويعرب مدون اخبار ريمون من اجيل عن الاسف لكونهم «وجدوا القليل من الغنائم» هناك .

قتلوا جميع سكان المدينة : «كانوا يرمونهم من اسوار المدينة» . ويروى المؤرخ العربى ابن القلانسي ان الافرنج « نهبوا ما وجدوه وطالبوا الناس بما لا طاقة لهم به» * . فى ذلك الوقت حاول كونت دى تولوز ان يأخذ فى يده قيادة جميع المقاتلين . وعلى سبيل الرشوة ، عرض الكونت مبالغ نقدية كبيرة على سائر القادة ؛ فقد حسب ان يرشو غودفروا دى بويون ١٠ آلاف سوليد ، وروبر من الفلاندر ٦ آلاف سوليد ، وتكريد ٥ آلاف سوليد وحصانين ، والزعماء الآخرين «تبعوا لمن كانوا» . الا ان الامراء ، ما عدا تنكريد ، رفضوا هذه العروض .

بعد مرور فترة وجيزة على فتح معركة النعمان التى بقى فيها الغزاة اكثر من شهر ، نشبت الخلافات من جديد بين النورمانيين وبين الفرسان من فرنسا الجنوبية . وقد بدأت هذه الخلافات ، كما يروى مدون اخبار بروفانسي ، لان

* اسامة بن منقذ . «كتاب الاعتبار» . بريستون ، الولايات المتحدة ، هام

١٩٣٠ . ص ١٣٦ .

فرسان بوهيموند استولوا على معظم الابراج والبيوت والاسرى مع انهم لم يقاتلوا بما يكفى من الضراوة فى المعركة .

ان هذه الوقائع وغيرها من الوقائع التى نعرفها من شهود العيان تقدم البرهان الساطع على ان تلك الوحدة التى اطراها مدونو الاخبار اللاتين الذين روى احداث الحملة الصليبية واى اطراء لم تكن تتوفر بأى قدر كان فى صفوف القوات المسلحة الاقطاعية الغربية . ولذا يتعين الكلام اقل من ذلك عن الوحدة التى تملئها ، كما يزعم ، اهداف المشروع الدينية ، عن «وحدة الايمان فى المسيح» . ان تلاحم الغزاة والنهابين كان فى منتهى الضعف والهشاشة ، وكان يخلى المكان بكل سهولة للتطاحن والتكالب حين كانت تصادم المصالح الدنيئة والانانية لزعماء عصابات الصليبيين بعضها ببعض . وفى سوريا ، تبدى بكل جلاء تقلقل «وحدة الغرب» المزعومة فى الحملة الصليبية . وهذا التقلقل لم ينعكس فى النزاعات الدائمة بين الاسياد ، بين هذه او تلك من فصائل الفرسان وحسب ؛ ففى صفوف المقاتلين ، بدأت تتكشف ، ثم سرعان ما تفجرت كليا تناقضات من نوع آخر ايضا - هى التناقضات بين الفلاحين الفقراء وبين الاقطاعيين .

التناقضات الاجتماعية فى صفوف الصليبيين

يصف مدونو الاخبار الكاثوليك بكل جهد وحمية العلاقات الاخوية التى كانت تربط ، بزعمهم ، جميع الصليبيين ، بصرف النظر عن انتمائهم الاجتماعى ، فى جيش واحد متراس ، هو جيش جنود المسيح . ويرسم المداحون صورا مؤثرة عن زوال الفوارق الاجتماعية نظرا للهدف الدينى المشترك - وهو تحرير قبر السيد المسيح . كتب غيبرت دى نوجان يقول انه يجدر العجب من «ان الصغار والكبار» فى هذا الجمع اللجب من ابناء بلدان مختلفة «قد وافقوا بالقدر نفسه على حمل النير الواحد نفسه تحت سلطة السيد الاله ، بحيث ان القن لم يعد يعتبر السيد سيدا وبحيث لم يعد السيد مرتبطا بالقن بروابط غير روابط الاخوة» . واذا اخذنا باقوال فولهير من شارتر ، كان الصليبيون على اختلاف مراكزهم الاجتماعية نزهاء غير مغرضين ، حسنى النية بعضهم حيال بعض ، مستعدين دائما لمساعدة بعضهم بعضا . «اذا اضاع احد شيئا ما ، كان الذى يعثر عليه يحفظه عنده بعناية اياما عديدة الى ان يجد بعد السؤال والبحث الشخص الذى اضاعه ويعيده اليه» .

بيد ان الاحداث التي جرت في سوريا بعد فتح انطاكية تبين ان هذه الاوصاف لا تتطابق البتة مع الواقع . فان قوات الصليبيين لم تكن متراصة ومتماسكة اجتماعيا ، ولم تكن تمثل البتة «شعب الله» الواحد ، كما يصورها المؤلفون الكنسيون من القرن الثاني عشر . بل بالعكس . فان هذا الجيش ، كما سبق ان قلنا ، كان عبارة عن خليط من فئات اجتماعية مختلفة ذات مصالح متناقضة تماما احيانا . فالى جانب الفرسان اشترك في الحملة الصليبية عشرات الآلاف من الفلاحين الاقنان . كان التحرق الى فتح الاراضي يهيج الفرسان ، بينما كان الفلاحون يتحرقون الى الحرية . ومع ان هؤلاء واولئك ساروا تحت الرايات الدينية الواحدة نفسها ، الا ان حركتين مختلفتين على الصعيد الاجتماعى تشابكتا من حيث الجوهر في الحملة الصليبية ، احدهما تحررية اساسا هي حركة الفلاحين الاقنان ، والثانية عدوانية اغتصابية هي حركة الاقطاعيين . وكانت الاوساط العليا الاقطاعية تستهدف مصالحها الطبقية وقلما كانت تهتم بمصير جمهور الفقراء .

اثناء الحملة ضاعف الصليبيون الاريستقراطيون ثرواتهم اضعافا . وعن ريمون دى تولوز ، كتب كايبلان : «بينما انفق الآخرون اموالهم ، تعاظمت ثرواته» . ولم يكن الاسياد ليتورعون حتى عن استغلال مصاعب الصليبيين العاديين من صفوف الفقراء لاجل الابتزاز . وكان الفرسان من محيط ريمون ذاته ، كونت دى تولوز ، يقتلون الاحصنة سرا ، ويبيعون لحم الخيول باسعار باهظة من الفقراء الجياع .

ومن جهة اخرى اشتد املاق جمهور الفرسان «المعدمين» في الطريق ، وبخاصة في ايام حصار الصليبيين لانطاكية ، وحصار انطاكية من قبل السلجوقيين . وواجه آلاف الزراع الذين التحقوا بحملة الفرسان حالة في منتهى الحرج . وكان بينهم عدد لا يستهان به من الشيوخ والنساء والمشوهين . وفي كثير من الاحيان ، كانوا يتأخرون عن غالبية الجيش ويسيرون في اثره على بعد معين . ونادرا ما نجد في الاخبار وصفا لمنظر هذه الجموع الخارجى . وحين روى ريمون من اجيل عن ظهور القديسين بطرس واندراوس لبيار بارتيليمي ، وقال انهما ظهرا له في الحلم «في لباس قدر مهترى» . كان القديس اندراوس يرتدى قميصا قديما ، ممزقا على الكتفين ، وكانت مزقة تطل من شق على الكتف اليسرى ، ولم يكن ثمة شيء على الكتف اليمنى ؛ وكان يحتذى حذاء رديئا . اما بطرس ، فقد كان في قميص خشن طويل حتى العقب» ، فان مدون الاخبار ، على ما يبدو ، قد صور رسولييه نقلا عن اشخاص واقعيين ، عن الذين كانوا ينتمون الى الفقراء والبسطاء .

..... اغناء الحملة استحدث المتضادات بين اوضاع الفقراء واوضاع النبلاء . وعمقت اعباء الحزب الهوة بين الشعب البسيط الذي امسى ضئعا لها الاولى من جهة ، وبين الفرسان ، وبالاخرى قادة الصليبيين ، من جهة اخرى . وبالنتيجة اخذت العلاقات بين عناصر القوات الصليبية ، المختلفة من حيث الطبيعة الاجتماعية ، تتوتر اكثر فاكثر . وتذريخيا شرع الفلاحون ، وكذلك الفرسان الصغار الذين وجدوا انفسهم عمليا في وضع قريبا من وضع الزراع الذين تركوا حقوقهم ، يمتثلون بالحذر وعدم الثقة حيال الاسياد .

..... وقد تجلت خضومة هؤلاء واولئك في البنية التنظيمية بالذات للجحافل الصليبية . فان بعض جماعات الفقراء ، المقعنة ، على ما يبدو ، بعداوة خاصة حيال الاسياد والفرسان ، قد حاولت الشير بفعل عن سائر الصليبيين . ان «الشعب الخافي» ، كما كتب غيبرت من نوجان ، سار امام الجميع وشكل فصائل خاصة ، منهاها غيبرت من نوجان بالطافورات . كذلك جاء ذكر الطافورات في الملحمة «نسيدي انطاكية» التي انشئت في القرن الثاني عشر . ويرى غيبرت من نوجان ان كلمة «طافور» «بربرية الاصل» ومعناها «الافاقون» ، «المتشردون» . وحتى الآن لم يثبت المؤرخون اصل هذه الكلمة ، ومنهم من يعيدها الى فعل «طفر» . العربي ومعناه اصلا «وثب في ارتفاع» ، ومعناه في الاستعمال الشعبي «تشرد» ، «افق» ، «ترك ربه وخرج على غير هدى اسعيا وراء امر ما» . ولكنه معلوم على كل حال ان الطافورات كانت تتألف من الفقراء ، وان سلاح هؤلاء كان يتألف من الهراوات والخناجر والمطارق الحجرية . وكان رجال الطافورات لا يعترفون بالقيادة الاقطاعية (وهذا ايضا سمة من سلوكهم ذات دلالة واسعة جدا) . يقول غيبرت من نوجان انهم «كانوا يسيرون بدون السيد ، وانهم كانوا ينظرون الى الفرسان والى الاعيان بعداء غير مخفى . وكانوا يختارون بانفسهم لانفسهم الامرين» . ويعتقد غيبرت الذي ثقل في هذه الحال اسطورة وليس واقعا فعليا ، ان «ملك الطافورات» كان تورمندا ، «كما يقولون ، انسانا غير مجهول النسب ، تحول من فارس الى ماش ، ورأى انهم يسيرون بسلا رئيس ، فتخل عن سلاحه وعن لباسه العادي ، ورغب في ان يصبح ملكهم» . وبين الفينة والفينة كان هذا الامر يستعرض قواته ويتفحصها : «كانت عنده عادة مترسوخة ، مفادها ما يلي : عندما كان الشعب السائر بقيادته يقترب من جسر ما او من ممر ضيق ، كان («الملك» - المؤلف) يسرع ليشغل المدخل وكان هنا يفتش الجميع واحدا تلو آخر تفتيشا في غاية الدقة» . واذا ما تواجدت مع احد ما نقود او قيم ما ثمنها سوليدان ، فقد كان الامر يفصله على الفور

بمسئلتته . و يأمره - بشراء السلاح - ويخبره - على الانتقال إلى - المقاتلين
المسلمين . اما الذين كانوا - بحسب اقتناعه - «يحبون» النظام - العادي
(فقرهم - المؤلف) ، والذين لم يكن معهم نقود ، ولم يتزودوا بها ، ولهم
يعتزلوا التزود بها - فقد كان - يضمهم إلى رجاله .
«أغلب الظن ان هذه التفاصيل - شبه - اسطورية . ولكنها ذات دلالة واسعة
جدا : فان الصليبيين الفقراء لم يكونوا يصبرون في بيئتهم على كل من كان ،
من حيث وضعه المادي - قريبا - لدرجة - ما ، وان من ثغرات الاقطاعيين
الدنيا . كانوا يظردونه . ويرسلونه إلى الفرنسان . كتب غيبرت من - نوجان :
«كان ملك الطافورات يحيل إلى الظن ان امثال هؤلاء - الناس - لا يضلحون - لاجل
القضية المشتركة : وانه لو كان - عند - الآخرين - قافل - لا نفقوه - بدون اي
نفع» . ولذا كان المقاتل الميسور لحد - متنا - يبدو في عيون - الفقراء - غريب
الاطوار . وكانهم كانوا يشعرون بانه - عدو . بالقدرة - على الصعيد الاجتماعي
بالطبع : وكان - الصليبيون الاقطاعيون بدورهم - يخافون بعض الخوف من
الطافورات ، رغم سلاحها البدائي . ويستفاد من بعض ابيات «نشيذ
انطاكية» ان زعماء فصائل الفرسان كانوا لا يتجاسرون على الاقتراب منها الا
بعد اتخاذ جميع تدابير الاحتراس والحيلة .
وفي معرض الكلام عن الطافورات ، يشير مدون الاخبار الفرنسي إلى
دورها الكبير في العمليات الحربية . ، وإلى جلدتها . ومن روايته - يتجمل بكل
وضوح ان الاقطاعيين كانوا يستغلون جمهور الفقراء المتعصبين بقوة
خشنة ويلقون عليه اشق اعمال القتال . وقد كتب غيبرت من نوجان يقول :
«وليس من الممكن القول إلى أي حد كانوا ضروريين عند نقل المؤن ، وتقديم
العون ، ورمي الحجارة أثناء حصار المدن ، لانهم كانوا دائما ، أثناء نقل
المشحونات ، يسيرون في مقدمة الحمير وماشية الجر ، وكذلك - عندما كانت
ضربات الحجارة تدمر منجنيقات العدو وسلاحه» .

ان الوقائع التي ينقلها مدونو الاخبار وتنقلها الملحمة مغلفة بضباب
الاسطورة ، ولكنها تبين مع ذلك بوضوح ان خصومة اجتماعية حادة كانت
بارزة في صفوف القوات الصليبية . ولم يكن الفقراء يميلون إلى ابداء الحب
المسيحي حيال الاسياد . وفي اللحظات الحرجة من الحملة ، عندما كانت
التناقضات الاجتماعية تتبدى بصورة احد من المعتاد ، وعندما كان اختلاف
الدوافع والاهداف يفرق ببالغ العمق والبعد بين الصليبيين الاقطاعيين
والصليبيين الفقراء مع قسم من الفرسان الفقراء المتضمنين اليهم ، كانت هذه
التناقضات تبرز بصورة سافرة تماما . وهذا بالذات ما حدث في انطاكية

ثم في معرة النعمان في اواخر سنة ١٠٩٨ عندما نشبت في صفوف القوات الرئيسية اضطرابات معادية للاقطاعيين (يسمونها مدونو الاخبار ، طبعا ، «بالفتن») .

في منطقة انطاكية ، ظهرت تطلعات الاسياد والفرسان الاكتسابية البحتة بكل جلاء ؛ فان نزاعاتهم على كل قطعة صغيرة من الاراضي المغتصبة قد حجبت كليا اهداف المشروع المشتركة ، اي التقية الورعة ، كما كانت تصورهما الباباوية . ولكن امانى الفقراء التحريرية - السبب الاهم لاشتراكهم في الحملة - لم تنطفئ شعلتها ؛ وقد ظلت ترتدى ، كما من قبل ، بين الصليبيين البسطاء ، الشكل الدينى . ان تحرير القدس من «الكفار» هو الذى كان في عيون الجمهور الهدف الحميم . وببلوغه كانت تقترب آمال غامضة في حياة افضل في ارض الميعاد .

ان النزاع الذى نشب بين بوهيموند ، امير تارنتو ، وريمون ، كونت تولوز ، بسبب امتلاك انطاكية ، والذي اخر الحملة الصليبية نصف سلة ، كاد يشير انفجارا سافرا من الاستياء والغضب في صفوف العامة من الصليبيين . فقد تاكد الفقراء مرة اخرى من ان الاسياد لا يهتمون البتة بشؤونهم وان «مصلح الفقراء لا يؤبه لها اطلاقا» ، كما كتب احد مدونى الاخبار . فشرعوا يطالبون بمواصلة الزحف . ولكن ريمون من اجل لم ير سبب الاستياء الا في كون الفقراء كانوا يسترشدون حصرا بالرغبة في بلوغ القبر المقدس بأسرع وقت . اما في الواقع ، فان المسألة لم تكن مسألة الغيرة الدينية عند «الشعب الحافى والثر الثياب» بقدر ما كانت مسألة التنافر الجلى بين ادعاءات الزعماء الاغتصابية وامزجة الفقراء المعادية للاقطاعيين والمغلقة بالغلاف الدينى .

ان التذمر ضد الزعماء الذى تبدى اثناء وجود القوات المسلحة في انطاكية اخذ يهدد بالخطر . وبعد فترة وجيزة شمل كل جمهور الصليبيين البسطاء . قال ريمون من اجل : «عندما رأى الشعب ان الحملة تتأخر ، طفق كل يقول بصراحة لرفيقه وجاره ، الى ان تدمر الجميع ؟ » اذا كان الزعماء ، اما بسبب الخوف ، واما بسبب اليمين التى اقسموها للامبراطور ، لا يرغبون في قيادتنا الى القدس ، فهيا بنا ننتخب بانفسنا لانفسنا مقداما من الفرسان نتمكن ، بخدمته بوفاء واخلاص ، من ان نكون في امان ، ونصل بقيادته ، وبرحمة الرب ، الى القدس» . واخذت اصوات الاستياء والغضب ترتفع وتندوى اكثر فاكثر : «ما هذا حقا وفعلا ؟ الا يكفى قادتنا ، يا ترى ، اننا مكثنا هنا سنة كاملة وان مائتى الف مقاتل قد لقوا مصرعهم هنا ؟ » .

واقتمع مقاتلون عاديون مجلس الاسياد المنعقد فى كنيسة القديس بطرس وقالوا : «ان من يريد ان يملك ذهب الامبراطور ، فليملكه ، ومن يريد ان يحصل على دخل من انطاكية فليحصل عليه . اما نحن الذين نمضى الى القتال من اجل المسيح ، فانا سنواصل السير بوحية . وليمت شرا اولئك الذين يرغبون فى العيش فى انطاكية ، كما مات سكانها مؤخرًا» .

وحين استعمل الفقراء تعبير «سنواصل السير بوحى المسيح» ، كان ذلك احتجاجا اصيلا ، مزيئا بالرداء الدينى ، على القيادة الاقطاعية ، بل كان ، فضلا عن ذلك ، احتجاجا على الاهداف العدوانية والاعتصابية من الحملة الصليبية ، الغريبة عن الفقراء . وكان هذا التعبير يشبه تقريبا الصيغة التى استعملها غيبرت من نوجان حين قال عن رجال الطافورات انهم كانوا يسرون بدون سيد . ولكن الفقراء المتأججين بالغضب اخذوا الآن يهددون القادة على المكشوف . «اذا استمر كل هذا ، فانا سنهدم اسوار انطاكية . . . واذا ذاك ، بعد دمار المدينة ، سيسود بين الزعماء ذلك السلام الذى كان بينهم قبل فتح انطاكية» . والى هذا التهديد اضيف تهديد آخر ليس اقل جدية هو التهديد بوقف الحملة كليا والعودة الى الوطن . «والا ، فانه سيتعين علينا ان نعود الى بيوتنا قبل ان نموت جميعنا جوعا او حزنا» . ولا جدال فى ان الجمهور كان يميل الى التمرد والعصيان : ففى الشعب ، كما لاحظ غيبرت من نوجان ، بدأت تتبدى «حريات لا يصح لها ان تكون» . كف الصليبيون البسطاء عن الخضوع لاي كان . وظهرت حتى افكار تمردية تماما مفادها ان الجميع متساوون فيما بينهم .

ان غضب الجمهور فى منطقة انطاكية كان رهيبا الى حد انه اربع المسؤولين الرئيسيين عن التأخر - كونت تولوز وامير تارنتو . وقد «عقدا فيما بينهما صلحا غير وطيد ؛ وفى اليوم المعين صدر الامر الى الشعب بالاستعداد للانطلاق فى مسيرة النذر» .

اوقفت المساومة بين الزعيمين المتنافسين انفجار التمرد المهدد من جانب العامة .

وفى منطقة معرة النعمان تكرر الوضع كما كان فى منطقة انطاكية ، ولكن بشكل اشد ، اذ ان شيئا لم يستطع ان يحول دون الفقراء والانتفاضة السافرة . فردا على المجادلات غير المنقطعة بين بوهيموند وريمون دى سالجيل بسبب هذه المدينة ، تفجر فى شتاء ١٠٩٨-١٠٩٩ الغضب المكبوح زمنا طويلا .

«نظمت الفقراء حين علموا ان الكونت ينوي ان يبقى في معرة النعمان
 عيدا كبيرا من القريسيان والمثناة من جيفله لاجل حمايتها ، دوت الخطابات :
 «كيف هذا ؟» تجادل بسبب انطاكية وجدال بسبب معرة النعمان . وبسبب كل
 مكان اقد يعطينا اياه الرب سينشئ خطاب بين القادة . . وسيقبل عدد بنوة
 الرب ؟ كلا . . لتكف نهائيا الخلافات في هذه المدينة : لنهض وندمس
 اسوارها . . واذا ذاك سيسود السلام بين الصليبيين ، ويكتسب الكونت
 بالتاكيد الثقة في انه لن يغبر المدينة» . . .
 هذه المرة نفذت العامة تهديداتها ، كتب مدون الاخبار : «وهب المقعدون
 وعن مضاجعهم ، وايدفعوا الى الاسوار متكتئين على العكازات . . واذا رجل
 هيبضعف بالجوع يقتلع هناك بسهولة من السور ويدحرج بعيدا حجرا بالكم
 كان بوسع ثلاثة او اربعة ازواج من الثيران ان تجره» .
 وعيها جاول اسقف البازة بيار الناربوني (اول اسقف لاتيني في اماره
 انطاكية . . وقد سامه بطريرك انطاكية للروم اسقفا في ٢٥ ايلول -
 سبتمبر ١٠٩٨) والمقربون من الكونت ، متجوئين في عموم المدينة ، ان
 يهدثوا الفقراء المتهيجين والغاضبين ، لم يكن لغضب الشعب حدود ؛ وقد
 اشتهر بدمير الاسوار بلا كلل . ويختم مدون الاخبار وصف هذه الاجداث
 قائلا : «ومن المشكوك فيه ان كان في صفوف الشعب شخص مفرط في
 الضعف او مريض بقي في معزل عن هدم الاسوار» . ولم يبق حجر على حجر
 من جميع الاسوار والابرار وبيائر الاستحكامات في معرة النعمان ، ولم يبق
 ثمة شيء يتجادل بسببه الاسياد .

في هذه الاعمال العفوية التي قامت بها الفئات الدنيا ، بلغ الاحتجاج على
 سياسة الاقطاعيين الانانية الجشعة الذروة . وقد اضطر الكونت ريمون دي
 سانجيل ، لما فيه استياء مقربه ، ان يخضع لمطلب الجمهور ؛ بل انه امر
 بتدمير الاسوار الى النهاية . ان مقاومة «الرعا المتمردين والذين لا اصلاح
 لهم» (هكذا ينعت مدون الاخبار البر من آخن المقاتلين العاديين الفقراء) قد
 اجبرت القادة على دفع القوات المسلحة في اتجاه القدس . وقد اعلن ريمون
 دي سانجيل ، كونت تولوز ، ان هذه الرغبة الحماسية الصارمة في «السير
 الى المدينة المقدسة انما هي من وحي السماء وحسب ؛ وفي ١٣ كانون الثاني
 (يناير) ١٠٩٩ غادرت قطائله ، ثم بعد بضعة ايام غادرت فصائل زوبر
 النورمندي وتكريد وبعض الزعماء الآخرين ، معرة النعمان . كذلك استدعي
 الصليبيون البروفانسيون ، الذين اقامهم ريمون دي سانجيل في انطاكية . .
 ومنذ ذاك صار بوسع بوهيموند ان لا يخشى من المنافس ؛ فقد صارت

المدينة في قبضته كليا . ذلك ان امير تارنتور ، خلافا لليمين التي سبق ، ان
حلفها ، رقد . بقي في انطاكية . .

وهكذا اكره ضغط السواد الاعظم من المقاتلين البسطاء القيادة على دفع
الجحافل الى القدس . . لقد سعى الفقراء بعباد ومثابرة الى الامام ، املوا في بلوغ
«الجنة الارضية» التي وعد بها البابا اوريان الثاني في كليرمون . .

فتح القدس

اسرع الصليبيون جموعا الى الهدف محاولين ان يسبقوا بعضهم بعضا .
وكانت الوحدة الداخلية مفقودة بين حكام سوريا وفلسطين السليجوقيين . .
كما من قبل . . وكان الامراء السليجوقيون في خلافات دائمة . . ثم ان هزيمة
كربقا في انطاكية قوضت تنظيم قوات السليجوقيين ، ياهيك بان الحروب بين
الاقطاعيين السليجوقيين لم تهدأ بنيرانها امام العدو المهاجم من الشمال . . وكان
الخصام بالغ الوحدة بين رضوان ابن تتش ، صياح حلب ودقاق صاحب سبب
دمشق . .

كان الامراء العرب في المدن الساحلية يتخوفون من بين السليجوقيين . .
وكانوا لا يرون في الصليبيين اعداء بقدر ما كانوا يرون فيهم حلفاء بالقدر
في الصراع ضد الاعداء من ذوي الدين نفسه . . ومع ان الحكومة المصرية لم
تكن تنوى البتة تسليم فلسطين للصليبيين . . الا ان الفيل الذي منى به
السليجوقيون في انطاكية كان يناسبها تماما . . واستغلت مصر هزيمة كربقا ،
فارسلت قواتها الى فلسطين وسوريا . . وفي آب (اغسطس) ١٠٩٨ استولى
الفاطيون على القدس . . ووصلت قوات العرب المسلحة الى بيروت وادرك
الوزير الافضل حثمية الصدام مع الصليبيين ولكن به بدل جهدهم لتجنبه . .
قائما المفاوضات مع زعمائهم حاول ان يعرض عليهم شرطا مناسبا تماما من
وجهة نظره ، وهو حرية الدخول الى القدس . . ولكن هذا العرض قوبل
بالرفض ؛ اذ ان القادة الافرنج كانوا لا يعتزمون البتة الاكتفاء بمدينة الرها
ومدينة انطاكية ؛ واذا ان هدفهم كان امتلاك فلسطين ومنها القدس في المقام
الاول . .

كان الصليبيون يتقدمون باتجاه الجنوب في طابورين كبيرين . كانت
الجموع السائرة بقيادة ريمون ، كونت تولوز ، تسير شرقي جبال النصيرة .
والجحافل السائرة بقيادة غودفروا دي بويون وروبير الفلمنيكي بمحاذاة
الساخل . ولصرف هذه الفصائل عن القيام بعمليات عدائية ، ارسل حكام

طرابلس وبيروت وصيدا وصور العرب اليها شتسى الهدايا - الثقود ،
والمنتجات الغذائية ، وبراميل ماء الشرب - وبعثوا الرسل ؛ وعرض هؤلاء
على الصليبيين حرية العبور بلا غائق في ممتلكات امرائهم الراغبين في وقاية
مدنهم وضواحيها والكروم الغنية وبساتين الخضراوات والفواكه من ضراوة
القطعان الافرنجية وجشعها . وهكذا لم يلق الصليبيون اية مقاومة تقريبا .
ولم تحدث اشتباكات كبيرة مع السلجوقيين الا من اجل طرطوس وجبل -
وعكا ؛ وعبثا حاول كونت تولوز امتلاك هذه القلعة الاخيرة ، الا ان الزعماء
الآخرين لم يدعموا مقصده .

في اواخر ايار (مايو) ١٠٩٩ دخلت جحافل الفرسان الارض اللبنانية ثم
الارض الفلسطينية . من الجبل ان النجاحات اضاءت صواب بعض القادة ؛
فبعد فتح الرملة التي صارت اسقفية ، اخذت ترتفع بينهم اصوات تطالب
بالتوجه الى مصر وبابل . «اذا تغلبنا برحمة الله على ملك مصر ، فاننا لن
نتمكن من فتح القدس وحسب ، بل ايضا الاسكندرية وبابل وكثير من
الممالك» . هكذا ينقل مدون الاخبار هذه المشاريع الخيالية التي تراحمت في
رؤوس اشد جنود المسيح جشعا وغرورا . وكانهم نسوا «مساعدة الامنوان
المسيحيين» ؛ ولم يكونوا يفكرون الا بإمكان فتح «كثير من الممالك» . وبما
ان الخطط من هذا النوع كانت خيالية تماما ، فانها لم تحظ بالدعم وظلست
بمثابة امنيات طيبة .

تعاشى الصليبيون المدن الساحلية الكبيرة (طرابلس ، بيروت ،
صيدا ، صور ، عكا ، حيفا ، قيسارية) ، واتجهوا من ارسوف الى القدس .
وفي الطريق استولت فصائل تنكريد وبودوان له بورغ على بلدة بيت لحم
حيث ولد يسوع المسيح كما جاء في الانجيل . وسرعان ما اعلن تنكريد
ادعاءاته بالبلدة واثبت رايته على مسلة كنيسة والسدة الاله في البلدة ،
ولكن نشب نزاع بينه وبين بودوان له بورغ في الحال من جراء ذلك . الا
ان الظروف لم تسمح للنزاع في التفاقم ، اذ كان ينبغي الاسراع الى ابعده .
في فجر ٧ حزيران (يونيو) ١٠٩٩ ، اقترب الصليبيون من القدس .
تكشف منظر المدينة المقدسة امامهم من الجبل العالي السدي سموه مذ ذاك
مونجوا («جبل الفرع») . حاصر الصليبيون المدينة التي كانت تعتبر مقدسة
بنظر الشعوب التي تعتنق المسيحية والاسلام واليهودية . وقد جعل الموقع
الجغرافي من القدس عسيرة الحبال على العدو . كانت تقع على سهل مرتفع
عال ولم تكن مفتوحة الا من الجهة الشمالية ، وكانت تحميها من الجهات
ال اخرى جبال ناهيك بان حاكم القدس المصري افتخار الدولة كان قد اتخذ

التدابير الضرورية لحماية المدينة بوثوق ، نظرا لاقتراب الافرنج . فقد طرد من المدينة جميع السكان المسيحيين وسيج مزاغل الابراج بحزم من القطن والتبن ، وملا خزانات المدينة بكمية كافية من المياه ، وامر ، على العكس ، بتخريب جميع الآبار حول المدينة . وسيقت قطعان المواشى بعيدا فسي الجبال . بل ان افتتار الدولة ومم الاستحكامات الدفاعية الرومانية القديمة . صحيح ان حامية القدس لم تكن كبيرة ؛ فلم تكن تضم اكثر من الف مقاتل ، ولكن جيشا كبيرا هب من مصر الى مساعدتهم بقيادة الوزير الافضل .

كان الصليبيون الذين تملكهم الانتعاش والالهام الدينى يأملون سرا فى ان تسقط استحكامات القدس من تلقاء نفسها ما ان يقتربوا منها . وبدءا من ١٢ حزيران (يونيو) حاول الفرسان مرارا ان يستولوا على المدينة انقضاضا ، ولكن عبثا . فكان لا بد من الشروع فى الحصار . وقد امتد الحصار خمسة اسابيع . ولم يكن الصليبيون يملكون ما يكفى من القوى لاجل الاستيلاء على القدس المحصنة عنوة ؛ فلم يكن عندهم من الرجال الصالحين للقتال ، كما حسبوا انفسهم ، اكثر من ١٢ الفا ، «ناهيك بانه كان عندنا - كما كتب ريمون من اجيل - جمهور ضخم من المقعدين والفقراء . اما الفرسان فى صفوف قواتنا ، فكان عددهم ١٢٠٠ او ١٣٠٠ ، لا اكثر كما اعتقد» . وفى الآونة الاولى تبدى كذلك بصورة ملحوظة النقص الى السلالم وسائر معدات الحصار ، ولاسيما منها ادوات الرماية .

والى نجدة الفرسان جاء الجنويون والانجليز ؛ فقد رست بضع سفن فى يافا ، فغادرها المصريون على الفور تجنبيا للقتال . وقد حمل التجار على السفن الى الصليبيين الحبوب والخمور وكذلك الحبال والمسامير والفؤوس وغير ذلك من الادوات ومن مواد البناء الضرورية لصنع ابراج حصارية ، وادوات لهدم الاسوار - اى الكبوش والصلالام . ولكن سرعان ما حاصر الاسطول الفاطمى ميناء يافا . وبما ان القوات البحرية المصرية كانت متفوقة بكل جلاء ، فقد كان من الميؤوس فيه خوض القتال ضدها . وفك الصليبيون سفن جنوه والسفن الانجليزية واستعملوا اقسامها لاجل المنشآت الحصارية . رغم المعركة من اجل الهدف المشترك ، كما كان يبدو ، فضلا عن انه الهدف النهائى ، لم يوقف الزعماء النزاعات الداخلية فيما بينهم . فاضطرب رجال الدين الى التدخل لتهدة الخلافات بين المتنافسين الذين اقتسموا جلد الدب قبل قتله . ومن جديد ، اقيمت مسرحية الرؤيا النبوية ؛ وهذه المرة «ظهر» الاسقف اديمار دى بوى على المقاتلين المتواجدين فى غمرة الانجذاب الصوفى وذكرهم بضرورة الوحدة فى النضال من اجل المدينة المقدسة . وفى

٨ تموز (يوليو) أعلن رجال الكنيسة الصوم. ونظموا مسيرة بإصليان حول القدس. واتجهت مواكب الصليبيين للحفاة إلى جبل الزيتون. وهنا القسيسة بطرس الناسك وغيره من رجال الكنيسة مواظب نارية لأجل انارة جماسية المقاتلين. في ١٣-١٤ تموز قامت القوات الصليبية بمحاولات جديدة للهجوم. دفعوا إلى السور برجين بحصاريين هائلين برئانية غورفستروا دي بويون وريمون دي سنالجيل. وكانوا قد صنعوا الهوجين من جذوع قصيرة وكسوها بالجلود الخام. ولكن عبثا. كما الصليبيون يبدأون دفع البرجين نحو الاسوار. حتى تطايرت من جميع الجوانب الأحجار المطلقة من أدوات الرماية. والسهم التي لا عد لها كالبرد. دارت رجي المعركة دون ايعة علائم على النصر. كتب يدون إخبار من شهود العيان: «حين دفع رجالنا الأدوات بجوار الاسوار، أخذوا من هناك (أي من الاسوار - المؤلف) يرمون الحجارة ويطلقون السهم. كما أخذوا يلقون جذوع الأشجار ورزم القش الملتصبة، ثم شرعوا (أي العرب - المؤلف) يلقون على أدواتنا عيذاننا وأخشابا مطلية بالقار والشمع والكبريت، لافئتها في مزق مشتعلة. . . . وكانت العيذان والأخشاب من جميع النواحي. . . . مجشوه بالحسامير، لكن تعلق حيثما تقع. ولكن تحرق (السلالم وأدوات الرماية) حيثما تعلق. وكانوا يرمون الأشجار والقش لكي يوقف اللهيتي (على الأقل) أولئك الذين لم تستطع إيقافهم لالسيوف ولا الاسوار العالية ولا الخندق العميق». ان يدونسي الإخبار اللاتين. اذ يصدقون المذائع على الصليبيين الشجعان، لا يستطيعون ان يخفوا الحقيقة عن صلابة حماة المدينة العرب. كتب فولهير من شارتر: «أخذ المسلمون يعملون ضدهم (أي ضد الصليبيين - المؤلف) ويسكبون الزيت والدهن الغالي ويرمون المشاعل المتأججة على البرج المذكور. وعلى الفرنسان الموجودين فيه. وهكذا كان الموت السريع وقبل الاوان يحصد الكثيرين من المقاتلين من هذا الجانب وذلك». . . . بلغ الانقضا ضروقة الصراوة في ١٥ تموز. فنحسب الظهر، اقتحم المهاجمون القدس وسرعان ما سقطت المدينة. تكبد الغزاة خسائر فادحة، أثناء الحصار المديد وفي أيام الانقضا بالذات، تحسنت وابل الحجارة والسهم والقذائف المحشوة بالمسبواد السريعة. الالتهاب التي انهال بها المقاتلون المصريون على رؤوس الصليبيين المحاصرين. . . . وقد أبدى العرب الذين كانوا يدافعون عن المسجد الأقصى أو «هيكل سليمان» كما يسميه تدونو الإخبار اللاتين، والعرب الذين استجكوا في

برج دراود الواقع في القسم الغربي من المدينة ، مقام منسوبة بالغة الشجاعة
والجسارة في وجه الغزاة . وفي آخر المطاف ، سلم افتخار الدولة الصليبيين
القلعة وفتح باب يافا بعد ان ضمن لنفسه الحق في مغادرة المدينة بحرية .
اثنا «مخلصي قبر السيد المسيح» الذين تملكهم التعصب الاعى وتحرقوا
الى الانتقام من الكفار الذين تسببوا لهم بمثل هذا القلق والاضطراب
بصلابتهم وبسالتهم وكبدواهم مثل هذه الخسائر ، قد انقضوا بقساوة وحشية
وضراوة هميحة على سكان المدينة المفتوحة واثروا تهمة . ان حمامات
الدم وعمليات النهب الشاملة المقترفة في القدس قد حجت المآثم
والوحشيات المقترفة في انطاكية ، يقينبول ، مدون اخبار ايطالي نورمانى ،
«عندما دخل حجاجنا المدينة ، ساقوا وقتلوا المسلمين حتى هيكل سليمان
بالذات ؛ وقد تجمع المسلمون فيه وخاضوا ضدينا معركة في منتهى القساوة
طوال اليوم كله ، ولذا سال الدم في الهيكل كله . واخيرا ، تغلب رجالنا
على الوثنيين واعتقلوا عددا من الرجال والنساء في الهيكل ، وقتلوا منهم قدر ما
ارادوا ، وابقوا منهم قيدين الحياة قديرا ما ارادوا» . وفي المسجد الاقصى ذبح
الصليبيون ما لا يقل عن ١٠ آلاف شخص . هذا العدد يذكر على كل حال
شهود العيان اللاتين .

كان تنكريه وغودفروا دى بويون السباقيين في اقتحام المسجد الاقصى ؛
ويعترف المؤلف المذکور بما يلي : «اما اى قدر من الدماء سفكا في ذلك
اليوم ، فمن المشكوك فيه ان يكون من الممكن التصديق» .
والمجازر وعمليات النهب والمسلح تخللتها الصلوات المحمومة امام قبر
السيد المسيح . ومن الصلوات كلف الفرنج ان ينقلون في الحال الى الاعمال
الدموية . كانوا يقتلون الجميع من رجال ونساء واطفال وشيوخ ، واصحاب
ومقعدين ، «لم يكن ثمة مكسبان كان يوضع المسلمين ان يتحاشوا فيمنه
القتلة» . وكانوا يسحقون رؤوس الرضع على الحجارة .

بعد المجزرة العظيمة ، كبا يواصل البروفانسي فولهير من شارتنير
الحديث : «تفرق الصليبيون على بيوت سكان المدينة ونهبوا كل ما وجدوه
فيها . وفي هذه الحال قامت عادة مفادها ان كل من يكون اول الداخلين الى
البيت ، سواء كان غنيا ام فقيرا ، يتلقى ويملك البيت او القصر وكل ما
فيه ، بوصفه مالكا .

وفضلا عن المسلمين ، سقط يهود القدس ضحية لجنون الصليبيين
وبربريتهم . فقد اجتمعوا في كنيس كبير ، وفيه ابادهم الصليبيون عن
بكرة ابيهم : فقد احرق الصليبيون مبنى الكنيس بمن بحث عن ملجأ فيه .

ولقد اشير الى فتح المدينة المقدسة في ١٥ تموز (يوليو) ١٠٩٩ في جميع المؤلفات التاريخية من اوائل القرن الثاني عشر بما في ذلك في المؤلف الروسي «قصة السنوات المنصرمة» . ان مدونى الاخبار ومؤرخى الاحداث سنة بعد سنة الغربيين يصفون هذا الحدث بقدر متفاوت من الاسهاب والتفصيل ، ويتحدثون بتفاصيل طبيعية عن اعمال «جنود الرب» التى تبدو لهم جديرة بالمديح والثناء اما مدونو الاخبار والمؤرخون الشرقيون (ابن القلانسي ، ابن الاثير ، وغيرهما) ، فانهم ينوهون بفتح القدس من قبل «اعداء الله» بايجاز وتمالك ، ولا يشيرون الا الى انفلات الغزاة وجنودهم ووحشياتهم الهمجية ، والى انهم ، كما يقول ابن القلانسي ، قتلوا كثيرين من سكان القدس .

لمن السيادة ؟ حملات المؤخرة

مع فتح القدس تحقق الهدف الرسمى من الحملة الصليبية . ولكن سرعان ما برزت المصالح الفعلية للمشاركين فيها ؛ ونظرا لذلك لشبت احتكاكات خطيرة بين زعماء الصليبيين ، وكذلك على الاخص بين قادتهم العسكريين ورعاتهم الدينيين .

لم يترك البابا اوربان الثانى (توفى في ٢٩ تموز - يوليو ١٠٩٩ قبل ان يتلقى نبا «تحرير» القدس) اية اوامر بحد نظام الارض المقدسة المقبل . ومع ذلك حاول رجال الدين ان يؤمنوا فى المقام الاول مصالحهم بالذات وان يشغلوا مكان الصدارة فى مستلكات الغرب الجديدة . وقد الحت الاوساط العليا من رجال الدين على تحويل القدس الى دولة كنسية . ولهذا الغرض كان ينبغى فى المقام الاول ، كما كانوا يعتقدون ، انتخاب بطريرك جديد من اللاتين وتسليمه السلطة بكليتها . ولكن منذ وفاة اديمار دى بوى ، لم يبق عند الصليبيين قائد كنسى يتمتع بما يكفى من النفوذ والمكانة ، وبمقدوره ان يأخذ على عاتقه اداء مثل هذه الرسالة . وقد عينوا رئيس الاساقفة دايمبرت من بيزا خلفا للاسقف اديمار فى وظيفة القاصد الرسولى (نائب البابا) ، وقد وصل الى القدس بالاعتماد على مساندة اسطول بيزا ، وبدأ يعمل بخارق الجهد لى يصبح البطريرك على وجه الدقة ، وليس اميرا دنيويا ، صاحب السلطة فى القدس . ثم ان البابا الجديد ، باسكال الثانى (١٠٩٩-١١١٨) ، المح من جهته الى الاسياد الصليبيين بانه يجب مكافاة الكنيسة الكاثوليكية بصورة مناسبة لانها هى التى كانت صاحبة المبادرة الى الحملة الصليبية .

اما الامراء ، فكانوا يعتقدون بالعكس انه يجب تسليم واحد منهم للسلطة على القدس . من بالذات ؟ التهبست المشاعر وبخاصة اثناء انعقاد مجلس اوسع القادة الدنيويين والكنسيين نفوذا ، وذلك فـسـى ٢٢ تموز ١٠٩٩ . وقد بلغت الخلافات درجة من الحدة بحيث ان الصليبيين كادوا يصلون الى عتبة الحرب فيما بينهم . كان هناك ، من حيث الجوهر ، طامحان جديا اثنان الى منصب رئيس الدولة الجديدة هما ريمون دى تولوز ، والدوق غودفروا دى بويون . وقد افلح زعماء الصليبيين فى التوصل الى حل وسط للمسألة ، خصوصا وان ريمون ، كونت دى تولوز ، الذى لم يكن يتمتع بعطف الاسياد ، وحتى استثار شكوكهم بسبب عواطفه الموالية لبيزنطية ، قد سحب بنفسه ترشيحه .

ان الحل الوسط الذى توصل اليه زعماء الصليبيين كان يتألف مما يلى : احييت القدس شكلا ورسميا الى حكم البطريرك (وبعد فترة من الوقت صار دايمبرت من بيزا بطريرك القدس) ، ولكن انتخبوا من عداد الامراء الحاكم الفعلى للمدينة المقدسة ، - غودفروا دى بويون ، ومنحوه لقب حامى قبر السيد المسيح . يبدو ان غودفروا دى بويون رفض التاج الملكى بايعاز من ريمون دى تولوز . وقد رفض ان يرتدى تاجا من الذهب فسـى المكان الذى ارتدى فيه المسيح تاجا من الشوك . وبدافع من روح التنازل والتساهل ، وافق الدوق دى بويون على اعطاء البطريرك دايمبرت ربع القدس ويافا وحتى على اعتبار نفسه تابعا للبطريرك . فهل كان يصح الخلاف مع الكنيسة بسبب هذه الشكليات ؟ فان تفوق القسوى بقى على كل حال الى جانب الفرسان . ان ادعاءات الكرسي الرسولى بالسلطة المدنية الدنيوية على بعد آلاف الاميال عن روما كانت تبدو فى عيون الفرسان ورؤسائهم غير مقنعة . ناهيك بان غودفروا دى بويون ، اذ اقدم على تنازلات فى صالح دايمبرت المحب للسلطة ، كان يسعى فى الوقت نفسه (وليس عبثا) الى نيل الدعم العسكرى من جانب منافسة بيزا ، - البندقية . فان اسطول البندقية الذى هزم فى طريقه اسطول بيزا ، كان قد وصل الى يافا . الا ان البندقيين ، والحق يقال ، طالبوا بدورهم ، غودفروا دى بويون ، مقابل هذا الدعم ، ببدل لا يستهان به هو منحهم فى كل مدينة ساحة سوقية ، والاعفاء من شتى الضرائب والمكوس ، وثلث الغنيمة ، وما الى ذلك .

ولكن بينما كان الاسياد يحاكمون ويساومون ، ويبنون الخطط ويحيكون المؤامرات ، اضطر الصليبيون الى امتشاق السلاح من جديد . فمن الجنوب اقتربت العساكر المصرية ، بامرة الوزير الافضل . ورغم جميع الخلافات ،

اضطرب الفرسان وقادتهم بالمرّة الأخيرة : أو يكاد ! في العمل ممّا لم يكن
 جهدهم ؟ قضدهم كان يقف العدو بالغ الخطر : لتثبت المعركة ضدّ المضريين
 في صباح ١٢-آب (اغسطس) في واد إلى الشمال من مدينة عسقلان . احترق
 الصليبيون الغلبة في القتل . ويروي ابن القلائسي : «وتمكنت سيوف
 الأفرنج من المسكنين» . . . «وانهزم العسكر المصري إلى ناحية عسقلان
 ودخل الأفضل إليها» * . وبعد أن نهب المنتصرون المعسكر المصري ، عاد
 الوزير مع مقربيه إلى مصر ، ومنه لأك توطد وأضع الصليبيين في فلسطين
 فسيما . لهذا قبلت ذواقع الفرسان للستين في زكاب الساسة الكنسيين وتلبية
 ادعاءاتهم

في ١٨ تموز (يوليو) ١١٠٠ توفي غودفروا دي بويون . ولم يعترهم
 الفرسان من فرنسا الشمالية والتورين . احناء الرأس امام أبناء بيزا
 وبطيركهلم : فأبلغوا في الحال عما حدث بودوان ، كونستالرها ، (أخا
 غودفروا) ودعوه إلى القدس ، ومثيت بالاختناق محاولات دايمبرت اخذ
 المبادرة بيده والحيلولة ، بمساعدة بوهيموند ، امير انطاكية ، دون وصول
 بودوان إلى القدس : فقد اوقفوا سفراء البطريرك في اللاذقية ، ناهيك بأن
 بوهيموند نفسه وقع آنذاك في أسر السلجوقيين . وهكذا ورث بودوان ،
 امير الرها ، عرش القدس . ولم يبق لدايمبرت الذي لم يلق أي سند من
 أي كان غير امر واجب هو وضع الثاج على رأس بودوان ، وهذا ما فعله في
 كانون الاول (ديسمبر) ١١٠٠ في كنيسة ميلاد المسيح في بيت لحم .
 وبعد أن أصبح بودوان ملكا ، رفض قطعاً ادعاءات رجال الدين
 السياسية . وقد لقب نفسه رسمياً في وثائقه : «انا ، بودوان ، الذي نال
 مملكة القدس بمشيئة الله» .

كانت هذه المملكة تشغل في البدء رقعة صغيرة من الأرض - القدس
 وبيت لحم ومرفأ يافا مع دوائرها . وكانت القوات المسلحة لدى دولسة
 الصليبيين الجديدة تافهة . فقد كان لدى غودفروا دي بويون من العساكر
 نحو الفين من المشاة و ٣٠٠ من الفرسان - من أولئك الذين حسبوا ان
 يستقروا جدياً وزمناً طويلاً في الأرض المقدسة . واعتبر كثيرون من كبار
 الاسياد ومنهم روبر النورمندی ، وروبر الفلمنكي ، وريمون دي تولوز ،
 وبودوان له بورغ ، ان رسالتهم قد تحققت وانتهت . وعادوا مع اتباعهم إلى
 الوطن : وغادر آخرون القدس وراحوا إلى سوريا الشمالية حيث عكفوا على
 اغتصاب الاراضي . واحتاج بودوان الاول (١١٠٠-١١١٨) إلى العساكر . في

* تاريخ ابن معلى حمزة ابن القلائسي ، ص ١٣٧ .

البدء علق آماله على تحقق مجموعات جديدة ضمن الصليبيين من الغرب ، ولكن لم يكن مكتوبا لهذه الآمال ان تتحقق رغم ان علائم مؤملة اخذت ترتشم . ذلك ان موجة جديدة من الحركة الصليبية نهضت في أوروبا في سنة ١١٠٠- واعتبرت ضدى مباشرا ومواصلة لخملة القدس التي كانت قد انتهت للتو .

فقد احدث نبا فتح المدينة المقدسة انطباعا قويا قسسى الغرب . وان اقاصيص العائدين من سوريا وفلسطين عن الغنائم الثارقة الغنى المحققة في الشرق قد هيجت كثيرين ممن بقوا في معزل عن الأحداث . وبأمر من البابا إنسكال الثانى ، شن رجال الدين حملة نشيطة من الموعظ . وعقد ممثلو الكرسي الرسولى الذين وصلوا الى فرنسا مجمعا كنسيا قسسى فالتنل اولاً ، ثم في بواتيه . وقد لعب هذا المجمع دورا كبيرا جدا في ظهور وانتشار قوات الصليبيين الجديدة . افتتح المجمع في ١٨ تشرين الثانى (نوفمبر) ١١٠٠ ، فى يوم الذكرى السنوية الخامسة للمجمع كليرامون ، وببلاغة اقنع مفوضو البابا الكاثوليك الغربيين «بتقديم العون للمؤمنين فى حرب الرب» .

وبالنتيجة ، تحركت باتجاه الشرق فى سنة ١١٠٠ جماهير جديدة ، كبيرة جدا من الناس . وقد انطلقت بصورة رئيسية من المناطق التى كانت حتى ذلك قد تأثرت بصورة ضعيفة نسبيا بالنهضة الصليبية التى شملت أوروبا فى سنة ١٠٩٦ .

اجتمع اكبر عدد من العساكر فى لومبارديا ، بأمره رئيس الأساقفة انسلم من ميلانو . وكانت العساكر تتألف اساسا من فقراء الازياق والمدن اشبه بجموع بطرس الناسك . وفى ربيع سنة ١١٠١ ، بلغ اللومبارديون القسطنطينية . ورغم فشل التجربة مع الحملة الصليبية الاولى ، قرر الامبراطور الكسيوس الاول ان يجرب هذه المرة ايضا استغلال عساكر الغرب فى مصلحة بيزنطية ، ضد سلجوقيى آسيا الصغرى ، بل انه حاول اقناع ريمون دى تولوز ، الموجود آنذاك فى القسطنطينية ، بترؤس العساكر اللومباردية . واهد الامبراطور اللومبارديين بفصيلة من الروم تضم ٥٠٠ فرد . وبعد فترة وجيزة انضمت الى الصليبيين الجدد جموع من بورغونيا وشامبانيا ، بأمره ايتيان ، كونت دى بلوا ، الذى سبق له ان قر من جوار انطاكية . والآن انطلق من جديد فى البحر لى لا يسبى الى سمعة عائلته ومكانتها . وفى القسطنطينية ظهر كذلك فرسان المان ونقلوهم الى آسيا الصغرى ؛ وكانوا بأمره المدعو كونراد الذى كان فى خدمة الملك

الالمانى هنريخ الرابع والذي كان يسمى فى المصادر والمراجع التاريخية بالكونيتابل .

ولكن الاحداث تطورت بنحو مغاير تماما لما حسيب الفاسيلفس . فان اللومبارديين الذين كانوا يؤلفون السواد الاعظم من العساكر كانت تملكهم فكرة تحرير مواطنهم فى المقام الاول - اى امير انطاكية الذى وقع فى صيف سنة ١١٠٠ فى اسر الامير السلجوقى غازى المالك ابن دانيشمنند السيواسى . وكان الاسير فى نيكسار غير بعيد عن ساحل البحر الاسود . واخفقت جميع جهود الامبراطور الكسيوس الاول وريمون دى تولوز وايتيان دى بلوا فى صرف اللومبارديين عن هذه الفكرة السخيفة . وفى ٢٣ حزيران (يونيو) ١١٠١ فتح الصليبيون انقره وسلموها لبيزنطية ، وفقا لقسم التبعية الذى سبق ان حلفه رؤساء جحفلهم للامبراطور .

فى ذلك الوقت ، تشكل تحالف قوى من الحكام السلجوقيين لمواجهة زحف الافرنج الجديد ؛ فصد الصليبيون هب سلطان قونية قلعج ارسلان الاول والاميران غازى المالك السيواسى ورضوان صاحب حلب . وفى اواسط تموز (يوليو) ١١٠١ ، منى الصليبيون بهزيمة ماحقة فى جوار مارسىوان (مرزفون) ، على بعد نحو ٢٥٠ ميلا من نيكسار . كذلك لم تنفع هذه المرة الحرب المقدسة التى اخذها ريمون دى تولوز معه . ولم ينج من الموت سوى القادة الذين ولوا الادبار «فى الوقت المناسب» علما بان حامل الذخيرة النفيسة كان بالذات اول من فارق ساحة الوغى . وسقط عشرات الآلاف من اللومبارديين والفرنسيين والالمان تحت ضربات السيوف والرماح السلجوقية ، واما وقعوا فى الاسر وبيعوا عبيدا .

والمصير الفاجع ذاته كان من نصيب طابورين آخرين من المؤخر (الساقة) الصليبي انطلقا من فرنسا والمانيا . كان احد الطابورين بامرة فيكونت نيفر ، غليوم الثانى والدوق اودو البورغوندى ، الذى اشترك قبل ذاك بقليل فى الحرب ضد العرب فى اسبانيا ، والذى حرمه البابا من الكنيسة لتهبه ضياع دير كلونى . وكان الطابور الثانى الذى انضم اليه الصليبيون من فرنسا الجنوبية والمانيا الجنوبية بامرة غليوم التاسع دوق اكيوتين ، الذى اشتهر كشاعر ومغن جوال ، وقلب الرابع ، دوق بافاريا ، الذى كان فى سنوات الصراع من اجل العرش خصما للملك الالمانى هنريخ الرابع . وبين هؤلاء الصليبيين ، برز هوغ فرمندوا الذى سبق ان عرفناه ، والماركغرافينيا ايدا النمساوية ، وتييمو ، رئيس اساقفة سالزبورغ . سار الطابوران وتصرفا كلا منهما بمعزل عن الآخر . وبعد محاولة

فاشلة باقتحام قونية في آب (اغسطس) ١١٠١ ، منى غليوم ، فيكونت نيفر ، بهزيمة ماحقة على يد السلجوقيين الى الشرق من قونية ، قرب هرقله ؛ الا ان بقايا قواته استطاعت ان تهرب ، ووصلت في آخر المطاف الى انطاكية . ثم ان صليبي غليوم ، دوق اكيوتين ، الذين قاموا بمسيرة عسيرة في ربوع آسيا الصغرى ، وانهكهم الجوع والعطش ، وتكبدوا خسائر كبيرة في الارواح ، لقوا المصير الفاجع نفسه بعد بضعة اسابيع : ففسى جوار هرقله ، وقعوا في كمين نصبه قلج ارسلان .

وهكذا اخفقت كليا الحملة الصليبية المؤخرية (الساقية) في سنتى ١١٠٠-١١٠١ (ونظرا لسعة ابعادها وكبر عدد المشتركين فيها ، بلغ الامر بمدون الاخبار فولهير من شارتر ان سمي هذه الحملة الصليبية بالحملة الثانية) . وقد هلكت اغلبية عناصرها في آسيا الصغرى ، الا ان بضع مئات من الصليبيين استطاعت الوصول الى القدس .

نحو ذلك الزمن ، كانت قوات الصليبيين الذين استولوا على القدس في سنة ١٠٩٩ قد انخفضت بصورة ملحوظة ؛ فان كثيرين منهم قد عادوا الى الوطن . ومع ذلك ، واصل الباقون شن الغارات الاغتصابية في اراضى سوريا ولبنان وفلسطين . وقد استرعت المدن الساحلية الغنية التى كانت مراكز تجارة المشرق انتباه الصليبيين . ولكن فتحها لم يكن سهلا ؛ فقد لقيت المدن العون من ثرواتها بالذات ومن مصر . ذلك ان حكام المدن المينائية كانوا يعرضون على زعماء الصليبيين فدية كان هؤلاء يقبلونها احيانا كثيرة . ومع ذلك ، استطاع الصليبيون ، بمساندة اسطول البندقية واسطول جنوه الذين قطعوا المواصلات بين موانئ القسم الشرقى من البحر الابيض المتوسط وبين السفن المصرية ، ان يرسخوا اقدامهم ، خلال السنوات التى اعقبت فتح القدس ، فى عموم ساحل سوريا ولبنان وفلسطين . وقد فتحوا المدن واحدة تلو اخرى : فى سنة ١١٠١ حيفا ، ارسوف ، قيسارية ؛ فى سنة ١١٠٤ عكا ؛ فى سنة ١١٠٩ طرابلس (بعد حصار دام زهاء سبعمائة سنة) ، صيدا ، بيروت ؛ واخيرا فى سنة ١١٢٤ صور .

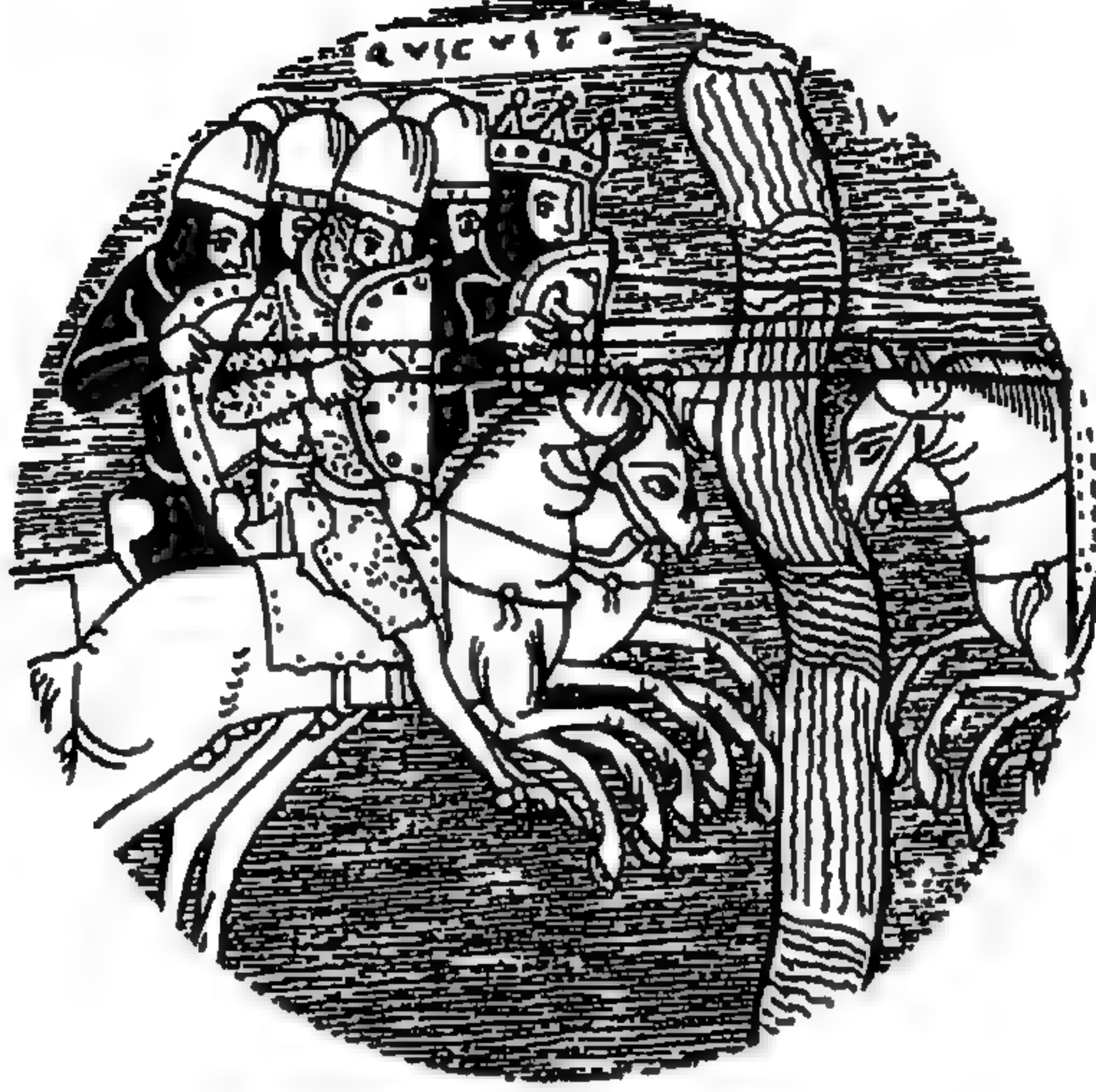
وعلاوة على الدول الثلاث التى انشئت من قبل ، تأسست فى الاراضى المفتوحة دولة اخرى ، هى كونتية (او امارة) كما تسمى فى بعض المراجع العربية) طرابلس (الى الشمال من مملكة القدس) .

اخذت اراضى دول الصليبيين تتسع تدريجيا ؛ فقد اشتملت على مناطق فى المجرى الاعلى من نهر الفرات ، ثم على رقعة ضيقة فى سوريا الغربية ، ثم على عموم فلسطين وكذلك على قسم فيما وراء الاردن ومن شبه جزيرة

سيناء . وجميع هذه الدول (اي مملكة القدس وكونتية الرها وكونتية طرابلس وامارة انطاكية) يجمعونها عادة في الادب تحت اسم واحد - مملكة القدس اللاتينية . وفي هذه الدول ، أصبح ابرز زعماء الصليبيين حكاما : في الرها - بودوان ثم ورثته بعد ان صار ملك القدس ؛ في انطاكية - بوهيموند الذي حادل بجميع الوسائل فيما بعد ان يوسع ممتلكاته ؛ في طرابلس ، ورثة منافسه ريمون دي تولوز (فان ريمون نفسه قد مات في سنة ١١٠٥ اثناء حصار هذه المدينة) ؛ وقد احتفظ بتاج ملوك القدس اخلاف غودفروا دي بويون ، ملوك سلالة الاردين - انجو (ومرد الاسم المزدوج الى ان عرش القدس قد شغله في سنة ١١٣١ صهر بودوان الثاني (١١١٨-١١٣١) ، الفرنسي فولك دانجو (Foulques) ، الذي اخذ ورثته مذ ذاك يحكمون في القدس) .

ان الصليبيين الاوائل كانوا مدينين بانتصاراتهم الى تلاحمهم ووحدتهم اللتين يتحدث عنهما مدونو الاخبار اللاتينين باسهاب اقل مما الى انقسامات العالم الاسلامي في المقام الاول . ففي الشرق لم يواجهوا كتلة متكاملة ، واحدة موحدة من الاعداء ، بل واجهوا خليطا متنافرا ومبرقشا من كيانات السلجوقيين والعرب الدولية ، ومن امرائهم الكبار والصغار الذين لا لحمية بينهم . كان العالم الاسلامي منقسما على نفسه . وكان تمزقه السياسي يرافقه التبعر الديني ؛ فان السلجوقيين السنيين لم يجدوا لغة مشتركة مع الشيعيين المصريين ، ناهيك بان الصراع كان محتما بدوره في صفوف الشيعيين بين مختلف التيارات والملل . وبالنتيجة لم يلق الفاتحون الرد اللازم في الشرق ، واستطاعوا ، وان بشم من خسائر كبيرة ، ان يوطدوا سيطرتهم لعشرات السنين في الاراضي الغنية في سوريا ولبنان وفلسطين . لبى امتلاك القسم الشرقي من البحر الابيض المتوسط المطامع المغرصة لبضع مئات من الاقطاعيين المدنيين والكنسيين في اوروبا الغربية . وضحي بالجماهير الشعبية لاجل هذه المطامع ؛ فان المشتركين في الحملة الصليبية الاولى - وكذلك في حملات الساقة (المؤخر) التي منيت بالهزائم الماحقة - لم يكونوا بنصفهم او حتى باغلبيتهم من عداد الاقطاعيين ، بل كانوا من الفقراء ، وبصورة رئيسية من الفلاحين ، ممن انطلقوا الى اقطار يجهلون بها بحثا عن نصيب افضل ، ولكنهم لم يجدوا هناك غير الموت . لقد كانت الحملة الصليبية الاولى ذبيحة هائلة كانت شعوب الغرب ضحيتها وقدمتها ومثلت مسرحيتها البابوية والكنيسة الكاثوليكية والايوساط العليا من الطبقة الاقطاعية خدمة لاهدافها الاغتصابية المستورة بالرايات الدينية .

٣ دول الصليبيين في الشرق



الجديد والقديم في النظم الاقطاعية

بعد ان استقر الاسياد والفرسان الغربيون في الممتلكات الجديدة ، نقلوا اليها الاوضاع الاجتماعية والسياسية المألوفة القائمة في وطنهم - فرنسا . ولكنهم اضطروا عند الاقتضاء الى مراعاة بعض خصائص النظام الاقتصادي والعلاقات الاجتماعية المتجذرة في المناطق المحتلة . ونحو ذلك الزمن كانت النظم الاقطاعية تسود ايضا في الشرق الادنى ، ولكنها كانت تتميز باصالة معينة . كانت الاقطاعية في هذه البلدان تتميز ، في عداد ما تتميز به من سمات رئيسية خاصة ، بواقع ان الحياة المدنية كانت آنذاك متطورة فيها ، بينما كانت قد رأت النور للتو في الغرب . كذلك كانت اشكال العلاقات الزراعية مختلفة ، ومن هنا نظام العلاقات المتبادلة في داخل الطبقة السائدة .

ان العلاقات الاجتماعية التي تكونت في دول الصليبيين او دول الافرنج

(الفرنجة) ، كما سماها السكان المحليون ، كانت ، فى آخر التحليل ، عبارة عن تركيب او جمعية بين البنيان (ستن الحكم) الاقطاعى الاوروبى الغربى - فى صيغته الفرنسية على الاغلب - وبين البنيان الذى ترسخ فى سوريا ولبنان وفلسطين قبل ظهور الفاتحين الغربيين . ومنذ زمن السيادة العربية ثم السلجوقية انتشر هنا نظام الاقطاع العسكرى ؛ فهكذا كانت تسمى الحيازة المشروطة (bénéfice) التى تمنحها سلطة الدولة للموظفين العسكريين والمدنيين . وكان الاقطاع اما يتشكل من قطعة ارض (حصّة من الارض) اخذت تتحول تدريجيا الى حصّة وراثية - كان حائزها او مالکها (اقطاع دار) ملزما بان يدفع اتاوة عقارية الى الخزينة ، واما يتلخص فى تخويل الحائز الحق فى جباية مختلف الاتاوى (وفى المقام الاول بينها الخراج - وهو اتاوة عقارية للدولة) والضرائب فى صالحه . وبعد استيلاء الصليبيين على الشرق الادنى ، تغير نظام الاقطاع العسكرى بصورة جوهرية ؛ فقد تشابكت فيه تلك النظم الاقطاعية التى حملها الافرنج معهم ، علما بان مؤسسات الاقطاعية الغربية هى التى هيمنت ، بينما العناصر الشرقية ، اذا ما بقيت ، فذلك ، اولاً ، بصورة معدلة الى هذا الحد او ذاك ، وثانياً ، فى المستوى المحلى بوجه الحصر . ففى القرى التى يقطنها المسيحيون ، مثلاً ، لم يكن من النادر ان يواصل الموظفون المسمون بالرؤساء اداء وظائفهم . وكانت صلاحياتهم تشمل حل الدعاوى الصغيرة المدنية (كان القضاء الجزائى من صلاحية الاسياد) ؛ وكذلك كان الرؤساء مسؤولين عن تحصيل الضرائب العينية فى صالح الاسياد .

وهنا وهناك ، وبخاصة فى امارة انطاكية ، بقيت وظيفة قديمة اخرى هى وظيفة القاضى الذى يقضى فى الدعاوى الصغيرة بين المسلمين . ولكن حتى النظم الاقطاعية ذاتها كانت تختلف باختلاف دول الصليبيين . ففى النظام السياسى فى امارة انطاكية النورمانية الايطالية ، مثلاً ، ظهرت آثار ملحوظة من التأثير البيزنطى (فقد كانت انطاكية حتى عام ١٠٨٤ تحت حكم بيزنطية) ، وكان تنظيمها السياسى يختلف اجمالاً عن التنظيم السياسى الذى تكون فى مملكة القدس ، اللورينية اساساً (مثلاً . فى انطاكية كانت السلطة الاميرية تنتقل بالوراثة ، بينما كان مبدأ وراثة التاج فى مملكة القدس يأتلف مع مبدأ انتخاب السلطة الملكية) . كذلك كانت ثمة فوارق معينة بين نظم مملكة القدس ونظم كونتية طرابلس ، البروفانسية من حيث قوام فئتها الحاكمة ، وما الى ذلك . ومع ذلك ، يمكن فرز ابرز خصائص النظام الاجتماعى والسياسى فى الدول الفرنجية .

وضع الفلاحين

كان الزراع يشكلون في هذه الدول السواد الاعظم من الكادحين . وكان قسم تافه جدا منهم يتألف من اولئك الزراع الاوروبيين الذين تسنى لهم مع ذلك ان يؤمنوا لانفسهم قطعة صغيرة من الارض في بلدان بعيدة . في الآونة الاولى حسن بعض منهم وضعه بالمقارنة مع ما كان عليه . ولكن سرعان ما شرع الاسياد ينتزعون منهم الفوائد الاولى ويفرضون عليهم فرائض متنوعة ومتعددة ذات طابع عينى ونقدى . ان قصر عمر دول الصليبيين ذاتها هو وحده الذى جنب الفلاحين الاقرنج العبودية التامة .

كانت اغلبية الزراع من السكان المحليين ، المختلفين على الصعيـد الاثنى ؛ كانوا من السوريين واللبنانيين وغيرهم من العرب ومن الارمن واليونانيين . وجميعهم كانوا يتكلمون بلغات مختلفة ويعتقدون اديانا مختلفة : العرب - الاسلام ؛ والارمن واليونانيون والسوريون واللبنانيون - المسيحية بمختلف اشكالها الموروثة من القرون الوسطى الاولى ؛ فقد كان فريق منهم من الارثوذكس ، والفريق الثانى من الغريغوريين ، والفريق الثالث من النسطوريين ، والفريق الرابع من الموارنة ، والنخ .

وعندما استقر الاسياد الجدد فى الاراضى المغتصبة ، المفتوحة ، حولوا الفلاحين العائشين فى القرى من مسلمين ومسيحيين الى اقنان . وقضى القادمون على آخر بقايا حرية السكان القرويين الشخصية ، ناهيك بان الوضع المادى والنظام الحقوقى للزراع ومربى المواشى والكرامين والبستانيـن فى سوريا ولبنان وفلسطين سواء كانوا مسيحيين ام مسلمين . كانا متماثلين تماما . وبالمقارنة مع الازمنة السابقة ، تلخص الفرق كله فى كون الكادحين المسيحيين (وليس فقط فى الارياف بل ايضا فى المدن) الذين كانوا يمارسون شعائرهم الدينية بلا عائق فى ظل حكم السلجوقيين ، اخذوا يواجهون انعدام الصبر عند رجال الدين الكاثوليك الذين كانوا يعتبرون جميع غير الكاثوليك انصاف هراطقة . والى النير الاجتماعى انضمت الاعباء الطائفية .

اثناء فتح سوريا ولبنان وفلسطين من قبل الصليبيين تعرضت جماهير السكان العرب فى القرى والمدن للابادة . واضطر قسم من المسلمين - الزراع والحرفيون - الى مغادرة اماكنهم الدائمة . اما الكثيرون ممن بقوا ووقعوا فى اسر الصليبيين ، فقد باعواهم عبيدا . وقد كتب فولهير من شارتر ان الصليبيين ، عندما استولوا على قيسارية ، قلما رحموا الرجال ؛ اما اولئك الذين اشفقوا عليهم ولم يقتلوهـم ، وكذلك النساء ، من حسناوات

وقبيحات ، فقد باعوههم اذ كان عليهم ان «يديروا رحى الطواحين» . وفي المدن الكبيرة قامت اسواق النخاسة ؛ ففي عكا كان تجار البندقية يشترون العبد ببيزانط واحد (بينما كان ثمن الحصان ٣ بيزانطات !) . كذلك كانت الاديرة تشتري العبيد .

وفي السنوات الاولى بالذات من تأسيس دول الافرنج ، انتشرت اعمال ضرب العبيد وشتى اعمال التعذيب والاهانة بحقهم انتشارا واسعا الى حد ان المجمع الكنسي المنعقد في نابلس سنة ١١٢٠ اقر عقوبات ضد المذنبين في التعذيب . وهذا القرار املاه في المقام الاول الخوف من احتمال غضب العبيد . وكان للقرار ما يبرره ؛ فليس من قبيل الصدفة اقام الغزاة نظاما كانوا بموجبه يشنقون العبد الذي يقتل مسيحيا ، ويحرقون العبد الذي تقتل مسيحيا ، كما كتب فولهير من شارتر . واحيانا كان بعض العبيد يفلحون في خلع سلاسل العبودية باعتناق الدين المسيحي ، فكانوا يصبحون اذ ذاك من المعتقين libertins كان وضع هؤلاء متقلقا ؛ حسب المعتقد ان يهين سيده السابق حتى يعود الى حالة العبودية بموجب «الكوتوم» اى بموجب التقاليد (العادات) الحقوقية المتناقلة من جيل الى جيل في مملكة القدس .

ولم تكن ظروف حياة الاقنان افضل بكثير من ظروف حياة العبيد . فقد كانوا يتعرضون للاستثمار القاسى من قبل اسيادهم ومن قبل السلطة المركزية . وكانت اراضيهم تعتبر ملكا للفاتحين . وكانوا يربطون الاقنان بقطع الارض التي كانوا يبيعونها ويشترونها معهم (واحيانا بمعزل عنهم) . وكانوا يفرضون على الاقنان فرائض عديدة ومتنوعة ، عينية ونقدية . وكانوا يكلفونهم ايضا بضرائب الدولة . وفي دول الافرنج (خلافا لبلدان اوروبا الغربية) ، لم تكن السخرة موضع تطبيق تقريبا ؛ وبهذا المعنى احتفظ النظام الريفى بالسماح السابقة ؛ فان الدومين (الاستثمار) الاقطاعية القائمة على كدح الاقنان ، كانت ظاهرة نادرة جدا . ولم تكن تتواجد في المعتاد الا حيث كان الاقطاعيون يملكون مزارع قصب السكر ؛ فهنا كانوا يلجأون كذلك الى السخرة ؛ ففي اراضى استثمارات ملوك القدس ، مثلا ، كان على الاقنان ان يشتغلوا في الشهر مدة تتراوح بين اربعة ايام وستة ايام .

وعلى العموم كانوا يجبون من الفلاحين المحليين شتى الجزاء والمدفوعات . وفي اغلب الاحوال كانت القرية تدفعها ، وان باسماء اخرى ، قبل الفتح ايضا ؛ فان الضريبة النقدية القديمة «المؤونة» صارت تسمى الآن «مونة» ، وضريبة «الخراج» (ضريبة الارض) صارت تسمى الآن «تراج» ، والنخ . . . وفي هذا المجال كانت تتبدى كذلك استمرارية معينة . ولكن عبء الفرائض

التي كان ينبغي تحملها في صالح الاسياد الجدد قد اشتد لأن مقدار هذه الضرائب كان رهنا بتعسف الاسياد وكان كبيرا جدا . وعدا ذلك ، كانت المدفوعات مشروطة بطابع الملكية التي تتحملها ؛ فقد كانوا يدفعون ضرائب مختلفة عن الحقل المحروث ، والمرعى ، والبستان . وان الرحالة المسلم ابن جبير ، الذي زار مملكة القدس في سنة ١١٨٤ ، قد كتب في وصف رحلاته ، بايجاز ولكن ببالح التعبير ، عن مقدار الجزاء المفروضة على الاقنان ؛ فقد كتب ان الاسياد كانوا يجبون من الاقنان قدرا من محاصيلهم يتراوح بين الثلث والنصف . كذلك كان للسيد نصيب من غلة الاشجار المثمرة واشجار الزيتون ، ولم يكن من النادر ان يبلغ نصيبه نصف محصول العنب . كذلك كان الاقنان يدفعون ضرائب الدولة (عن الاشجار المثمرة) فضلا عن شتى الرسوم (لقاء نقل المنتجات الزراعية الى اسواق المدن ، لقاء بيع هذه المنتجات ، الرسوم القضائية ، وخلافها) . وكانت ضريبة الرأس ظاهرة جديدة شديدة الوطأة على السكان الكادحين . وكما في الغرب ، منح الاسياد انفسهم هنا حقوقا احتكارية في امتلاك المعاصر ، وافران الخبز ، والمطاحن .

ولكن الاقنان لم يكونوا يتحملون ما لا عدد له من الفرائض والمدفوعات وحسب بل كانوا كذلك محرومين تماما من الحقوق ، علما بان الاسياد الغربيين لم يكونوا يقيمون اى فرق من حيث الانتماء الدينى بين السكان الخاضعين لسلطتهم ؛ فقد كانوا يعاملون المسيحيين بنفس القدر من القساوة الذى كانوا يعاملون به المسلمين ؛ وكان الفلاحون المسيحيون والفلاحون المسلمون اقنانا (فيلانين) . وقد تحدث الكاتب العربى من القرن الثانى عشر اسامة بن منقذ عن زمن حكم بوهيموند الثانى فى انطاكية (١١٢٦ - ١١٣١) وكتب يقول : «وخرج على الناس من ذلك الشيطان ابن ميمون (اي بوهيموند - المؤلف) بلايا عظيمة» * .

يزعم بعض المؤرخين البرجوازيين ان الاسياد الافرنج قد خفضوا الجزاء عن الزراع المسلمين بالمقارنة مع الجزاء التى كانوا يؤدونها من قبل . ولكن لا وجود لاية براهين موزونة نوعا ما لدعم هذا الضرب من الاستنتاجات . ولا مجال للتحدث هنا لا عن تخفيض الاستثمار الاقتصادى ولا عن عدم وجود اذلال الفلاحين الشخصى . ان العلاقات بين مالكي الاراضى والزراع كانت علاقات بين الغالبين والمغلوبين ، وبعد دفع الفرائض للسيد لم يكن يبقى للفلاح الا قدر زهيد كان بالكاد يكفي لطعام عائلته وللبنر المقبل .

* اسامة بن منقذ . «كتاب الاعتبار» ، ص ٨٢ .

نضال الاقنان ضد الاضطهاد الاقطاعي

من الطبيعي ان الاقنان ، سواء كانوا من السوريين واللبنانيين ام من غيرهم من العرب ، كانوا ينظرون الى الغزاة الاجانب نظرة عدا ، وانهم ردوا عليهم غير مرة ردا حازما . وتاريخ دول الفرنج في سوريا ولبنان وفلسطين يحفل كله بنضال الزراع المحليين ضد الاسياد الغربيين . وعن انتفاضات الكادحين يتحدث ، وان بصورة جزئية ، ناقصة ، كثيرون من مدونى الاخبار والكتاب من القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، سواء منهم اللاتين ام الشرقيون .

يفيد فولهير من شارتر الذى عاش فى مملكة القدس زهاء ٣٠ سنة ان سكان الارياض كانوا دائما الى جانب الدول والامارات الاسلامية ، حين كانت هذه تحارب الصليبيين . ولم يكن من النادر ان تستثير هزائم الاسياد فى الحروب ضد مصر او ضد الامراء السلجوقيين الاضطرابات الفلاحية . وفى سنة ١١١٣ ، مثلا ، بعد اخفاق الفرسان فى معركة سن النبره ، هاجم الزراع من منطقة السامرة مدينة نابلس واجتاحوها ونهبوها . وفى سنة ١١٢٥ ، نشبت انتفاضة فلاحية كبيرة فى منطقة بيروت وصيدا . وقد افاد فولهير بايجاز : «رفض الزراع المسلمون ان يدفعوا الاتاوى» . آنذاك لجأ سيد بيروت غوتيه الاول الى القوة . ذهب ملك القدس الى مساعدته ؛ فلاجل ضمان خضوع المسلمين لسيد بيروت ، بنيت قلعة مون غلافيان ، كسند ضد سكان الضواحي .

فى سنة ١١٣١ نشبت انتفاضة فى كونتية طرابلس ؛ وقتل السيد بوئتى الطرابلسى ، الامر الذى نوه به مدون الاخبار ، رئيس الاساقفة غليوم الصورى . وفى القرن الثالث عشر واصل مدون اخبار ثان لم يترك اسمه مؤلف غليوم الصورى «الافعال فى الاراضى ما وراء البحار» ، فتحدث عن فتنة فلاحية فى طرابلس نشبت سنة ١٢٦٦ : «فى الليل اباد الاقنان القرويون الفرسان الفرنج» .

وقد بقى من المعلومات غير المباشرة ايضا عدد لا يستهان به يدل على مبلغ ضراوة المقاومة التى ابداهها الفيلانون (الاقنان) فى وجه الاسياد ، اما برفض جنى الغلال ، واما بالهجوم مباشرة على اسيادهم وقتلهم . ومما له دلالة ان مجموعة قوانين ملك القدس بودوان الثانى (١١١٨ - ١١٣١) قد نصت على التدابير الواجب اتخاذها فى حال فتنة الاقنان . فاذا ما دعم احد اتباع السيد اقنانه المتمردين (وهذا ما كان يحدث فى احوال كثيرة جدا اذ

كان الاقطاعيون غالبا ما يتعادون) ، فقد كان من حق السيد ، كما جاء في هذه القوانين ان يحرم التابع من اقطاعه . وبموجب اصول قانونية صدرت لاحقا في مملكة القدس ، كان من حق السيد ان يلاحق الاقنان الهاربين ويعيدهم بالقوة ، علما بان هؤلاء الاقنان كانوا احيانا يؤلفون فصائل من قطاع الطرق تجوس ربوع البلد وتنكل بالافرنج المكروهين .

وفي عيون السكان المحليين لم يكن جميع الحجاج الذين يتوافدون من الغرب سوى غزاة لم يكن من المتوقع منهم فعل الخير . ولهذا كانوا يقيمون في وجوههم شتى العوائق . وفي سنة ١١١٣ زار فلسطين الراهب الهیغومن (ای رئیس الدير) الروسي دانيال وكتب عن انطباعاته من رحلته . وقد قال هذا الراهب ان «اماكن مقدسة» كثيرة كانت مستحيلة المنال على الذين «كانوا يريدون الوصول اليها بقلة (ای بعدد قليل - المؤلف)» : «الى هناك يذهب كثيرون من المسلمين ويقتلون هؤلاء في الجبال والادغال» . ودانيال نفسه لم يستطع ان يقوم بالحج بسلامه الا لانه انضم الى عساكر الملك بودوان الاول الذي شن حملة على مدينة دمشق . ويدقق الهیغومن في مذكراته قائلا ان الامير «ضمه الى عساكره» و«هكذا اجتزت تلك الاماكن الرهيبة مع عساكره بدون رهبة وبدون ضرر» . ويضيف الهیغومن : «بدون رجاله لا يستطيع احد ان يمر في هذه الطريق» .

ان مدونى الاخبار اللاتين يصورون السوريين ، على العموم ، بالوان قاتمة . ان هذا التقييم المتحيز لا يثير الدهشة ؛ فان الاقنان الذين كان الصليبيون يضطهدونهم لم يعتزموا طاعة الرأس امامهم . والمسلمون والمسيحيون سواء بسواء ، على اختلاف مللهم ونحلهم ، كانوا مفعمين بالحق على الصليبيين وعلى النظم التى اقاموها ، وكانوا مستعدين للاقدام على كل شئ لكى يجعلوا اقامة البارونات الصليبيين واتباعهم لا تطاق ولكى يجبروا هؤلاء واولئك على الرحيل عاجلا ام آجلا .

كان التوتر فى العلاقات بين الافرنج والسكان الاصليين يفتأ عيون جميع الذين زاروا مملكة القدس . وفى عهد الملك آمورى الاول (١١٦٣ - ١١٧٤) زاره حاكم قيليقيا الارمنية طوروس الثانى . وعندما تقابل طوروس الثانى مع آمورى الاول ، قال الاول للثانى ، كما كتب مدون الاخبار السورى ارنول : «فى جميع مدن بلادك ، يعيش مسلمون يعرفون جميع السبل والاسرار . واذا ما اقتحمتها العساكر الاسلامية ، ذات يوم ، فانها ستستفيد من مساعدة ونصيحة الناس البسطاء فى البلاد الذين سيساعدون المسلمين بالمأكولات وبقواهم بالذات . واذا ما حدث ومنى المسلمون بالهزيمة فان رجالك بالذات

(اي المسلمين - المؤلف) سيخفونهم في اماكن موثوقة . واذا ما انتصروا عليكم ، فانهم سيتسببون لكم بكل شر . وحتى اذا افترضنا ان هذه الكلمات لم ترد على لسان طوروس الثاني بهذا الشكل بالضبط ، فمن الواضح ان المعاصرين كانوا يدركون كل الادراك وضع الامور الفعلي في دول الافرنج .
وانها لمعبرة الاسطر التالية للراهب الدومينكاني الالمانى بورخارد الصهيونى التى تعكس مزاج السكان السوريين حيال الاسياد الغرباء : «صحيح انهم (اي السوريين - المؤلف) مسيحيون ، ولكنهم لا يصدقون اللاتين اطلاقا» . ويروى الكاتب الفرنسى من اوائل القرن الثالث عشر جاك دى فيترى ، الذى عاش في فلسطين (كان اسقف عكا) ان السوريين كانوا يفضون باسرار الصليبيين العسكرية الى المسلمين . ويلاحظ بامتعاض بالكذ يكون مستورا في كتابه «تاريخ القدس» «انهم غالبا ما يطلبون العون ضد المسيحيين من اعداء ديننا ولا يستحون من ان يبددوا لما فيه ضرر المسيحية القوى والاموال التى يجب انفاقها لمجد الرب ضد الوثنيين» .

ويحفل المؤلف البارز في الادب العربى «كتاب الاعتبار» للكاتب العربى المذكور اعلاه اسامة بن منقذ بادلة ساطعة على عداوة السكان المحليين للغزاة الصليبيين . فهو يروى ، مثلا ، انه عندما وصل مسلم تفلت من اسر الافرنج الى قرية بجوار عكا ، اخفاه سكانها «ثم اوصلوه الى بلاد الاسلام» * ، اى انهم ساعدوه على الذهاب الى ذويه . وفي احد الفصول يكتب اسامة عن شاب مسلم جمعه القدر به في نابلس : «ان امه كانت مزوجة برجل افرنجى ، فقتلته . وكان ابنها يحتال على حجاجهم ويتعاون هو وامه على قتلهم» * * .

ويتضح من قصص اسامة مبلغ عظمة الحقد الذى كان يكنه السكان المحليون للاسياد الغرباء . فان الفلاحين ، حتى العزل من السلاح ، كانوا يشتبكون مع الفرسان . وذات مرة جاء الى قريب للكاتب فلاح من محلة الجسر واضعا يده تحت رداءه ، فسألوه : ««اي شئ بيدك ؟»» قال «يا مولاي ، تقابضت انا والافرنجى وما معى عدوة ولا سيف فرميته ولكمت وجهه وعليه اللثام الزرد حتى اسكرته ، واخذت سيفه فقتلته به» * * * .

ويروى الكاتب ذاته قصة تنكيل وحشى اقترفه الافرنج بفلاح كهمل ارتابوا بانه قاد بعضا من العرامية (قطاع الطرق) المسلمين الى قرية فى

* اسامة بن منقذ : «كتاب الاعتبار» ، ص ٨٢ .

* * المصدر نفسه . ص ١٣٩ .

* * * المصدر نفسه ، ص ١٤٩ .

جوار نابلس . حاول الفلاح ان يهرب ، فقبضوا على اولاده بامر من الملك فولك دانجو (١١٣١ - ١١٤٣) . ولانتقاد العائلة اقدم الفلاح على اقصى الوسائل . عاد وقال للملك : « انصفنى ، انا ابارز الذى قال عنى انى دلت الحرامية على القرية » . فقال الملك لصاحب القرية المقتطع « احضر من يبارزه » * . ثم يصف اسامة المبارزة السخرية المنظمة عقابا للمتهم ، فقد اجبروه على مقاتلة الحداد من القرية ذاتها . « فجاء البسلند (الفيكونت - المؤلف) وهو شحنة البلد (عادة كان الفيكونتات يحاكمون فى المدن - المؤلف) واخذ كل منهما العصا والترس ، وجعل الناس حولهم حلقة والتقيا . وقد تضاربا حتى بقيا كعمود الدم » * . وهذه المبارزة القضائية التى نظمها ملك القدس والتى قصد منها بكل جلاء تخويف القرويين ، انتهت بمقتل الفلاح المتهم بالاتصال مع الحرامية ؛ وبعد ذاك رموا « على رقبة الشيخ حبلا فى الحال وسحبوه وعلقوه » . ويختتم اسامة بن منقذ قصته بصرخة غاضبة : « وهذا من جملة فقههم » (فقه الافرنج - المؤلف) « ولعنهم الله ا » * * * .

وقد بنى الصليبيون فى المناطق التى فتحوها القلاع والحصون لاجل ضمان امنهم وسلامتهم . وقد بقيت انقاضها الى اليوم . وهذه القلاع والحصون (وتشتهر بينها على الاخص كراك بلانشغارد وكراك دى مونريال وكراك دى شيفاليه) لم تكن مخافر امامية عسكرية ضد الدول الاسلامية المجاورة وحسب ، بل كان القصد منها كذلك ان تحمى الاسياد من « العدو القريب » . من غضب « حراث الحقول » المظلومين .

النظام السياسى

كان النظام السياسى فى دول الصليبيين عبارة عن تسلسل مراتبى اقطاعى من الاسياد من مختلف المراتب والمراكز ، يشبه تقريبا التسلسل القائم آنذاك فى الغرب . وكانت مملكة القدس تعتبر الاولى بين دول الصليبيين ، ولكن ملوك القدس لم يكونوا يملكون ، من حيث جوهر الامر ، اية مزايا وامتيازات بالنسبة للامراء الآخرين الثلاثة الحاكمين فى طرابلس وانطاكية والرها . وكان هؤلاء الامراء مستقلين فعلا عن الملك ، رغم انهم

* المصدر نفسه ، ص ١٣٨ .

* * المصدر نفسه ، ص ١٣٩ .

* * * المصدر نفسه ، ص ١٣٩ .

كانوا شكلًا مبروتين به برباط الخضوع والطاعة . وعملها كان الملك يشغل وضع رئيس اسمى لاعضاء متساوين فى الحقوق فى ضرب من كونفيديراسيون (اتحاد كونفيديرالى) من الدول . وكان حكام انطاكية والرها وطرابلس يملكون فى اماراتهم ودوقياتهم نفس السلطة التى كان يملكها سيدهم فى مملكة القدس .

كانت الدول الاقطاعية الرئيسية تنقسم الى وحدات اصغر من الحياة الاقطاعية - البارونيات . وكانت البارونيات تنقسم بدورها الى وحدات اصغر - هى فيودات الفرسان ، من مختلف المقاييس ، كان من الممكن ان يشمل الفيود Feod (Fief الاقطاع او الاقطاعية) بضع قرى او قرية واحدة ، او قسما منها ، ولذا كانت القرية مقسومة على بضعة اسياذ .

ففى مملكة القدس ، مثلا ، كانت ثمة اربع ممتلكات : فى شمال فلسطين ، امارة الجليل (ومركزها طبرية) ؛ فى الغرب ، بارونيات صيدا وقيسارية وبيسان ، وكذلك دوقية يافا وعسقلان (وقد تم انتزاعها من مصر فى سنة ١١٥٣) ؛ فى الجنوب بارونية كراك دى مونريال وسان ابراهام . وكان اسياذ هذه الممتلكات يعتبرون تابعين مباشرة للتاج . وكان لكل منهم اتباع بشخص مالكين اصغر نالوا منهم اقطاعاتهم مع حق التوريث : كان بارون (سيد) الرملة تابعا لدوق يافا وعسقلان ، والنخ . . . وعدا الاقطاعيين الكبار الاربعة ، كان تحت حكم الملك اكثر من عشرة اقطاعيين اصغر شأنًا هم اصحاب ارسوف واريحا والخليل وعبلين وغيرها من المحلات ومن النقاط المحصنة . وفى مملكة القدس كان بالاجمال ٢٢ سيدا . علما بان كل حيازة فى دول الصليبيين كانت عبارة عن «فيود» (اقطاع) ، وكل فارس كان تابعا . هذا التنظيم للطبقة السائدة قد تكون وتطور بقدر ما كان الاقطاعيون الغربيون يستقرون فى الشرق . فان الملك بودوان الاول ، كما يفيد البر من آخن ، طالب فى اليوم الخامس من صعوده على العرش ، بان يحلف جميع فرسان مملكة القدس يمين التبعية والولاء له ويقدموا معلومات عن اقطاعاتهم وعن ايراداتهم بما فيها المبالغ النقدية التى يدفعها سكان المدن .

ومنذ ان شرع المسلمون يزحزون الصليبيين من الاراضى المحتلة ، طرأت بعض التغيرات على وضع الفرسان . فعوضا عن الضياع او فضلا عنها شرع الملوك يمنحونهم على سبيل الاقطاع مختلف ابواب الدخل - بعضهم الحق فى جباية ضريبة السوق ، والبعض الآخر الرسوم الجمركية ، والبعض الثالث احتكار حيازة الموازين والمعايير لاجل الصفقات التجارية ، وغير ذلك . وقد جرى ، حسب تعبير الباحث الفرنسى كاين ، تحويل الاقطاعات الى عنصر من

مالية الدولة ، الامر الذى نجم بمقدار كبير عن اصابة اقتصاد القسم الشرقى من البحر الابيض المتوسط ، وتجارتها المتطورة ، وحياته المدنية المكثفة . ان الفريسيان الذين كانوا يحوزون هذه الاقطاعات النقدية (الريعية) او «اقطاعات البيزانط» كانوا يعيشون فى المدن . لم تكن مداخيلهم مرتبطة بالارض ، وكانوا بهذا المعنى فرسانا من ذوى الريع ، وليس مالكي ارض من الطراز الاقطاعى العادى .

كان ملك القدس اكبر اقطاعى . كان يملك الكنيس من الضياع والعقارات . وكانت الاملاك الملكية تمتد فى الشرق حتى نهر الاردن والبحر الميت . وعدا ذلك ، كانت بضع مدن كبيرة تخضع للملك هى القدس (الا ان البطريك كان يملك ربعها) ، ونابلس حيث كانت تقوم تجارة واسعة ولا سيما تجارة الكتان والخمر المنتجين فى السامرة وكذلك المدينتان المينائيتان المهمتان صور وعكا مع ضواحيهما ودوائرها ؛ وهناك كانوا يتعاطون زراعة القطن ، وكانت تنتصب اشجار الزيتون ، وتمتد الكروم ؛ وقرب عكا كانت تنتشر مزارع قصب السكر . وكانت الضياع والمدن تعود على الملك بمداخيل كبيرة . وفى صالح التاج كانوا يجبون مختلف الرسوم فى اسواق المدن وفى الموانئ : الرسوم الجمركية ، ضريبة المرساة (مارك فضى عن كل سفينة قادمة) ، ضريبة من الحجاج (الترسيارى - ثلث كلفة مرور الحجاج) ، وغيرها . وعلاوة على ذلك ، كان الملوك يطالبون بدفع الرسوم من قوافل التجار الشرقيين الذاهبة من القاهرة الى بغداد ، ومن دمشق الى القاهرة ومكة والمدينة . وكان الملوك يجبون جزية لا يستهان بها من الرحالة البدو فيما وراء الاردن عن حق الانتفاع بالمراعى التى انتزعها الصليبيون منهم .

ولم يأنف ملوك القدس عن القرصنة والسلب والنهب وقطع الطرق على المكشوف ، الامر الذى كان يتوافق كليا مع روح ذلك الزمن حين كان يسود حق الاقوى . ويروى اسامة بن منقذ حادثة ، امر فيها الملك بودوان الثالث (١١٤٣-١١٦٢) باعتراض السفينة التى كانت فيها عائلة الكاتب (زوجته واولاده) تمضى على متنها من مصر الى سوريا ، واغراقها غير بعيد عن عكا ، وذلك لمجرد حيازة الحمولة القيمة الموجودة فى السفينة . ويقول اسامة : «فلما دنوا من عكا والملك ، لا رحمه الله ، فيها نفذ قوما فى مركب صغير كسروا البطسة بالفؤوس واصحابى يرونهم وركب ووقف على الساحل ونهب كل ما فيه . . . » * فقطعوا (هكذا جاء فى الترجمة - المؤلف)

* اسامة بن منقذ . «كتاب الاعتبار» ، ص ٣٤ .

السفينة، ثم سيق جميع ركاب السفينة الى الساحل وتعرضنوا للتفتيش .
انتزعوا من النساء كل ما كان معهن . واخذ خدم الملك فى السفينة «حلى
اودعه النساء وكسوات وجوهر وسيوف وسلاح وذهب وفضة بنحو مئتين
ثلاثين الف دينار» * . وقد وضع الملك يده على كل هذا واعطاهم خمسمئة
دينار قائلا : «توصلوا بهذه الى بلادكم» * * . اما هم ، اى الرجال
والنساء ، كما كتب اسامة بن منقذ بغضب ، فقد كان عددهم زهاء خمسين .
ان المداخيل المحصلة باساليب شرعية وغير شرعية ، والكبيرة نسبيا
كانت تؤمن لملوك القدس تفوقا معيناً على الاسياد الآخرين - اتباع واتباع
اتباع التاج ، ولكن الاملاك الملكية اخذت تتقلص تدريجيا بقدر ما كان
يجرى توزيع اراضى التاج على الفرسان على سبيل الاقطاع ؛ ونحو اواسط
القرن الثانى عشر ، لم يكن الملك يملك فى جوار صور ، مثلاً ، سوى ثلث
الاراضى ؛ وعلى العموم ، كان اكثر من ثلثى اراضى المملكة فى حوزة الاسياد
الاقطاعيين .

كان واجب الاتباع الرئيسى تادية الخدمة العسكرية فى صالح سيدهم .
وكان من حق الملك ان يطالب بادائها فى اى وقت من السنة ؛ ذلك ان دول
الصليبيين كانت فى حالة حرب دائمة تقريبا ضد الجيران ناهيك عن ان
الوضع الداخلى كان مضطربا جدا . ولم يكن من حق التابع ان يغادر املاكه
لمدة طويلة . ففي السنوات الاولى من قيام مملكة القدس صدر قرار مفاده
ان من يترك اقطاعه بدون اذن من الملك ولا يعود اليها فى غضون سنة
واحدة ويوم واحد يفقد حقوقه فى اقطاعه (ما يسمى «اسيز» سنة واحدة
ويوم واحد) . وكان يتعين على التابع ان يستجيب لامر الملك ويأتى على
صهوة حصانه وبكامل سلاحه وعتاده القتالى . وكان ملزماً بان يجلب معه
رجالاً المسلحين ويخدم السيد (الملك) حيث وبقدر ما يقتضى الحال من
الوقت (اما فى اوربوا الغربية ، فان مدة خدمة الاتباع كانت تقتصر على ٤٠
يوماً فى السنة) .

كذلك كان من واجبات البارونات وسائر اتباع الملك الاشتراك فى
المجلس الاقطاعى - الكورية او الاسيز . وكانت الكورية الملكية تسمى
المجلس الاعلى .

الاسيز (Assise) كان محكمة اقطاعية تنظر فى دعاوى الفرسان

* اسامة بن منقذ . كتاب الاعتبار ، ص ٣٤ .

* * المصدر نفسه .

وشكاواهم . وفى الوقت ذاته كان الاسيز هيئة عسكرية سياسية تبحث قضايا الحرب والسلم والديبلوماسية وتفصل فيها . كان المجلس الاعلى يحد من سلطة الملك ويراقب اعمال الملك حيال الاتباع . وكانت الكورية تقوم بدور حافظة وحارسة للكوثوم (الاعراف والعادات) الاقطاعية . كتب الامير العربى اسامة بن منقذ فى مؤلفه «كتاب الاعتبار» : «ولا عندهم تقدمة ولا منزلة عالية الا للفرسان ، ولا عندهم ناس الا الفرسان - فهم اصحاب الراى وهم اصحاب القضاء والحكم» * . «وهذا الحكم ما يقدر الملك ولا احد من مقدمى الافرنج ان يغيره ولا ينقضه . فالفرس امر عظيم عندهم» * * .

اسيز دى جيروزالم

كان لمفهوم الاسيز فى الشرق الافرنجى معنى آخر ايضا ؛ فهكذا كانت تسمى المجموعات القضائية التى لم تكن سوى تعداد ، قائمة ، لقرارات الكورية الاقطاعية المعنية ذاتها . وقد وصل الينا اثر تاريخى شاسع يثبت قواعد الحق الاقطاعى العادى المطبق فى دولة الصليبيين الرئيسية هو اسيز دى جيروزالم («Assise de Jérusalem» ، «اسيز القدس») اى مجموعة الاحكام التشريعية التى تعتبر الزامية بالنسبة للطبقة السائدة فى هذه المملكة . وقد وردت بدون اى نظام معين وبدون اى تتابع دقيق ، ولذا كانت «اسيز دى جيروزالم» بهذا المعنى مجموعة هشة جدا من اعراف وعادات لها قوة القانون وتتناول شتى جوانب حياة الاقطاعيين الافرنج والعلاقات فيما بينهم . ولكن بقيت صيغة عن هذا الاثر موضوعة بعد حقبة طويلة جدا من الصيغة الاولى ، وتثبت بصورة معبرة جدا سمات النظام السياسى وسمات تنظيم الطبقة السائدة فى مملكة القدس فى القرن الثالث عشر ، اى عندما اخذت شمسها تميل بكل جلاء الى الغروب . اما القواعد الحقوقية القديمة التى كانت تعكس الوضع القائم فى العقود الاولى من تاريخ دول الصليبيين ، فقد ضاعت . ولكنه معلوم فقط ان «اسيز دى جيروزالم» قد سبقتها آثار تشريعية اقدم عهدا وان «الاسيز» ذاتها قد تكونت تدريجيا ، اغلب الظن ، فى سياق حقبة مديدة من الزمن . بادىء بدء ، لم يكونوا يسجلون الاعراف والعادات الاقطاعية ، وكان جيل من الفرسان ينقلها شفويا الى جيل آخر :

* اسامة بن منقذ . «كتاب الاعتبار» ، ص ٦٤ .

* * المصدر نفسه .

الآباء الى الاولاد ، الجدود الى الاحفاد . ثم شرعوا يسجلون الاعراف والعادات . وقد حدث ذلك للمرة الاولى ، اغلب الظن ، فى سنة ١١٢٠ ، عندما جمع بعضها فى مجموعة عامة ، كانت تتألف من ٢٤ فقرة او مادة ، تحدد صلاحيات الكورية الملكية . وقد حظيت الاحكام المناسبة فى هذا الصدد بمصادقة مجلس البارونات والاحبار والملك بودوان الثانى فى نابلس .

كذلك حفظ التقليد التاريخى اشارات الى القوانين والاوامر الملكية المطبقة فيما مضى ؛ فان مجموعتها ، حسب كل احتمال ، قد بقيت فى كنيسة القبر المقدس فى القدس ولذا اسميت «كتابات القبر المقدس» . ان هذه «الكتابات» ، والاصح ، هذه «الوثائق» قد ضاعت ، كما يفترضون ، عندما استعاد صلاح الدين الايوبى القدس فى سنة ١١٨٧ .

بعد الحملة الصليبية الثالثة ، احتاجت السلطة المركزية من جديد الى مجموعة ثابتة من القوانين . فحاول الملك آمرى الثانى ، بدافع روح المبادرة ، ان يبعث بمساعدة احد «الناس المطلعين» - راوول من طبرية (راوول الطبرى) - «كتابات القبر المقدس» . ولكن البارونات لم يابهوا لبعث الاعراف والعادات التى كانت تمنح السلطة الملكية امتيازات اكبر نسبيا ؛ فان راوول الطبرى الذى كان ينتمى الى طغمة البارونات ، قد رفض ان يأخذ على عاتقه امر بعث مواد المجموعة السابقة . ومع ذلك ، امكن فى حقبة سنوات ١١٩٧-١٢٠٥ البدء بتسجيل الاعراف والعادات الاقطاعية ، من جديد ، او قوينة الحق ؛ فقد وضع «كتاب لاجل الملك» ، وهو الذى يشكل اقدم قسم من الصيغة المحفوظة ل«اسيز دى جيروزالم» . وفيما بعد ، فى الخمسينيات والستينيات من القرن الثالث عشر على الأرجح ، اكتمل «كتاب لاجل الملك» بتسجيلات اخرى قام بها المشرعان المشهوران من مملكة القدس فيليب النوفارى وجان ديبيلين . فقد جمعا فى كل واحد جميع الاعراف والعادات التى كان بوسع الاسياد الاستفادة منها لاجل تحليل امتيازاتهم . وقبل ذاك بقليل ، فى الاربعينيات من القرن الثالث عشر على ما يبدو ، جرى تسجيل قواعد حقوقية مطبقة خصيصا لاجل حل النزاعات القضائية بين سكان المدن هى «كتاب اسيز مجلس سكان المدن» .

وهكذا تكونت مع مر الزمن مجموعة قوانين مملكة القدس . ولذا ترقى «اسيز دى جيروزالم» ، فى بعض اقسامها ، الى مراحل مختلفة من تاريخ الشرق اللاتينى .

وفى دول الصليبيين كان يسرى مفعول مجموعات تشريعية اخرى ؛

والواقع انه كانت توجد فى كل من هذه الدول «اسيز» خاصة بها ، ولكننا لا نملك اية معلومات تقريبا عنها .

ان «اسيز دى جيروزالم» - تعين بصورة مفصلة جدا نظام الخدمة العسكرية الاقطاعية ، وحقوق الاسياد ، وواجبات الاتباع (المقطعين) ، وتضبط العلاقات المتبادلة فيما بينهم ، وتصوغ بصورة مسهبة الشروط التى يقدم الاتباع بموجبها الخدمة العسكرية للسيد ، وتقرر الحالات التى يحق فيها للملك او لاي آخر ان يحرم التابع من اقطاعه . مثلا ، اذا انتزع السيد من التابع اقطاعه بصورة غير شرعية ، فان جميع اتباع هذا السيد الباقيين ملزمون حتما بمساعدة المنكود على استعادة املاكه . وفى وسعهم ان يمتنعوا عن اداء الخدمة العسكرية للسيد ، وان كان الملك بالذات ، ما دام قد انتهك حقوق اى من اتباعه . ولم يكن بوسع الملك ان ينتزع من التابع اقطاعه الا بحكم من الكورية . وفى بعض الظروف ، كان الاتباع يتمتعون حتى بالحق فى منع الملك من عبور املاكهم .

كان الاقطاعيون الصليبيون يحرصون كل الحرص على ان لا يتقدم منهم السيد بمطالب مفرطة ، وان لا يمس مبادرتهم . وكان على ملك القدس ان ينسق جميع اعماله مع اتباعه بالذات ؛ ولم يكن بمقدوره ان يتخذ اى قرار بدون موافقة البارونات ، مثلما لم يكن بمقدورهم هم ايضا ان يتخذوا اى قرار بدون موافقة اتباعهم .

وهذا يعنى ان وضع التجزؤ الاقطاعى قد لقي اكمل تعبير عنه او التعبير الكلاسيكى ، كما قال انجلس ، فى نظام مملكة القدس السياسى المثبت فى «اسيز» . وفى ظل هذا الوضع ، كان محكوما على السلطة الملكية بالعجز . ولكن هذا الوضع لم يصبح نموذجيا بالنسبة للبنيان السياسى فى مملكة القدس الا فى القرن الثالث عشر . اما فى العقود الاولى من تاريخ مملكة القدس ، اى عندما كان يتعين على الفرسان ان يرصوا صفوفهم فى سعيهم الى توسيع اراضى ممتلكاتهم ، فقد لوحظت بعض العلائم على توطد السلطة المركزية . وحتى فى عهد بودوان الثالث (١١٤٣-١١٦٣) ، سرى مفعول قاعدة كان فى مقدور الملك بموجبها ان ينتزع فى ١٢ حالة نص عنها القانون الاقطاع من التابع دون ان يطلب موافقة المجلس الاقطاعى . ولكن الميول من هذا النوع تطورت بصورة متناقضة ؛ وعلى العموم ، اخذت القوى النابذة تحرز الغلبة بكل وضوح نحو واسطة القرن الثانى عشر ؛ وهذه القوى كانت تجسدها الاريسستقراطية الاقطاعية الناهضة فى الربع الثانى من القرن . ومع ذلك كانت الميول الى المركزية تتبدى من حين الى آخر فيما بعد ايضا ، بقدر

ما كانت علاقات الفاتحين مع السكان المستعبدين ومبـع الدول الاسلامية المجاورة تكتسب المزيد والمزيد من التوتر ، وبقدر ما كان الصراع الاجتماعى الداخلى يتأزم ، متخذاً فى المعتاد شكل العداوة الاتنية الدينية ، ناهيك بان الحروب ضد السلجوقيين والعرب صارت اكثر فاكثر تواترا وامتدادا . وفى هذه الاحوال ، سعى المالكون الصغار والمتوسطون الى التراص حول التاج الملكى . كذلك السلطة الملكية حاولت من جهتها ان تربط الفرسان من مختلف المراتب بها بمزيد من الشدة والثبات .

وقد قامت احدى هذه المحاولات فى عهد الملك آمورى الاول . فعندما اقدم البارون المتغطرس والمستبد جيرار من صيدا (١١٦٢) ، الذى حول صيدا الى وكر للقرصنة (ومن هنا تسبب ، كما قال ميخايل السريانى ، بكثير من الضرر للمسيحيين والأتراك على السواء) على حرمان احد اتباعه من اقطاعه بدون سبب او مبرر ، عارض الفرسان قطعاً هذا التعسف الجلى . ووقف الملك آمورى الاول الى جانبهم . وفى سنة ١١٦٣ صدرت «اسيز» بصدد دورية خدمة الاتباع العسكرية» ، اعلنت الملك السيد الاعلى بالنسبة لجميع الاقطاعيين فى مملكة القدس ؛ كما ألزمت كل صاحب اقطاع من الآن وصاعداً ، ايا كان سيده المباشر ، بان يصبح تابعا مباشرة للملك وان يخضع له بوصفه السيد الاعلى . ان هذه «الاسيز» التى تشبه احكاما مماثلة اتخذت ، مثلاً ، فى عهد غليوم الفاتح فى انجلترا ، قد انتقصت كثيراً من حقوق البارونات الكبار ، ووسعت على العكس امتيازات السلطة الملكية .

وهكذا تكونت فى النظام السياسى لدول الصليبيين واخذت تفعل فعلها عناصر مركزية الدولة . ولكن خلافاً للعملية المماثلة التى تطورت فى الغرب وانتهت هناك بنشوء الملكيات الاقطاعية التى ظلت فيها السلطة الملكية تتوطد باطراد ، لم يحدث شئ من هذا القبيل فى الشرق الافرنجى ؛ فان هذه العملية قد انقطعت هنا وهيمنت فى آخر المطاف ميول الانفصالية الاقطاعية . وان «اسيز» بصدد دورية خدمة الاتباع العسكرية» قد انقلبت على السلطة الملكية فى صالح الارىستقراطية الرفيعة المقام ، مهما يكن ذلك متناقضاً . وفى الكورية الملكية التى اخذوا يدعون اليها جميع اصحاب الاقطاعات (بصرف النظر عن نوع هذه الاقطاعات) عاد التفوق عملياً الى الاعيان ، اذ ان صغار الفرسان صاروا رهناً كلياً بارادة البارونات الكبار .

كان الاسياد ضمن حدود املاكهم مستقلين تماماً . وكانت تعود اليهم السلطة القضائية العليا ، وكانوا يحاكمون وينقلدون الاحكام ، وكان لهم الحق فى اعلان الحرب وعقد الصلح ، وكان كثيرون يملكون الحق حتى فى

سك تقود خاصة بهم . وكان الوضع العام فى دول الصليبيين لا يلائم تطور الميول المركزية تطورا كاملا نوعا ما ؛ وفى القرن الثالث عشر ، عندما اخذت ممتلكات الاسياد الغربيين فى الشرق تتقلص تدريجيا ، اندثرت هذه الميول نهائيا .

ان المخاصمات الدائمة بين الاقطاعيين المتنافسين ، والخلافات بين الاتباع والاسياد ، والفتن الاقطاعية ضد الملوك ، والصراع من اجل السلطة الذى كانت ترافقه المؤامرات والذى كانت تخوضه الزمر والتكتلات من البلاط الملكى - تلك هى السمات المميزة للحياة السياسية فى دول الفرنج . ولم تتوقف المؤامرات حتى فى الازمان المشؤومة على وجود هذه الدول . فحين تلبدت فوق مملكة القدس غيوم العاصفة - فان دولة صلاح الدين الايوبى المصرية اخذت فى اوائل الثمانينيات من القرن الثانى عشر تهدد سيادة الصليبيين فى الشرق اكثر فاكتر - احتدمت نيران العداوة الحادة بين حزبين اقطاعيين بكل قوة . احد الحزبين ترأسته والده الملك بودوان الرابع الضعيف الصحة والارادة اغنيس دى كورتينه (التي سبق لها ان غيرت ازواجها اربع مرات) واخوها السينيشال (وزير العدالة) جوسلين الثالث ؛ والحزب الآخر ترأسه ريمون الطرابلسى .

وفى تلك السنوات على وجه الضبط ، اخذت ترتفع بسرعة فى مملكة القدس اسهم البارون غى دى لوزينيان (Lusignan) الذى وصل مؤخرا من بواتو . وقد حظى بحماية الملكة الام ، وتزوج فى سنة ١١٨٠ من اخى الملك بودوان الرابع سيبيل المترملة ؛ وبالاغتماد على علاقات القربى التى اكتسبها عن هذا السبيل ، شرع يشق لنفسه طريقا الى التاج الملكى . الا ان مطامعه اصطدمت بمقاومة البارونات من قدماء السكان ؛ فقد اقتحمت قوات ريمون الطرابلسى وحليفه بوهيموند الثالث ، امير انطاكية ، حدود مملكة القدس . وقد حظى كونت طرابلس بمساندة اسياد بارزين من عداد اخلاف الذين قدموا من زمان وترسخت اقدامهم فى القسم الشرقى من البحر الابيض المتوسط - بودوان من الرملة ، باليان ديبيلين ، رينه من صيدا ، وكثيرين آخرين . وفى هذه الاثناء كانت مملكة القدس تمنى بالفشل اثار الفشل فى الحروب ضد المسلمين . وتهيج الملك بودوان الرابع من الخسائر التى كانوا يعتبرون غى دى لوزينيان مسؤولا عنها ، علما بانه كان قد توصل الى منصب وصى المملكة (بايلى baili المملكة) ، فعين فى هذا المنصب ريمون كونت طرابلس . ومنحه بيروت علاوة على ممتلكاته . وبعد هذا ،

تفجرت العداوة بين الحزبين الاقطاعيين من جديد بكل قوة . وقد جرت هذه الحوادث فى السنوات التى كان يتقرر فيها مصير مملكة القدس بالذات ؛ فقد صارت ايامها معدودة من حيث جوهر الامر ، ولكن هذا لم يحل دون مشاحنات الحاشية الملكية .

التجارة

كان غياب علاقات اقتصادية متينة ودائمة نوعا ما بين دول الصليبيين ، وكذلك فى قلب كل منها من الاسباب التى حالت دون التمرکز السياسى . ولقد لعبت التجارة دورا كبيرا فى بنيان مملكة القدس الاقتصادى ، ولكن هذه التجارة كانت بصورة رئيسية اما تجارة مع اوروبا الغربية ، واما تجارة مع «الهيترلند» (القسم الداخلى من البلد) الاسلامى . وكانت على الاغلب فى ايدى التجار من ايطاليا ومن بروفانس - من البندقية وجنوه ويزا وانكون واما لفي ومرسيليا .

وفى حينه قدم هؤلاء التجار (وظلوا يقدمون فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر) للفرسان الصليبيين خدمات لا يستهان بها مزودينهم بالسلاح والمؤن وآليات الحصار ، وناقلين المدد بالرجال . وجميع هذه الخدمات تقاضوا عنها اجورا ممتازة . ونال التجار الغربيون فى المدن المينائية فى سوريا ولبنان وفلسطين حقوقا وامتيازات واسعة جدا .

وهذه الحقوق والامتيازات كانت من انواع ثلاثة . كان لبعض منها طابع اقليمى : فان التجار الايطاليين وغيرهم من التجار الاوروبيين كانوا ينالون فى المدن الساحلية احياء فيها بيوت سكنية ومستودعات ، وفيها حتما مسبح وحمام وفرن وكنيسة ، وسوق بالطبع . وكانت الفئة الثانية من الامتيازات من الميدان الحقوقى الصرف ، وكانت جوهرية جدا بالنسبة للذين يعقدون الصفقات التجارية بدأب وانتظام . وكانت الامتيازات من هذه الفئة الثانية ، عبارة عن استثناءات متنوعة من النظام القانونى المحلى . فان التاجر او الحرفى من جنوه ، مثلا ، اذا اقام فى الشرق ، فى حى مخصص للقادمين من هذه المدينة ، جنوه ، لم يكن من الممكن محاكمته الا بموجب قوانين جمهوريته ، والا من قبل قنصله . وفضلا عن ذلك ، كان كل من سكان هذا الحى يخضع على العموم لفعل قوانين جنوه . ومن حيث جوهر الامر ، كان التجار يتمتعون فى الموالي التى يختارونها بحقوق الحصانة ، سواء كانوا من جنوه او ييزا او البندقية ، وبقدس اقل « من مرسيليا او برشلونة ، والنح . .

ان مقامات التجار الايطاليين المميزة ، القائمة عادة اشبه بنصف دائرة في جوار الميناء ، كانت تشغل احيانا زهاء ثلث ارض المدينة . وقد غدت نقاط ارتكاز للعلاقات التجارية بين الغرب والمشرق (بالفرنسية Levant) . من البندقية وجنوه وبيزا ، من مرسيليا ومونبيليه ، من سواحل بريطانيا المضبة وبرشلونة المشمسة ، كانت الاساطيل الصغيرة من سفن التجار تتجهز في القرنين الثاني عشر والثالث عشر وتنطلق بانتظام الى الشرق . كانوا يشحنونها بشتى البضائع ، ولاسيما الطحين (لأن الحبوب من الانتاج المحلي لم تكن تكفى في دول الصليبيين) ؛ كذلك كانوا يشحنون خشب البناء والمعادن (النحاس والقصدير من انجلترا) ، والجلود والجوخ (من مدن فرنسا الجنوبية) والخيول ، واخيرا ، البضاعة الحية اى العبيد ؛ وكان تجار البندقية في المقام الاول موردي هذه البضاعة .

وفي عكا ويافا وصور وصيدا وبيروت كان التجار الغربيون يبيعون ما جلبوه ويملاون سفنهم الشراعية المجدافية ببضائع جديدة كانوا يمضون احيانا ، سعيا وراءها ، الى اعماق المناطق الاسلامية ، الى الاسواق المحلية . وكانوا ينقلون الى اوروبا البضائع المشتراة في مدن المشرق البحرية او في مراكز ابعد للتجارة الاسلامية ؛ كانوا ينقلون الاقمشة الحريرية والقطنية من صنع الحرفيين السوريين المهرة ، والسلال بالفواكه ، وجوز الطيب ، واكياس سكر قصب السكر ، وقرب ويزافيل الخمور ؛ كذلك كان الغرب يتلقى من المشرق الحرير الخام ، وبالات القطن من آسيا الداخلية ، والمسك من التيب ، والزجاج المصري ، والمصنوعات الزجاجية والاصباغ والتوابل من الهند (الفلل ، البهار ، القرفة) ، والصمغ الشجري ، والبخور والعنبر من الجزيرة العربية ، واللؤلؤ والحجارة الكريمة ، والغاج من بلدان افريقيا . وكل هذا وكثير غيره كان يتم تضريفه في الاسواق الاوروبية الغربية بكسب كبير .

كانت التجارة تدر ارباها كبيرة جدا وكان يتعاطاها في المقام الاول التجار من ايطاليا الشمالية . وغلاوة على الامتيازات الاقليمية والحقوقية ، كانوا يملكون شتى الامتيازات ذات الطابع التجاري والمالي والضرائبي ، وقد بقيت الى ايامنا كثرة من الموائيق (الشهادات ، الوثائق) التي منح بموجبها الملوك والامراء والاسياد الكبار والمتوسطون ، الحاكمون في هذه او تلك من مدن القسم الشرقي من البحر الابيض المتوسط ، التجار الغرباء هذه الامتيازات ، رغبة في تطوير نشاطهم العملي في ممتلكاتهم ؛ وقد كانت للحكام الاقطاعيين في تعزيز النشاط التجاري مصلحة خيوية ، اذ ان العمليات

التجارية كانت تعود بدخل ما على خزائهم . مثلا . بقيت موثيق تخفض رسوم التصدير والاستيراد في المراسى وفي الاسواق داخل المدن : في صالح تجار بيزا في يافا ؛ في صالح تجار البندقية واما في بيزا في انطاكية ؛ والنخ .

وعادة لم تكن الامتيازات التجارية الممنوحة للتجار تعنى الاعفاء التام من دفع اية ضرائب على العموم ، رغم ان حالات من هذا النوع قد حدثت . ولكن الامتيازات التجارية كانت تنحصر في الاعفاء الجزئى من الرسوم التجارية . فان جان ديبيلين ، سيد بيروت ، مثلا ، اعفى في احدى وثائق المنح تجار جنوه من رسم المرفأ ، ولكنه الزمهم بدفع الرسوم عند بيع وشراء الخمر والحبوب والآنية . واحيانا كانت تجبى رسوم خاصة على تجارة الخيل والعبيد . واحيانا كانوا يعفون التجار من دفع الرسوم عند بيع البضاعة ، ولكنهم كانوا يجبون الرسوم عند شرائها او العكس بالعكس .

كان حق التجار في ان يستعملوا في الشرق المقاييس ووحدة الوزن المستعملة في مدنهم امتيازا تجاريا مهما ؛ وامتيازا كهذا نال تجار البندقية في عكا سنة ١١٢٣ . وهذه الامتيازات ، مثل جميع الامتيازات الاخرى ، كانت تمنح بصور مختلفة ، وكانت تلازمها درجات متنوعة . مثلا . كان بوسع تجار بيزا ان يستعملوا المقاييس والموازين المستعملة في مدينتهم ، ايا كان الذين يتاجرون معهم ، بينما لم يكن يحق للتجار من بروفانس ان يستعملوا مقاييس وموازين موطنهم الا حين كانوا يعقدون صفقات مع ابناء موطنهم ، والسفح . . وفي المدن البحرية كان يعمل موظفون مختصون ومؤسسات خاصة لتحصيل الرسوم التجارية في المرافى وفي الاسواق . ولم يكن من النادر ان تسد سلسلة (يرفعونها وينزلونها عند الاقتضاء) مدخل المرفأ . ولهذا السبب كانت هذه المؤسسات (وكانت تقوم كذلك بفض الدعاوى بصدد تحصيل رسوم المرفأ ، وبحل النزاعات بسبب الارصفة ، وغير ذلك من القضايا البحرية) تسمى «مجالس السلسلة» . وفي عهد الملك آمورى الاول ، انشئت مؤسسة خاصة ، هي غرفة السوق ، التي احيلت اليها مع مر الزمن الوظائف القضائية حيال سكان المدينة من دين آخر . ونادرا ما كانت تحال الرقابة على تحصيل الرسوم التجارية في المرفأ او في السوق الى ادارة (قنصل) الحى المتمتع بالحصانة ؛ وبمثل هذا الحق كان يتمتع تجار بيزا في عكا .

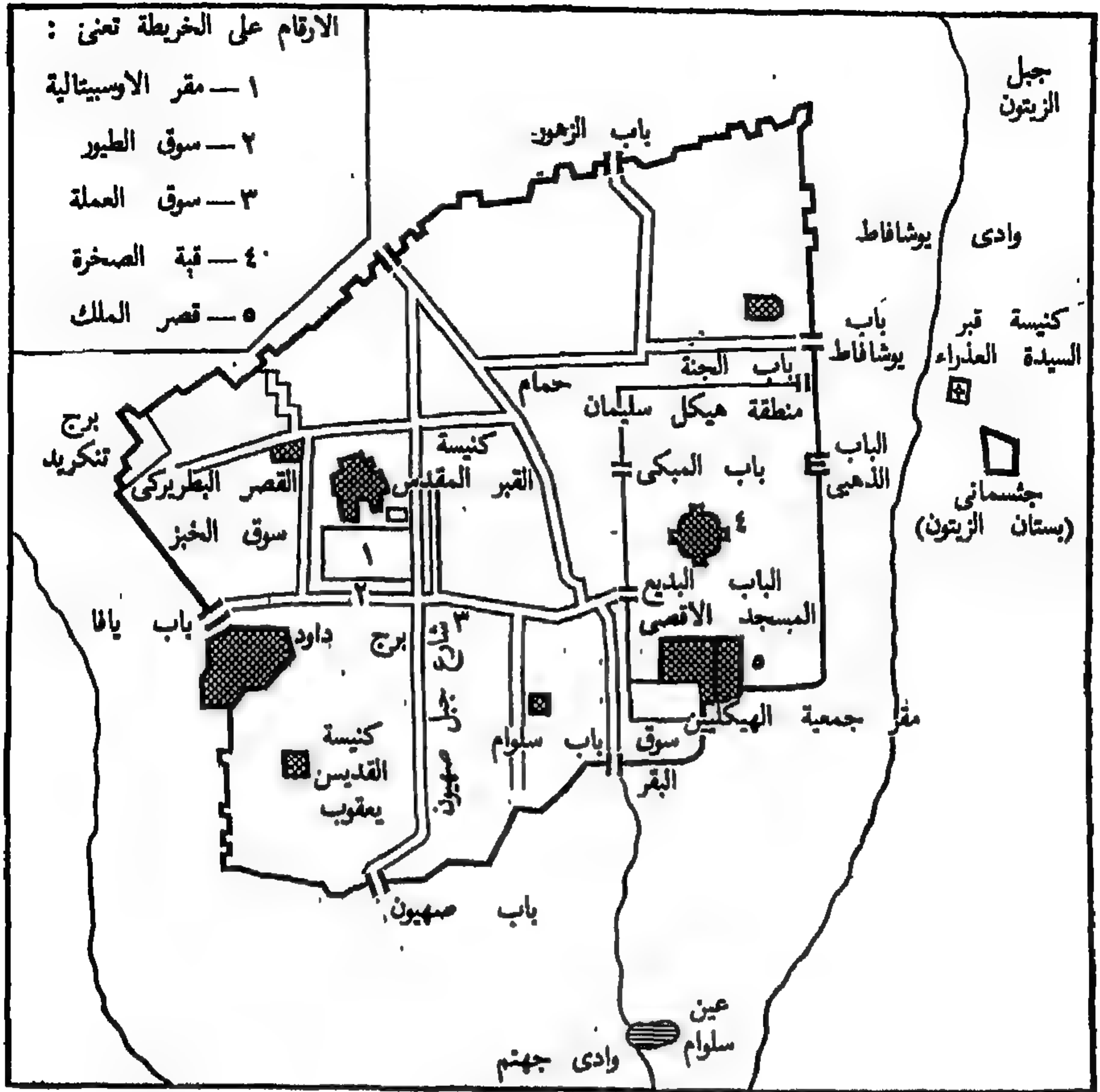
ومهما يكن من امر ، لم تسفر التجارة المنتعشة الجارية في مدن الشرق اللاتينى البحرية عن المقدمات الاقتصادية اللازمة لاجل توطيدها سياسيا ؛

فان هذه التجارة كانت موجهة الى الخارج ، صوب الاسواق الخارجية ، وكانت عمليا تجارة الوساطة ، علما بان التجار من ايطاليا ومن فرنسا الجنوبية كانوا ينافسون بعضهم بعضا مباشرة . واحيانا كانوا يشنون بعضهم على بعض حروبا ضارية ويجتذبون اليها الاسياد الاقطاعيين . وفي زمن حرب من هذه الحروب ، شنها تجار جنوة في اواسط القرن الثالث عشر ، تدمر نصف مدينة عكا ، وهلك فيها زهاء ٢٠ الف نسمة . وفي مثل هذه الاحوال لم يكن من الممكن ان تتطور المركزية السياسية بصورة ثابتة ومستقرة الى هذا الحد او ذاك ؛ اذ لم يكن لها اساس اقتصادى .

الكنائس والاديرة

كانت الكنيسة تشغل مكانا خاصا فى دول الصليبيين . ففي مملكة القدس انشئت خمس ابرشيات وتسع اسقفيات ، كما انشئت اديرة عديدة . ونالت الكنيسة ، مكافأة على اشتراكها فى الحملة الصليبية ، نصيبا لا يستهان به من الاراضى ؛ فقد انتقلت الى الاحبار الكاثوليك الاملاك التى كانت تخص من قبل رجال الدين المسلمين ، وكذلك جزئيا الاملاك التى كانت تخص الكنائس المسيحية ، بما فيها كنيسة الروم الارثوذكس . وكان بعض من الاملاك الكنسية لا يقل من حيث المقاييس عن املاك الامراء الزميين . فان ابرشية الناصرة ، مثلا ، كانت تملك فى القرن الثالث عشر زهاء عشرين ضيعة وعقارا . وكان بطاركة اورشليم (القدس) واكليروس كنيسة القبر المقدس يملكون عقارات شاسعة .

واصبح كبار رجال الدين الكاثوليك قسما نافذا من الاقطاعيين فى الشرق . وكان الاساقفة يتصرفون فى املاكهم مثل الاسياد المطلقى السلطة ، مثل الدوقات والبارونات . بل ان الفرسان كانوا اتباع بعض الاساقفة (مثلا . كان لدى اسقف اللد عشرة فرسان من الاتباع) ، وكان الاسياد الدنيويون الذين لهم مصلحة فى مساندة الكنيسة ، يهبونها الاراضى والاموال المنقولة . ناهيك بان رجال الكنيسة انفسهم كانوا يغتنمون كل فرصة سانحة لكى يضعوا ايديهم على اكبر عدد ممكن من الاقطاعات ، وبخاصة اقطاعات الفرسان الذين كانوا لا يعارضون فى الحصول على النقد الرنان عوضا عن العقارات . وقد اضطر ملوك القدس حتى الى اتخاذ الاجراءات لتبريد مشاعر الجشع والطمع الحارة عند خدم الرب ؛ فقد منعوا مؤسسات الكنيسة من امتلاك



القدس تحت حكم الصليبيين

الاقطاعات ، ومنعوا الفرنسيان من الذهب ، لان عمليات البيع والشراء كانت تتم احيانا بهذا النحر .

وكانت ايرادات مؤسسات الكنيسة من ضريبة العشر كبيرة جدا . هذه الضريبة كانت مجهولة في بلدان القسم الشرقى من البحر الابيض المتوسط ، وقد ادخلوها في مصلحة الكنيسة حصرا . وحيانا كان الملوك والبارونات يختصمون حق الكنيسة في ضريبة العشر فكانت تنشب بالتالى نزاعات عاصفة بين مالكي الاراضى المدنيين والكنسيين . كذلك كان الملوك والامراء يجهدون

لبتر الابواب الاخرى من مداخل كبار رجال الدين ؛ ففي سنة ١١٠١ ، مثلا ، طلب بودوان الاول من البطريرك بان يتنازل للخزينة عن نصيب من الايرادات التى كانت تتوارد على البطريركية من الحجاج . وغالبا ما كان طواغيت الكنيسة انفسهم يتخاصمون فيما بينهم بسبب اى ضرب من المداخل . وقد بقى عدد لا يستهان به من المعلومات ، سواء فى الوثائق ام فى قصص مدونى الاخبار ، عن ضخامة اموال المؤسسات الكنسية . كتب المؤرخ العربى ابن الاثير ان الله وحده كان قادرا على تقييم كنوز بطريرك القدس . كذلك كانت الاديرة تملك قيما كبيرة ، ومنها دير صهيون ، ودير يوشافاط .

حاولت الباباوية ان تفرض رقابتها على الممتلكات الجديدة للكنيسة الكاثوليكية . وكان ممثلو الكرسي الرسولى يتوافدون سنويا تقريبا الى الارض المقدسة . وكان الباباوات يتدخلون بواسطة رسلهم فى انتخابات البطاركة ، رغم ان هذا الحق كان يعود شكلا وصراحة بكليته الى رجال الدين والبارونات فى مملكة القدس . واحيانا كانت الظروف تتطور بحيث ان بضعة اشخاص كانوا يترشحون فى الوقت نفسه الى كرسي البطريركية . وفى هذه الاحوال كان ممثلو الكرسي الرسولى يحاولون تمرير وانجاح المرشح الذى يناسب روما . ان بطريرك القدس الاول ، دايمبرت من بيزا (١٠٩٩-١١٠٢) الذى اختلف مع بودوان الاول ، قد اقبل واعيد الى منصبه اربع مرات . وهذا يعنى ان الباباوات ، فى سعيهم الى توطيد مواقع الكنيسة الرومانية فى ممتلكاتها الجديدة كانوا يحرصون بلا كلل على مراعاة مصالح نواب القديس بطرس فى الارض .

اسباب ضعف مملكة القدس اللاتينية

لم تكن سيادة الفاتحين الغربيين فى الشرق مكينة ، فقد كانت دولهم عبارة عن امارات صغيرة ، ضعيفة الترابط فيما بينها ؛ وكانت تمتد شريطا ضيقا بمحاذاة ساحل القسم الشرقى من البحر الابيض المتوسط وكانت موزعة فى رقعة كبيرة من الارض ، فقد كانت انطاكية تبعد اكثر من ٣٠٠ كم عن القدس ، والرها زهاء ٢٠٠ كم عن انطاكية . وكانت الحدود الشرقية لهذه الدول (وهذه الحدود كانت تتغير على الدوام) تمتد عموما اكثر من السبعمائة كيلومتر . ثم ان الصليبيين انفسهم كانوا يعيشون بصورة رئيسية فى المدن وفى القصور المحصنة ، اذ لم يكونوا يشعرون بانهم فى امان . وحتى قرب

القرى الصغيرة مثل البيرة فى ضواحي القدس او دبورية عند قدم جبل الطور (ثابور) اقتضى الحال بناء ابراج وغير ذلك من التحصينات . وكانت عرى التبعية الواهية الاساس الوحيد الذى يجمع الاقطاعيين المحليين بالسلطة المركزية . وفى عهد الملك آمورى الاول ، توقف نمو عدد الاقطاعات - العقارات ، بسبب قلة الارض . ومن هنا محدودية الموارد لاجل ازدياد صفوف الفرسان وضعف فرق الفرسان بالذات فى دول الصليبيين .

كانت مصر تهدد مملكة القدس من الجنوب . وكان يتعين صد هجوم المصريين كل سنة تقريبا سواء من البر ام من البحر . ولم تكن ثمة مدينة ساحلية لم تهاجمها السفن المصرية ، واحيانا بنجاح . وغير مرة حاول الصليبيون ان يستولوا على مصر . وفى سنة ١١٠٤ تنازل الملك بودوان الاول لحكام جنوه عن ثلث «بابل» (القاهرة) وذلك لان ملك القدس كان واثقا كل الثقة فى انتصاره على مصر ، الا ان هذا الانتصار لم يتحقق يوما . ولم يتحقق بعض النجاح فى هذا الاتجاه الا فى اواسط القرن الثانى عشر ؛ وفى سنة ١١٥٣ ، احتل الصليبيون عسقلان . وفى الستينيات قام الملك آمورى الاول بعدد من المحاولات لفتح وادى النيل ولكنه لم يستطع ان يحرز اية نجاحات طويلة الامد نوعا ما حتى ضد مصر المستضعفة فى ذلك الزمن . احيانا فقط ، كان الصليبيون يتفوقون فى تحصيل غنيمة غنية ، وابتزاز جزية من الحكام المصريين ، ونيل امتيازات تجارية . وفى سنة ١١٦٧ احتلت قوات آمورى الاول الاسكندرية بالذات ، ورفعت الراية الملكية على منارة فاروس ، ولكن سرعان ما اضطرت الى مغادرة الاسكندرية . من جهة الصحراء السورية ، كانت فصائل الاتابكة والامراء السلجوقيين تشن الغارات على دول الصليبيين . صحيح انه بنيت على الحدود قلاع جبارة مثل «صخرة الصحراء» ولكنها لم تكن قادرة على حماية امارات الافرنج كليا ، وبخاصة منها الامارات الشمالية ، من هذه الغارات الحازمة ، والمفاجئة احيانا . ومرارا عديدة بذل الصليبيون الجهود لامتلاك المدينتين السوريتين الكبيرتين دمشق وحلب ، ولكن جميع جهودهم باءت بالفشل .

كان الغزاة الغربيون يعادون بعضهم بعضا ايدا ودائما . وكان تقسيم الغنيمة وتوزيع الاقطاعات والوظائف يوفران الذرائع لمخاصمات لا نهاية لها بين الصليبيين من جميع الاجيال . وفى عهد تأسيس السيادة اللاتينية فى الشرق ، كانت وحدة الاهداف الدينية ، وان تكن وحدة سطحية ، تربط البارونات فيما بينهم نوعا ما ؛ اما فيما بعد ، فقد اخلت هذه الوحدة المكان لتناقضات بين مصالح الغزاة الفعلية اخلت تتفاقم يوما بعد يوم . فان

الاعتبارات المتعلقة بالمنافع السياسية او العسكرية او الاقتصادية كانت دائما تتغلب على الدوافع الدينية . ولذا كان الامراء الافرنج والامراء المسلمون - كما يقول المؤرخ الاميركى فينك - ينسون بسرعة عدواتهم المتبادلة ويصبحون حلفاء اذا اقتضت ذلك المصالح الدبلوماسية والعسكرية . صحيح ان علاقات الصداقة بين الافرنج والمسلمين لم تكن تدوم هي ايضا زمنا طويلا . ان الهدوء الذى كان يجرى فى اثنائه تبادل الاسرى وتقام فيه العلاقات الدبلوماسية ، ويتبادل فيه البارونات والامراء الزيارات ويتبارون فيه بالاعراب عن الاداب والمجاملات الفروسية ، كان فى المعتاد ينقطع بسرعة ، وكانت الحرب تفصل من جديد بين الذين كانوا منذ امد قريب حلفاء او اصدقاء . ويروى اسامة بن منقذ ان اميرا وصل الى الحج واقام فى بلاط الملك فولك ، «فانس بى وصار ملازىمى يدعونى «اخى» وبيننا المودة والمعاشرة» * . ولكن حين اقترح الاجنبى على الكاتب ان يرسل ابنه المحبوب مرهف الى اوروبا - «ليبصر الفرسان ويتعلم العقل والفروسية» - رفض اسامة قطعا . وكتب : «فطرق سمعى كلام ما يخرج من انس عاقل . فان ابنى لو أسر ما بلغ به الاسر اكثر من رواحه الى بلاد الافرنج» * * .

كانت العلاقات بين القادمين الغرباء والاعيان المحليين مفعمة اجمالا بالاحذر وعدم الثقة . وصار الاقطاعيون الشرقيون الذين كان اخلاف الصليبيين الاوائل يتقربون منهم احيانا يحتقرون دائما من صميم الروح الافرنج المتغطرسين والمتصلفين . وكان الافرنج يبدوون فى عيونهم برابرة وهمجيين . وكان اسامة بن منقذ ، وهو من اعلم اهل زمانه ، ومحج كبير للكتب (كانت مكتبته تحتوى ٤ آلاف مجلد ، وعندما ضاعت جميع امواله بسبب الافرنج ، تحسر ، اكثر ما تحسر ، على ضياع المكتبة ، وكتب ان هذا بالذات سيبقى جرحا فى قلبه طوال حياته كلها) ، يرى فى الافرنج «بهائم فيهم فضيلة الشجاعة والقتال لا غير ، كما فى البهائم فضيلة القوة والحمل» * * * .

كانت الطبقة السائدة فى دول الصليبيين صغيرة جدا من حيث التعداد . فتحت قيادة ملوك القدس ، كما يتبين من الوثائق ، لم يتجمع يوما اكثر من

* اسامة بن منقذ . «كتاب الاعتبار» ، ص ١٣٢ ..

* * المصدر نفسه .

* * * المصدر نفسه .

٦٠٠-٧٠٠ فارس (من اتباع واتباع اتباع) ، اما في المعتاد ، فكان يتقدم للخدمة عندهم عدد من المحاربين اقل بكثير . ان عدد افراد قوات بودوان الاول لم يكن يزيد على ٢٠٠-٢٥٠ فردا ، وكانت حامية مدينة متوسطة تضم ٣٠-٨٠ فارسا . وحتى في حال «التعبئة العامة» للاتين القادرين على حمل السلاح ، لم يكن بوسع المملكة ان تجند اكثر من الفى فارس ثقيلى السلاح و٢٠ الفا من الرماة الخفيفى. السلاح . وكانت الاوساط العليا المميزة في الشرق اللاتينى تعيش بين السكان المحليين المعادين ، فضلا عن انهم اكثر تعدادا بكثير من الافرنج ، وكانت اشبه بمعسكر يطوقه ، ويحاصره العدو على الدوام . ونحو اواخر الثمانينيات من القرن الثانى عشر ، كان عدد المستعمرين الافرنج المقيمين في المدن والقلاع ، كما حسب المؤرخون ، لا يربو على ١٠٠-١٢٠ الفا . وكانت قوى الاتباع وحدهم لا تكفى في آن واحد لابقاء هؤلاء السكان في حالة الخضوع ولصد هجمات الجيران المسلمين .

الحجاج الجدد وخدمتهم

حاول الملوك والامراء ان يسدوا النقص في مواردهم القتالية بان يضموا الى الفرسان الاتباع المرتزقة من عداد اولئك الحجاج الذين اخذوا يتكاثرون في الارض المقدسة بعد الحملة الصليبية الاولى دون ان يكون لاغلبيتهم نية في البقاء هناك الى الابد . كان الملك يدفع للفارس الحاج مبلغا كبيرا (حسب معطيات اقرب عهدنا الينا ، ٤٠٠-٥٠٠ بيزانط في السنة اى اكثر مما تعود به اقطاع متوسطة من قريتين على صاحبها) . ولكن الفرسان الحجاج لم يزدوا كثيرا من القدرة الدفاعية لدول الافرنج . فان هؤلاء الفرسان كانوا يبقون في فلسطين حقبة قصيرة .

كان عدم استقرار السكان الكاثوليك سمة مميزة من سمات الحياة الاجتماعية في دول الصليبيين : وفي العقود الاولى من القرن الثانى عشر ، ظل الفقراء والفرسان ينطلقون من الغرب الى الشرق بحثا عن الاراضى والغنائم . وان المصير الفاجع الذى لقيه الفلاحون الصليبيون تحت قيادة بطرس الناسك وجموع الفلاحين والفرسان سنة ١١٠١ لم يشبط عزم المغامرين الاقطاعيين تاهيك بان وضع الزراع الشاق في اوروبا كان يدفعهم كما من قبل الى درب الرب . وكل سنة ، قبل الفصح وفي اواخر الصيف ، كانت سفن تجار البندقية وبيزا وامالفي ومرسيليا تنقل الى المدن البحرية في دول الافرنج دفعات من الحجاج من فرنسا الجنوبية وايطاليا والمانييا

والفلاندر . وعلى اكتاف الحجاج كان يظهر صليب مخيط ، ولكن الحجاج كانوا يضمنون باغلبيتهم الساحقة الى فلسطين ، لا للصلاة فى كنيسة القبر المقدس وحسب ، ولا للاستحمام فى مياه نهر الاردن وحمل غصن من النخيل من على ضفتيه الى الوطن وحسب . فقد كان بعضهم ، اكثرهم دهاء يأخذون فى الطريق بضائع مختلفة لكى يصرفوها فى الاماكن المقدسة ويعوضوا بالتالى نفقات السفر (ومن الشرق كانوا ينقلون كذلك البضائع التى اشتروها لكى يبيعوها بربح فى الوطن) . وكان آخرون يركبون فارغى الايدى تقريبا فى سفن الايطاليين والبروفانسيين الرحبة ولكنهم كانوا يعللون انفسهم سرا بأمل الاثراء فى البلدان الشرقية بكل وسيلة واسلوب .

وبين الحجاج كان ثمة عدد لا يستهان به ممن ضلوا السبيل فى الحياة . فان الكنيسة الكاثوليكية ، ابداء «للرحمة» المسيحية ، كانت تستعيض احيانا عن اعدام الذين اقترفوا الجرائم الجنائية بالحج الى القدس : فلينهبوا ويقتلوا هناك ، فى ارض الميعاد ، فى صالح الكشركة ، ذلك كان مكنون هذه «الرحمة» الحقيقى . واذا «الذى فعل شرا ما» - كما كتب المؤرخ الالماني بورخاردت الذى زار الاماكن المقدسة فى سنة ١٢٨٢ - «القاتل ، الناهب ، اللص ، الحائن يمينه - يضى الى ما وراء البحار ، الى الشرق ، بحجة غسل الجريمة ، ولكن فى الواقع كان البقاء فى الوطن يعرضه لخطر الانتقام . كانوا يندفعون الى هناك من جميع الانحاء ، ولكنهم كانوا لا يغيرون سوى السماء التى يعيشون تحتها ، وليس الاخلاق والعادات . وبعد اتفاق اموالهم ، يشرعون فى اقتراف افعال اكثر شرا مما كانوا يفعلونه من قبل» . وبالروح نفسها تقريبا يصف جاك دى فيتري هؤلاء الحجاج ، فهو يذكر ايضا بينهم اللصوص والقتلة والقراصنة والسكارى والمقامرين ، والرهبان والراهبات الفارين ، والضالات ، والنح . ومن هؤلاء «القديسين» كانت تتشكل بقدر كبير الامدادات التى كانت ترسلها الكنيسة الكاثوليكية الرومانية الى دول الصليبيين .

ان الحجاج القادمين حديثا كانوا يعودون بعد فترة قصيرة الى اوروبا . وكان الفرسان الذين استقروا من قبل فى الشرق ينظرون بنفور سافر وعداء مكشوف الى الباحثين عن الابتزاز هؤلاء . كانت الاستفادة من مساعدهتهم ضد السلاجوقيين او ضد المصريين شىء ، اما السماح لهم بالاغتراف زمنا طويلا من مصدر الاثراء - نهب السكان - قشياً آخر . وكانوا بنظر قدماء المقيمين عناصر غير مرغوب فيها . وعن هذه الامزجة كتب بصورة معبرة مؤلف «مواضل» حوليات سان بليز» المجهول : كان الافرنج يخافون من شجاعة اللاتين القادمين

من الغرب اشد مما يخافون من غدر الوثنيين ، ولذا كانوا يحاولون ان يكونوا البادئين فى اقامة اكثر ما يمكن من العوائق .

وغالبا ما كان يحدث ان تنتهى بلا جدوى الحروب ضد السلجوقيين التى كان يشنها الفرسان الصليبيون مع الحجاج القادمين حديثا الى نجدتهم وذلك لسبب واحد : بينما كان الحجاج يعازكون «الانجاس» ، كان حلفاؤهم يتسرعون ، دون انتظار لمآل المعركة ، وبعد نصف انتصار ، الى عقد الصلح مع العدو .

«فرسان المسيح الفقراء»

توطيدا لوضع دول الصليبيين من الداخل ومن الخارج ، تأسست فى اوائل القرن الثانى عشر فى فلسطين منظمتان عسكريتان رهبانيتان او جمعيتان Ordres : جمعية الاوسبيتالية Hospitalliers de Saint-Jean de Jérusalem (اوسبيتالية القديس يوحنا فى القدس) ، وجمعية الهيكلين Templiers . وفيما بعد ، فى مرحلة الحملة الصليبية الثالثة تأسست الجمعية التوتونية التى ضمت الفرسان الالمان . فضلا عن ذلك ، نشأت على امتداد العقود الاخيرة من القرن الثانى عشر وفى القرن الثالث عشر اخويات دينية - هى اتحادات عسكرية لسكان المدن قريبة من حيث طابعها من الجمعيات (وفى بعض الحالات ، كانت حتى مرتبطة شكليا بها بعري التبعية) . وانها لمعلومة ثمان من هذه الاخويات التى انبثقت ابتداء من اواسط السبعينيات من القرن الثانى عشر : اخوية القديسين اندراوس وبطرس التى تأسست فى عكا ؛ اخوية البيزيين ؛ الاخوية الايطالية للروح القدس ؛ الاخوية الاسبانية للقديس يعقوب ، الاخوية الانجليزية المسماة باسم الملك ادوار المعترف ، وغيرها . كانت الاخويات ، خلافا للجمعيات ، عبارة عن روابط مؤقتة تضم فى قوامها الحجاج من ابناء منطقة واحدة ، وبصورة رئيسية التجار والمعلمين الحرفيين ، الذين قدموا الى مملكة القدس لتصريف شؤونهم والذين اضطروا بحكم الظروف الى الاشتراك فى النضال ضد المسلمين (مثلا . كان معلمان حرفيان فى شؤون الذهب فى حقبة من الزمن عميدان اى رئيسين او قائدين لـ اخوية الروح القدس) . وهناك ميزة اخرى تختلف بها الاخويات عن الجمعيات هى ان بعضها منها (مثلا ، اخوية القديس جرجس فى اللد وبيت لحم) كان يضم ايضا المسيحيين الشرقيين - النسطوريين والملكيين الكاثوليك .

كانت الجمعيات من حيث سيمائها الخارجية جمعيات دينية . فقد كان الفرسان الذين ينضمون اليها يعطون العهود الرهبانية التقليدية الثلاثة : العفة والفقر والطاعة ، اى انهم كانوا يتعهدون بعدم تأسيس عائلات ، وعدم السعى الى تكديس الثروات ، والخضوع بلا قيد ولا شرط لمن هم اكبر واقدم فى المرتبة فى الجمعية . كذلك كان منظر فرسان الجمعية الخارجى يشبه منظر الرهبان ؛ فان الهيكليين كانوا يرتدون معطفا ابيض مثل الرهبان السيسترسيين (cisterciens نسبة الى سيتو Cîteaux) عليه صليب احمر . وهذا الحق منحهم اياه البابا اوجين الثالث فى سنة ١١٤٧ اثناء الجلسة الاولى لكابيتول (الاجتماع العام) الجمعية الذى انعقد آنذاك فى باريس ، كان لباس الاوسبيتاليين يتألف فى البدء من معطف اسود ، وفيما بعد ، من معطف احمر عليه صليب ابيض ، وكان الفرسان التوتونيون يرتدون معطفا ابيض عليه صليب اسود . ولكن جميع هذه اللواحق لم تكن اكثر من رمز ، فان عباءة «فرسان المسيح» الرهبانية كانت تستر درع الفارس ، وكان الرمح والسيف ، وليس كلمة الوعظ (رغم انه كان للجمعيات كهنتها ايضا) ، سلاح الفرسان الرهبان .

فى البدء ، كان يوجد ، والحق يقال ، بعض الفرق بين الاوسبيتاليين وبقية الجمعيات . فقد انبثقت جمعية الاوسبيتالية بوصفها منظمة للاحسان . ونمت على اساس بيت لاستقبال الضيوف الغرباء (ضيافة Hospitalité - مضيف Hospitaliers) سبق ان بناه حوالى سنة ١٠٧٠ فى القدس تجار من مدينة امالفي الايطالية . وهذا البيت او hospitalier (من الكلمة اللاتينية hospitalis - «ضيف») اطلقوا عليه اسم بطريك الاسكندرية من القرن السابع ، القديس يوحنا . وفى جوار المضافة (وكانت تقع بين السوق وكنيسة القبر المقدس) كان يعيش الرهبان الذين يخدمونه ، والذين انضموا فيما بعد الى جمعية بالاسم ذاته ، ومن هنا اسمها جمعية الاوسبيتاليين . وقد اخذوا على عاتقهم امر العناية بالحجاج الذين يتوافدون الى فلسطين ، فكانوا يؤمنون لهم المأكل والمسكن ، ويعالجون الذين يمرضون فى الطريق . وفيما بعد بنوا مضافات مماثلة فى انحاء اخرى من مملكة القدس وكذلك فى مدن من اوربا الغربية صارت نقاط انطلاق للحج - فى مرسيليا وبارى واوترانتو ومستين ، وايضا فى بيزنطية (مضافة القديس سمعان فى القسطنطينية وغيرها) . ولكن واجبات الاحسان المترتبة على الاوسبيتاليين تراجعت الى المرتبة الثانية ، بعد مرور بضع سنوات على فتح فلسطين من قبل الصليبيين الذين اشتركوا فى الحملة الصليبية الاولى ؛ وفى عهد الاستاذ

الأكبر الثاني ريمون دي بوي (١١٢٠-١١٦٠) صارت جمعيتهم على الاغلب جمعية عسكرية ، فرسانية .

اما الهيكليون ، فلم يعرفوا هذا التطور . فان جمعيتهم قد اتسمت منذ بادى بدء بطابع عسكري صرف تقريبا ، وقد اسسها فريق من الفرسان الفرنسيين في سنتي ١١١٨-١١١٩ . ويستفاد من انباء غليوم الصوري الذي كتب بعد مرور ٥٠ سنة ، ان تسعة فرسان فقط برئاسة سيد غير غنى من مقاطعة شامبانيا اسمه هوغ دي باينس قد وقفوا ، حسب زعمه ، عند مهد الجمعية . اما في الواقع ، فقد كان عددهم اكبر . وعلى كل حال ، كان اعضاء الجمعية «اهل السيف والرمح» . اما اسمهم - الهيكليون - فقد تلقوه بكل بساطة ، لان الفرسان الذين اسسوا الجمعية اتخذوا مقرا رئيسيا لهم مبنى قريبا جدا من قصر ملك القدس من جهته الجنوبية الغربية . وهذا القصر كان ، والحق يقال ، المسجد الاقصى العربي السابق الذي حوله الملك بودوان الثاني الى بيت للسكن ببناء بضع غرف فيه . اما المبنى المجاور ، المتجه بواجهته صوب الجانب الجنوبي من «هيكل السيد» المهيب والجليل ، ذي القبة شبه الكروية ، فقد كان هو ايضا جامعا اسلاميا (جامع قبة الصخرة) حوله الصليبيون الى كنيسة سموها «هيكل السيد» (*templum Domini*) - وخصصها ملك القدس وبطريق القدس للهيكليين . ان المسجد الاقصى عبارة عن مبنى فخم كبير يعتمد على ٢٨٠ عمودا ضخما . وكان المعاصرون يشبهونه بجامع قرطبة الشهير ؛ اما في الواقع ، فانه يوازي مثليه من حيث مقاييسه . وعندما فتح الصليبيون القدس ، تعرض المسجد لتدميرات شديدة . وقد سبق ان قلنا انه لم يكن ينظر الفرسان سوى «هيكل سليمان» . فقد كان من المعتبر ان هيكل الملك سليمان ، الوارد ذكره في التوراة ، كان يقع هنا منذ قديم الزمان .

ان الغزاة الغربيين الجهاد والاميين كانوا في هذه الحالة (كما في كثير من الحالات الاخرى) على خلاف مع الجغرافية التاريخية الكنسية وكانوا يؤمنون في الخرافات التي يبتدعها خيالهم الديني بالذات . اما في الواقع ، فان هيكل سليمان القديم الذي محاه من على وجه الارض الامبراطوران الرومانيان فسباسيان وتيتوس في السبعينيات من القرن الاول ميلادي ، اثناء حرب اليهودية ، كان يقع ابعد قليلا الى الشمال . وفيما بعد ، بنيت هنا هياكل اخرى ؛ ففي القرن الثاني بنى الامبراطور الروماني هيكل جوبيتر الكابيتولي ؛ وفيما بعد ، في القرن الرابع حول الامبراطور قسطنطين ، بعد اعتناقه المسيحية ، هذا الهيكل الوثني الى كنيسة مسيحية . ويعتد ان فتح العرب

فلسطين (سنة ٦٣٧) ، اعيد بناء الكنيسة ، وصارت جامع قبة الصخرة .
ثم جاء الصليبيون وجعلوا من الجامع بدورهم «هيكل السيد» . ان مدون
الاخبار من القرن الثاني عشر غليوم الصورى الذى روى الكثير من الطرائف
عن الحملة الصليبية ١٠٩٦-١٠٩٩ وعن الدول التى نشأت فى الشرق نتيجة
لهذه الحملة ، يزعم ان الرهبان الفرسان ، الهيكليين (من الكلمة الفرنسية
«temple» ومعناها «الهيكل») قد اشتقوا اسمهم من «هيكل السيد» الذى كان
يطل عليه مقرهم فى القصر الملكى . ولكن الهيكليين اخذوا يتسمون بهذا
الاسم ، كما يستفاد من معطيات وثائقية اصح واثبت ، حسب الاسم الذى
ابتدعه الصليبيون انفسهم للمسجد الاقصى حين اعتبروا خطأ انه «هيكل
سليمان» . ومن هنا ، من هذا «الهيكل» ، نبع اسم الجمعية ، جمعية
«الهيكليين» او ، كما سموا انفسهم بانفسهم ايضا ، «فرسان المسيح وهيكل
سليمان الفقراء» .

كان الدفاع عن دول الصليبيين وتوسيعها ، والنضال ضد الممتلكات
الاسلامية المجاورة ، وكذلك ، عند الاقتضاء ، تهدة غضب السكان المحليين
الذين قهرهم الغرباء الغربيون ولكن الذين لم يستكينوا ولم يستسلموا
لهم ، من المهمات الرئيسية التى واجهت اقدم واهم جمعيتين للفرسان
(وكذلك ، فيما بعد ، جمعية الفرسان التوتونيين) . وهذا ما قرر بنیان
الجمعيات العسكرية الرهبانية التسلسلى المراتبى المركزى ، المثبت فى
انظمتها الداخلية . فعلى رأس كل جمعية ، كان يقف الاستاذ الاكبر (وفى
جمعية الفرسان التوتونيين كان يسمى بالالمانية «غروس ميستر») . وكان
يخضع للاستاذ الاكبر آمو الاقسام المحلية للجمعية - الباياجات والمحافظات
(فروع اقليمية اكبر تضم بضعة باياجات) اى الاساتذة (المعلمون)
والبريسبيتورات (المؤدبون Precepteurs والكومتورات (الكومندورات
Commendeurs) وهؤلاء تبعتهم سُلّم طويلة من الموظفين بقدر ما كانت
تتنامى الجمعيات . فعند الهيكليين ، مثلا ، كان رئيس مطعم الهيكل ،
والمارشال - آمر الخيالة - وكثير من الرؤساء الآخرين ذوى الالقاب ، من
كبار وصغار . ومنهم كان يتألف المجلس لدى الاستاذ الاكبر ، الكابيتول
(الاجتماع العام) . ومنذ اواسط القرن الثانى عشر اخذت تنتخب الماچيستر
الاعظم هيئة خاصة من ١٣ ناخبا ، كما اخذ يشغل وظيفته للعمر كله . وكان
للجمعيات الاخرى تنظيم مماثل .

وقد اشترك الكرسي الرسولى بصورة مباشرة وبدافع المصلحة فى
تأسيس الجمعيات العسكرية الرهبانية وفى مصائرهما لاحقا . وكان على

الجمعية ، برأى باباوات روما ، ان تتركس نفسها كلياً لقضية «الدفاع عن المسيحية» . وكان اعضاء الجمعية يربطون حياتهم كلها بالنذور الرهبانية لكي لا تصرفهم اية مصالح واهتمامات دنيوية عن اداء هذه الرسالة . وكانت انظمة الجمعية ، المكملة والمعدلة مرارا ، تضيف على النذر اهمية خاصة . فان المادة ١١ من اقدم نظام داخلي للهيكلين - وقد وضع في سنة ١١٢٨ في مجمع تروا باشراف الظلامي الكنسي الشهير برنار رئيس كليرفو - مثلاً ، قد نصت على ان يأكل كل اثنين من الاخوة الفرسان من صحن واحد . ولكن بموجب المادة ٣٠ من الوثيقة ذاتها ، كان ينبغي ان يكون لكل فارس راهب ثلاثة احصنة . ولكي لا يدفع اى شيء الفرسان الرهبان في غمرة الاغراءات الدنيوية ولكي لا يصرفهم عن اداء الواجب الدينى ، كانت ممنوعة عليهم كل تسلية دنيوية ، فلم يكن بوسعهم ان يمارسوا الصيد بالصقور ويلعبوا بالنرد ، ويشاهدوا المسرحيات والمشهديات ، وحتى ان يغنوا شيئاً مضحكاً ، او - والعياذ بالله ! - ان يضحكوا ضحكاً مدوياً ، وفضلاً عن ذلك ، كان الكلام الفارغ محرماً عليهم . وعموماً ، كان كل نمط حياة الفارس الراهب منظماً بدقة وصرامة ، وكان الذين يخالفون هذه المواد او تلك من النظام يتعرضون للغرامة (كان نظام الهيكلين يتضمن اكثر من ٤٠ مادة تعدد الغرامات عن كل من مختلف ضروب المخالفات) .

وقد منحت الباباوية الهيكلين والاوسبيتاليين الكثير من الامتيازات ، سعياً منها لحمل الجمعيتين على خدمة اهدافها كلياً (ونظام الاوسبيتاليين الداخلى صادق عليه البابا باسكال الثانى سنة ١١١٣) . وقد اعفيت الجمعيتان من الخضوع للادارة المحلية فى مملكة القدس - الزمنية والكنسية . وكانت السلطة العليا على الجمعيتين تعود مباشرة الى الكرسي الرسولى فى روما . وفى حزيران (يونيو) ١١٣٥ فرض البابا اينوشنتيوس الثانى فى مجمع بيزا ضريبة سنوية دائمة (تتراوح بين مارك فضى واحد ومارك ذهبى واحد) فى صالح الهيكلين كان ينبغي ان يدفعها جميع رؤساء الاساقفة ، والاساقفة ، ورؤساء الدير ، دون استثناء البابا ذاته . ولكن تبرعات روما المادية «لفرسان المسيح الفقراء» كانت شحيحة جداً ، الا ان الباباوات ابدوا قدراً اكبر بكثير من الكرم فيما يتعلق بمنح شتى الاستثناءات .

وفى سنة ١١٣٩ ، اصدر البابا نفسه ، اينوشنتيوس الثانى ، بولاً (bulle) (مرسوماً) نص على ما يلى : لا يحق لاحد ان يطلب يمين التبعية من الاستاذ الاكبر للهيكلين ومن الرهبان الفرسان ، لا يحق لاحد ، عدا البابا ، ان يحاكم عضو الجمعية ، ويفرض المنع (Interdiction) على ملكه (اى منعه

من حرية التصرف بامواله) ، يعفى اعضاء الجمعية من دفع العشر وسائر الضرائب الكنسية ، حياة الهيكلين واعمالهم لا شأن لاحد بها ، وليس لاحد ان يأمرهم ، بوسعهم ان يحتفظوا لانفسهم بالغنيمة الحربية ، وما الى ذلك . وهذا البوللا اكد به باباوات روما فيما بعد غير مرة . بل انهم وسعوا امتيازات الهيكلين الاولى . فان البابا سيلستن الثانى ، مثلاً ، قد قرر فى سنة ١١٤٤ انه يحق للهيكلين ، فيما اذا فرض المنع على محلة ما ، ان يقيموا القداس مرة واحدة فى السنة فى هذه المحلة اذا كانت لهم بيوت فيها ، الامر الذى حد بالتالى بقدر معين من فعل المنع بالنسبة لفرسان الجمعيات (وهذا ما كان يمس بالطبع مصالح كهنة الرعيات ، اذ حرموا من مصادر الدخل) . وثلاث او اربع مرات ، جدد البابا اسكندر الثالث الامتيازات التى وهبها البابا اينوشنتيوس الثانى ومنح عددا من الامتيازات الجديدة ، ومنها انه سمح للهيكلين بامتلاك العقارات والضيع واستثمارها بكبح الاقنان .

ومثل هذه الامتيازات اخذ الاوسبيتاليون ينالونها من الباباوات ابتداء من سنة ١١٥٤ . وكان الباباوات يوجهون الى الاسياد الاقطاعيين شهادات ورسائل يطالبونهم فيها بمراعاة الحقوق والامتيازات التى منحوها للجمعيات مراعاة تامة . وكانت الباباوية تحرص فى المقام الاول على مصالحها السياسية ، فقد كانت الكورية الباباوية تحسب ان تستغل الرهبان الفرسان ولاسيما الهيكلين منهم ، كقوة قتالية فى خدمة الكرسي الرسولى فى الشرق . ورغبة فى رفع مكانة الجمعيات ، لم يكن الباباوات ليبتخلون بتوجيه المدائح العلنية اليهم . واستجابة لامية مؤسس جمعية الهيكلين وضع برنار ، رئيس دير كليرفو ، المديح الطويل «لمجد العساكر الجديدة» . وفى هذا المديح رحب بحرارة بظهور المقاتلين - الاكليريكيين ، «الرهبان بالروح ، المقاتلين بالسلاح» . وفى هذا المديح عارض برنار الفارس الدنيوى المنعم ، المغرور ، الفاخر الاثواب ، ذا الشعر الكثيف المنفوش ، بالراهب الهيكلى الذى لا يعتنى البتة بمظهره الخارجى والذى حتى لا يغتسل ، والغريب عن كل جسد ولكنه بالمقابل يعيش عيشة قتالية نشيطة لاجل هدف رفيع هو خدمة الرب .

وقد اطرى صاحب المديح ، اشد ما اطرى ، تلاحم وانضباط العساكر الجديدة التى «لا يتبع البتة كل فرد منها ارادته بالذات ، بل يحرص اكثر ما يحرص على الخضوع لمن يأمره» .

ان كل هذه المدائح ، كما بين التاريخ ، لم يكن لها اى اساس . فان

المعاصرين يشهدون على ان نشاط رهبان الجمعيات كان يتخلف كثيرا عن مثل الرهبان العليا وعن الاهداف التي كان يبتغيها حماة المقاتلين الرهبان . وكان الملوك والامراء الكاثوليكيون يسعون في كل مكان الى توطيد يسر الجمعيات المادى بأمل ان يساعد الرهبان الفرسان الاقطاعيين الا فرنج في الحفاظ على القسم الشرقى من البحر الابيض المتوسط تحت سيطرتهم . الا ان هذه الآمال كانت مبنية على الرمال . فان جمعية الهيكلين قد منيت في العقود الاولى من وجودها بجملة من الهزائم الخطيرة في قتال المسلمين (في سنة ١١٢٩ ، في سنة ١١٥٣ - في جوار عسقلان حيث سقط في المعركة جميع الهيكلين الاربعين الذين اشتركوا فيها ، والنخ . .) . ومع ذلك ، كانت الهبات والمنح تتدفق كأنما من قرن الوفرة . ومن جميع الانحاء كانت تتوارد على الهيكلين التبرعات السخية ، والهدايا ، وهبات الاراضى . وكانوا يتلقون من الاعيان المدنيين والكنسيين ، على سبيل الهبة ، عقارات وضيعة غنية ، سواء في الشرق ام في الغرب . وعندما كان استاذ الهيكلين الاكبر روبر البورغونى في فرنسا في سنتى ١١٣٨-١١٣٩ اهدى الملك لويس السابع الجمعية طاحونين وبيوتا في مدينة لا روشل ، واعفى الهيكلين من الضرائب ، وسمح بنقل البضائع بلا رسوم تلبية لحاجات الجمعية . كذلك وهب صاحب اراغون ، الكونت ريمون بيرنجير (Berenger) الرابع الهيكلين سبعة قصور ومنحهم عشر الايرادات الملكية ، والنخ .

وكان الحجاج النبلاء الراغبون في السفر من البلدان الغربية الى فلسطين ، يكلفون الجمعيات بان تشتري من اجلهم في سوريا ولبنان وفلسطين عقارات وقصورا وبيوتا في المدن تمكنهم من ان يحلوا فيها اثناء وجودهم في الارض المقدسة ، وكل هذا كان يعود بعد رحيلهم الى ملكية الجمعيات . واحيانا كانوا يقدمون لها كذلك مبالغ نقدية ضخمة . فان الملك الانجليزى هنرى الثانى بلانتاجينه (Plantagenêt) مثلا ، تكفيرا منه عن اغتياله رئيس الاساقفة توماس بيكت ، قد اوصى للهيكلين بـ ٤٢ الف مارك فضى و ٥٠٠ مارك ذهبى . وحفظ ملك فرنسا فيليب الثانى خزانة الدولة عند هيكليسى باريس . وفي سنة ١٢١٧ وهب الملك المجرى اندراش الثانى الهيكلين قيما كبيرة . خلاصة القول انه لم يكن للرهبان الفرسان مبرر للتذمر من فقرهم .

ومع ذلك لم يكونوا يكتفون بالعطايا ، فان الاوسبيتاليين والهيكلين على السواء قد ركزوا كل همتهم تقريبا ، بعد تأسيس جمعيتيهما بفترة وجيزة ، على الطمع الخالى من كل حياء . جميع الوسائل ، على اختلافها ، كانت جيدة.

بنظرهم - الحرب والنهب والسلب ، التجارة وصفقات المضاربة . كانوا لا يأنفون من شيء . ويروى غليوم الصوري كيف كان الهيكليون يهاجمون القوافل العربية الآمنة ويسلبون التجار ، وكيف أسرت زمرة من الهيكليين في سنة ١١٥٤ ناصر الدين نصر ، ابن الوزير الأكبر عباس ، الذي فرّ من مصر ، ثم باعته من العرب بـ ٦٠ ألف قطعة نقدية ذهبية . وفي القرن الثاني عشر ، اتهموا الهيكليين في الغرب على المكشوف بالجشع - فلقاء النقود كانوا على استعداد حتى لخيانة «قضية المسيح» . ويعتبر مدون الاخبار من فورتسبورغ ان المحاصرين قد رشوا الهيكليين اثناء حصار دمشق في سنة ١١٤٨ من قبل فرسان الحملة الصليبية الثانية ، وان الهيكليين ساعدوا المحاصرين سرا ، الامر الذي كان من اسباب فشل الحصار .

وكان الهيكليون والاوزبيتاليون على السواء يسيئون بجميع الوسائل استعمال امتيازاتهم لاجل الاثراء والابتزاز . ان رجل الكنيسة تيودوريكوس الذي تجوب في مملكة القدس قد كتب ، وليس بدون عجب ، في مؤلفه «كتاب عن الاماكن المقدسة» (سنة ١١٧٢) ، عن ثروات الجمعيتين ، وعن المباني السكنية والاقتصادية التي تخصهما ، وعن كنائسهما في القدس ، وعن حصونهما وقلاعهما : «ليس مكتوبا لاحد ان يعرف كم من الثروات عند الهيكليين» . ويعتقد تيودوريكوس ان الهيكليين والاوزبيتاليين على السواء قد اخضعوا لانفسهم تقريبا جميع المدن والقرى التي كانت تزخر بها اليهودية فيما مضى والتي دمرها الرومانيون ، ناهيك عن الممتلكات الكثيرة في البلدان الاخرى .

ومع مر الزمن بنى «فرسان المسيح الفقراء» العشرات من سفن الشحن ومن سفن الركاب . ومقابل اجر كبير ، كان الهيكليون ينقلون الحجاج من اوروبا الى الشرق ذهابا وايابا . وامسى الهيكليون مضاربين نموذجيين بالنسبة لزمانهم . ويروى مؤرخ مجهول لسيرة حياة البابا اينوشنتيوس الثالث كيف باعوا في سنة ١٢٠٨ في صقلية حبوبا كان ينبغي ايصالها الى الارض المقدسة ، فأنداك كان سعر الحبوب في صقلية ارفع مما في فلسطين ، اما حاجات الافرنج في فلسطين ، فقلما كانت تشغل بال الهيكليين .

وبعد ان كدس الرهبان الفرسان ثروات طائلة ، اخذوا يقومون كذلك بالعمليات الربوية والمصرفية . كانوا يقرضون اشرف الحجاج واعلاهم مقاما النقود . وعندما رفضوا في جنوه وبيزا منح لويس السابع قرضا اثناء حملته الصليبية ، راجع لويس السابع استاذ الهيكليين الأكبر ابرار دي بارو ،

فارسل هذا من انطاكية الى الملك الفرنسى «النقود الضرورية لنا» - كما افاد الملك فى رسالة ارسلها الى فرنسا - اى مبلغا ضخما جدا .

وفى الظروف الاستثنائية ، كان الاقطاعيون الدنيويون والكنسيون يعهدون الى الهيكلين بحفظ مجوهراتهم وتقودهم وقيمهم ، ولم يكن الهيكليون يستحون من الاستئثار بمبالغ ضخمة من الاموال المعهود بها اليهم . وفى سنة ١١٩٩ حرم اسقف صيدا الهيكلين من الكنيسة بدافع الغضب لانهم لم يعيدوا الى اسقف طبرية ١٣٠٠ بيزنط وغير ذلك من الاموال التى كان سلفه قد عهد بها اليهم لحفظها . وارسل الشكوى الى روما على مصرفيين غير شرفاء . ولكن البابا اينوشنتيوس الثالث اخذ جانب مقاتليه ، فقد كرر القرار الذى سبق ان اتخذه البابا اسكندر الثالث بمنع فرض العقوبات الكنسية على الهيكلين . ومما له دلالة ان البابا اينوشنتيوس الثالث ذاته عاتب الهيكلين على جشعهم ، ذلك ان كهنتهم كانوا يقيمون قداديس على نفوس الموتى من الخطاة والاشرار الراسخين فى النذالة فى المدن الخاضعة للمنع مقابل دينارين او ثلاثة دنائير . وفى القرن الثانى عشر بدأ الهيكليون تقديم القروض المضمونة بالرهونات العقارية .

وقد تحولت بيوت الاخوة الفرسان فى باريس ولندن وفى مدن فرنسا الجنوبية الى مراكز اصيلة للعمليات المالية ، وقد تعلم الهيكليون ادارتها من اهل المال فى لومبارديا . بل ان احد اساتذة الجمعية الاكابر (وبالاجمال بلغ عددهم ٢٣ فى تاريخ الجمعية) كان على صلة قربة بعائلة شهيرة من مصرفى لومبارديا . وكان الباباوات انفسهم يستفيدون بكل طيبة خاطر من خدمات «الفرسان الفقراء» النقدية ، فقد كانوا يعهدون اليهم ، بوصفهم مصرفيين ، بحفظ ودفع النقود الرنانة التى يجمعها عملاء البابا لاجل حاجات الحملات الصليبية ، كما يزعمون ، وقرض النقود للاسياد الذين يتجهزون للسفر الى فلسطين ، وما الى ذلك . وترى الباحثة المعاصرة بولست تيلي من المانيا الغربية ان الهيكلين امسوا فى دور المراهبين منافسين خطرين على المصرفيين الايطاليين . ومن الطريف ان الهيكلين انفسهم اخترعوا وطبقوا نظاما معقدا لاعمال الكتابة المالية ، فقد نظموا سجلات المحاسبة ، ووضعوا وثائق حساب الداخل والخارج ، والنخ . .

وقد توفقت جمعية الهيكلين على الانخس فى مضمار «البنس الصليبي» . ولكن الاوسبيتاليين ايضا احرزوا الكثير . فقد عكفوا خصوصا ببالح الجهد على اكثار عقاراتهم وضيعهم . واخذت تتزايد ثروات الجمعيتين . وبعد مرور بضعة عقود على تأسيسهما ، كانتا تملكان آلاف القرى والمروج والكروم

واستثمارات الملح ، وقطع الاراضى فى المدن ، بما فيها الاسواق ، وشتى المداخل من الاموال المنقولة وغير المنقولة . ان قائمة وثائق الهيكلين الاسبان ، مثلا ، العائدة الى اواخر القرن الثانى عشر ، تشمل ٤٤٤ وثيقة بالهبات ، والمشتريات والوصايا ، والنخ . .

وكان للجمعيتين مقاطعاتهما ، لا فى مملكة القدس اللاتينية وحسب ، بل ايضا فى فرنسا والمانيا واسبانيا والبرتغال وبلاد التشيك والمجر وانجلترا وصقلية وسلافونيا (دلماسية) . وابان الحملة الصليبية الثالثة باع (او رهن) الملك الانجليزى ريشار قلب الاسد ، لحاجته الى النقود ، من الهيكلين جزيرة قبرص التى انتزعها من بيزنطية ، وقد دفع له الهيكليون لقاءها فى سنة ١١٩١ مبلغ ٤٠ الف بيزنط نقدا وتعهدوا بدفع ٦٠ الف بيزنط فيما بعد .

وكان فرسان الجمعيات مستثمرين فى منتهى القساوة حيال الفلاحين الاقنان فى ضيعهم . وغير مرة نشبت الانتفاضات هناك ضد «جنود السماء» التابعين للكرسى الرسولى . واقوى هذه الانتفاضات نشبت فى ربيع سنة ١١٩٢ ، وبالذات فى قبرص . ان الهيكلين الذين لم يتسن لهم ان يستوعبوا الملكية التى اكتسبوها للتو والذين كانوا قليلي العدد ، لم يتمكنوا من التنكيل «بالمتمردين» واضطروا قسرا الى التنازل عن الجزيرة لملك القدس الاسمي غى دى لوزينيان (الاسمي ، لان الفرسان ، كما سنرى ، كانوا قد فقدوا آنذاك القدس) .

فى القرن الثانى عشر شغلت الجمعيات مكان الصدارة فى دول الصليبيين فى الشرق . وقد احيلت اليهم حصون وقلاع كثيرة ، ولاسيما منها الحصون والقلاع الحدودية ؛ ففي سنة ١١٥٠ ، مثلا ، اعطى الهيكليون الى الابد ، بوصفهم «اكثر الناس جرأة وحنكة فى الشؤون القتالية» ، قلعة غزه ، التى بنيت للدفاع ضد مصر ، وفى سنة ١١٥٢ ، بعد ان انزل نور الدين هزيمة بقوات كونت طرابلس ودمر قلعة طرطوس ، سلموا الهيكلين ايضا بقاياها . ووضعوا تحت تصرفهم قلعة طورون دى شيفاليه وقلعة جبيل وغيرها . وكانت حاميات الرهبان الفرسان موزعة فى مدن مملكة القدس جميعها تقريبا ، وكذلك فى مدن اماره طرابلس وامارة انطاكية ، وفى كل مكان كانت لهم بيوت او ثكنات .

ومرارا عديدة لام المعاصرون الفرسان اعضاء الجمعيتين على التكبر ، وليس عبثا . فان هاتين الجمعيتين كانتا تشيران بكل الوسائل الى استقلالهما عن البارونات والاساقفة . ويؤكد المركز كونراد دى مونفيرات

(Conrad de Montferrat) ، الذى دافع عن صور دون صلاح الدين ، ان الهيكليين اضره بحسدهم اكثر مما اضره الوثنيون . واحيانا كان الهيكليون يسمحون لانفسهم بنزوات وقحة حيال كبار رجال الكنيسة المحلية ايضا . واثناء المواعظ فى كنيسة قبر السيد المسيح ، كان الاوسبيتاليون ، مثلا ، يقرعون الاجراس فى كنائسهم بكل قوة لكى يطمسوا الخدمات الدينية والصلوات التى يشرف عليها بطريك القدس ، وذات مرة بلغ بالبطريك الامر ان تشكى لبابا روما من تصرف الاوسبيتاليين البالغ التحدى والاستفزاز . واحيانا كان الرهبان الفرسان يدخلون فى نزاعات سافرة مع السلطات الكنسية والمدنية . وفى سنة ١١٥٥ شن الاوسبيتاليون هجوما مسلحا حتى على كنيسة القبر المقدس . واحيانا كان فرسان الجمعيتين يتسببون باعمالهم اللصوصية بضرر مباشر لتاج القدس بالذات ، وكان الملوك يضطرون الى تهدئة جنود الكرسي الرسولي بالقوة .

ومع ذلك ، كان ينبغى حسابان الحساب لجمعيتي الفرسان الرهبانية لان مجمل عدد الغزاة الصليبيين الذين استقروا فى الشرق لم يكن كبيرا . وقد لعب اعضاء الجمعيتين دورا خطيرا فى مشاريع الصليبيين الحربية ، سائرين عادة اما فى مقدمة وحدات الفرسان واما فى مؤخرتها ، مغطين انسحابها . وبعد فقدان القدس فى سنة ١١٨٧ بقيت الجمعيتان من حيث الجوهر القوة الوحيدة القادرة على القتال فى دول الصليبيين . ومفهوم ان اية خطوة سياسية لم تكن تتخذ فى هذه الدول دون مشاركة الاساتذة الاكابر . ولكن اهمية الجمعيتين فى حياة الشرق الافرنجى ضعفت كثيرا لان الجمعيتين كانتا ، على العموم ، تعيشان فى خلاف بينهما . فان جشع الهيكليين والاوسبيتاليين كان يخلق مخاصماتهم المتبادلة ، وكانوا على استعداد لآبادة بعضهم بعضا بسبب امتلاك مطحنة او سوق ما ، وفى سنة ١١٧٩ اجبر البابا اسكندر الثانى الجمعيتين على توقيع صلح رسمى كأنما كانتا دولتين متعاديتين .

نحو اواخر القرن الثانى عشر ، تحولت جمعيتا الفرسان الرهبان الى قوة سياسية عسكرية نافذة سواء فى الشرق ام فى الغرب . وفى ايدى الجمعيتين تركزت ثروات هائلة - من الاراضى والنقود . وكان الفرسان الصغار من البلدان الغربية ينضمون بطيبة خاطر الى هاتين الجمعيتين ، وقد اجتذبتهم امكانيات واحتمالات تلبية تطلعاتهم العدوانية بواسطتهما . ولكن على الرغم من ان الجمعيتين كانتا القوة الاوفر تنظيما عند الاقطاعيين الغربيين فى القسم الشرقى من البحر الابيض المتوسط ، الا ان

الوضع المستقل الذى يخل بالتسلسل المراتبى الكنسى المألوف ويحول الجمعيتين الى ضرب من دولة فى قلب الدولة ، وسوء استعمال الامتيازات ، والمغامرات اللصوصية ، والنزاعات المتواصلة سواء مع الادارة المحلية ام فيما بينهما ، وغطرسة الرهبان الفرسان - كل هذا اخذ يثير ضدهم تدريجيا الاقطاعيين الدنيويين والاقطاعيين الكنسيين ، كما اخذت ثروات الجمعيتين تثير الحسد . ويستفاد من قول مدون اخبار ان فرسان الجمعيتين كانوا لا يبحثون الا عن منفعتهم ، وانهم لم يكونوا يعيشون البتة «بشؤون المسيح» . ولهذا كانت الجمعيتان ، بالطبع ، عاجزتين عن توطيد فتوحات الافرنج فى الشرق بشكل راسخ ومتين نوعا ما اذ كانتا منمكتين فى جمع المال .

٤ الحروب الصليبية فى القرن الثانى عشر



انتقام السلجوقيين . موعظة برنار من كليرفو

بينما كان صليبيو الاجيال الاولى يستقرون فى ممتلكاتهم فيما وراء البحار ويجهدون لتوطيد سيادتهم بالذات هنا ، بدأت الامارات الاسلاميه تتراص وتتلاحم تدريجيا . ففى الشرق ، تأسست اتحادات دوليه للسلجوقيين متفاوتة الكبر . واخذ الدخلاء الغربيون يواجهون من جانبها ردا مشتدا اكثر فاكثر . وسنة بعد سنة ، كانت تتفاقم العلاقات بين الصليبيين وبيزنطيه . وفى بيزنطيه كانوا يرمقون بعين الحذر الى مملكة القدس التى كانت اراضيها تخص الامبراطورية فيما مضى . وكانت الامارة النورمانية فى انطاكية تثير امتعاضا قويا جدا فى اوساطها الحاكمة . وكان اسطول الروم وقواتهم البريه تعتدى بين الفينة والفينة على حدود هذه الدولة التى اسسها بوهيموند اى امارة انطاكية . وقد توتر الوضع بالغ التوتر عندما استولى الامبراطور البيزنطى يوحنا الثانى كومنينوس (١١١٨-١١٤٣) على قيليقيا الارمنية واقترب مع قواته من انطاكية فى آب (اغسطس) ١١٣٧ واكره

اميرها ريمون دى بواتيه على ان يصبح من اتباع القسطنطينية . صحيح ان يوحنا نفسه تعهد بان ينتزع لاجل انطاكية بضع مدن من السلجوقيين (حلب ، شيزر ، حماه ، حمص) ، ولكنه لم يق بوعده . وفى ايلول (سبتمبر) قام حتى بمحاولة للاستيلاء على انطاكية ، الا ان اقتراب الشتاء اجبره على التراجع . وفى سنة ١١٤٣ ، قتل سهم سام يوحنا الثانى اثناء الصيد . ولكن الخطر البيزنطى على القدس ظل مخيما .

فى آب وايلول ١١٤٤ شن خلف يوحنا الثانى ، الامبراطور مانويل (عمانوئيل) كومنينوس (١١٤٣-١١٨٠) حملة على انطاكية على درجة من الشدة بحيث هزم الامير ريمون واجبره على المجئ الى القسطنطينية وتجديد يمين التبعية .

وفى هذه الاثناء ، سدد السلجوقيون الى الصليبيين اول ضربة جديدة . وبداية انتقامهم ترقى ايضا الى سنة ١١٣٧ ، حين اقتحم قائد قوات دمشق كونتية طرابلس وسحق الفرسان هناك . ووقع بونتى كونت طرابلس اسيرا ، وقتل . وفى صيف ١١٣٧ دخلت قوات اتابك الموصل عماد الدين زنكى طرابلس . وهذه المرة اسر السلجوقيون الكونت ريمون الثانى مع عدد كبير من الفرسان . وفى السنوات التالية اخضع عماد الدين زنكى لسلطته عددا من الامارات السلجوقية فى بلاد ما بين النهرين (العراق حاليا) وسوريا الشمالية . ومن الطريف ان مملكة القدس قد ساندت دمشق فى سنة ١١٣٩ اثناء حروب عماد الدين زنكى ضد دمشق ؛ وآنذاك كان الملك فولك هو الذى اجبر قوات الموصل على التراجع . ومع ذلك ، احرز عماد الدين زنكى الهيمنة فى سوريا فيما بعد ، لاجئا حينا الى القوة المسلحة وحينا الى الدبلوماسية وعقود الزواج . وكل هذا اتاح له دفع قواته فى تشرين الاول (اكتوبر) ١٠٤٤ الى اراضى كونتية الرها ومحاصرة الرها فى ٢٨ تشرين الثانى (نوفمبر) . فهرعت الى نجدة المدينة فصائل الفرسان من مملكة القدس ، وقد ارسلتها الوصية على العرش ميليساندا التى كانت تحكم اثناء حداثة بودوان الثالث ، ولكن هذه الفصائل وصلت متأخرة جدا . وفى ٢٤ كانون الاول (ديسمبر) ١٠٤٤ استولى عماد الدين زنكى على المدينة ودمر قسما كبيرا منها ، ثم استولى على كثير من مناطق الكونتية . ان عملية طرد الافرنج من ممتلكاتهم ، التى بدأها عماد الدين زنكى فى كونتية الرها قد واصلها ابنه نور الدين محمود ابن زنكى (١١٤٦-١١٧٤) الذى وسع كثيرا اراضى السيادة الاسلامية . وحرر وادى الفرات من سيطرة الافرنج . خلق سقوط الرها خطرا جديا على جميع دول الصليبيين الاخرى فى

الشرق الادنى ، وفى المقام الاول على انطاكية . وفى تشرين الثانى (نوفمبر) ١١٤٥ أرسل رسل من القدس وانطاكية الى بابا روما اوجينوس الثالث . ووصل الى مدينة فيتربو (ايطاليا) اسقف جبلة بطلب اتخاذ التدابير لكى تحمى «بسالة الافرنج المظفرة» ، ممتلكات الكونتات والفيكونتات الشرقية من الاعتداءات الجديدة .

فى ذلك الوقت كان الوضع السياسى الداخلى فى اوروبا يتطور فى غير صالح الباباوية ؛ فمن جديد تأزم ما يسمى بالصراع من اجل تعيين الاساقفة Investiture وتعددت العلاقات مع مملكة صقلية ، وفى روما نفسها وقفت ضد البابا الفئات الدنيا من ذات المزاج الجمهورى من سكان المدينة (وهذه الحركة ترتبط باسم ارنولد دى بريشيا — Arnold de Brescia — الواسع الشهرة) ؛ وكان يخيل ان البابا لا يمكن ان يفكر فى مغامرات جديدة فى الشرق . ومع ذلك ، وقع فى اول كانون الاول (ديسمبر) ١١٤٥ بولا (مرسوما) يدعو الى الحرب الصليبية . وكان ذلك اول مرسوم صليبي فى التاريخ تتخذه الباباوية . وقد وجه البابا اوجينوس الثالث هذا المرسوم الى فرنسا داعيا الملك لويس السابع الى النهوض للدفاع عن الدين والايمان . وطالب البابا بتجهيز القوات لاجل الانتقام من المسلمين ، ووعد المستتركين فى الحملة بحماية الكرسي الرسولى التامة ، وغفران الخطايا ، والاعفاء من الاتاوى . وللحصول على الاموال للاشتراك فى الحرب ، سمح للفرسان برهن عقاراتهم وضياعهم . ومن جديد ، كما منذ ٥٠ سنة ، قامت فى الغرب حملة واسعة فى صالح الحملة الصليبية : قبر السيد المسيح فى خطر !

كان برنار ، رئيس جمعية الرهبان السيستريسيين البورغونى الواسع النفوذ ، رئيس دير كليرفو (١٠٩١-١١٥٣) من اكبر ملهمى الحملة الجديدة الى الشرق همة وعزيمة ، ومنظمها المباشر . واليه بالذات عهد اوجينوس الثالث بالدعوة الى الحرب المقدسة . اما البابا نفسه ، المستغرق فى شؤونه الايطالية والاوروبية العامة ، فلم يكن بمقدوره ان يهتم مباشرة باعداد هذا المشروع . اما برنار ، رئيس دير كليرفو ، المتعصب تعصبا قتاليا اعمى ، والذي لقبه معاصروه بالذات «غول زماننا» ، والذي رفعت الكنيسة فيما بعد الى مصف القديسين ، فقد كان يبدى من زمان بعيد اهتماما كبيرا بمصائر دول الصليبيين . وقد اسهم ، كما عرفنا من قبل ، فى تأسيس جمعية الهيكلين . وقد دعاهم برنار الى اباداة المسلمين بلا شفقة ولا هوادة ، والى الاستيلاء على اراضى «المسيح» لما فيه مجد الكنيسة ، والى نشر سلطة

الكرسى الرسولى هناك . وقد كتب برنار فى مؤلفه «كلمة نناء على قوات فرسان الهيكل الجديدة» : «قد لا يصح قتل الوثنيين لو كان من الممكن منعهم بوسيلة ما اخرى عن ضمير عداوة مفرطة فى الكبر للمؤمنين او عن اضطهاد المؤمنين . اما الآن فمن الافضل ابادتهم» . وكان ذلك احد البنود الاساسية فى برنامج الكاثوليكية المقاتلة ؛ وهذه البنود تقدم بها هذا الحبر الذى اخذ على عاتقه دور الواعظ الرئيسى بالحملة الصليبية الجديدة .

وفى القرن الثانى عشر ، كما فى عشية الحملة الصليبية الاولى ، تآجج جو الصراع الاجتماعى فى الغرب من جديد . فقد استاء الاقنان من الاتاوى التى لا تطاق ومن استبداد الاسياد . ونهض فى وجه الاقطاعيين الدنيويين والكنسيين خصم جدى جديد هو المدن التى ابدت فى القرن الحادى عشر اولى علائم الحياة وحسب ، وذلك فى ايطاليا الشمالية وفرنسا بصورة رئيسية . ونحو ذلك الزمن كانت قد نمت نموا عاصفا فى المانيا وانجلترا . وكان الفلاحون الاقنان الساعون الى نيل الحرية يهربون الى المدن للاحتماء داخل اسوارها . وكان ثمة مثل شعبى يقول : «هواء المدينة يجعل الناس احرارا» . وهؤلاء الفلاحون الهاربون الذين اخذوا يمارسون الحرف هم الذين هبوا ضد نير الاسياد ؛ واحيانا كانوا ينالون الاعتراف بحرياتهم فى غمرة الكفاح المسلح السافر ضد الكونتات والاساقفة .

كانت روح الفتنة والعصيان تنتشر بصورة اوسع فاوسع . كانت حركات الهرطقة التى تفصح عن احتجاج الفئات الدنيا من سكان الارياف والمدن على النظم والاوزاع الاقطاعية تنشب تارة هنا وطورا هناك . كان ذلك زمنا ولدت فيه «الف هرطقة» كما قال المفكر الحر ابيلار (Abélard) . وقد نشأت الهرطقات وتنامت فى فرنسا والفلاندر وانجلترا ومناطق المانيا على ضفاف نهر الراين . وعكفت الكنيسة الكاثوليكية بكل حزم وعزم على استئصال الهرطقات ؛ وكان برنار ، رئيس دير كليرفو ، على وجه الضبط ، قد خلق لنفسه قبل الحملة الصليبية شهرة خائق شرير وحقوق لحريية الفكر . فانقض بجميع العقوبات على ابيلار «الكافر» الذى تجاسر على تمجيد قوة العقل خلافا لمكانة العقائد الكنسية ، وعلى اتباعه العديدين . وفى القرن الثانى عشر كانت تتآجج المواقد التى كانت الكنيسة تحرق فيها الهرطقة . ولكن روح التمرد والعصيان استعصت على النار .

وفى هذا الوضع ، جاءت الهزيمة التى انزلها السلجوقيون باحدى الدول الصليبية فى الشرق مناسبة تماما للكنيسة . فقد قررت الاوساط العليا الكنسية ان تؤجج من جديد نيران التعصب الدينى القتالى ، حاسبة ان

تتمكن بواسطته من وضع حد لامزجة التمرد والعصيان في الغرب : فلتغرق موجة الحماسة الصليبية التي تثيرها الكنيسة حريق الاستياء الشعبي المتوهج .

وقد تم استغلال سقوط الرها لاجل اطلاق النداء من جديد الى حرب الخلاص ضد «الكفار» . وكما في اواخر القرن الحادى عشر ، جعلت الاوساط العليا في الكنيسة الكاثوليكية مهمتها الاساسية تأمين ازدهار ويسر الطبقة الحاكمة في الغرب ؛ وكما في ذلك الوقت ، حاولت في الوقت ذاته ان تلبي مصالح الاقطاعيين الدنيويين والكنسيين الانانية الجشعة وان تعزز مكانتها بالذات .

في ٣١ آذار (مارس) ١١٤٦ وصل برنار من كليرفو الى مداولة للبارونات الفرنسيين وكبار رجال الكنيسة والفرسان الاعيان في فيزليه (بورغونيا) . ومن على مرتفع اقيم في حقل مفتوح ، تكلم امام جمع الناس ، وتلا البول (المرسوم) الصليبي الذي اقره البابا ، والقى خطابا ناريا بصدد ضرورة حرب مقدسة جديدة . كذلك اخذ برنار يوزع في الحال هناك شارات الصليب ، المعدة سلفا . وحين لم تكف الشارات ، مزق برنار لباسه الرهباني وصنعوا منه كذلك صلبانا .

بعد المداولة في فيزليه قام برنار من كليرفو بجولة في مدن فرنسا ؛ وفي تشرين الاول (اكتوبر) ١١٤٦ زار المانيا الجنوبية والمناطق الالمانية المتاخمة لنهر الراين . وفي كل مكان ، استحث الفرسان والشعب البسيط على الاشتراك في الحملة الصليبية . ان خادم الكنيسة الرومانية هذا لم يتوجه في رسائله وفي خطابه الى «الكاثوليك الطيبين» وحسب ، بل توجه كذلك الى اللصوص والقتلة والمجرمين من كل شاكلة وطراز ناصحا اياهم بان يكسبوا غفران الخطايا بالقتال من اجل الارض المقدسة . وهكذا جندت الكنيسة الكاثوليكية عساكرها الجديدة .

واشترك رهبان الجمعية السيسترسينية بكل همة ونشاط في الدعاية للحملة الصليبية . بل ان بعضهم كانوا حتى منافسين من نوع فريد لبرنار من كليرفو .

استجاب كثيرون من الفقراء ولاسيما من تلك الانحاء التي اصابها القحط والجوع مؤخرا لدعوات برنار من كليرفو والوعاظ الكنسيين الذين وزعهم في جميع الاتجاهات . ومع ذلك ، لم تلاحظ على العموم في امزجة الريف آنذاك تلك الحماسة الدينية التحررية العفوية والجماهيرية التي رافق نهوضها بداية احداث سنة ١٠٩٦ . بل ان اخبار المعاصرين تعكس حتى اصداء الاستياء

الشعبي الذي تبدى هنا وهناك لمناسبة تحضير الحملة الصليبية . وكان فرض اتاوة على جميع سكان المملكة الفرنسية لسد حاجات الحملة الصليبية سببا جوهريا من اسباب هذا الاستياء . وهكذا بدأت الحرب المقدسة ، كما قال احد مدونى الاخبار ، بخزى وعار ، اى بنهب الفقراء .

حظى البول الباباوى ومواعظ برنار من كليرفو فى اوساط الاقطاعيين بصدى واسع نسبيا وان لم يكن البتة شاملا . وبين الفرسان ، تواجد ، كما من قبل ، عدد لا يستهان به من الراغبين فى الاثراء من الحرب ضد «الكفار» . واعلن بعض كبار الاسياد فسى فرنسا عن الرغبة فى السير تحت راية الصليب ، ومنهم الفونس جوردان ، كونت تولوز ، ابن ريمون دى سانجيل (وقد ولد اثناء حصار والده لمدينة طرابلس) ، والكونت تييرى من الفلاندر ، ووريت الكونت تيبو دى بلوا هنرى ، واخو الملك لويس السابع الكونت روبير البرشى (La Perche) ، والبارونات انغيران دى كوسى ، وجوفروا رنسون وهوغ لوزينيان ، وغيرهم . واليهام انضمت شخصيات دينية بارزة - الاساقفة نوايون وليزيه وغودفروا من لانغر الذى تدرب فى حينه عند برنار فى دير كليرفو. وبمثالهم اقتدى فيما بعد كثيرون من الاقطاعيين الالمان ، كبارا وصغارا ، وعلى الاغلب من المقاطعات الواقعة على «درب الكهنة» اى على نهر الراين ، الذى كانت تقس على ضفتيه ممتلكات كبار رجال الكنيسة (ابرشيات ترير وماينتس وخلافهما) ، وكذلك من شوابيا . واخذت تتشكل فصائل الصليبيين فى انجلترا ايضا .

وهذه المرة ايضا التحقت بالفرسان جموع من الفلاحين الاقنان . وعن دوافعهم كتب مدون الاخبار غرخو من راينسبرغ بصورة معبرة : «اما الفلاحون ، والاقنان التابعون للسادة ، فقد طرحوا جانبا محاربتهم وتنافسوا الفرائض (التاكيد لنا - المؤلف) . . . فقد قام سوادهم الاعظم بصورة غير معقولة بهذه الحملة البالغة المشقة ، املا فى ان يأكل فى هذا المشروع المقدس للغاية مأكلا مثل الذى نزل من السماء على شعب اسرائيل» (يقصد مدون الاخبار حكاية التوراة عن خروج اليهود من مصر ؛ ففي الصحراء انعم الرب عليهم «بخبز من السماء» او «بالمن» . ولكن ، كما يستخلص مدون الاخبار بصورة قاطعة ، «حصل تماما غير ما كانوا يأملون فيه» .

فى هذا المقطع يتبدى بكل وضوح السبب الذى ظل يدفع الاقنان الى درب الرب ، وهو السعى الى قطع علاقات التبعية حيال الاسياد ، «تناسى» الفرائض . فى الحملة الصليبية الثانية ، اشترك الملوك للمرة الاولى : الملك الفرنسى الشاب لويس السابع الذى استجاب فى الحال لبول البابا اوجينوس

الثالث ، والملك الالماني كونراد الثالث هوهنشتاوفن (ولكن ، والحسب يقال ، ليس بدون ترددات كبيرة) . فان برنار من كليرفو الذي تجوب في المانيا والقي هناك الكثير من الخطابات النارية حول اهمية الحملة الصليبية لاجل خير المسيحية ، قد تمكن من اقناعه . فأخذ الملك الالماني الصليب رغم انه كان مشغولا بالحرب الداخلية ضد كتلة آل فلف الاقطاعية المعادية لآل هوهنشتاوفن . وقد حدث ذلك في ٢٧ كانون الاول (ديسمبر) ١١٤٦ في ريخستاغ شبيير حيث القي برنار خطابا صادقا مؤثرا . ونعت برنار ، رئيس دير كليرفو ، نجاحه «معجزة المعجزات» . اما في الواقع ، فلم يكن ثمة اية معجزة .

وبدءا من اواسط القرن الثاني عشر ، اخذت القوى المنظمة للـدول الاقطاعية في اوروبا الغربية تنضم تدريجيا ، وان بصورة غير منتظمة ، الى قوام المشتركين في الحملات الصليبية ؛ ومنذ ذاك اخذت تتوطد السلطة الملكية في هذه الدول ، وتنشأ اشتباكات كبيرة بين هذه السلطة وبين كبار الاسياد ، ويتكون الجهاز الملكي للادارة والحكم ، وتتشكل القوات المسلحة الدائمة ، النظامية . وعلى هذه القوات في المقام الاول يعتمد الملوك في سعيهم الى قطع اجنحة الانفصالية الاقطاعية . هكذا كانت الحال في مملكة الكابيتين (Capetians) في فرنسا وفي مملكة سلالة هوهنشتاوفن في المانيا وفي المملكة النورمانية الصقلية ، وفي انجلترا حيث كانت تحكم سلالة بلانتاجينه .

واخذت السلطة الملكية تحتاج اكثر فاكثرا الى الوسائل المادية لاجل تطبيق سياستها التمركية بنجاح ، الامر الذي كان يدفع الملوك الى سبيل الفتوحات . وغدا التوسع الاقليمي الواسع السمة المميزة لسياسة دول اوروبا الغربية . ومنذ اواسط القرن الثاني عشر صار البحر الابيض المتوسط اهم اتجاه في هذا التوسع . ونحو سواحل افريقيا الشمالية ، ونحو بيزنطية وممتلكات الاقطاعيين الاوروبيين الغربيين في سوريا ولبنان وفلسطين التي كان يتهدها خطر انتقام السلجوقيين ، صوب حكم اهم الملكيات الاوروبية انظارهم . وصار اخضاع هذه المناطق هدفا من الاهداف المركزية لسياستهم العدوانية .

ان اهتمام الملوك بقضية الحملات الصليبية انما مرده جزئيا ، بالطبع ، الى اعتبارات المكانة ، ولكنه نبع بصورة رئيسية من بواعث عادية تماما ذات طابع اقتصادي .

فان البحر الابيض المتوسط غدا طريقا رئيسيا للتجارة المنتعشة .

وكان السعى الى فرض الرقابة على المناطق التي تضطلع فيه بدور جوهري الى هذا الحد او ذاك السبب الذي حمل ملكيات اوروبا الغربية الى صفوف المشتركين النشطاء في الحملات الصليبية . وقد كان لكل من لويس السابع وكونراد الثالث مصلحة مباشرة في صيانة سيادة مواطنيهم في سوريا ولبنان وفلسطين وحتى في توسيع حدودها . وبفضل زواج لويس السابع من ايلينور ، وريثة دوقية اكييتين (Eleonora d'Aquitaine) ضمت الى التاج الفرنسى مقاطعة شاسعة في جنوب فرنسا ؛ كانت مدن اكييتين تشترك بنشاط في تجارة المشرق . وبهذه التجارة كانت ترتبط كذلك ، بواسطة ايطاليا الشمالية ، المدن الالمانية في ممتلكات آل شتافن . وهكذا بدأت تجارة البحر الابيض المتوسط تعود بمنافع محسوسة على السلطة الملكية سواء في فرنسا ام في المانيا .

ولكن ليس جميع الاعيان الفرنسيين تحرقوا الى الاشتراك في الحملة الصليبية . وحتى في ذلك الوقت ، ابدى قسم كبير من الفرسان قدرا من اللامبالاة . وعلى الحملة الصليبية اعترض بكل حدة رجل الدولة البارز ، وواحد من اقرب مستشاري الملك ، رئيس الدير سوجر . اما الملك كونراد الثالث ، فقد اشترك في الحملة الصليبية ، وان يكن بغير حماسة كبيرة ، لاسباب اخرى ايضا ؛ فان الملك الالمانى الاول من السلالة الجديدة ، سلالة شتافن ، كونراد الثالث ، اقتبس من سابقه تطلعاتهم التزعمية في اوروبا ولم يشأ ان يتنازل عن قصب السبق للملك لويس السابع . ومما سهل وضعه ، ان الدوق فلف السادس ، الخصم الرئيسى للملك في المانيا ، قد اخذ الصليب هو ايضا .

وكانت الاوساط العليا من الكنيسة الكاثوليكية تعتبر بدورها من الجوهري تأمين اشتراك هذين الملكين في الحملة الصليبية . ان التنافس بينهما كان من شأنه ، على الأرجح ، ان يقلل من حظ الحملة في النجاح ، ولكن كان من شأنه ان يزيد احتمالات رفع مكانة الباباوية كقوة سياسية اوروبية .

الحملة الصليبية الثانية وتصادم مصالح الدول الاوروبية في البحر الابيض المتوسط

القرار النهائى بصدد بداية الحملة وموعدها - ١٥ حزيران (يونيو) ١١٤٧ ، وكذلك القرار بخط سير الصليبيين ، اتخذهما اجتماع الاعيان الفرنسيين الذى انعقد في ١٦ شباط (فبراير) ١١٤٧ في مدينة ايتامب

(فرنسا) . وقد حضر رسل المانيا هذا الاجتماع . اشرف على الاجتماع برنار من كليرفو ، وانبأ الحاضرين بنجاحات المواقظ الصليبية في اسبانيا وايطاليا وانجلترا . وفي ١٥ آذار (مارس) ١١٤٧ عقد الريخستاغ الالمانى جلسة في فرانكفورت وقرر موعد السير بالحملة في اواسط ايار (مايو) ١١٤٧ . ونحو الصيف كان قد تشكل في فرنسا والمانيا جحفلان كبيران من الصليبيين . وكان كل منهما يضم حوالى ٧٠ الف فارس ، التحقت بهم جموع ضخمة من الفلاحين الفقراء ، بمن فيهم النساء والشيوخ والاولاد .

انطلق الصليبيون الفرنسيون من مدينة متز ، وعلى رأسهم الملك لويس السابع ؛ وقد ارسل البابا اليه نائبا عنه الكاردينال-الشماس غويدو الفلورنسى . ومع الملك لويس السابع ، راحت الملكة ايليونور داكيتين . وعلى رأس الجحفل الالمانى الذى انطلق من نورنبرغ وريغنسبورغ ، سار الملك كونراد الثالث ؛ وكان الكاردينال-الاسقف تيوديفين ممثل البابا عنده . تحرك الالمان أولا ، وبعد شهر سار الفرنسيون .

فى البدء اجتاز الفرسان الالمان المجر بعد ان اعطى الملك غيزا الثانى موافقته الرسمية على مرور الصليبيين فى بلده . ثم ساروا فى ممتلكات الروم علما بان الصليبيين الالمان نهبوا السكان بلا رحمة ولا هوادة ، رغم علاقات التحالف بين الامبراطورية الالمانية وبيزنطية .

قام التحالف بين الامبراطوريتين - الالمانية والبيزنطية - على اساس وحدة مصالحهما السياسية ، وبصورة رئيسية بسبب التناقضات مع مملكة روجه الثانى النورمانية الصقلية . فقد ضم هذا الملك صقلية الى ايطاليا الجنوبية وواصل انتهاج سياسة الاقطاعيين النورمانيين الايطاليين القديمة المعادية لبيزنطية . وفى الوقت نفسه اقام شتى العقبات فى وجه سلالة هوهنشتاوفن فى محاولاتها لتوطيد سيادتها فى ايطاليا . وان التناقضات مع مملكة صقلية فى مضمار التوسع فى البحر الابيض المتوسط هى التى ادت الى التقارب بين المانيا آل شتاوفن وبيزنطية . وفى سنة ١١٤٦ ، ترسخ التحالف بين الامبراطوريتين بزواج مانويل كومنينوس من سلفة (اخت زوجة) كونراد الثالث ، الكونتيس برتا زولسباخ .

ومع ذلك عانت بيزنطية الكثير من المزعجات من حليفتها الالمانية . وقد تضررت تراقيا على الاخص من تهور الفرسان الالمان ، فاضطر الامبراطور مانويل كومنينوس حتى الى تهدة الصليبيين بالسلاح . وكذلك انتقم السكان المحليون انفسهم على طريققتهم من النهايين ؛ فلم يكن من النادر ان يقتل البلغار واليونانيون المقاتلين الالمان السكارى حتى الغيوبة والمتخلفين فى

الطريق ؛ ولذا حين وصل الفرسان الفرنسيون الى هناك ، كما يشهد شاهد عيان ، «كان كل شيء مسمما بنتانة جثثهم (اي جثث الالمان - المؤلف) غير المدفونة» . وفي جوار فيليببول ، حدثت اشتباكات ضارية بين القوات الالمانية والقوات البيزنطية . وعرض مانويل على كونراد الثالث توجيه القوات الصليبية بمعزل عن القسطنطينية ، عبر هيليسبونت (الدردنيل) لاجل تجنيب العاصمة مآثم الفرسان وموبقاتهم ، ولكن الحليف رفض هذا الاقتراح . وساق قواته في الطريق القديم الذي سبق ان سار عليه الصليبيون الاوائل .

احتفل الفرسان الالمان بوصولهم الى القسطنطينية (١٠ ايلول - سبتمبر ١١٤٧) باعمال النهب والسلب ، واجتياح القصر الامبراطوري الواقع غير بعيد عن العاصمة ، وولائم العريضة والسكر . ويروي مدون الاخبار الفرنسي اودو من ديل ، الذي اشترك في حملة لويس السابع الصليبية بوصفه كابيلائه ، ان الالمان احرقوا بضعا من ضواحي المدينة . لن يفوت القسطنطينية القصاص حين ينضم الى الفرسان الالمان المشاغبيين والعنيفين الفرسان الفرنسيون القادمون في الطريق . ولكن مانويل استطاع بالتملق والقوة ان يقنع حليفه الالمانى بعبور البوسفور الى الساحل الآخر ، الشرقى . ثم ان كونراد الثالث لم يكن يتحرق كذلك ، من جانبه ، الى اللقاء مع الصليبيين الفرنسيين ؛ فقد كان يخشى الانسياق في دوامة سياسة العداة للقسطنطينية .

وفي اواخر تشرين الاول (اكتوبر) ١١٤٧ ، منى الصليبيون الالمان ، غير المنضبطين وغير المنظمين ، والذين لم يتحلوا لا بالاحتباس ولا ببعد النظر (فلم يأخذوا من احتياطي المأكولات الا لمدة ٨ ايام) بهزيمة نكراء في القتال ضد فصائل الخيالة التابعة لسلطان قونية في جوار ضورليوم . وجاءت المجاعة والامراض التي قضت على افراد الجموع المسلحة الالمانية تستكمل هزيمة الصليبيين . وقد اضطر كونراد الثالث الى ان يطلب بمذلة ومهانة من لويس السابع الذي تلاقى معه في نيقية الاذن بضم هذه البقايا السالمة من جيشه الى الجموع المسلحة الفرنسية . ولم يقرر مواصلة الحملة الصليبية غير جماعة صغيرة من الصليبيين الالمان ، بينهم كونراد الثالث وابن اخيه فريدريك ، دوق شوابيا (فيما بعد ، امبراطور المانيا فريدريك بربروسا) . والباقيون ، ممن سلموا ، عادوا الى الوطن بخزي وعار .

منذ بادىء بدء ، تعقد الوضع الدولي الذي جرت فيه الحملة الصليبية الثانية خارق التعقد . فقد انتهج روجه الثانى سياسة اغتصابية واسعة في منطقة البحر الابيض المتوسط . استأنف الهجوم على بيزنطيا ، مجددا تقاليد

روبر غيسكار وبوهيموند من تارنتو . وعندما سار الاستعداد للحملة الصليبية على قدم وساق في فرنسا ، وصل رسل من صقلية الى بلاط لويس السابع ؛ وقد حملوا معهم ، من جهة ، مقترحات مغرية لاجل الصليبيين - فقد تعهد روجه الثانى بتأمين المأكولات ووسائل النقل لهم ، ومن جهة اخرى ، حاولوا اقناع لويس السابع بان يختار الطريق الى الشرق عبر ابوليا وصقلية . فان روجه الثانى ، «حامى المسيحية» ، كما لقب نفسه رسميا ، كان يريد سرا ان يجتذب الى جانبه الاعيان الفرنسيين وعلى رأسهم الملك ، لاجل فتح القسطنطينية . الا ان جهود رسل صقلية لم تتكلل بالنجاح . فان الملك الفرنسى وباروناته فضلوا الانطلاق على نفس الطريق الذى انطلقت عليه القوات الالمانية ، اذ ان الطريق عبر ممتلكات الامبراطور البيزنطى ، حليف كونراد الثالث ، كان يبدو لهم اكثر امانة . ناهيك بانه كان معلوما ان روجه الثانى يطمح بامارة انطاكية ، فى حين ان سيد هذه الامارة ، ريمون دى بواتيه ، كان عم الملكة ايليونور وكان من اتباع الامبراطور البيزنطى . ولذا كان من شأن التقارب مع روجه الثانى ان يعقد علاقات فرنسا سواء مع الامبراطوريتين ام فى العائلة الملكية . ولذا قوبلت مقترحات ملك صقلية بالرفض .

واذ ذاك عمد روجه الثانى الى العمل على عهده ومسؤوليته . فعندما كان الصليبيون الالمان يتقدمون فى اراضى بيزنطيا ، شن ضدها عمليات عدائية . وفى صيف ١١٤٧ ، استولى اسطول صقلية على جزيرتى كورفو وسيفالونيا ، وهدم كورنتس وثيبة ولربما آثينا ، واجتاح الجزر الايونية . وتحالف «حامى المسيحية» مع مصر لكى يضمن لنفسه مؤخرة مأمونة . وكان الحاصل ظاهرة طريفة جدا : راح الفرسان الغربيون يشنون حربا مقدسة ضد الاسلام ، واذا دولة من الدول المسيحية الكبيرة تتكتل فى الوقت نفسه مع سلطان مسلم ، لكى تستغل بصورة غير مباشرة الحملة الصليبية فى مصلحتها اى ضد بيزنطيا المسيحية . وهكذا تجلت بالفعل ، فى بادىء بدء هذا المشروع ، الوحدة الموهومة بين مصالح المسيحيين الغربيين .

ان افعال روجه الثانى قد وضعت الصليبيين الفرنسيين ، المتجهين الى القسطنطينية ، والقائمين باعمال السلب والنهب فى اليونان ، فى وضع مبهم جدا حيا لبيزنطية . وقد تفاقم الارتياح فى بيزنطيا بصدد نوايا الصليبيين الحقيقية . من كان يعرف على ما اتفق رسل روجه الثانى ولويس السابع ؟ وفى القسطنطينية كانوا لا يزالون يتذكرون كيف حاول بوهيموند منذ ٤٠ سنة ان ينظم حملة صليبية ضد الامبراطورية البيزنطية . ولكن مانويل

كومنينوس حاول ان يتظاهر بالرضى . وقد وعد رسله الذين مضوا الى لويس السابع بأنه سيسمح للصليبيين بشراء احتياطات المأكولات بحرية فى اراضى الامبراطورية . وكانت رسائله الى الملك الفرنسى مكتوبة بلهجة حسن النية وحتى بلهجة الصداقة . ولكن الحكومة البيزنطية اتخذت تدابيرها . ويروى اودو من ديل ان الفرنسيين واجهوا المصاعب عند شراء المأكولات ؛ فان اليونانيين «لم يسمحوا لهم بدخول مدنتهم وبلداتهم ، وما كانوا يبيعونه كانوا ينزلونه بالحبال على الاسوار» . وقد مضى الفرنسيون الى العاصمة البيزنطية كأنما فى الصحراء ، «رغم انهم دخلوا ارضا غنية للغاية ، مليئة بالوفرة تمتد حتى القسطنطينية بالذات» .

ردا على هجوم رئيس القراصنة النورمانيين الصقليين روجه الثانى ، حشدت بيزنطية قواتها . وفى الغرب تحالفت مع البندقية مانحة اياها امتيازات تجارية جديدة ؛ فالى عداد المناطق التى كان لتجار البندقية الحق فى المتاجرة فيها بدون دفع رسوم جمركية ، اضيفت كريت وقبرص . كذلك عمد الامبراطور مانويل كومنينوس ، الحليف «الامين» للصليبيين بقدر ما هم حلفاء «امناء» للامبراطورية البيزنطية ، سعيا منه لاطلاق يديه فى الشرق ، الى عقد الصلح مع سلطنة قونية التى بدأ الفرسان الالمان النضال معها والتى كان عليها مستقبلا ان تقاتل الصليبيين الفرنسيين .

وهكذا رأى الصليبيون انفسهم بين نارين . فمن جهة ، سدد اليهم ضربة فى الظهر ملك صقلية الذى يعتنق مثلهم الدين نفسه ؛ فهو لم يوقع اتفاقية مع مصر وحسب ، بل هاجم بيزنطية كذلك ، الامر الذى كان اشد وقعا عليهم ، اذ انه اثار فى بيزنطية عميق الحذر والريبة حيال الفرسان الصليبيين وقادتهم . بل ان روجه الثانى استطاع بمختلف الحيل الدبلوماسية ان يقنع الحكومة البيزنطية بان لويس السابع يتعاطف مع سياسته هو روجه . ومن جهة اخرى ، تعرضت خطط الصليبيين للخطر لأن بيزنطيا نفسها عقدت الصلح مع السلجوقيين . وكان هذا يعنى ان «الحجاج» لن يتمكنوا من الأمل فى دعم بيزنطية فى الحرب ضد سلطنة قونية .

فى هذا الوضع ، اخذت اهمية الدوافع الدينية عند الصليبيين ثقل اكثر فاكثر بينما اخذت الاعتبار السياسية تشغل المرتبة الاولى . وعندما اقتربت القوات الفرنسية فى ايلول (سبتمبر) ١١٤٧ من القسطنطينية ، واغلق الامبراطور امام الفرسان ابواب المدينة ، «لأن الفرنسيين ، - كما يعترف اودو من ديل - احرقوا لهم (اى للروم - المؤلف) الكثير من البيوت ومزارع الزيتون - اما بسبب نقص الوقود ، واما بسبب دناءتهم وفى حالة

السكر الغبى» ، تعالت بين الصليبيين اصوات تدعو الى الاستيلاء على عاصمة امبراطورية الروم (اى بيزنطية) والى القضاء بالتالى على هذه العقبة فى الطريق الى بلوغ الهدف من الحملة .

وفى محيط الملك لويس السابع ، كما يفيد مدون الاخبار المذكور ، اخذوا يعربون اكثر فاكثر عن الفكرة القائلة انه ينبغى الاتصال بروجه الثانى الذى يخوض الحرب ضد بيزنطية ، وانتظار وصول اسطول صقلية ، وفتح القسطنطينية مع النورمانيين . وهذا المشروع طرحه ودافع عنه بالحاح كبير الاسقف غودفروا من لانغر . وقد لفت انتباه الفرسان الى ان تحصينات العاصمة البيزنطية متداعية ، وان قوات الروم للدفاع عن المدينة قليلة ؛ فاذا حاصر الصليبيون القسطنطينية ، فانها سرعان ما تسقط فى ايديهم . ان هذا الاسقف التقى الورع لم يابه البتة لكون بيزنطيا دولة مسيحية . ان اسقف لانغر ، رجل «الاخلاق المقدسة» و«البالغ الحكمة» ، كما يقول مدون الاخبار ، قد تفنن الى اقصى حد فى اختلاق الادلة على ان فتح العاصمة البيزنطية لن يلحق اى ضرر بقضية الصليبيين وان فتح القسطنطينية ليس الا فى الظاهر عملا يناقض المسيحية ، ولكنه لا يناقضها البتة فى الواقع ؛ ذلك ان الامبراطور البيزنطى دعم المسلمين غير مرة وحارب الصليبيين المستقرين فى سوريا محاولا ان يحتل امارة انطاكية . وها هو الآن قد تواطأ مع عدو الصليبيين ، سلطان قونية !

صحيح ان غودفروا من لانغر وجد عددا لا يستهان به من الانصار ، الا ان البارونات القادة الفرنسيين صدوا خطط الكتلة المعادية لبيزنطيا ؛ فقد كانت مفرطة فى المجازفة . . .

اشاع الامبراطور مانويل كومنينوس ان الصليبيين الالمان احرزوا نصرا كبيرا فى آسيا الصغرى وحتى استولوا على عاصمة سلطنة قونية ، وبذلك حمل الصليبيين الفرنسيين الذين اهاجهم الحسد على الاسراع فى عبور البوسفور مع ملكهم . وفى الحال طلب الفاسيلفس من رؤسائهم حلف يمين التبعية الاقطاعية والوعد بتسليم بيزنطية المناطق التى تخصها ما ان يستولى عليها الصليبيون . وهذا المطلب عزز ، اكثر من ذى قبل ، التوتر فى العلاقات بين بيزنطية والفرسان الفرنسيين . ثم ان الكونت روبر البرشى انفصل عن الباقيين دون ان ينسق اعماله معهم واندفع نحو نيوميديا فى الحال . ورغم ان البارونات اقساموا ، باغليبيتهم ، يمين التبعية للامبراطور مانويل ، الا انه لم يقدم لاحقا اية مساعدة فعلية للصليبيين ، بل حاول على

العكس ان يعرقلهم ، لان نجاحاتهم كانت تهدد بانتهاك السلام مع السلجوقيين .

فى اوائل تشرين الثانى (نوفمبر) ١١٤٧ التقى الصليبيون الفرنسيون فى نيقية ببقايا الجموع المسلحة الالمانية الحقة التى كانت برئاسة فريدريك من شوابيا ثم مع الفصائل السالمة القليلة التابعة لكونراد الثالث (وقد جرح هو نفسه فى القتال ضد الاتراك) . وسارت القوات الصليبية الالمانية والفرنسية الى الامام ، ولكن لا نحو اعماق البلاد ، بل بسبيل غير مباشر - فى المقاطعات الغربية والجنوبية من آسيا الصغرى . ان الخوف هو الذى اجبر الصليبيين على اختيار هذا السبيل ؛ فقد تخوفوا من التعرض للمصير الفاجع الذى حل بالقوات الالمانية التى هزمها السلجوقيون . صحيح ان الطريق كانت تمر فى المدن البيزنطية (ازمير ، برغام ، افسس) ولكن عبور الجبال العالية والسيول العاصفة رافقته خسائر كبيرة .

ان الصليبيين الالمان الذين اوهنت الاحداث السابقة عزيمتهم والذين ساروا لذلك فى اواسط العساكر ، لكى لا يتعرضوا لخطر غارات فصائل الخيالة السلجوقيين ، لم يكن ليستهوهم احتمال القيام بدور ذيل للجموع الفرنسية . ولهذا اتجه الالمان من افسس بحرا فى طريق العودة الى القسطنطينية ، لجمع القوى بعد الهزيمة التى انزلها بهم «الكفار» . ثم ان الوحدة مع الفرسان الفرنسيين لم تتحقق ؛ فان هؤلاء قد سخروا على المكشوف من اخوتهم فى الدين . ناهيك بان كونراد الثالث اصيب بمرض . خلاصة القول ان الذرائع لاجل التراجع قد توفرت . وفى القسطنطينية قابلوا عودة كونراد الثالث بعين الرضا ، اذ انه ، وهو المحروم فعلا من العساكر ، لم يعد يشكل خطرا على الامبراطور مانويل . بل ان الفاسيلفس جدد المفاوضات معه بصدد الاعمال المشتركة ضد مملكة صقيلة .

فشل المغامرة الصليبية

فى اوائل سنة ١١٤٨ ، تحركت الجموع الفرنسية التى انهكتها المسيرة من لاودقية (اللاذقية) على الدروب الصخرية الى ابعد باتجاه الجنوب . وكانت المسيرة صعبة . ويروى اودو من ديل ان فصائل الفرسان السلجوقيين «كانت تتخفى بمهارة وخفة ، مثيرة قلقنا» . وكان الادلة الروم يدلون الصليبيين قصدا وعمدا الى دروب كان فيها خطر التعرض لهجوم القواسيين

السلجوقيين على أشده . وفي كانون الثاني (يناير) ١١٤٨ منيت القوات الفرنسية بهزيمة خطيرة بجوار خونة .

وانهك السلجوقيون بغاراتهم المتواصلة الصليبيين الذين خسروا عددا عديدا من الارواح وفقدوا احتياطات المأكّل والاعلاف ، اذ انتزع العدو منهم العربات . واضطروا الى ترك مواشى الجر لأنه لم يكن لديهم ما يعلفونها به . وكابد الفلاحون الفقراء وضعا في منتهى المشقة واضطروا الى تحمل اقدح البلايا اثناء هذه المسيرة .

الا ان الاسياد الاقطاعيين لم يمتنعوا عن تلبية اهوائهم العادية في هذه المسيرة ايضا ، رغم كل مصاعبها ومشقاتها . فان ايليونور داكيتين ، زوجة لويس السابع الطائشة ، استغرقت اثناء الطريق في مختلف التسلّيات بين الفرسان الشبان . ان الموكب الفخم ، موكب الملك والبارونات الاعيان ، المحاطين بحاشية باهرة ، والالبسة الساطعة لمرافقاتهم النبيلات ، والخدم العديدين الذين يخدمون هؤلاء السيدات (وبينهم ايضا خادمت وعازفون) - كل هذا كان يناقض تناقضا حادا جموع الفقراء المنهكة والمعذبة ، التي اندفعت الى مناطق مجهولة سعيا وراء مصير افضل .

وكما في زمن الحملة الصليبية الاولى ، لم يبد الاقطاعيون اية عناية برفاقهم البؤساء والفقراء ، بل كانوا يرون فيهم بالاحرى عبئا ثقيلا . وما لبثوا ان اغتنموا الفرصة للتخلص من هذا العبء . ففي اوائل شباط (فبراير) ١١٤٨ وصلت جموع الصليبيين الى مدينة اتالا البحرية البيزنطية في بامفيليا . استقبل الروم الافرنج ببالح العدا . ويقول اودو من ديل انهم «سلخوا جلودهم في الاسواق» . واضطر الفرسان الى بيع خيولهم او الى مبادلتها بالخبز واللحم . «وكان وضعنا بحيث اننا كنا نبيع بابخس الاسعار ونشتري باسعار غالية لا سابق لغلانها» . وعندما كان الصليبيون يفاوضون السلطات المحلية بصدد تأمين السفن لنقلهم الى سوريا ، طلب الحاكم الرومي لاندولف سعرا لم يسمح بمثله من قبل عن السفن وعن الاشياء الاخرى . وسرعان ما اتضح على العموم ان سفن الروم بالكاد تكفى لشحن الاعيان وحدهم على متونها .

الا ان الفرسان النبلاء ، حرصا منهم على انقاذ جلودهم قبل كل شيء ، وتناسيا منهم للموعظة المسيحية بحب القريب ، لم يمعنوا الفكر طويلا : فقد تركوا الفقراء وشأنهم ، ورفعوا الاشرعة وغادروا اتاليا . وحاول المتبقون ان يواصلوا طريقهم الى الشرق بصورة مستقلة ، بالسير بمحاذاة الساحل ، ولكن اغلبيتهم اما ابادها السلجوقيون واما سقطت ضحية الجوع والحرمانات .

في ١٩ آذار (مارس) ١١٤٨ ، وصلت قوات الصليبيين الفرنسيين الى انطاكية بعد ان تقصت الى النصف . وبعد فترة وجيزة ، وصل بحرا من القسطنطينية الى عكا فصيل صغير من الاقطاعيين الالمان بقيادة كونراد الثالث ؛ ومن عكا انطلق الصليبيون الى القدس . استثارت اعمال كونراد الثالث الحذر والارتياح في نفس لويس السابع ؛ ولهذا السبب بالذات لم يقوم هذا الاخير بايئة محاولة ، رغم وصول مدد في شخص الفرسان البروفانسيين برئاسة الكونت الفونس-جوردان ، لكي يستعيد من السلجوقيين المناطق التي استولوا عليها بين انطاكية واعالي الفرات . وفضلا عن ذلك ، مضى هو ايضا الى القدس بحجة الايفاء بالنذر الديني الذي اعطاه . وللمناسبة نقول ان حماسة الملك القتالية قد خففت كثيرا من هوجاء المغامرات الغرامية التي اندفعت فيها زوجته ايلينور داكيتين التي اقامت ، كما يشير مدونو الاخبار ، علاقة اجرامية مع عمها ريمون ، امير انطاكية .

في ٢٤ حزيران (يونيو) ١١٤٧ ، تلاقى لويس السابع وكونراد الثالث ومقربوهما مع وصية العرش ميليساندا واعيان القدس . وعن هذا اللقاء تغيب - لاسباب مختلفة - اسيا دول الصليبيين في سوريا الشمالية - ريمون من انطاكية ، ريمون من طرابلس ، جوسلين من الرها . تناول البعث خططا مختلفة للعمليات الحربية . واخيرا تخلى قادة الصليبيين عن اقرب اهدافهم - استعادة الرها ، - ونسوا الحرب ضد الموصل ومضوا ، مع القوات التي تشكلت في مملكة القدس ، يحاصرون مدينة دمشق المحصنة تحصينا منيعا ، لان فتحها كان يبشر بغنيمة وافرة ا دام الحصار خمسة ايام (٢٣-٢٧ تموز - يوليو) ولكن عبثا .

ولم تتوقف المخاصمات والمشاحنات بين الفرسان الفرنسيين والالمان والاهم هو ان احتمال فتح دمشق لم يكن يطيب للقسم الابعد نظرا من بارونات مملكة القدس . ففي المقام الاول كانت ترد عندهم هموم مغايرة تماما . كان ينبغي الاحتفاظ على الاقل بالاراضي الفلسطينية المحتلة سابقا . وبقدر ما كانت تتوطد مواقع آل زنكي في الصراع ضد الصليبيين ، كانت التربة تميد اكثر فاكثر تحت اقدام بارونات مملكة القدس . وكان تحسين العلاقات مع دمشق واستغلال التناقضات بين حكامها وآل زنكي يبدو ان لهم افضل بكثير . وبالعكس ، لم يكن انتصار الصليبيين الفرنسيين والالمان يبشر للصليبيين القدماء باي خير ، اذ كان الكونت تيري من الفلاندر موعودا بدمشق . وبالنتيجة نضجت بين بارونات مملكة القدس «خيانة القضيعة المسيحية» .

ان غياب وحدة الفكر بين المحاصرين لم يبق سرا على حكام دمشق . و يروى المؤرخان الشرقيان ابو الفرج الاصبهاني وميخائيل السرياني انه ارسلت من المدينة الى معسكر المحاصرين ، الى ملك القدس بودوان الثالث ، بعثة سرية . وكان مغزى نصائح المبعوثين يتلخص فيما يلي : على بودوان ان لا يأمل في البقاء في القدس اذا «ثبت كونراد العظيم (كونراد الثالث - المؤلف) قدميه في دمشق» . وعرض المبعوثون على الملك ٢٠٠ الف دينار ، وعلى بارون طبرية ١٠٠ الف دينار لكي يقنعا الملك الالمانى بالانسحاب . وفي اواخر تموز (يوليو) ١١٤٨ تخلى فرسان الصليب عن مشروعهم ، دون ان يحصلوا على شيء ، بناء على اصرار هؤلاء البارونات الذين رشاهم واشتراهم الوزير الدمشقي معين الدين النور ، فضلا عن ذلك ، بالذهب (الذي كان مزيفا ، كما اتضح فيما بعد) . وقد اضطروا الى ذلك ، خصوصا وان معين الدين النور قد دعا ، من جهته ، وان لم يكن بطبيعة خاطر ، قوات الموصل الى نجدته . ومن الشمال اخذت تقترب من المدينة المحاصرة قوات سيف الدين الموصلى واخيه نورالدين من حلب . وبما ان الصليبيين كانوا قد خسروا عددا كبيرا من الناس ، فقد تراجعوا الى حدود مملكة القدس . وبما ان كونراد الثالث قد اقتنع بان الوضع ميؤوس منه ، فقد عاد الى المانيا مع اتباعه القلائل في ربيع ١١٤٩ عبر القسطنطينية وسلانيك . وبعد بضعة اشهر عاد لويس السابع الى بلاده .

لم تعط الحملة الصليبية الثانية اية نتائج عملية . فان هذه المغامرة التي كانت سيئة التنظيم والتي جرت بصورة أسوأ لم تسفر الا عن ضحايا بشرية وخسائر مادية جديدة ، اكبر من ذي قبل . والاموال الطائلة التي جمعت بالضغط الفائق القساوة على الجماهير الشعبية أنفقت عبثا . كذلك تسببت الحملة بضرر سياسي مباشر للسلطة المركزية ، سواء في فرنسا ام في المانيا . واجتاحت فرنسا موجة من الحروب الاهلية الاقطاعية ، واستدان لويس السابع الاموال ، ولاسيما من الهيكليين الذين اخذ منهم مبلغا كبيرا لتلبية الحملة ، ولحق ضرر لا يستهان به بمواقع السلطة الملكية في المانيا ، فوق ما هي عليه من تزعزع .

وقد قدمت الحملة الصليبية الثانية ، مثلها مثل الاولى ، البرهان الجلي على غياب الوحدة بين الغزاة الاقطاعيين الغربيين . واخذت الاعتبارات الدينية ، كما بينت ذلك ببالغ الوضوح مشاريع احتلال القسطنطينية ، تفقد اهميتها اكثر فاكثرا . وقد تدهور مدونو الاخبار في القرن الثاني عشر من ضعف الحماسة الدينية ابان الحملة الصليبية الثانية . ولم تحمل هذه الحملة

اكاليل الغار الى الكنيسة الكاثوليكية . ثم ان التناقضات التي تفاقمت بين دول اوروبا الغربية بسبب التطلعات والمطامع التوسعية فى منطقة البحر الابيض المتوسط ، اخذت تعارض قطعا هذه الدول بعضها ببعض . وفى الوقت نفسه اشتدت المصادمات مع بيزنطية . وابان الحملة الصليبية الثانية تحطمت المشاريع الكونية الكلية التي واصلت البابوية حبكها لاجل بسط سيطرتها على العالم كله ، اذ اصطدمت بتعاضم ميول التفرقة والتقسيم والتفتيت . كذلك اسهم بقسط كبير فى فشل الحملة انعدام الوفاق والوئام بين زعماء الجموع الصليبية ، وخلافاتهم مع بارونات سوريا وفلسطين .

وبما ان الحملة الصليبية الثانية قد منيت بالافاق التام ، فقد قوضت مكانة البابوية . وبدأوا فى الاوساط الكنسية العليا يفتشون عن المذنب فى فشل المشروع الذى يرضى الرب . وقد القى البابا اوجينيوس الثالث كل المسؤولية على برنار من كليرفو . اما برنار ، فقد صرح انه تصرف بامر من البابا . ولانقاذ سمعة الكرسي الرسولى ومكانته ، طفقت اوساطها العليا تتشاجر ؛ ومن كل مكان اخذت تنهال الملامات والاهانات المتبادلة . ونعت البابا برنار «القديس» بالغبى . فعمد برنار آنذاك الى الكتابة ، ووضع مؤلفه «فى التأمل» وخصص فصلا كاملا منه لتوضيح اسباب هزيمة القوات الفرنسية والالمانية ، وحاول ان يصور دوره فى مصائر الحملة الصليبية باحسن صورة . اما المسؤولون عن فشل الحملة ، فهم الصليبيون انفسهم ، كما قال برنار . ذلك انهم لم يستطيعوا بلوغ هدف الحرب المقدسة ، برأيه ، بسبب خطاياهم بالذات . اما هو برنار ، فانه ، مثل موسى التوراة الذى قاد شعب الله المختار الى ارض الميعاد ، قد استنهض المقاتلين الى مقاتلة اعداء الرب ، ولكن خطايا الصليبيين ، كما حدث فيما مضى لشعب اسرائيل ، قد اغلقت امامهم الآن مجال الوصول الى الارض المقدسة . فان الرب الغاضب قد عاقبهم ، وهل من داع للاستغراب ؟ من هنا ، لا ينجم البتة ، كما زعم برنار فيما بعد ، ان نوايا جنود المسيح لم تكن تتطابق مع الارشادات الربانية . ان الحملة الصليبية هى الآن كما من قبل ، من حيث المبدأ ، عمل من مشيئة الرب الى اقصى حد ، وسوف تبقى كذلك مستقبلا . والافاق لا يدل الا على ان منفذى ارشادات الرب العلى المباشرين ، اى مقاتلى فصائل لويس وكونراد الثالث ، ظهروا غير جديرين بهذه المهمة العظيمة التى عهد اليهم الرب بتنفيذها ، ولذا منوا بالهزيمة .

لم يعد من الممكن آنذاك اتقاذ سمعة روما ومكانتها بمثل هذه التعليقات . ففى اوساط الغرب الواسعة ، ارتفعت اصوات التذمر سواء من البابا ام

من برنار ، رئيس دير كليرفو ، اللذين تسببا بموت كثيرين من الناس .
وبرنار الذي تنبأ بنجاح المشروع نعتوه بالنبي الكذاب ، والبابا اوجينوس
الثالث الذي كان المبادر الى الحملة الصليبية والذي بارك هذه المغامرة ،
نعتوه بالمسيح الدجال .

وعندما قام برنار من كليرفو في سنة ١١٥٠ بمحاولة اخرى لتنظيم حملة
صليبية ، لم يلق التأييد حتى من البابا ، رغم ان بعض البارونات الفرنسيين
وبعض كبار رجال الكنيسة (ولاسيما بطرس المكرم - Pierre le Vénérable
رئيس ومصلح دير كلوني) اقترحوا ان يتراس برنار نفسه الحرب المقدسة
الجديدة . وبموجب مجمع شارتر (ايار - مايو ١١٥٠) ، صادق البابا
اوجينوس الثالث ببولا (مرسوم) بتاريخ ١٩ حزيران (يونيو) على تعيين
برنار ، رئيس ومصلح دير كليرفو ، قائدا للصليبيين . ولكن لم يذهب
الامر الى ابعد من الاحاديث .

اخفقت الحملة الصليبية على الشرق اخفاقا تاما ؛ وبعد وفاة برنار ،
دفنت لزمان طويل شتى الخطط للقيام بمشاريع من هذا النوع .
كان النجاح في الريكونكيستو في شبه جزيرة البيرينه النجاح الوحيد
وغير المباشر الذي احرزه رجال حملة سنة ١١٤٧ . فان قسما من الصليبيين
الذين ابحروا في ايار (مايو) ١١٤٧ على السفن من مرفأ دارتموث
الانجليزى - وكانوا من الفلمنكيين والفريسلانديين والانجليين
والاسكتلنديين - قد استرجعوا ليشبونة من العرب . وتوقف الصليبيون في
بورتو ، واستجابوا لنداء اسقف بورتو بتقديم العون لملك البرتغال ،
الفونس ، الذي كان يحاصر ليشبونة منذ ثلاثة اشهر . وبما ان الصليبيين قد
نالوا موافقته على نهب المدينة في حال فتحها ، فقد قرروا ان يتوقفوا برهة .
وفي ٢٦ ايلول (سبتمبر) ١١٤٧ استولوا على ليشبونة وغنموا فيها بالفعل
غنيمة وفيرة . ومذ ذاك ، صارت هذه المدينة التى ظلت اكثر من ٤٠٠
سنة تحت حكم العرب ، جزءا من المملكة البرتغالية .

المرحلة الجديدة فى هجوم السلجوقيين المضاد . صلاح الدين واستعادة المسلمين للقدس

اخفقت الحملة الصليبية ١١٤٧-١١٤٨ . وفى غضون ذلك ، كانت
ميول التلاحم والتوطد تتعاضد وتشتد فى الشرق الاسلامى رغم التناقضات .
وفى السبعينيات من القرن الثانى عشر ، تشكلت هناك دولة كبيرة جمعت

قسما كبيرا من آسيا الامامية . وقد لعب دورا بارزا في تأسيسها القائد العسكري والسياسي الفد يوسف صلاح الدين (١١٣٨-١١٩٣) . كان صلاح الدين كردى الاصل . وقد سبق له ان ترقى وبرز عندما كان والده ايوب وعمه اسد الدين شيركوه يشغلان مناصب رفيعة فى بلاط عماد الدين زنكى . كان ايوب فى البدء عامل بعلبك ، ثم انتقل الى خدمة اتابك دمشق وساعد كثيرا شيركوه فى احتلال دمشق فى سنة ١١٥٤ بتكليف من نور الدين زنكى .

كان الشاب صلاح الدين من افراد حاشية شيركوه ؛ وبعد فترة وجيزة اظهر كفاءات عسكرية ممتازة . وفى اواخر الستينيات تميز صلاح الدين ، كأمر عسكري ، فى حروب شيركوه ضد مصر الفاطميين وضد الافرنج الذين حاولوا فى عهد الملك آمورى الاول ان يستولوا على مصر . وفى سنة ١١٦٩ صار شيركوه وزيرا فى مصر ، ولكنه توفى فى السنة ذاتها . وكان صلاح الدين ابن اخيه ، قد صار بالفعل الشخصية الاولى فى بلاط الخليفة الضعيف العادل . وعندما توفى العادل فى سنة ١١٧١ ، استولى صلاح الدين على زمام السلطة العليا مباشرة . وقد قضى الوزير الجديد بدنيا على انصار الخليفة الاخير ، ونظم الشؤون المالية ، واعاد تنظيم القوات المسلحة . ومنذ ذاك صار المقاتلون من الاكراد والسلجوقيين (الذين حلوا محل السودانيين والبربر والارمن) عماده . وفى سنة ١١٧٥ منح خليفة بغداد صلاح الدين لقب السلطان .

فى حقبة قصيرة ، وحد صلاح الدين مصر وقسما كبيرا من سوريا وبلاد ما بين النهرين ؛ وفى سنة ١١٧٤ استولى على دمشق وحماه وحمص وغيرها من المدن ؛ وفى سنة ١١٨٢ فتح حلب ، وفى سنة ١١٨٦ ، اعتبر حاكم الموصل زنكى الثانى نفسه تابعا للسلطان صلاح الدين الذى صار اقوى حاكم فى العالم الاسلامى . ومن حيث الجوهر ، وقع الشرق الافرنجى فى طوق دولة صلاح الدين . وقد وجه صلاح الدين ، الذى اسس سلالة الايوبيين ، جميع موارد الدولة الى النضال ضد الافرنج . وبما انه استهدف فى المقام الاول القضاء على مملكة القدس ، فقد تعهد بشن الجهاد على اعداء الاسلام .

فى البدء ، كانت رضى النضال ضدهم تستخدم حسب الصدف ، بين الفينة والفينة . فعندما كان صلاح الدين وزيرا ، شن ، فى كانون الاول (ديسمبر) ١١٧٠ ، غارة على غزة ، الحصن الواقع على حدود مملكة القدس . وبعد ذاك ، استولى المصريون على ايلة ، المرفأ الواقع فى خليج العقبة على

ساحل البحر الاحمر . وفي سنة ١١٧٩ ، انزل فاروق الشاه ، القائد العسكرى العامل فى خدمة صلاح الدين ، خسارة جسيمة بقوات ملك القدس بودوان الرابع فى معركة بلفور . وبلغت بعض فصائل المسلمين صيدا وببيروت . وفى سنة ١١٨٠ انتزع اسطول السلطان صلاح الدين الذى اقلع من الاسكندرية ، جزيرة ارواد من الصليبيين . واخذت الغيوم تتلبد اكثر فاكثر فوق مملكة القدس . ودخل الانتقام الاسلامى المرحلة الحاسمة .

ادرك البارونات الصليبيون ما يمكن ان تودى اليه حملة صلاح الدين لاحقا . وفى سنة ١١٨٣ قررت الكورية الملكية فى القدس فرض ضريبة استثنائية عامة ؛ وكان ينبغى اتفاق الاموال المحصلة جميعها تقريبا على تعزيز الدفاع دون «الكفار» الذين اشتد نشاطهم . كان مقدار الضريبة يتوقف على قيمة الاموال ، وكان الجميع ملزمين بدفعها بصرف النظر عن الجنس والالتقاء الدينى والاثنى . وقد عهد الى الاسياد بتحصيل النقود من اقنانهم . وفى ١١٨٤-١١٨٥ مضى بطريك القدس والاستاذان الاكبران للجمعيتين العسكريتين الرهبانيتين الى اوروبا للقيام بجولة للدعاية والتجنيد ؛ لقد سافروا لطلب المعونة ضد «الكفار» .

بدأ ضغط المسلمين المنتظم والدائب على ممتلكات الافرنج منذ النصف الثانى من الثمانينيات فى القرن الثانى عشر . ان غياب التلاحم بين الاقطاعيين الصليبيين المستغرقين كليا فى الهموم الدنيوية ، وفى المخاصمات بسبب الاراضى والالقاب ، وفى الحيل والمؤامرات الديبلوماسية ، قد اتاح لصلاح الدين فى سنة ١١٨٧ ان يقتحم بقواته المقاطعات الداخلية من مملكة القدس . كانت الغارة للصوصية التى شنها احد بارونات الافرنج البارزين ، رينو دى شاتيون (De Chatillon) الذريعة المباشرة لاجل هجوم المسلمين . فان رينو هذا كان مغامرا وقحا ، كسب شهرة مخزية «بمآثره» للصوصية . وقد سبق له ان اجتاح قبرص البيزنطية فى سنة ١١٥٥ واعمل فيها النهب والسلب . ثم تزوج هذا السيد زواج مصلحة من وريثة امارة انطاكية ، واكتسب بهذه الطريقة بعضا من الممتلكات على نهر العاصى . واخيرا وقع ذات مرة فى اسر نور الدين وامضى فى الاسر ١٦ سنة . وبعد اخلاء سبيله ، لم تخف البتة ميوله الى المغامرة ، فاستقر فى حصن الكرك ، شرقى البحر الميت ، وعكف على نهب وسلب قوافل التجار المارة فى الجوار ، لان الحصن كان يقطع الطريق من سوريا الى مصر والى الحجاز . وفى اواخر سنة ١١٨٦ ولربما فى اوائل سنة ١١٨٧ ، شن رينو دى شاتيون ، مكسرا وغدرا ،

وخلافا لشروط الهدنة السارية المفعول آنذاك بين مصر ومملكة القدس (وقد سبق ان عقدت الهدنة في سنة ١١٨٠) غارة على قافلة متجهة من القاهرة الى دمشق بقيمة كبيرة . ونهب كليا القافلة التي كانت فيها اخت صلاح الدين . واذا السلطان صلاح الدين ، الذي اصيب بنكبة مزدوجة ، يطالب في الحال ملك القدس آنذاك غي دي لوزينيان (١١٨٦-١١٩٠) بالتعويض عن الضرر والافراج عن الاسرى ومعاقبة الناهب . ولكن الملك لم يجازف بمس واذلال تابعه القوى ، وان يكن قد توافق . فاستغل صلاح الدين رفض مطالبه وشن عمليات جبهوية حاسمة ضد «اعداء الله» . في البدء اجتاحت قواته في الربيع الباكر من سنة ١١٨٧ مناطق قلعتي الكرك وكراك دي مونريال ؛ وبعد شهرين بدأ الجهاد ضد الافرنج . واحتشدت قوات المسلمين الموحدة - من دمشق وحلب والموصل ومقاطعات ما بين النهرين - في رأس الماء وباشرت العمليات الحربية .

انقضت الضربات المؤلمة على مملكة القدس الواحدة تلو الاخرى . وفي ايار (مايو) ١١٨٧ ابعدت الى الشمال الشرقي من الناصرة فصيلة كبيرة مؤلفة اساسا من الفرسان الرهبان ؛ وقد لقي الاستاذ الاكبر لجمعية الاوسبيتاليين روجه دي مولان مصرعه . وفي الثاني من تموز (يوليو) استولى جيش صلاح الدين على طبرية ثم ضرب طوقا مكثفا حول قوات كبيرة من الصليبيين قرب قرية حطين ، بين الناصرة وبحيرة طبرية . والى هنا ، الى المرتفع ، اندفع الصليبيون - رغم النصائح الحكيمة التي تقدم بها ريمون الثالث ، كونت طرابلس ، الذي رأى وهن هذا الموقع من الناحية الاستراتيجية - بدافع من عناد الاستاذ الاكبر لجمعية الهيكلين جيرار دي ريدفور ، وحمية رينو دي شاتيون اللذين عمل ملك القدس برأيهما بعد ترددات طويلة .

في القتال الدامي الذي دارت رحاه في ٤ تموز (يوليو) ١١٨٧ ، انتصر المسلمون . وقد جرت المعركة في وضع غير ملائم للصليبيين ، في قيظ رهيب . وكان ينقص ماء الشرب . وفي كل مكان احرق المسلمون الاعشاب والشجيرات ، واذا الفرسان الصليبيون الذين انتظموا على المرتفع في ثلاثة طوابير قتالية تلفهم سحب الدخان المتصاعد الى اعلى . . . دامت المعركة نحو ٧ ساعات على التوالي . وسقط مئات الفرسان وآلاف المقاتلين المشاة في ساحة الوغى . ووقع في اسر صلاح الدين الملك غي دي لوزينيان ، والاستاذ الاكبر لجمعية الهيكلين جيرار دي ريدفور ، وقائد الجيش الفرنسي اموري دي لوزينيان ، وكثيرون من البارونات - غليوم دي مونفيرات ،

وغيره . ولم ينج سوى بضع مئات من الاشخاص فروا الى صور واحتموا وراء اسوارها .

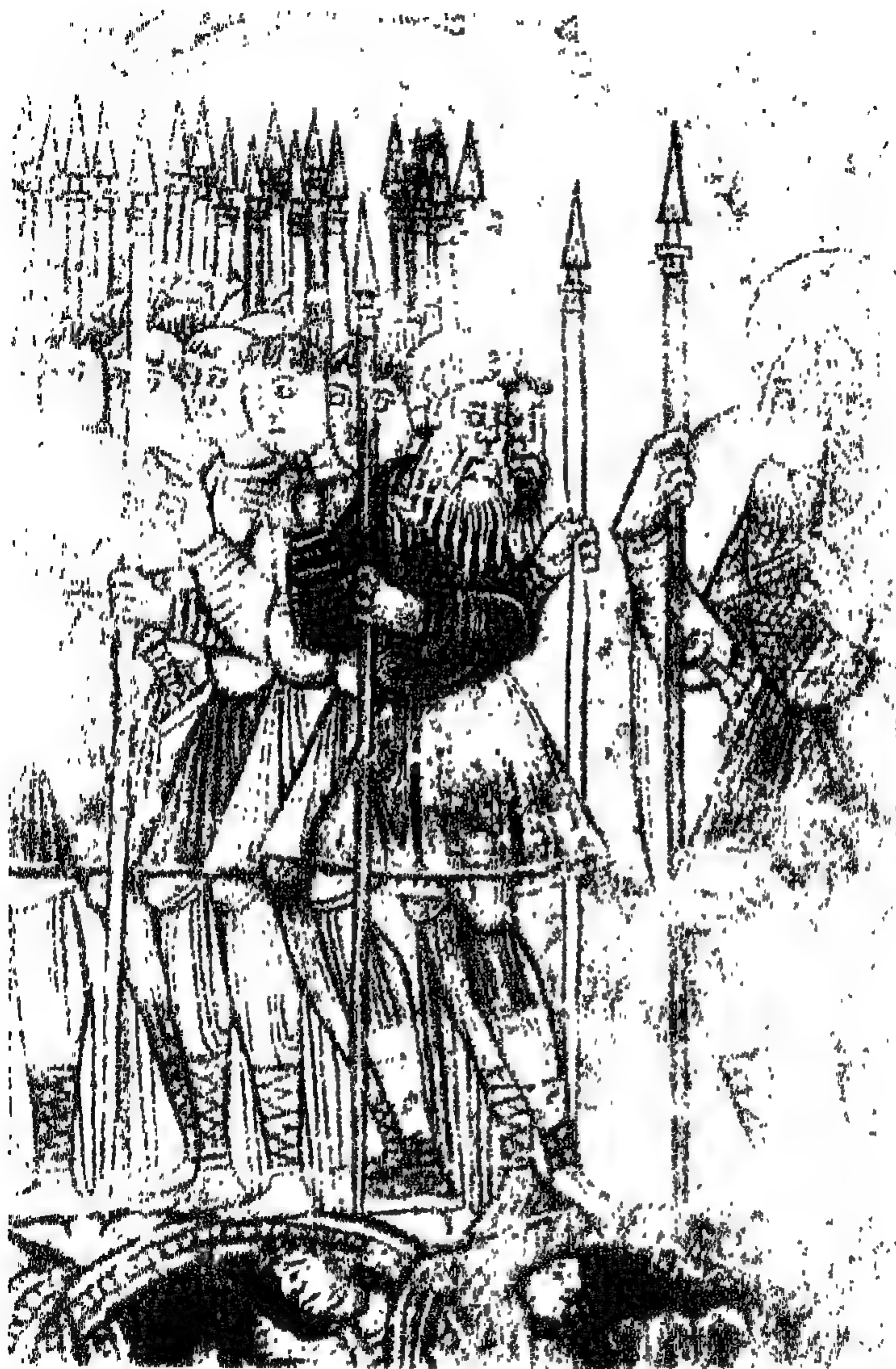
حفظ السلطان صلاح الدين حياة اغلبية الاسرى بمن فيهم الملك والاستاذ الاكبر (بامل فديسة كبيرة) ، ولكن زهاء ٢٠٠ من الفرسان الهيكليين والاوسبيتاليين اعدموا بامر منه . اما البارون المتغطرس رينو دى شاتيون ، فقد قطع السلطان الظافر بسيفه رأسه عندما رفض اعتناق الدين الاسلامي . كان انتصار حطين مقدمة للنجاحات التي احرزها المسلمون فيما بعد . فسرعان ما احتل صلاح الدين المدن الساحلية كلها تقريبا جنوبى طرابلس : عكا ، بيروت ، صيدا ، يافا ، قيسارية ، عسقلان . وقطع اتصالات القدس مع اوروبا . كذلك استولى المسلمون على اهم قلاع الصليبيين جنوبى طبرية ، ما عدا الكرك وكراك دى مونريال . وفى النصف الثانى من ايلول ١١٨٧ حاصرت قوات السلطان صلاح الدين القدس . ولم يكن بمقدور حاميتها الصغيرة ان تحميها من ضغط جيش مؤلف من ٦٠ ألفا رجل . وحين رأى السكان عقم مواصلة المقاومة ، قرروا بعد ستة ايام من النضال ان يستسلموا لرحمة الظافر . وفى الثانى من تشرين الاول (اكتوبر) ١١٨٧ فتحت الابواب ، واحتل المسلمون المدينة . وفوقها اخذت تخفق راية السلطان الصفراء باعتزاز .

برهن صلاح الدين انه رجل دولة حكيم ، فعامل القدس وسكانها معاملة ارق واخف بكثير مما عاملهم الغزاة الصليبيون حين انتزعوا المدينة من حكم مصر قبل ذاك بنحو مائة سنة . فلم تقح قساوات لا معنى لها ، ولم تحدث تدميرات . الا ان السلطان ، والحق يقال ، عيثن ، لقاء «رحمته» ، ثمنا عاليا جدا ، ولكنه سمح مع ذلك للسكان المسيحيين بان يغادروا القدس فى غضون ٤٠ يوما بعد دفع الفدية : عن كل رجل ١٠ دنانير ذهبية ، عن كل امرأة ٥ دنانير ، عن كل طفل دينارا ذهبيا واحدا . لم يستطع زهاء ٢٠ ألف فقير جمع نقود الفدية . ورفض الفرسان الرهبان الهيكليون والاوسبيتاليون الذين يملكون الاموال بوفرة ان يقدموا هذه النقود لاجل افتداء الفقراء ، وذلك بحجة انه لا يحق لهم التصرف بالنقود التى عهد اليهم الغير بحفظها . الا ان خطر الاستياء والغضب اجبر الفرسان الرهبان على فتح صرّاتهم ، فدفعوا ١٤ ألف دينار ذهبى عن ٧ آلاف فقير (كانت فدية امرأتين او عشرة اولاد توازى فدية رجل واحد) . وهكذا لم يستطع زهاء ١٥ ألف شخص ان يفتدوا انفسهم فبيعوا عبيدا .

ان الرقة النسبية التى ابداهما القائد العسكرى صلاح الدين الايوبى بعد



ساجار ، من مساه وهران ، في الطريق . مسنحة
من مطوية فروسية (المكتبة الوطنية في باريس)



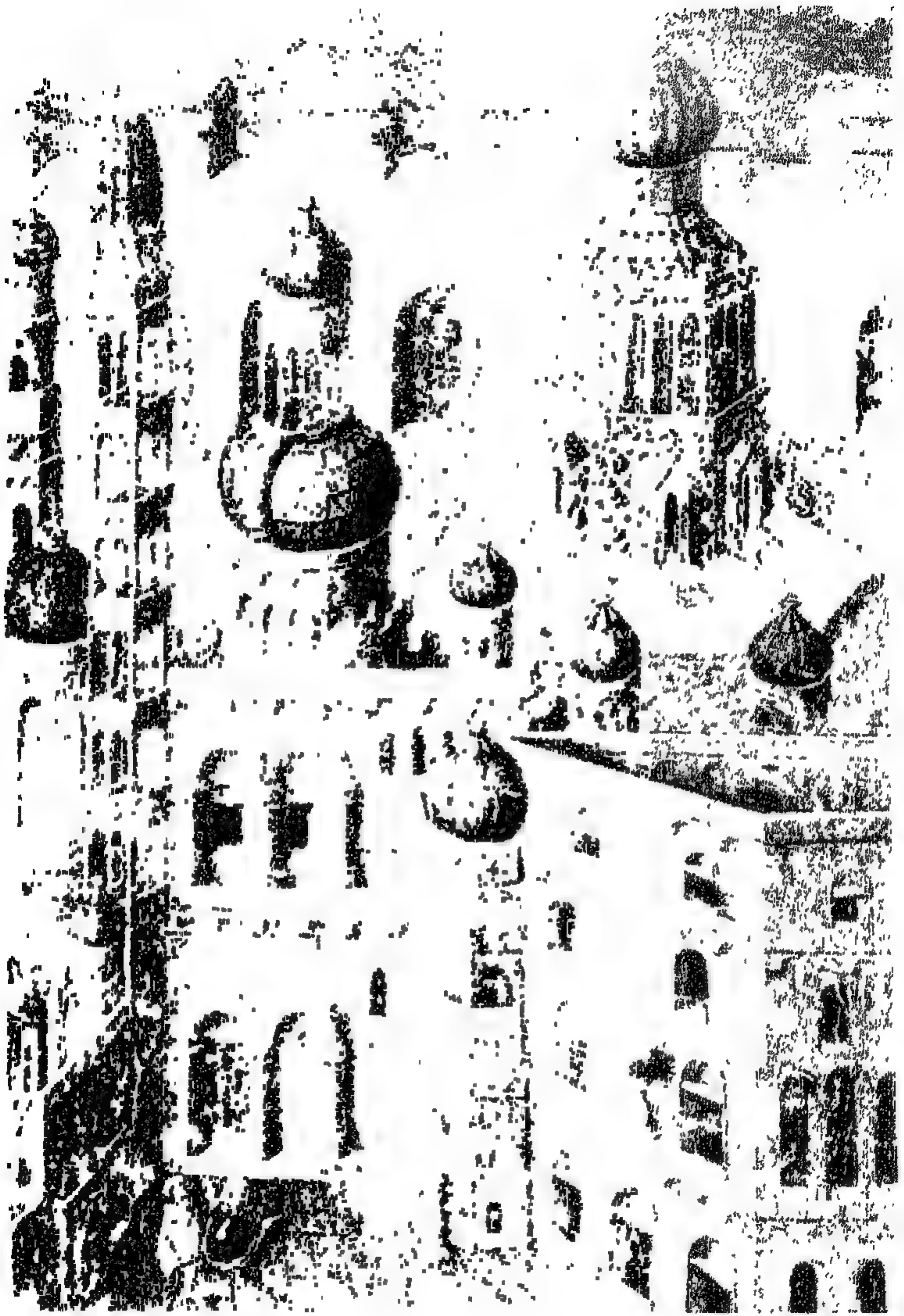
المسألة الأولى: ما هو الفرق بين المبدأ والمبدأ؟
المبدأ هو الأساس الذي يقوم عليه البناء، والمبدأ هو الأساس الذي يقوم عليه البناء.



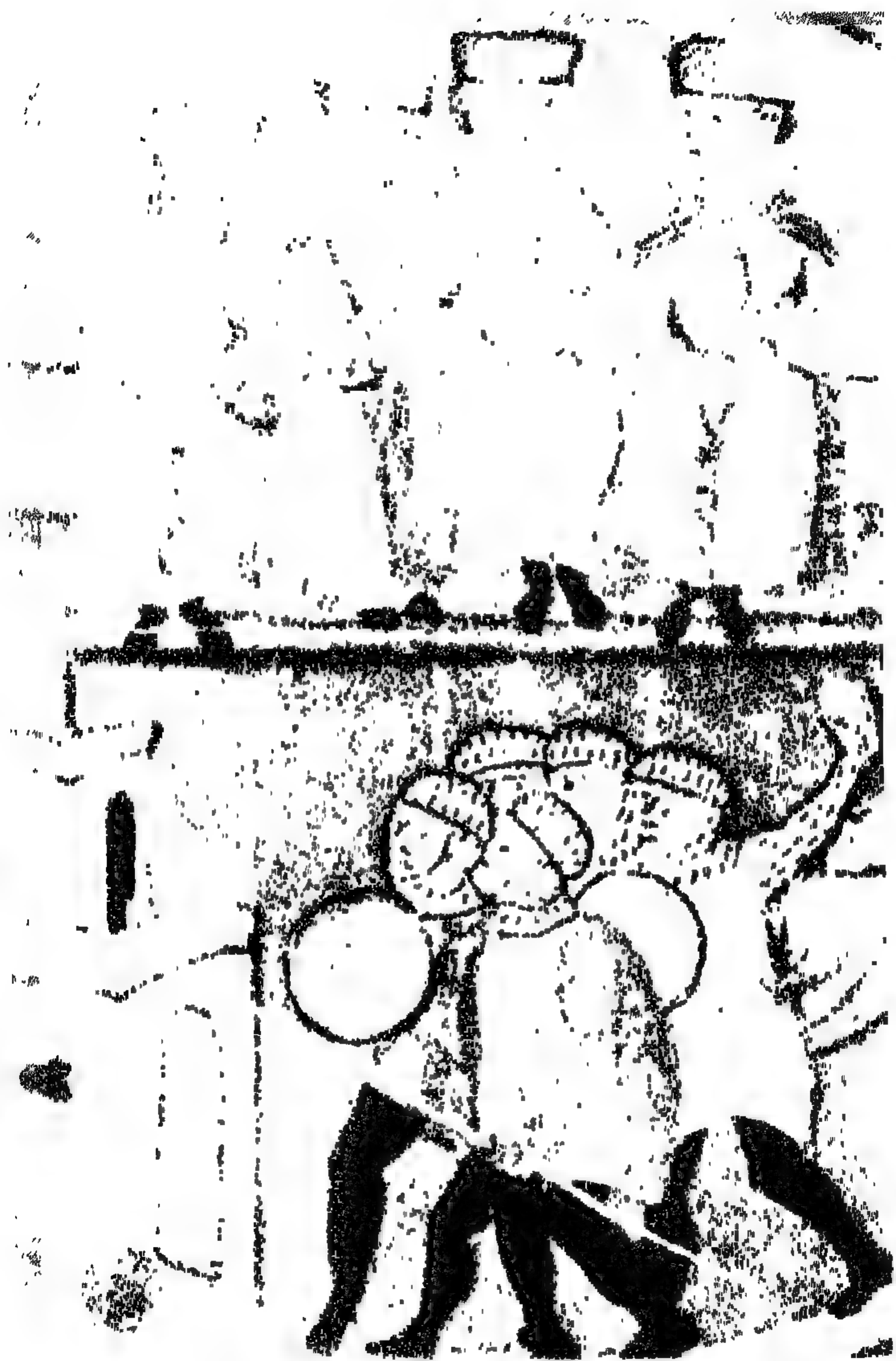
استسلام مسلحي الجماعة الاولى على الطاكية في ٢٨ حزيران (يونيو) ١٠٩٨ .
 مجموعة من مسلحي الجماعة اختار تسليم السلاح (المكتب الوطني في باريس)



استسلام مسلحي الجماعة الاولى على الفندس في ١٥ تموز (يوليو) ١٠٩٩ .
 مجموعة من مسلحي الجماعة اختار تسليم السلاح (المكتب الوطني في باريس)



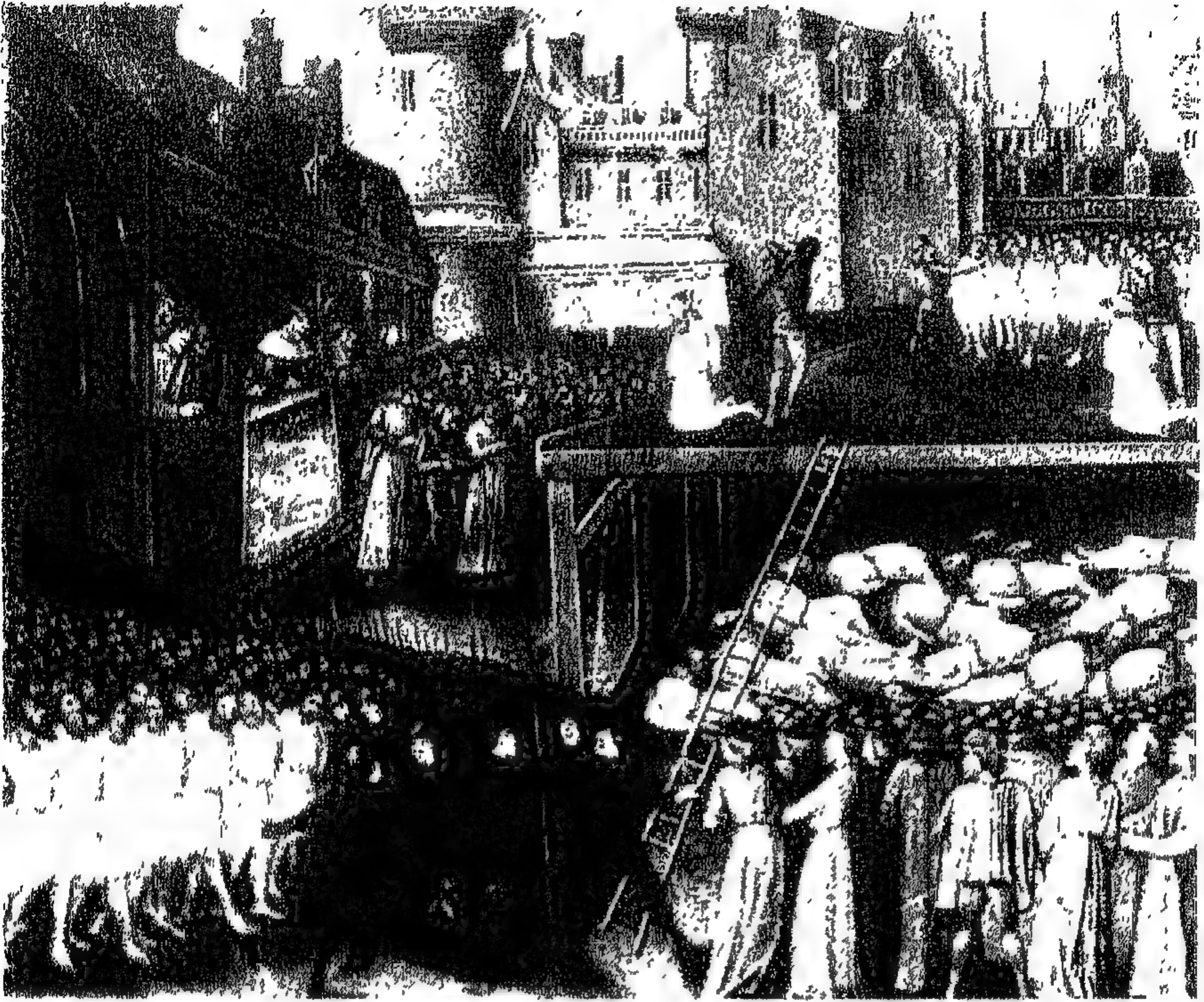
كنيسة القبر المقدس في القدس ، الى اليمين ، وخلفها ،
جامع وقبة السخنة . مئذنة من اخبار من اوائل القرن
العاشر عشر



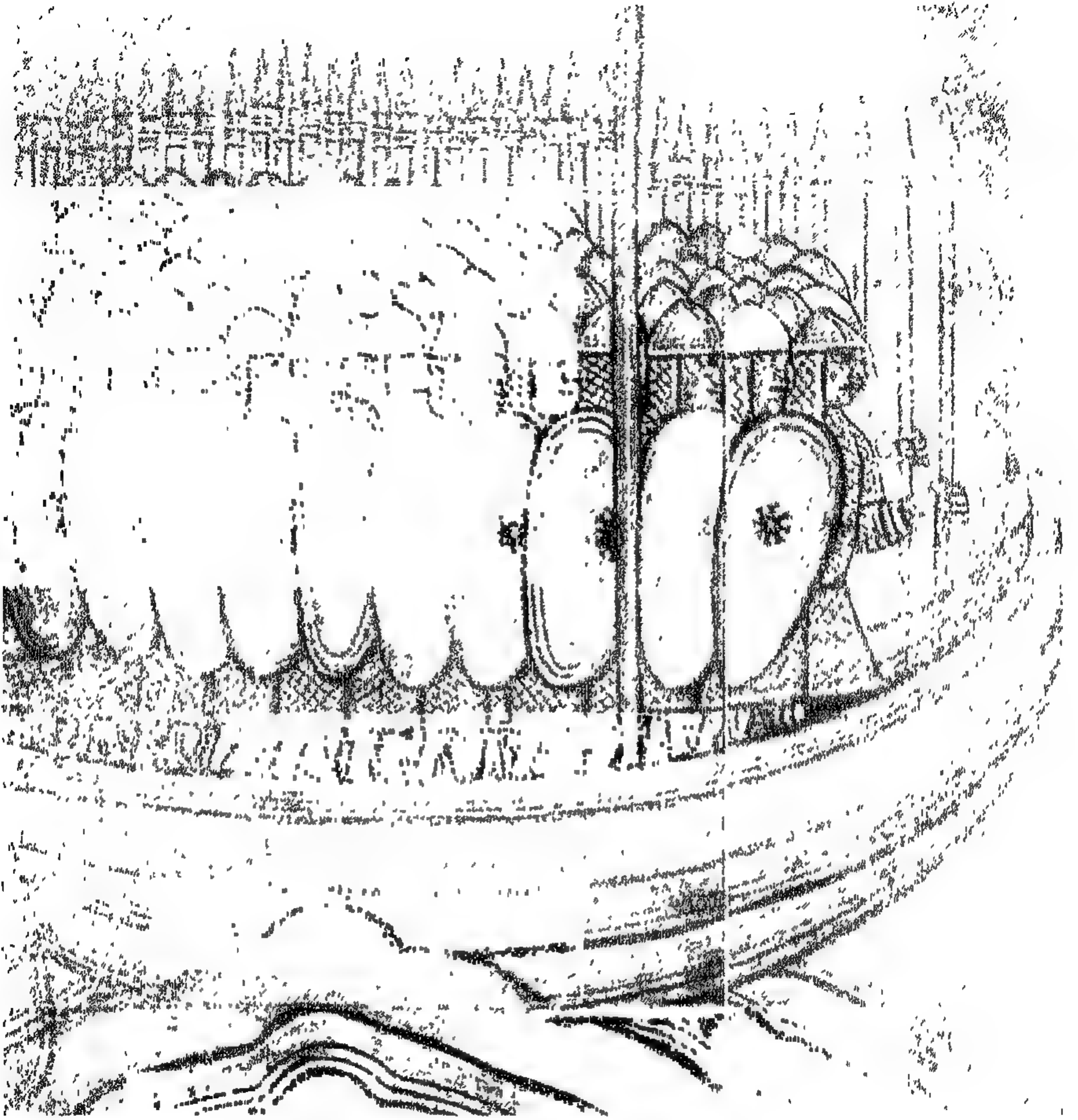
منبأهد من ناربج الحولة السلسبه السله . في اعل - لوس
 السابج ، هلك في نرسا ، وكونرار السالك (في الوسيله) ، ملك
 المانيا ، في اسفل - حصار السلهبيين امدبده (منسق) منمنه
 من سحطوانه احبار بلجوم السورى ، (المكة) الوطنيه في ناربس



الاله رانلور الالهامي في يدريك الاول في روما في لباس الصليبي
 منسوبة الى سبطاولة برومبليية (مكتبة الفايكان)



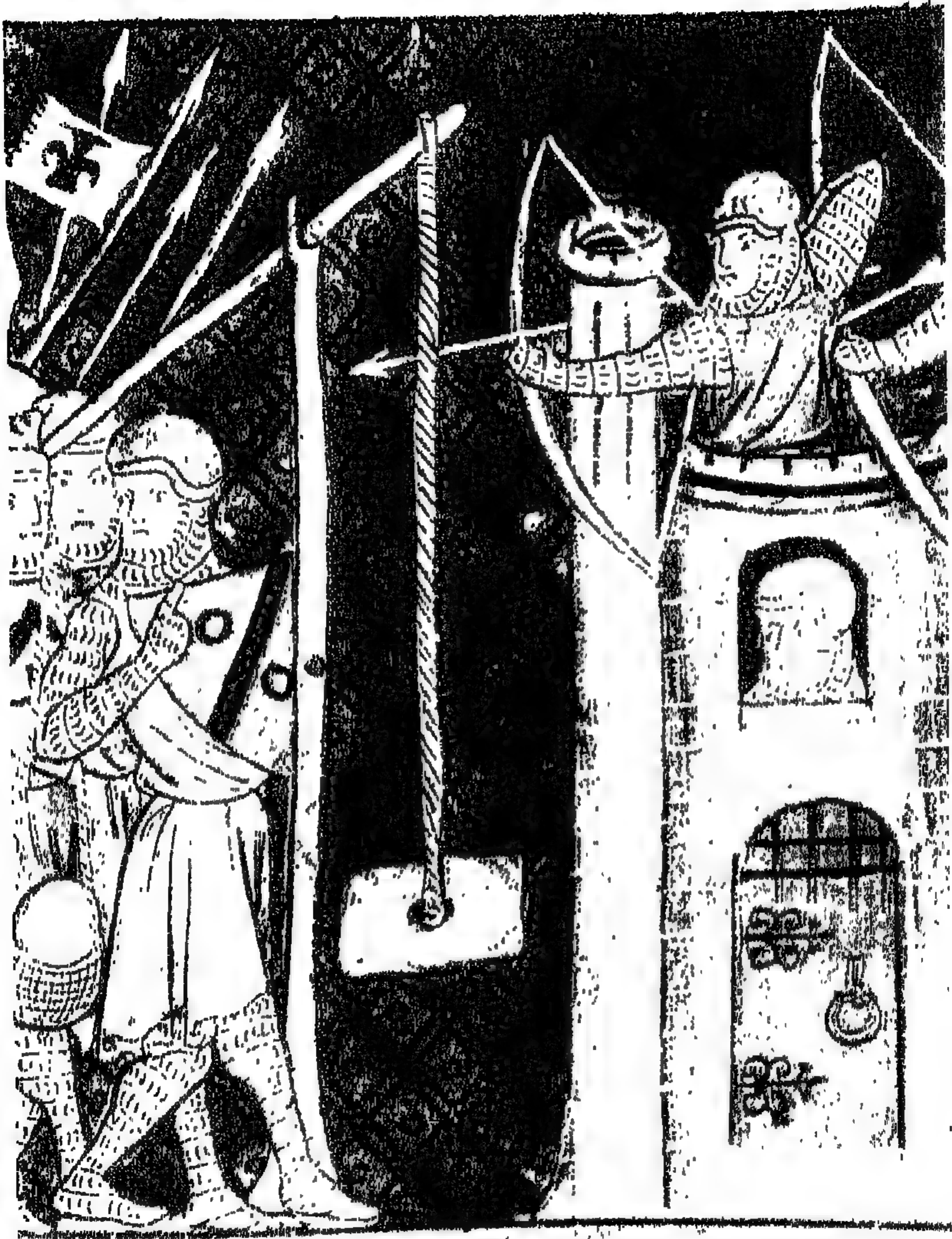
مشهد من تاريخ الحملة العنيفة الثالثة . قبل
الرهائن المسلمين بالجنسية في عكا سنة ١١٩١ م
من الماك الانجليزى دشارفامب، الملك . مشهورة من
دابل لاجل الحماة (المرن الخامس عشر)



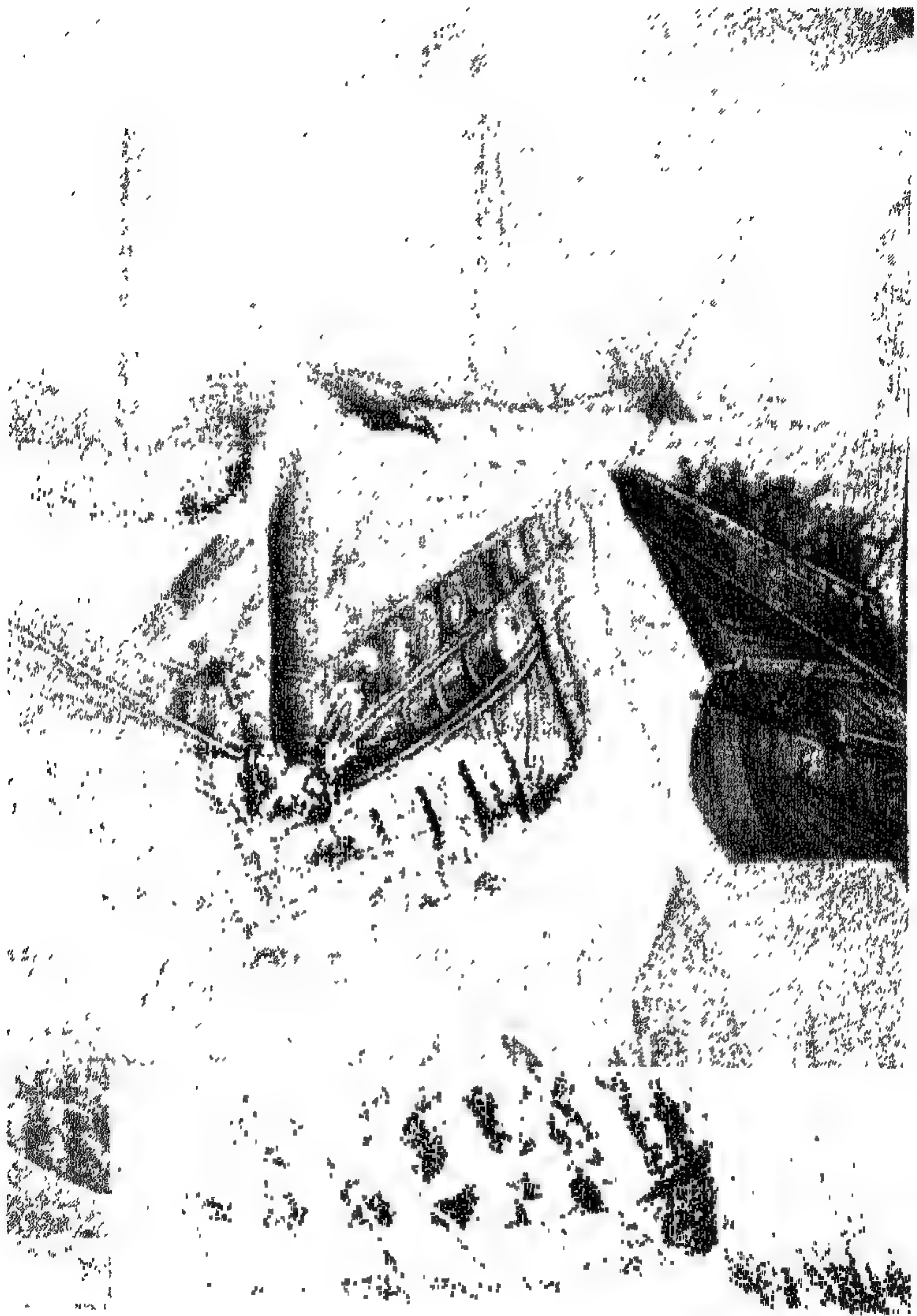
سليمون ذاهبون بحرا الى فلسطين . مذبحة
من مجبوبة وروسية (المكتبة الوطنية في باريس)



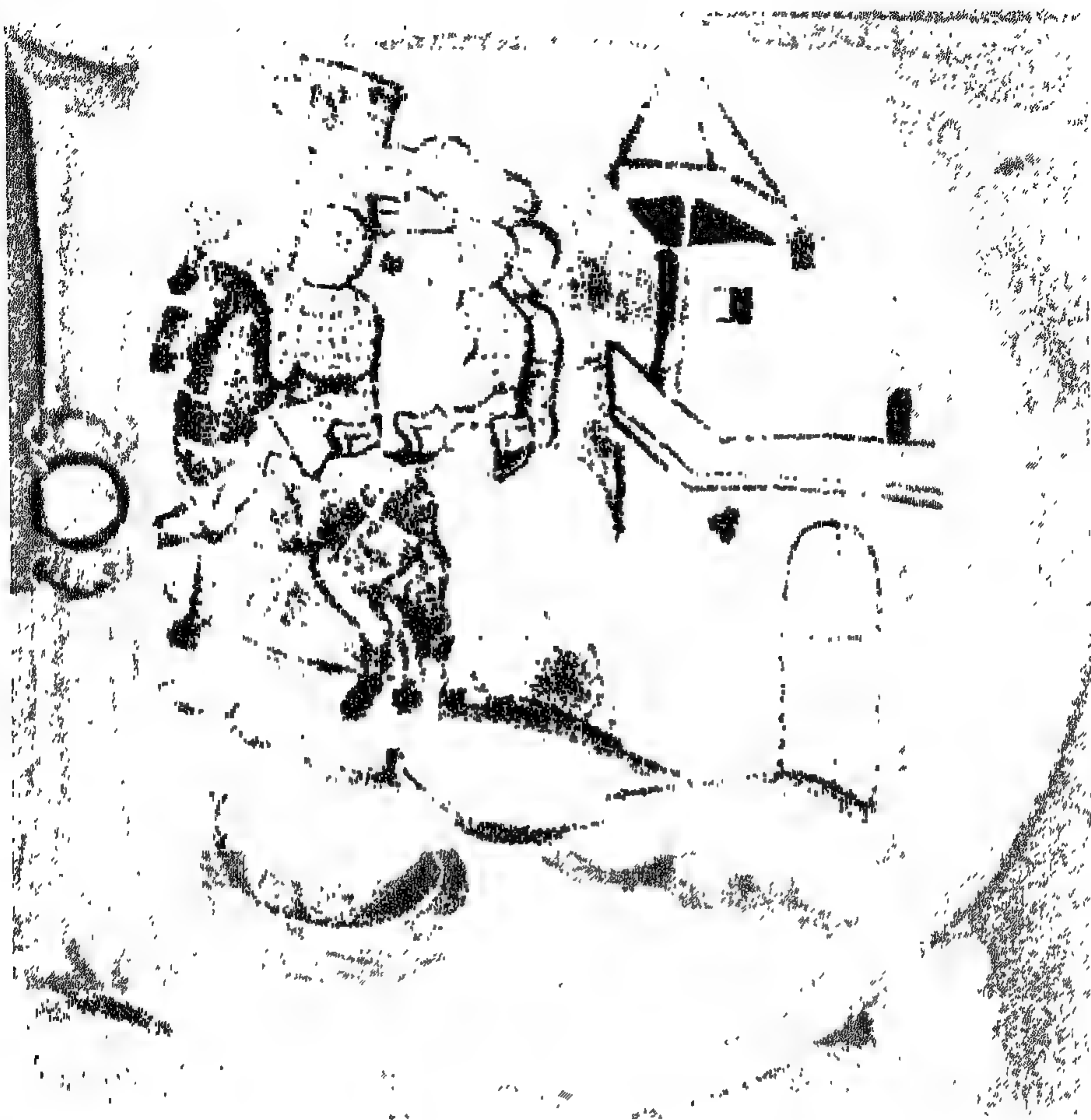
مشهد معركة يخوضها السليبيون ضد حشموهم . مسرح الفرسار
بالجسلة . منمنمة من التاجيل سادرة في اوائل القرن الثالث



منهجين اسمعلاه الفرسان شجاع في حصار المدن . منمنمة
من محاولة من القرن الثالث عشر

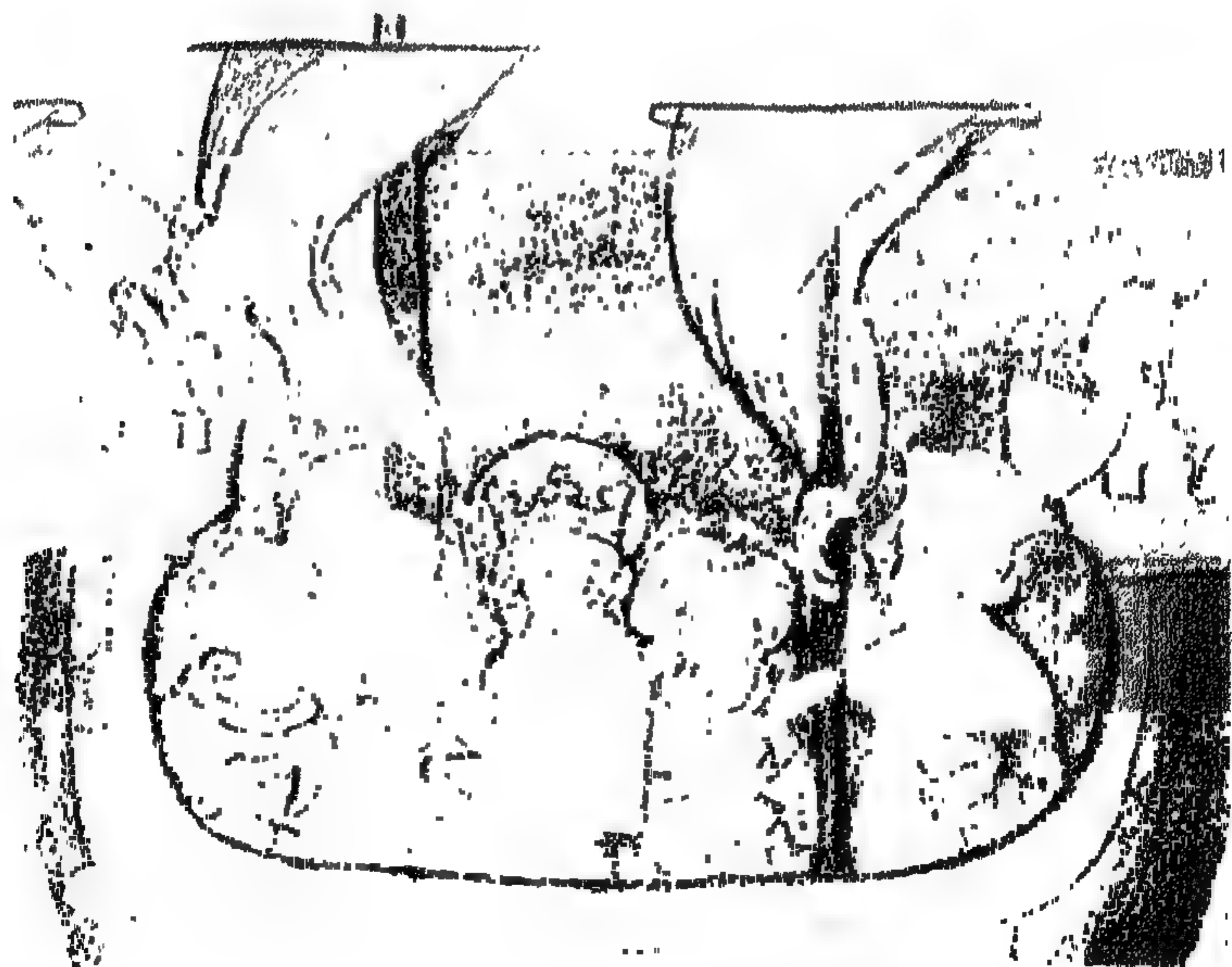


اسمادول الهندية وسليبيي الحملة الرابعة قرب القممطانية
(سنة ١٢٠٣) . منمنمة من مطرقة قرومطية (المكتبة الوطنية
في باريس)



مناجيدو الحملة الرامة يهاجمون القسطنطينية . منمنمة من اعمار
تروسانية (المكتبة الوطنية في باريس)

مشهد من تاريخ الحملة السابعة
السابعة سنة ١٢٤٨ .
لويس التاسع (القديس لويس)
يغادر باريس . ممنمة من
مخطوطة فرنسية من أوائل القرن
الرابع عشر



استطول سليمان الحملة السابعة برئاسة لويس التاسع في
دنيا النمل (سنة ١٢٤٩) . ممنمة من مخطوطة
فروسيمة (المكتبة الوطنية في باريس)



سليسيو الحملة السابعة يفتحون دمياط في ٦ حزيران (يونيو)
١٢٤٩ . منسمة من مخطوطة قروسطة (المكتبة الوطنية في
باريس)



وفاة لويس التاسع (القدس لويس) ، فاند الحملة الصليبية
الثامنة ، في تونس (سنة ١٢٧٠) . مدممة من مخطوطة
فروندية (المكتبة الوطنية في باريس)

استيلائه على القدس قد كانت ، فيما كانت ، سببا لتزيين تاريخ صلاح الدين في الغرب فيما بعد بشتى الاساطير التي تطرى شهامته غير العادية . اما في الواقع ، فان اعتدال صلاح الدين قد املته الاعتبارات السياسية ؛ ذلك انه كان عليه ان يضم اراضي دول الصليبيين الى قوام الدولة المصرية ، ولم يكن من شأن دراسة الظافر الا ان تسمى الى هذه القضية .

ولكن بعد فتح القدس ، والقضاء على مقاومة اواخر الفرسان الصليبيين في فلسطين ، حاول صلاح الدين عبثا ان يستولى على صور التي كان يشرف على حمايتها المركز الايطالي كونراد دي مونفيرات الذي وصل في اواسط تموز (يوليو) ١١٨٧ من القسطنطينية . حاصر المسلمون المدينة من البر ومن البحر (فمن عكا وصل الاسطول المصري) ، ولكن المسلمين اضطروا الى التراجع في اوائل كانون الثاني (يناير) ١١٨٨ . كذلك لم يتمكنوا من اخضاع الجراكن الرئيسية لسيادة الصليبيين في الشمال - اي طرابلس التي هرع الى نجدتها اسطول صقلية النورمانى (زهة خمسين سفينة) بقيادة الاميرال القرصان مرغريتون ، وانطاكية رغم ان قسما كبيرا من كونتية طرابلس وامارة انطاكية تعرض للاحتلال . ونحو تشرين الثاني (نوفمبر) ١٠٨٨ استسلمت حامية الكرك ، وفي نيسان (ابريل) - ايار (مايو) ١١٨٩ استسلمت حامية كراك دي مونريال . وكان حصن بلفور آخر حصن يسقط . ومنذ ذاك صارت مملكة القدس بصورة كلية تقريبا في يد صلاح الدين . ولم يبق للصليبيين سوى مدينتي صور وطرابلس ، وبضعة استحكامات صغيرة وحصن الاوسبيتاليين المنيع كراك دي شيفاليه .

الحملة الصليبية الثالثة

ان نبأ سقوط مملكة القدس الذي وُجِّه الى اوروبا الغربية قد كان بمثابة صاعقة في سماء صافية . فان البابا اوتربان الثامن ، ما ان عرف بما حدث ، حتى توفي من وقع الصدمة . ودعا خليفته ، البابا غريغوريوس الثامن ، بمنشور بابوي بتاريخ ٢٩ تشرين الاول (اكتوبر) ١١٨٧ وزعه من فيرارا ، الكاثوليك الى حملة صليبية جديدة ، وامرهم بالصيام كل اسبوع في يوم الجمعة على امتداد خمس سنوات كما امرهم بالامتناع كليا في هذه الحقبة من الزمن عن اكل اللحم مرتين في الاسبوع . والدعوة الى الحرب الصليبية - وقد قام بها ببالح الهمة الكاردينال انريكو من البانو - تلقفها البابا التالي كليمنت الثالث ، الذي حل بعد شهرين محل البابا غريغوريوس

الثامن . كان ينبغي دعم مكانة البابوية ، المتداعية بسرعة . ولاجل ايقاظ الحماسة الدينية ، نذر اخلص خدم الكرسي الرسولي من عداد الكاردينالات بالتطواف مشيا على الاقدام في عموم فرنسا وانجلترا والمانيا .

قامت الحملة الصليبية الثالثة من سنة ١١٨٩ الى سنة ١١٩٢ . واشترك فيها بوجه الحصر تقريبا الاقطاعيون الكبار والفرسان من بلدان اوروبا الغربية . ونحو اواخر القرن الثاني عشر صار الفرسان القوة الجماهيرية الاساسية في الحركة الصليبية . كذلك اضطلعت بدور فعال ونشط في الحملة الصليبية الثالثة الدول الاقطاعية التي كانت مصالحها التجارية في الشرق قد اكتسبت مكانا مهما في سياستها .

اخذت الاهداف الدينية من الحملات الصليبية تتراجع اكثر فاكثر الى المؤخرة . وعلى العكس اخذت مطامع الفتح عند المشتركين فيها تبرز اكثر فاكثر من خلال الغلاف الصوفي الذي حاولت الكنيسة الكاثوليكية ، كما من قبل ، ان تمويه به الحركة . وقد اعترف رئيس الاساقفة غليوم الصوري بمرارة في مؤلفه «تاريخ الافعال في اراضي ما وراء البحار» - وهو اول تاريخ كامل عن الحروب الصليبية وعن مملكة القدس (حتى سنة ١١٨٤) - بأنه لا يجد بين اعمال «امرائنا اى شئ يعتبر الحكيم جديرا بوصفه ، ويعود على القارى بالرضى والارتياح ، ويشرف الكاتب» . وقد صور غليوم الصوري صليبيى اواخر القرن الحادى عشر بصورة مثالية ، وابرز حماسهم الدينية وانضباطهم وشجاعتهم فى المعارك ، وعارض بهم معاصريه المتعمين والمخنثين الغارقين فى الشؤن الدنيوية ، ولاسيما اولئك الذين تأقلموا فى الشرق ؛ فهم ، كما قال غليوم الصوري ، «على نحو بحيث انه اذا حاول احد ان يصف بكل دقة اخلاقهم ، والاصح القول ، عيوبهم المريعة ، لناء من وفرة المواد ، ولكتب ، بالاحرى ، حسبما يبدو ، هجاء وليس تاريخا» .

ولكن اذا كانت دوافع الفرسان الدينية قد اخذت تتضاءل ، فان سعى دول اوروبا الغربية الى السيادة فى منطقة البحر الابيض المتوسط اصبح من أهم الحوافز الداخلية الدائمة للحملات الصليبية منذ اواخر القرن الثانى عشر . وهذا السعى رص فى الظاهر ، وبقدر معين ، صفوف فرسان الغرب ، وعارض بلدان اوروبا بالشرق . ولكنه اسفر كذلك عن نشوء العداوة بين دول اوروبا الغربية ذاتها . ان «وحدة العالم الغربى» التي كانت وهمية ، من حيث جوهر الامر ، حتى فى المشاريع الصليبية الاولى ، والتي يشير اليها ببالغ الجهد الباحثون البرجوازيون ، ولاسيما منهم الباحثون الكاثوليك ، فى النصف الثانى من القرن العشرين ، رغبة منهم فى ان يرجعوا بالتالى الى الازمنة

القديمة مصادر «الاطلسية» وان يصوروا «الحضارة المسيحية الغربية» بصورة حضارة لها تقاليد قديمة جدا ، اخذت تنهار بكل جلاء فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر . فان المرتبة الاولى فى الحملات الصليبية بدأت تشغلها المنافسة بين الدول الاوروبية الغربية فى صراعها من اجل الهيمنة الاقتصادية والعسكرية والسياسية فى منطقة البحر الابيض المتوسط علما بان هذه المنافسة كانت تتخذ احيانا طابعا فى منتهى الضراوة .

وكل هذا ظهر بوضوح فى زمن الحملة الصليبية الثالثة .

فقد استقبلت الجماهير الشعبية دعوات باباوات روما بقدر من التعاطف اقل بكثير من ذى قبل . وعندما فرضت فى اوائل سنة ١١٨٩ فى انجلترا ثم فى فرنسا اتاوة عامة قدرها عشر جميع المداخيل ، لاجل تغطية حاجات الحملة - عشر صلاح الدين - استثار ذلك بين سواد الناس الاستياء والغضب . وطفق الناس يستقبلون جباة عشر صلاح الدين بالحجارة ، ولذا كان لا بد من الغائها كليا فى فرنسا . كذلك تفاقم التذمر من الضريبة بين رجال الدين اذ رأوا فى فرض مثل هذه الضريبة تطاولا على امتيازاتهم . وكان رجل الكنيسة والكاتب الفرنسى البارز بيار دى بلوا يعتبر : «اذا فرض الامراء بحجة حج جديد . . . دمغة العبودية على كنيسة المسيح ، مطالبينها بالضريبة ، فانه يجب على ابن الكنيسة البار ان يموت ولا يخضع» . وهنا وهناك اثار عشر صلاح الدين بعض الاستياء حتى فى اوساط الفرسان . وان الفارس والشاعر كونون دى بيتون الذى اشترك فيما بعد فى الحملة على الشرق ، اتهم اصحاب الحول والطول فى هذا العالم اتهاما حادا بانهم «اخذوا الصليب لقاء نقود وانهم يفرضون العشر على رجال الدين وسكان المدن والاقنان . ان دافعهم ليس الايمان بل الطمع» . اما دافع هذه الاقوال ، فهو الموقف السلبي من مشروع الحملة الصليبية ذاته ، وزوال الايمان السابق ، العام كليا تقريبا ، فى نزاهتها وقدرتها على الانقاذ .

لقى نداء روما الصليبي الدعم بصورة رئيسية فى الاوساط الاقطاعية ، - جزئيا بين الفرسان الصغار والمتوسطين ، وفى الاوساط الحاكمة فى الممالك الاقطاعية الغربية ، وكذلك فى اوساط الاشراف فى مدن ايطاليا الشمالية . وفى سنة ١١٨٨ انطلق الى سوريا اسطول صقلية النورمانى التابع للاميرال القرصان مرغريتون ، الذى سبق ان ذكرناه ، كما انطلقت بضعة عشرات من السفن من بيزا وجنوه .

وفى انجلترا وفرنسا والمانيا ، طفقوا يوزفون قوات برية . وقرر ملوك هذه البلدان - هنرى الثانى بلانتاجينه وفيليب الثانى ، الذى لقب فيما بعد

أوغست ، والامبراطور فريديريك الاول ببروسا اخذ الصليب . وكان لكل منهم اسبابه الخاصة للاشتراك فى الحملة .

سعى هنرى الثانى (١١٥٤-١١٨٩) على امتداد كل عهده الى كسب مواقع ثابتة فى منطقة البحر الابيض المتوسط لدولة انجو . وبعد الحملة الصليبية الثانية بوقت قصير ، تزوج فى سنة ١١٥٢ من ايليونور داكيتين التى طلقت زوجها لويس السابع وضم على هذا النحو الى ممتلكات سلالة بلانتاجينه فى فرنسا - كونتية انجو وكونتية بين - دوقية اكينتين التى كانت مدينة مرسيليا ضمن حدودها . وهذه الدوقية كانت تضطلع بدور كبير فى التجارة مع المشرق ، التى مارستها انجلترا ذاتها ايضا . وكانت السفن الانجليزية تبحر فى المعتاد فى البحر الابيض المتوسط ، اما بمحاذاة سواحل فرنسا واسبانيا ، - نحو جبل طارق ، واما فى عرض البحر حتى بوردو ؛ وهناك كانوا ينقلون مشحوناتها الى المراكب النهرية ، المنطلقة على نهر غارون الى تولوز . وهنا كانوا يشحنون البضائع الانجليزية على مواشى الجر الى ناربون ، حيث كانت تستقبلها السفن المثجبة الى الاسكندرية والموانىء السورية واللبنانية . وهذا الطريق هو الذى كان يمر عبر اراضى دوقية اكينتين .

فلا غرابة اذا كان هنرى الثانى قد حاول تأمين نفوذ انجلترا فى جميع البلدان الواقعة على البحر الابيض المتوسط . وكانت الزواجات السلالية وسيلة مهمة فى سياسته فى منطقة البحر الابيض المتوسط والى هذه «الديبلوماسية الزوجية» جر اولاده جميعهم تقريبا . فقد زوج احدى بناته ، ايليونور ، من ملك قشتاله ، الفونس الثامن ، وزوج بنتا اخرى ، هى حنة ، من ملك صقلية ، غليوم الثانى (لم يسفر الزواج عن اولاد ، ولذا لم يكن فى صقلية وريث انجليزى لعرشها) ؛ وابنه البكر ، ريشار ، خطب له ابنة سانتشو السادس ، ملك نافار ، الاميرة بيرنجيز .

كذلك لم يكن هنرى الثانى يأنف من الأمل فى الاستيلاء على مملكة القدس . فاليها ايضا كانت تمتد خيوط قرابة بيت انجو من سلالة بلانتاجينه ؛ ذلك ان ملك القدس فولك (١١٣١-١١٤٣) كان ايضا كونت دانجو ، وكان ابنه جوفروا بلانتاجينه قد تزوج فى حينه من ماتيلدا ابنة ملك انجلترا هنرى الاول ، فكان فولك بالتالى جد هنرى الثانى . وليس عبثا كان ملك انجلترا الذى فعل الكثير لتوطيد التمرکز السياسى فى بلده ، يهتم دائما بممتلكات اقاربه فيما وراء البحار . وغير مرة دفع مبالغ نقدية كبيرة لاجل حماية الارض المقدسة من «الكفار» ، كما كان قد اتفق ، قبل

سقوط القدس ، تارة مع لويس السابع ، وطورا فيما بعد ، مع ضهره هو غليوم الثانى ملك صقلية ، بشأن الحملة الصليبية .

ان هنرى الثانى ، الذى كان يدغدغ من زمان بعيد فكرة بسط سيطرة دولة آل بلانتاجينه الانجليزية الفرنسية على العالم اجمع ، قد وافق فى الحال على الاشتراك فى الحملة الصليبية التى اطلقت روما الدعوة اليها ، لأن حربا ناجحة فى الشرق كانت تبشر بتوسيع منطقة نفوذ دولة انجو فى البحر الابيض المتوسط توسيعا كبيرا .

كذلك اثرت جهود الباباوية فى ملك آخر فى ذلك الزمان كان يحبك خطط السيطرة العالمية هو الامبراطور الالمانى فريديك الاول ببروسا (١١٥٢-١١٩٠) ، ذلك الذى اشترك فى الحملة الصليبية الثانية ، حين كان لا يزال دوق شوابيا . الا ان هذا الحاكم ذا المزاج العدوانى المتطرف والمحب للقتال لم يتعلم شيئا من التجربة المرة والمخزية (ومما له دلالة ان النازيين الالمان سمووا باسمه ، بعد مرور مئات السنين ، خطتهم الشريرة الحاقدة للاعتداء على الاتحاد السوفييتى) .

وكان اشتراك فريديك الاول فى الحملة الصليبية الثالثة ينبع بصورة منطقية من كل السياسة العدوانية الاغتصابية التى سلكها آل شتاوفن فى جنوب اوروبا . ولقد امضى فريديك الاول ببروسا زهاء نصف زمن حكمه فى حروب من اجل بسط السيادة على مدن لومبارديا . وقد منى هناك بالهزيمة . وحين هزمه اتحاد المدن فى معركة لنيانو سنة ١١٧٦ ، اضطر الى الاستسلام فيما بعد امام الكرسي الرسولى ايضا ووقع فى سنة ١١٧٧ صلح البندقية المذل له . وحين ملك روعه بعد الهزيمة ، وجه نظاره الى ايطاليا الجنوبية وصقلية . فقد كان يدرك بوضوح اهمية صقلية فى تجارة المشرق ، وتلك المنافع التى يبشر بها امتلاك هذه الجزيرة . وعبرها كانت تمر اقصر طريق من اوروبا الى افريقيا الشمالية . وفى ثغور صقلية المناسبة - مسينا ، باليرمو ، كاتانيا - كانت تتوقف جميع سفن البلدان الغربية ، الموسوقة بالمشحونات الى المشرق ذهابا وايابا . وكانت السيادة على صقلية تؤمن لحكامها مصادر ضخمة لواردات الخزينة ؛ وكانت دول كثيرة معنية تقع فى تبعية حكام صقلية .

ولاجل امتلاك صقلية وايطاليا الجنوبية ، لجأ فريديك الاول ، مثل هنرى الثانى ، الى دبلوماسية الزواجات السلالية ؛ ففي سنة ١١٨٦ ، اقيمت فى ميلانو احتفالات زواج ابنه ووريثه ، الامبراطور هنريخ السادس فيما

بعد ، من وريثة عرش صقلية ، كونستانسيا . وبذلك ضمن فريديريك الاول
بربروسا انتقال صقلية الى سلالة شتاوفن .

واخيرا كانت بيزنطية تشغل مكانا مهما في مشاريع الامبراطور الالماني
المغامرة ؛ وكان يسمى بقايا الامبراطورية الرومانية الشرقية باحتقار
وازدراء «اليونان الصغيرة» . ويذكر مؤرخه البلاط الاسقف اوتون من
فريزينغون في سيرة حياة فريديريك الاول الذي كان ابن اخيه ، فيما يذكر ،
ان الامبراطور قد نعت نفسه غير مرة «سلطان العالم» واعلن على المكشوف
عن عزمه الراسخ على توسيع حدود الامبراطورية الالمانية حتى حدود
الامبراطورية الرومانية القديمة .

صحيح ان مبادرة الحملة الصليبية قد انطلقت من خصم سلالة شتاوفن
السياسي في الماضي غير البعيد ، البابا ، ولكن الحملة على الشرق كانت
توفر - على الاقل كما كان من الممكن ان يبدو - فرصة مناسبة لاجل تحقيق
مشاريع بربروسا الكلية الكونية الهديانية . وقد نظر فريديريك الاول
بربروسا الى المبادرة الباباوية نظرة ايجابية ؛ فان الاوساط الاقطاعية في
المانيا الجنوبية على الاغلب ، التي كانت تطلعاتها تحدد سياسته في كثير من
النواحي ، كانت لها مصلحة مباشرة في الفتوحات في الشرق . ولهذا السبب
أخذ فريديريك الاول الصليب في اواخر آذار (مارس) ١١٨٨ في غوفتات
ماينتس ، وذلك بصرف النظر عن عمره (كان يناهز الستين) .

وكان الملك الفرنسي فيليب الثاني (١١٨٠-١٢٢٣) الملك الثالث الذي
اعرب عن رغبته في السفر الى ما وراء البحار .

الا ان هذا المشروع شغل فرنسا ، بالطبع ، اقل بكثير مما شغل
انجلترا والمانيا . فان ملكية الكابيتيين كان يعود لها في ذلك الزمان مكان
متواضع جدا في لعبات الغرب السياسية . وفيليب الثاني الذي ورث العرش
من لويس السابع لم يكن سوى سيد اسمي لتابعه الاقوى منه بكثير وعدوه
اللدود هنري الثاني بلانتاجينه .

كانت اراضي المملكة الفرنسية تقتصر فعلا على ممتلكات التاج ، ولذا
لم يكن فيليب الثاني في ذلك الوقت بعد ، عمليا ، ملكا حتى لنصف فرنسا .
فان مقاطعاتها الغربية ، المطلة على المحيط الاطلسي كان يملكها الملوك
الانجليز ؛ والملوك الانجليز كانوا ايضا كونتات انجو (مقاطعة من فرنسا) ،
وعليهم كانت تتوقف كذلك الاراضي الجنوبية من فرنسا (كونتية تولوز) ؛
وكان قسم آخر من الاراضي الفرنسية - مملكة بورغونيا - خاضعا
لالامبراطورية الالمانية .

وكانت الواردات من ممتلكات التاج المفصولة عن البحر من جميع الجهات ، زهيدة جدا ، وهذا ما حمل فيليب الثاني على الاشتراك في الحملة الصليبية . وكان هذا الملك منذ شبابه سياسيا مراوغا وداهية وحاذقا ، يعرف كيف يستغل الظروف . وكانت الحملة على الشرق تبدو له وسيلة مناسبة لاصلاح شؤون السلطة الملكية ، اى رفع مكانتها وسمعتها في داخل البلد وفي المسرح الدولى ، وتكديس القوى والموارد الضرورية لاجل تسديد ضربة ماحقة الى العدو الرئيسى - سلالة بلانتاجينه - والشروع فى حل المهمة الاساسية التى تواجه سلالة الكابيتيين - اى جمع الاراضى الفرنسية وتوحيدها .

كذلك مفاهيم الشرف الاقطاعى لم تسمح للملك فيليب الثانى بان يواجه مبادرة البابا بعدم الاكتراث ، خصوصا وانه توضح فيها على الفور الدور البارز لتابع التاج الفرنسى هنرى الثانى . وهكذا استرشد الملك الفرنسى فى المقام الاول بدوافع المكانة والدوافع الكاثوليكية .

فى كانون الثانى (يناير) ١١٨٩ ، تلاقى عدوا الامس القريب فى جوار جيزور وتبادلا قبل السلام ؛ فقد كان ينبغي تأمين الطمأنينة والهدوء فى دولتيهما اثناء الحملة . واتفق الملكان على السفن فى آن واحد ومعا . وبمثال الملكين اقتدى اتباعهما من على كلا جانبي المانش . واتخذ قرار بان يخطط الفرنسيون على اثوابهم صلبانا حمراء ، والانجليز صلبانا بيضاء والفلمنيون صلبانا خضراء . وكانت قد بدأت التجمعات لاجل الحملة ، واذا الحرب تنشب فجأة بين الملكين . اما الذريعة للحرب ، فهى ان الابن البكر للملك هنرى الثانى ، ريشار ، كونت بواتو ودوق اكيوتين ، رفض ان يتزوج من اخت الملك فيليب ، اليس ، بحجة ان الملك الانجليزى قد اغراها . الا ان فيليب الثانى ، الفنان فى المؤامرات السياسية ، استطاع ان يستحث الابن على الاب ، واذا كل من الجانبين يمتشق السيف ، وتتوقف الحملة الصليبية . وفى ٦ تموز (يوليو) ١١٨٩ توفى هنرى الثانى . وحل محله على العرش ريشار الذى لقب فيما بعد «قلب الاسد» وصار البطل الرئيسى فى الحملة الصليبية الثالثة .

وهكذا لم تكن تتسم الاعتبارات الدينية بالنسبة لزعماء هذا المشروع الرئيسيين الثلاثة جميعهم باهمية جوهرية نوعا ما . فقد كانت الحملة الصليبية ١١٨٩-١١٩٢ منذ بادى بدء مجرد حملة فتوحات ، وكان الدور القيادى فيها يعود بمعظمه الى سلطة الدولة . وهناك سمة مميزة طريفة : ان فريديريك الاول قد امر باعطاء كل من الفقراء الذين اعربوا عن الرغبة فى

الاشتراك فى الحملة ٣ ماركات ؛ اما الذين لم يكونوا يملكون هذا المبلغ ، كما كتب مدون الاخبار ، فقد «منعهم تحت طائلة الحرم من السفر ، لعدم رغبته فى ان يشكل العامة التى قلما تصلح للحرب عبئا على العساكر» .

الوضع فى البلقان والنزاع مع بيزنطية .

مصرع فريدريك بربوسا

واخفاق الفرسان الالمان

لم يهتم زعماء الفرسان الصليبيين برسم خطة مشتركة للحملة الحربية ، وتصرفوا منذ بادىء بدء بصورة منفردة احدهم عن الآخر . فى ١١ ايار (مايو) ١١٨٩ تحركت القوات الالمانية برئاسة الامبراطور من ريغنسبورغ قبل غيرها . وكانت تتألف من قرابة ٣٠ الفا من الفرسان والمشاة . وقبل بداية الحملة كان فريدريك الاول قد اجرى مفاوضات دبلوماسية مع المجر وبيزنطية ؛ فقد اراد ان يضمن عبور قواته فى اراضيها بأمان . وكانت نتائج المفاوضات ، على ما بدا ، مؤملة . فان الملك المجرى بيلا الثالث (١١٧٣-١١٩٦) قد وافق على مرور الصليبيين عبر بلاده وحتى سمح لهم بشراء المأكولات . وبالفعل عبر الالمان المجر بسلامة ، دون تجاوزات كبيرة . كذلك امكن الاتفاق مع الرسل البيزنطيين الذين وصلوا الى ريخستاغ نورمبرغ فى كانون الاول (ديسمبر) ١١٨٨ (برئاسة موظف كبير هو اللوغوفت دروم يوحنا دوقاس) ؛ فقد اكد الروم ان بوسع الجيش الالمانى ان يعبر الممتلكات البيزنطية بلا عائق ، وان يتلقى المأكولات والاعلاف لقاء ثمن مناسب ، ولكنه غير رفيع جدا . كذلك فريدريك الاول اكد بدوره للسفراء بالقسم (وقد حمل القسم المناسب باسمه رئيس اساقفة فورتسيورغ ، دوق شوابيا والنمسا) انه ليس لبيزنطية ان تخشى شيئا من المقاتلين الالمان . ولكن رغم ان الاوساط الحاكمة فى امبراطورية القسطنطينية * اقدمت على الاتفاق مع فريدريك الاول ، الا ان الامبراطور اسحق الثانى انجيلوس (١١٨٥-١١٩٥) سرعان ما شرع يقيم امام الصليبيين شتى الحوائل والعوائق . ففي القسطنطينية كانوا يعرفون عن نزعة بربوسا الى القتال ولم يكونوا يثقون كثيرا فى وعوده .

* هنا وفى الاحوال المماثلة الاخرى نستعمل مصطلحى «امبراطورية القسطنطينية» و«امبراطورية الروم» اللذين استعملهما مدونو الاخبار اللاتين على نطاق واسع للاشارة الى بيزنطية .

وكانت تتوفر لحكومة اسحق الثانى انجيلوس جميع المبررات والدوافع للقلق . فان علاقات فريدريك الاول الوثيقة مع عدو بيزنطية المباشر فى الشرق قلج ارسلان الثانى ، سلطان قونية السلجوقى (١١٥٥-١١٩٢) قد اثارت الشبهات . فقد تبادل الامبراطور الالمانى معه السفراء ، وحتى اخذ منه وعودا تتيح الأمل فى ان يتمكن الفرسان الالمان من عبور آسيا الصغرى بلا عائق : ذلك ان قلج ارسلان الثانى كان يعادى صلاح الدين الذى كان الصليبيون يعتزمون قهره .

وارتسمت اخطار جدية على بيزنطية من صوب الغرب ايضا ، من اوروبا الجنوبية الشرقية . فقبل بداية الحملة الصليبية بزمان وجيز ، فى ١١٨٥-١١٨٧ ، ثار البلغار بنجاح ، بقيادة البوليارين (النبيلين) آسن وبيوتر ، على النير البيزنطى . والى الشمال من جبال البلقان ، تشكلت دولة مستقلة ، اسميت بالمملكة البلغارية الثانية . كذلك كانت صربيا تسيطر نحو بلوغ الاستقلال .

ولو اتحد حاكما بلغاريا وصربيا مع بربروسا ، لساءت احوال بيزنطية . والحال كان هذا الاحتمال واقعا جدا . ففى عهد ريخستاغ نورمبرغ جرت مقاضات مع سفراء الجوبان (الحاكم) الصربى الاكبر اسطفان نيمانى (١١٥١-١١٩٥) . وفى الايام الاخيرة من شهر تموز (يوليو) ١١٨٩ ، عندما وصل الصليبيون الالمان الى مدينة نيش الصربية تقابل الامبراطور الالمانى شخصا مع الجوبان الاكبر . وفى هذه المدينة ايضا جرت مقاضات مع سفراء البوليارين البلغارين آسن وبيوتر . وكانت العلاقات بين بلغاريا وصربيا علاقات ودية . كل هذا خلق فى القسطنطينية حذرا من فريدريك الاول له مبررات عديدة . فقد كانوا يعتبرون هنا ان موضوع المفاوضات فى نيش لم يكن من الممكن ان يكون سوى تحالف الامبراطورية الالمانية مع صربيا وبلغاريا ضد بيزنطية . الا ان هذا لم يكن يتطابق البتة مع الواقع . فان فريدريك الاول بربروسا قد تهرب من التحالف ، ولكنه هو الذى حرض بالفعل حكام الدولتين السلافيتين على امبراطورية الروم .

ان تقدم الفرسان الالمان فى اراضى البلقان قد رافقته اعمال العنف والاجتياح والنهب من جانب الصليبيين ، ولذا كانت الحملة بالنسبة للسكان المحليين بمثابة عدوان واقتحام معاد . والحال ، بقى الفرسان فى الارض البلغارية اكثر من ستة اشهر (من صيف ١١٨٩ الى الربيع الباكر من سنة ١١٩٠) . وفيما بعد افاد الكاهن الالمانى ابرهارد ، المرسل الى المجبر بمهمة دبلوماسية ، فى تقريره الى الامبراطور ، انه رأى ، اثناء مروره فى

بلغاريا ، جميع قبور الصليبيين الذين ماتوا فى الطريق ، منبوشة ؛ وكانت جثثهم مرمية من التواييت ومبعثرة على الارض . ثم ان مدونى الاخبار اللاتين ، وفى المقام الاول بينهم مؤلف «تاريخ حملة الامبراطور فريديريك» المنسوب فيما مضى الى الكاهن انسبرت ، يروون بدورهم ان «قطاع الطرق» - الصرب والبلغار - كانوا يهاجمون الفرسان بين الفينة والفينة ويقتلونهم ، وينتزعون منهم خيولهم وعرباتهم . الا ان هذه الاعمال كانت تعبيرا عفويا عن غضب الشعب على جموح النهابين ذوى الصلبان المخيطة على البستهم .

وبالطبع ، كان تحقيق التحالف مع قائد الصليبيين الالمان فى هذه الظروف امرا عسيرا جدا على البوليارين البلغاريين وحتى موضع اشكال ، ولكنهما اتصلا غير مرة مع ذلك بالامبراطور فريديريك الاول ؛ فقد كان بيوتر وآسن يحسبان ان بلغاريا ستتمكن ، فى حال نشوب حرب بين الامبراطورية الالمانية والامبراطورية البيزنطية من توطيد استقلالها الذى نالته للتو .

ولكى نفهم كليا موقف بيزنطية من الصليبيين الالمان ، يجب ان نأخذ كذلك بالحسبان ان الاوساط الحاكمة فى الامبراطورية المستضعفة لم تكن تعتزم ، رغم وضع الامبراطورية الداخلى والخارجى الشاق جدا ، ان تستبعد القسم الشرقى من البحر الابيض المتوسط من مجال بصرها . ورغم ان نفوذ بيزنطية فى هذه المنطقة قد تقوض كثيرا فى اواخر القرن الثانى عشر بفعل مدن ايطاليا الشمالية التى توغلت فى مرافئ سوريا ولبنان وفلسطين ، وبفعل نورمانى صقلية الذين تسربوا حتى الى اليونان وحتى استولوا فى سنة ١١٨٥ (لفترة من الوقت) على اكبر مدينة بيزنطية بعد القسطنطينية ، هى مدينة سلانيك ، بقيت القسطنطينية مع ذلك مركزا مهما لتجارة المشرق . ولم يكن بوسع بيزنطية ان تبقى عديمة الاكتراث بنضال الدول الغربية من اجل الهيمنة فى البحر الابيض المتوسط . وكانوا فى القسطنطينية يعتبرون ان الصليبيين قد انتهكوا حقوق الامبراطورية البيزنطية فى منطقة سوريا ولبنان وفلسطين ، هذه الحقوق التى كرسها واثبتها التاريخ نفسه .

ولجميع هذه الاسباب انتهجت الحكومة البيزنطية نهجا معاديا للصليبيين . فقد اقاموا فى وجههم شتى العوائق والموانع ؛ ولم يقدموا لهم المؤن التى وعد بها اسحق الثانى انجيلوس . والطرق التى سار عليها الصليبيون كانت شبه مدمرة ؛ فان خيول الفرسان المدرعين كانت تنزلق وتسقط ارضا ، وتتكرر قوائمها . وكانت فصائل الروم المسلحة تغلق

المعابر الجبلية . وكان الامبراطور يستبقى فى عاصمته افراد البعثات التى كان يرسلها فريدريك الاول اليها من الطريق . بل انه زج فى السجن بافراد البعثة الاولى . وكان مزاج العداء يتبدى فى لهجة رسل الامبراطور البيزنطى الى امبراطور الامبراطورية الالمانية (او ، كما كانت تسمى رسميا ، الامبراطورية «الرومانية المقدسة») ؛ فقد كان يتجنب كليا تلقيبه «بالامبراطور» وكان يخاطبه بوصفه «ملك المانيا» .

ثم ان الفرسان الالمان اثاروا بدورهم كره السكان المحليين بما اقترفوا من اعمال السرقة والنهب والعنف . ففي تراقيا احرق الصليبيون فى البدء ضواحي فيليبوبول (بلوفديف حاليا) ، واحتلوا المدينة عمليا فى اواخر آب (اغسطس) ١١٨٩ (فقد نسب الى انسبرت انه كتب : «تصرفنا فيها كأنما فى مدينتنا بالذات») . وكانوا يهاجمون المدن والقرى البلغارىة على المكشوف (وكانت تراقيا لا تزال تخص بيزنطية آنذاك) ، ويقتلون السكان ، ويمحون المساكن من على وجه الارض ، ويحرقون الكنائس . ويتباهى مدونو الاخبار الالمان بالغنائم الوفيرة التى نهبها الفرسان الالمان فى فيرويا (حاليا ستارا زاغورا) ، وسكريبنسيون (اسينوفغراد) وبرميس (بيروشتيتسا) .

وحين عاد رسل فريدريك الاول فى اواخر تشرين الاول (اكتوبر) ١١٨٩ الى فيليبوبول ، بلغوا عاهلهم (الامر الذى تناوله الكلام فى مدونات انسبرت) ان بطريك القسطنطينية نعت المقاتلين الالمان فى مواظفه فى الكنائس بكلام المسيح ، وانه كان يعد الروم بان المجرم ، مهما كان معتقا فى الاجرام ، وحتى اذا كان قد اقترف عشرات من جرائم القتل ، سينال الغفران من ذنوبه اذا قتل مائة من الصليبيين . وبدأ فريدريك الاول من جانبه يوجه التهديدات الى اسحق الثانى انجيلوس . وفضلا عن ذلك ، وقع اسحق الثانى فى صيف ١١٨٩ ، حين كان «جنسود الرب» يعبرون المجر ، اتفاقية تحالفه مع عدو الصليبيين الاكبر - صلاح الدين ، ووعدته بالدعم ضد قلج ارسلان الثانى . وهكذا كان كل من الامبراطورين المسيحيين - الالمانى والبيزنطى - فى سنة ١١٨٩ متحالفا مع دولة اسلامية .

فى تراقيا ، دارت رحى الحرب ، من حيث جوهر الامر ، بين الصليبيين الالمان وبيزنطية . ولقد كانت ، والحق يقال ، حربا غير معلنة ، حربا بين حليفين . ولكن الاحداث تطورت بجلاء فى اتجاه اضعاف الصفة الشرعية عليها وتحويلها الى نزاع مسلح سافر . وفى اواخر خريف ١١٨٩ ارسل فريدريك الاول الى ابنه هنريخ (السادس) رسالة تتضمن ضربا من مشروع هجوم على بيزنطية . فقد طلب من هنريخ ان يجمع المقاتلين ، ثم ان يتفق مع جنوه

والبندقية وبيزا وانكون ، وان يجهز هناك اسطولا لاجل الشروع فى ربيع السنة القادمة بمحاصرة القسطنطينية سواء من البر ام من البحر . وفى الوقت ذاته كان على هنريخ ان يحمل البابا على تنظيم حملة صليبية ضد الروم الذين يعرقلون حرب الكاثوليك ضد «الكفار» .

اقيمت خطط اخضاع بيزنطية لامبراطورية سلالة شتاوفن فى تربة السياسة العملية . ولكن بابا روما لم يشأ اقامة سيادة الكنيسة الكاثوليكية على الكنيسة الارثوذكسية بسلاح عدو الكورية الباباوية فى الامس القريب ، فريدريك بربروسا . وفى روما لم يصدقوا فريدريك بربروسا . ولم تقم حملة صليبية ضد بيزنطية فى سنة ١١٨٩ . وتجنب امبراطورية القسطنطينية ضربات القطعان الصليبية ، رغم ان البعثة التى وصلت الى غاليبولى من بيزا عرضت السفن على فريدريك الاول بصورة سافرة لاجل فتح العاصمة البيزنطية . الا ان التأجيل . كما سنرى ، كان قصيرا لئلا .

بعد ان نهبت الجموع الالمانية المقاطعات البلغارية من بيزنطية ، وحصلت من اسحق الثانى على بعض التنازلات (بموجب اتفاق تم توقيعه فى ٢٤ شباط - فبراير ١١٩٠) ، انطلقت فى اواخر آذار (مارس) ١١٩٠ من اندريانوبول وعبرت الدردنيل الى آسيا الصغرى ، واتجهت فى مناطقها الغربية (عبر لاودقية وفيلوميليا) التى سبق ان دمرها السلجوقيون . لم يقدم الروم لا المأكولات ولا الاعلاف . وكانت فصائل الخيالة من السلجوقيين تشن يوميا الغارات على الفرسان الالمان . فان وريث قلج ارسلان الثانى الذى تنازل عن السلطة لم يكن يميل الى التحالف مع الصليبيين خوفا من حرب مع صلاح الدين . فضلا عن كل ذلك ، كابعد الصليبيون عذابات القبط والعطش والجوع . واضطروا الى اكل لحوم خيولهم .

فى ١٨ ايار (مايو) ١١٩٠ ، استولى الصليبيون على سلطنة قونية . ووقعت فى ايديهم غنيمة وفيرة . وفى ٢٣ ايار (مايو) عقدوا هدنة مع السلطان . وغادر الصليبيون سلطنة قونية ونصبوا معسكرا وراء البساتين التى تحيط بها . قال مؤلف «تاريخ حملة الامبراطور فريدريك» : «هنا وجدوا فى السوق ما يكفى من كل ما يلزم ، وان كان يباع باثمان غالية . وقد بيع (من الصليبيين - المؤلف) ، كما اظن ، اكثر من ٦ آلاف حصان وبغل ، عدا الحمير» .

ومن هنا نزلت القوات الالمانية على دروب وعرة فى جبال طوروس الى قيليقيا ، حيث حدث امر غير متوقع ؛ لقد تدخلت صاحبة الجلالة الصدفة فى الاحداث . وفى ١٠ حزيران (يونيو) ١١٩٠ ، غرق فريدريك بربروسا اثناء

عبور نهر اللامس الجبلى العاصف ، غير بعيد عن سلوقية . وفى الحال شوش مصرعه صفوف الصليبيين . وقد كتب مدون الاخبار وشاهد العيان ذاته متذكرا : ان مصرعه «قد هز الجميع بحيث استحوذ على الجميع حزن كبير وبحيث ان البعض انتحروا مترددين ومتعذبين بين الرعب والأمل ، وبحيث ان البعض الآخر ، وقد يثسروا ورأوا ان الله كأنما لا يعنى بهم ، جحدوا الايمان المسيحى ، واعتنقوا الوثنية مع رجالهم» ، الامر الذى يدل على تذبذب وسطحية مشاعر الصليبيين الدينية .

بعد ذلك ، عاد قسم من الفرسان بحرا من سلوقية وطرسوس الى الوطن ؛ ومضى قسم آخر ، عابرا المناطق الارمنية بالنهب والسلب ، الى انطاكية ؛ مات كثيرون بالطاعون فى صيف سنة ١١٩٠ . واقترب الباقون فى الخريف من عكا التى سرعان ما حاصرتها قوات دول الصليبيين التى سلمت حتى ذاك وفصائل الفرسان التى قدمت الى هنا بصورة تلقائية بعد ان احتلها صلاح الدين . وبعد فترة من الوقت هرعت الى عكا فصيلة المانية اخرى ، بقيادة الدوق ليوبولد النمساوى . واخذ الدوق فى يده زمام قيادة جميع الصليبيين الالمان حين مات فريدريك ، دوق شوابيا ، ابن فريدريك ببروسا (فى سنة ١١٩١) .

التناقضات الانجلو-فرنسية والمخاضات فى مملكة القدس . فتح عكا . نتائج الحملة

فى ذلك الحين ، كان الاعيان والفرسان فى انجلترا وفرنسا قد بدأوا وحسب يستعدون للحملة ؛ فان الاستعداد لها لم ينته فى هذين البلدين الا نحو صيف ١١٩٠ .

وقد وجد الملك الانجليزى ريشار الاول الاموال لاجل الحرب المقدسة بسفالة نادرة ودون التورع عن اللجوء الى احقر الوسائل . ولم يكتف بابتزاز ضريبة «عشر صلاح الدين» من جميع من كان يتعين عليهم دفعها . فان هذا العاهل الذى تميز بجشع لا حد له ، قد عمد الى بيع كل ما يمكن بيعه : الوظائف ، بما فيها الوظائف الاسقفية ، والحقوق ، والقصور والقرى . وسمح البابا كليمنت الثالث للملك باعفاء الناس الضروريين لاجل الخدمة فى انجلترا ذاتها من الاشتراك فى الحملة . وقد استغل ريشار هذا السماح كما يطيب له ؛ فلم يكن يمنح الاعفاء الا لقاء مبلغ كبير . وقد استطاع الاثرياء ان يفتدوا انفسهم من الحملة . اما الفقراء الذين لم تترك ابتزازات جباة الملك

لهم شيئاً ، فقد استكراهم ريشار بالنقود . ان قائد الصليبيين هذا ، الذى مدحه مدونو الاخبار والشعراء اللاتين (وبخاصة الشاعر المغنى النورماندى امبرواز الذى رافق الملك فى الحملة) على نبلة وشهامته وحكمته قد صرح ذات مرة انه يبيع لندن ذاتها اذا ما وجد شاريا مناسباً !

فى ٤ تموز (يوليو) ١١٩٠ ، عبر ريشار الاول مع حاشيته ومعظم فرسانه مضيق المانش . واجتمعت الفصائل الانجليزية والفرنسية فى مدينة فيزليه البورغونية ، ومنها انطلقت فى الحملة . وهكذا لم تبدأ حملة الانجليز والفرنسيين الصليبية الا بعد مرور سنتين ونصف السنة على سقوط القدس وبعد مرور سنة على تحرك فريديريك الاول . ومن الجلى ان الملكين الانجليزى والفرنسى لم يكونا يتسرعان . واعراباً عن استياء قسم من الفرسان من هذا التباطؤ ، نعت هوج دوازى التروبادور (الشاعر والمغنى الجوال) الملكين بالحائثين باليمين . كذلك كتب تروبادور آخر هو برتران دى بورن انهما «يخدعان الله ، لأنهما لا يقصدان المضى» فى الحملة رغم انهما يحملان الصليب» . ولكن الملكين اتفقا سلفاً بالمقابل على تقاسم الغنيمة مناصفة . فى البدء سار الصليبيون معاً ، ولكن تآتى لهم فيما بعد ان ينقسموا ؛ فقد تبين ان من الصعب اطعام مثل هذا العدد الضخم من المقاتلين . قاد فيليب الثانى فرسانه الى جنوه التى تعهدت بان تقدم لهم ثلاثة سفن لنقلهم الى سوريا . وراح الانجليز الى مرسيليا . وهنا كان اسطول ريشار بانتظاره ، اى اكثر من ٢٠٠ سفينة تسنى لها ان تدور حول اسبانيا وترسو فى سواحل فرنسا الجنوبية . وفى ايلول (سبتمبر) ١١٩٠ وصل الفيلقان الواحد تلو الآخر ، الى صقلية ، وتوقفا غير بعيد من ميسينا . وهنا تقرر قضاء الشتاء لاجتناب المخاطر التى يتعرض لها البحارة فى هذا الفصل من السنة .

استغل ريشار الاول الوقفة فى صقلية لكى ينفذ الخطط التى سبق ان حاكها والده للاستيلاء على الجزيرة . ولهذا الغرض تدخل فى خصام احزاب البارونات الذى نشب هنا بعد وفاة الملك النورمانى غليوم الثانى الصيقلى (سنة ١١٨٩) ، وانقض على حاكم الجزيرة تنكريد دى ليتشه . فرفعـه البارونات الى العرش ، وليس بدون مشاركة البابا الذى كان يعارض قيام السيادة الالمانية فى الجزيرة . وارتدى ريشار الانجليزى حلة حامى الحقوق الشرعية لزوجـة الملك الراحل واخته حنة . ولكن رداء الفروسية هذا لم يستطع ان يخفى عن احد اهداف ابن سلالة بلانتاجينه الحقيقية ، اى الاغتصابية ، فى صقلية .

وقد اثار الصليبيون الانجليز فى الحال السكان ضدهم بما اقترفوا من اعمال العنف . ذات مرة ، اثار احد مرتزقة ريشار الاول جدالا مع بائعة خبز فى مستينا . وتحول الجدل الى شجار بين جنود المسيح واهالى مستينا المسيحيين . وفى الحال ، رأى ريشار الاول فى هذا الحادث ذريعة مناسبة للحرب ، فهاجم مستينا من البحر والبر واحتلها . وكان اهالى مستينا اوائل من خبروا «نبل» ريشار وصليبييه ؛ ففسى غضون بضع ساعات ، نهب الصليبيون وقتلوا واغتصبوا . واهالى مستينا بالذات هم الذين لقبوا ريشار الاول بلقب «قلب الاسد» لوصم قساوته بالعار .

وما ان احتدم النزاع بين الانجليز والصيقلين حتى عكف فيليب الثانى على معارضة حليفه سرا . وقد تظاهر بانه يقف على الحياد ، ولكنه دخل سرا فى مفاوضات مع تنكريد دى ليتشه وحاول حتى ان يحبط هجوم الاسطول الانجليزى على مستينا . وقد اطلق الملك شخصيا يديه النار على المجدفين الانجليز . فلم تكن البتة لفرنسا اية مصلحة فى تعزيز دولة آل بلانتاجينه باى شكل من الاشكال .

غضب الملك الفرنسى اقصى الغضب من افعال ريشار الاول . وظلت العلاقات بين قائدى جيشى الصليبيين تتردى . وفى ذلك لعب دورا لا يستهان به قصر نظر ريشار قلب الاسد فى حقل السياسة . فان هذا المقاتل المتحمس النارى لم يكن له حقا منافسين فى فن اكتساب الاعداء . كان هذا الملك ، كما كتب عنه احد مدونى الاخبار المعاصرين ، «يريد ان يتفوق على الجميع بالشهرة» و«استحق استياء الجميع» اثناء الحملة الصليبية .

اضطر ريشار الاول الى تسوية نزاعه مع تنكريد دى ليتشه . ووصل الى صقلية نبا يفيد ان بربروسا قد مات وان ابنه هنريخ السادس قد تحرك مع جيش صوب روما لاجل التتويج . وكان واضحا انه سيتجه من روما الى ايطاليا الجنوبية وصقلية ؛ ذلك ان ابن فريديك الاول كان الوريث الشرعى لخليوم الثانى . وكان هنريخ السادس يبدو لريشار الاول عدوا اخطر بكثير من تنكريد . واذا الخطر المشترك الناجم عن الامبراطور الالمانى يقرب الملك الانجليزى من اعيان صقلية النورمانيين . ومن باب المصالحة دفع تنكريد لريشار ٢٠ الف اوقية من الذهب . وما ان عرف الملك الفرنسى بذلك حتى طلب من حليفه نصف المبلغ (ذلك انهما اتفقا على تقاسم الغنيمة مناصفة) . ولكن ريشار ابن سلاله بلانتاجينه لم يعط فيليب الثانى سوى ثلث الغنيمة . ان شح المغامر المتوج الانجليزى قد انقلب عليه خطأ سياسيا ، اذ استثار فى نفس فيليب الثانى المزيد من الامتعاض .

تمهل الصليبيون اكثر من ستة اشهر فى صقلية ، ولم يركبوا السفن الا فى ربيع سنة ١١٩١ . ابحر فيليب الثانى من مستينا فى ٣٠ آذار (مارس) دون ان ينتظر حليفه الذى لم يقلع الا بعد ١٠ ايام . وقد بينت احداث صقلية بكل جلاء ان الملكين ليسا رفيقى طريق .

مضى الفرنسيون بحرا الى لبنان - الى صور . اما ريشار الذى اراد ان يعوض عن اخفاقه فى صقلية ، فقد احتل فى طريقه الى الشرق جزيرة قبرص التى كانت من قبل خاضعة لسلطة بيزنطيا ثم انفصلت عنها ، وغنم فى قبرص غنائم لا تحصى . كما تزوج هناك بيرنجير دى نافار التى وصلت مع ريشار الاول الى صقلية .

وبالاستيلاء على قبرص ، أمن ريشار قلب الاسد ، من حيث الجواهر ، دون ان يدرك ذلك بنفسه ، اهم نجاح لعموم الحملة الصليبية . فان مملكة آل لوزيان التى نشأت بعد وقت قصير فى قبرص قد تحولت فيما بعد الى حصن بالغ الاهمية لممتلكات الصليبيين فى القسم الشرقى من البحر الابيض المتوسط التى لم تستطع الا بفضل الدعم العسكرى من قبرص ان تدوم فى الشرق زهاء مائة سنة اخرى .

وقد تبدت «وحدة» الصليبيين الانجلو - فرنسيين بقوة جديدة عندما نزلوا فى لبنان وانضموا الى الفرسان الذين يحاصرون عكا . وبين هؤلاء ، كان كذلك ، عدا فصائل الاسياد المحليين ، الممان ، ودانماركيون ، وفلمنكيون وايطاليون . وقد استمر حصار هذه القلعة المنيعه اشهرا عديدة . واستعمل المحاصرون الاكباش ، ومدافع اطلاق الحجارة ، وابراج الحصار على العجلات .

ومن اهم اسباب استتالة الحصار نشوب الخلافات بين قادة العساكر التى طوقت المدينة ، اى بين البارونات المحليين والاسياد القادمين من الغرب . ومرد الخلافات الى الادعاءات بعرش القدس (والاصح القول بلقب ملك القدس) ، من جهة ، من قبل غى دى لوزينيان الذى اخلى سبيله من اسر المسلمين ، ومن جهة اخرى ، من قبل المركيز كونراد مونفيرات . وهذا المركيز الذى كان قد اصبغ آنذاك فعلا سيد صور ، رفض ان يسمح لسيدها الاسمى غى دى لوزينيان بدخولها . ورغم ان الخلاف دار حول لقب فارغ (اذ ان مملكة القدس لم يكن لها وجود بالفعل) ، خاض قادة الصليبيين غمار هذا الجدل بكل حماسة الفرسان . وبالنتيجة ، بدت قوات جنود المسيح مسمرة من حيث الجواهر .

ثم ان الخلاف بين الطامعين بعرش القدس جاء يعمق العداوة بين الانجليز

والفرنسيين فوق ما هي من عمق . فان ريشار قلب الاسد الذي لم يصل الى عكا الا في ٧ حزيران (يونيو) ١١٩١ قد دعم ادعاءات قريبه غي دي لوزينيان ، بينما دعم فيليب الثاني ادعاءات الماركيز مونفيرات . وعندما كان ملك يقترح في المجلس الحربى اقتحام القلعة ، كان الملك الآخر يعارض ؛ فان النصر المحرز بمبادرة من ريشار الاول لم يكن يناسب فرنسا . والعكس بالعكس . ومع ذلك كانت الغلبة لرأى ريشار ؛ ففي ١١ تموز (يوليو) ١١١٩ ، بدأ هجوم عام ؛ وفي اليوم التالى استسلمت المدينة التى انهكها الحصار المديد . ولانقاذ حامية المدينة ، وافق صلاح الدين على دفع فدية كبيرة وعلى عدد من التنازلات الاخرى ؛ فقد اطلق من الاسر الافرنجى المأسورين سابقا واعاد الى الكاثوليك ذخيرة دينية يكرمونها هي ما يسمى بالصليب الشريف او الصليب المحيى (عود الصليب) .

بعد مرور اقل من شهر على فتح عكا ، اعلن فيليب الثانى انه مريض ، فذهب الى صور ومنها سافر فى اوائل آب (اغسطس) ١١٩١ الى فرنسا عبر ايطاليا . وبينما كان الملك الانجليزى يقاتل «الكفار» فى الارض المقدسة ، كان حليفه الفرنسى يسرع فى توطيد مواقع سلالة الكابيتيين فى بيته ؛ فقد انقض فيليب الثانى على ممتلكات سلالة بلانتاجينه فى القارة . وسلفا عقد حلفا ضد ريشار مع اخيه الاصغر ، الكونت جان (فيما بعد الملك جان بلا ارض) الذى كان يحكم انجلترا فى غياب اخيه . وفضلا عن ذلك ، تقابل فيليب الثانى فى كانون الاول (ديسمبر) ١١٩١ فى ميلانو مع الامبراطور هنريخ السادس واتفق معه بشأن الاعمال المشتركة ضد ريشار . ويقول مدون الاخبار الانجليزى رودجر من هوفدن ان الملك الفرنسى حصل من الامبراطور الرومانى على وعد بان يأسر الملك الانجليزى اذا عاد من فلسطين عن طريق الاراضى الخاضعة للامبراطور .

وهكذا اذا كان قائدا الحملة الصليبية قد صفيا حسابات احدهما الآخر بضراوة ، حارصا احدهما على مكانته وسمعته كفارس صليبي ، والثانى على توسيع وتعزيز مملكته ، فان كونراد مونفيرات كان مستعدا على العموم لخيانة الصليبيين ، وللانتقال الى صف صلاح الدين والحصول منه على الحق فى حكم المدن الفلسطينية . بل ان كونراد كان يعتزم خوض النضال معه ضد حلفاء الامس اخوانه فى الدين . وكان ذلك ، من وجهة نظر مصالحه السياسية على كل حال ، عمليا اكثر من انتظار نجاح جدى نوعا ما يحوزه الصليبيون الذين كان يقودهم قائد عسكري غير موهوب مثل ريشار قلب الاسد . وقد لاحظ مدون الاخبار امبرواز بامتعاظ فى قصيدته الاخبارية ان كسونراد

مونفيرات لم يساند القوات التي حاصرت عكا ، وان بالمؤن ؛ فقد فضل ان يحفظ الاحتياطات في صور ، ولم يكن يحرص الا على ابقاء المدينة في قبضته . الا ان وفاة كونراد مونفيرات الذي قتله في صورة في اواخر نيسان (ابريل) ١١٩٢ اثنان من المتعصبين المسلمين من شيعة الحشاشين (وهم فريق من الاسماعيليين) حالت دون تحقيق مقاصده السرية .

رغم رحيل اغلبية الفرسان الفرنسيين (لم يبق سوى اتباع دوق بورغونيا وكونت شامبانيا) وخطر فقدان التاج ، واصل الملك الانجليزى مقاتلة المسلمين سنة اخرى . وقد اجترح هناك مآثر ليست البتة من مآثر الفرسان . فبأمر منه وتحت قيادته مباشرة ، جرت مذبحة قتل فيها رجاله اكثر من الفى مسلم اخذوهم من صلاح الدين بعد فتح عكا كرهائن لضمان تنفيذ السلطان صلاح الدين للعهد التي قطعها على نفسه (وهذه العملية اشرف عليها دوق بورغونيا ايضا) .

حاول ريشار الاول ثلاث مرات ولكن عبثا ان يقترب من القدس . وكان الصليبيون يركزون جل انتباههم على انتزاع المدن الساحلية من مصر . ولكن محاولات فتح يافا وعسقلان باءت بالفشل ايضا . وعندما خيم الخطر على هاتين المدينتين ، امر صلاح الدين بمجرد هدمهما ، ولذا لم يبق للصليبيين منهما غير ركاب من الانقاض .

ان ريشار لم يكسب البتة الشهرة لنفسه اثناء اقامته في الشرق بما ينسبه اليه مدونو الاخبار الميالون الى الدفاع عنه . والى مديحه من طراز امبرواز من ايفرو او من طراز المداحين الانجلو-اميركيين المعاصرين * ، بل كسبها باعمال النهب والسلب واعمال القساوة التي لا تصدق ، التي اقترفها بكل برودة ورباطة جأش . وقد امسى ريشار قلب الاسد في تصور المسلمين صورة مجسدة عن النزعة الى سفك الدماء . وباسم الملك الانجليزى كانت الام تحمل طفلها الباكي على الصمت : «لا تبك ، لا تبك ، ها هو ذا الملك

* كتب البروفسور سيدنى بنتر من جامعة جون هوبكنس الاميركية يقول : «هناك عدد قليل من القادة العسكريين في التاريخ يصعب فهمهم مثلما يصعب فهم ريشار قلب الاسد . فبوصفه مقاتلا ، كان قريبا من الجنون ، وكان يتميز بشجاعة لا تصدق وكان مقعما بالجرأة ؛ وبوصفه آمرا كان ذكيا ومحترسا وحذرا . كان بوسعه ان يجازف بحياته بلا مبالاة تامة ، ولكن لم يكن بوسع اى شيء ان يقنعه بتعريض قواته للضربات اكثر مما يكون ضروريا ضرورة مطلقة» . وهكذا دواليك بالروح ذاتها راجع :

S. Painter. The Third Crusade. A History of the Crusades. Vol. 2. The Later Crusades. 1189-1311. Madison-Milwaukee-London. 1969, p. 73.

ريشار آت ١». . وهذا الاسم كان يتذكره الفارس باللعنات اذا خاف حصانه من شيء ما وجفل فجأة . وكان يسأله : «ما بك ، هل رأيت الملك ريشار ؟ !» .

وفى آخر المطاف ، حين منيت قوات الصليبيين العسكرية - وبين البارونات لم تنقطع الخصومات - بخسائر فادحة في الحروب ضد صلاح الدين ، وحين بدأ ريشار الاول يقلق جديا على شؤونه في الوطن ، دخل في مفاوضات مع عدوه وعقد معه الصلح في ٢ ايلول (سبتمبر) ١١٩٢ . وبموجب شروط الصلح ، احتفظ الاسياد الصليبيون بشريط ساحلي ضيق يمتد من صور الى يافا ، وبقيت القدس خاضعة لمصر . ولم يوافق صلاح الدين الا على السماح للحجاج والتجار بزيارة القدس في غضون ثلاث سنوات . ويقينا ان الاراضي الساحلية بما فيها صور وصيدا وطرطوس وغيرها من المرافئ كانت بالنسبة للبلدان الغربية اهم بكثير من القدس او من الناصرة الواقعتين بعيدا عن الساحل . ان امتلاك الشريط الساحلي كان يخدم في المقام الاول مصالح التجارة الشرقية . وبهذا المعنى احرز ريشار الاول حتى بعض النجاح . ولكن هذا النجاح الذي كان يطيب بقدر معين لتجار ايطاليا الشمالية لم يكن من الممكن اعتباره كافيا من وجهة نظر روما ، اذ ان خسارة القدس كانت اخفاقا جديا الى حد انه كان يبدو للباباوية من المستحيل التسليم به .

في تشرين الاول (اكتوبر) ١١٩٢ هرع ريشار قلب الاسد الى بلده بعد ان تلقى من اوروبا انباء غير مستطابة . ولكن لم يتسن له الوصول الى انجلترا في وقت قصير . فقد اكتسب لنفسه عدوا ، لا في شخص فيليب الثاني وحسب ، بل ايضا في شخص قائد الصليبيين الالمان عند اسوار عكا ، الدوق ليوبولد النمساوي . فقد استعجل الدوق في رفع العلم الالمانى في المدينة بينما كان الصليبيون يحتلونها . فأمر ريشار بنزق وحمية بنزع العلم ورميه في الوحل . لم ينس ليوبولد الاهانة . وفي جوار فيينا عرف ليوبولد الملك الانجليزى متسترا بلباس التجار ، واسره ؛ ثم سلم ليوبولد اسيره الى الامبراطور هنريخ السادس . وقد رأى هذا الحاكم البالغ من العمر ٢٥ سنة في الفاتح الانجليزى عدوا له في تطلعاته الى منطقة البحر الابيض المتوسط ، فابقاه في السجن سنتين .

وهكذا نرى ان الحملة الصليبية الثالثة قد اختلفت في كثير من النواحي عن سابقتها . فبين المشتركين فيها ، كانت تغيب الحماسة الدينية السابقة ، كما انها لم تكن تنطوى على اى من عناصر العفوية والجماهيرية .

ولقد كانت حملة فتوحات قام بها فرسان وامراء ثلاث دول اقطاعية ونظمتها وحققتها السلطة الملكية . واثناء الحملة ، تكشف بجلاء ووضوح سعى الملكيات الاقطاعية الغربية الى فتح مختلف مناطق البحر الابيض المتوسط . وفي هذه التربة نشبت مضاعفات وتعقيدات ونزاعات دولية بين الدول المسيحية (المانيا وبيزنطيا ، انجلترا والمانيا - في صقلية ، فرنسا وانجلترا في صقلية وفلسطين ، انجلترا وبيزنطيا في قبرص ، والنخ .) ، وهي التي قررت المصير المخزى الذي آلت اليه الحملة بمجملها .

ومنذ ذاك ، صارت حدود مملكة القدس اضيق من ذي قبل ، كما نقلت عاصمتها ذاتها الى عكا . فكانت ما يسمى بمملكة القدس الثانية .

كانت حملة ١١٨٩-١١٩٢ نقطة انطلاق لاجل تفاقم التناقضات الناجمة بين الدول عن توسع الغرب في منطقة البحر الابيض المتوسط . وقد حاول هنريخ السادس (١١٩٠-١١٩٧) تحقيق مشاريع فريدريك الاول بربروسا غير المحققة . ففي سنة ١١٩٤ استولى على صقلية وكل سكانها الذين ثاروا عليه . وضم تركة النورمانيين (صقلية) الى المانيا وبذلك تحقق هدف سلالة هوهنشتاوفن القديم .

ان هنريخ السادس الذي كان بمقدوره اقل من ابيه ان يقايس بين نواياه التوسعية والاغتصابية وبين الامكانيات السياسية الفعلية ، بدأ يفكر جديا في تأسيس ملكية عالمية بعد ان وطد قدميه في صقلية . فاطلق سراح ريشار قلب الاسد من الاسر بعد ان اخذ منه قسم التابعة وفدية ضخمة جدا . وبذلك اراد هنريخ السادس ان يضع حدا للادعاءات الانجليزية في البحر الابيض المتوسط . ثم اعتزم ان يركع فرنسا بمساعدة ريشار . الا ان الامبراطور الالماني جعل من فتح بلدان الشرق الادنى ، وفي المقام الاول بيزنطيا ، مهمته الاساسية . وبجميع الوسائل استثار الحرب ضد بيزنطيا . فقد طلب من الامبراطور البيزنطي اسحق الثاني ان يتنازل لالمانيا عن نصف الاراضي البيزنطية (اراضي البلقان) وان يعرض عن الضرر الذي لحق بالصلبيين الالمان التابعين لفريدريك الاول . وفيما بعد ، في سنة ١١٩٥ ، حين اطيح بالامبراطور اسحق الثاني بنتيجة انقلاب في القصر ، وحل محله على العرش في القسطنطينية اخوه الكسيوس الثالث ، شرع هنريخ السادس في تنظيم حملة صليبية جديدة كان من المرسوم ان تكون بيزنطيا ضحيته الاولى . وللحصول على حجة رسمية لاجل الادعاء بالتاج البيزنطي ، زوج هنريخ السادس في ٢٥ ايار (مايو) ١١٩٧ اخاه فيليب ، دوق شوابيا ، من الاميرة اليونانية ايرينا التي وقعت في يده في باليرمو ، ابنة اسحق.

الثانى انجيلوس وارملة ووجيه ، العاهل النورمانى الاخير فى مملكة صقلية (ابن تنكريد دى ليتشه) . وهكذا تناول الكلام ضم بيزنطية مباشرة الى قوام «الامبراطورية الرومانية المقدسة» .

واعدت المدن الايطالية السفن . وفى المانيا تشكلت جموع جديدة ؛ وفى فورمس قبل هنريخ السادس فى آذار (مارس) ١١٩٦ ، مع القاصد الرسولى ، خلال اربع ساعات ، فى الكاتدرائية ، النذور الصليبية من الفرسان .

اثار خطر حملة صليبية جديدة الذعر فى بيزنطيا . فوافق المغتصب الكسيوس الثالث على شراء السلام باى ثمن كان . وكان مستعدا لدفع مبلغ هائل ذهبيا لهنريخ السادس . ولتحصيل وجمع الاموال اللازمة فى البلد الفقير البائس ، فرضت ضريبة استثنائية اسميت بالضريبة الالمانية (الامانيكون) .

فى آذار (مارس) ١١٩٧ تحركت نحو الشرق اولى الفصائل برئاسة رئيس اساقفة ماينتس ، كونراد فيتلسباخ ، والمارشال هنريخ من كالدن ، ومستشار الامبراطورية كونراد من كفيرفورت . ويقدر مدون الاخبار ارنولد من بولك عدد افرادها بـ ٦٠ الفا . وفى ٢٢ ايلول (سبتمبر) نقلهم الاسطول الى عكا . وتوقف قسم من الصليبيين فى قبرص . واعتبر ملك قبرص آمورى دى لوزينيان نفسه تابعا للامبراطور الالمانى وسرعان ما انتخب ملكا على القدس رسميا بضغط من القوات المسلحة الالمانية . ثم بدأ الصليبيون العمليات الحربية فى لبنان وسوريا ، بل انهم استولوا على صيدا وبيروت . الا ان كل هذا المشروع انهار فجأة بوفاة هنريخ السادس فى مستينا فى ٢٨ ايلول (سبتمبر) ١١٩٧ . فقد فتكت بهذا الامبراطور نوبة دورية من الملاريا ؛ واذا صليبيوه الذين بقوا فى لبنان وسوريا حتى صيف ١١٩٨ وعقدوا الصلح مع العادل (خليفة صلاح الدين) ، يسرعون فى العودة الى المانيا لكى يؤمنوا مصالحهم فى الحرب الاقطاعية التى نشبت هناك . وبعد حقبة قصيرة ، تعالت فى الغرب من جديد صيحة باباوية : «الى الشرق ا» . فان نتائج الحملة الصليبية الثالثة لم تتجاوب مع ابسط توقعات الكرسي الرسولى .

٥ الصليبيون في القسطنطينية



تاريخ الحملة الصليبية الرابعة ومؤرخوها

تشغل الحملة الصليبية الرابعة (١١٩٩-١٢٠٤) مكانا خاصا في تاريخ الحروب الشرقية التي شنّها الفرسان الغربيون . فان بعض العلماء الغربيين يعتبرونها ضربا من صدفة تاريخية ، ضربا من مفارقة تاريخية ، ضربا من تناقض ، ولهذا الاعتبار اسس شكلية معينة ، ذلك ان هذه الحملة التي استهدفت تحرير «الاماكن المقدسة» من السيادة الاسلامية ، قد انقلبت في آخر المطاف الى هزيمة منيت بها بيزنطية والى تشكيل امبراطورية لاتينية مكانها هي دولة الصليبيين ، اى دولة اخرى في عداد دول الصليبيين التي سبق ان تشكلت في الشرق .

ولكن ليس ثمة اى تناقض ، من حيث الجوهر ، فى مثل هذا المآل ، بل بالعكس . فان الحملة الصليبية الرابعة بالذات قد اظهرت بصورة خارقة الجلاء تلك من تطلعات الاقطاعيين والكنيسة الكاثوليكية ، التي ليس دائما تظهر على السطح ، والتي شكلت منذ بادىء بدء النابض المحرك الرئيسى والمشارك للمشاريع التي تحققت تحت رمز الصليب . الا ان الغلاف الدينى -

ولقد كانت الكنيسة تغلف به على الدوام حروب الفرسان في الشرق ،
للصوصية من حيث الاساس - قد تمزق كليا في هذا المشروع . فعوضا
عن السعى الى استرجاع القدس من «الكفار» استولى الصليبيون ، الذين كانوا
قد تحركوا ضد مصر الاسلامية ، على دولة مسيحية ، هي الامبراطورية
البيزنطية ، ودمروا عاصمتها كليا وتاما ، واكتفوا بذلك كأنما لم ترد يوما
قضية تحرير الارض المقدسة .

فكيف حدث ان مضى الاقطاعيون المسيحيون الذين تجمعوا من مختلف
بلدان اوروبا (وبصورة رئيسية من فرنسا والمانيا وايطاليا) ، «الى ما وراء
البحر» ، حسب تعبير مدونى الاخبار ، بحجة انقاذ الايمان المسيحي من نجس
ودنس «الكفار» ، ولكنهم فتحوا ونهبوا عاصمة بيزنطية ، عاصمة دولة
اخوانهم في الدين المسيحيين ؟ وهل كان هذا الانعطاف نتيجة لتجمع من باب
الصدفة ، لتجمع غير متوقع لظروف متوامة ، غير متوقفة على نوايا الصليبيين
الاولية ؟ هكذا حاول ان يصور الامر المؤرخ الفرنسى الاول للحملة ، مارشال
شامبانيا ، جوفروا فيلاردوان الذى ينتمى الى صف قادة الصليبيين ، فقد
وصف افعالهم فى يومياته التى صارت فيما بعد اساسا لمؤلفه التاريخي
«فتح القسطنطينية» .

او لربما تحولت الحملة الصليبية المعادية لمصر الى مشروع فتوحات
ضد بيزنطية بفعل افعال متعمدة قام بها المشتركون فى هذه الحملة ؟ واذا
كانت هذه الفرضية صحيحة ، فمن هم المسؤولون مباشرة عن «انحراف
الصليبيين عن السبيل» (بهذه الكلمات حدد البابا اينوشنتيوس الثالث
الوضع) ؟ اولم يكن تجار البندقية الحاذقون الذين يضمرون العداوة لبيزنطية
من قديم الزمان مسؤولين عن ذلك ؟ هكذا على الاقل يصور وضع الاشياء
السينكلتيك (السيناتور والمؤرخ البيزنطى نيكيتاس الخونياتسى
(Nicetas Choniates) الذى عانى من «البرابرة» الغربيين ومدون الاخبار
السورى ارنول ، والمؤرخ الرومانى المجهول لسيرة حياة البابا ، الذى كتب
«افعال اينوشنتيوس الثالث» ، وبعض المؤلفين القروسطيين الاخرين . او
لربما يقع الذنب الرئيسى عن «الانحراف عن السبيل» على قادة الحملة
انفسهم ، ومنهم ، مثلا ، الماركغراف الايطالى بونيفاسيوس دى مونفيرات ؟
فعليه يلقي مسؤولية الاحداث كاتب الشؤون المعيشية الفرنسى والمشارك
فى الحملة الفارس روبر دى كلارى من اميان الذى ترك مذكرات طريفة جدا
وصادقة فى كثير من النواحي وسماها كما سمي فيلاردوان يومياته «فتح
القسطنطينية» .

واخيرا ، الا يجوز الافتراض ان مصير الحملة الصليبية ونهايتها «الغريبين» قد نجما عن تدخل قوى سياسية ما كانت تفعل فعلها سواء من وراء الكواليس ام من الداخل ، وكانت تدفع الصليبيين الى مغامرة القسطنطينية ، بصورة غير ملحوظة بالنسبة للفرسان انفسهم وبالنسبة للاسياد الاعيان الذين يترأسون العساكر ؟ ان المعاصرين قد اعربوا كذلك عن فرضيات من هذا النوع . فان بعض مدونى الاخبار ، بمن فيهم شاهد عيان روسى على فتح القسطنطينية من قبل الصليبيين (وحيثه الذى دخل فيما بعد تاريخ نوفغورود الاول هو عبارة عن مصدر تاريخى قيم جدا) ، ينسبون دورا كبيرا فى انعطاف الحملة الصليبية الى دسائس الملك الالماني فيليب من شوابيا وحليفه ، القائد العسكرى العام للصليبيين بونيفاسيوس دى مونفيرات ، لاعتقادهم ان احدهما كان يسعى سرا الى امتلاك عرش القسطنطينية ، وان الثانى كان يسعى سرا كذلك الى فتح اراضى الامبراطورية البيزنطية فى شبه جزيرة البلقان .

ان مسألة الاسباب التى اتخذت الحملة الصليبية الرابعة بفعلها اتجاها جديدا وانتهت كذلك نهاية مدهشة هى مسألة مشوشة جدا ، وليس فقط من جراء تضارب اخبار المؤرخين . فان معاصرى استيلاء الصليبيين على القسطنطينية الذين وصفوا نهب العاصمة البيزنطية (واحدى المدونات اللاتينية تسمى بالضبط : «اجتياح القسطنطينية») وكذلك المؤرخين اللاحقين الذين حاولوا بعناد ومثابرة ان يحزروا لغز سنة ١٢٠٤ ، لم يكونوا براء من عدم التحيز . ان تأثير نزعات العلماء الدينية الطائفية واتجاهاتهم السياسية قد انعكس كذلك بصورة مباشرة وغير مباشرة فى نتائج دراساتهم فى القرنين التاسع عشر والعشرين لقضية الحملة الصليبية الرابعة ، الامر الذى صعب حل القضية حلا صحيحا ، مناسبا ، حسب مصطلحات الاختصاصيين .

هناك كثرة من الكتب والمقالات والمنشورات الوثائقية المشروحة بالتفصيل التى تتناول استيلاء الفرسان الصليبيين على بيزنطية . وهذه الاعمال تعرض شتى التفسيرات بصدد العوامل التى غيرت اتجاه الحملة الصليبية . وغير مرة كانت الحملة الصليبية فى اوائل القرن الثالث عشر ومختلف وقائعها ، ولا تزال الى الآن ، موضع مناظرات حارة ومغرضة بين المؤرخين . بل انه من الصعب ان نتصور مقدار الجهود التى بذلها الباحثون فى السنوات المائة ونيف الاخيرة (ان تاريخ الحملة الصليبية الرابعة قد اصبح موضع دراسة معمقة منذ الستينيات تقريبا من القرن الماضى) لتفسير

وتوضيح ظروف تغير اتجاه الصليبيين ، ومقدار الجبر الذي انفقوه ، ومقدار العمل الدقيق الذي قاموا به لتفهم تطورات هذه الحملة .

لقد جمع العلماء وحلّلوا عددا ضخما جدا من المصادر باللغات اللاتينية ، واليونانية ، والفرنسية القديمة ، والارمنية ، والروسية ، وغيرها من اللغات ، ودققوا طائفة من التفاصيل المتعلقة باحداث ملموسة من الحملة الصليبية . وقد تسنى لهم سد الكثير من نقاط الفراغ والغموض فى تاريخ هذه الحملة . ومع ذلك ، لم يتم بعد حتى الآن الاتفاق التام بشأن المسائل المختلف عليها ، ولا تزال المناقشات قائمة .

ولكن رغم الغموض المتبقى بصدد بعض وقائع الحملة ورغم قابلية بعض المسائل للنقاش ، بلغت معارفنا اليوم درجة من الدقة والصحة بحيث نستطيع كليا ان نعيد بناء كل تاريخ احداث سنوات ١١٩٩-١٢٠٤ بخطوطه الكبرى .

شمولية سياسة الباباوية واعداد الحملة على الشرق

كان البابا اينوشنتيوس الثالث (١١٩٨-١٢١٦) المبادر الى الحملة الصليبية الرابعة وروحها ، وفى عهده البابوى (حكمه) بلغت الباباوية قدرا كبيرا من الجبروت . وفى ذلك اسهمت بقسط كبير شخصية البابا ذاته ، الرجل ذو المواهب الممتازة والطاقة النادرة . تحدر اينوشنتيوس الثالث من العائلة الاقطاعية النافذة دى سينى ، وشغل الكرسي الرسولى فى السابعة والثلاثين من عمره . ولكن رغم انه كان الاصغر سنا فى هيئة الكاردينالات التى انتخبته ، كان لاختياره من قبل الشيوخ الشائبين الكاردينالات اسس جدية . ولا ريب ان اينوشنتيوس الثالث كان سياسيا بارزا فى زمنه . الارادة الراسخة ، المثابرة فى بلوغ الاهداف المنشودة ، القدرة على استغلال جوانب الضعف فى اخصامه بعد دراستها جيدا ، وانخضاع نواياهم لمقاصده ، والتنبؤ بالاحداث وتوجيهها - هذه المواهب وحدها كانت تكفى لاستمالة اصوات الكاردينالات الى جانبه .

كان ذو عقل كبير ، وكان خارق الهمة ايضا . وكان ميالا للقتال وسريع الغضب ، وسياسيا حذرا ومحترسا وصافى الذهن فى تقديراته وكان فنانا خارق المهارة فى النفاق والسفسة . ان احدا من الباباوات لم يستطع ان يخفى مثله ببالغ المهارة الاهداف الحقيقية للكورية الباباوية تحت ستار الورع والتقوى ، ولم يستطع ايا من الباباوات ان يبرر مثله ببالغ الاقناع كل خطوة ديبلوماسية يخطوها كاهن الرب الاول ، وان كانت اقل الخطوات

لياقة بالمصالح العليا للكنيسة الكاثوليكية وبحجج لاهوتية او حقوقية ، مختارة دائما بنحو مناسب . وليس عبثا تعلم اينوشنتيوس الثالث فى سنوات شبابه فى جامعتى باريس وبولونيا (وكانت آنذاك من خيرة المدارس العليا) ، حيث ، كما يقول مؤرخ سيرة حياته ، «تفوق على جميع اترابه بالنجاحات فى الفلسفة واللاهوت والقانون» ، وليس عبثا تعلم القانون الكنسى على يد الحقوقي الشهير من مدينة بولونيا اوغوتشو . وعدا المزايا الضرورية لرئيس الكنيسة الكاثوليكية ، كان هذا البابا يتحلى بمزية اخرى ، هى انه كان بارعا للغاية فى فن البلاغة والفصاحة . وباللجوء عند الاقتضاء الى معارفه الشاسعة فى الفلسفة ، وباستغلال الاستشهادات من التوراة والانجيل ، وباختلاق الحجج الدامغة ، كان يحدث فى معاصريه انطبعا قويا بالبولات (المراسيم) الرهيبة ، والرسائل المسهبة والمنمقة والخطابات الصارمة .

وغالبا ما يضع المؤرخون اينوشنتيوس الثالث فى صف واحد مع غريغوريوس السابع . الا ان هذا ليس صحيحا تماما . ان الفوارق من حيث طابع نشاط هذا وذاك لم تكن ، والحق يقال ، كبيرة جدا ، ولكنه من غير الصحيح اعتبارهما متشابهين ، فخلافا لغريغوريوس السابع ، المؤيد عن اقتناع لكلية سيادة البابا ، لم يكن للبابا اينوشنتيوس الثالث نظرات تيوقراطية * متماسكة بدقة . وغير مرة قال ان مهمات نائب الله فى الارض تنحصر فى الميدان الدينى . وعلى الاقل فى الاقوال لم يعرب اينوشنتيوس الثالث عن تعلقه الصريح بالتيوقراطية الباباوية الكلية الشمولية ، لاعتباره انه يجب على الحبر الاعظم الرومانى ان يملك كامل السلطة فى الشؤون الكنسية وان يمتنع عن التدخل فى صلاحيات الحكام الديويين ، للحيلولة دون خلط السلطة الدنيوية مع السلطة الدينية .

ولكن اينوشنتيوس الثالث طبق بكل غيرة وهمة ، فى سياسته العملية وفى ديبلوماسيته ، مذهب غريغوريوس السابع القائل بتفوق السلطة الدينية على السلطة الدنيوية ، وبحق الباباوات فى التصرف بمصائر الدول وتيجان ملوكها . ان نشاط هذا السياسى فى التاج الباباوى كان موجها بكليته بالفعل الى تحقيق الخطط التى تقدم بها غريغوريوس السابع ، خطط اخضاع جميع الدول المسيحية للحبر الاعظم الرومانى .

فى اواخر القرن الثانى عشر واولى القرن الثالث عشر انتشرت المساعى الى تأسيس امبراطورية عالمية انتشارا واسعا فى الغرب . وقد نشأت فى

* تيوقراطية - نظرية تعتبر السلطة نابعة من الله ويمارسها وزراءه .

تربة التوسع الاقليمي الذي مارسته الدول الاقطاعية الفتية فى ذلك الزمن . وهذه الميول الشمولية لازمت قبل كل شىء سياسة آل هوهنشتاوفن ، حكام الامبراطورية الالمانية ، الذين سعوا من زمان الى بسط زعامتهم فى اوروبا الغربية والوسطى والجنوبية ، ففى النصف الثانى بالذات من القرن الثانى عشر ، صارت الامبراطورية الالمانية تسمى بالامبراطورية «المقدسة» باعتبار ان اباطرتها يتلقون السلطة ، كما يزعمون ، من الله .

كذلك لم تكن ميول الدولة الكبرى غربية عن ملوك المملكة الانجلو - فرنسية - آل بلانتاينه ، وعن ملوك مملكة الصقليتين النورمانيين ، وحتى عن ملوك فرنسا حيث المركزية السياسية كانت لا تزال تخطو خطواتها الاولى . فقد كان فيليب الثانى اوغست يعتبر نفسه وريثا لشارلمان (او شارل الاكبر) شأنه شأن امبراطور الامبراطورية المقدسة : «يكفى امرؤ واحد لحكم العالم بأسره» . هكذا كان يحب ان يقول فيليب الثانى اوغست ، اذا صدقنا مدون اخبار مجهول كتب مؤلفا اسمه «افعال ملوك الافرنج» .

وقد اكتسبت الميول الشمولية طابعها الاوسع فى سياسة الكورينة الرومانية ، ذلك ان الكنيسة الكاثوليكية كانت مركزا عالميا حقا وفعلا للنظام الاقطاعى . وكانت مقاصدها ومشاريعها التوسعية تتميز بنطاق جليل شاسع . وفى شخص اينوشنتيوس الثالث وجدت ملهما ومنفذا خارق الهمة .

وهذا البابا ترك من بعده تراثا ادبيا ومكتبيا مهما وكبيرا جدا ؛ فان مراسلاته الرسمية وحدها (التي صدرت مؤخرا فى جمهورية المانيا الاتحادية) ، مثلا ، تشكل مجلدا ضخما جدا . ولكن ، مهما كتب وقال اينوشنتيوس الثالث نفسه بصدد اقتناعه بالطبيعة الدينية المحضة للسلطة الباباوية (وغير مرة ابدى رايه فى هذا الصدد) ، فان التاريخ يحكم عليه ، لا بموجب اقواله ، بل بموجب افعاله . والواقع انه من الجلى ان افعاله لم تكن تتطابق مع محاكماته وآرائه اللاهوتية والسياسية المناققة . وللمناسبة نقول ان التحرق الى كلية السلطة كان احيانا يتبدى عند هذا البابا على المكشوف ايضا . ففى احدى مواعظه الباباوية الاولى قال ان الرب مسحه بالميرون ، وزعم انه يقف ادنى من الرب بقليل - فى مكان ما بين الرب والناس ، وان البابا ليس بالطبع الرب ، ولكن الرب وضعه فوق جميع الناس .

كان الهدف الرئيسى الذى استهدفه اينوشنتيوس الثالث اقامة سيادة (زعامة) الكورية الرومانية بصورة تامة على عموم العالم الاقطاعى فى الغرب والشرق . وهذا الهدف بالذات هو الذى حدد الجهود العملية التى بذلها الحبر

الاعظم الروماني الذي لا يعرف الكل . وليس عبثا اتهم ولا يزال يتهم حتى انصار الكاثوليكية المقتنعون البابا اينوشنتيوس الثالث بأنه اخضع الاعتبارات الدينية للمصالح السياسية ، وخالف المبادئ التي نادى بها بذاته . اما المؤرخون الكاثوليك في ايامنا ، فانهم يبدون رأيهم في هذا الصدد لاجئين الى صيغ اكثر مرونة ؛ فان البابا ، كما يزعمون ، ليس دائما استرشد بالدوافع الدينية ، اذ انه لم يستطع ان يتغلب في نفسه على «التناقضات بين نائب المسيح ورجل الدولة» . ولكن الواقع يبقى واقعا وهو ان البابا اينوشنتيوس الثالث كان قبل كل شيء رجل دولة وضع في المقام الاول المصالح السياسية لروما الباباوية .

كانت الحملة الصليبية منذ بادى بدء جزءا مكونا في غاية الاهمية من اجزاء البرنامج الشمولي للحبر الاعظم . وكانت الفكرة الاولى والاخيرة عند البابا اينوشنتيوس الثالث . وفي كل مدة حكمه الباباوى بذل جهودا كبيرة لاجل بعث روح الحملات الصليبية القديم . وما كاد الكاردينالات الذين تجمعوا في دير القديس اندراوس ينتخبونه للكرسى الرسولى حتى وجه الى الغرب نداء مدويا دعا فيه الى القيام بحرب مقدسة جديدة ضد المسلمين لاجل تحرير القدس . في الاقوال كان المقصود هنا ايضا مشروعا دينيا محضا ، فان البابا «المتعرق بالرغبة النارية في تحرير الارض المقدسة من ايدي الكفار» ، قد دعا رعيته الى انقاذ «تراث السيد الرب» ، الى اعادة تلك الاماكن التي قدسها يسوع المسيح نفسه بحياته الارضية الى الكنيسة الكاثوليكية . وكانت جميع دعوات البابا اللاحقة الى الكاثوليك مفعمة بهذه «النعمة الربانية» . ولكن الاحداث بيّنت ان الاهداف السياسية كانت دائما تشغل المرتبة الاولى بالنسبة للبابا اينوشنتيوس الثالث ، وقوامها توسيع ممتلكات الكنيسة الرومانية في الشرق وتعزيز جبروت كاهنها الاول ، حبرها الاعظم .

لم يضمن البابا بالفصاحة والبلاغة لاجل تنظيم الحملة الصليبية . والى فرنسا والمانيا وانجلترا وايطاليا والمجر وغيرها من البلدان ارسل في آب وايلول (اغسطس وسبتمبر) ١١٩٨ رسائل بليغة نادى فيها جميع «المؤمنين» الى النهوض للدفاع عن الارض المقدسة . وعين لاجل التجمعات مدة ستة اشهر (حتى آذار - مارس ١١٩٩) ، وكان على الذين فكروا في السفر بحرا وعلى الذين اعتزموا السفر برا ان يجتمعوا حتى الصيف في مرافئ ايطاليا الجنوبية وصقلية .^١

وفي الحال اتخذت تدابير ملموسة دينية عملية ، ومالية وديبلوماسية - لاجل اعداد الحملة الصليبية .

امر البابا اينوشنتيوس الثالث جميع الاحبار بكل صرامة بان يطالبوا بمشاركة الكاثوليك فى الحملة دون اى تردد و اى شرط . ول اجل ايقاظ الحماسة الدينية امر رجال الدين من جميع المراتب بعدم التردد عن اصدار الحرم بحق المهملين والمقصرين حيال القضية المقدسة وحتى عن اصدار المنع (Interdit) على اراضيهم . ثم ان البابا اينوشنتيوس الثالث اعلن غفران الخطايا على اوسع نطاق لجميع المشتركين فى الحملة الصليبية بموجب «السلطة التى منحنا اياها الرب ، وان نكن غير جديرين بها ، للربط والحل» (تعبير انجيلي مستعمل فى وثائق الباباوية للاشارة الى حق رجال الدين فى غفران الخطايا او برفع الحرم) . كذلك اعلن ان الخلاص الابدى سيكون جزاء «سواء للذين لم يشتركوا شخصا بل قدموا المقاتلين اللازمين على حسابهم ووفقا لاموالهم ام للذين اشتركوا شخصا فى الحملة وان يكن على حساب الغير» . واعفى الصليبيون من جميع الضرائب ، و«شخصيتهم وملكهم يوجدان ، منذ اخذ الصليب ، تحت حماية بطرس البار وحمائتنا» .

كان الجانب المالى من المشروع يقلق البابا اينوشنتيوس الثالث بصورة جدية جدا . ول اجل تأمين المبالغ النقدية الضرورية ، فرض فى اواخر سنة ١١٩٩ ضريبة صليبية خاصة على رجال الدين مقدارها جزء من اربعين جزءا من دخل الكنائس والاديرة السنوى . والضريبة ذاتها كان ينبغى ان يسدها بعض الجمعيات الرهبانية غير المميزة . وتحاشيا لاستياء الرهبان والكهنة الشجاع ، احاطهم البابا علما ببعد نظر ان هذه الضريبة خارقة للعادة ، وانه لا ينوى اللجوء اليها مستقبلا كضريبة دائمة على املاك المؤسسات الكنسية . وتبين ان مخاوف البابا بصدد «سخاء» و«كرم» رجال الدين لم تكن باطلة . فان الاساقفة الفرنسيين ، مثلا ، لم يدفعوا الضريبة الصليبية ، رغم ان بعضهم وعد حتى بان يقدم للكرسى الرسولى اكثر مما طلب ؛ وبعد فترة قليلة ، فى سنة ١٢٠١ ، لام البابا اينوشنتيوس الثالث رجال الكنيسة الفرنسيين على انهم تعهدوا طوعا واختيارا بان يقدموا جزءا من ثلاثين جزءا من مداخيلهم ولكنهم لم يدفعوا حتى جزءا من اربعين جزءا ، اى هذا الجزء المستحق بموجب امره هو البابا . كذلك تضرر رجال الدين فى بلدان اخرى . وهنا وهناك ، اثار جباة البابا الريبة بهم : ان تعلق المبالغ التى يجمعونها باصابع كبار رجال الدين فى روما ؟ ان مدون الاخبار الانجليزى ، الراهب ماتيو ، الملقب لسبب غير مفهوم بالباريسى ، يقول ان ضريبة البابا لا ترضى الرب . فهكذا كان ، اغلب الظن ، الراى العام فى الاوساط الكنسية . كذلك قاومت بعض الجمعيات الرهبانية دفع النقود الصليبية ؛ فان الرهبان

السيسترسيين البغلاء قد زادوا بعناد بالغ عن حريتهم واعفائهم من الضرائب ،
معتبرين الضريبة الجديدة بمنابة اضطهاد او يكاد للجمعية .

وسعيا لضرب مثل حي على السخاء التقى لرجال الدين البغلاء ، تعهد
البابا اينوشنتيوس الثالث بان يدفع عشر مداخيل الكورية الرومانية لحاجات
الحملة .

كذلك بذل اينوشنتيوس الثالث نشاطا عاصفا في الميدان الديبلوماسي .
في ذلك الوقت كانت تدور رحى الحرب بين فيليب الثاني اوغست وریشار
قلب الاسد ، الامر الذي كان يمنع الفرسان والاسياد الفرنسيين والانجليز
من الاشتراك في المشروع الذي دبره البابا . ولأجل مصالحة الجانبين
المتعادين ، ارسلت روما الى فرنسا قاصدا رسوليا ، هو الكاردينال الشماس
في كنيسة القديسة مريم ، بطرس من كابوا . وقد تسنى لهذا الكاردينال ان
يعقد هدنة بين فرنسا وانجلترا في كانون الثاني (يناير) ١١٩٩ (بعد ذلك ،
بأربعة اشهر لقي ریشار قلب الاسد مصرعه اثناء حصار قصر احد اتباعه
في نورمانديا) . وفي الوقت نفسه ارسل قاصدا رسولي آخر ، هو الكاردينال
الشماس سوفريدو الى البندقية ، لانه كان بمقدورها وحدها ان تؤمن نقل
الصليبيين المقبلين بحرا ، اذ ان جنوه وبيزا كانتا آنذاك في حالة حرب
تجارية ، علما بان البابا حاول ، ولكن عبثا والحق يقال ، ان يصلح بين
الخصمين السريعي الغضب (والى هاتين المدينتين ارسلوا كذلك كاردينالين) .
ولم تغب المانيا ايضا عن بال البابا اينوشنتيوس الثالث . فمئذ سنة
١١٩٨ كانت كتلتان اقطاعيتان تتعاديان هنا بضراوة - آل شتاوفن وآل
فلف . وقد قدمت كل كتلة مرشحها الى التاج الملكي ، ولذا انتخب ملكان في
آن واحد ، هما فيليب من شوابيا ، ابن فريدريك بربروسا ، واوثون من
براونشفيغ (فلف) كان ابن اخت ریشار قلب الاسد . وفي الحال تدخل
البابا في هذا الخصام الاقطاعي ، وبواسطة رسله وفي الرسائل الى الملكين
الالمانيين والامراء الالمان ، نصح الحزبين المتعادين بوضع حد للشقاق
والخلاف . ان تدخل اينوشنتيوس الثالث في الشؤون الالمانية قد املته
بصورة رئيسية اعتبارات تتعلق بالصراع الذي كان قد استمر اكثر من مائة
سنة بين الباباوية والامبراطورية الالمانية .

حاول الكرسي الرسولي قبل كل شيء ان يستغل النزاع الاقطاعي العاصف
في المانيا لما فيه صالح روما السياسي ، وبخاصة لأجل توسيع اراضي
الدولة الباباوية في ايطاليا (على حساب ممتلكات آل شتاوفن) ولأجل توطيد
مكانة الباباوية المعنوية والسياسية في الاراضي الالمانية . وفي الوقت

نفسه اخذ الكرسي الرسولي بالحسبان حاجات الحملة الصليبية المقبلة . الا ان رسالة البابا اينوشنتيوس الثالث الهمام لم تسفر من وجهة النظر هذه عن اية نتيجة ايجابية ؛ فان الكتلتين الاقطاعيتين ، اللتين تدعم كل منهما احد الملكين ، ظلتا تتعاديان كما من قبل ، ولم يفعل البابا ، بتدخله ، داعما تارة احد الطرفين وطورا الطرف الاخر ، غير سكب الزيت على النار . واضطرت المانيا الى دفع ثمن السياسة الباباوية سنوات طويلة من الحروب الداخلية التي حالت بالتالي دون اشتراك عدد كبير نوعا ما من الاقطاعيين الالمان اشتراكا مباشرا في الحملة الصليبية .

واعدادا للحملة الصليبية ، توجه البابا اينوشنتيوس الثالث كذلك الى الامبراطور البيزنطي الكسيوس الثالث . فقد كان على القسطنطينية ، برأى البابا ، ان تحرك عساكرها لاجل تحرير القدس . هذا المطلب تلقاه الامبراطور البيزنطي في رسالة باباوية لام فيها اينوشنتيوس الثالث الامبراطور على انه من زمان لا يساعد الارض المقدسة . هذه الملامات لم تكن سوى ورقة دبلوماسية . فان اينوشنتيوس الثالث كان يحيك الخطط لسحب سيادة الكنيسة الرومانية على بيزنطية . وكان يهيمه اشتراك بيزنطية في الحملة الصليبية (مع ان البابا كان يريد بالتأكيد ان يستغل مواردها المادية والعسكرية لاجل فرض سيادة الكرسي الرسولي في الشرق) اقل مما كان يهيمه في المقام الاول امر آخر هو اخضاع الكنيسة الارثوذكسية الشرقية للكنيسة الرومانية الغربية (اللاتينية) . وقد طرح البابا في رسالته الى الامبراطور البيزنطي ، اول ما طرح ، مسألة اتحاد الكنيسة . وقد كان اتحاد الكنيستين صيغة قديمة لباباوات روما تتستر وراءها نوايا القضاء على استقلالية الكنيسة الارثوذكسية ، واستملاك ثرواتها ومداخيلها ، واخضاع بطريرك القسطنطينية ، رئيس الكنيسة الارثوذكسية ، ومن بعده الامبراطور نفسه .

وهكذا ظهرت الحملة الصليبية واتحاد الكنيسة في الحال وثيقسى الارتباط في سياسة البابا اينوشنتيوس الثالث . وقد حدث ذلك لان البابا رأى في الحملة الصليبية وسيلة مناسبة لاحتراز نجاح مزدوج في آن واحد : جعل القدس والقسطنطينية معا تابعتين لروما . ومن المؤكد ان اينوشنتيوس الثالث لم يكن يرى آنذاك في الحملة الصليبية اكثر من وسيلة لتخويف الاوساط الحاكمة في الامبراطورية البيزنطية بمختلف المضاعفات والتعقيدات المحتملة بالنسبة لها بالارتباط مع مشروع الفرسان الغربيين . وببساطة نقول ان البابا هوّل على الامبراطور البيزنطي لاجباره على اجراء تنازلات تتعلق

بالوحدة الكنسية . اما فى الواقع ، فان البابسا لم يقتصر فى رسالته الى الكسيوس الثالث على النصائح «الابوية» وعلى الاستشهادات بالانجيل . بل الممح بما يكفى من الوضوح الى ان بعض قوى الغرب ستعمل ، اءلب الظن ، ضد بيزنطية اذا رفضت القسطنطينية مطلب الكرسي الرسولى . وهذا التهديد الغامض كان مجلبيا بجلباب ديبلوماسى .

ولكن القسطنطينية رفضت قطعاً مطامع البابا اينوشنتيوس الثالث ، وفى شباط (فبراير) ١١٩٩ وجه الكسيوس الثالث اتهامات مقابلة الى الباباوية بسبب سياستها حيال بيزنطية . وكل هذا لسم يفعل غير ان اثار غضب البابا . وبقدر ما كانت تتطور الاحداث ، كان يحاول ان ينفذ تهديداته لبيزنطية : فى ١١٩٨-١١٩٩ كانت سبل تنفيذ هذه التهديدات لا تزال ، والحق يقال ، غير واضحة ، ولكن البابا اعرب بكل وضوح عن جوهرها .

وهكذا بدأت تنعقد فى سنة ١١٩٨ تلك العقدة التى امتدت فى سنة ١٢٠٤ انشودة مشدودة حول القسطنطينية .

ان تناحر الباباوية وبيزنطية الذى كانت سياسة الباباوات الشمولية اساسه قد كان السبب الاول (من حيث زمن ظهوره) ، وان لم يكن السبب الرئيسى ، لتغير اتجاه الحملة الصليبية الرابعة . وسرعان ما انضمت اليه اسباب اخرى ، اهم .

الاستعدادات للحملة . دوافع الفرسان

لئن كان رجال الكنيسة بالكاد ساندوا بالنقود مبادرة حبرهم الاعظم الصليبية ، فانهم لم يضمنوا بالمواعظ التى تطور بواعث الرسائل الباباوية فى صالح الحملة الصليبية . ففي كل مكان بدأ الاحبار الكاثوليك يلقون الخطابات النارية ، مدافعين عن الحرب المقدسة ، ومحاولين ان يجتذبوا بشتى الوسائل اليها اكبر عدد ممكن من المقاتلين ، ولم يكن الواعظون يضمنون على المشتركين المقبلين فيها بالوعود بالنعم السماوية والارضية .

وهذه المرة قام بدور بطرس الناسك كاهن الرعية فولك من مدينة نويى الفرنسية الواقعة على نهر المارن . وباستغلال جهل الشعب ، استطاع ان يكسب لنفسه شهرة رجل الرب وشهرة التحلى بموهبة اجتراف العجائب والقدرة على شفاء المرضى والمقعدين . وفى غضون بضع سنوات ، بدءا من سنة ١١٩٨ حتى سنة وفاته ضمنا (توفى فى ايار - مايو ١٢٠٢) طاف فى دائرة باريس قرية قرية واعظا بالحملة الصليبية ومرفقا مواعظه (التى كان يشهر فيها بالمرابين والعواهر وشتى الخطاة) بشتى العجائب الممسرحة .

كان فولك ، كما كتب عنه مدون اخبار معاصر لا يخلو من بعد النظر ، «يعرف جيدا من وفى اى وقت يستطيع ويجب ان يشفيه» .

ان مواعظ فولك واضرابه من المتعصبين الذين كانوا يؤدون مثلسه مهمتهم بتكليف مباشر من البابا اينوشنتيوس الثالث قد احرزت فى البدء بعض النجاح بين الفلاحين . ويؤكد مدون الاخبار الانجليزى رادولف كوغيسهيل ان فولك اجتذب الى درب الرب زهاء ٢٠٠ الف شخص - وهذا عدد من المؤكد انه مبالغ فيه بافراط وثمره خيال مدون الاخبار . اما فى الواقع فان نجاح الكاهن الفرنسى كان اكثر تواضعا بكثير ، والرئيسى هو انه كان سريع الزوال ، فللمحظة اغرت مواعظ المجندين الباباويين النارية الشعب البسيط ، ولكن نوبة الورع الصليبيى انقضت فيما بعد بسرعة . وظلت ازمان بطرس الناسك طى الماضى . . .

لقى نداء البابا صدى ، ولكن ليس فى الحال ، وبصورة محدودة جدا ، وعلى الاغلب فى الوسط الاقطاعى ، وقبل كل شىء فى فرنسا . ففي فرنسا استجاب لنداء البابا زهاء مائة من كبار الاسياد ومعهم اتباعهم الفرسان . اما الملوك ، فقد رفضوا هذه المرة الاستجابة لدعوة الباباوية . ان ملك فرنسا فيليب الثانى اوغست ، الذى مر منذ عشر سنوات بتجربة فاشلة كان يتمسك برأى مفاده ان الحياة البشرية تكفيها حملة صليبية واحدة . ولم يآبه فيليب الثانى اوغست لنداء القاصد الرسول بيار من كابوا الذى وصل الى فرنسا ، واستأنف الحرب ، بعد مصرع ريتشار قلب الاسد ، ضد اعدائه ، آل بلانتاجينه ، اذ انقض على الممتلكات الفرنسية لخلف ريتشار ، الملك الانجليزى الجديد جان بلا ارض (Jean sans Terre) (١١٩٩) - (١٢١٦) . اما ريتشار قلب الاسد ذو التأدب - وقد كان لا يزال حيا عندما بدا فولك من نوبى مواعظه - فقد سخر على المكشوف من خطابات هذا الكاهن النارية . ان بطل الحملة الصليبية الثالثة ، كما كتب مدون الاخبار الانجليزى جيرالد من كمبريدج ، قد قال لفولك ، ردا على دعواته ، ما يلى تقريبا : «انت تنصحنى بجهد ابنائى الثلاثة - التكبر والبخل والفجور . لا بأس . فاني اتنازل عنهم لمن هم اجدر منى ، تكبرى للهيكلين ، بخلى للسيسترسيين ، فجورى للكهنة» .

مّر آذار (مارس) ١١٩٩ - الموعد الذى عيّنه البابا اينوشنتيوس الثالث لانجاز الاستعدادات للحملة - ولكن لم تكن هناك القوات الصليبية . لم تقم الاستعدادات المباشرة للحملة الا منذ اواخر سنة ١١٩٩ . ففي تشرين الثانى (نوفمبر) اقيمت جولة بين الفرسان فى قصر اكرى بمقاطعة

شامبانيا (على نهر الاين ، منطقة الاردن) . وهنا تعهد كثيرون من المشتركين والحاضرين بالاشتراك فى الحملة الصليبية . وقد انتشرت فى الادب اسطورة تزعم ان فولك من نويى قد خطب فى الجولة ، وسحر الفرسان باقواله . ولكن مصدرنا الرئيسى الذى يروى بالتفصيل مجرى الاحداث ، وهو جوفروا فيلاردوان ، لا يذكر شيئا عن موعظة فولك ، ولو كان هذا الكاهن من نويى حضر الجولة فعلا ، لما كان تردد جوفروا فيلاردوان عن الاشارة الى ذلك . على كل حال ، استحوذت الحمى الصليبية على الفرسان والاسياد منذ جولة تشرين الثانى (نوفمبر) . وبين الذين اخذوا الصليب ، كان طواغيت اقطاعيون بارزون ، اغلبهم من الشبان (لم يكن احد منهم تقريبا يتجاوز الثلاثين من العمر) .

يذكر فيلاردوان وروبر دى كلارى بالتفصيل الاسماء المدوية لاولئك البارونات «الاكابر جدا» الذين استجابوا فى اواخر سنة ١١٩٩ واول سنة ١٢٠٠ لنداء البابا ، وبينهم كان تيبو الثالث كونت دى شامبانيا ، ابن اخى الملك الفرنسى وابن اخى الملك الانجليزى ، وابن عمه لويس كونت دى بلوا وشارتر ، والكونت سيمون دى مونفور (فيما بعد ، قائد الحملة الصليبية ضد الالبيجيين) ، والكونت رينو دى مونميراي وغيرهم . وفى شباط (فبراير) ١٢٠٠ ، نذر النذر الصليبي بودوان التاسع ، كونت الفلاندر واينو ، واخوه هنرى ؛ كذلك تعهد بالاشتراك فى الحملة هوغ دى سان بول ، وايتيان دى برش ، وغيرهما . وقد كتب روبر دى كلارى : «هناك كان عدد من الآخرين كبير . . . الى حد انه ليس بوسعنا ان نذكر لكم جميع الفرسان ، الاجرياء والشجعان» . ومثل فيلاردوان يكتفى روبر دى كلارى بتعداد اشهر البارونات واتباعهم .

هؤلاء الفرسان جميعهم تقريبا لم تدفعهم البتة الدوافع الدينية الى الشرق ، مع انه لا مجال للشك فى توفرها . فقد كانوا من اهل زمانهم ، وكانوا على اقتناع بان .

من فتحوا اقطارا غريبة
بدوافع قضايا مقدسة ،
ينتظرهم فيما وراء القبر
مفران الخطايا .

فى هذه الابيات ، اعرب فيما بعد عن هذا الايمان احد المشتركين فى الحملة الصليبية الرابعة ، هو التروبادور (الشاعر المغنى الجوال) هاوسل فايديت (وللمناسبة نقول انه كان من كبار هواة الطعام اللذيذ والمقامة

بالكعاب ، ولم يكن ينتمى ، اغلب الظن ، الى عداد الصليبيين ذوى الايمان العميق جدا) . فضلا عن الذرائع الدينية ، لعبت التقاليد العائلية دورا معيناً فى حمل عدد من كبار البارونات على اخذ الصليب . فان الاشتراك فى الحملة الصليبية كان يعتبر من زمان بعيد علامة حسن السلوك والسمعة فى عائلات النبلاء من الفرسان ، فقد كان يتعين على كل فارس شاب ان يزور حتما الارض المقدسة كصليبي . وهذا التقليد ترسخ فى سلالة كونتات دى بلوا (اشترك اسطفان دى بلوا فى الحملة الصليبية الاولى) . وكونتات دى شامبانيا (الكونت هنرى ، الاخ الاكبر للكونت تيبو الثالث ، كان من عداد المشتركين فى الحملة الصليبية الثالثة ومات حاكما للقدس سنة ١١٩٧) . وغوتيه دى بريان كان ابن وحفيد وابن حفيد صليبيين ، وكان جوفروا دى برش ، وميلون دى بريان ، وتييري من الازاس ابناء واحفاد مشتركين فى حملات صليبية .

ومع ذلك كانت اهم اسباب نزوة الطواغيت الفرنسيين الصليبية سياسية الطابع . فان هؤلاء البارونات الاكابر جميعهم تقريبا وقفوا الى جانب انجلترا فى الحرب التى دارت رحاها قبل ذاك بقليل بين فرنسا وانجلترا اى انهم قاتلوا فى معسكر اعداء فيليب الثانى اوغست وكانوا من انصار بيت انجو . والآن اخذ هؤلاء البارونات يتخوفون من انتقام الملك الفرنسى ، وقد خافوا قبل كل شئ ، بالطبع ، على اراضيهم فى فرنسا . ذلك ان فيليب الثانى نقل عداوته لريشار قلب الاسد ، بعد مصرعه ، الى جان بلا ارض . . . وقد قرر كونت دى بلوا ، وكونت الفلاندر ، وكذلك البارونات القريبون منهما ان يصبحوا صليبيين لكى يحرموا سيدهم الملك من امكانية الاستيلاء على ممتلكاتهم (بوصفهم حلفاء الملك الانجليزى) ، ذلك ان اموال الصليبيين كانت توضع فى حماية الكنيسة . وقد جاء بوضوح فى اخبار اينو ، مثلا : «ان بودوان ، كونت الفلاندر واينو حزن على وفاة الملك ريشار ، وخوفا من مكائد الملك الفرنسى ، اخذ الصليب مع كثيرين من البارونات لكى يتهرب من سلطته ويتجنب الحرب ضده» .

وليست الهوم والمقاصد الورعة ، بل الهوم والمقاصد الارضية المحضة - من باب المكانة والنفوذ او من باب النفعية المباشرة - هى التى دفعت ، كما من قبل ، الطواغيت الاقطاعيين الى المغامرات فيما وراء البحار . كانوا يحرصون على رفاههم وحفظ ممتلكاتهم ، وصيانتها من تطاولات عرش الكابيتيين ، واكثارها ، طبعا ، بفضل الفتوحات فى الشرق . كذلك كانت دوافع الفتح هى التى دفعت اساسا سواد الفرسان - الاتباع

واتباع الاتباع ، الذين انضموا تدريجيا الى الاعيان . وان الفارس روبر
دى كلارى الذى انضم الى فصيلة سيده بيار داميان والذى صار فيما بعد
مؤرخ الحملة ، قد اعلن بكل صراحة فيما بعد ان الصليبيين راحوا الى
بيزنطية «لكى يستولوا على الاراضى» .

المفاوضات فى البندقية ، التجارة الشرقية وعلاقات جمهورية القديس مرقس مع بيزنطية

نحو صيف سنة ١٢٠٠ اجتمع فى فرنسا عدد ضخم بقياس ذلك الزمن
من العساكر المستعدة للسفر بحرا . وقد انقسم الصليبيون الى زهاء ١٥٠
فصيلة بارونية (ترد فى مدونات الاخبار والوثائق اسماء زهاء ١٥٠ بارونا
قائدا) ، تضم كل منها ٨٠-١٠٠ فارس . وعن اولى خطوات القادة العملية
يحكى فى يومياته بالتفصيل جوفروا فيلاردوان الذى يحاول قصارى جهده
فى كل سرده ان يبيض صفحة المشتركين فى الحملة وقادتهم .

اجتمع كبار البارونات يادى ذى بدء فى سواسون ثم فى كومبيان (الى
الشمال من باريس) - وقد حضر فيلاردوان بنفسه هذين الاجتماعين -
وانتخبوا تيبو الثالث ، كونت دى شامبانيا ، البالغ من العمر ٢٢ سنة ،
قائدا عسكريا اعلى للجحافل الاقطاعية . ثم اختاروا فى كومبيان ستة فرسان
من الاعيان وارسلوهم رسلا الى البندقية . وكان على هؤلاء ان يتفقوا مع
حكومة البندقية بشأن نقل القوات الصليبية بحرا . وفى عداد الرسل كان
فيلاردوان نفسه ، كما كان الفارس الشاعر الشهير ببلاغته وفصاحته
كونون دى بيتون ، الذى نظم قصيدتين عن الحملة الصليبية الثالثة . وصل
الرسل الى البندقية فى اوائل شباط (فبراير) ١٢٠١ . وليس من المعلوم
بدقة طول الوقت الذى اجروا فيه المفاوضات هناك : لربما ثمانية ايام
ولربما زهاء شهرين (تختلف معلومات مصادرها) . على كل حال ، تم التوقيع
فى اوائل نيسان (ابريل) ١٢٠١ ، بعد بضعة لقاءات مع دوج البندقية الطاعن
فى السن انريكو دندولو (١١٩٢-١٢٠٥) ، على معاهدة وافقت بموجبها
البندقية ، بشروط معينة ، على تقديم السفن للصليبيين .

كان توقيع هذه المعاهدة واقعة مسؤولة جدا فى تاريخ الحملة
الصليبية . فآنذاك بالضبط تم ، فى البندقية بالذات ، اعداد نابض آخر ،
ناهيك بانه اكبر نابض هذا المشروع ، نابض دفع الصليبيين فيما بعد ، حين
استقام واستطال ، بعيدا عن الارض المقدسة . ولهم دور «عروس

«الادرياتيک» (هكذا كانوا يسمون البندقية احيانا) فى الاحداث اللاحقة ، ينبغي ان نتصور مكانها فى علاقات الغرب التجارية مع الشرق ، وعلى الاخص فى العلاقات بين البندقية وبيزنطية .

منذ اواخر القرن الحادى عشر ، لعبت جمهورية القديس مرقس (كان هذا الرسول يعتبر حاميا لدولة البندقية) دورا من الدرجة الاولى فى التجارة الشرقية . ولكن كان لها منافسون جديون سواء فى ايطاليا ام فى خارجها . والمقصود هنا ، من جهة ، جنوه وبيزا ، ومن جهة اخرى ، بيزنطية ، التى كانت البندقية تعتبر منذ بضعة قرون تابعة اسمية لها . الا ان الاوليفاركية (الطغمة الحاكمة) الاقطاعية التجارية فى البندقية ، المعتمدة على جبروت الجمهورية الاقتصادية والبحرى الحربى ، كانت ، والحق يقال ، تتمتع بامتيازات واسعة فى الامبراطورية البيزنطية . وقد اضطرت الدولة البيزنطية التى اخذ يتفاقم ضعفها اكثر فاكثرا الى الاقدام على تنازلات فى صالح البندقية ، فان اسطول البندقية البحرى كان قوة انقذت القسطنطينية غير مرة من المصيبة . . ولكن بما انه كان من الممكن ان تنقلب هذه القوة ضد القسطنطينية ، فكان لا بد من اخذ ذلك بالحسبان .

وقبل ذلك عشرات السنين ، انشأ البندقيون فى مرفى بيزنطية محلات الوكالات التجارية والمكاتب ، وشرعوا ينقلون البضائع بلا رسوم ويتاجرون بها ، ونالوا الاعفاء التام من المراقبة الجمركية والحق فى الاقامة الدائمة فى القسطنطينية . ومع مر الزمن تحولت التبعية حيل بيزنطية بالنسبة للبندقية الى شكلية فارغة . ومع ذلك ، لم يكن وضع البندقية المميز فى الامبراطورية مأمونا كفاية . فان تصرف التجار واصحاب السفن والمرايين من البندقية بلا تلكف فى اراضى بيزنطية ، ولا سيما فى العاصمة ، كان غالبا ما يصطدم بمقاومة خازمة من جانب الاباطرة الذين كانوا يتخذون احيانا ضد «قطاع الطرق البحريين من الادرياتيک» (هكذا اسماى الكاتب البيزنطى يوستافى من سلانيك البندقيين) تدابير صارمة تضر بمصالح تجارة البندقية .

وفى هذه الاحوال كانت الاوساط الحاكمة فى بيزنطية تسترشد بمختلف الاعتبارات . وكان ثمة اعتبار يتسم باهمية لا يستهان بها هو ان تجار القسطنطينية كانوا يطالبون بالرد على تحكم البندقيين لان هؤلاء كانوا منافسين مباشرين وخطرين على اهل التجارة والحرف البيزنطيين الميسورين . ففى آذار (مارس) ١١٧١ ، مثلا ، اعتقل فجأة ، بامر من الامبراطور مانويل كومنينوس ، تجار البندقية وجميع مواطنيها الاخرين المقيمين آنذاك فى اراضى الامبراطورية ، كما تعرضت اموالهم للمصادرة ، بما فيها البضائع والنقود

والاموال غير المنقولة . وبعد ذلك ، توقفت تجارة البندقية مع بيزنطية زهاء ١٥ سنة . وفي اوائل الثمانينيات فقط عاد البندقيون الى مدن بيزنطية ، واستؤنفت علاقات الاعمال . وفي سنة ١١٨٥ تسنى للبندقية حتى ان تتوصل الى عقد اتفاق مع حكومة اندرونيكوس كومنينوس تعهدت بيزنطية بموجبه ان تعوض الخسائر التي تكبدها البندقيون . وقد اكد الاباطرة اللاحقون من سنة ١١٨٩ الى سنة ١١٩٩ الالتزامات بتغطية الخسائر ، ولكنهم كانوا يماطلون في دفع الديون . ولكن عندما بدأت الحملة الصليبية ، لم يكن مبلغ الدين يربو ، والحق يقال ، على ٦٠ كيلوغراما من الذهب ، ومع ذلك ، لم تكن بيزنطية قد سددت ديونها للبندقية . فهل كان بوسع ذلك الا يشير بعد ذاته الامتعاض في البندقية ؟

والحال كان للامتعاض مبررات اكثر جدية بكثير . فان الاباطرة البيزنطيين الذين كانوا يقاومون بين الفينة والفينة تعسف البندقيين ، لم يكونوا يكتفون باعمال الاضطهاد المباشر او بالغاء هذه الامتيازات او تلك . وغير مرة قاموا بمحاولات لدفع البندقية الى الصدام مباشرة مع منافستها بيزا وجنوه ، بفتح الاسواق البيزنطية امامهما .

ان تغلغل البيزيين والجنوبيين في اقتصاد بيزنطية قد اسفر بالنسبة لكبار التجار والتجار الصغار والحرفيين في بيزنطية عن عواقب ليست اشد وطأة من تصرف التجار والمرايين البندقيين بلا تكلف . وفي تربة استياء الروم العام ، وقع في سنة ١١٨٢ حدث دخل التاريخ تحت اسم «حمام القسطنطينية» . ففي ايار (مايو) ١١٨٢ فكر الاعيان وكبار التجار القسطنطينيين ان يتخلصوا بضربة واحدة من المزاحمين الغربيين ، ويصرفوا عن انفسهم استياء اوسع الفئات الدنيا من اهالي القسطنطينية الذي كان قد نضج آنذاك ويوجهوه ضد اللاتين . ولهذا الغرض اثيرت في العاصمة مذبة ضد الغرباء . ان العامة التي انتفضت آنذاك في العاصمة نهبت ودمرت دكاكين الجنوبيين والبيزيين وبيوتهم بكل قساوة وضراوة .

ومهما يكن من امر ، فان الحماية البيزنطية لمزاحمي البندقية ، وان تكن مؤقتة ، قد اقلقت واغضبت الاوساط الحاكمة في جمهورية القديس مرقس ، فحاولت ان تمسك بيدها كليا زمام المراقبة على السواحل الشرقية من البحر الابيض المتوسط وتؤمن بالتالي للبندقية وضعا احتكاريًا في التجارة الشرقية الجارية عبر مرافئ بيزنطية في البحر الابيض المتوسط والبحر الاسود ، الامر الذي كان يقتضي ازاحة بيزا وجنوه وسائر المنافسين الايطاليين من هناك ازاحة تامة . فاخذت تتكاثر المصادمات والمخاصمات مع بيزنطية ، وتصبح

اضرى فاضرى . وفى هذه الاحوال ، كان توجه الصليبيين الى البندقية بالنسبة لديبلوماسيتها اليقظة والعدوانية كنزا حقيقيا ناهيك بانه جاء من تلقاء ذاته الى يد البلوتوقراطية (حكم الاغنياء) البندقية .

فى الازمنة السابقة لم يبد البندقيون رغبة بالغة فى الاشتراك فى انتزاع المقدسات الفلسطينية ، رغم انه لم يكن بوسعهم ان يبقوا كليا بمعزل عن حملات الفرسان الغربيين الصليبية . ولكن بقدر ما كان يمر الزمن ، بقدر ما كان يتعين عليهم ان يتحلوا بمزيد من الحذر والاحتراص ، فان المنافسة مع بيزا وجنوه لم تكن تتفاقم فى بيزنطية ونحسب ، فان مدن سوريا ولبنان وفلسطين كانت ايضا ميدانا للحرب التجارية ، وفى بعض منها (مثلا ، عكا ، صور) كان البندقيون يتمتعون بامتيازات لا يستهان بها . ونحو اوائل القرن الثالث عشر اتضح لفرسان الكسب والابتزاز من البندقية ان منافسيهم سيتمكنون من تقويض مواقع البندقية الاقتصادية والسياسية تقويضا تاما فى البلدان الشرقية وبخاصة فى بيزنطية اذا ما ظلوا يتوغلون كما من قبل ، يمثل هذه الهمة والمثابرة فى الاسواق الشرقية . والآن بالذات ، كما بدا ، حلت انسب فرصة لكى ينخرط كبار تجار البندقية بانشط من ذى قبل فى الحركة الصليبية . وعن هذا السبيل فقط كان يمكنهم ان يعززوا وضعهم المتقلقل فى امبراطورية الروم ، وان يقوا ارباحهم وامتيازاتهم سواء من تطاولات الابطرة البيزنطيين ام من منافسة البيزيين والجنويين اذا ما سددوا ، ان امكن ، ضربة ماحقة الى هذه الامبراطورية بمساعدة الصليبيين .

كان سياسة البندقية يحكيون افكارا من هذا النوع تدريجيا ، وكانت هذه الافكار تنضج مع تطور الاحداث . الا انها لم تكتسب شكلا ناجزا الى هذا الحد او ذاك الا نحو سنة ١٢٠٤ . ولكنه ليس من المستبعد ان يرقى ميلاد هذه الخطط الى سنة ١٢٠١ ، وان يكون الدوج انريكو دندولو «الحكيم والجري جدا» آنذاك (يستفاد من معطيات مدون الاخبار الايطالى مارينو سانودو ان الدوج كان يبلغ من العمر ٨٥ سنة فى سنة انتخابه ، سنة ١١٩٢) ، البالغ الحنكة والذى لا يعرف الكلل ، قد فكر فى ان يجعل من القسطنطينية على وجه الضبط سندانا للمطرقة الصليبية . وبديهي ان هذا مجرد فرضية . ومن حق المؤرخ بالقدر نفسه ان ينسب الى البندقيين ، بنصيب متفاوت من صحة الاحتمال ، نية امتلاك مصر ، ومشارف البحر الاحمر وسواحله . الا ان هناك امرا اكيدا هو ان فكرة استغلال اخلاق الصليبيين العدوانية والاعتصابية فى صالح البندقية قد راودت حكامها ، على الأرجح ، فى سنة ١٢٠١ .

وهكذا كان اهم سبب اشتراط انعطاف احداث الحملة الصليبية الرابعة لاحقا يكمن فى الوجة التوسعية لسياسة جمهورية البندقية فى البحر الابيض المتوسط ، هذه السياسة التى كانت تستحثها التناقضات الاقتصادية الشديدة مع سائر المدن التجارية فى ايطاليا الشمالية . وهذه التناقضات اوجدها وحددها بصورة رئيسية تصادم المصالح التجارية فى القسم الشرقى من البحر الابيض المتوسط . وقد كان دوج البندقية ، حسب تعبير ريدفورد ، المتآمر الاول ، فى تلك المؤامرة التى شرعت تحيكها القوى السياسية فى اوروبا الغربية منذ بادىء بدء حول الحملة الصليبية .

معاهدة النقل . مقاصد البلوتوقراطية البندقية

بموجب الاحداث اللاحقة ، كانت خطة زعماء الصليبيين الاولى تتلخص فى دفع قوات الصليبيين الى مصر ، وسحق قلعة العالم الاسلامى الرئيسية ، ثم شن الحرب من هناك فى سبيل القدس . وعلى كل حال ، حين تجمع الصليبيون فى البندقية بعد سنة ، «اتفق» رؤساؤهم «بالاجماع على التحرك رأسا صوب الاسكندرية ، ومحاصرتها بجراة ، وتجربة حظهم فى الحرب اقل من تجربة قوة البأس الربانى» . هكذا ينقل الراهب من جمعية السيسترسيين غونتر من دير بيريس فى الازاس مقاصد الاسياد الاستراتيجية ، وقد عرف هذه المقاصد من على لسان المشترك فى الحملة رئيس الدير المذكور ، مارتين .

ولكن الحرب ضد مصر لم تكن تطيب البتة للبندقية . فقد كانت لها علاقات تجارية منظمة جيدا مع مصر . ان تجار البندقية محبى النقود ، الذين كانوا يكسبون الارباح الطائلة من نقل الحجاج الى سوريا ولبنان وفلسطين ومن نقل الامدادات والحبوب من الغرب الى الافرنج فى الشرق ، كانوا فى الوقت نفسه يبيعون الاسلحة من السلطان المصرى بكسب ونفع . وكانوا كل سنة يكسبون الملايين من بيع مصر ، عدا ذلك ، الخشب والحديد ، ومن شراء العبيد فى مصر . صحيح ان السلطان المصرى كان يجبى مختلف الرسوم والضرائب عن البضائع التى يستوردها ويصدرها البندقيون ، ولكن التجار البندقيين كانوا بالمقابل يستطيعون ان يتاجروا فى عموم مصر وبدون اى قيد او عائق . ولكى تنمو التجارة وتتطور ، تعهد السلطان - كما جاء فى صك امان منحه السلطان - بعدم اخذ اى شىء نافل منهم . وفى الاسكندرية كان

للبندقيين حوش (خان) تجارى حيث كان بوسعهم ان يعيشوا ، كما جاء فى صك الامان المذكور ، بحرية وتقوى ، وان يكونوا حتى بحماية جنودهم بالذات .

وهكذا لم يكن التجار من البندقية ضد ابتزاز ارباح كبيرة من المسيحيين والمسلمين على السواء اذ كانوا يهتمون بالنقود فقط . اما من وجهة نظر الباباوية ودول الصليبيين ، فان هذه كانت تجارة مع العدو . وفى الشرق الافرنجي كانوا يقولون ان الارباح التجارية بالنسبة للبندقية اهم بما لا قياس له من انتصار قضية الصليب (وليس من قبيل الصدفة نشأ عند احد مدونى الاخبار السوريين ، هو ارنول ، تفسير بصدد الحملة الصليبية انتشر فيما بعد واسع الانتشار ، ومفاده ان انحراف الحملة عن هدفها الاولى حدث لان السلطان المصرى اشترى من البندقية واجب توجيه الصليبيين فى اتجاه آخر ا) .

وقد اضطر البابا اينوشنتيوس الثالث الى التنديد بالبندقيين تنديدا حادا بسبب لامبديتهم ، وقد سبق له ان منعهم فى سنة ١١٩٨ من بيع الاسلحة من المسلمين . وقد اعلن بشكل عام دون ان يسمى البندقية صراحة باسمها بل بالتلميح اليها بجلاء : «اننا نحرم من الكنيسة ونلعن اولئك المسيحيين الدجالين وعديمى التقوى الذين يحملون الى المسلمين ضد المسيح ، نفسه وضد الشعب المسيحى السلاح والحديد وخشب السفن ، وكذلك السفن ، او يخدمون ربابنة على سفن المسلمين القرصانية ، ويديرون آلاتهم الحربية ، او يقدمون لهم نصيحة ما او مساعدة ما لما فيه ضرر الارض المقدسة» . وامر البابا اينوشنتيوس الثالث بان يذكر الكهنة بهذا الحرم فى جميع المدن الساحلية البحرية فى ايام الاحاد والاعياد وبان يضيفوا قائلين ان الكنيسة لن تفتح ذراعيها للمسيحيين عديمى التقوى «اذا لم يمتنعوا فى صالح الارض المقدسة عن الطمع غير المشروع بالمال» . ان البابا قد وجه هذه التهديدات ، بالطبع ، الى البندقية . ولكن البندقية تجاهلت موانع البابا كما تجاهلت قرارات المجامع الكنسية التى ابرق ورعد فيها الاساقفة ورؤساء الاديرة ضد اولئك الكاثوليكين الذين لا يأنفون ، فى سبيل الربح ، من تقديم السلاح لاعداء الدين المسيحى .

وهكذا لم يكن ثمة بالنسبة للبندقية اى معنى من تقديم الدعم للصليبيين فى حربهم المفترضة العتيدة ضد مصر ، فقد كان العرب شريكا تجاريا موثوقا ، فى حين ان الاعتبارات الدينية كانت بخسة الثمن بنظر التجار واصحاب السفن من البندقية . ولهذا حرصت جمهورية القديس مرقس حين

تعهدت بنقل الصليبيين . على ان تبقى لساستها حرية التصرف عند تحديد اتجاه الحملة .

بموجب المعاهدة ، تعهدت البندقية بان تقدم السفن لنقل ٤,٥ آلاف فارس و ٤,٥ آلاف حصان ، و ٩ آلاف سلاحدار و ٢٠ الفا من المشاة ، وتؤمن لهم الغذاء طوال تسعة اشهر . فضلا عن ذلك ، تعهدت البندقية ، «حبا بالله» ، ان تجهز بنفسها (اي على حسابها) ٥٠ مركبا مسلحا آخر . اما الصليبيون ، فقد تعهدوا ، من جهتهم ، ان يدفعوا لجمهورية القديس مرقس ، عن خدماتها ، ٨٥ الف مارك فضة («عن كل حصان اربعة ماركات ، وعن كل انسان ماركين») . وكان ينبغي دفع المبلغ بالتقسيط ، على اربعة اقساط على ان يدفع القسط الاخير في موعد لا يعدو نيسان (ابريل) ١٢٠٢ . كذلك احتفظت البندقية لنفسها بنصف كل ما يستولى عليه الصليبيون بمساعدة اسطولها وقواتها المسلحة في البر او في البحر . جاء في البند المعنى من المعاهدة : «النصف نحصل عليه نحن والنصف الاخر انتم» .

كانت هذه الشروط مفيدة جدا للبندقية من وجهة النظر التجارية البحتة . ولم يكن من الممكن ان يكون الحال آخر : فان تجار البندقية لم يتصرفوا يوما كيفما اتفق : وكل شيء كان محسوبا سلفا . التمويل السنوى لقوات من ٣٣٥٠٠ رجل و ٤٥٠٠ حصان - يكلف زهاء ٧٠ الف مارك . هذه الحسابات حسبها ، اغلب الظن ، «قطاع الطرق البحريون من الادرياتيكا» - مع النفقات على بناء الاسطول ، ونفقات الاستهلاك . وعادة كان التجار واصحاب السفن يكسبون من كل صفقة تجارية ما لا يقل عن ٢٠ بالمئة ، وكانت تلك ممارسة تجارية ثابتة عند البندقيين آنذاك . وكان مبلغ ٨٥ الف مارك يناسب معدلات الربح التجارى المألوفة بالنسبة لتجار البندقية .

فهل يفى الصليبيون بتعهداتهم ؟ من الممكن تماما ان يكون الدوج انريكو دندولو لم ينطلق الا من مقدار المبلغ الذى عينه ، فأخذ سلفا بالحسبان ان الصليبيين لا يستطيعون ان يدفعوا المبلغ المطلوب ، رغم انه من المشكوك فيه ، من جهة اخرى ، ان كان هذا المسن الذى كانت له خبرة جيدة فى العمليات التجارية الكبيرة النطاق ، يميل الى بناء الاوهام الباطلة . فان حكمة رجل الدولة البارزة كانت تجتمع عنده بنحو رائع مع بعد نظر التاجر المحنك فى الاعمال . ان المصيدة التى نصبها للصليبيين حاكم البندقية «الحكيم والمجيد جدا» كانت تتلخص قبل كل شيء فى امر آخر ، ومعاهدة النقل لم تكن صفقة تجارية عادية ، كما يظن بعض العلماء ، بل كانت تنطوى على

كل غدر الديبلوماسية البندقية التي تخدم نهج الجمهورية السياسى التوسعى فى البحر الابيض المتوسط .

فلا النقود بحد ذاتها ، ولا نصف الغنيمة المقبلة ، كانت العنصر الاساسى ، الاول ، فى مقاصد دندولو . فبموجب المعاهدة ، كان على الصليبيين ان يدفعوا مبلغ ٨٥ الف مارك ، وفى هذا المجال يبدو كأن كل شىء واضح ولكن نص المعاهدة لم يكن ينبس ببنت شفة لا بصدد هدف الحملة الصليبية المباشرة ، ولا - وهذا هو الاهم - بصدد كيفية العمل والتصرف فيما اذا لم يصل الى البندقية فى الموعد المعين - نحو نيسان (ابريل) ١٢٠٢ - عدد من الجنود يتطابق مع العدد المعين . فهل تتعدل التزامات الصليبيين اذا وصل اقل من ٤٥٠٠ فارس ، واقل من ٩٠٠٠ من السلاحدار واقل من ٢٠ الفا من المقاتلين المشاة ؟ لم ترد اية كلمة عن هذا فى المعاهدة . وفيها كان يغيب ، قصدا وعمدا ، الشرط الذى من شأنه ان يضبط بنحو ما مقدار المدفوعات عن النقل تبعا لعدد الصليبيين الفعلى . ومن هنا كان ينجم انه يجب عليهم ، مهما بلغ عدد الواصلين منهم الى البندقية فى الموعد المعين ، ان يدفعوا ٨٥ الف مارك عدا وتماما . وهنا بالذات كان يكمن مقلب ، وفى هذا البند بالذات خدع الدوج الرسل الفرنسيين ، الذين وقعوا المعاهدة ، ونصب الشباك لاصطياد جنود المسيح .

ان الديبلوماسية والتاجر البندقى الوقح قد حزر ما لم يمعن فيه الفكر ، والحق يقال ، فيلاردوان ورفاقه ، فان الدوج قد اخذ بالحسبان انه من المشكوك فيه ان يجتمع فى البندقية جميع الصليبيين اذ ان الحماسة الدينية السابقة قد خفت نارها كثيرا ، وانه كان من الصعب جمع زهاء ٣٥ الف رجل تحت راية المسيح . ولكن اذا لم يجتمع ٣٣,٥ الف رجل ، بل اجتمع عدد اقل ، فان الحاضرين سيواجهون حتما مصاعب نقدية جدية فى حال تصفية الحسابات مع البندقية . واذا ذاك ، سيتوقف مصير الصليبيين اللاحق على حكومة البندقية ، عليه ، هو الدوج دندولو ، اذ سيكون بمقدوره ان يملى ارادة البندقية ، واذا ان الصليبيين سيجدون انفسهم كليا ، بوصفهم مديونين عاجزين ، غير مقتدرين ، فى ايدى البندقيين ، وسيضطرون بالتالى الى فعل ما يطلبه منهم الدوج . وعلى الدوج سيتوقف الاتجاه الذى ستتحوّل نحوه قوات الفرسان بحيث يعود ذلك باقصى النفع على البندقية .

من المشكوك فيه ان يكون الرسل الفرنسيون قد خاطرهم الشك فى هذه المقاصد الماكرة والغدارة التى حاكها الشيخ المسن الشائب والاجعد الوجه الذى تعاملوا معه والذى اقسام اليمين ، واضعا يده على الانجيل ، انه

سيستفيد بالمعاهدة حرفا وروحا. دون اى انحراف . ان الرسل لم يأخذوا بالحسبان تلك الملابس والمضاعفات التى سيصطدم الصليبيون بها فيما بعد ، ولم يأخذوا بعين الاعتبار ان حماسة مواطنيهم وحميتهم قد تبردان . بل بالعكس . فان الرسل قد فرحوا ، عند توقيع المعاهدة ، لكونهم ادوا بمثل هذا النجاح المهمة التى عهد بها اليهم .

البابا اينوشنتيوس الثالث وحده استشف نوايا البندقيين الخفية ، فانه ، كما قال كارل ماركس (هكذا وردت هذه الفكرة فى مؤلفه «تسجيلات متسلسلة») «راى خطة دندولو من طرف الى آخر» . ان البابا قد ادرك ان الدوج اراد ان يستغل الصليبيين فى مصلحة البندقية لاجل الفتوحات . ومع ذلك ، صادق البابا فى ٨ ايار (مايو) ١٢٠١ على معاهدة الصليبيين مع البندقية . «لقد فعل ذلك بكل طيبة خاطر» كما كتب فيلاردوان . هنا يخطئ هذا المؤرخ الفرنسى بعض الشيء ، او لربما يصور قصدا وعمدا موقف رئيس الكنيسة الكاثوليكية بهذه الصورة . يقينا انه لم يكن بوسع البابا ان يرفض المعاهدة ، اذ انه بدون اسطول البندقية كان يستحيل على الصليبيين ان يمضوا فيما وراء البحر ، فضلا عن ذلك ، ارسل البابا اينوشنتيوس الثالث ، اثر المصادقة على المعاهدة (وهذا الواقع تؤكد صحته شهادة مرجع صادق كما هو عليه كتاب الاخبار «اجتياح القسطنطينية») ، رسالة الى رجال الدين فى البندقية اعرب فيها عن ارتياحه لكون «اولاده المحبوبين ، الدوج انريكو وشعب البندقية قرروا ان يقدموا للارض المقدسة مثل هذه المساعدة الجبارة» . بل ان البابا المناق والمراى مضى الى حد التظاهر بان كل شىء يسير حسب نواياه ، وبان كل شىء يتحقق تنفيذا لارادته ، فقد خاطب ، مثلا ، رجال الكنيسة فى انجلترا وفرنسا طالبا منهم ان يراقبوا بدقة وعناية امر ارسال الفرسان فى الحملة فى الوقت المناسب ، لاجل التقيد بالموعد «الذى عينه ابناؤنا المحبوبون كوثتات الفلاندر وشامبانيا وبلوا» .

ومع ذلك ، تقدم البابا عندما صادق على المعاهدة ، بشرط مسبق كثير الدلالة ، مفاده ان الصليبيين الداهيين على متن سفن البندقية لمحاربة «الكفار» «لن يرفعوا السلاح ضد المسيحيين» . فقد استشف اينوشنتيوس الثالث بجلاء فى البنود المكتوبة بدهاء ومكر من المعاهدة شيئا ما لا يرام ، ذلك انه كان يعرف جيدا ان البندقيين ينقلون لقاء النقود اى انسان كان والى اى مكان كان . ومن المحتمل تماما ان ضمير البابا لم يكن نقيا عند

مصادقته على المعاهدة وان «الفار لعب في عبه» ، ولذا من المشكوك فيه ان يتطابق قول فيلاردوان «بكل طيبة خاطر» مع الواقع .

ان الهجوم على المسيحيين الذي كان البابا اينوشنتيوس الثالث يفهم جيدا جدا احتماله ، كان من شأنه ان يسيء الى فكرة الحملة الصليبية . واذا كان البابا قد بارك معاهدة النقل ، فانه لم يفعل ذلك الا بربط مباركته بالتحفظ المذكور اعلاه والجوهري جدا : الامتناع عن مهاجمة المسيحيين . ان اينوشنتيوس الثالث قد صادق بالفعل على القيام بمشروع الفتح ، الذي كان لا بد له صالح البندقية الاقتصادية والسياسية ، في المقام الاول ان تحدد موضوعه . ولقد كانت بيزنطية هذا الموضوع الاكثر احتمالا ، ناهيك بان اينوشنتيوس الثالث نفسه كان يسعى هو ايضا الى اخضاعها . ان خط الباباوية الديپلوماسي في الحملة الصليبية ومشروع البندقيين الاغتصابي قد تقاربا فيما بينهما وان لم يكن قد تطابقا كليا .

ومهما يكن من امر ، فان ربيع سنة ١٢٠١ قد اعد التربة لاجل تحويل الحملة الصليبية ضد مصر الى حملة لصوصية ضد بيزنطية .

الامبراطورية الالمانية وفرنسا ضد بيزنطية . بونيغاسينوس دي مونفيرات

في الوقت ذاته تقريبا ، فعلت فعلها فئة اخرى من الاسباب التي عرفت الصليبيين فيما بعد عن الهدف الاولى واشترطت اتجاه الحملة الجديد ، هي التناقضات السياسية بين الامبراطوريتين الالمانية والبيزنطية . اما اساس هذه التناقضات التي تطورت في القرن الثاني عشر ، فهو بصورة رئيسية تطلعات الاغتصاب والفتح الى البحر الابيض المتوسط من جانب تلك العناصر الاقطاعية في المانيا (وعلى الاغلب في اراضيها الجنوبية) التي تلاحت حول سلالة هوهشتاوفن .

فان سياسة هنريخ السادس المعادية لبيزنطية قد واصلها اخوه الاصغر وخلفه فيليب من شوابيا (١١٩٨-١٢٠٨) . وتطبيق هذه السياسة كان يلائمه تقلقل الحياة السياسية في بيزنطية ، الذي كان يعكس ضعفها الداخلي في عهد ينتهي فيه في الامبراطورية نشوء الاوضاع الاقطاعية . ففي سنة ١١٩٥ ، حدث انقلاب قسري جديد في القسطنطينية (وقد سبق ان اشرنا اليه) ، وبنتيجته حرم الامبراطور اسحق الثاني انجيلوس من السلطة (وكذلك من البصر) ، واعتلى اخوه الكسيوس الثالث العرش (١١٩٥-١٢٠٣) .

ثم ان فيليب من شوابيا كان قد تزوج ، بفضل جهود هنريخ السادس ، من ايرينا ابنة اسحق الثانى . واذا الملك الالماني الذى كان يفكر فى طريقة للمضى بالقضية التى قطعت وفاة هنريخ السادس المفاجئة حبلها - قضية امتلاك القسطنطينية - الى نهاية ناجحة يتصل بجميه المعتقل اسحق الثانى . والواقع ان الامبراطور السابق الذى اصيب بالعمى ، كما يشهد نيقيتاس الخونياى الذى كان يعرف جيدا شؤون البلاط ، لم يكن فى عزلة خارقة الصرامة : «كان بوسع كل راغب ان يتقابل مع اسحق» . ويروى المؤرخ عن لقاءات اسحق انجيلوس السرية مع اللاتين ، حيث كان البحث يتناول «كيفية الانتقام من الكسيوس لاهانتته والاطاحة به» . وبدون صعوبات كبيرة كان الامبراطور السابق يرسل (الى المانيا) الرسائل الى ابنته ايرينا وكان يتلقى بدوره من هناك اجوبة مع توصيات بكيفية تصرفه .

وهكذا اصبح بلاط آل شتاوفن فى السنوات الاخيرة من القرن الثانى عشر مركز مؤامرات سياسية غايتها الرسمية ، الشكلية ، اعادة اسحق الثانى انجيلوس الى عرش القسطنطينية . اما فى الواقع فان الخليفة الاصغر لفريدريك بربروسا ووريث هنريخ السادس كان يسعى بكل جلاء الى الاستيلاء على السلطة فى بيزنطية .

وهذه النوايا كانت بعد ذاتها تقترن بالمجازفة ، ذلك ان الظروف كانت تجبر دائما فيليب من شوابيا على الدود عن حقوقه فى التاج فى غمرة الصراع ضد آل فلف فى المانيا بالذات ، ومع ذلك انخرط الملك الجدير باسلافه فى مغامرة جديدة . فقد جاءت الاستعدادات التى بدأت فى الغرب للحملة الصليبية ، من وجهة نظر فيليب من شوابيا ، فى الوقت المناسب تماما ، ذلك انه كان يريد استغلال الصليبيين فى خدمة مصالحه .

ولهذا الغرض كان ينبغى الحصول على سند مباشر بين فرسان الصليب . وجاءت الظروف تساعد فيليب من شوابيا . ففي ٢٤ ايار (مايو) ١٢٠١ ، حين بلغت الاستعدادات للحملة الاوج ، توفي فجأة تيبو الثالث الشاب ، كونت دى شامبانيا ، المعترف به عموما زعيما للصليبيين الفرنسيين . وفور وفاته ، بدأوا يتكلمون فى الاوساط القيادية للقوات الصليبية عن ضرورة انتخاب قائد آخر عوضا عن القائد الراحل .

واذا المانيا الواقعة تحت حكم شتاوفن والتى وقفت حتى ذاك فى معزل عن شؤون الحملة الصليبية تشترك فيها منذ ذاك بانشط نحو . فان المراكز بونيفاسيوس دى مونفيرات السيد الغنى والانيس من ايطاليا الشمالية ، المشهور بحمايته للتروبادورين ، قد استرعى انتباه فيليب من شوابيا .

وكانت عائلة المريكز على صلة قربة وعلى صداقة قديمة مع آل شنتاوفن .
وكان بونيفاسيوس دى مونفيرات ذاته (وكان يناهز الخمسين من العمر)
قائدا عسكريا وديپلوماسيا بارعا . ولا ريب فى ان الملك الالماني اخذ
بالحسبان هذا الظرف ، اذ انه بنى حسابات سياسية بعيدة المدى على
الحملة الصليبية .

ولكن السبب الرئيسى الذى حمل فيليب من شوابيا على اختيار المريكز
دى مونفيرات بالذات قد تلخص فيما يلى : بحكم التقاليد القديمة لبيت
الماركغرافات مونفيرات ، كانت مصالح بونيفاسيوس قريبة من تطلعات
اولئك الاقطاعيين الغربيين الذين كانوا حتى فى القرن الثانى عشر منساقين
الى سياسة الصليبيين الاغتصابية فى الشرق والذين استقروا فى الدول التى
اسسوها . وكان غيوم الطويل السيف (غليوم الطويل) ، اخو بونيفاسيوس
الاكبر ، متزوجا من سيبيل ، اخت ملك القدس بودوان الرابع ، وكان يعتبر
كونت يافا وعسقلان بناء على ممتلكات زوجته ، التى كانت دوطتها . واخو
بونيفاسيوس الآخر ، كونراد دى مونفيرات ، اشترك فى الحملة الصليبية
الثالثة ، وقد سبق ان اشتهر فى سنة ١١٨٧ كمدافع صلب عن صور ضد
صلاح الدين ، وفيما بعد ، فى سنة ١١٩٢ لم يكن بعيدا عن نيل تاج مملكة
القدس . وكان اخوة بونيفاسيوس يشقون لانفسهم طريقا ، بكل همة وحزم ،
وليس بدون نجاح ، الى المناصب العليا وامتلاك الاراضى فى المملكة
البيزنطية ايضا . وذات مرة شغل كونراد دى مونفيرات مركزا بارزا فى بلاط
اسحق الثانى انجيلوس الذى كان متزوجا من اخته فيودورا والذى ساعده
كونراد فى سنة ١١٨٦ على قمع الفتنة التى نشبت ضد الامبراطور . وفضلا
عن ذلك ، كسب اخ آخر من اخوة بونيفاسيوس هو رينه الذى تزوج فى
سنة ١١٨٠ من ماريا ، ابنة الامبراطور البيزنطى مانويل كومنينوس ، لقب
«قيصر» ، كما نال ، كدولة لزوجته ، حسب الاشاعات ، المدينة التجارية
الثانية بعد القسطنطينية فى الامبراطورية البيزنطية - سالونيكى (سلانيك) .
علاوة على ذلك كان بونيفاسيوس نفسه قد ابدى من زمان بعيد استعدادا
للاقتداء بمثال اقربائه رغم انه لم يشترك قبل ذاك فى الحملات الصليبية .
وكان هذا المريكز يضمر النوايا العدوانية حيال سلانيك ذاتها (فقد كان
يعتبر نفسه وريثا شرعيا لكننته) وغيرها من الاراضى فى البلقان !

وهكذا كان لهذا الطاغوت الاقطاعى (وللاسياد اللومبارديين الآخرين
السائرين وراءه ، وهم ادنى مرتبة ، وذوو مطامع اكثر تواضعا) مصلحة
مباشرة فى تنفيذ المقاصد المعادية لبيزنطية والمحاكاة فى بلاط آل

هوهنشتاوفن ، فان الاستيلاء على بيزنطية كان يبشره هو ايضا بغنيمة كبيرة . اولم يكن يصح لفيليب من شوابيا ان يجهد لانتخابه زعيما لفصائل الصليبيين ؟ ففي حال انتخابه ، يغدو بمقدوره ان يسهم بقسط كبير في تطبيق خطط آل هوهنشتاوفن الاغتصابية التوسعية .

ولكن ما العمل لكى يوضع بونيفاسيوس دى مونفيرات فى رئاسة الصليبيين الفرنسيين ؟ لبلوغ هذا الهدف ، راجع فيليب من شوابيا فيليب الآخر ، ملك فرنسا ، الذى كان آنذاك فى علاقات تحالف معه . وهذا التحالف سبق ان اقيم فى سنة ١١٩٨ ، وفى ذلك الوقت كان فيليب الثانى ملك فرنسا ، يقاتل ريشار قلب الاسد فى فرنسا ، بينما كان ابن اخت ريشار ، اوتون من براونشفيغ ، الذى انتخبه قسم من الاقطاعيين الالمان ملكا لالمانيا ، يذود عن حقوقه فى التاج فى صراع ضار ضد فيليب من شوابيا . واتحد فيليب الفرنسى وفيليب الالمانى ضد اعدائهما . وفى سنة ١٢٠٣ كان التحالف لا يزال سارى المفعول ، ويستفاد من المعطيات الواردة عند بعض مدونى الاخبار من اوائل القرن الثالث عشر (المائعة نوعا ما ، والحق يقال) ، ان فيليب الثانى اوغست قد تجاوز مع طلب سميته الالمانى .

وعندما تناول البحث فى مجلس البارونات الصليبيين فى سواسون قضية المرشحين لمنصب قائد قوات الفرسان (هذا المنصب عرضوه اولا على الدوق اودو الثالث من بورغونيا ثم على الكونت تيوبالد من بار - وقد رفضا كلاهما العرض) ، تدخل الملك الفرنسى بنشاط فى الانتخابات . ويفيد مؤلف «افعال اينوشنتيوس الثالث» ان فيليب الثانى نصح رؤساء الجحفل بانتخاب بونيفاسيوس دى مونفيرات قائدا اعلى للصليبيين . وعن الشئ نفسه ، وان باسلوب آخر ، يكتب مدون الاخبار الايطالى سوزومن من بيسيتوا ، ومؤلف «اخبار موريه» اليونانية .

ويروى جوفروا فيلاردوان فى مفكراته انه قد اشترك فى مداولات سواسون واقترح فيها اسم الامير الايطالى الشمالى . وفى هذه الحالة ، لم يعرب مارشال شامبانيا الا عن ارادة ملك فرنسا . وقد قبل اقتراحه رغم انه من المشكوك فيه ان يكون ترشيح الايطالى الماركغراف دى مونفيرات ، الذى ظهر بصورة مفاجئة جدا قبل طاب للاسياد الفرنسيين . لقد كانوا على علم ، والحق يقال ، بان عائلته تهتم من قديم الزمان بالشرق ، والمعلومات المناسبة فى هذا الصدد كان من الممكن ان يحملها الى فرنسا اولئك الرسل الذين سافروا الى البندقية لعقد المعاهدة بشأن نقل الصليبيين (وقد عاد

سنة منهم الى فرنسا عبر جنوه التي كانت سلطاتها مرتبطة ببيت الماركرافات
دى مونفيرات) . ولكن البارونات لم ينسوا امرا آخر ، هو انهم كانوا
باغلبيتهم منذ امد قريب اخصاما سياسيين للملك فيليب الثانى اوغست ،
وان بونيفاسيوس كان قريبه وصنيعة . وعدا ذلك ، كان بودوان ، كونت
الفلاندر وغيره من الامراء الذين كانوا للتو يعارضون فيليب الثانى فى
فرنسا بوصفهم حلفاء ريشار قلب الاسد ، يؤيدون فى المانيا آل فلسف
الذين كانوا ايعارضون توطيد سلطة آل هوهنشتاوفن والذين كانوا متحالفين
مع انجلترا . ثم ان ترشيح بونيفاسيوس دى مونفيرات ، المشهور بميله
الى آل هوهنشتاوفن ، لم يكن بوسعه بهذا المعنى ايضا ان يطيب لانصار
الحزب الانجليزى - الفلقى .

ومع ذلك ، فعلت فعلها نصيحة فيليب الثانى ، والاصح القول ، ضغطه ،
فى اتباعه فى سواسون . فبعد مهاترات طويلة («قيل كلام كثير مع وضد»-
هكذا يفيد فيلاردوان بايجاز) انتخبوا بونيفاسيوس دى مونفيرات قائدا
عسكريا للقوات الصليبية . وفى ايلول (سبتمبر) ١٢٠١ وصل بونيفاسيوس
الى فرنسا لترؤس الصليبيين . وهكذا صار احد انصار آل هوهنشتاوفن ،
والامير الغنى ، المستعد بالتاكيد لمشاطرة مقاصد فيليب من شوايبي-
المعادية لبيزنطية وللإسهام فى تحقيقها ، القائد الاعلى للفرسان الفرنسيين ؛
ففى هذه الحال كان بوسعه ان يأمل فى كسب معين ؛

وهكذا ، فى سنة ١٢٠١ ، تغلغلت مصالح سياسية جديدة فى قضية
قيادة الحملة الصليبية ، فقد كان ينبغى ان يصبح بونيفاسيوس قبل كل
شئ منفذا لخطط آل هوهنشتاوفن الرامية الى اخضاع بيزنطية . وفى الوقت
ذاته ، كان بونيفاسيوس مرتبطا بمصالح القرابة والسياسة بفرنسا
الكابيتيين . وهناك مبررات للافتراض ان فيليب الثانى اوغست نفسه لم
يكن غريبا عن الادعاءات بالعرش البيزنطى . فقد سبق لوالده لويس
السابع ان حاك مشاريع ما فى هذا المجال ، وحاول ان يؤمن للكابيتيين
حقوقا فى تاج القسطنطينية ، اذ ان اخت فيليب الثانى تزوجت فى سنة
١١٨٠ من الكسيوس الثانى ، ابن الامبراطور مانويل كومنينوس . ولربما
كان فيليب الثانى ينوى سرا ان يبعث مشاريع والده .

يروى مدون الاخبار الانجليزى روجر من هوفدن واقعة طريفة تلقى
النور بقدر ما على هذا الجانب القليل الشهرة من السياسة الفرنسية فى
اواخر القرن الثانى عشر واول القرن الثالث عشر . ذات مرة ، بعد مصرع
ريشار قلب الاسد ، جاء الى باريس لمواجهة فيليب الثانى اوغست قائد

القراصنة النورمانيين الصيقلين المذكور سابقا «الاميرال» مرغريتون ، كونت مالطة (ويسميه نيقيتاس الخونياتي «بالة البحر») ، المغامر الذي حاول في حينه حتى ان يفرض نفسه على صلاح الدين كحليف له ضد اخصامه من الاعيان الاقطاعيين المسلمين . وقد عرض مرغريتون على الملك الفرنسي ان يجعله «امبراطور القسطنطينية» . وقد وافق فيليب الثاني ، كما يفيد مدون الاخبار ، على ان يستفيد من خدمات القرصان الصيقل ، ووعد بتزويد رجاله بالموثون والسلاح والخيول - خلاصة القول - بكل ما يلزم لاجل شن حملة على القسطنطينية . وكان من المفترض ان تنطلق الحملة من برينديزي . الا ان وفاة مرغريتون فجأة حال ، كما يزعم ، دون تحقيق هذا المقصد .

ولئن كانت قصة مدون الاخبار ضعيفة الصحة (والارجح انه هكذا بالذات) حدث ، اذ ان مرغريتون مات في سنة ١١٩٥) ، فانها على كل حال تشكل برهانا غير مباشر على كيفية تقييم المعاصرين لموقف المملكة الفرنسية من بيزنطية . ان الواقعة التي رواها روجر من هوفدن تؤكد بقدر معين صحة الفرضية القائلة ان فيليب الثاني كان يعتزم هو ايضا ان يمد يده الى بيزنطية المستضعفة . ولذا كان اسهامه في انتخاب بونيفاسيوس دي مونفيرات حيلة سياسية ترمي بنحو او آخر الى الحصول على نفع مباشر لاجل السلطة الملكية في فرنسا .

وعلى كل حال ، تشكلت نحو خريف ١٢٠١ ، في سلسلة الاحداث التي ادت الى «انحراف الصليبيين عن السبيل» ، حلقة مهمة اخرى ؛ ففي اعداد الحملة المرسومة سرا ضد بيزنطية ، انخرطت فرنسا الكابيتيين ، والمانيا آل هوهنشتاوفن . ولكن جميع الخيوط السياسية الممتدة باتجاه القسطنطينية ظلت معزولة بعضها عن بعض . الا ان سنتي ١٢٠١ و ١٢٠٢ حملتا شيئا ما جديدا في هذا المجال .

الديبلوماسية السرية للكورية الرومانية

راح الماركغراف بونيفاسيوس دي مونفيرات الى المانيا بعد ان امضى بعض الوقت في فرنسا ، وتفاوض مع فيليب الثاني وحصل منه على رسالة توصية سرية الى البابا اينوشنتيوس الثالث ، وحضر الكابيتول (الاجتماع العام) لجمعية السيستريسيين الرهبانية في سيتو ، واستمع الى مواعظ فولك من نويي . وفي اواخر كانون الاول (يسمبر) ١٢٠١ ، تقابل في هاغيناو مع

فيليب من شوابيا واتفق معه ايضا على الاعمال اللاحقة . وفى اوائل آذار (مارس) من السنة التالية ، سنة ١٢٠٢ ، وصل بونيفاسيوس دى مونفيرات الى روما . وهنا مثل مصالح فيليب الفرنسى وفيليب الالمانى . ان معطيات المعاصرين المتناقضة والمراوغة تتيح الظن مع ذلك ان الماركغراف قد المح الى البابا اينوشنتيوس الثالث ، اثناء المفاوضات معه حول مجموعة كبيرة من القضايا الديبلوماسية ، الى المشروع المتوفر لاستخدام الصليبيين فى اغراض معادية لبيزنطية .

فى ذلك الحين ، لم يكن البابا قد حصل على اية تنازلات من الامبراطور البيزنطى الكسيوس الثالث فى شؤون الاتحاد بين الكنيستين البيزنطية (الارثوذكسية) واللاتينية ، ولذا ، كما يستفاد من جميع الدلائل ، دخل فى صفقة غير علنية مع قائد الصليبيين . الا ان مؤرخ سيرة حياة البابا ينكر هذا ، ولكن والحق يقال ، لم يكن من الممكن ان يتصرف تصرفا آخر . ان «افعال اينوشنتيوس الثالث» هى عبارة عن مديح تام للبابا . ثم ان مدون الاخبار يعرض المفاوضات بين بونيفاسيوس دى مونفيرات واينوشنتيوس الثالث باقصى الايجاز ، فمن الجلى انه لا يرغب فى الاساءة الى سمعة بطله وسيد . ولكن وثائق احدث عهدا بما فيها مراسلات اينوشنتيوس الثالث مع بونيفاسيوس دى مونفيرات تبين ان عروض الماركغراف قد لقيت فى بلاط البابا التفهم الواجب . ذلك ان البابا ذاته كان قد فكر فى بداية الحملة الصليبية باستخدام الصليبيين ضد الامبراطورية البيزنطية .

اثر الصفقة الاولى عقدت صفقة ثانية ، وهذه المرة مع الامير البيزنطى الكسيوس ابن اسحق الثانى انجيلوس واخى زوجة فيليب من شوابيا . وحين سنحت الفرصة ، فر الكسيوس من القسطنطينية . وقد ساعده فى الفرار مالك سفن من بيزا قدم لابن الامبراطور مأوى على متن سفينته واتاح له بالتالى ، كما قال المؤرخ نيقيتاس الخونياى ، «اخفاء آثاره فى الماء» . وسرعان ما تبين ان الامير الشاب ، كما يروى هذا المؤرخ البيزنطى ، قد فر ، «فارسل الفاسيلفس يفتش السفينة ، ولكن الرسل لم يستطيعوا ايجاد الكسيوس . فقد قص شعره بشكل حلقة ، وارتنى البسة لاتينية ، واختلط فى جمع اللاتين وتوارى على هذا النحو عن الذين كانوا يفتشون عنه» .

وها هم الباحثون فى تاريخ الحملة الصليبية الرابعة يتجادلون منذ نحو مائة سنة لمعرفة زمان فرار الامير الكسيوس بالضبط ، فبعضهم يعيده الى سنة ١٢٠١ ، وبعض آخر يسوق حججا ليست اقل ظرافة وفكاهة فى صالح موعد احدث - سنة ١٢٠٢ . وفى الآونة الاخيرة اخذ يتغلب بكل جلاء

انصار الحل الاول ، ذلك ان الكسيوس وصل ، اغلب الظن ، الى مرفأ انكون الايطالى فى ايلول - تشرين الاول (سبتمبر - اكتوبر) ١٢٠١ . ومن هنا ، كما يشهد فيلاردوان ، مضى الى ملك المانيا فيليب ، زوج اخته ، وفى ربيع سنة ١٢٠٢ ، ظهر الكسيوس فى روما ، فور زيارة بونيفاسيوس دى مونفيرات لروما .

اخذ الامير الكسيوس امام البابا وضعة الطالب الوديع والمستكين ، وفقا لتعليمات حاميه الالمانى ، فقد طلب من بابا روما مساعدته ضد عمه ، المعتصب الكسيوس الثالث ، اى مساعدته فى اعادة سلطة والده فى القسطنطينية . ومكافاة على هذه المساعدة ، - وكان ينبغى ، بالطبع ، ان يقدمها الصليبيون الذين سبق ان اتصل بهم الامير الشاب ، اغلب الظن ، فى طريقه الى المانيا ، اثناء توقفه فى لومبارديا - وعد الامير الكسيوس ، ابن اسحق الثانى انجيلوس ، البابا باخضاع الكنيسة البيزنطية للكنيسة الرومانية وبتأمين اشتراك بيزنطية فى الحملة الصليبية .

وهكذا توفرت للبابا اينوشنتيوس الثالث الامكانية التامة لستر نواياه الحقيقية حيال بيزنطية بحجة طيبة المظهر - حجة الدفاع عن «قضية عادلة» قوامها بحث سلطة الحكومة الشرعية فى القسطنطينية . وطبعاً ، لم يفوت البابا مثل هذه الفرصة السانحة ، فان شتى المصادر - مدونات الاخبار ، معطيات المراسلات الرسمية ، وحتى آثار الفن النحتى والمعمارى - تدل على انه تم التوصل فى روما الى اتفاق تام بين البابا اينوشنتيوس الثالث والامير الشاب الكسيوس * بصدد استخدام القوات الصليبية لاجل اعادة اسحق الثانى انجيلوس الى العرش البيزنطى .

وكما فى حالة بونيفاسيوس دى مونفيرات ، تنكر الوثائق التى صدرت عن ديوان البابا ، بالطبع ، وجود هذا الاتفاق . ان البابا اينوشنتيوس الثالث نفسه ينكر فكرة التواطؤ مع ابن الامبراطور اسحق الثانى انجيلوس فى رسالته الى الامبراطور البيزنطى الكسيوس الثالث بتاريخ ١٦ تشرين الثانى (نوفمبر) ١٢٠٢ ، ويحدثه عن نتائج زيارة الامير الشاب الى روما فى تعاير ارادها غامضة («اعطينا الامير جواباً وفقاً لما نراه ضرورياً») سعياً منه بكل جلاء الى استثارة شعور القلق فى نفس الامبراطور البيزنطى .

* مشهد اللقاء بين الشاب والبابا رسمه رسام فيفساء مجهول من رافن بين تلك الوقائع التاريخية من الحملة الصليبية الرابعة التى زخرت برسومها فى سنة ١٢١٣ ارضية كنيسة سان دجوفانى الانجيل . وهذا واقع واسع الدلالة بحد ذاته .

«ولربما ؟» . الا ان مدونة نوفغورود (الرجل الروسى الذى وصف احداث الحملة الصليبية كان شاهد عيان على الاحداث كما سنحت له فرصة التحدث مع المشتركين فى هذا المشروع فى اماكنهم) ، والمؤلفين البيزنطيين نيقيتاس الخونياتى وغيورغى اكروبوليت ، وعددا من مدونى الاخبار الغربيين (البريك دى تروافونتتين ، مارتين دا كاناله من البندقية الذى كتب ، والحق يقال ، بعد ذاك بزمان طويل ، فى ١٢٦٧-١٢٦٨) ، مهما اختلفت الوقائع الواردة فى مدوناتهم ، يتفقون ، بالعكس ، على ان البابا اينوشنتيوس الثالث تعهد بدعم قضية الامير الكسيوس ابن الامبراطور اسحق الثانى انجيلوس . وبعد فترة وجيزة ، فى نيسان (ابريل) وحزيران وتموز (يونيو ويوليو) ١٢٠٣ ، اكد فيليب من شوابيا بدوره فى رسالة الى البابا تعهد الامير الشاب بوضع الكنيسة الارثوذكسية تحت قيادة الكنيسة الكاثوليكية ، «اذا اعطانى الرب العلى الكلى القدرة» ، كما اعلن الطامح الى العرش الامبراطورى ، «او اعطى زوج اختى امبراطورية الروم» .

ومن هنا ينجم ان الخيوط الدبلوماسية التى تمتد من جوانب مختلفة بصورة مستقلة بعضها عن بعض وان يكن على مقربة بعضها من بعض اخذت فى اوائل سنة ١٢٠٢ تتشابك اكثر فاكثر فى كبة واحدة . ان البابا اينوشنتيوس الثالث قد حبذ ، من حيث الجوهر ، مقاصد البندقيين (وقد عارضها بالاقوال فقط) ، ومقابل الاتحاد الكنسى الذى وعد به ، بارك بونيفاسيوس دى مونفيرات والامير الشاب الكسيوس دفع القوات الصليبية الى القسطنطينية . ثم ان الاوساط الاقطاعية فى الغرب التى تمسكت بامكانية نهب الامبراطورية البيزنطية ، وبامكانية وضع ايديها عليها اذا سنحت الفرصة (بحجة اعادة اسحق الثانى انجيلوس ووريثه الى عرشها) كانت تحيك بلا كلل شباك المؤامرات حول الحملة الصليبية التى بادرت اليها روما . وكل هذا كان يجرى فى سرية عميقة . وفقط بعد قرون عديدة ، استطاع العلماء ، بمقارنة المعطيات الواردة فى المصادر وجمعها فتائت فتائت ، ان يتحسسوا ويفكوا تدريجيا عقد «الدبلوماسية السرية» فى اوائل القرن الثالث عشر .

فى «اسر» البندقيين . الحملة على دلماسية

منذ خريف ١٢٠٢ ، اخذت نوايا منظمى وزعماء الحملة المخفية حتى ذاك ، تظهر اكثر فاكثر ، فقد قامت محاولات بيئة لتجسيد مقاصدهم . ولعبت البندقية الدور الحاسم فى الاحداث اللاحقة . فنحو صيف سنة ١٢٠٢ ،

اخذت تتجمع شيئا فشيئا فى البندقية فصائل الصليبيين الفرنسيين والالمان والايطاليين . وقد جرى توزيعها بجوار البندقية ، فى جزيرة ليدو القليلة السكان (ويسمىها مدونو الاخبار «جزيرة القديس نقولا» ، وكانت تقع ، كما يقول روبر دى كلارى ، على بعد نحو ٤ كم عن البندقية) . وهناك نصب «الحجاج» خيامهم ودبروا امورهم بافضل ما استطاعوا .

كانت للبندقيين خططهم ، وقد عمدوا الى تحقيقها بتبصر وروح عملية . فقد حاول آباء المدينة-الجمهورية ان يضعوا الصليبيين فى وضع حرج ، لكى يشعروا بتبعيتهم «لشعب البندقية» ويجعلوهم بالتالى اسهل انقيادا . كانوا ينقلون احتياطات المأكولات الى جزيرة ليدو بصورة غير منتظمة ، ولذا عانى الصليبيون عواقب ذلك ، فقد كان الجوع يعضهم بنابه فى المعسكر ، وبدأت الامراض تتفشى بينهم ، واخذ الموت يحصد افقرهم . ويقول مؤلف اخبار «اجتياح القسطنطينية» ان عدد الاحياء لم يكن يكفى لاجل دفن الاموات . اغلب الظن ان هذا المؤلف قد كثف الالوان وبالح ، لاجل الطعن فى سمعة البندقيين ، ولكن وضع جنود المسيح كان ، حقا وفعلا ، لا يحسد عليه . وامسى الصليبيون ، على حد قول المؤلف نفسه ، اسرى البندقية . الا ان الاسياد والفرسان الذين كانوا يملكون الاموال ، لم يعتزموا ، والحق يقال ، الاستسلام للياس ، فحتى ذاك ، كانت المسافة لا تزال بعيدة . وبانتظار الشؤون المقدسة التى تنتظرهم ، والتى ستغفر لهم ، على كل حال ، جميع خطاياهم السابقة ، حولوا المعسكر فى ليدو الى وكر للمقامرين بالكعب وللعواهر . ولكن قسما من الصليبيين اسرع الى الفرار فى الوقت المناسب من الجزيرة وفى العودة الى الوطن ، نظرا لعدم الرغبة فى التسليم بوضع اسرى البندقية ، وتجنبنا لمنغصات اسوأ فى المستقبل .

وفى هذه الاثناء حل الموعد المعين فى معاهدة نيسان (ابريل) ١٢٠١ لتصفية الحسابات نهائيا مع جمهورية القديس مرقس ، واتضح انه ليس بمقدور الفرسان ان يسدوا نقدا وعدا المبلغ المترتب عليهم . وهكذا حدث ما توقعه ، كما ينبغى الظن ، انريكو دندولو قبل سنة ، فلم يصل الى المدينة فى الاهوار (البيزنطى يوستافى السلايىكى يسمى البندقية «مستنقع الضفادع» و«افعى الماء والارض») سوى ثلث اولئك الصليبيين ال ٣٣٠٠ الذين كان ينبغى ان يصلوا اليها والذين عناهم الرسل الفرنسيون الذين تسرعوا فى توقيع المعاهدة مع البندقية فى سنة ١٢٠١ . وقد فضل كثيرون من البارونات والفرسان الاستغناء عن خدمات البندقية ، لانها بدت لهم مفرطة فى الغلاء وموضع شكوك على العموم فى شىء ما . ولهذا ابهر بعضهم على

متن سفن فلمنكية من بروغة (Brygge) (الفلاندر) واستأجر آخرون (البورغونيون والبروفانسيون) سفنا في مرسيليا ، واتجه فريق ثالث (الفرسان من بلوا وشامبانيا) عبر لومبارديا ثم انعطف من بياتشينتسا الى جنوب ايطاليا . ثم ان كثيرين من الفرسان والمشاة ، كما كتب فيلاردوان ، لعدم ثقتهم في البندقية ، ورغبة منهم في عدم التعرض لاي خطر كان ، قد ابحروا رأسا الى سوريا متجنبين البندقية . ولكنه امكن ، والحق يقال ، صرف بعض الزعماء من الصليبيين عن هذا العزم ، ووقفهم في منتصف الطريق (مثلا ، الكونت لويس دي بلوا) ولكن عددا لا يستهان به من «الناس الطيبين سلكوا طرقا اخرى» ، الامر الذي «كان سبب مصيبة كبيرة» بالنسبة للذين وصلوا الى البندقية ، كما قال مدون الاخبار .

ولكن ، كما يعتقد العلماء ، لو ان جميع الذين اخذوا الصليب وصلوا الى البندقية ، لما كان عددهم تجاوز نصف العدد الذي نصت عليه معاهدة سنة ١٢٠١ . ويستفاد من معطيات روبر دي كلاري ان الفا من الفرسان الخيالة فقط تجمعوا في البندقية ، مع انه كان من المرسوم نقل ٤٥٠٠ فارس ، ويحدد مدون الاخبار ذاته عدد المشاة بـ ٥٠٠ الفا (وكان من المفترض ، كما يزعم ، وصول ١٠٠ الف . وهذا ، بالطبع ، من اختلاق مدون الاخبار الذي لم يكن في المعتاد على وثام مع الارقام) . اما في الواقع ، فلم يصل الى البندقية سوى ١٠-١٣ الف مقاتل عوضا عن المقاتلين المنتظرين البالغ عددهم اكثر من ٣٣ الفا * ، اى من حيث الجوهر ، حفنة من الناس * * . وغنى عن البيان انه لم يكن بمقدور القادمين ان يجمعوا المبلغ الضروري من النقود . ونحو صيف ١٢٠٢ ، لم يدفعوا للبندقيين سوى ٥١ الف مارك . والنقص لم تستطع ان تغطيه حتى التبرعات الاستثنائية التي تبرع بها زعماء القوات الصليبية الميسورون . كتب فيلاردوان بتحسر يقول : «كان بوسعكم ان تروا آنذاك كم وكم من الآنية الذهبية والفضية نقلت الى

* يبني الباحثون التقديرات المدققة لعدد الصليبيين الذي تجمعوا في البندقية على معطيات مائة وفامضة اوردها مدونو الاخبار وتختلف فيما بينها ؛ يستفاد من حسابات المؤرخ الايطالي كاريلان عددهم بلغ ١٠٥٨٩ ، ومن حسابات الاختصاصيين الاميركيين كويلر وكومبتون وكمبيل الذين اصلحوا اخطاء العالم الايطالي الحسابية ١١١٦٦ او ١٣ الفا .

* * يفترض المؤرخ الفرنسي لوليون ان عدد الفرسان الذين تجمعوا في البندقية تراوح بين ١٥٠٠ و ١٨٠٠ ، اى اكثر من ثلث ، ولكن اقل من نصف عددهم المشروط في المعاهدة .

قصر الدوج لدفع المبلغ . وحين دفعوا ، تبين مع ذلك انه ينقص اربعة وثلاثون الف مارك لتسديد كل المبلغ المقرر» .

كان هذا المبلغ ضخما حقا . وبما ان البندقيين لم يتقاضوه ، فقد كفوا عن نقل المؤن الى ليدو ، بل انهم هددوا الصليبيين بالامتناع كليا عن اعطائهم السفن اذا لم يدفعوا المبلغ بكامله وفقا للمعاهدة . وذات مرة ، - كما يروي روبردى كلارى الذى عاش مباشرة جميع تطورات الاحداث ، - جاء الدويج انريكو دندولو بنفسه الى معسكر الصليبيين ، وقال لهم : ما دمتم لا تدفعون الدين ، «فاعلموا انكم لن تتحركوا من هذه الجزيرة الى ان تحل اللحظة التى نحصل فيها على مالنا ، فضلا عن ذلك ، لن تجدوا احدا يجلب لكم الماء والطعام» . اكتاب الفرسان وحملة اسلحتهم وخدمهم . ولقد كان الوضع مؤلما جدا خصوصا وانه كان يتعين امان الفكر فيه تحت اشعة شمس الصيف الحارقة .

وبينما كان الاسياد يحلون ويفكرون ، وصل الى البندقية فى آب (اغسطس) ١٢٠٢ القائد الاعلى للصليبيين الذين يسمونه احيانا بوهيموند الحملة الصليبية الرابعة - بونيفاسيوس دى مونفيرات . كان هذا المركيز الرفيع الحسب والنسب من ناحية واحدة على الاقل ، فى مستوى حكام الجمهورية التجارية ، فكل ما كان يبشر بالنفع كان يقبله باستعداد لا يقل عن استعداد دندولو . ولذا لم يصعب على الاثنين الاتفاق والتواطؤ فيما بينهما . اغلب الظن ان بونيفاسيوس اطلع الدوج على خطته للحملة على بيزنطية . وهذا الانعطاف فى الامور كان يطيب كليا لدندولو ولكنه طلب المزيد من الوقت والاستعداد . ولم لا يساعد الصليبيون فى هذه الاثناء جمهورية البندقية على تلبية مصالحها التجارية والسياسية المباشرة ؟ وقد تثبت دندولو من انه لم يبق من الممكن ان يعتصر من «اسرائه» اكثر من ٥١ الف مارك . ولكنه كان يدرك ايضا جيدا جدا انه اذا تفرقت العساكر الصليبية (وكان الفرار من جزيرة ليدو قد اتخذ ابعادا منذرة بالمخاطر) ، اسفر ذلك عن فضيحة كبرى بالنسبة لجمهورية القديس مرقس اذ ان البابا اينوشنتيوس الثالث سيتهم البندقيين حتما بانهم احبطوا الحملة الصليبية . «قال الدوج مخاطبا مواطنيه : اذا سمحنا لهؤلاء الناس بالعودة الى بيوتهم ، فاننا سنشتهر الى الابد ككذابين اردياء» . هكذا يورد روبردى كلارى قوله . وبعد ان وزن الدوج جميع الظروف ، واخذ بعين الاعتبار فى المقام الاول منافع البندقية التجارية ، عرض على الفرسان مخرجا لائقا من الوضع الصعب الذى وقعوا فيه بفضل كبار قادتهم وبفضل الرسل الذين مثلوهم

فى السنة الماضية . فقد اقترح دندولو : لىسد الصليبيون بالسيف الدين المترتب عليهم . ولتسديد الدين ، والاصح القول ، لتأجيل موعد دفعه ، ليحتلوا مدينة زادار (زاره) من اجل البندقية . وقد صاغ فيلاردوان فكرة الدوج كما يلى : «لنقترح عليهم ان يساعدونا فى الاستيلاء عليها ، فمنحهم مهلة لدفع الماركات الـ ٣٤ الف المديونين لنا بها ، الى ان يتيح لنا الرب ان نكسبها معا نحن وهم» .

ومدينة زادار الواقعة على الساحل الشرقى من بحر الادرياتيكا ، فى دلماسية (حاليا يوغوسلافيا) ، كانت مركزا تجاريا كبيرا (وحين خاطب الدوج دندولو الصليبيين صورها بصورة وكر للقراصنة فقط) . وكانت آنذاك تخص المجر التى تصارعت عشرات السنين مع البندقية من اجل مراقبة السواحل الدلماسية . وكانت عمليات زادار التجارية على درجة من النشاط بحيث ان المدينة لم تكن منافسة رهيبة للبندقية فى نطاق بحر الادرياتيكا وحسب ، بل ايضا فى خارجه . وكانت بلوتوقراطية (طبقة الاغنياء) فى البندقية تنظر بحقد الى تعاظم جبروت زادار التجارى . وغير مرة قامت محاولات للاستيلاء على زادار وبالتالى لخلق المنافسة المكروهة . فى الآونة الاولى ، اى فى القرن الحادى عشر ، حاربت البندقية الملوك الكرواسيين لاجل اخضاع زادار ، وفى القرن الثانى عشر ، صار المجرىون اعداء البندقية . وكان الصراع يدور بنجاح متقطع ومتفاوت ، فقد كان البندقيون يستولون على زادار ، ولكن المدينة كانت تثور المرة تلو المرة على «عروس الادرياتيكا» وسلطتها المستبدة . وفى سنة ١١٨٦ وضعت زادار نفسها فى حماية الملك المجرى بيلا الثالث . وما ان انتخب انريكو دندولو دوجا للبندقية (فى سنة ١١٩٢) حتى حاولت البندقية مرة اخرى ان تستولى على زادار ، ولكنها منيت بالفشل من جديد . والآن ، بعد مرور عشر سنوات ، ظهرت فرصة جديدة لقهر المنافس ، وهل كان بوسع الطاعن فى السن ، والبالغ الحنكة دندولو ان يفوتها يا ترى ؟ كان سحق زادار يبدو لطغمة اشراف البندقية قضية مغرية خصوصا وان جمهورية القديس مرقس المسيحية تنال ، بموجب معاهدة سنة ١٢٠١ ، نصف الغنيمة . فآى شأن والحالة هذه ، لكون زادار من ممتلكات الملك المسيحي المجرى ايمره (١١٩٦-١٢٠٥) الذى اخذ الصليب هو ايضا استجابة لنداء البابا اينوشنتيوس الثالث ؟

وقد نسق دندولو مقترحاته الوقحة التى لقيت التجبذ سلفا فى هيئتي الجمهورية العليتين (المجلس الصغير والمجلس الكبير) مع بونيفاسيوس دى مونفيرات . وهذا الماركغراف لم يكن مسيحيا حتى الضمير كثيرا . فقد

وجد من المقبول تماما ومن المناسب تماما مع قضية تحرير الارض المقدسة (التي كانت تشغل باله اقل ما يشغل باله) ان يعقد وينفذ صفقة اخرى تحول موقتا الصليبيين ، من حيث الجوهر ، الى مرتزقة في خدمة البندقية . وعمليا تنازل بونيفاسيوس للدوج عن قيادة الفرسان . وبعد خدمة دينية احتفالية في كاتدرائية القديس مرقس اخذ الطاعن في السن انريكو دندولو هو ايضا الصليب ، وتعهد بان يأمر شخصيا الاسطول الذي سينطلق في غارة ضد زادار . كان الدوج اعمى تماما تقريبا ، فلربما اصيب بجرح ذات يوم في رأسه (الامر الذي يروييه فيلاردوان) ، ولربما ، كما ورد في اخبار مدون الاخبار البندقي اندري دندولو ومدوأة نوفغورود ، اعموه بامر من الامبراطور البيزنطي مانويل كومنينوس بقطعة من الزجاج المتأجج عندما كان دندولو سفيرا في القسطنطينية . ولكن الدوج ، رغم عماءه ، ورغم تقدمه في السن ، كان لا يزال يحتفظ بقدر كبير جدا من الهمة والانتعاش . كان صنديسدا جسديا وفكريا ، وكان ، كما يروي معاصروه ، يحتفظ بعزيمة مدهشة ، وكذلك - كما نضيف نحن من جانبنا - بوقاحة ليست اقل مدعاة للدهشة . يقول فيلاردوان : «سر حجاجنا كثيرا وتأثروا كثيرا لان الدوج اخذ الصليب سواء بسبب حكمته ام بسبب ما يلزمه من شجاعة» . اما فسي الواقع ، فان مزاج الصليبيين لم يكن متفائلا بالقدر الذي يصفه به مارشال شامبانيا فيلاردوان . ان اقتراح البندقيين بالاستيلاء على زادار ، - وقد تقدموا به من الفرسان بواسطة بونيفاسيوس دي مونفيرات - قد استثار بادئ بدء الحيرة والارتباك في صفوف الصليبيين وبعضهم ، وبخاصة من عداد الفقراء الذين ، كما قال غونتر من بيريس ، كان معهم قليل من النقود والذين انفقوها فلم يبق معهم مال لمواصلة الطريق ، «تركوا العساكر وقفلوا راجعين الى الورا وعادوا الى بيوتهم» .

في الادب العلمي ورد رأى يزعم ان رجال الكنيسة اوحوا بمعارضة الفقراء ، ذلك ان الفقراء ، كما قيل ، كانوا مفعمين بالحماسة الدينية ، ولذا رفضوا ان يشتركوا في مشروع عدواني واغتصابي ضد اخوانهم في الدين المسيحي . ان وجهة النظر هذه صحيحة جزئيا فقط . ومن الاصح القول ان الفقراء الصليبيين الذين غادروا البندقية انما اعربوا بذلك عن احتجاجهم على الحرمانات التي فرضتها عليهم حكومة البندقية قصدا وعمدا في جزيرة ليدو ، وفي المقام الاول على تحويل الحملة الصليبية الى اداة لسياسة البندقية . لماذا كان ينبغي ان تعود منافع المشروع الى تجار البندقية ؟ وليس جميع الصليبيين كانوا على العموم يرغبون بختى في اصعب الظروف

عليهم ، فى خدمة مصالح البندقية بل ان بعضا من الاسياد البارزين عادوا الى بيوتهم مع الباعهم ، بمن فيهم ابن اخى وسمى جوفروا فيلاردوان . ان مدونى الاخبار الذين تحدثوا عن الخلافات والمخاصمات التى نشبت فى صفوف قوات الصليبيين ، عندما تقدم الدوج باقتراحه الوقح بصدد الاستيلاء على زادار ، يرسمون الوضع كأنما الامراء رفضوا اقتراحه لاعتبارات دينية محضة . «لأنهم (اي الامراء - المؤلف) - كما يزعم غونتر من بيريس - كانوا يعتبرون من غير اللائق اطلاقا ومن غير الجائز ابدا للمسيحيين ان ينقض جنود صليب المسيح على المسيحيين بنفس اعمال القتل والنهب والحريق التى تحدث غالبا عند الاستيلاء على المدن» . وكان القادة الصليبيون العائشون فى خوف الله ، كما زعم غونتر ، قد امتلأوا رعبا لانه سيتعين عليهم اقرار جريمة . ان الغاية من هذا التفسير لاسباب المعارضة التى نشأت بين كبار البارونات انما هى تبييض صفحة زعماء الصليبيين وان بعض الشئ

من الممكن تماما ، بالطبع ، ان يكون مشروع دندولو قد بدا لبعض الاسياد غير ملائم من الناحية الاخلاقية والدينية ايضا ، لان مدينة زادار كانت مسيحية من حيث سكانها . الا ان هناك امرا كان غير واضح : كيف يكون رد فعل الكنيسة على اعمال الصليبيين ضد المسيحيين ؟ اما السبب الرئيسى لاستياء بعض من الزعماء ، فقد تلخص فى عدم الرغبة فى القتال من اجل مصالح البندقية ، وليس فى خوف الله ، ذلك ان الاسياد لم يتمنطقوا بالسيوف لكى يسحبوا الكستناء من النار لاجل البندقية !

ولهذا السبب غادر فريق من الاعيان ومن الصليبيين البسطاء ليدو الى مناطقهم . اما السواد الاعظم ، فانه ، حسب كل احتمال ، لم يفهم شيئا مما يجرى . فان دندولو لم يجر جميع المفارضات بشأن الزحف على زادار ، كما يعترف الفارس روبر دى كلارى ، الا مع ذوى ارفع المقامات . وكان هؤلاء ، باغلبيتهم ، مثل دندولو ، محاربين لا يهمهم من ينهبونه وفى اى مكان ينهبونه . وای شأن كان يمكن ان تكون للشكوك الدينية بالنسبة للبارونات النبلاء من طراز رينو دى مونميراي ، او الكونت ايتيان دى برش ، او الفيدام (مثل الاسقف فى القضايا المدنية وآمر قواته) غليوم دى فيريير من شارتر الذين سبق لهم ان نهبوا الاديرة فى ممتلكاتهم الفرنسية وتهكموا من الاكليريكيين ؟ وقبل الانطلاق فى الحملة الصليبية تعين عليهم حتى ان يرفعوا امام جمع كبير من الناس آيات الندم والتوبة على اعمال العنف التى اقترفوها بحق الرهبان وان يتعهدوا بالتعويض عن الضرر الذى الحقوه .

ولذا لم يكن من الممكن بالاحرى ان توقف ايا من وخزات الضمير هؤلاء السفاحين المتأصلين حين اخذت ترتسم ، كبديل عن الحملة الصليبية ، حرب ضد مدينة مسيحية تخص الملك المجرى المسيحي . ولو لم يقبلوا هذا البديل ، لما بقي للصليبيين غير التفرق وحسب . ان هذا الاحتمال لم يكن ليطيّب البتة «للبارونات الساميين» . ففضلوا قبول عرض انريكو دندولو . وهكذا تقرر الزحف على زادار .

نهج الكرسي الرسولي السياسى

ما هو الموقف الذى وقفه آنذاك الكرسي الرسولى المقدس ؟ هل حاول البابا اينوشنتيوس الثالث القضاء على مقاصد البندقيين ؟ ما كاد الدوج يتقدم باقتراحه وتختلف آراء الصليبيين المطلعين على الامر- ، حتى عرج بعض من الذين سرعان ما قرروا العودة الى بيوتهم على روما لكى يطلبوا من الحبر الاعظم الاذن المناسب بالعودة . ولكنهم لم يحصلوا عليه الا بعد الحاحات طويلة . وفى الوقت نفسه ، جاء الى البابا فى تشرين الاول (اكتوبر) ١٢٠٢ قاصده الرسولى ، الكردينال بيار من كابوا الذى سبق ان ارسله فى مأمورية الى قوات الصليبيين . الا ان دندولو ومستشاريه الذين كانوا لا يرغبون فى ان تتدخل الكورية الرومانية فى المشروع الصليبي الذى صار فى ايديهم رفضوا صلاحيات الكردينال بيار . اما اذا شاء فيمكنه ان يرافق الفرسان فى الحملة كواعظ عادى ، ولكن ليس كرسول باباوى ! عاد القاصد الرسولى الغاضب الى روما واطلع هو ايضا البابا اينوشنتيوس الثالث على الحرب ضد زادار التى يهيئها الدوج وزعماء الصليبيين . ويؤكد مؤرخ سيرة البابا ان القاصد الرسولى «كشف للبابا» فى الوقت المناسب «وببالغ الوضوح نية البندقيين الشريرة» . وهكذا صارت خطط قادة الصليبيين وحكام جمهورية القديس مرقس معروفة للكرسى الرسولى . وفى الحال ، وصل على جناح السرعة الى البندقية تحذير رهيب حمله رئيس الدير دى لوتشيديو ، فان البابا قد منع الصليبيين ، تحت طائلة الحرم ، من الهجوم على ارض مسيحية . ولكن هذا المنع لم يكن سوى حيلة مرائية جديدة من روما . فعندما كان بيار من كابوا فى معسكر الصليبيين ، كانت مسألة الزحف على زادار فى طور المناقشة ، وطلب عدد من الاسياد النصيحة من القاصد الرسولى : ما العمل ؟ الا يتعين على الصليبيين ان يتفرقوا لقطع دابر نية دندولو الشريرة ؟ جوابا

عن هذه المطالب ، اعلن القاصد الرسولى الذى كان يعرب بلا ريب عن ارادة الكرسي الرسولى : «ان التكفير عن شر صغير بعمل خير عظيم ادعى الى الغفران واقل خزيا من ابقاء نذر الحملة الصليبية بدون ايفاء ومن العودة الى الوطن بالعار ناهيك عن الخطايا» . ومن هنا ينجم انه كان ينبغى ، من وجهة نظر البابا ، السير الى النهاية بالحملة الصليبية ، ايا كان الثمن . ينبغى على القوات المسلحة بان تمتنع عن التفرق ، ايا كانت الظروف ، حتى وان ساقوها ضد زادار . هكذا كان ، من حيث الجوهر ، موقف البابا كما يكشفه ، مثلا ، مدون الاخبار الالماني من هلمبرشتادت ايضا . فهو يروى ان الاسقف كونراد فون كروزيغ (الذى كتب مدون الاخبار - ونقول هذا للمناسبة - مؤلفه نقلا عن لسانه) الذى لم يتجاسر على الانضمام الى مؤامرة زعماء الصليبيين مع دوج البندقية ، قد طرح هو ايضا امام القاصد الرسولى السؤال التالى : ماذا يتعين ان يفعله هو الاسقف ؟ كتب مدون الاخبار : «اجاب هذا (اى القاصد الرسولى) صراحة ان البابا يفضل ان يخفى عنهم (اى عن الصليبيين) شيئا ما غير لائق من ان يعفيهم من نذر هذه الحملة ، واعطاء نصيحة نهائية مفادها ان لا يبتعد (اى الاسقف كونراد) باى نحو كان ، عن القوات ، وان يحاول فعل ما يستطيعه لكى يتحمل الارجاس (ارجاس الصليبيين) التى قد يقترفونها» . وآنذاك ، كما واصل مدون الاخبار ، «انضم» الاسقف «الى الاتفاقية» مثل رؤساء الاديرة الاربعة من رهبانية السيسترسيين الذين عينهم البابا خصيصا لكى يترأسوا قوات الصليبيين بالكلمة والمثال» .

وهذا يعنى ان البابا اينوشنتيوس الثالث تغاضى عمليا ، على لسان قاصده الرسولى ، عن تحقيق خطط البندقية . شكلا اكد الآن منعه رفع السيف على المسيحيين وبذلك ادى واجبه بوصفه الكاهن الكاثوليكي الاول . ولم يكن من الممكن ان يتصرف البابا على نحو آخر ، فلم يكن من شأن الهجوم على ممتلكات الملك المجرى المعتبر صليبيا سوى ان يحيط الحملة الصليبية بالشكوك ويقوض مبدأ السياسة الشمولية للباباوية الخارق الاهمية ، ناهيك عن تقويض سمعة الباباوية التى تسمى مشبوهة جدا .

ولكن البابا لم يكن يرغب فى وقف الحملة الصليبية ، اذ ان النجاح كان يبشر روما ، لا بالقدس وحسب ، بل ايضا ، ولربما ، بالقسطنطينية . كان ينبغى ان لا يضر منع الهجوم على الاراضى المسيحية بقضية تحرير الارض المقدسة وقضية اخضاع بيزنطية . وعمليا لم يبق للبابا سوى مخرج واحد : لاجل مواصلة الحملة الصليبية («فعل الخير العظيم») تجسب اجازة «الشر

الصغير» اى استيلاء الصليبيين على زادار المسيحية ، الامر الذى كانت البندقية تحثهم عليه . وبهذه الروح كان الحبر الاعظم الرومانى الداهية والمراوغ يطبق سياسته محاولا ان يجمع ما لا يمكن جمعه ، وان يستتر «الشيطاني» «بالرباني» مانعا بالاقوال ، مباركا بالافعال .

يعترف المؤرخون الكاثوليكيون المعاصرون وغيرهم من المؤرخين الغربيين المعاصرين بان البابا اينوشنتيوس الثالث قد استسلم من حيث الجوهر امام البندقيين . ولتبرير البابا ، يسوقون مختلف الحجج . يستشهدون بانه لم يكن بمقدوره ان يجبر البندقيين على التخلي عن نواياهم وعلى تنفيذ ارادة الكرسي الرسولى ، ويشيرون الى ان دندولو لم يكن يتأثر بتأثير الكنيسة المعنوى ، ويزعمون ان الكردينال الباباوى وقع فى فخ نصبه دوج البندقية بحق امام الصليبيين فوجد هؤلاء انفسهم بين المطرقة والسندان : اما ان يدافعوا عن الدين ، واما ان يمضوا الى الحرب ضد زادار ، ويعتبرون ان الكردينال القاصد الرسولى وقع فى ضلال الشيوخة حين برر العمل ضد زادار ، والخ . . .

كل هذه الحجج وما مائلها ليس بمقدورها ان تبيض صفحة المنظم الرئيسى للحملة الصليبية الرابعة . فمن الجلى ان البابا اينوشنتيوس الثالث قد تقاضى عن البندقيين باسترشاده فى هذه الحال بالمصالح السياسية الانانية للكنيسة الرومانية . فلو ان البابا حرص بكل جد على انقاذ زادار المسيحية ، اولم يكن من الاصوب تأجيل الحملة الصليبية لمدة معينة ؟ ولو فعل ذلك ، لبقيت سمعة الكرسي الرسولى لا تشوبها شائبة . اولم تكن الموافقة حتى على حل الجمع الصليبي موقتا اصوب من السير مع التيار والسماح للفرسان المسيحيين بنهب الممتلكات المجرية المسيحية ؟ ثم ان البابا كان يملك وسائل اخرى ايضا للحيلولة دون فتح زادار ، اشد فعالية بكثير من الموانع الكلامية التى لم يكن يوليها احد اهمية جدية . ولو ان البابا اينوشنتيوس الثالث كان يجهد بصدق لانقاذ الاراضى المسيحية مما حدث لها بعد ذاك بقليل ، لما لقي كبير عناء فى دفع ديون قواته المفلسة للبندقية ؛ فقد كان بمقدور خزينة الكورية الرومانية ان تتحمل هذه التضحية . ان ٣٤ الف مارك لم تكن بالطبع مبلغا زهيدا ، ولكنها لم تكن مبلغا ضخما جدا بالنسبة للبابا خصوصا وان خزينته كانت تتلقى ، كما يجب الظن ، شيئا ما من الرسوم الصليبية التى كانت تجبى فى جميع البلدان الكاثوليكية . ومعلوم ، مثلا ، ان المبالغ التى جمعها الواعظ - «صانع العجايب» فولك من نوي- قد احيلت الى كنز جمعية السيسترسيين الرهبانية .

ويذكر احد مدونى الاخبار ان الملك الفرنسى فيليب الثانى قد احال هذه النقود ، قبل وفاة فولك وبواسطة فيكونت ديجون اودو دى شاميليت والكاستيلان دى كوسى لتلبية حاجات الحملة الصليبية . خلاصة القول ان كيس البابا ما كان خلا من النقود لو ان البابا فكة وانفق منه لاجل انقاذ الاراضى المسيحية . ولكن اينوشنتيوس الثالث لم يخطر له حتى فى البال ان يضحي بثروات الكرسى الرسولى المقدس لاجل انقاذ اولاده المحبوبين «اسر» البندقية . وهكذا تجلت مرة اخرى العلاقة السرية بين سياسة البابا فى الحملة الصليبية الرابعة وبين مقاصد البلوتوقراطية البندقية .

فتح زادار . التغير الثانى فى اتجاه الحملة

فى ٨ تشرين الاول (اكتوبر) ١٢٠٢ ، ابحر اسطول الصليبيين من البندقية ، وكان يتألف من ٧٠ قادسا وزهاء ١٥٠ نفا ويوسيا (سفن شاحنة) ، وكان يحمل المؤونة والخيول وادوات دك الاسوار ، والمنجنقات والباليستات لاجل اطلاق الاسهم الثقيلة والحجارة والعوارض الخشبية الملفوقة بالحديد ، والبراميل المليئة بالسائل الوقودى . كانت القوادس عبارة عن سفن ضيقة وطويلة تتميز بالسرعة والقدرة على المناورة فى المعارك . وعلى جانبى كل قادس كانوا يركبون صفوفًا من المجاديف ، واذا هبت ريح مؤاتية ، رفعوا الاشرعة ايضا . وعدا الطاقم - البخارة والمجدفين الذين كان البندقيون يستأجرونهم فى المعتاد للخدمة لقاء اجر من آذار (مارس) الى تشرين الثانى (نوفمبر) - كانت القوادس تحمل فرقا مسلحة من حملة الاربالت (قوس فولاذى ذو مقبض يشد بنابض) وحملة المقاليع ، المرتزقة هم ايضا . وكان النف عبارة عن سفينة كبيرة ، رحبة ، ذات متون ملوية صوب القارينة ، ومزودة ببضعة من الصوارى ومن الاشرعة العريضة . وفى مقدمة النف ومؤخرتها كانت تنتصب شاتو (ابراج) خشبية . وخلافا للقادس ، كانت سرعة النف خفيفة وكانت خرقاء متثاقلة . اما اليوسى فقد كانت سفينة شراعية للنقل ، وكانوا ينقلون الخيول فى عنبرها العميق .

فى ١١ تشرين الثانى (نوفمبر) دخل اسطول الصليبيين - زهاء ٢٠٠ سفينة - بالقتال مرفأ زادار المغلق بسلسلة حديدية . وفى ٢٤ تشرين الثانى ، بعد هجوم دام خمسة ايام ، احتل الفرسان زادار ، التى كانت ، على حد قول فيلاردوان ، محصنة بأسوار عالية وابراج عالية ، محطمين المقاومة

العنيدة التي ابدتها الحامية المجرية وسكان المدينة ، الذين ، كما لاحظ روبر دى كلارى ، «تسلحوا بافضل نحو مثل اناس قرروا ان يدافعوا عن انفسهم» . وخرب الفرسان زادار بما فيها كنائسها . واقترب الغزاة فى المدينة مذبحه وحشية ودمروا الكثير من المباني وغنموا غنائم وفيرة . ووقعت تحت حكم البندقية - ولكن ليس فى الحال والحق يقال ، ففي البدء نشب خناق بين البندقيين وبين الحجاج البسطاء من الصليبيين . وقد استمر الخناق ، كما يروى روبر دى كلارى ، ليلة بكاملها ونصف نهار وكان «عظيما الى حد ان الفرسان لم يتمكنوا من تفريقهم الا بعد جهد جهيد» . ويعتقد فيلاردوان انه لو استمر هذا الخناق وقتا اطول قليلا لكانت جميع العساكر هلكت لان كلا من الاطراف المتحاربة تكبد خسائر كبيرة جدا .

فتح وتدمير مدينة مسيحية فى دلماسية . ذلك كان اول «نجاح» احرزه الصليبيون فى الحملة الصليبية الرابعة .

اعرب الكرسي الرسولى عن غضب يليق بالحادثة . وقد تظاهر البابا اينوشنتيوس الثالث «بجزع لا حد» له «لان الصليبيين سفكوا «دماء الاخوة» وخالفوا منعه الهجوم على الاراضى المسيحية . واعتد البابا رسالة الى الصليبيين اعلن فيها انه مستعد لغفران خطاياهم . ذلك انهم ، باستيلائهم على زادار ، لم يتصرفوا بمشيئتهم ، بل بحكم الضرورة فقط . ونصح البابا الفرسان «بالا يزيدوا الخطايا على الخطايا» وبان يمتنعوا عن مواصلة التدمير والتخريب فى زادار ويعوضوا الضرر الذى لحق بالملك المجرى . واذا خرجوا على الطاعة ، فلا مناص لهم من الحرم من الكنيسة . ومن الجلى ان رئيس الكنيسة الكاثوليكية قد تهرب عن اتخاذ اية عقوبات جدية حيال قواته المسلحة ، فانه قد ذكر امكانية الحرم من الكنيسة فى نهاية الرسالة فى صيغ متماكة جدا . اغلب الظن ان النتائج العملية لغضب البابا كانت قد اقتضت على ذلك لو ان الصليبيين المتهورين لم يستثيروا اجراءات اقصى واحد كان البابا اينوشنتيوس الثالث نفسه لا يعتزم بادى ذى البدء اللجوء اليها .

ان الخوف من المقترب قد بعث فى نفوس الصليبيين اليقين بانهم سيتلقون مع ذلك على «مآثرهم» ما يستحقون . ذلك ان جنود الرب ، كما كتب غونتر من بيريس ، «قد رفعوا ايديهم على اموال الملك المجرى التى ، وضعها بقبوله راية الصليب تحت حماية القديس بطرس والحبر الاعظم» . وخوفا من الاسوأ ، ارسل الفرسان فى كانون الثانى (يناير) ١٢٠٢ الى روما وفدا من اربعة اشخاص برئاسة الاسقف نيفيلون من سواسون ، ظهر امام

البابا معترفا بالذنب . عرض اعضاء الوفد على البابا ظروف القضية ، والمبررات ، وابلغوا فى النهاية ان اولاد اينوشنتيوس الثالث المحبوبين لن يشقوا من الآن وصاعدا عصا الطاعة عليه وسيواصلون السير الى الارض المقدسة . ومن المؤكد ان الصليبيين لم يخامروهم اى شك فى الدور الحقيقى الذى لعبه الكاهن الرومانى الاول نفسه فى الاحداث التى جرت ، اذ انه ، كما رأينا ، قد اسهم فعلا فى الاستيلاء على زادار .

واجه اينوشنتيوس الثالث وضعا مزدوجا . فقد كان ينبغى ان يحدد على المكشوف موقف الكرسي الرسولى مما جرى ويجرى ؛ فيما ان الصليبيين اعتبروا انفسهم جديرين بالحرم من الكنيسة ، فلم يكن بمقدور البابا ان يتظاهر بانه لا يرى شيئا ا والرسالة التى كتبها فى حينه لم يرسلها . والرسول استقبلوهم فى روما بصرامة وحرما جنود الصليب من الكنيسة . الا ان اينوشنتيوس الثالث احل الرحمة على الفور محل الغضب ، وعهد الى الكردينال بيار من كابوا ، قاصده الرسولى ، نائبه ، برفع الحرم ، على ان يأخذ من الصليبيين وعدا بانهم سيخضعون مستقبلا بكل دقة لمشيشة الكرسي الرسولى . واكتفى البابا ، كما كتب فيلاردوان بالاعراب عن أسفه بصدد «الانم الكبير» الذى اقترفوه .

وعلى هدى اعتبارات المكانة والسمعة ، حرم البابا اينوشنتيوس الثالث مع ذلك البندقيين من رحمته ، فقد بقى الحرم من الكنيسة الصادر بحقهم سارى المفعول . هذه القصة التى قوضت سمعة الكورية الباباوية لم يكن يجوز ابقاؤها بدون اية عواقب . ولكن البابا وجد فى الحال التحفظات اللازمة لتجنب سوء الفهم : اجل ، ان البندقيين قد تعرضوا للعة والحرم من الكنيسة ، ولكن لا يجوز لهذا ان يمنع الصليبيين من استعمال اسطول جمهورية القديس مرقس ومن اقامة الاتصال معها على العموم . وحين تعاقب الكنيسة رب العائلة ورب البيت (والمقصود هنا دندولو) فان هذا لا يعنى انه ممنوع على اعضاء العائلة ان يشاطروه المأوى (سفن البندقية) وان يقيموا اتصالات معه (اى قبول خدمات البندقيين) . ولاجل بلوغ «الاهداف العليا» ، يجب ، كما كتب البابا المنافق الى الصليبيين ، «تحمل الكثير» . فليغفر لهم الرب ا كانت تلك الحجج السفسطائية التى تذرع بها الحبر الاعظم وممثل المسيح الذى وجهه عساكره الى «الاهداف العليا» . الا ان حججه بدت واهنة وموضع شك لزعيم الصليبيين الاكبر بونيفاسيوس من مونفيرات ، اذ انه اعتبر انه من الافضل الامتناع بين الفينة والفينة عن اعلان مضمون الرسالة الباباوية التى عرضت ارادة البابا - لكى لا تؤخر الرسالة الحملة كلها ؛

وهكذا لم يعرف الصليبيون بحرم البندقية . وبرفع الحرم عن الصليبيين
انفسهم ، اطلق البابا ايدى جنود الرب لاجل الاعمال اللاحقة .

بعد ان اجتاح الصليبيون ، حماة الدين المسيحى ، زادار ، امضوا الشتاء
فى المدينة . وفى اوائل سنة ١٢٠٣ وصل الى زادار مبعوثو فيليب من
شوابيا والامير الشاب الكسيوس . وقد عهد اليهم بان يدعموا مطالب الامير
الشباب امام زعماء الصليبيين . اعرب الدوج انريكو دندولو والمركيسز
بونيفاسيوس وبعض القادة الآخرين عن تأييدهم لمشروع الملك الالماني .
فان الزحف على القسطنطينية كان يتجاوب مع مصالح تجارالبندقية واصحاب
السفن وجميع رجال المال الذين كانوا يدركون انهم سيتمكنون ، اذا كان
الامبراطور البيزنطى حليفهم ، من ان يعززوا مواقع البندقية فى المشرق ،
ولربما من ان يقضوا نهائيا على مملكة الروم ذاتها باجبارها على الاستسلام
التام . ولم يضطر رسل المانيا الى بذل جهود كبيرة لاقتناع كبار زعماء
الصليبيين ايضا بالموافقة على توجيه الحملة الى البوسفور ، ذلك ان الحملة
قامت «لجل بعث العدالة» اى ، كما يزعم ، لاجل الاستعاضة على عرش
القسطنطينية عن المغتصب الكسيوس الثالث بقريبه الشرعى من آل
انجيلوس . كانت الحجة حسنة المظهر ، كما ان مطالب الامير الكسيوس
دعمتها وعود نقدية وسياسية مغرية . وتبين انه لم يكن بمقدور قادة
الصليبيين ان يصمدوا امام هذه الاغراءات فقرروا مساعدة الامير
الشباب .

فى شباط (فبراير) اعدوا الوثائق ، ووقعها قادة الصليبيين . وقد تعهد
الامير الكسيوس بان يدفع للصليبيين ، مقابل المساعدة التى سيقدمونها له
ولوالده ، ٢٠٠ الف مارك فضة . وفى حال نجاح المشروع ، وعد الكسيوس
باخضاع الكنيسة البيزنطية للكنيسة الرومانية ، وان يشترك شخصيا فى
الحملة الصليبية او بان يرسل ١٠ آلاف من العساكر لمدة سنة كما تعهد
بان يبقى على حسابه فى الاراضى ما رواء البحر خمسمئة فارس يتمكنون من
حمايتها .

كان بونيفاسيوس دى مونفيرات ، الذى اشترك بنشاط فى المؤامرات
السياسية السابقة ، التى خصص فيها للصليبيين دور المنفذين المباشرين
للمشاريع التى حاكها القادة ، اول من وقع الاتفاقية بصدد الزحف على
العاصمة البيزنطية . ثم ان المبلغ الكبير الذى وعد به وريث العرش
البيزنطى اجتذب الى جانب الخطة بعض الزعماء الآخرين من زمنيين ودينيين ،
فقد سبق ان تعهد بونيفاسيوس بالحصول على موافقتهم قبل ان احتاج الامر

الى توقيع الوثائق . كذلك وقع اساقفة تروا وسواسون وهالبرشتادت على اتفاقية الزحف على القسطنطينية المسيحية .

اما الفرسان البسطاء ورجال الدين من المرتبة الدنيا فقد لقيت بينهم مقترحات فيليب من شوابيا ومحسوبه البيزنطى التى تقلها المبعوثون قبولاً مزدوجاً . كان البعض منهم على استعداد للسير وراء القادة بسلا تحفظ ، بينما احتمال التحول الى اداة عمياء فى يد الطغمة البندقية ردع البعض الآخر مع ذلك .

وارتفع فى المعسكر عدد لا يستهان به من اصوات الاحتجاج . وقد قال الفرسان انهم «لن يوافقوا ابداً ، وان هذا يعنى العمل ضد المسيحيين وانهم لم ينطلقوا البتة فى الحملة لهذا الهدف وارادوا ان يمضوا الى سوريا» . ويفيد فيلاردوان ان كثيرين من بسطاء الناس فضلوا حتى الرحيل ، فكانوا يفرون على سفن التجار . وذات مرة غادر المعسكر زهاء ٥٠٠ شخص وهلكوا جميعهم فى البحر . ومضى فريق آخر فى البر . هكذا انخفض عدد الصليبيين . ومع ذلك ، استمر تحقيق مقاصد القادة . فقد كان سواد الفرسان لا يبالى اجمالاً باى شىء ، عدا تلبية مصالحه الارضية ، الدنيوية ، ناهيك بان قسماً كبيراً من الفرسان لم يكن يعرف على العموم اى شىء عن المؤامرة ، التى كانت بمثابة انحراف آخر عن هدف المشروع . ذلك لان احداً لم يكشف امام الصليبيين البسطاء سر مطبخ الاحداث الجارية الديپلوماسى .

الخطط الجديدة وموقف الباباوية

وهكذا غيرت الحملة الصليبية للمرة الثانية اتجاهها . ومن المؤكد ان المسيرة المعادية لبيزنطية قد اختيرت لا من باب الصدفة ولا بنتيجة تجمع ظروف عابرة من نوع فرار الامير الكسيوس ، ونشوء ديون الصليبيين للبندقية وما شاكل . فان هذه العوامل الصدفية والعابرة كانت تتطابق كلياً مع عموم جو العلاقات المتبادلة المتأججة نيرانها بين الغرب وبيزنطية . كانت امبراطورية الروم تسترعى منذ اكثر من ١٠٠ سنة انظار الصليبيين . وقد نهبوا سواء فى زمن غودفروا دى بويون ام فى زمن الحملتين الصليبيتين الثانية والثالثة . وغير مرة ، كما رأينا ، تعرضت القسطنطينية لخطر الغزو والفتح . وقد كانت للنزاعات مع بيزنطية ، التى رافقت الحملات الصليبية الثلاث الاولى (وحتى فى الحقبات الواقعة بين هذه الحملات ، كانت العلاقات بين الدول الغربية وبيزنطية علاقات عدائية

اساسا) اسباب عميقة تلخصت فى تصادم مصالح الطرفين فى البحر الابيض المتوسط . كذلك كان الاسياد والفرسان الغربيون يمتعضون ويتهيجون لان بيزنطية التى قلما ساعدت الصليبيين قد استخلصت لنفسها منافع كثيرة من مشاريعهم . وكانت تنتهج سياستها الخاصة الهادفة الى اضعاف الغرب الكاثوليكي والشرق الاسلامى سواء بسواء .

وكل هذا اسفر عن رأى متحيز تجذر بصورة راسخة جدا مفاده ان الروم الغدارين هم المذنبون كليا عن اخفاقات الحملات الصليبية ، وانهم يتحدون مع «الكفار» ويتآمرون معهم ضد جنود المسيح وضد دول الصليبيين فى سوريا ولبنان وفلسطين .

وقد اسهمت الكنيسة الكاثوليكية بقسط معين فى تدعيم تقاليد الحذر وعدم الثقة . ففي سياق القرن الثانى عشر كله ضخمت روما الحقن الدينى ضد المنشقين الروم ، محاولة بهذا النحو ان تعزز ادعاءاتها بالسيادة على بيزنطية . بل ان الاوساط الكنسية العليا فى الغرب اختلقت نظرية خاصة مفادها ان الحرب ضد المنشقين الارثوذكسيين ضرورية وشرعية بقدر الحرب ضد الهرطقة . وكان البابا اينوشنتيوس الثالث يشاطر وجهة النظر هذه ؛ يستفاد من اقوال مدون الاخبار الانجليزى رودجر من ويندور ان المسيحيين الذين رفضوا الخضوع لسلطنة القديس بطرس وعرقلوا تحرير الارض المقدسة كانوا بنظر البابا شرا من المسلمين . ونحو اوائل القرن الثالث عشر ، عندما نهضت مسألة العلاقات بين بيزنطية والدول الغربية بخارق الحدة نظرا لاشتداد توسع هذه الدول فى البحر الابيض المتوسط ، وعندما صارت امبراطورية القسطنطينية ذاتها فى عداد مواضع الغزو والفتح التى يستهدفها المعتدون الاقطاعيون المسيحيون الاوروبيون ، اوتيت دعاية الكنيسة الكاثوليكية اكملها . وقد هيات هذه الدعاية التربة المعنوية والروحية لكى تبرر مسبقا الضربة التى سرعان ما انزلها الفرسان بالقسطنطينية بمباركة الباباوية عمليا .

وبديهي ان البابا اينوشنتيوس الثالث لم يبخل فى توجيه التحذيرات الى الصليبيين حتى بعد التوقيع فى معسكر زادار على الاتفاقية بصدد الزحف على القسطنطينية . فقد ارسل اليهم البابا رسائل عديدة ، وارسل اليهم ممثليه وهدد جنود المسيح بالحرم واللعنة اذا ما تسببوا لامبراطورية البيزنطية بضرر . ولكن لم يكن بوسع البابا ان يتصرف بنحو آخر : فمن جديد صارت سمعة الكرسي الرسولى المعنوية والسياسة موضع شك . وقد اقنع اينوشنتيوس الثالث الصليبيين بشتى الصور والاشكال بان يمتنعوا عن

الاستيلاء على ممتلكات الروم ونهبها ، وبأن لا ينساقوا وراء الصدفة والضرورة الموهومة إذ ليس من شأنهم أن يحكموا في خطايا الكسيوس الثالث ومقربيه .

هذا بالقول . أما بالفعل ، فإن البابا ظل وفيا لنفسه ، فبين أسطر الرسائل الرهيبة بصدد الامتناع عن مهاجمة الأراضي المسيحية ، كان الحبر الأعظم المنافق يترك دائما فجوة لقادة الصليبيين تكفى لكي يفهموا أن بوسعهم أن يأملوا في دعمه الفعلي في حال مخالفة أوامر روما القاسية . وفضلا عن ذلك ، استحثهم البابا ، من حيث الجوهر ، على مهاجمة القسطنطينية . فكيف يمكن على غير هذا النحو فهم تحريمه المبهم والمكرر مرارا للاحاق الضرر بالمسيحيين والمرفق بهذا التحفظ : « إلا إذا شرعوا (أي المسيحيون - المؤلف) يقيمون بدون تبصر العوائق امام حملتكم او اذا ما ظهر سبب ما آخر عادل او ضرورى ، تعتبرون بموجبه ان من اللازم التصرف تصرفا آخر » ؟

كل شيء في موقف اينوشنتيوس الثالث واضح اقصى الوضوح بنظر المؤرخ . فان ابن اسحق الثانى انجيلوس ، الذى اتفق مع زعماء الصليبيين في شتاء سنة ١٢٠٣ قد قطع على نفسه جملة من الالتزامات المتطابقة كليا مع نوايا الباباوية ومشاريعها . لربما لم يكن اينوشنتيوس الثالث يتوقع من الامير الكسيوس الايفاء بوعوده . اغلب الظن ان البابا قد فهم ان المدعى الشاب بالعرش قد وافق على كل شيء دون ان يدرك ما اذا كان بمقدوره ان يفي بالتزاماته . واذا كان لم يدرك ، فان هذا لسوء حظه ! وعلى اكل حال ، لن يخسر الكرسي الرسولى حين يظهر الصليبيون قرب عاصمة المغتصب المتشدد ، فاذا لم يتسنى الحصول على تنازل في صالح روما من ابن الاخ الطائش ، فعلى الاقل من عمه ، لان هذا لن يرغب طبعاً في خسارة التاج . وكل هذا المشروع فتح بهذا النحو او ذاك آفاقا جديدة امام الالعب الديبلوماسية مع القسطنطينية في صالح الكورية الباباوية . فان موانع اينوشنتيوس الثالث المناقفة الموجهة الى الصليبيين - بعدم الحاق اى ضرر واهانة بالروم - لم تكن تساوى في الواقع اى فلس . وهذا ما كان يدركه جيدا ابعد معاصرى الاحداث نظرا . فان الراهب الالزاسى غونتر من بيريس الذى كتب مؤلفه من على لسان رئيس دير مارتن الذى تطوع للاشتراك (ولكن ليس رسميا) في وفد الصليبيين المرسل الى روما من زادار ، قد اعترف بكل صراحة بان الحبر الاعظم كان يكره القسطنطينية منذ زمن بعيد وكان يرغب شديد الرغبة في ان «يستولى عليها الشعب الكاثوليكي بدون

اهراق الدماء (٩ - المؤلف) اذا امكن» . اذن ، الاستيلاء على القسطنطينية بدون اهراق الدماء - مصطلح باباوى نموذجى - تلك كانت افكار اينوشنتيوس الثالث السرية ! ولقد صاغ الشاعر غيو البروفانسى من فرنسا الجنوبية افكاره بمزيد من الاستقامة حين قال فى قصيدته الهجائية «التوراة» ان البابا البخيل اينوشنتيوس الثالث سمح بالحملة الصليبية ضد المسيحيين الارثوذكس . وهذا الراى كان اقرب بكثير الى الحقيقة ، وعلى كل حال من حيث الجوهر .

فى نيسان (ابريل) ١٢٠٣ مضى الصليبيون من زادار الى جزيرة كورفو . وفى ٢٥ نيسان وصل الى جزيرة كورفو الامير الشاب ولى العهد ايضا قادما من زادار حيث وضعوا تحت تصرفه قادسين . وقد وقع الامير بيده على المعاهدة التى عقدها رسله من قبل باسمه ، ثم عكف على الرشوة لكى يوطد البارونات فى عزمهم . لم يكن المال متوفرا لوريث العرش الفار ، فاخذ يهب رؤساء الصليبيين بالتسليف . فقد وعد كونت الفلاندر ، كما جاء فى اخبار مدون الاخبار السورى ارنول ، بـ ٩٠٠ مارك ، والكونت سان بول بـ ٦٠٠ مارك والنخ . . . وقد اعطى كمبيالات من هذا النوع بمبلغ لا يستهان به . وكان لا بدّ لسخائه ان يحرك قلوب البارونات المليئة «حنانا ورحمة» .

وهنا ايضا حاول بعض من بسطاء الصليبيين وبعض من وجهائهم ان يقاوموا الانعطاف الجديد فى سير الامور . فبعد صياغة المعاهدة مع الامير الشاب الكسيوس بدأ التدمير والاستيلاء من جديد فى صفوف المقاتلين . لم يشأ الفرسان العاديون ان يسلموا بان تعود جميع ثمار الحملة الى بعض كبار الاسياد والبندقين فقط . ثم ان واقع ان خيوط المشروع القيادية كانت فى يدى بونيفاسيوس دى مونفيرات وقلة من القادة من محيطه لم يكن ليرضى قسما من القادة العسكريين الآخرين . وقد سبق ان غادر البارون البارز سيمون دى مونفور مع فريق من اتباعه قوات الصليبيين فى زادار * . وفى كورفو حيث اقام الصليبيون ثلاثة اسابيع تكرر وضع مماثل ، فان كثيرين اعلنوا عن عزمهم على البقاء فى الجزيرة لان القضية تبدو لهم «طويلة جدا جدا وخطرة جدا جدا» . وفيما بعد ، حسب الفرسان الذين التحقوا بالمعارضة

* والها لباطلة تماما محاولات عدد من المؤرخين الغربيين تصوير مسلكه ناجما عن العقائد الدينية والتمسك بالاخلاق الكاثوليكية . فمعلوم ان الخوف من الله لم يمنع سيمون دى مونفور بعد بضع سنوات من ذبح واحراق مواطنيه فى فرنسا الجنوبية !

(ويذكر فيلاردوان اسماء ١٤ بارونا كانوا يترأسون المعارضة) ان يبحروا الى ايطاليا الجنوبية ومنها الى سواحل سوريا ولبنان .

لا مبرر للظن ان اخصام الاتفاقية الموقعة مع الرسل الالمان قد عارضوا لاعتبارات دينية ، تغيير اتجاه الحملة الصليبية . فان المعارضة ، كما يشير العالم البلغاري بوريسلاف بريموف عن حق وصواب ، انما مردها في المقام الاول الى مخاوف قسم من الفرسان والاسياد من ان تستولى حفنة من القادة والبندقيين بصورة رئيسية على الخيرات المادية التي ستقع في ايدي الصليبيين في حال النجاح ، الامر الذي تحقق فيما بعد بالفعل .

وقد دعا رئيس الدير دي لوتشيديو ممثل البابا ووكيله المفوض ، بكل حزم وعزم ، الى الاعتراف بالمعاهدة مع وريث العرش البيزنطي ، واجبر المستائين على ان يؤكدوا ويدعموا بالقسم موافقتهم على شروط المعاهدة ، اذ ان مساعدة الامير وريث العرش خير وسيلة لمساعدة الارض المقدسة . وتواجد محبذون آخرون لمشروع القسطنطينية . فان بونيفاسيوس دي مونفيرات وبودوان من الفلاندر ولويس من بلوا ، وغيرهم ، اقنعوا انصار المعارضة واستمالوهم . ويصف فيلاردوان بأسلوب حي مشهدا دراميا وقع في كورفو عندما تلاقى قسما القوات الصليبية في احد الاودية . ركع البارونات الذين يؤيدون الزحف على القسطنطينية امام اقدام الذين كانوا يعارضون هذا الزحف : «وبكوا كثيرا وقالوا انهم لن يفارقوا اماكنهم طالما الباقون لا يعدون بعدم التخلي عنهم» .

في حاصل المفاوضات (التي جرت ببالح التوتر ، كما يستفاد من جميع الدلائل) اتخذ حل وسط ، فقد وافق صليبيو المعارضة على البقاء مع الآخرين حتى انتهاء مدة المعاهدة مع البندقية اي حتى ٢٩ ايلول (سبتمبر) ١٢٠٣ . وبعد ذلك ، «دخل الفرسان السفن وسيقت الخيول الى اليوسيه» وفي ٢٤ ايار (مايو) ١٢٠٣ غادر الاسطول الصليبي كورفو . وبعد ان تجاوز البيلوبونيز ، اتجه من جزيرة اندروس الى القسطنطينية .

استقرار الصليبيين في القسطنطينية . النزاع مع الامبراطورين . انتفاضة الفقراء

كان امام الصليبيين خصم ضعيف نسبيا . فان الخراب كان قد حل بسكان بيزنطية الكادحين من جراء الاتاوى والضرائب المتصاعدة ، وتعسف الحياة ، والحروب اللامتناهية . وكانت واردات الدولة تتناقص بلا توقف . وادى تحكم

التجار الايطاليين الى انحطاط تجارة بيزنطية بالذات (وكان ذلك ملحوظا في القسطنطينية اكثر مما في اى مكان آخر) التى كانت مصدرا مهما لتدفق الاموال على الامبراطورية . وكان كبار الموظفين يمدون ايديهم الى خزينة الدولة بلا حياء مفرغين خزانة الاباطرة فوق ما هى عليه من هزال . وكل هذا ادى حتما الى ضعف جيوش الامبراطورية البيزنطية . وكان البيزنطيون قد اعتادوا الاستعانة باسطول البندقية ، ونحو اوائل القرن الثالث عشر لم يكونوا يملكون او يكاد اسطولا خاصا بهم . ويروى نيقيتاس الخونياتى ان ميخايل ستريفنا ، قائد الاسطول آنذاك ، وقريب الكسيوس الثالث ، «كان يملك عادة تحويل المراسى والدفات وحتى الاشرعة والمجاديف ايضا الى ذهب ، وقد حرم اسطول بيزنطية من السفن الكبيرة» . كذلك كانت قوات بيزنطية البرية قليلة التعداد . وعندما وصلت الى الكسيوس الثالث الخامل الانباء القائلة ان اللاتين احتلوا زادار ، اكتفى باصدار الاوامر «باصلاح ٢٠ سفينة عفنة نخرها الدود» .

ومنذ اواخر القرن الثانى عشر كانت الآلة الادارية فى الامبراطورية مختلة تماما ، - وهذا فى جو من النضال الاجتماعى المتوتر فى داخل البلاد ، فى الوسط وفى الاطراف ، وفى جو من المخاصمات المتواصلة بين مختلف كتل كبار الموظفين وكبار ملاكى الاراضى ، وفى جو من الخسائر الاقليمية المتواترة فى اوروبا وفى الشرق . ولم يكن امتلاك انقاض دولة كانت جبارة فيما مضى ليواجه الصليبيين بمصاعب كبيرة جدا . صحيح ان عددهم كان قليلا - نحو ١٠-١٢ الفا - ولكن القسطنطينية لم تكن تستطيع ، والحق يقال ، ان تأمل الا فى تحصيناتها .

وفى ٢٣ حزيران (يونيو) ظهر اسطول البندقية الذى يحمل المحاربين فى مكلا القسطنطينية . وفيما بعد ، تذكر فيلاردوان الانطباع الباهر الذى أحدثه فى نفوس الصليبيين منظر المدينة الذى تكشف لهم : «وهكذا ، لو تعرفون ، حدقوا طويلا فى القسطنطينية ، اى اولئك الذين لم يروها يوما من قبل ، لانه لم يكن بوسعهم ان يتصوروا انه يمكن ان توجد فى مكان ما من الدنيا مدينة بمثل هذا الغنى . . . ولم يكن بوسع احد ان يتصور ، لو لم ير بام عينيه ، طول وعرض المدينة التى كانت تهيمن بين جميع المدن» . مضى الاسطول بمحاذاة الساحل الاسيوى من البوسفور وتوقف على بضعة كيلومترات من العاصمة البيزنطية ، قرب سكوتارى . وحاول الامبراطور الكسيوس الثالث بواسطة رسوله اللومباردى نيكولو روسى ان يستبعد بالوسائل الدبلوماسية الخطر الوشيك ووعد الصليبيين بالاسهام فى استرجاع الارض المقدسة اذا

تركوا بيزنطية وشأنها . ولكن لا الوعود ، ولا التهديدات اسفرت عن النتيجة المنشودة . ووجه البارونات ، بواسطة الرسول الامبراطورى ، انذارهم : يجب على المغتصب ان يتنازل عن العرش والا فلا يلومن الا نفسه .

فى ٥ تموز (يوليو) ١٢٠٣ ، اخترقت قوادس البندقية السلسلة التى تسد مدخل القرن الذهبى (وهو خليج يدخل عميقا فى البر كأما يقسم القسطنطينية الى قسمين) ، وابادت السفن البيزنطية العفنة والمنخورة ، ودخلت هذا المركز الاستراتيجى المهم من دفاع المدينة . ونزلت فصائل الصليبيين فى ضاحية غلطة وهاجمت تحصينات العاصمة ، التى كانت تدافع عنها قوات جمعت بتسرع . وفى اليوم الثانى تسنى للصليبيين ان يحتلوا برج غلطة . وعمليا لم يقبل جنود الكسيوس الثالث القتال ، بل اسرعوا فى التخفى وراء اسوار المدينة .

قسم مجلس البارونات جميع الصليبيين الى سبع فصائل وقرر ان يهاجم القسطنطينية من البر ومن البحر فى آن واحد . ولم تستمر العمليات الحربية اكثر من عشرة ايام . والى جانب الانجليز والدانماركيين من مرتزقة الروم ، اشترك فى الدفاع عن القسطنطينية المعمرون البيزيون ، اخصام البندقيين .

لم يستطع حماة المدينة ان يصدوا ضغط الفرسان . وقد دارت رحى الاشتباك الحاسم فى ١٧ تموز (يوليو) . واستطاع المقاتلون المتواجدون فى السفن التى سيقى الى السور لصقا (علما بانهم ربطوا السفن اثنتين اثنتين لاجل التأكد من الامانة) احتلال زهاء عشرين برجاً . ولدرء هجمات مرتزقة البيزنطيين المعاكسة ، احرق الصليبيون اقرب الانشاءات ، ففضى الحريق على بضعة احياء . وسرعان ما وجه الكسيوس الثالث ضد المهاجمين احتياطاته الاخيرة من الفرسان والمشاة . وواجه الصليبيون واعدائهم بعضهم بعضا وجها لوجه استعدادا للقتال ، ولكن فصائل الامبراطور البيزنطى تخلت عن مواقعها فجأة لما فيه دهشة الفرسان الصليبيين ، حتى دون ان تحاول الدخول فى القتال . واصبح واضحا للامبراطور ان مرتزقته لن يصمدوا امام الغزاة الذين وطدوا العزم ، فساقهم الى المدينة . ثم اخذ الامبراطور قيم الدولة وفر من المدينة .

وعمليا استسلمت القسطنطينية التى يبلغ عدد سكانها ١٠٠ الف امام عصابة من اللصوص والنهابين الغربيين الذين قاموا باعمالهم اللصوصية بحجة حسنة المظهر ، حجة اسقاط المغتصب .

فى اليوم التالى ، فى ١٨ تموز (يوليو) ١٢٠٣ ، اخلى سبيل اسحق الثانى

انجيلوس الاعمى من السجن ، ونودى به امبراطورا ورافقه الى قصر فلاحنا .
وفى القسطنطينية كانوا يفترضون انه يمكن ، بتنصيبه على العرش ، تجنب
فظائع زحف «البرابرة» . وبالفعل ، ماذا بقى لهم الآن ان يفعلوه فى العاصمة ؟
ذلك انهم ، حسب زعمهم ، كانوا لا يريدون غير اعادة الحاكم الشرعى الى
العرش !

ولكن الوضع تعقد لانه كان على هذا الحاكم ان يدفع للفرسان لقاء
الخدمات التى قدموها له ، بيد ان خزينة الدولة كانت فارغة . ولهذا لم
يقدم اسحق الثانى نفسه فى الحال على الاستجابة لحماته فى مسائل النقود .
فبعد مرور بضعة ايام على المناداة باسحق الثانى امبراطورا ، دخل ولى العهد
الكسيوس المدينة برفقة الامراء الصليبيين . وفى اول آب (اغسطس) نودى
به شريكا فى الحكم لوالده الاعمى . واقنع الامبراطور الشريك الذى اتخذ اسم
الكسيوس الرابع والده بايفاء الالتزامات التى قطعها على نفسه فى شباط
(فبراير) بجوار زادار ، ولكن لم يكن لدى اسحق الثانى والكسيوس الرابع مع
ذلك ما يدفعانه «لباعثى العدالة» . فاقام الصليبيون معسكرهم فى احدى
ضواحي القسطنطينية . واستطاع الامبراطوران ان يجمعا نصف المكافأة
الموعود بها - ١٠٠ الف مارك - عن طريق المصادرات والابتزازات وفرض
الضرائب الجديدة وباتخاذ اجراءات استثنائية اخرى . ولكن هذه الاجراءات
كانت عصا ذات طرفين ، سيفاً ذا حدين ، فقد استثارت فى العاصمة المزيد
والمزيد من الاستياء ، وكان رجال الدين الارثوذكس يهيجون بصورة خاصة .
بينما كان الفرسان ، مثلهم مثل البندقيين ، يتحرقون للحصول على
النقود الباقية . ولما لم يجد اللاتين اى نفـع من الامبراطورين ، شرعوا
يفتشون بانفسهم عن الوسائل لتلبية شهواتهم .

كانت القسطنطينية مدينة فخمة وغنية . كتب روبر دى كلارى : «كان
هناك وفرة من الثروات ، وكثرة من الانيسة الذهبية والفضية ، وكثرة من
الحجارة الكريمة الى حد انه كان يخيل من باب العجائب حقا نقل مثل هذه
الثروة الرائعة الى هنا . منذ خلق العالم (يصيح هذه الفارس من بيكارديا
بدهشة ساذجة) لم تُرَ ولم تجمع كنوز مماثلة بمثل هذه الروعة والقيمة . . .
وفى اغنى مدن الارض الاربعين ، كما اعتقد ، لم تكن ثمة من الثروات بقدر ما
كان منها فى القسطنطينية !» . ان الصليبيين الذين لا يميلون الى التمتع
بالنواذر المتحفية فى القسطنطينية ، شرعوا ، بموافقة العاهلين البيزنطيين
العاجزين الضمنية ، فى نهب كنائس القسطنطينية . وفى اواخر آب (اغسطس)
احرقت عصابة من الفرسان كانت تنهب فى القسم الشرقى من المدينة جامعا

قائما هناك فانتشرت النار وقضى حريق جديد على نصف القسطنطينية او يكاد . كتب فيلاردوان : «ما كان بوسع احد ان يعدد لكم الضرر الذى الحقه الحريق ، ولا الاموال ولا الثروات التى هلكت ودفنت هناك ، او ان يحكى عن الرجال والنساء والاولاد الكثيرين الذين احترقوا هناك» .

ان الروم الذين امتعضوا سابقا من سياسة الامبراطورين الاب والابن اللذين باعا نفسيهما من اللاتين قد انفعلوا واضطربوا ، حسب تعبير نيقيتاس الخونياى «مثل بحر متموج ولا حد له فى حال ربح قوية ، مهددين بالفتنة» . واخذت تتكاثر المصادمات فى المدينة بين السكان المحليين والغرباء . واهتز عرش العاهلين الذى اعاده الفرسان . وفى آخر المطاف ، اضطر الكسيوس الرابع الذى كان يقضى معظم اوقاته فى التسلية ، بينما كان والده الذى لم يكن يتمتع فعلا باية سلطة ينفرد مع الرهبان والمنجمين ، الى ابلاغ زعماء الصليبيين على المكشوف انه يرفض تنفيذ شروط اتفاقية زادار . ناهيك بانه توقف تزويد الصليبيين بالمؤن . فاذا الدوج دندولو الغاضب ، كما يروى روبر دى كلارى ، يرمى فى وجه الكسيوس الرابع كلمات غاضبة : ذات مرة سحبه الفرسان من الوحل ، ولكنهم سيدفعونه الآن من جديد الى الوحل . وهكذا اعلن الفرسان عمليا الحرب على حليفهم الامبراطورين اللذين لم يبررا الآمال المعقودة عليهما . وامام جنود المسيح لم يبق سوى سبيل واحد هو ان يستخلصوا بانفسهم «حقوقهم» بالاساليب التى يستطيعون اللجوء اليها . لقد استعجل زعماء الصليبيين فى حل المشكلة .

وفى هذه الاثناء وقعت فى العاصمة احداث عاصفة . وفى اواخر كانون الثانى (يناير) ١٢٠٤ نشبت فيها انتفاضة شعبية ضد الكسيوس الرابع كان سببها «حرق المدينة ونهب الدير» ، كما يحكى شاهد العيان الروسى للاحداث فى مؤلفه «قصة فتح تسارغراد من قبل الفرياغ» (هكذا كانوا فى روسيا يسمون البندقيين) . وقد حاول الامبراطوران القابعان وراء اسوار قصر فلاخرنا ان ينقذا العرش فى اللحظة الاخيرة بمساعدة الصليبيين . فطلبوا من زعمائهم توجيه الفصائل الى المدينة لاعادة النظام . ولكن الطلب وصل متأخرا جدا . فقد تعاظمت الانتفاضة فى المدينة .

ان الاعيان الذين كانوا لامد قريب يؤيدون آل انجلوس قد تخوفوا من «ادخال الفرياغ» . وبنتيجة مؤامرة ، تم اسقاط اسحق الثانى والكسيوس الرابع . اما المبادر الى المؤامرة فكان اقرب مستشارى الكسيوس الثالث وصهره ، الموظف الكبير الطموح ، الكسيوس دوكا الملقب مورشوفل (المقطب الحاجبين - فقد كان حاجباه مقطبين دائما ، كما يوضح نيقيتاس الخونياى) ،

واجلسست الارىستقراطية مورسوفل على العرش بأمل ان يستطيع رجل البلاط الهمام هذا ، اذ يحتذى جزمة الفاسيلفس الحمراء ، ان ينظم المقاومة المسلحة فى وجه اللاتين . وقد اتخذ الامبراطور الجديد لنفسه اسم الكسيوس الخامس .

ان الوضع الذى اضطر الكسيوس الخامس الى العمل فيه كان معقدا جدا . فقد دفع الشعب الى العرش صنيعته ، المقاتل البسيط نيقولا كاناف . وبارادة الشعب توجه فى كنيسة آجيا صوفيا ، - ولكن ، والحق يقال ، بدون اشتراك البطريرك ، اى «ليس حسب الشكل» . وانقسمت القسطنطينية ، - كما يروى نيقيتاس الخونياى الذى وصف بالتفصيل انتفاضة كانون الثانى ١٢٠٤ - الى معسكرين : من جهة ، الاعيان الذين التفوا حول الكسيوس الخامس مورسوفل ، ومن جهة اخرى ، الشعب ، الفئات الدنيا فى المدينة ، المائلة الى نيقولا كاناف . وفى هذا الوقت بالذات ، لم يكن الصليبيون يقفون معسكرا عند اسوار المدينة وحسب ، بل كانوا كذلك يتواجدون فى داخل العاصمة حيث كانوا ينصرفون الى اعمال النهب والسلب .

فى البدء حاول الامبراطور الجديد الكسيوس الخامس ان يكسب ثقة فقراء القسطنطينية . وقد اقترح على نيقولا كاناف تقاسم السلطة معه . الا ان هذه الخطوة الديموغاجية لم تؤثر فى الشعب . ولكن حدث امر آخر : فان سكان المدينة الميسورين الذين كان يعود اليهم ، على ما يبدو ، الدور القيادى فى انتفاضة القسطنطينية ، قد اقدموا على الخيانة . واذ ذاك استغل الكسيوس الخامس الارتباك الذى شمل الفقراء فاعتقل كاناف الذى حمل اللقب الامبراطورى ثلاثة ايام فقط ووضع حدا «للرعاع» المتمردين . وقبل ذاك اعتقلوا الكسيوس الرابع . وبأمر من الكسيوس الخامس ، خنقوا فى السجن نيقولا كاناف والامبراطور السابق . اما اسحق الثانى انجيلوس ، فقد مات ، اذ انه لم يتحمل المصائب التى حلت به .

بعد ان نكل مورسوفل بالانخام وقمع انتفاضة العامة - (وهذه الانتفاضة بالذات تفسر الكثير فى سقوط بيزنطية الذى حدث بعد ذلك بقليل من جراء التناقضات الاجتماعية والسياسية التى كانت تمرقها) عكف على ترميم تحصينات القسطنطينية ، كما حاول ان ينشئ قوات مدنية من سكان المدينة المتطوعين . واقترح على اللاتين بشكل انذارى مغادرة ارض بيزنطية خلال اسبوع .

كل هذا العزم الظاهرى لم يكن يفعل غير ان يموه ضعف سلطة الدولة الشديده . وفى الاوساط العليا لم تتوقف الخلافات والنزاعات . ولم يكن ثمة

تقود . والمرتزقة الذين لم يقبضوا اجورهم زمنا طويلا ، لم يكونوا يبدون اية رغبة فى القتال رغم وعدهم بدفع الاجور قريبا . اما الشعب البسيط فلم يكن يعتزم بالاحرى ان يدعم خلف الامبراطورين من آل انجيلوس . ان معلمى الحرف ، والصناع ، والتجار الصغار ، وفقراء العاصمة قد كابدوا الكثير من الملوك المستبدين ، وتعذبوا كثيرا من تعسف السرايين الموظفين وتجاوزاتهم . ان سكان القسطنطينية الذين دفعهم الى حد اليأس نير الطغمة الاقطاعية البيروقراطية الحاكمة قد تملكهم اللامبالاة الكاملة حيال مصائر الامبراطورية . ولم تسفر محاولات انشاء قوات مدنية عن اى شىء . وان الصليبيين الذين سبق ان سنحت لهم الفرصة فى سنة ١٢٠٣ للتحقق من ضعف قدرة حامية القسطنطينية على الدفاع ، كانوا مطلعين كذلك ، بلا ريب ، على الوضع الجديد فى العاصمة ، فأجروا الاستعدادات الاخيرة لاقتحامها لتسرعهم فى «اخذ ما لهم» .

مشروع تقاسم بيزنطية . الاستيلاء على القسطنطينية

ان منظر المدينة الشاسعة والغنية المنبسطة امام الفرسان قد الهب رغائبهم الاغتصابية والعدوانية . وقبل الهجوم الاخير ببضعة اسابيع ، وقع انريكو دندولو وبونيفاسيوس دى مونفيرات وغيرهما من قادة الصليبيين ، فى آذار (مارس) ١٢٠٤ معاهدة بشأن تقاسم التركة البيزنطية التى كانوا يرونها فى ايديهم . وفى هذه الوثيقة رسموا بالتفصيل شروط تقاسم الغنيمة المقبلة - الاموال المنقولة ، والاراضى ، والسلطة فى الدولة الجديدة التى ازمع الاسياد الغربيون تاسيسها عوضا عن بيزنطية . وقد حرص البندقيون فى المقام الاول على اكثار امتيازاتهم التجارية القديمة وعلى تأمين حصنة الاسد لانفسهم - ثلاثة ارباع الغنيمة كلها ، بينما كسان ينبغى على الصليبيين الباقين بموجب المعاهدة ، ان يكتفوا بالربع .

كانت معاهدة آذار (مارس) تنص على اسس بناء الدولة وعلى جميع التفاصيل المتعلقة بتقسيم بيزنطية اقليميا . وقد تقرر ان يكون للدولة الجديدة بعد فتح القسطنطينية امبراطور منتخب ، وان يكون حق انتخابه من صلاحية لجنة من ١٢ شخصا - ستة بندقيين وستة فرسان . فان رجال المال من جمهورية القديس مرقس لم يرغبوا فى يأخذوا على عاتقهم اعباء شرف شغل التاج الامبراطورى . وكانت تروق لهم كليا المناصب القيادية فى الادارة الكنسية الغنية الدخل ، ولهذا ادخلوا فى المعاهدة ، بناء على الحاح الدوج ،

شرطا مفاده ان الجانب الذى لن ينتخب الامبراطور من عداده يشغل منصب بطريك القسطنطينية الكاثوليكي الرومانى . وجميع الاسياد ، ما عدا الدوج ، سيكونون ملزمين بحلف يمين التبعية للامبراطور الجديد .

نصت المعاهدة على منح الامبراطور ربع اراضى بيزنطية ، وعلى تقاسم الارباع الثلاثة الباقية مناصفة بين البندقيين والفرسان الصليبيين (ثلاثة اثمان لكل من الفريقين) . وهكذا ابقى البندقيون للصليبيين اللقب الامبراطورى الفارغ واعباء السلطة التى كان من المستحيل تطبيقها ، واحتفظوا لانفسهم ، كما لاحظ ماركس فى «مقتطفات متسلسلة» ، بمنافع المشروع الفعلية .

لقد عنى عقد المعاهدة ان الاعداد الديپلوماسى لفتح القسطنطينية قد انتهى . وسرعان ما انتهت الاستعدادات العسكرية . وضعت آليات الحصار على اهبة الاستعداد ، وتم ترسيخ السلاالم وتوزيع المجانيق ، والمقاليع . ولم يعد زعماء الصليبيين يخفون نيتهم فى الاستيلاء على القسطنطينية بالقوة .

فى ٩ نيسان (ابريل) ١٢٠٤ قام الفرسان باول محاولة لاقتحام المدينة . وهذه المرة قرروا ان يوجهوا الضربة الى القسطنطينية من البحر . رد البيزنطيون الضربة . فمن اسوار المدينة انصب على المهاجمين سيل من السهام والحجارة . وقد زعم فيلاردوان بتبجح فى يومياته ان الفرسان لم يخسروا طوال زمن الحصار كله سوى رجل واحد . اما فى الواقع ، فقد تكبدوا خسائر افدح . ففى ٩ نيسان وحده ، مثلا ،لقى زهاء مائة مقاتل صليبي مصرعهم ، كما يشهد شاهد عيان روسى ، لدن محاولة الاستيلاء على احد الابراج . واخفق الهجوم .

بعد ثلاثة ايام قام الفرسان بعملية انقضاى ثانية ، فعادت عليهم بالنصر . فبواسطة عبّارات القيت على الاسوار ، تسنى للفرسان ان يصعدوا اليها ، وفى الوقت نفسه احدث مقاتلون آخرون ثغرة فى السور ثم حطموا ثلاث بوابات من الداخل . واقتحم الصليبيون المدينة واجبروا جنود مورسوفل على التراجع . اما مورسوفل نفسه ، فقد فر من المدينة تحت جناح الليل . وللمرة الثالثة احرق «باعثو العدالة» القسطنطينية .

فى اليوم التالى ، فى ١٣ نيسان ١٢٠٤ ، سقطت القسطنطينية ضحية الغزاة الغربيين . لم يلق الصليبيون فيها اية مقاومة . ويروى روبر دى كلارى ان الفرسان الذين دخلوا العاصمة البيزنطية وظنوا ان القتال سيحدث بمزيد من الحدة ، قد تخندقوا فى معسكر قرب الاسوار ، ولم يتجاسروا على التقدم نحو وسط المدينة . ولكم كانت دهشتهم عظيمة عندما راوا فى اليوم التالى ان سكان المدينة لا ينوون الدفاع عن عاصمتهم ! وبالخطوط نفسها

تقريبا يصف فيلاردوان ايضا الوضع الذى نشأ فى اليوم التالى بعد دخول الصليبيين القسطنطينية . فهو يقول ان الجميع فى صفوف القوات المسلحة اعدوا الاسلحة - الفرسان وحملة اسلحتهم- كان كل يفكر فى المعركة المقبلة مفترضا انه ستدور رحى قتال لا سابق لضرأوته . ولكن ماذا حدث ؟ لم يلق الصليبيون فى المدينة احدا يقاومهم . وبالفعل لم يكن ثمة فسى المدينة من يقاتلهم . فان العامة فى القسطنطينية لم يرغبوا فى الذود عن دولة تجسد بالنسبة لهم الظلم الاجتماعى . وعندما حاول الارىستقراطى البيزنطى قسطنطين لاسكار الذى نادى به رجال الدين بتسرع امبراطورا ان يدعو السكان مع ذلك الى حمل السلاح ، اصطدم بسور من اللامبالاة .

وهكذا تسنى لزهأ اقل من خمسة عشر الفا من الصليبيين فى نحو ثلاثة ايام ان يستولوا على مدينة من اعظم مدن العالم آنذاك . وحتى الغزاة انفسهم الذين كانوا يعرفون اى عدو ضعيف يواجهون قد اذهلهم هذا النجاح الذى احرزوه بمثل هذه السرعة وهذه السهولة النسبية . وفيما بعد كتب جوفروا فيلاردوان : «واعلموا انه لم يكن ثمة شجاع لم يرتعش فؤاده ، ولم يبد له من باب العجائب ان يتحقق مثل هذا العمل العظيم بمثل هذا العدد من الناس الذى لا يصعب تصور عدد اقل منه» .

ويقدر فيلاردوان النسبة بين قوى الغزاة الذين حاصروا واحتلوا العاصمة البيزنطية وبين قوى المدافعين عنها بنسبة ١ الى ٢٠٠ ويلاحظ انه لم يحدث قط من قبل ان حاصرت مثل هذه الحفنة من المقاتلين مثل هذا العدد الضخم من الناس فى اية من المدن . كذلك يعتبر روبر دى كلارى الاستيلاء السهل على القسطنطينية عملا غير عادى ، وينعته مرتين بالمعجزة .

ان سر «المعجزة» التى اذهلت ايضا الكثيرين من المؤرخين اللاحقين كان بسيطا . فان تفاقم الصراع الاجتماعى والسياسى فى الامبراطورية البيزنطية الذى بلغ آنذاك الذروة انما هو التفسير الحاسم لسقوط القسطنطينية غير المتوقع من الوهلة الاولى ولسحق الامبراطورية بمجملها . من المؤكد انه كانت ثمة اسباب اخرى ، ملموسة تماما امنت النصر للصليبيين . فقد ساعدهم بعض الارىستقراطيين الروم وفريق من تجار القسطنطينية . وكان قسم من ملاكى الاراضى المحليين يبيعون من زمان بعيد منتوجات ضياعهم من التجار اللاتين ، وكان بعض التجار البيزنطيين يقومون بدور الوساطة فى هذه الصفقات . وهؤلاء الناس كان اكثر ما يهتمهم هو الاحتفاظ فى المستقبل بالعلاقات التجارية مع اللاتين . وبالضبط فى دعم هؤلاء البيزنطيين الذين كانت مصالحهم الاقتصادية ترتبط بمصالح اللاتين وتتشابك بها بوثوق ،

كان يأمل الصليبيون ولاسيما منهم ، بالطبع ، البندقيون ، حين تقاسموا فيما بينهم سلفا يمثل هذا اليقين ثروات القسطنطينية فسي آذار (مارس) ١٢٠٤ وهذه الآمال تبررت .

حتى فتح العاصمة البيزنطية بمصادقة الكنيسة الكاثوليكية . وعشية اقتحام القسطنطينية غفر الاساقفة والكهنة المرافقون للمقاتلين ، بدون اي اعتراض ، خطايا المشتركين في المعركة المقبلة ، وعززوا بالتالي ايمانهم في ان الاستيلاء على العاصمة البيزنطية انما هو عمل مشروع ويرضى الرب . وينقل جوفروا فيلاردوان بالتفصيل خطابات رجال الدين في مجلس الزعماء المنعقد عشية الهجوم . كتب مدون الاخبار الفرنسي ، المتمالك عادة حين يسلط النور على موقف الباباوية : «الاساقفة وجميع رجال الدين ، جميع من كانوا يخضعون لاوامر الحبر الاعظم ، كانوا متفقين - وقالوا ذلك للبارونات والحجاج - على ان من اقترف هذا القتل (قتل الكسيوس الرابع - المؤلف) لا يحق له امتلاك الاراضي» . واكد رعاية القوات الصليبية الروحيون بالحاح ومثابرة ان الحرب المقبلة حسنة وعادلة . وجميع الذين كانوا يعتزمون فتح هذه الارض واخضاعها لروما وعدوهم بغفران جميع خطاياهم . ويضيف فيلاردوان مخاطبا القراء : «واعلموا ان هذه المواعظ كانت دعما كبيرا سواء للبارونات ام للفرسان» .

«اجتياح القسطنطينية» . ذلك اسم مدونة من مدونات الاخبار اللاتينية تصف افعال الفرسان الغربيين للصوصية في العاصمة البيزنطية . وبالفعل ، ما ان استولى الفرسان على القسطنطينية ، حتى انقضوا على القصور والكنائس ومستودعات التجار ، وقد احقدتهم الانتظار الطويل للغنيمة وشجعهم رعاتهم الروحيون . ونهبوا البيوت ، ونهبوا المدافن والاضرحة ، وهدموا آثارا فنية تفوق التقدير ، واحرقوا كل ما كانت تطاله ايديهم . لقد احرق الغزاة البيوت لكي يطردوا منها سكانها ويدروا بالتالي معارك الشوارع . ودام جنون المقاتلين العاصف ، واغتصاب النساء ، وحفلات السكر والعريضة ثلاثة ايام . وقتلوا بضعة آلاف من سكان القسطنطينية .

فيما بعد حاول كثيرون من مدوني الاخبار ان يخففوا بجميع الوسائل من حدة اجتياح المدينة المسيحية ، ويبرروا الصليبيين . فان روبر دي كلاري ، مثلا ، قد حاول ان يؤكد للقراء انه «عندما تم الاستيلاء على المدينة بمثل هذه الروعة ودخلها الافرنج ، تصرفوا هناك بكل هدوء» ، ولم تحدث ، حسب زعمه ، اية من اعمال الشطط ، فان الافرنج لم يتسببوا باى ضرر واية اهانة ، لا للفقراء ولا للاغنياء . ويزعم غونتر من بيريس ان الفرسان

كانوا يعتبرون على العموم من المعيب وغير الجائز للمسيحيين الهجوم على المسيحيين وارتكاب اعمال القتل والنهب والسلب والحرق بينهم . ولكن كثيرين من شهود العيان يشهدون بالعكس . فان فيلاردوان يكتب بوضوح ان الصليبيين استولوا على غنيمة هائلة وقتلوا كثيرين من الناس ، وهو يقول : «لم يكن ثمة للقتلى وللجرحى عدد ومقياس» . وهناك شاهد عيان آخر ، روى بالتفصيل عن مذبحة سنة ١٢٠٤ ، هو نيقيتاس الخونيائي ، وقد كتب فيما بعد ، كأنما تذكر بعجب وذهول المشاهد الوحشية التي تواتر آنذاك في القسطنطينية : «لا اعرف بما ابدأ وبما انهى وصف كل ما فعله هؤلاء الناس الكفار» .

وحقا وفعلا لم يعرف جشع الفرسان حدودا . وكان البارونات الاعيان وتجار البندقية والفرسان وحملة الاسلحة اخذوا يتنافسون ويتبارون في نهب وتبديد ثروات العاصمة البيزنطية . وقد قال نيقيتاس الخونيائي انهم لم يرحموا احدا ولم يتركوا لاحد ما كان عنده . بل انهم مسوا مدافن الاباطرة البيزنطيين بما في ذلك تابوت الامبراطور قسطنطين الاول ، حيث سرقوا مختلف المجوهرات . ولم تتجنب ، لا الكنائس ولا اشياء العبادة ، ايدي الصليبيين الجشعة . وكان الصليبيون كما يروى مدونو الاخبار ، يحطمون المدافن والنعوش حيث ترقد رفات القديسين ويأخذون منها الذهب والفضة والاحجار الكريمة ، «ولم يكونوا يابھون للرفات» ، فقد كانوا يرمونها ، كما كتب نيقيتاس الخونيائي ، «في اماكن كل خساسة وسفالة» . ولم تستثن حتى كنيسة آجيا صوفيا . فقد نهب الفرسان كنوزها التي تفوق التقدير . ومنها سلبوا «الآنية المقدسة» والمصنوعات الفنية الرائعة ، والفضة والذهب اللذين كانت ملبسة بهما الكراسي والابواب والبوابات» .

وعن السفاكين والجزارين المجلبين بدروع الفرسان لم يتخلف النهابون في جيب الرهبان والكهان . فان الرهبان والكهنة الكاثوليك كانوا يجوسون المدينة بحثا عن ذخائر القسطنطينية الشهيرة . وبقيت اسماء بعض من انشط خدم الرب الذين اندفعوا في السرقة «التقية» دون اى وخز في الضمير وكان الحمى تملكهم . فان مارتين ، رئيس دير لينتس ، مثلا ، الذي انضم الى عصابة من الفرسان ، قد نهب معهم دير بانتوكراتور الشهير الواقع في القسطنطينية . ويستفاد من اقوال غونتر من بيريس الذي روى الاخبار عن افعال هذا الاب المحترم المجيدة في مؤلفه «تاريخ القسطنطينية» ان رئيس الدير مارتين هذا تصرف باكبر قدر من الجشع والبخل ، فقد كان يمسك «بكلتا يديه» . ويروى مدون اخبار مجهول من هالبرشتادت انه عندما عاد

استقف هذه المدينة كونراد فى سنة ١٢٠٥ الى موطنه ، تورينغيا كانوا يسوقون امامه عربة محملة للحافة بذخائر القسطنطينية . وفيما بعد ، وصف الاحبار الكاثوليك بصورة مفصلة للغاية ما سرقوه فى القسطنطينية من الاشياء المقدسة على وجه الضبط . وهذه الاوصاف جمعها فى السبعينيات من القرن التاسع عشر العالم الكاثوليكي الفرنسى ريان وشكل منها مجلدين اسماهما بدون سخرية «الغنيمة المقدسة من القسطنطينية» . وفى اوروبا الغربية ، كما لاحظ المعاصرون ، لم يبق ، على الأرجح ، اى دير واية كنيسة لم يغتنيا من الذخائر المسروقة .

ان اعمال النهب الشاملة والكاسحة المقترفة فى القسطنطينية التسمى تتأكلها النار ، لم تؤكدها شهادة نيقيتاس الخونياتى وحسب (فقد تضرر شخصيا من مآثم اللاتين وبالكاد نجا مع عائلته بفضل المساعدة الودية التى قدمها له احد معارفه من البندقيين) . وحتى اذا وافقنا اولئك المؤرخين الذين يعتبرون ان الكاتب البيزنطى نيقيتاس الخونياتى قد كثف الاصباغ وبالسخ بصورة لا مناص منها فى معرض حديثه عن هيجان الفرسان وفحشهم ، فقد بقيت كثرة من اخبار مؤلفين غير بيزنطيين وصفوا بأقبح النعوت الاعمال التى اقترفها الصليبيون فى العاصمة البيزنطية . وخلافا للكاتب البيزنطى نيقيتاس الخونياتى الذى شهر بمرارة وغضب بعنف اللاتين ، كان شاهد العيان الروسى على اجتياح القسطنطينية ، مؤلف «قصة الاستيلاء على تسارغراد من قبل الفرياغ» ، غير متحيز نسبيا فى وصف ما رآه بام عينيه او سمعه من شهود العيان والمشاركين فى الاحداث . ولكنه هو أيضا لم يستطع ان يلزم الصمت عن وقائع انتهاك حرمة المقدسات الدينية ونهبها من قبل الصليبيين . وقد كتب : «الكنائس فى المدينة وخارج المدينة نهبت جميعها ، ولا يسعنا لا ان نذكر عددها ولا ان نصف جمالها» .

كذلك تحدث جوفروا فيلاردوان عن اعمال النهب التى اقترفها زملاؤه . ومن الجلى ان فيلاردوان لزم الصمت عن مآثمهم او خفف من غلوائها ، وحتى اورد على لسان البارونات كلمات الاسف على مصير المدينة ، على «هذه الكنائس الرائعة والقصور الغنية التى التهمت النيران وانهارت ، وهذه الشوارع التجارية الكبيرة التى تلتفها اللهب الشديد» ، ولكنه لم يستطع امتناعا عن ابداء العجب من الغنيمة الوفيرة المنهوبة فى القسطنطينية . فلقد كانت عظيمة الى حد انهم «عجزوا عن حسابها» . وكانت هذه الغنيمة تنطوى على «الذهب والفضة ، والاحجار الكريمة ، والانيقة الذهبية والفضية ، والالبسة الحريرية ، والفراء ، وكل ما فى هذا العالم من جميل وبديع» .

وليس بدون اعتزاز اكده مارشال شامبانيا ، فيلاردوان ، ان هذا النهب لم يسبق له مثيل منذ خلق العالم . وبتعاير مماثلة تحدث كذلك الفارس البسيط روبر دي كلارى الذى تملكه العجب والابتهاج لجمع «ثلثى ثروات الارض» هناك .

كذلك بقيت شهادة رفيعة المكانة على موبقات ومآثم الصليبيين ، عنيينا بها رسالة البابا اينوشنتيوس الثالث . فليس بدون مبرر تخوف من ان يشكل عنف الصليبيين فى القسطنطينية عقبة فى وجه اتحاد الكنيسة الارثوذكسية مع الكنيسة الكاثوليكية ، لانه سيكون «من حق الروم ان ينظروا الينا باشمئزاز كما الى الكلاب» . ولهذا انفجر البابا برسالة غاضبة دورية . فأعرب عن استيائه من لصوصيات الصليبيين الذين فضلوا ، على حد قوله ، خيرات الارض على نعم السماء ، ولهذا سعوا ، لا الى فتح القدس ، بل الى فتح القسطنطينية حيث «سلبوا الصغار والكبار» . ناهيك بانهم «مدوا ايديهم الى املاك الكنائس وما هو اسوأ الى مقدساتها ، اذ سحّبوا من المذابح الالواح الفضية ، وحطموا غرف المقدسات ، واستولوا على الايقونات والصلبان والذخائر» . ان الغنيمة التى اجبر القادة الفرسان على حملها الى الاماكن المخصصة لها كانت حقا وفعلا كما فى الحكايات . فان البندقيين ، اذا صدقنا فيلاردوان ، قد عرضوا على الصليبيين لقاء حصتهم وحدها من الغنيمة ، ٤٠٠ الف مارك ، ولكن هذا العرض اعتبر غير مفيد وقوبل بالرفض .

لم تتحمل القسطنطينية خسائر مادية فادحة بفعل اللصوص وقطاع الطرق الذين وشحوا بالصلبان عباءاتهم وستراتهم وحسب . ففي حفلات التهلك والسكر المدمرة ، ضاعت واندثرت كذلك منتوجات رائعة لقدماء الرسامين والنحاتين بقيت محفوظة فى القسطنطينية مئات السنين . لم يكن البرابرة الصليبيون يفهمون شيئا فى الفن . كانوا لا يعرفون ولا يستطيعون ان يقدروا غير المعدن . اما المرمر والخشب والعظم التى صنعت منها فيما مضى آثار بديعة من الهندسة المعمارية والنحت ، فقد تعرضت للإبادة التامة . وفضلا عن ذلك لقي المعدن ايضا عندهم تقييما فريدا .

فلكى يعين الصليبيون قيمة الغنيمة بمزيد من السهولة ، حولوا الى سبائك مجموعات كبيرة من المصنوعات الغنية الفنية المعدنية التى نهبوها . وهذا ما حل ، مثلا ، بالتمثال البرونزى الرائع للآلهة هيرا من ساموس الذى كان منصوبا فى احدى ساحات القسطنطينية . فقد حول الصليبيون تمثال هيرا ، زوجة سيد الآلهة واله الرعد زفس ، الى فتات . وخلعوا عن القاعدة

وحطموا تمثال هرقل البرونزي الهائل الذي ابدعه الفنان العبقري ليسيب (الفنان في بلاط الاسكندر المقدوني) والذي يمثل البطل اليوناني الشهير تعبا من المآثر وجالسا ، ملقيا على كتفه جلد اسد نيمه الذي قتله . ولا المقاييس ولا الجمال انقذت تمثال بطل اسطوري آخر من ابطال اليونانيين هو بيليروفون الراكب على الحصان المجنح بيغاس والمندفع الى مقام الالهة - جبل الاولمب . كان هذا التمثال على درجة من الضخامة ، بحيث «كان عشرة من طيور مالك الحزين» ، كما يروي روبر من كلاري ، «تبني اعشاشها في كفل الحصان ، وكانت الطيور تعود كل سنة الى اعشاشها وتضع البيض» . ولم يعف البرابرة والهمج الغربيون لا عن تمثال الذئبة التي تغذى بحليبها رومولوس وريموس ، التوأمين الاسطوريين ، مؤسسي الدولة الرومانية ، ولا عن تمثال الشاب الجميل باريس الذي رمى التفاحة الى فينوس ، فصارت سببا للشقاق ، ولا حتى تمثال العذراء مريم المنصوب في وسط المدينة .

وحول الصليبيون الى رماد وغبار عددا لا يحصى من الآثار التي كانت بفضلها العاصمة البيزنطية من قديم الزمان متحفا للفن القديم ، فقد قل ما سلم من ايديهم . وما سلم ، نقلوا معظمه (ولاسيما البندقيون) الى اوروبا لاجل تزيين الكنائس والقصور . مثلا ، بامر من دندولو ، ارسلوا الى البندقية مجموعة نحتية عجيبة من صنع ليسيب ايضا - مجموعة برونزية مطلية بالذهب من اربعة احصنة واقفة على المنصة الامبراطورية في ميدان سباق الخيل . كم وكم من الاماكن ظهرت فيها هذه الاحصنة المسكينة ! ومن من الغزاة في مختلف الازمنة استطاع ان يبقى عديم الاكتراث بمنتجات الفنان اليوناني العظيم ! في اواخر القرن الاول ، حمله من الاسكندرية في مصر الى روما الامبراطور اغسطس اوكتافيوس لكي يزين قوسه ، قوس النصر . ثم نصبوا الاحصنة تارة على قوس نيرون ، وطورا على قوس ترايان ، الى ان نقلها الامبراطور قسطنطين نهائيا الى ميدان سباق الخيل في عاصمة الامبراطورية الرومانية الشرقية (امبراطورية الروم او الامبراطورية البيزنطية) ، وقد اقيمت على بوابة ميدان سباق الخيل وبقيت هناك ثمانية قرون . ولكن اسفار تحفة الفنان اليوناني لم تنته . ففي سنة ١٢٠٤ اقيمت مجموعة الاحصنة الاربعة على البوابة الرئيسية بكاتدرائية القديس مرقس في البندقية . وكان ذلك مكانا مشرفا كان الدوج والخاصة يشاهدون منه في المعتاد الاعياد المقامة في المدينة . وبعد ستة قرون اغرت الاحصنة البرونزية الالوية والقوية ، الالامعة بالذهب نابليون الطموح . وحين احتل

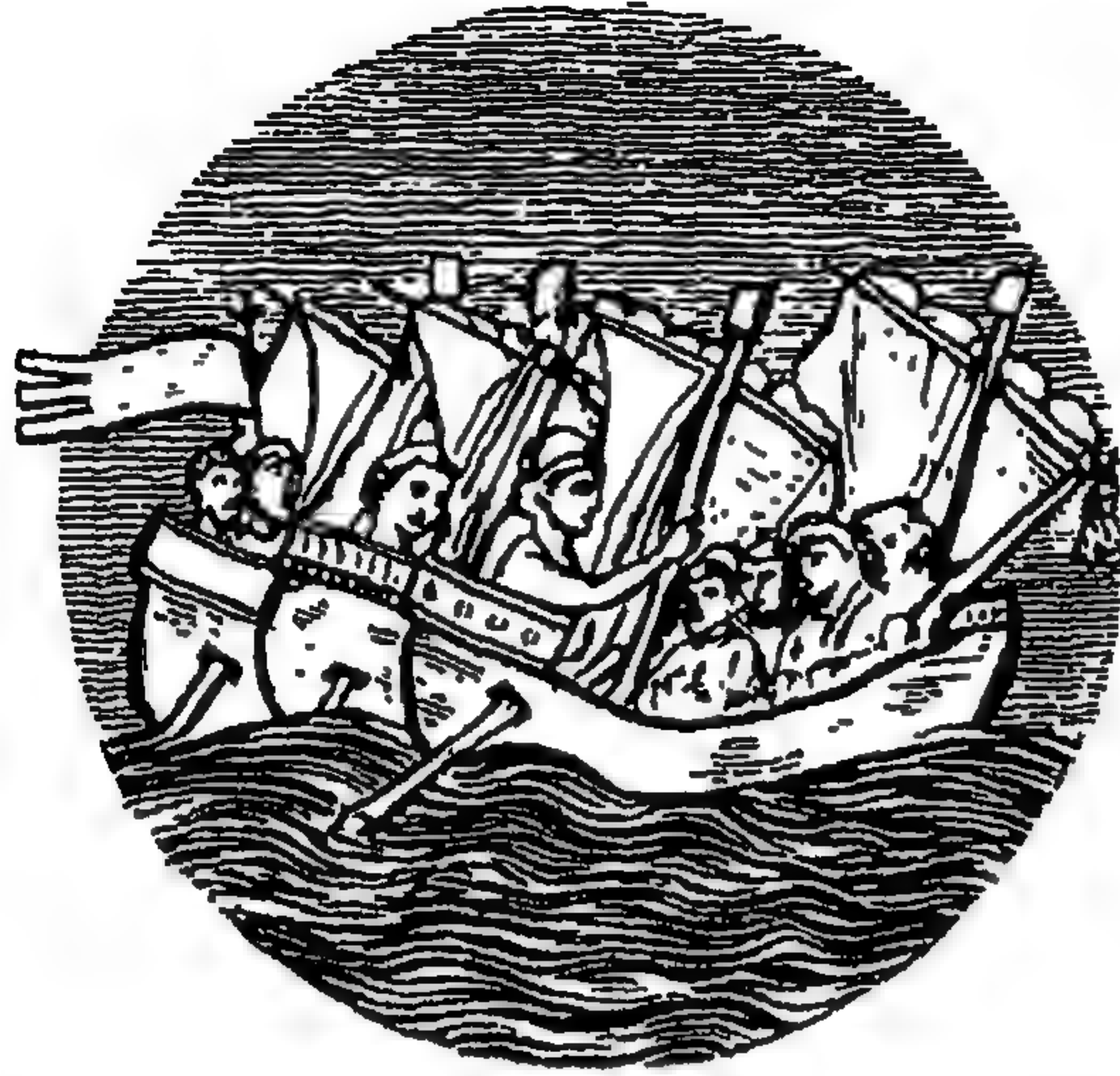
البندقية في سنة ١٧٩٧ نقل الحصنة الى باريس حيث زينت في البدء مدخل قصر التويليرى ثم قوس النصر في ساحة كاروسل ، وبعد ١٨ سنة فقط ، عندما سقطت امبراطورية نابليون ، ارسلت مجموعة الحصنة الاربعة من جديد الى البندقية . وابان الحربين العالميتين في القرن العشرين اضطرت هذه الحصنة الى مفارقة مكانها ، فمرتين انزلوها في ملجأ خاص لوقايتها من قصف الهتلريين . ولا تزال الى الآن على مصطبة القديس مرقس . . .

في سنة ١٢٠٤ ، لم يكتف البرابرة الغربيون ، العاملون تحت ستار الصليب ، بآبادة آثار الفن . فقد حولوا كذلك الى رماد المكتبات الفاتكة الغنى في القسطنطينية . ان الفرسان الاميين والجهلة كانوا يرمون ، دون تردد ودون تفكير ، الى المواقد المتأججة ، برزم المخطوطات التي كانت تفوق التقدير - مؤلفات الفلاسفة والكتاب القدماء ، والنصوص الدينية ، والاناجيل المزيينة . . . ماذا كانت تعنى بنظرهم كنوز العبقريّة البشرية ومنتجات عملها ؟ فقد احرقوها بكل بساطة كما احرقوا جميع الاشياء الاخرى . يقول كاتب ذلك الزمن رومانين الذي وصف معركة القسطنطينية : «بتتبع الحديث عن هذه المآثم ، يرتعش العقل ويحمر وجه البشرية خجلا» .

كذلك «اجتياح القسطنطينية» الذي جرى تحت راية الصليب بدا لبعض من المعاصرين الاوروبيين عملا مخالفا لارادة الرب ، فهكذا قدر احداث سنة ١٢٠٤ مثلا ، مدون الاخبار اوجيريو بانه من جنوه في مؤلفه «الحوليات» . وحين اعطى هذا التقدير لاجتياح العاصمة البيزنطية ، كتب طبعا بروح العداة لمنافسى جنوه ، البندقيين ، ولكنه لم يفترق في الراى من حيث الجوهر ، مع جميع الشرفاء في ذلك الزمن . بل بالعكس . فقد اعرب عن وجهة نظرهم . تجدر الاشارة الى ان مآثم الصليبيين الوحشية كانت تتناقض بحدة مع مسلك الفاتحين المسلمين المتمالك نسبيا حيال المقدسات المسيحية في الشرق . وحتى مسلمو اوروبا وافريقيا ، كما قال نيقيتاس الخونياثى ، كانوا اكثر شفقة ورحمة . وبالفعل تجاوزت مآثم الصليبيين وجرائمهم الوحشية في العاصمة البيزنطية جميع ما سبقها في التاريخ . ولقد اجتاحت الغزاة الكاثوليك المدينة كما لم يفعل ذلك احد من قبل . ان ابادة القيم الثقافية المكسدة خلال قرون وقرون ، هذه الابداء التي اقترفها الفرسان ورجال الكنيسة على نطاق شاسع ومكثف ، قد الحقت ، بالطبع ، ضررا فادحا بالحضارة الاوروبية . وقد كتب المؤرخ الانجليزى المعاصر غودفرى ان اوروبا والمسيحية قد اصبحتا ، من جراء مأساة سنة ١٢٠٤ بجراح استعصت

على الشفاء ، كما اتضح مع مر الزمن . وبالفعل ، لم تستطع العاصمة البيزنطية بعد ذاك يوما ان تتخلص من عواقب زحف الصليبيين اللاتين . ان تاريخ الحملة الصليبية الرابعة كان تاريخ انتهاك ملهميها وقادتها والمشاركين فيها انتهاكا سافرا للاهداف الدينية التي اعلنوها . لقد داس الصليبيون راياتهم الدينية ، وشعاراتهم «التحريرية» . وبرهنوا عن ازدراء وقح لبرنامج الحملة الصليبية الرسمي واظهروا انهم ليسوا حماة اتقياء للدين المسيحى ، بل مغامرون جشعون وغزاة لامبديون . ان احداث ١٢٠٢ - ١٢٠٤ تبعد كليا تلك الهامة من القداسة والورع والتقوى التي احاطت بها الكنيسة الكاثوليكية فى سياق القرون هذه المشاريع الاغتصابية .

انحطاط الحركة الصليبية



الامبراطورية اللاتينية . سنوات الهدنة في الشرق

كانت الحملة الصليبية الرابعة الحملة الاخيرة التي عادت على الغرب بنتائج مهمة متميزة ، ولكنها ، والحق يقال ، لا تمت باية صلة الى الاهداف المعلنة رسميا لمشروع من هذا النوع . وبالفعل اسفرت مغامرة الفرسان في سنوات ١٢٠٢-١٢٠٤ عن تأسيس دولة اسميت بالامبراطورية اللاتينية واتخذت القسطنطينية عاصمة لها . في البدء انحصرت حدود دولة الصليبيين الجديدة في العاصمة فعلا ، ثم تسنى للغزاة ، عن طريق الفتوحات ، توطيد دعائمهم في كثير من اراضي شبه جزيرة البلقان وفي جواره . وقد استولوا على تراقيا ، ومقدونيا وفساليا والاتيكا وبيوتيا والبيلوبونيز وجزر بحر ايجه . وجميع هذه المناطق تقاسمها الصليبيون فيما بينهم ، واطلقوا على انفسهم القابا مفخمة - كونتات ودوقات آثينا وادريانوبول وفيليبوبول ، وامراء اخايا ، وملوك تسالونيكى ، والنخ . .

وقد حصل البندقيون ذوو الهمة والمبادرة اكثر من الجميع في حاصل الفتوحات ومختلف الصفقات . فقد انتقلت اليهم ثلاثة من احياء القسطنطينية

الثمانية ، ومدينة ادرينوبول ، والمرافى* على شاطئ* بحر مرمره ، وجزيرة كريت ، وكثير من الجزر الاخرى . ومنذ ذاك اصبح دوجات البندقية يلقبون باسياد «ربع وثمان الامبراطورية البيزنطية» .

دامت سيادة اللاتين فى الاراضى المحتلة اكثر من خمسين سنة بقليل . فقد خاض السكان اليونانيون نضالا عنيدا ضد العسافين والنهايين الصليبيين . كذلك نشأت بؤر مهمة للمقاومة فى الدول المتشكلة على انقاض بيزنطية (دسبوتات* ابيروس ، امبراطورية نيقية وامبراطورية طرابزون) . وعندما نشبت فى ربيع ١٢٠٥ فى مقاطعات تراقيا انتفاضة عامة ضد النير اللاتينى ، تلقى اليونانيون المساعدة من الدولة البلغارية الفتية ايضا ؛ وفى ١٥ نيسان (ابريل) ١٢٠٥ هزمت الخيالة البلغارية الخفيفة الفرسان المدرعين بالدروع والخوذات شر هزيمة فى معركة ادرينوبول . واسر البلغار الامبراطور اللاتينى بودوان الاول بالذات . ولكن بلغاريا لم تستطع ان تستغل كليا ثمار النصر بسبب النزاعات والحروب الداخلية ، الا ان الامبراطورية اللاتينية قد تلقت آنذاك ضربة قوية محسوسة . ثم ان نضالات السكان المحليين التى لم تتوقف بعد ذلك ضد سيطرة البارونات الغربيين ، واخفاقات هؤلاء فى الحروب ضد بلغاريا وضد الدول اليونانية التى اكتسبت بينها امبراطورية نيقية اهمية خاصة ، قد زعزعت فى آخر المطاف مواقع الغزاة اللاتين .

فى سنة ١٢٦١ زالت الامبراطورية اللاتينية القصيرة الاجل من الوجود ؛ فان امبراطور نيقية ميخائيل الثالث باليولوغ قد استولى على العاصمة القسطنطينية بمساندة الجنوبيين وبالتوكل على اهالى القسطنطينية . واثار ذلك ، طرد الصليبيون من كثير من المناطق التى كانوا يحتلوها . ولم يبق لهم غير بعض مناطق اليونان الوسطى والجنوبية . وفيما بعد ، كانت الحملات الصليبية من حيث عواقبها العملية عقيمة تماما .

بعد فتح القسطنطينية ، صممت النداءات الى تحرير القدس صمما تاما لحقبة من الوقت . فان الوضع الذى نشأ فى الشرق اللاتينى بعد انتقال القدس الى المسلمين قد اجبر البارونات والامراء الذين كانوا لا يزالون يحتفظون بممتلكاتهم فى سوريا ولبنان وفلسطين على الامتناع عن القيام بمحاولات للبحث عن المساعدة فى الغرب . وفى آب وايلول (اغسطس وسبتمبر) ١١٩٧ ، اى بعد مرور اربع سنوات على وفاة صلاح الدين الايوبى ، مدد

* دسبوتات Despotat - رتبة الدسبوت Despote . الدسبوت منذ القرن
الثالى عشر - لقب فى الامبراطورية البيزنطية يولى حامله مكانة كبيرة جدا وسلطة
سياسية فعلية .

الحاكم الفعلي لمملكة القدس هنرى الاول ، كونت شامبانيا ، مدة الصلح مع وريث واين صلاح الدين ، المنتصر في معركة حطين ، السلطان المصرى العزيز (١١٩٣-١١٩٨) . الا ان الوضع تأزم من جديد لمناسبة وصول اولى فصائل الصليبيين الالمان التابعين للامبراطور هنريخ السادس الى فلسطين . وكانت هذه الفصائل تعتزم مهاجمة جبلة ولاودقية ولكن امير حلب ، الزاهر (ابن صلاح الدين) ، حزر نواياها ، فارسل الى هاتين المدينتين ، كما افاد المؤرخ العربى كمال الدين ، تشكيلتين (من سلاح الهندسة وخبراء المتفجرات ، كما نقول بلغة اليوم) اجلتا سكان المدينتين ثم دمرتاها . وفى الوقت نفسه ، ارسل امير دمشق ، اخو صلاح الدين ، العادل ابو بكر ، الذى صار فيما بعد سلطانا على مصر (١٢٠٠-١٢١٨) ، قواته الى يافا واجبر الصليبيين الالمان على الانسحاب من عكا . وبعد اقل من شهر على وفاة هنرى الاول (١٠ يول - سبتمبر - ١١٩٧) ، كونت شامبانيا ، المفاجئة ، سقطت يافا . وفى سنة ١١٩٨ استطاع الافرنج من جهتهم ان يحتلوا بيروت . وحصروا طورون (تبنين حاليا) ولكن وصول امدادات من مصر ارسلها السلطان العزيز بناء على طلب عمه وضع حدا لهذا الحصار خصوصا وان الالمان قد اوهن عزمهم نبا وفاة الامبراطور هنريخ السادس ، فعادوا الى بلادهم فى ربيع سنة ١١٩٨ .

وساد فى الشرق اللاتينى جو من الهدوء المتقلقل . فان كلا من الطرفين المتحاربين كان مستغرقا كليا فى بلبلاته واضطراباته السياسية بالذات ، الامر الذى اكراه المسلمين والصليبيين سواء بسواء على التوقيع فى اول تموز (يوليو) ١١٩٨ على معاهدة للصلح مدتها خمس سنوات وثمانية اشهر وتتعرف بالستاتو-كو (الوضع القائم) الذى استقر منذ رحيل الفصائل الالمانية . اخضع امير دمشق ، العادل ، يافا ، لسلطته ، وصارت بيروت تابعة لمملكة القدس . وبين الفينة والفينة كانت تستأنف العمليات الحربية . وفى سنة ١٢٠٤ عندما حل الجوع فى مصر من جراء الجفاف ، مضى ملك القدس امورى دى لوزينيان (١١٩٨-١٢٠٥) الى حد القيام بمحاولة لاحتلال مصر ؛ ففى ايار (مايو) ١٢٠٤ ، تحرك اسطول من ٢٠ سفينة الى دمياط ، ولكن المصريين والصليبيين على السواء ابدوا القدر نفسه من العجز وفضلوا بناء علاقاتهم فى المستقبل على اساس التنازلات المتبادلة والاتفاق الحبقى . وبموجب المعاهدة الجديدة التى وقعها العادل فى ايلول (سبتمبر) ١٢٠٤ تنازل السلطان للصليبيين عن يافا والرملة والد و نصف صيدا . واستغلت الجمهوريات الايطالية التجارية ولاسيما البندقية وضع الهدوء ، ووسعت امتيازاتها ، سواء

فى مملكة القدس ام فى مصر . وكانت تزود المسيحيين والمسلمين بالخشب والحديد وغير ذلك من المواد ؛ فان الاعتبارات الدينية لم يكن لها وزن بنظر رجال الاعمال من البندقية وغيرها من المدن .

وفى السنوات التى اعقبت الحوادث المذكورة ، تحاشت مملكة القدس ومصر النزاعات المسلحة .

وبما ان البابا اينوشنتيوس الثالث كان على اقتناع بان قضية الصليبيين لا يمكن ان تنتصر الا باللجوء الى القوة ، فقد اهل هو ايضا القدس فى غضون بضعة سنوات ، واستغرق كليا فى الشؤون الاوروبية المعقدة والمشوشة . لقد استرعى انتباهه النزاع الانجليزى الفرنسى المستطيل ، والصراع بين الاحزاب الاقطاعية فى المانيا ، وتنظيم عدوان الفرسان الالمان على شعوب منطقة البلطيق ، ولاسيما خنق الهرطقة الالبيجية فى فرنسا الجنوبية (١٢٠٩-١٢١٢) . ولم يستأنف البابا دعواته الصليبية الا فى سنة ١٢١٣ ، بعد ان قضى على الالبيجيين .

نضالات عامة الناس الجديدة - الحملتان الصليبيتان الطفوليتان

منذ فشل الحملة الصليبية الثالثة ، كانت فكرة الحرب المقدسة لاجل تحرير القدس من «الكفار» معلقة فى هواء البلدان الاوروبية الغربية ، ولكنها تلقت بثة جديدة بعد استيلاء الفرسان على القسطنطينية ، وان يكن فى بيئة اجتماعية مغايرة تماما ، - اى فى بيئة الفلاحين الفقراء . فان استيلاء الفرسان على بيزنطية كان فى نظر الفلاحين الفقراء الذين وصلت اليهم انباء هذا الحدث ، وان يكن بصورة متأخرة ، برهانا جديدا على فشل الحملات الصليبية ضد المسلمين ، لان هذه الحملات كان يوجهها اصحاب الحول والطول . ان امانى الفلاحين التحررية التى كانت تتجلى فيما مضى ، وعلى الاغلب ، فى التحرق الى الماثرة الدينية التكفيرية ، قد همدت نارها كثيرا فى غضون القرن الثانى عشر ؛ فان الجماهير الشعبية لم تشترك البتة تقريبا ، لا فى الحملة الصليبية الثانية ولا فى الحملة الثالثة . ومع ذلك ظلت التربة قائمة لاجل انبعاث هذه الامزجة بصورة عرضية . وفى السنوات التى كانت فيها المصائب التى يتسبب بها نير الاسياد للجماهير ، وقحط الغلال ، والمجاعات (والمعلومات عنها تملأ اخبار اوائل القرن الثالث عشر) تسمى مرهقة للغاية ، كانت المشاعر الدينية فى صفوف الشعب تتازم الى الحد الاقصى ، وكانت الجماهير تصبح

خارقة التحسس بأفكار الحملة الصليبية مع تفسيرها كما من قبل على طريقته .

وقد نشأ وضع كهذا عشية استئناف الباباوية لمواعظها الصليبية ، اى فى سنة ١٢١٢ ، عندما قام ما يسمى بالحملة الصليبية الطفوليتين . وكانتا صدى متأخرا لتلك التطلعات التحررية التكفيرية التى اسفرت قبل ذاك باكثر من مائة سنة عن حملة الفقراء الصليبية بقيادة بطرس الناسك . وفى اوائل القرن الثالث عشر ، كان فلاحو اوروبا الوسطى يعانون البلايا ، كما من قبل ، بسبب مضايقات الاسياد ، وكانوا يعانون على الاخص من المنازعات الدامية بين الاقطاعيين ومن الحروب الداخلية . وشرعوا يقولون فى الريف من جديد ان الفلاحين الفقراء الذين لا ترهقهم خطيئة الطمع ، والذين لا يسعون لا وراء السلطة ولا وراء الثروة ، هم انقياء امام الرب فى ايمانهم ، وسيتمكنون ، اسرع من غيرهم بالاحرى ، من الحصول من الرب العلى على تلك الرحمة - تحرير القدس - التى لم يرغب الرب العلى فى وهبها للفرسان والامراء والملوك الطماعين .

وهذه الفكرة تجذرت فى الفئات الاجتماعية الدنيا ، ولكن ليس بدون تأثير مواعظ رجال الدين البعيدى النظر من مختلف المراتب ، الذين عكفوا على الوعظ فى اواخر القرن الثانى عشر واوائل القرن الثالث عشر فى فرنسا بصورة رئيسية وجزئيا فى ايطاليا والمانيا وغيرهما من البلدان . والمقصود هنا ذور المراتب الكنسية مثل الارشيدياكر المذكور سابقا بيار من بلوا ، واللاهواتى آلان من ليل ، والكاهن المذكور سابقا فولك من نويى ، ومعلمه ، اللاهوتى المعروف ، بيار كانتور . وفى هذه الفئة من الوعاظ ، يمكن ان نصنف فرانسوا داسيز الذى تحدر من عائلة من التجار ولكنه رفض الثروة ، وكثرة من الوعاظ المتجولين .

وبما ان جميع هؤلاء الاحبار واللاهوتيين والوعاظ قد راوا تفاقم الاستياء الشعبى (وكان الدليل عليه نمو عدد الهراطقة الذين «صاروا مثل رمل البحر» ، كما قال احد مدونى الاخبار) ، فقد حرصوا على اطفاء الحريق المتأجج ، ولذا اخذوا ينشرون ببالح الجهد الفكرة القائلة انه ينبغى للكنيسة ان تعود الى حالتها الاولى ، «الرسولية» ؛ وجميعهم طفقوا يمدحون الفقر على العموم ويطرونه بنسبى الصور والاساليب . وفى مؤلفات الكتاب الكنسيين المتبصرين الى هذا الحد او ذاك ، كانت تتردد البواعث ذاتها تقريبا ، القائمة على اساس الحقائق الانجيلية : «يعسر على الغنى دخول ملكوت الله» ، «انه لاسهل ان

يدخل الجمل فى ثقب الابرّة من ان يدخل غنى ملكوت الله». - بل ان بيار كانتور ندد ببناء كاتدرائية نوتر دام (السيدة العذراء) فى باريس .

وفى كتابات ومواظم اللاهوتيين المتعلمين وبسطاء الوعاظ المتجولين الذين نقلوا بشكل مبسط مبتذل تمجيدهم للفقير وللغنى الرسولى ، اخذت تتردد كذلك اكثر فاكثر الفكرة الصليبية المطروحة بروح اطراء الايمان الغريب عن كل نفع . ان بيار من بلوا الذى كتب مؤلف «ضرورة تعجيل حملة القدس» قد ندد فيه بالفرسان الذين حولوا الحملة الصليبية الى مغامرة دنيوية ؛ فان هذه المغامرة ، كما اكد ، محكوم عليها بالفشل . ولن يفلح فى تحرير القدس غير الفقراء ، الاقوياء باخلاصهم للرب . وتحسّر آلان من ليل فى احدى مواظمه على سقوط القدس وفسره بكون الرب قد تخلى عن الكاثوليك . «انه لا يجد لنفسه ملجأ لا عند الكهنة لأن السيمونية (الرشوة - المؤلف) وجدت لنفسها ملجأ بينهم ، ولا عند الفرسان لأن النهب هو ملجأ من اجلهم ، ولا بين سكان المدن لأن الرباء يزدهر عندهم ، ولا بين التجار لأن الكذب يزدهر عندهم ، ولا بين رعاى المدن حيث بنت اللصوصية لنفسها عشاً» . ومن جديد ، اللازمة نفسها : القدس سيخلصها الفقراء اى فقراء الروح الذين تحدث عنهم انجيل متى . واخذوا يصورون الفقر بصورة ينبوع جميع الفصائل وعربون النصر المقبل على «الكفار» .

وهكذا ، سعيا الى صرف الاستياء المتراكم فى صفوف الفلاحين من الاوضاع القائمة فى مجرى مأمون بالنسبة للكنيسة ، اخذ بعض رجالها بالحسبان بنحو اصيل تجربة الحملات الصليبية فى القرن الثانى عشر . والدرس الذى استخلصوه من هذه التجربة لاجل بسطاء الناس قد تلخص فى ان جنود المسيح سيحرزون النصر ، لا بفضل النقود ، ولا بقوة السلاح ، وانهم سيحرزونه على العموم ، لا فى المعارك ، بل بسبيل واحد فقط ، هو الاتكال على رحمة الرب . وللبهرنة على صحة هذه الموضوعية ، اعتزم فرنسوا داسين حتى ان يقوم فى سنة ١٢١٢ بجولة دعاية وحج الى الشرق ؛ ولكنه عاد بعد ان غرقت سفينته قرب سواحل دلماسيه .

اصغى الفلاحون الاقنان ، بالطبع ، الى مثل هذه المواظم التى يلقيها الوعاظ المتجولون ، واستجابوا فى آخر الامر لمواعظهم ؛ ففي سنة ١٢١٢ تحرك الاقنان ، كما فى سنة ١٠٩٦ ، - ولكن باعداد اقل بكثير ، والحق يقال - الى «انقاذ القدس» .

دخلت الحملتان الصليبيتان فى سنة ١٢١٢ التاريخ باسم «حملتى الاطفال» . اغلب الظن ان الاطفال اشتركوا بالفعل فى هذين المشروعين ،

ولكن الانباء عن عمليات حج الاطفال ، الباقية فى المدونات وغير ذلك من المؤلفات التاريخية من القرن الثالث عشر اسطورية باكثر من نصفها . يذكر اكثر من ٥٠ مؤلفا قروسطيا حملتى الاطفال (احيانا بايجاز ، بسطر او سطرين ، واحيانا بتخصيص نصف صفحة لوصفها) ؛ وبين هؤلاء المؤلفين ، اكثر من ٢٠ بقليل فقط جديرون بالثقة لانهم راوا بام عيونهم الصليبيين الصغار ، واما سجلوا ما سجلوه ، بالاعتماد على احاديث شهود العيان ، فى سنوات قريبة من احداث سنة ١٢١٢ . ثم ان معلومات هؤلاء المؤلفين متقطعة هى ايضا . والسرد الاكثر تفصيلا عن الحملتين الصليبيتين الطفوليتين يرد فى مدونات الراهب السيستريسيانى البريك دى تروافونتين (دير فى جوار شالون على المارن) ، ولكن هذا السرد ، كما اوضح العلماء ، هو الاقل اهلا للتصديق .

ان تاريخ الحملتين الصليبيتين الطفوليتين لم يتلقَ توضيحا متكاملا نوعا ما الا فى المؤلفات المكتوبة بعد مرور ٤٠-٥٠ سنة على الاحداث الموصوفة فيها - فى المؤلف الجامع للراهب الدومينيكي الفرنسى فنسان من بوفه «المرآة التاريخية» ، وفى «المدونات الكبرى» للراهب الانجليزى من سانت البانس متى الباريسى ، وفى بعض المؤلفات الاخرى التى تذب فيها كليا تقريبا الوقائع التاريخية فى خيال المؤلفين . واذا فرزنا جميع الاخبار التى يمكن التحقق من صحتها وجمعناها فى كل واحد ، فمن الممكن تصوير لوحة الحملتين الصليبيتين الطفوليتين على النحو التالى تقريبا .

بدأت حركة الاطفال الصليبيين بين ٢٥ آذار (مارس) و١٣ ايار (مايو) ١٢١٢ فى مناطق المانيا المجاورة لنهر الراين ، غير بعيد عن كولونيا . فان الآلاف من الرعاة والاولاد الآخرين الذين يساعدون آباءهم فى الشؤون المنزلية تركوا فجأة قطعانهم ومسالفهم ، واندفعوا الى الجنوب ، بمحاذاة نهر الراين ، مزدربين بنصائح الآباء والامهات وسائر الاقارب ، لكى «يحرروا القدس» . وحين كانوا يسألون المشتركين فى هذه الحركة عن الدين حثهم على هذا المشروع الجرىء ، - ذلك ان جيوش الفرسان بقيادة الملوك والدوقات قد منيت بالفشل منذ ٢٠ سنة فقط - كانوا يجيبون انهم يخضعون لمشينة الرب . ويفيد مدون الاخبار الراهب رينه من ليج ، الذى عاصر الاحداث ، ان المشتركين فى الحملة كانوا على اقتناع بانهم سيتمكنون من تحقيق ما عجز الملوك والامراء عن تحقيقه . وتقول مدونات كولونيا ان الاوباش المجرمين قد انضموا الى الصليبيين الصغار ؛ فقد كان اللصوص

يسرقون من الحجاج الصغار ما كان يتصدق به عليهم الناس في القرى والمدن (واحد هؤلاء اللصوص من رفاق الطريق شتقوه في كولونيا) . و يروى بعض مدونى الاخبار ان صبيا فى العاشرة من عمره اسمه نيكلاس كان يقود جموع الصليبيين ، وكان يؤكد للجميع انه رأى فى المنام ملاكا انبأه بانه هو نيكلاس سيحرر مع رفاقه الارض المقدسة من الوثنيين المسلمين ، وان الله نفسه سيقدم للاولاد الدعم ؛ فان البحر سينشق امامهم ، كما حدث لشعب التوراة بقيادة موسى ، وانهم سيعبرون به باقدام جافة . ويذكر مدون اخبار من تحرير رأى بام عينيه نيكلاس حسب جميع الاحتمالات والقرائن ، التفصيل التالى : كان نيكلاس يحمل شارة من طراز الصليب ، تشبه من حيث منظرها الحرف «T» ولكنه «كان من المستحيل تعيين المعدن الذى صنعت منه» .

فى ٢٥ تموز (يوليو) عبر الصليبيون شبير ، ومنها اتجهوا الى الزاس . فى الطريق مات كثيرون من القيظ والجوع والعطش . وقفل بعضهم راجعا من ماينتس . واجتاز هذا الجمع الذى يضم الالف ، جبال الالب ، - وقد عبر ، اغلب الظن ، جبل سان برنار الكبير او ربما جبل برينتر (هناك فرضية مفادها ان طريق الصليبيين كانت تمر فى شوابيا وبافاريا والنمسا الى لومبارديا) . وفى ٢٠ آب (اغسطس) ، تجنب الصليبيون بياتشنتسا وبلغوا جنوه بعد خمسة ايام . والموعد الدقيق لوصولهم الى جنوه - ٢٥ آب ١٢١٢ - يذكره شاهد عيان ، هو مدون الاخبار الجنوى اوجيرو بانه . وقد قال ان عددهم كان ٧ آلاف ، رجالا ونساء واولادا .

ومن جنوه ، تفرق جمع الصليبيين كل حسب هواه . بعضهم ادركوا انهم اقترفوا حماقة ، على حد تعبير مدون للاخبار مجهول من مارباخ (اللزاس الجنوبية) فراحوا الى روما ؛ ومضى آخرون الى مرسيليا . واتجه فريق ثالث نحو الجنوب ، الى برينديزى . وهناك منعهم الاسقف المحلى من ركوب السفن لارتياحه بان والد نيكلاس ، الذى يوجه اعماله ، كان يفكر ببيع الصليبيين عبيدا من «الوثنيين» . ومع ذلك ، ركب قسم من الصليبيين السفن ، وسرعان ما وقع بالفعل فى ايدى القراصنة فباعوا هذه البضاعة الحية من المسلمين . ولم يستطع سوى عدد قليل من المشتركين فى الحملة من وصولوا الى ايطاليا ان يعود الى دياره . ولربما لقي نيكلاس هو ايضا مصرعه فى برينديزى ، وانتحر والده ، كما تقول بعض الاخبار . ولكن نبأ آخر يفيد ان رئيس الصليبيين الصغير قد سلم ، وحتى اشترك بعد خمس سنوات فى حملة الفرسان الصليبية على مصر .

وقامت حركة مماثلة في حزيران (يونيو) ١٢١٢ في فرنسا الشمالية . هنا في قرية كلوا ، بضواحي فاندوم ، ظهر الراعي ايتيان البالغ من العمر ١٢ سنة واعلن نفسه رسول الرب . ومثل نيكلاس حكى عن الرؤيا السماوية التي رآها . وزعم ايتيان انه رأى الله في المنام مرتديا البسة الحاج ؛ وقد طلب منه الله كسرة خبز واعطاه شهادة الى الملك الفرنسى . ومن كل مكان ، اخذت تتوافد الى ايتيان جموع الفقراء وبلغ عددهم اكثر من ٣٠ ألفا . ان النشوة الدينية التي كانت تتستر وراءها ، كما فى زمن بطرس الناسك ، آمال الاقنان الفقراء المنتعشة من جديد ، مثل الوباء ، قد شملت جمهورا كبيرا من الناس . وجميع هذه الجموع اتجهت الى باريس حاملية الرايات والصلبان والشموع والقناديل ، منشدة الاناشيد الكنسية ، وتوقفت قرب دير سان دينى . ويروى مدونو الاخبار ان الملك فيليب الثانى تشاور مع شيوخ باريس وامر الصليبيين بالتفرق فورا والعودة الى بيوتهم . ويقول خبر انهم خضعوا لامره ؛ ويقول خبر آخر انه «لم يكن بوسع اى شىء ان يكبح جماحهم» . ولكن الجوع وحده اجبرهم على التفرق .

ان ايا من المراجع التاريخية المعاصرة لا يشير الى عزم هذه الجموع على الذهاب الى تحرير الارض المقدسة . ان المدونة الوحيدة التي تصور اهدافهم بهذه الصورة هي قصة البريك دى ترافونتين . فهو يحكى بكثير من التفصيل كيف اجتاز «اولاد بلا خطيئة» يعتزمون تحرير قبر السيد ، مدينتى تور وليون وبلغوا مرسيليا واندفعوا الى الارصفة . ولكن البحر لم ينتشق امامهم . ولكن تواجد بالمقابل محتالان هما هوغ فيريوس وغيوم بوركوس ، اعلنا عن استعدادهما المنزه ، واكراما للرب فقط ، لنقل الصليبيين الى الارض المقدسة . وركبوا الصليبيين فى سبع سفن . سفينتان منها واجهتهما عاصفة وغرقتا مع الركاب قرب جزيرة القديس بطرس (سردينيا) ، بينما وصلت السفن الاخرى الى سواحل افريقيا الشمالية حيث باع التجار الهامون الصليبيين فى اسواق النخاسة . الا ان النخاسين المجرمين لم يفروا من العقاب ؛ فقد قبضوا عليهم (بحجة انهم اشتركوا فى مؤامرة المسلمين ضد الامبراطور فريدريك الثانى فى صقلية) وسنقوهم .

ان قصة البريك دى ترافونتين هي مجرد اختلاق من اولها الى آخرها . وليس فيها من صحيح غير الاشارة الى وصول الصليبيين الى مرسيليا ، ولكن المؤلف خلط ، على ما يبدو ، بين ابطال الاحداث الفعلين . فقد وصل الى مرسيليا قسم من الصليبيين الالمان ؛ ولربما حل بهم ذلك المصير الذى كتب عنه البريك ، قاصدا رفاق الراعي ايتيان .

يوجد في الادب العلمى زهاء عشرة من الكتب والمقالات عن الحملتين الصليبيتين الطفوليتين . وقد اعرّب العلماء عن شتى الآراء فى هذين المشروعين اللذين يبدو ان اليوم غير معقولين ولا يصدقان . وبذل الباحثون الكثير من الجهود لفصل الوقائع التاريخية الحقيقية عن الاساطير والاختلاعات كما بذلوا الكثير من الجهود لتفسير حملتى سنة ١٢١٢ . ان المؤرخين ذوى الاتجاه الكاثوليكي والعلماء القريبين منهم يميلون الى القول ان الحملتين الصليبيتين الطفوليتين كانتا تعكسان ، على حد زعمهم ، ذلك الاحترام الملازم للقرون الوسطى فى اوروبا الغربية ، - احترام البراءة التى تضحى بنفسها لخير المسيحية (وهذه هى وجهة نظر الكاثوليكي الفرنسى الفانديرى) . اما العقلانيون من طراز العالم النفساني الالماني من القرن الماضى هيكر ، فقد كانوا يعتبرون هذه الحركة ظاهرة مؤلمة مرضية (ظاهرة مرضية غير طبيعية) ؛ فان النزعة الدينية القروسطية والهوس الدينى القروسطى يبدو ان لهيكر تشويها مرضيا . ويرى المؤرخ الالماني الغربسى المعاصر ماير جذر الحملتين الصليبيتين الطفوليتين فى التصور القروسطى القائل ان الاطفال موسومون بخاتم الاختيار الربانى لانهم ابرياء ولانهم لا يملكون اية اموال ، اى انهم يقفون اقرب من الجميع الى المسيح . وفى الوقت نفسه يستخرج ماير الحركة كلها من افكار الفقر الرسولى المنتشرة فى اوائل القرن الثالث عشر ، ويربط هذه الافكار بهذا التصور . الا ان مؤرخين غربيين معاصرين اثنين فقط اقتربا نوعا ما من فهم احداث سنة ١٢١٢ فهما صحيحا هما العالم الايطالى المتخصص بتاريخ القرون الوسطى ميكولى والعالم الدانماركى ردىس . وقد كان ميكولى اول من لاحظ ان المصادر لا تصور البتة المشتركين فى الحملة الصليبية بصورة اولاد بلا مناص وبوجه الحصر . وقد طور ردىس هذه الملاحظة . فبتحليل جميع المصادر التى تتضمن معلومات ما فى هذه المسألة تحليلا عميقا وباللجوء الى تحليل مصطلحاتها تحليلا لغويا دقيقا ، خلص الى استنتاج ثابت مفاده ان الحملتين الصليبيتين الطفوليتين لم تكونا البتة طفوليتين ، بل كانتا عبارة عن حركات لفقراء الارياف («البروليتاريا الريفية» ، حسب تعبيره) . ففيهما اشترك الكبار ، من رجال ونساء وفتيات وشيوخ ، وكذلك الاطفال . ولكن هذا المؤرخ ايضا لم يستطع ، فى سعيه الى تفسير الاحداث الفاجعة لسنة ١٢١٢ ، ان يتخطى اطار فهمها المثلالي . فان الحملة الصليبية التى قام بها الفقراء فى سنة ١٢١٢ ليست بنظرة سوى نتاج ثانوى للميول الكنسية الإصلاحية فى ذلك الزمن ، وصيغة لحركة اخلاقية محضّة للفقر الرسولى

تؤكد وتدعم المثل العليا الانجيلية وتشمل جميع طبقات المجتمع . وهي ، حسب ردرس ، مجرد محاولة لاعادة الحملات الصليبية الى منابعها الاولى ، التى يزعم انها كانت دينية بحتة .

اما فى الواقع ، فان حملتى سنة ١٢١٢ اللتين لفتها الاساطير اللاحقة بالغموض قد كانتا عبارة عن حركة اجتماعية فى غلاف دينى ؛ والى هذا الظرف لفت الانتباه للمرة الاولى المؤرخ الماركسى فرنر (جمهورية المانيا الديمقراطية) . وبالفعل ، كانت الحملتان الصليبيتان فى اوائل القرن الثالث عشر ، المسماة «بالطفوليتين» ، تعنيان ، من حيث الجوهر ، انفجار تلك الحماسة الدينية التى دفعت الى الشرق عشرات الآلاف من الزراع الاقنان فى اواخر القرن الحادى عشر . وكانت كذلك حركة معادية للاقطاعية من حيث الجوهر املتتها بواعث تحررية . وليس من قبيل الصدفة لزمّت البولوات (المراسيم) الباباوية الصمت عن احداث سنة ١٢١٢ ، وتحدث مدونو الاخبار من الاديرة المزدهرة عن المشتركين فى الحملتين باقصى النفور وحتى باقصى العدا . كتب مدون الاخبار من مارباخ : «قضية فارغة وعقيمة» . ومثل بعض المؤرخين الآخرين فى ذلك الزمن ، يصور الحملة بصورة مبادرة مجانيين ولدت من احابيل الشيطان وليس بوحي الرب . وقد احسّ المؤلفون الكنسيون بالغريزة فى حركة الفقراء شيئا اجتماعيا خطرا ، ولم يخطئوا فى هذا . وقد اضطر ردرس الذى ابدى اقصى الموضوعية بالنسبة لباحث برجوازي ، الى الاعتراف بان صليبي سنة ١٢١٢ انما هم «طاقة الريف التمردية» ، و«احتياطي للهراطقة» .

ان ما اسمى بالحملتين الصليبيتين الطفوليتين ، هو احد المظاهر الاخيرة للتفكير الصليبي الجماهيري بوصفه شكلا معكوسا لاحتجاج الفلاحين الاقنان على الاقطاعية ؛ وما هلاك الآلاف والآلاف من الفقراء (بمن فيهم الاطفال) ممن الههم وحمسهم الحلم الخيالى بتحرير القدس بقوة ايمانهم بغية الخلاص من البلايا الارضية ، غير صفحة مأساوية اخرى فى تاريخ الحملات الصليبية .

تحويل الحملات الصليبية الى مؤسسة

فى سنة ١٢١٣ استأنف البابا اينوشنتيوس الثالث الدعوة الى حملة صليبية الى الشرق . والى جميع البلدان الكاثوليكية أرسل مفوضون باباويون - فيلق من وعاظ الحرب المقدسة المتعصبين ، بينهم اكبر وارفع احبار الكنيسة (مثل القاصد الرسولى الذى أرسل الى فرنسا ، روبر دى

كورسون ، وباك دي فيترى ، اسقف عكا ، الذى طساف فى مدن ايطاليا الشمالية ، واوليفر السكولاستى الذى وعظ فى مقاطعات المانيا الشمالية) ، ورهبان عاديون . وامر البابا بتجنيد الصليبيين فى كل مكان .

ان حملة الوعظ والتجنيد التى قام بها الكرسي الرسولى قد دامت زهاء سنتين . ثم انعقد فى روما فى شهر تشرين الثانى (نوفمبر) ١٢١٥ المجمع اللاترانى الرابع ، واتخذ سلسلة من القرارات المبدئية التى تتعلق بتنظيم الحملات الصليبية على العموم . فى القرن الثانى عشر كان البولا (المرسوم) الباباوى التدبير الوحيد فعلا الذى يبدأ رسميا هذه الحملة او تلك الى الشرق ؛ اما فى اوائل القرن الثالث عشر ، حين نضبت الحماسة الصليبية فى الغرب بصورة ملحوظة ، فقد تقرر فى الاوساط العليا الكنسية وضع تنظيم هذه المشاريع على اساس امتن بتحويل الحملات الصليبية الى ضرب من مؤسسة دائمة .

ومنذ ذاك ، امر الاسياد والمدن ، وفقا لوضعهم الاقتصادى والمالى ، بان يقدموا للحملة مجموعة حربية ذات عدد معين من العناصر ، ويؤمنوا لها الاموال لمدة ثلاث سنوات . وامر الاساقفة بمراقبة سلوك الذين نذروا النذر الصليبي ، وباتخاذ العقوبات الكنسية القاسية بحق الخارجين على الطاعة .

وقد اولت قرارات المجمع اللاترانى فى سنة ١٢١٥ الجانب المالى من الحملات الصليبية مكانا مهما ؛ فقد كان المقصود انشاء قاعدة مالية ثابتة ضرورية للقيام بهذه الحملات لانه اصبح اوضح فوضح ان تأمين المحاربين الذاتى - كانوا حتى ذاك ، على العموم ، يجهزون انفسهم بالمعدات ويؤمنون انفسهم بالاموال على حسابهم بالذات - لا يكفى . ومع مر الزمن ، اخذت تتبدى اكثر فاكثر النواقص والعيوب فى الاعداد المالى للحرب من اجل قبر السيد المسيح . وبمبادرة من البابا اينوشنتيوس الثالث قرر المجمع اللاترانى ضريبة استثنائية الزامية لتأمين حاجات الحملات ، هى المال الصليبي . وكان على رجال الكنيسة ، - ما عدا الذين يعتزمون الاشتراك شخصيا فى الحملة ، - ان يدفعوا فى غضون ثلاث سنوات جزءا من عشرين جزءا من دخلهم السنوى . وكان على الباباوات والكرادلة ان يدفعوا ضريبة مزدوجة - اى جزءا من عشرة اجزاء من دخلهم .

ثم نظمت قرارات المجمع اللاترانى الوعظ للحملات الصليبية . فقد تعين على الاساقفة وسائر رجال الدين القيام به بانتظام . وفى كل بلد تم تعيين كبير للواعظين ، يخضع له الواعظون من مرتبة ادنى من بيثة اوفر الاكليريكيين

والرهبان فصاحة وبلاغة . وفي بادى الامر عهدوا اليهم بجمع المال الصليبي ايضا وكذلك بتوزيعه على الصليبيين (بعد فترة من الوقت ، اى منذ اواسط القرن الثالث عشر ، عهدوا بجباية الاموال الى جباة عامين كان يقوم بدورهم فى المعتاد القاصد الرسولى فى البلد المعنى) .

وعدا ذلك ، نصت قرارات المجمع اللاترانى على عدد من التدابير الثانوية الهادفة الى توفير انسب الظروف لاجل القيام بالحملات الصليبية . ومنذ اعلان الحج المقدس ، اعلن «سلام الرب» لمدة اربع سنوات ؛ واثناء هذه الفترة كانت تمنع الحروب الداخلية ايا كانت ، كما كانت تمنع حتى جولات الفرسان ؛ كذلك كانت تمنع كل تجارة مع المسلمين لكى لا تستعمل سفن «المؤمنين» الا لنقل الصليبيين وكل ما يحتاجون اليه - السلاح والاحصنة والمؤن .

وبمبادرة من البابا ذاته ، اينوشنتيوس الثالث ، بدأوا منذ ذاك يضعون الكتب التعليمية لاجل وعاظ الحملات الصليبية - مجموعات من الرسائل الصليبية الباباوية ومن بولات (مراسيم) الباباوات ، ومن نصوص مواعظ الاساقفة وما الى ذلك من الوثائق التى كان بوسع الاكليريكيين والرهبان ان يقتبسوا منها الذرائع الضرورية لاجل الوعظ الناجح . وتدرجيا تمت صياغة ضرب من قالب للبولات (المراسيم) الصليبية الباباوية ايضا ، واكتسب الوعظ للحملات الصليبية سمات شكلية معينة . وكان بولا (مرسوم) البابا اوجينوس الثالث (سنة ١١٤٦) المذكور سابقا يشكل ، على العموم ، مثالا لاجل الدعوات الباباوية . وعادة كانت الوثائق التحريضية من هذا النوع تنقسم الى ثلاثة اقسام . كان القسم الاول يسمى «السرد» او «القصة» ؛ وكان يصف وضع الاماكن المقدسة المحزن ، و«مآثم الكفار» ، وما شاكل . وكان القسم الثانى يسمى «النصح» او «الدعوة» ، وكان يتضمن النداء الذى يستنهض الى الحملة الصليبية . وكانت ضرورة هذه الحملة تعلل بواسطة المجموعة التقليدية ، المبتدلة ، من المفاهيم والمصطلحات التى كانت تصاغ بها مهمات الكاثوليك : فعليهم هم ، «مناضلو المسيح» ، يتعين ان ينتزعوا الارض المقدسة من سلطة الوثنيين ، وان «يحرزوها» من «النير» الاسلامى الذى لا يطاق ، وان يحموا الاخوان المسيحيين ، وان يناضلوا بشجاعة وينقضوا بكل قواهم على الخصم . وهذا القسم من البولات (المراسيم) الصليبية كان مفعما كليا بالامثلة والذكريات من التوراة والاناجيل التى كانت الغاية منها اصفاء الوزن والجد وقوة الاقناع على الدعوات الباباوية . وكان القسم الختامى من الرسالة الباباوية يعتمد الخيرات والامتيازات المادية

والروحية التي يهبها الحبر الاعظم للمشاركين في الحرب الصليبية ؛ وكان غفران الخطايا النقطة الاساسية والمركزية ، علما بانسه يشمل سواء المشتركين في الحرب ام الذين يدعمون الصليبيين بالاموال . وعلى هذا المنوال بالذات تقريبا كانت تبني كذلك مواعظ رجال الكنيسة على اختلاف مراتبهم .

وقد عرضت البولوات (المراسيم) والمواعظ بالتفصيل مذهب الكنيسة بشأن «المآثر» و«الافضال» التي يجترحها امام الله جميع الذين يتمنطقون بالسيوف ، او يستشهدون في القتال لاجل انتصار قضية الصليب . ان الاشتراك في الحملة الصليبية - وذلك هو مغزى هذا المذهب - هو اسلوب موثوق لاكتساب رحمة الرب العلى التي تساعد بنحو مأمون واكيد فى بلوغ النعيم السماوى . وكان الصليبي الذى ينذر النذر يعقد «صفقة موفقة» (وهذا التعبير سبق ان استعمله برنار من كليرفو) مع الرب ؛ فهو اذ يتعهد بالقيام «بعمل خير» ارضى الطابع - مقاتلة «اعداء السيد» قتال حياة او موت - انما ينال على سبيل المكافاة «الخلاص السماوى» . وقد حاكت البولوات والمواعظ حول الصليبيين اكليل الشهادة ؛ فان موت الفارس فى القتال ضد «الكفار» كانت تلفه هالة صوفية وهالة من القداسة بوصفه عذابا يمهّد السبيل الى الجنة .

ومع مر الزمن ، انشئت فى الدوائر (الابرشيات) الكنسية «مكاتب الدعاية الصليبية» ؛ فمنها كانوا يوزعون بصورة مركزية ادبيات الوعظ الى المحال . وقد بقى كتاب من الرسائل الصليبية من اوائل القرن الثالث عشر موضوع فى رومرسدورف (المانيا) ، كما بقى منذ سنة ١٢٦٦ مؤلف الجنرال السابق للرهبان الدومينيكان اومبرتو دى رومانو : «مواعظ الصليب المقدس ضد المسلمين» ، الذى جمع فى كل واحد جميع الحجج السارية فى صالح الحملات الصليبية .

اذن . لقد قام البابا اينوشنتيوس الثالث بمحاولة جديدة لاستنهاض الحركة الصليبية ببناء قاعدة مالية وتنظيمية وتحريضية صلبة تحتها . وفضلا عن ذلك اعير الجانب المالى من القضية اهمية خاصة ؛ فان المال الصليبي سرعان ما اصبح موردا من اغزر موارد الخزينة الباباوية .

الحملات الى مصر والسياسة الدولية

ان النشاط الشديد الذى بذله الحبر الاعظم لاجل دعم روح الحملات الصليبية ونشره عمقا وسعة ، وارساء اساس متين لتنظيم الحروب

المقدسة ، وتأمين الدور القيادي فيها للباباوية ، لم يسفر عن النتائج التي كان يأمل فيها البابا اينوشنتيوس الثالث .

فى معرض اتخاذ الخطوات الاولى لتنظيم حملة صليبية جديدة ، اصدر اينوشنتيوس الثالث بولاً (مرسوما) خاصا ، اعاد فيه الى الازهان ما يعاينه آلاف المسيحيين فى سجون المسلمين . وفى هذه الوثيقة تحدث البابا عن القلعة الاسلامية الرهيبة التي بناها المسلمون قصدا وعمدا على جبل الطور ، فى المكان الذي حدث فيه (كما جاء فى الانجيل) ما يسمى بقيامة يسوع المسيح . هذه القلعة تهيمن على عكا وتتيح للمسلمين الظن انهم من هنا «سيتمكنون من ان يقتحموا بلا عائق الارض المتبقية من مملكة القدس» . كذلك كان يتضح من الرسالة التي دعا فيها البابا الى الحملة الصليبية انه لم يكن يعتزم الاكتفاء بالاعمال الدعائية المحضة ، بل كان ينوى كذلك ان يحضر بشخصه عملية صعود الصليبيين الى السفن . وكان من المرتأى تكليف نائب البابا (القاصد الرسولى) بالاشراف على عملية انشاء القوات البرية وارسالها . وقد ضحى البابا اينوشنتيوس الثالث على حاجات الحملة بـ ٣٠ ألف مارك ؛ وبعد فترة من الوقت اعتمد ايضا ٣ آلاف مارك . وتعينت سنة ١٢١٧ موعد بداية الحملة .

لم يشر المرسوم الباباوى باية كلمة الى من يوصى به البابا او يقترحه لمنصب قائد القوات الصليبية . اغلب الظن ان انصب مرشح لهذا المنصب المسؤول كان الملك الالماني الشاب والهام ، وملك صقلية فى آن واحد ، فريديريك الثانى هوهنشتاوفن . وفى ١٥ تموز (يوليو) ١٢١٥ ، اعلن فريديريك الثانى ، حين كان فى آخن حيث جرت حفلة تتويجه «ملكا رومانيا» ، انه يأخذ الصليب . ولكن هذا الاعلان كان من جهته اجراء ديبلوماسيا صرفا . فقد كان براء تماما من التعصب الاعمى الصليبي ؛ وما هو اهم بكثير ، هو ان الملك الالماني ، المستغرق فى الهموم السياسية الداخلية فى ممتلكاته الاوروبية الجديدة ، قد شغل ، من حيث الجوهر ، منذ بادية بدء ، موقف الانتظار والتربص حيال الحملة الصليبية التي نادى بها البابا . ومع ان فريديريك الثانى كان خاضعا لوصاية البابا اينوشنتيوس الثالث الذي وافق على الاعتراف به ملكا المانيا مقابل تنازلات سياسية معينة للكرسى الرسولى ، الا انه لم يكن بوسع البابا ، بالطبع ، ان يرشح هذا الملك لقيادة المشروع الذي حاكته روما .

وفى عداد الملوك ، اخذ النذر الصليبي ، عدا فريديريك الثانى ، ملكان آخران هما اندراش (الندره) الثانى (المجر) ويوحنا بلا ارض (انجلترا) ، تابع

البابا اينوشنتيوس الثالث . وهذان الاخيران ، السيد-البابا ، والتابع-
الملك ، ماتا احدهما تلو الآخر ، الاول فى ١٦ تموز والثانى فى ١٦ تشرين
الاول (اكتوبر) عام ١٢١٦ .

انتقلت قيادة تنظيم الحملة الصليبية الى خلف اينوشنتيوس الثالث ،
البابا هونوريوس الثالث (Honorius) (١٢١٦-١٢٢٧) . وقد واصل
هونوريوس الثالث سياسة سلفه وسعى الى تحقيق نواياه ، متمسكا ببرنامجه
المجمع اللاترانى الرابع . واول خطوة اتخذها البابا الجديد كانت تعيين
القاصد الرسولى فى قوات الصليبيين التى كانت تستعد للسفر بحرا . وهذا
المنصب شغله الكردينال بيلاجيوس من البانو ، الاسبانى الاصل .

آخر موت اينوشنتيوس الثالث الحملة الصليبية بعض الشيء . وفى
سنة ١٢١٧ لم ينطلق الى الشرق غير اندراش المجرى ، والاسياد الذين
التحقوا به واغلبهم من اراضى المانيا الجنوبية ، والدوق ليوبولد النمساوى ،
- وعلى العموم ، قوات مسلحة ، كبيرة نسبيا ، وان مبرقشة من حيث
تركيبها . وبواسطة رئيس الاوسبيتاليين المجرىين ، تسنى الاتفاق مع
البندقية على تقديم عشر سفن كبيرة بسعر مقبول - ٥٥٠ ماركا فضيا بكل
سفينة . وللحصول على المبلغ الضرورى - وقد تعين دفعه على ثلاثة اقساط
- لجأ الملك المجرى الى الطرائق التى ألفها قادة الصليبيين - تزيف
العملة ، بيع بعض الضياع الملكية ، نهب الكنائس والاديرة . ويستفاد من
معطيات مدونى الاخبار ، المبالغ فيها على ما يبدو ، ان نحو ١٠ آلاف فارس
خيال وكثيرين من المقاتلين المشاة قد انضموا تحت لوائه . على كل حال ،
لم تكف السفن التى وصلت فى ٢٥ تموز (يوليو) ١٢١٧ الى سبليت ، ولذا
عاد قسم من الصليبيين الى بيوتهم وقد وطدوا العزم على السفر فى ربيع
السنة القادمة . ووصل الملك اندراش الثانى نفسه الى سبليت فى ٢٣ آب
(اغسطس) ، ولكنه اضطر الى الانتظار بعض الوقت هناك حتى يبحر
الصليبيون اخيرا الى عكا .

بدأت الحملة الصليبية الخامسة (١٢١٧-١٢٢١) . وفى ايلول (سبتمبر)
١٢١٧ اجتمعت فى عكا فصائل اندراش الثانى المجرى ، وليوبولد
النمساوى ، والدوق اوتو من ميرانو ، كما وصلت الى عكا فصائل ملك
قبرص ، غى دى لوزينيان ، وفصائل الفرسان التابعة لاسياد اللاتين فى
سوريا ولبنان وفلسطين - ملك القدس يوحنا دى بريان ، وامير انطاكية
بوهيموند الرابع ، والاوسبيتاليين بامرة الاستاذ الاكبر غارن دى مونتيغيو ،
والهيكليين بامرة الاستاذ الاكبر غيوم من شارتر ، والفرسان التوتونييين

بامرة غرمن فون زالتس . وكان المعاصرون يعتبرون ان عدد المشتركين في الحملة الصليبية الخامسة الذين توزعوا ورابطوا في جوار عكا وفي المدينة ، بلغ ٢٠ ألف فارس و ٢٠٠ ألف من المشاة ، وهذا ايضا من باب المبالغة الشديدة .

استقبل الاسياد اللاتين المحليون الصليبيين القادمين من الغرب الى عكا بدرجة كبيرة من البرودة ، ان لم يكن بعداوة سافرة . فقد كانت البلاد الخاضعة لهم تعاني المجاعة ؛ ففي السنة السابقة ساد الجفاف . بل ان كثيرين من الصليبيين ماتوا جوعا ، - وحسب معطيات لمدونى الاخبار مبالغ فيها جدا مات نحو ١٠٠ ألف . اما الاله ، فهو ان الافرنج في سوريا ولبنان وفلسطين لم يكونوا البتة بحاجة الى حملة صليبية . فقد كانوا منذ زهاء ٢٠ سنة يعيشون بسلام مع مصر ، ويتاجرون معها ، بينما الحرب لم يكن بوسعها غير ان تخل بالوضع القائم وتضر بمصالح الطرفين الاقتصادية .

امضى الصليبيون المجريون والالمان سنة بكاملها في عكا بلا جدوى . وقد حاولوا ان يشنوا غارات على دمشق وناپلس وبيسان ؛ وكان الافرنج ، كما يقول المؤرخ العربى ابن الاثير ، يعرفون ان عساكر السلطان العادل كانت آنذاك موزعة في مختلف انحاء دولته المترامية الاطراف ، كذلك حاول الصليبيون الاستيلاء على قلعة الطور مع ابراجها ال ٧٧ وقهر حاميتها المؤلفة من الف رجل . ولكن جميع هذه المحاولات باءت بالفشل - وذلك بقدر كبير من جراء الخلافات بين الزعماء العسكريين للصليبيين . فان بوهيمون - الرابع ، امير انطاكية ، مثلا ، كان يعارض قطعاً اقتحام قلعة جبل الطور بينما كان يوحنا دى بريان يصر من جهته على ذلك .

حاول الصليبيون ثلاث مرات اقتحام القلعة ، ولكنهم ردوا على اعقابهم في كل مرة . وفي آخر المطاف تراجعوا وعادوا الى عكا . وكان الملك المجرى اندراش الثانى يفضل التخفى والاحتماء في المدينة ، وطفق في اواخر سنة ١٢١٧ يستعد للعودة الى اوروبا ؛ فقد اقتنع بعقم المشروع كله ناهيك بانه مرض . وفي كانون الثانى (يناير) ١٢١٨ ، ابهر اندراش الثانى مع قصيلته الى الوطن رغم تهديدات بطريك القدس باصدار حرم بحقه . واضطر الباقون الى ارجاء العمليات الحربية ضد المسلمين والى انتظار وصول فصائل جديدة من الصليبيين من اوروبا ، والانصراف حتى ذاك الى تحصين القلاع الباقية للبلدونات والفرسان الافرنج . وكان قسم من جنود الرب - الفرسان من فريزيا (هولندا) برئاسة الكونت غليوم ، والفرسان الالمان - قد تأخر في

الطريق ؛ فان هؤلاء الصليبيين قد توقفوا فى ليشبونة واشتبكوا فى حرب ضد المسلمين . ولم يصلوا الى عكا الا فى ٢٦ نيسان (ابريل) ١٢١٨ .
لم يكن لصليبيى الحملة الخامسة قائد عسكري . يتمتع باية مكانة ومعترف به عموما . فان ملك القدس يوحنا دى بريان لم يكن يتميز لا بالمواهب العسكرية ولا بالمواهب السياسية ، ولم يكن يملك سلطة فعلية على سائر البارونات البارزين ناهيك بان معارضة قوية كانت قائمة ضده . وبعد مهاترات طويلة قرر قادة فصائل الفرسان ارسال العساكر الى مصر ، قلعة العالم الاسلامى الرئيسية التى كان من المزمع الاستيلاء عليها اثناء الحملة الصليبية الرابعة . اختار الصليبيون المدينة-القلعة الكبيرة ، ومنافسة الاسكندرية فى التجارة ، دمياط ، الواقعة على احد سواعد دلتا النيل هدفا مباشرا لاجل الهجوم . وكانت دمياط بمثابة مفتاح مصر . وكانت تطوقها ثلاثة احزمة من الاسوار ، وكان يحميها برج جبار قائم فى جزيرة صغيرة وسط نهر النيل . ومن هذا البرج الموصول بجسر بالمدينة كانت تمتد عبر النهر سلاسل حديدية تسد الطريق الى المدينة من اجهة النهر .

استمر حصار دمياط التى وصلت اليها اولى فصائل الصليبيين فى ٢٧ ايار (مايو) ١٢١٨ زهاء سنة ونصف سنة . فى البدء استطاع الفرسان ، بتحويل سفنهم الى ضرب من آليات حصارية عائمة وباستعمال السلاسل الاقتحامية الطويلة ، ان يستولوا على برج القلعة ، ولكن قوات العدو التى انضم اليها ضغط عناصر الطبيعة - فيضان النيل - وكذلك الوباء الذى انتشر بين الصليبيين المحاصرين ، - اوقفت نجاحهم وتقدمهم . وخلال بضعة اشهر لم يحرز لا هذا الجانب ولا ذاك قصب التفوق . وقد يئس كثيرون من الفرسان من النصر ، فتركوا العساكر فى ربيع وصيف ١٢١٩ وعادوا الى اوروبا (وفى عدادهم ليوبولد النمساوى) . ولكن الآخرين ظلوا يحاصرون دمياط بعناد .

عانت المدينة المقطوعة الاوصال من جميع الجوانب الجوع ، بل ان الجوع هدد بهلاك الحامية بالذات . وآنذاك كان السلطان العادل فى دمشق ؛ وحين تلقى نبا استيلاء الصليبيين على برج دمياط ، مات . واخذ ابنه الاكبر الكامل زمام الحكم . ولانقاذ دمياط ، اقترح السلطان الجديد على الصليبيين - وكانت تهدده فضلا عن ذلك مؤامرة رجال البلاط ، رفع الحصار عن دمياط على ان يسلمهم بالمقابل مملكة القدس فى حدود سنة ١١٨٧ (بدون الكراك وكراك دى مونريال) ويعقد الصلح معهم لمدة ٣٠ سنة .

كان يوحنا دى بريان واغلبية البارونات الافرنچ يميلون الى قبول هذه

الشروط المفيدة جدا ولكن نائب البابا بيلاجيوس السدي كان قد وصل الى دمياط في ايلول (سبتمبر) ١٢١٨ تدخل في الاحداث . وقد تسنى له ان يحمل الى حد ما على الوفاق كتل زعماء الصليبيين المتعادية حتى ذاك ، وآنذاك اضطلع بدور لا يناسب البتة رجل الدين ، هو دور القائد الاعلى للقوات المسلحة . وكانت «ستراتيجيته» تنحصر فيما يلي : لا صلح مع «الكفار» . وقد حظى نائب البابا بمساندة الاساتذة الكبار الثلاثة لجمعيات رهبان الفرسان وبعض القادة الآخرين . فقد بدا لهم التنازل عن القدس غير كاف . وكان بيلاجيوس يعتقد انه ينبغي فتح دمياط باى ثمن كان ثم فتح سائر مصر . وقوبلت مقترحات السلطان السلمية بالرفض . وحتى الاقتراح بايجاد واعادة قطع «الصليب المقدس» الذى استولى عليه صلاح الدين اعتبره القائد الاعلى غير مقبول .

فى ليلة الرابع الى الخامس من شهر تشرين الثانى (نوفمبر) ١٢١٩ احتل الصليبيون دمياط بانقضاض خاطف ونهبوها وغنموا غنائم بلغت ، بتقدير جاك دى فيترى ، ٤٠٠ الف بيزانط . واثناء الحصار انقرض سكان المدينة عمليا ؛ فمن اصل ٨٠ الف نسمة لم يسلم ، كما حسب اوليفر السكولاستى ، سوى ٣ آلاف . وفى ٢٤ شباط (فبراير) هتأ البابا هونوريوس الثالث الصليبيين بالنصر ، ولكن الفرع ، كما تبين بعد فترة وجيزة ، كان قصير الامد .

فبين المنتصرين نشبت الخلافات والمخاضات . فان يوحنا دى بريان ، ملك القدس الرسمى ، طالب بضم دمياط الى ممتلكاته . الا ان الكردينال بيلاجيوس ، المتغطرس والطموح ، عارض هذا المطلب . فقد كان يرى انه يجب ان يبقى المكتسب للكورية الرومانية . كذلك لم يكن ثمة اجماع بصدد خطط خوض الحرب لاحقا . فان نائب البابا قد اصر بعناد على نقل العمليات الحربية فى الحال الى اعماق وادى النيل . الا ان هذا الاقتراح الباطل بكل جلاء لم يلقى التعاطف من جانب السواد الاعظم من الفرسان . وقد ادرك اكثر القادة العسكريين رشدا وتبصرا ان القوى لا تكفى الصليبيين لاجل هذا المشروع . شرع بيلاجيوس يفتش بتسرع عن الحلفاء لاجل فتح مصر . بل انه بدأ مفاوضات . . . مع جنكيز خان التى كانت جحافلهم قد اقتحمت آنذاك بلاد فارس ، مهددة العالم الاسلامى كله ، كما كتب ابن الاثير . الا ان الخطر الناجم عن الصليبيين بدا الآن للعرب اشد بكثير من الخطر الناجم عن الجحافل المغولية الزاحفة . وعندما تلقى الاشرف ، حاكم ارمينيا العظمى ، فى آن واحد ، طلبا بالعون من الخليفة الناصر ، ضد المغول ، ومن اخيه ،

سلطان مصر ، الكامل ، ضد الصليبيين ، قرر الاشراف انه يجب ان يرسل جيشه ضد الصليبيين بالذات .

فى ربيع سنة ١٢٢١ ، اخذت تصل الى مصر فصائل الحجاج الصليبيين الجديدة ، وعلى الاغلب من المانيا الجنوبية - لويس ، دوق بافاريا ، وغيره من الامراء مع فرسانهم . وفى هذه الاثناء استطاع الكامل ان يبنى مواقع محصنة تحصينا منيعا جنوبى دمياط بعض الشيء ، قرب مدينة المنصورة . ومع ذلك كرر مقترحاته السابقة للصليبيين بصدد الصلح . فارتفعت بين صفوف العساكر اصوات تشير على القادة بقبول شروط العدو ؛ ذلك انه سلم قبر السيد ! ولكن نائب البابا ابدى ايضا هذه المرة التشدد . وتلقى السلطان جوابا سلبيا . وعندما عرف الملك الفرنسى فيليب الثانى اوغست الذى كان يتميز عادة بسلامة الفكرة فى تقدير هذا الوضع السياسى او ذاك ، انه سنحت الفرصة للصليبيين لكى ينالوا «مملكة مقابل مدينة» وانهم حرموا انفسهم هذه الفرصة ، لم يستطع تمالكا عن نعتهم «بالاغبياء والسذج» .

وبالفعل ، لعب تشدد بيلاجيوس دورا مشؤوما فى الاحداث اللاحقة . اغلب الظن ان هذا العامل يدفع الباحث الكاثولىكى المعاصر بويل (الولايات المتحدة الاميركية) الى البحث عن حجج من شأنها ان تبرر تصرفات نائب البابا اثناء الحملة الصليبية الخامسة . ان جميع محاكمات هذا المؤرخ الاميركى (ولدهما ساق مصدرا جديدا هو مراسلات البابا هونوريوس الثالث الرسمية غير المنشورة والمحفوطة فى ارشيفات البندقية) تتلخص فى ان بيلاجيوس لم يكن البتة ، من وجهة نظر البابا ، قائدا عسكريا للصليبيين ، وانه لم يكن يتصرف الا بوصفه راعيهم الروحى ، محاولا ان يصلح بين الاحزاب المتعادية ، وما شاكل . اما منصب القائد العسكرى الاعلى ، فان هونوريوس الثالث كان ، منذ بادىء بدء ، ينوى تعيين فريديريك الثانى هوهنشتاوفن فيه ، ولكن التأجيلات والمماطلات اللامتناهية التى لجا اليها هذا الاخير لكى يتهرب من الوفاء بالنذر الصليبي خلقت وضعاً وجد فيه الصليبيون انفسهم بدون قائد جدير فمّنوا من جراء ذلك بالهزيمة . ومن هنا ينجم ان مغزى البحث الذى قام به بويل يتلخص فى التبرير المتأخر لسياسة الكرسي الرسولى الصلبة فى الحملة الصليبية . ان ضعف الحجج التى اوردها العالم الاميركى جلي للعيان : فرغم ان فريديريك الثانى تهرب بالفعل - وليس بدون اساس - من الاشتراك فى المغامرة الصليبية التى لم تكن تبشره لا بالمكتسبات من الاراضى ، ولا بالحل المنشود لتلك المسائل التى كانت تهمه فى المقام الاول (مستقبل تاج صقلية ، وغير ذلك) ، كان بيلاجيوس ،

بالفعل ، وليس اى آخر ، هو الذى يحدد خط رؤساء الصليبيين فى مصر .
وللمناسبة نقول ان مؤلفين اميركيين آخرين ، ومنهم مثلا دونوفن ،
يمدحون بكل حمية واجتهاد نائب البابا على اشتراكه النشيط والفعال بالذات
فى الاحداث . الا ان الباحث الالماني الغربى ماير والبروفسور فى جامعة
اوكسفورد فان كليفه يبديان فى هذا المجال قدرا كبيرا من الموضوعية اذ
يلقيان المسؤولية عن مآل الحرب المصرية على الكردينال بيلاجيوس .

ان هذا الراى يتطابق كليا مع وجهة نظر المعاصرين . فبعد فترة وجيزة
من انتهاء الحملة الصليبية الخامسة ، كتب الشاعر الفرنسى يون دى سان
كنتان (Saint Quentin) فى مؤلفه «شكوى القدس على الكورية الرومانية» :
«يا روما ، ان القدس تئن من الجشع الذى استحوذ عليك ، وتئن عكسا
ودمياط ايضا ؛ بسببك هذا الوضع ، وهو انهم كفوا فى هذه البلاد عن خدمة
السيد وقديسيه ، دميئات تبقى كما من قبل فى ايدى اعدائنا ، بينما
المسيحيون هالكون لانهم خانوا الملك يوحنا الذى تعيش فيه الشهامه
والمروءة» . وهناك معاصر آخر للاحداث ، هو الشاعر غليوم كليريك ،
استنكر قطعاً ادعاء نائب البابا بالقيادة العسكرية : «اجل ، حين يأخذ رجال
الدين على عاتقهم رسالة امر الفرسان ، فان هذا مخالف للقانون ، لأن واجب
الكهنة قراءة الكتاب المقدس والمزامير ، وترك ميدان القتال للفرسان» .

فى اواسط تموز (يوليو) ١٢٢١ ، هاجم الصليبيون المنصورة . وقد
حاول الملك يوحنا دى بريان ان يقنع بيلاجيوس مرة اخرى بان تصرفه
مجازفة وبانه يجب اعادة النظر فى القرار المتخذ بالهجوم . ولكن كان قد
فات الاوان . فان سواد الفرسان المتعطشين الى الغنائم اندفعت الى امام .
وامام انظارهم كانت تترامى «بابل» اى القاهرة . ويلاحظ مؤرخ مسلم من
ذلك الزمن كتب «تاريخ بطاركة الاسكندرية» : «لو ان الملك يوحنا لم
يوافق على مواصلة الهجوم ، لكان الافرنج قتلوه» . ويرى مدون الاخبار
الكاثوليكي اوليفرالسكولاستى بدوره ان «نصائح الفكر السليم غريبة عن
قوادنا» .

استمر الهجوم . وفى ذلك الوقت بالذات بدأ فيضان النيل فيضانا
عاصفا ، واغرق معسكر الصليبيين . وكان المسلمون قد استعدوا لمقاولة
الفيضان ، فقطعوا طريق التراجع على الصليبيين . وسرعان ما هبطت معنويات
عساكر نائب البابا ، فالت الادبار بلا انتظام ، ولكن القوات المصرية
حاصرت العدو من جميع الجهات وامطرته وابلا من السهام نهارا وليلا . وقد
اتحدت ضد الصليبيين فى منطقة المنصورة قوات السلطان الكامل وقوات

اخويه اللذين قدما من سنوريا - الاشرف ، حاكم ارمينيا العظمى ،
والمعظم ، حاكم دمشق . فمن الخيالة مثلاً ، كان لدى المسلمين ٤٠ الفا .
طلب الصليبيون الصلح ، وقد وافق الكامل بكل طيبة خاطر على مقترحات
الصلح المعروضة عليه ، خلافا لمقاومة اخويه اللذين كانا لا يريدان قبول
الصلح قبل انزال الهزيمة بالعدو ، وادراكا منه ان خطرا جديا جديدا
يخيم ويقترب هو الزحف المغولي . وفي ٣٠ آب (اغسطس) ١٢٢١ تم
التوقيع على الصلح لمدة ثماني سنوات . وكان على الغزاة ان يغادروا
دمياط . وبسرور نفذ الصليبيون هذا المطلب في اوائل ايلول (سبتمبر)
١٢٢١ متنهدين الصعداء .

ضاعت دمياط على الصليبيين . وفارق الصليبيون مصر . ومنيت الحملة
الصليبية الخامسة بالفشل التام ، ومعها تبددت جميع الآمال في استعادة
الارض المقدسة . ان الرب ، كما كتب المؤرخ العربي ابن الاثير ، لم يحفظه
دمياط للمسلمين وحسب ، بل ابقى في حوزتهم ايضا المدن السورية
والفلسطينية واللبنانية . وقد كلفت الحملة الغرب غاليا ، وانزل اخفاق هذا
المشروع ضربة جديدة بمكانة الباباوية .

بعد مرور اقل من عشر سنوات على هذا ، بدأت الحملة الصليبية
السادسة (١٢٢٨-١٢٢٩) . وقد ترأسها الامبراطور فريدريك الثاني
هوهنشتاوفن الذي تزوج في صيف ١٢٢٥ من ابنة ملك القدس يوحنا دي
بريان واخذ يطالب بعرش مملكة زالت من الوجود من زمان في فلسطين .
وقد اراد فريدريك الثاني ان يحقق مقاصده دون ان يسحب السيف من
قرايه . فاستغل الحرب بين مصر ودمشق ودخل في مفاوضات مع السلطان الكامل
(١٢١٨-١٢٣٨) ، الامر الذي اثار غضب روما ؛ فآنذاك بالضبط ، في
اواسط العشرينيات من القرن الثالث عشر ، احتدم الصراع بين الباباوية
والامبراطورية الالمانية بقوة جديدة حول الزعامة في العالم الاقطاعي . واذا
البابا هونوريوس الثالث الذي كان حتى ذاك ينظر بعدم الرضى ، ولكن
بتساهل مع ذلك ، الى التأجيلات العديدة ، المتكررة سنة بعد سنة تقريبا ،
لايفاء فريدريك الثاني بالنذر الصليبي ، قد قيم هذه المرة مسلك هذا
الامبراطور بكل قساوة . وفي سياق مواصلة المفاوضات مع فريدريك الثاني
بصدد الحملة الصليبية (جرت المفاوضات في سان دجرمانو بواسطة
الكردينال غوغولينو من اوستي الذي صار فيما بعد البابا غريغوريوس
التاسع) اتهم البابا المسن الامبراطور باهمال «قضية الرب» . بل ان
اونوريوس الثالث هدد الامبراطور بالحرم وبفرض غرامة قدرها ١٠٠ الف

أوقية من الذهب اذا لم تقم الحملة الصليبية فى آخر المطاف ؛ وقد ارجى البدء بها الى آب (اغسطس) ١٢٢٧ .

بامر من فريدريك الثانى شرعوا فى ثغور صقلية وايطاليا ببناء السفن . واستأنفت روما الدعوة الى الحرب المقدسة ، ولكن دعوتها قوبلت فى كل مكان بما يكفى من اللامبالاة . ولو شاء فريدريك الثانى لما كان استطاع ان يجمع فى الوقت المعين ما يكفى من الناس لاجل «البعثة فيما وراء البحار» . وفى هذه الاثناء توفى هونوريوس الثالث قبل الموعد المعين بخمسة اشهر .

نحو صيف ١٢٢٧ ، تجمع بضع عشرات الآلاف من الناس ، المجندين بصورة رئيسية فى المانيا ، وجزئيا فى فرنسا وانجلترا وايطاليا ، فى معسكر بجوار برينديزى ، وابحر بعضهم الى صقلية . ولكن الامراض بدأت بالجملة فى صفوف العساكر الصليبية التى كانت تعاني من قلة المؤن ومن الحرارة الشديدة . ومرض فريدريك الثانى ايضا . وارجئت الحملة من جديد .

الا ان البابا الجديد ، غريغوريوس التاسع ، البالغ من العمر ٨٠ سنة (١٢٢٧-١٢٤١) ، وابن عم البابا اينوشنتيوس الثالث ، والتمسك عن قناعة بمثل التيوقراطية الباباوية ، حرم فريدريك الثانى من الكنيسة بوصفه عدوا غادرا للايمان المسيحى . وتشقيا من البابا ، ابحر الامبراطور المحروم فى صيف ١٢٢٨ مع فصيلة كبيرة من برينديزى الى سوريا . وآنذاك منع غريغوريوس التاسع الحملة الصليبية كليا . واعلن ان فريدريك الثانى ليس صليبيا بل قرصان ، «خادم محمد» ، وانه راح الى الشرق ، لا لاجل الحرب ضد الاسلام بل لاجل «سرقة المملكة فى الارض المقدسة» . وكان ذلك ، اذا تكلمنا بلطف ، موقفا لا يدل على الذكاء ، اذ انه لم يفعل غير ان قلل من حظ البعثة الصليبية فى النجاح واساء الى فكرة الحملة الصليبية ، هذه الفكرة التى كانت قد فقدت فى الغرب جاذبيتها السابقة . ولم تصبح الحملة الصليبية فى يد الباباوية سوى ورقة فى لعبتها السياسية - اى فى النضال ضد الامبراطورية الالمانية . اما فريدريك الثانى الذى كان يبتغى على العموم اهدافا سياسية محضة ، فانه لم يكن يرى من جهته فى الحملة الصليبية سوى وسيلة لبناء دولة آل شتافن «العالمية» (ولذا كان يتطلع الى ملوك القدس) . وكان الامبراطور يبدى على الدوام اللامبالاة بالمسائل الدينية .

وحين وصل فريدريك الثانى الى عكا (وفى الطريق استولى على جزيرة قبرص) ، بدأ المفاوضات من جديد مع السلطان . وآنذاك كان السلطان فى وضع صعب ، لأنه كان يحارب ضد اميرى دمشق (اولا ضد اخيه ، ثم ضد

ابن اخيه) . وعملها لم يقم الصليبيون اثناء وجودهم فى فلسطين باية عمليات حربية تقريبا ، واكتفوا ببعض الغارات . وانتقل مركز الثقل فى النضال ضد «الكفار» الى ميدان الدبلوماسية . وفى شباط (فبراير) ١٢٢٩ تسنى لفريدريك الثانى بعد مناقشات طويلة ان يعقد فى يافا صلحا مع السلطان الكامل لمدة ١٠ سنوات . بموجب معاهدة الصلح ، تنازل السلطان عن القدس (باستثناء الحى الذى كان فيه الجامعان الرئيسيان) وبيت لحم والناصرة وجميع القرى الواقعة على الطرق المؤدية الى القدس ، وقسم من دائرة صيدا ، وطورون (تبين حاليا) للامبراطور الذى كان من حقه كذلك ، حسب اقواله (وهى معروفة من رسائله الى الملك الانجليزى) ان يعزز بعض الحصون والقلاع ويعيد تنظيمها . كذلك تم التوقيع مع مصر على اتفاقيات تجارية مفيدة . وتعهد فريدريك الثانى بدوره بمساعدة الكامل ضد اعدائه ، ايا كانوا ، سواء من المسلمين ام من المسيحيين ، وضمن للسلطان بان القلاع السورية الباقية فى ايدى الصليبيين - كراك دي شيفالييه (قلعة الاوسبيتاليين) ، وشاتل بلان ، وقلعة طرطوس (وكانت فى ايدى الهيكليين) لن تتلقى اية مساعدة من اى مكان .

بعد شهر ، فى ١٨ آذار (مارس) ١٢٢٩ ، دخل فريدريك الثانى القدس ، ووضع بنفسه على رأسه التاج الملكى فى كنيسة قبر السيد (فقد رفض رجال الدين تتويج الملك المحروم من الكنيسة) .

اغتاظ البابا من سياسة خصمه فى الشرق شديد الغيظ (وما فائدة الكورية الرومانية من انتزاع قبر السيد من ايدى «الكفار»؟) ، فاتهم فريدريك الثانى بخيانة المسيحية . وبإشارة من بطريك القدس ، فرض على المدينة المنع (Interdit) - قرار يمنع ممارسة الطقوس فى مكان معين) . وفى جميع الكنائس منعوا ممارسة الشعائر الدينية ، ذلك ان امبراطورا محروما يقيم فى المدينة المقدسة !

وفى الوقت نفسه ، دفع البابا غريغوريوس التاسع فصائله من الفرسان نحو ممتلكات فريدريك الثانى فى ايطاليا الجنوبية . فاسرع هذا فى مغادرة سواحل فلسطين واندفع الى ايطاليا حيث نشب صراع مسلح ضد الحبر الاعظم . منيت قوات البابا غريغوريوس التاسع بالهزيمة ؛ وفى سنة ١٢٣٠ ، الغى البابا ، بموجب شروط صلح سان دجرمانو ، الحرم عن فريدريك الثانى ، «خادم محمد» منذ زمن قريب ، وصادق فى السنة التالية على معاهداته مع المسلمين ، وامر جميع الاحبار وبخاصة الهيكليين والوسبيتاليين بمراعاة الصلح مع السلطان الكامل .

ولكن النتيجة العملية. من الحملة الصليبية السادسة - استعادة القدس سلميا - لم تدم طويلا . فبعد رحيل فريديريك الثاني الى اوروبا ، نشبت المخاصمات بين الاسياد في ممتلكاته الجديدة ، الشرقية . وكثيرون منهم استأثروا من زعامة الامبراطور فريديريك الثاني هوهنشتاوفن ، وكانوا لا يريدون الانصياع للسلطات التي اقامها . وبعد فترة وجيزة ، دخل الامبراطور من جديد في نزاع مستطيل مع الكوزية الرومانية ؛ وصدر حرم باباوى آخر . واستأنف غريغوريوس التاسع الدعوة الى الحرب المقدسة . وهذه المرة كان القصد من الحملة الصليبية ان تكون اداة لنضال الباباوية ضد فريديريك الثاني ، وكذلك وسيلة لاهلاء الخزينة الباباوية . فقد طالب البابا الكاثوليك بتبرعات نقدية كبيرة . ثم ان الوعاظ الباباويين الذين كان يهمهم ، اكثر ما يهمهم ، الجانب المالى من رسالتهم ، كانوا يغفرون خطايا المتبرعين بالذهب والفضة ، الذين كانوا يقدون انفسهم بهذا السبيل من الاشتراك الشخصى فى المشروع الصليبي الجديد .

عارض فريديريك الثاني البابا فى تنظيم الحملة الصليبية . وعندما تجمعت مع ذلك ، عند انقضاء صلح السنوات العشر مع مصر ، فصائل قليلة من الصليبيين فى ليون بقيادة الملك تيبو دى نافار والدوق هوغ الرابع البورغونى وغيرهما من الاسياد ، اعلن البابا غريغوريوس التاسع ان القدس لم تبق هدف الحملة ، وان على الصليبيين ان يساعدوا الامبراطورية اللاتينية . وهكذا زحزحت الاعتبارات السياسية ، من حيث الجوهر ، الاعتبارات الدينية زحزحة كلية فى اعمال الكورية الرومانية المتعلقة بشن الحملات الصليبية . وخلافا لنوايا البابا ، ابحر القسم الاكبر من الصليبيين فى خريف ١٢٣٩ الى سوريا بدون حماسة كبيرة . ان هذه الحملة الصليبية - وفى عداد قادتها كان كذلك الايرل (لقب انجليزى ادنى من مركز وارفع من فيكونت) الانجليزى ريشار بلانتاجينيه من كورنويل - لا يدرجها المؤرخون عادة فى سلسلة المشايع الصليبية الرئيسية (مثلا ، «تاريخ الحملات الصليبية» من عدة مجلدات ، الصادر فى الولايات المتحدة الاميركية ، اولها اكثر من ٢٠ صفحة بقليل فقط) ، لأنها لم تسفر فعلا عن اية عواقب . فان قادة الصليبيين الذين كان يحبوهم التعطش الى الغنائم فقط والذين منوا بعدد من الاخفاقات ، قد دخلوا باصرار من القرسان الهيكليين ، فى حلف مع دمشق ضد مصر ؛ ولكن المصريين هزموهم فى جوار عسقلان (تشرين الثانى - نوفمبر ١٢٣٩) مع اقوات جليفيهم الذى وعدهم بجملة من التنازلات الاقليمية فى فلسطين ؛ وبعد ذلك احتدمت المخاصمات بين الصليبيين ، وبخاصة بين الاوسبيتاليين

والهيكليين ، بضراوة مزدوجة . فقد عاد ملك نافار وغيره من قادة الحملة الى ديارهم بخفي حنين . وقد استغلت حكومة مصر جميع هذه الظروف بافضل نحو . ففي ايلول (سبتمبر) ١٢٤٤ اشرف الملك الصالح نجم الدين ايوب (١٢٤٠-١٢٤٩) مع ١٠ آلاف من الفرسان الخوارزميين على القدس واحتلها ، وذبح السكان المسيحيين عن بكرة أبيهم . وهذه المرة انتقلت المدينة بفسوخ الى المسلمين .

ومن جديد قلقت الباباوية وارتعبت . وبناء على اقتراح من اينوشنتيوس الرابع (١٢٤٣-١٢٥٤) اصدر مجمع ليون في سنة ١٢٤٥ قرارا بحملة صليبية جديدة . ولكن البابا ، مثل اقرب سابقيه ، كانت تشغله ، اكثر ما تشغله ، شؤون الكورية الزمنية اى الحرص على نشر وتوسيع ممتلكات الكرسي الرسولي . وواصل البابا اينوشنتيوس الرابع الصراع ضد فريديريك الثانى . وفى مجمع ليون لعن البابا وحرم من الكنيسة الامبراطور . ونادى بحملة صليبية ضده وضد كل آل هوهنتشتاوفن . واستبدل مفوضو البابا المطلقو الصلاحية واجب شن حملة على الامبراطور العديم التقوى بنذر القتال من اجل قبر السيد المسيح . ان الاستغلال السافر لشعار الحملة الصليبية لاجل تحقيق هدف الباباوية المباشر لفرض الزعامة والهيمنة فى اوروبا ، قد رافقه ، كما من قبل ، ابتزاز الاموال الى ما لا نهاية ، علما بان قسما كبيرا من المبالغ المجموعة كان ينصب مباشرة فى جيوب الوعاظ انفسهم . كذلك استعمل البابا اينوشنتيوس الرابع التبرعات لاجل تنشيط النضال ضد فريديريك الثانى . واذا اخذنا بالحسبان ان الحركة الصليبية كانت بسبيل الانحسار بصرف النظر عن كل ذلك ، اتضح لنا لماذا لم تحرز الدعوة الى الحملة الصليبية نجاحا كبيرا .

ومن زمان كان الفلاحون قد انصرفوا عن الحركة الصليبية . فان الحوافز السابقة للفرار الى البلدان البعيدة زالت عند الاقنان . الا ان النير الاقطاعى ، والحق يقال ، لم يصبح اخف . ولكن تأثير الكوارث الطبيعية الفتاك خف مع ذلك نظرا لتحسين المعدات الزراعية ، ونشر الدورة الزراعية الثلاثية ، واستعمال الاسمدة على نطاق اوسع . وفى اوروبا نشأت المدن وكبرت ، وعند الاقتضاء ، كان يمكن الاحتماء وراء اسوارها . واستطاعت السلطة الملكية المتوطدة ان تكبح الى هذا الحد او ذاك جماح تصرفات الاقطاعيين الاعتباطية التى كان سكان الريف يعانون منها فيما مضى . ولم يعد يرى الاقنان اية ضرورة ملحة للبحث عن الخلاص «فيما وراء البحر» . واكثر فاكثر اخذ الفلاحون

ينخرطون فى طريق آخر هو طريق النضال من اجل الحرية والارض فى ديارهم بالذات .

كذلك لم يعد الفرسان ، من جهتهم ، يرون اى مغزى فى الحملات المضنية الى الشرق . ومع توطد السلطة الملكية ، تواجدت لاخلاف «المعدمين» النبلاء شئون مؤملة ، واسعة الآفاق فى ديارهم ، قوامها الخدمة المشرفة والمفيدة فى القوات الملكية ، وفى بلاطات الملوك . فما الفائدة من سفك الدم فى مشاريع محفوفة بالمخاطر فيما وراء البحار ، خصوصا وانها فى خدمة الباباوية واهدافها السياسية ؟

ان البارونات الانجليز الذين حضروا مجمع ليون رفضوا قطعاً الموافقة على الاشتراك فى الحملة الجديدة ؛ فان الكورية الرومانية تتلقى من انجلترا قدراً مفرطاً من الاموال بصورة «المال الصليبي» - كل سنة كانت الخزينة الباباوية تجبى ٦٠ الف مارك اى اكثر من كل دخل التاج الانجليزى . ومن حيث الجوهر احتج البارونات الانجليز مباشرة على الحملات الصليبية الجديدة التى تنظمها الباباوية . واجاب الملك الانجليزى هنرى الثالث مبعوثى البابا بكل صراحة ان وعاظ الحملات الصليبية كانوا فى احيان كثيرة اكثر من اللزوم يخدعون رعايا التاج الانجليزى وان هؤلاء الرعايا لن يسمحوا بعد الآن بخداعهم ! وحتى بين رجال الكنيسة الانجليز ، ارتفعت اصوات الشك فى صواب الحروب الجديدة فى الشرق . فان اللاهوتى رادولف نيغر قد اعتبر من باب الجنون التدخل فى الشئون الفلسطينية حين تتعرض المسيحية فى الغرب بالذات للخطر من جراء انتشار الهرطقة . اليكم اين كان يكمن بنظره الخطر الرئيسى ، وهو خطر افدح بكثير بالمقارنة مع ما يجرى فى الشرق . «فى الوقت الذى يداس فيه الايمان هنا ، فى الغرب وضاعت اورشليم السماوية (مجاز عادى بالنسبة للمؤلفين الكنسيين القروسطيين ، مرادف لمدينة الرب - المؤلف) ، وتعشش الهرطقة فى كل مقاطعة تقريبا علنا او سرا ، لاي سبب يجب على الغرب المنشق (بفعل هذه الهرطقة) ان يساعده الشرق (المسيحي) ؟» . ويستطرد اللاهوتى الانجليزى قائلا : اى ثمار من شأن الجهود الرامية الى بعث اورشليم الارضية ان تعود بها ما دامت امنا - صهيون قد هلكت (ومن جديد يستعمل المؤلف صورة من التوراة الى الايمان المسيحي) ؟ وكتب رادولف نيغر ايضا : «اى معنى لتحرير فلسطين من المسلمين حين يتجذر الكفر فى الوطن ؟ لنفترض حتى ان الكفار سيُقهرون (من جانبنا) ، ولكن الايمان الحقيقى فى ديارنا بالذات يتعرض للاهانات !» . ان الحملة الصليبية تبدو حتى فى عيني اللاهوتى خراقة تامة .

وهذا الموقف من الشعارات الصليبية التي كانت تنادى بها الباباوية لم يظهر في انجلترا وحدها . فان تجنيد الصليبيين ، وبخاصة ابتزاز الاموال بلا نهاية لاجل حاجات الحملة الصليبية كما كان يزعم ، قد استثار التذمر والاستياء . فيما مضى ، في الازمنة الغابرة ، كان الشعراء المغنون الجوالون ينشدون الحروب المقدسة ، وفيما مضى ، كانوا يذمتون اولئك الذين يتذبذبون (أي مضنون الى القدس ام يبقون في ديارهم ؟) . والحال ان الشاعر المغنى الجوال الالماني الذى لقي مصرعه في الحملة الصليبية الثالثة فريديك فون هاوزن كان قد كتب بازدياء منذ امد غير بعيد نسبيا عن الفرسان الذين يرفضون بانانية التضحية بانفسهم في الحملات الصليبية :

ان من يريد ان يصون حياته
لا ياخذ الصليب المقدس .

اما هو ، فريديك فون هاوزن ، فليس هكذا :

مستعد انا للموت في القتال ،
في القتال من اجل السيد المسيح .
جميع من ضميرهم غير نقي ،
من يتخفون في وطنه ،
ابواب الجنة مغلقة امامهم .
اما نحن ، فان الرب سيستقبلنا في الجنة .

هذه الابيات كتبت قبل مجمع ليون بخمسين سنة فقط . اما الآن ، فان شعراء الفرسان طفقوا ، على العكس ، ينددون ويهزأون بالمشاركين في الحملات الصليبية التي يدبرها الكرسي الرسولي . ولقد اعرب الشاعر المغنى الجوال الفرنسى ريمون جوردان بخارق البلاغة عن الموقف السلبي المتعاظم في اوساط الفرسان من الحملات الصليبية ؛ ففي احدى قصائده ، قال انه يفضل ليلة مع حبيبته على جميع اطياب الجنة التي يعد بها الاشتراك في حملة صليبية !

وقد اضطلعت اخفاقات الحملات الصليبية بدور كبير في ضعف الحماسة في اوساط الفرسان ايضا . فان كثيرين ممن كانوا من قبل مقتنعين حقا وصدقا بان الحملات الى الشرق تجرى استجابة «لنداء الرب» ، اخذوا يشعرون بخيبة الامل وبالشكوك .

من صلاح الدين شعبنا ،
ارض الوطن مزيوة على الناس !

هكذا هتف الشاعر المغنى الجوال بيروول ، معربا عن عدم رغبة الفرسان
فى الذهاب الى الشرق . وهناك شاعر مقن آخر ، هو غيليم فيغيرا ، يلقي على
الباباوية صراحة ذنب هزيمة الصليبيين فى مصر ابان الحملة الصليبية
الخامسة :

روما ! انت المذبذبة
فى خسارة دمياط
نصائحك تهدونا
دائما بالمصيبة

كذلك الشاعر الالماني فرايدانك الذى اشترك فى حملة فريدريك الثانى
على فلسطين انتقد الحملات الصليبية انتقادا حادا . فلم ير اى مبرر لمصرع
آلاف الصليبيين من اجل عكا . ومن حيث الجوهر لم يابه احد لموتهم : «فى
مكان آخر يكون/ على موت الحمار اكثر بكثير ا» .

كذلك يعرب الشاعر المغنى الجوال البافارى نايدهارت فون روينتال عن
خيبة امل عميقة مما عاشه فى الشرق كما يعرب عن الفرح العاصف لكونه عاد
اخيرا الى الوضع المألوف ، الى البيت .

وقد اشتدت مشاعر المرارة والاسى نحو اواخر القرن الثالث عشر ، عندما
تحول اخفاق الحملات الصليبية الى واقع ثابت كان يستحيل التغاضى عنه ،
كما كان يستحيل عدم امعان الفكر فيه .

«آن لى ان اضع حدا للاغاني ا» - بهذه الابيات (التي تعود الى سنة
١٢٩٢) اعرب غيراوت ويكيير عن خيبة امله فى مال الحملات الصليبية
المشؤوم :

آنت ساعتنا -
مسكرا بعد مسكر -
لنغادر الارض المقدسة ا

وقد اثر تأثيرا قويا جدا فى مزاج الفرسان وحالتهم الفكرية والنفسية
واقع ان الحملات الصليبية قد فقدت بكل جلاء مضمونها السابق ، «المثالى» ،
الذى كان كثيرون لا يزالون يؤمنون بحكم التقاليد فى وجوده ، علما بان
هذا الواقع اخذ يتضح اكثر فاكثر . فان هذه المشاريع قد انحطت امام
الابصار ، اذ ان الباباوية كانت تستغلها بمثابة سلاح سياسى فى يدها ،
لاهدافها السياسية ، لاجل اقامة وتوطيد سيادة الكرسي الرسولى ، - واحيانا
فى النضال ضد الاعداء الشخصيين ، الامر الذى كان يثير الاستياء والغضب
واللوم فى اوساط الفرسان . واحيانا كانوا ينادون من اجل الصليبيين

بمواضيع لا تمت باى صلة الى اهداف الحركة المباشرة ، مثلا ، صقلية التى حاول البابا كليمنت الرابع انتزاعها من آل هوهنشتاوفن . وكان هذا البابا يعتبر الحرب ضد اخلاف فريديريك الثانى موازية او يكاد للحملة الصليبية لاستعادة القدس . وفى الثمانينيات من القرن الثالث عشر ، اعلن البابا مارتين الرابع حملة صليبية ضد الملك يدرو الثالث من اراغون ؛ وبعد فترة من الوقت ، اعلن البابا بونيفاسيوس الثامن حملة صليبية ضد عائلة كولونا الاريستقراطية الرومانية محولا نزاعا داخليا عاديا الى حملة صليبية .

وبالنتيجة نشأ وتعمق ضرب من تنافر ، او توتر ، حسب تعبير برسل ، بين التصورات المنشورة فى اوساط الفرسان عن الحملة الصليبية بوصفها حربا مقدسة لانقاذ الرب وانقاذ النفس ، من جهة ، وبين تحقيق هذه الفكرة عمليا من جهة اخرى . وفى الازمنة السابقة كان مفهوم وواقع الحملات الصليبية يتواجدان ، على الاقل شكليا ، فى تناسق بينهما ؛ اما فى القرن الثالث عشر ، فقد زال هذا التناسق . فان الباباوية ، كما كتب برسل ، اساءت الى الفكرة التى سبق لها ان تقدمت بها فيما مضى . واذا غضب الشعراء المغنين الجوالين الذين يعربون عن الراى العام فى اوساط الفرسان ينصب اكثر فاكثرا على روما الباباوية التى بذنبها يتقاتل الصليبيون تارة مع المسيحيين الارثوذكس ، وطورا يشهرون السيف على مواطنيهم (الحروب الالبيجية) .

يا روما ! سقت انت الى الحملة

خيرة الفرنسيين .

راحوا ، لا الى الشرق .

بل ضد الاخوة سحابة سوداء .

وفى الخطيئة مات

صف القادمين الجبار .

هكذا لعن غيليم فيغيرا الحملة الصليبية الالبيجية التى دبرها البابا اينوشنتيوس الثالث .

انتشرت الشكوك فى شرعية الحملات الصليبية انتشارا واسعا جدا فى اوساط الفرسان . فان الافكار التى بنت الباباوية على الوعظ بها فى غضون اكثر من مائة سنة دعواتها الصليبية وقامت بافعالها الصليبية ، قد تعرضت منذ ذاك لنقد ماحق ، بل ان بعض الفرسان ذهب الى حد الاعراب عن فكرة مفادها اته من المشكوك فيه على العموم ان يكون من العدل قتل ذوى الاديان الاخرى لمجرد انهم وثنيون ؛ وهذا الضرب من الشكوك اعرب عنه صراحة الشاعر المغنى الجوال الالماني فولفرام فون ايشينباخ فى احدى قصائده .

ونظرا لتدفق «موجة النقد» اضطرت الباباوية الى اخذ جانب الدفاع عن المقدمات اللاهوتية لممارستها الصليبية ؛ ففي اواسط القرن الثالث عشر كتب الكاردينال اومبرتو دى رومانو ، بتكليف من الكرسي الرسولى ، مؤلفا ضخما بثلاثة اجزاء خصيصا لاجل دحض جميع الحجج الموجهة ضد فكرة الحملات الصليبية . ولكن اومبرتو دى رومانو وغيره من اصوب اللاهوتيين تفكيرا فى القرن الثالث عشر من طراز غليوم الطرابلسى ، كانوا يعتبرون ان الحركة الصليبية فقدت كمالها الداخلى ، ولذا رأوا من الضرورى واقترحوا اصلاح قضية تنظيم الحملات الصليبية بحيث لا تستغل شعاراتها فى اهداف «غريبة» .

وفى هذه الاحوال ، امسى اصعب فأصعب على روما ان تنظم حملات صليبية جديدة . فعندما بلغ البابا اينوشنتيوس الرابع هدفه مع ذلك (ففى سنة ١٢٤٨ استطاع ان يستنهض الفرسان للحرب المقدسة ، وينظم الحملة الصليبية السابعة) ، اشترك عدد قليل نسبيا من الاسياد واتباعهم (مقطعهم) ، وكانوا اساسا من فرنسا وجزئيا من انجلترا . ناهيك بان الفرنسيين انخرطوا فى الحملة ، بمقدار كبير ، تحت ضغط ملكهم لويس التاسع (١٢٢٦-١٢٧٠) ، الذى سار على رأس الصليبيين .

بعد مرور ٥٠ سنة ، ادرجت الكنيسة الكاثوليكية لويس التاسع فى قائمة القديسين . وبلقب القديس دخل لويس التاسع التاريخ ؛ والى الآن لا تزال عبادة لويس التاسع مرعية الاجراء فى الاوساط الاكليريكية والمواليية للاستعمار فى الغرب . والى الآن لا يزالون ينسبون اليه تقوى خاصة والتعلق بالافكار الدينية الخالصة ، ولا يزالون يكرمونه ويبجلونه كملك واصل التقاليد الحقيقية للحملات الصليبية فى مظهرها الاولى . وفى سنة ١٩٧٠ ، احتفلوا فى باريس وروما (فى آن واحد) على نطاق واسع بذكرى مرور ٧٠٠ سنة على وفاة الملك الصليبي الفاجعة (فقد لقي مصرعه اثناء الحملة الصليبية الثامنة ، التى سنتحدث عنها ادناه) ؛ فقد جرت مؤتمرات علمية ، واقامت حفلات موسيقية تذكارية ، ومعارض للذخائر التاريخية وعقد المعهد الفرنسى الكاثوليكي فى روابامون مداولة لمناسبة اليوبيل .

فى ٤ حزيران (يونيو) ١٩٧٠ ، عقدت جمعية العلماء التى تهتم بقضايا تاريخ آسيا ، جلسة احتفالية فى كوليج دى فرانس لمناسبة اليوبيل ؛ وكان موضوع الجلسة «القديس لويس والشرق» . وقد اعلنت الوزارة الفرنسية لشؤون الثقافة سنة ١٩٧٠ «سنة القديس لويس» ودعمت كليا مبادرة الجمعية الاسيوية . خلاصة القول انه بذلت جهود متنوعة لاجل تذكير

الفرنسيين من الاجيال الحالية بصورة الملك المثالى «النقى» ، «التقى» ، «الصادق» ، الجدير باحترام اخلافه ، مثال الصليبي من الطراز الباكر ، الاولى ، الذى لا يسترشد ، كما يزعم ، الا بالدوافع الدينية - بافكار تحرير القدس وحمل «الكفار» على اعتناق المسيحية . وقد كتب البروفسور سترابر من جامعة برينستون : «كان الغرور والسعى وراء النفع غريبين بالقدر نفسه عن طبيعته» . ولكن هل يتطابق هذا التصوير مع الواقع التاريخي ؟ ان الحملة الصليبية السابعة قد سارت فى اتجاه الحملة الخامسة ؛ فقد كانت مصر هدفها المباشر . ففى الغرب ادركوا منذ زمن نجاحات صلاح الدين . ان مفتاح القدس موجود فى مصر على وجه الدقة . والملك لويس التاسع لم يكن البتة حالما يسبح بالفكر فى عالم الاوهام . وحملته الصليبية ، كما يجمع الباحثون على القول ، كانت منظمة افضل من الحملات السابقة . ففى الوقت المناسب ، عنى الملك بالاسطول (فقد استأجر ٦٠ سفينة فى جنوه و ٢٠ سفينة فى مرسيليا) . واستطاع ان يجد ما يكفى من النقود . فبموجب قرار من مجمع ليون ، دفع رجال الدين الفرنسيون مبالغ ضخمة - على امتداد بضع سنوات (وقد اضطروا الى دفع زهاء مليون ليرة) . وفى سياق الحديث عن الحملة الصليبية السابعة ، اعرب المؤلفون المسلمون عن الدهشة من ضخامة كمية النقود الذهبية التى جلبها «الفرنسيين» (اي «ملك الافرنج») معه فى الحملة . كذلك فكر لويس التاسع فى ضمان المؤن للصليبيين ؛ فقد جمعت فى قبرص احتياطات من الحبوب والخمور وغير ذلك من المؤن . وبلغ عدد الصليبيين الاجمالي زهاء ١٥-٢٥ الفا ، وبينهم زهاء ٣ آلاف فارس .

لقد حدد لويس التاسع ومحيطه اتجاه الحملة اثناء الاقامة المديدة فى قبرص الى حيث اوصلت سفن جنوه ومرسيليا رجال الحملة الصليبية (فقد نزلوا هناك فى ١٧ ايلول - سبتمبر ١٢٤٨ وبقوا حتى ٣٠ ايار - مايو ١٢٤٩) .

كان لويس التاسع يرفع الصلوات الى الرب العلى بكل حمية واجتهاد وكان يعمد الى جلد نفسه بنفسه من باب التوبة والندم (ولهذا الغرض كان للملك سوط خاص ا) ، ولكن الاهتمامات الزمنية لم تكن تغيب البتة عن باله . فقد كان سياسيا واقعيا جدا ، اعاد تنظيم الادارة بحذق ومهارة فى المملكة الفرنسية بسبيل النمو والرسوخ ، ورجلا لا يعرف الكلل ، وحافلا بالهمة . وقد حمل البارونات والفرسان على ارتداء البسة الحجاج ، وترأس شخصيا الصليبيين لكى يؤمن لفرنسا ، عن طريق الفتوحات الجديدة فى الشرق ، مواقع

أصلب واثبت فى منطقة البحر الأبيض المتوسط ، التى كانت ترتبط بها مدن مقاطعة لانغيدوك التى انضمت مؤخرا ، فى سنة ١٢٢٩ ، الى املاك الملك . ولكن حسابات لويس التاسع ظهرت فى هذه الحالة خاطئة ، اذ ان الوضع فى الغرب فى اواسط القرن الثالث عشر لم يكن ملائما للحملات الصليبية الجديدة . وكان الخصام بين الامبراطورية والباباوية يمزق ايطاليا والمانيا ، ولذا لم يكن البابا اينوشنتيوس الرابع ، ولا فريديريك الثانى . يفكران فى اى دعم جدى كان لحملة صليبية الى الشرق .

زد على ذلك ، كما افاد مؤلف مسلم ، ان الامبراطور فريديريك الثانى الذى علم بنوايا القديس لويس وحتى تعاطف معه ، حذر الملك الصالح نجم الدين ايوب بالحملة الجارية اعدادها ضد مصر . وبديهي ان الكنيسة الكاثوليكية اتهمت الامبراطور بخيانة القضية المسيحية . ولكن هذه الاتهامات لم تكن ترتكز على اى اساس ؛ ذلك انه لم يكن ثمة ما يحمل فريديريك الثانى على فتح عيون المصريين ليروا «سر» اعداد الحملة الصليبية ، اذ ان مبات التجار والبحارة من الاسكندرية ممن كانوا يمضون سنويا الى جنوه قد راوا بام عيونهم ان الاستعدادات تجرى هناك على قدم وساق .

ان الخبر الذى ارسله الامبراطور الى الملك المصرى (اذا كانت معطيات المؤرخ فى هذا الصدد ثابتة) كان بمثابة خطوة دبلوماسية . كتب فريديريك الثانى الى الملك الصالح : «احترس ! اعلم ان الفرنسيين - وعددهم ٦٠ الفا - ينوون ان يفتحوا القدس ، وان يستولوا اولا على مصر» . وبإبلاغ هذا ، كان الامبراطور يقصد (على كل حال) ، اغلب الظن ، ضمان حقوقه فى الشرق ، فسعى الى وقاية نفسه من اية تطاولات قد تحدث من جراء الحملة الصليبية . والاكثر احتمالا كذلك ، ان فريديريك الثانى اراد ان يحمل لويس التاسع ، بصورة غير مباشرة ، على الاحتراس : ينبغى عدم الاقتحام والتهور ، وعدم اللجوء الى القوة الفظة ، بل يجب الاستفادة بدقة من الظروف لاجل التوصل بالوسائل الدبلوماسية الى الاهداف المنشودة . وهذا يعنى ان الامبراطور حاول ان يدفع الملك الفرنسى على السير فى الدرب الذى سبق ان بنى عليه فريديريك الثانى نفسه علاقاته مع الكامل والد الملك الصالح ، وبلغ عليه الكثير . ومهما يكن من امر ، يعكس هذا الواقع بنحو معبر الوضع الدولى فى الغرب عشية الحملة الصليبية .

كذلك لم يلاحظ ميل خاص ، شديد ، فى البلدان الاخرى الى الاشتراك فى هذه الحملة . وقد سبق ان اشرنا الى الموقف السلبي الذى وقفه الملك الانجليزى هنرى الثالث . ثم ان العداوة بين البارونات والملك حالت بدورها

دون تضافر الجهود فى انجلترا الإقطاعية . وبقيت اسبانيا فى معزل عن الشؤون الشرقية ، إذ كانت ، كما من قبل ، تواجه مشاكلها الخاصة . واكتفى ملك النروج هوكون الخامس بالوعود الفارغة .

وهكذا لم يكن لويس التاسع مع حملته الصليبية بالفعل سوى أداة فى يد الكرسي الرسولى الذى كان لا يزال يحوك مشاريعه التيوقراطية الكلية ويجدها ويحاول تحقيقها . وإن العالم الفرنسى المعروف فى الشؤون البيزنطية ليمرل الذى قدر على العموم نشاط لويس التاسع كرئيس دولة رفيع التقدير ، قد كتب فى تقييم سياسته الشرقية : «إنا لسبت واثقا من أن لويس التاسع أبدى فى هذا الصعيد أيضا صفات أبرز ملك فى الغرب الإقطاعي» .

ولهذه الشكوك تتوفر بالفعل مبررات جدية . فإن الحساسية الواقعية قد غابت عن لويس التاسع فى مشاريعه الصليبية . فإن الملك ومبششاريه كانوا يجهلون ما يجرى فى الشرق ، بل انهم كانوا لا يعرفون البتة أى شيء عنه . فإن اسم «بيزنطية» لم يرد ولو مرة فى سيرة حياة لويس التاسع التى وضعها فيما بعد جان دى جوائفيل ، الذى كان قريبا منه !

أما فيما يخص المغول الذين كانوا فى ذلك الزمن بالضبط يوسعون فتوحاتهم فى آسيا الامامية ، فإن معلومات طفيفة جدا كانت تصل عنهم سواء الى باريس ام الى عموم أوروبا الغربية . وكانت آسيا تتراءى للأوروبيين الغربيين بصورة مائعة ، وكانت تصوراتهم عنها شبه خيالية . وحتى الراهب الرحالة الفرنسيسكانى دجوفانى دل بلانو كاربينى الذى توغل فى اعماق آسيا بتكليف من البابا اينوشنتيوس الرابع (فقد مضى الى هناك قبل مجمع ليون بزمان قليل وعاد الى ليون فى تشرين الثانى - نوفمبر - ١٢٤٧) ، قد اسهب فى الحديث فى يوميات سبفره عن مملكة اناس ذوى رؤوس كروؤوس الكلاب ، وافاد عن ممالك جوفية فى آسيا ، - خلاصة القول انه ملا اوصافه باختلاقات باطلة . ومن الممكن ان يكون لويس التاسع ايضا قد اطلع على حكايات دل بلانو كاربينى .

ومهما يكن من امر ، لم يحاول الملك الفرنسى ، هذا الصليبي «النقى» «البقي» ، ان يحمل المسلمين على مقاتلة المسلمين (المماليك فى مصر على مقاتلة الايوبيين فى سوريا) وحسب ، بل حاول ايضا ان يعقد ضدهم احلافا . . . مع المغول . فقد كان يأمل ، على الأرجح ، فى توطيد انقاض الممتلكات الصليبية بهذا السبيل .

فى اواسط القرن الثالث عشر ، عندما تقرر مصير الشرق فى سياق

الفتوحات المغولية ، عول حكام عدد من الدول المسيحية فى القسم الشرقى من البحر الابيض المتوسط ، بما فيها دول الصليبيين المتبقية ، على المغول بالفعل ؛ فقد عقدت كل من مملكة ارمينيا الصغرى (قيليقيا) وامارة انطاكية اتفاقية مع المغول . وقرر لويس التاسع ايضا ان يسير على منوالهما . وعملا بنصيحة ملك قبرص هنرى دى لوزينيان (١٢١٨-١٢٥٣) الذى عرفه بهاتين الاتفاقيتين ، قرر لويس التاسع هو ايضا الاتصال مع الغزاة المغول . الا انه سار فى طريق مطروق ؛ واول من سار فى هذا الطريق من الغرب لم يكن غير البابا اينوشنتيوس الرابع الذى سبق له ان سعى وراء التحالف مع المغول . ولهذا الغرض ارسل الى الخان الاعظم للاورطة الذهبية (مملكة اسسها المغول . وكانت تشمل سيبيريا الجنوبية وجنوب روسيا . زالت فى القرن الخامس عشر) دجوفانى دل بلانو كارينى . وفى سنة ١٢٤٧ ارسل البابا الى آسيا ، لاجل عقد حلف مع المغول ، بعثة اخرى برئاسة الراهب الدومينيكانى انسلم اسيلين ، - وهذه المرة الى القائد العسكرى المغولى بيدو . وكانت الذريعة الرسمية لارسال هاتين البعثتين «اطلاع الوثنيين على الدين المسيحى» . اما من حيث الجوهر ، فقد كان المقصود التقارب مع الحكام المغول لاجل انقاذ بقايا السيدة الافرنجية فى الشرق - اى الامبراطورية اللاتينية التى كان يهددها اليونانيون والأتراك . كذلك كان البابا يعلق الآمال على ان يكتسب فى شخص «الانجاس» حليفا ضد الامبراطور الالمانى فريدريك الثانى ، وان يتمكن ايضا من اقامة وتوطيد سيادة الكورية الرومانية فى الاراضى الروسية التى وقعت مؤخرا تحت النير المغولى .

ان لويس التاسع الذى انطلق فى حملة صليبية واقام اتصالات مع المغول قد تصرف ، اغلب الظن ، بالاتفاق مع البابا . وفى ٢٠ كانون الاول (ديسمبر) ١٢٤٨ ، استقبل فى قبرص الرسل المغول . وقد طرح الملك ، بحضور اعضاء مجلسه ، الكثير من الاسئلة على القادمين المجهولين ، دون ان يخطر فى باله ، اغلب الظن ، ان بعثتهم كانت تتسم بطابع استكشافى صرف ، رغم انهم انحنوا حتى الارض امام ملك فرنسا . ان واحدا من اقرب كبار رجال الكنيسة الى الملك - هو اودو دى شاتورو - قد نصح الملك ، بدوره ، بالجواب عن رسالة الخان الديغاي . وقبل الملك النصيحة ؛ وفى اواخر كانون الثانى (يناير) ١٢٤٩ ، راحت بعثة فرنسية مؤلفة من ثلاثة رهبان دومينيكيين (برئاسة اندرى لونجومو) ، واكليريكيين وفارسين الى مقر قيادة الخان الاعظم . فضلا عن رسالة الملك المتضمنة اقتراحا باعتناق

الدين المسيحي ، حمل الرسل الفرنسيون الى المغول الهدايا ، ومن بينها «كنيسة صغيرة» - اى خيمة كبيرة طرزوا عليها بحداقة وتفنن مشاهد من حياة يسوع المسيح .

ومن اجراء المفاوضات بصدد اعتناق المغول للدين المسيحي ، حاول لويس التاسع ، مثل البابا ، ان يوجه قوى المغول ضد المسلمين وضد امبراطورية نيقية .

وغنى عن البيان ان آمال لويس التاسع انقلبت الى وهم باطل تماما . فعندما وصل لونغومو ورفاقه الى المكان المقصود خلال سنة او يكاد ، بعد ان عبروا كل آسيا الوسطى (هكذا يروى جان دى جوانفيل عن ذلك) ، اتضح ان ديبلوماسية ملكهم الحكيم مبنية على الرمال ؛ فان المغول لم يكونوا يعتزمون اعتناق الدين المسيحي ، وليس هذا وحسب ، بل طالبوا كذلك من جهتهم لويس التاسع . . . بالخضوع . ولكن الملك لم يعرف بهذا المطلب الا بعد مرور وقت طويل ، اذ انه لم يتقابل مع اندرى لونغومو الا فى سنة ١٢٥١ . ونحو ذلك الزمن ، كانت الحملة الصليبية قد جرت وانتهت بالفشل التام .

وقد تطورت الاحداث كما يلى .

فى اوئل حزيران (يونيو) ١٢٤٩ نزل الصليبيون فى مصب نهر النيل ، واشاعوا الذعر بين سكان دمياط واحتلوا المدينة عنوة وعمليا بدون اى قتال جدى ، وغنموا غنائم وفيرة . ولكن الغزاة لم يستغلوا الوضع الملائم ، وتوقفوا خمسة اشهر ونصف شهر فى دمياط . وكان حكام مصر يعتقدون انه سيتأتى للصليبيين ان يحاصروا المدينة زمنا طويلا ، ولذا قوى سقوطها السريع حالة الذعر فى بلاط الملك المحتضر الصالح . وبعد مناقشات مديدة ناجمة عن كون قسم من القادة العسكريين الصليبيين قد اقترح الزحف على الاسكندرية ، حاصر الفرسان قلعة المنصورة ، واستولوا عليها فى اوائل شباط (فبراير) ١٢٥٠ . وساعدتهم الخيانة . واستشهد الامر المصرى فخر الدين .

ولكن سرعان ما افلح المسلمون فى حصر الغزاة فى المدينة ؛ فقد رأى الغزاة امامهم جيشا لجبا على راسه الملك المعظم طوران شاه (١٢٤٩-١٢٥٠) الملك الاخير من سلالة الايوبيين . وقد لقي كثيرون من الفرسان الصليبيين ممن لم يتسن لهم اللجوء الى القلعة مصرعهم . وسقط بضع مئات من المقاتلين الصليبيين اثناء القتال ، وبينهم اخو الملك ، الكونت روبردارتوا . ان الصليبيين ، كما اتضح الآن ، قد احرزوا نصرا على طريقة بيروس .

(أى نصرا كلف غالبا جدا) ، باحتلالهم المنصورة . فان هذا النصر قد اضعفهم غاية الضعف . وبعد فترة من الوقت اغرق المصريون الاسطول الصليبي الذى كان يرسو قرب المنصورة ، وقطعوا طريق الفرسان مسع دمياط التى كانت قاعدة لتموينهم . وتحت طائلة الموت جوعا اسرع الصليبيون فى الجلاء عن المنصورة ؛ فقد فروا منها برا وبحرا ونهرا وكان العدو يطاردهم ويفتك بهم . وقد زال جيشهم من الوجود كقوة مقاتلة . ووقع فى الاسر آلاف الفرسان وحملة سلاحهم . وفى عداد الاسرى كان لويس التاسع ذاته مع اخويه . وسرعان ما صار المقاتلون الصليبيون الاسرى ضحية الامراض - الملاريا والزحار (الدوسنتاريا) والاستقربوط (الحفر) . وقد ضعف الملك ، كما تشهد المصادر ، الى حد ان اسناته اخذت تسقط ، بل انه تعين حمل الملك على حمالة ، كما يفيد مدون سيرة حياته غليوم دى نانجى ، لاجل قضاء حاجته . وفى ايار (مايو) ١٢٥٠ ، اخلى سبيل لويس التاسع لقاء فدية ضخمة (٨٠٠ الف بيزنط او ٢٠٠ الف ليرة) وشرط ان يغادر الصليبيون دمياط . ووصلت بقايا العساكر الصليبية الى عكا কিيفما اتفق .

خلفا لرأى البارونات الذين نصحوا بالعودة الى الوطن (وهكذا فعلوا باغلبيتهم) ، قرر لويس التاسع ان يواصل الحملة الصليبية ، وبقي فى فلسطين اربع سنوات . وارسل الى فرنسا رسائل تحمل دعوات الى التحرك فى ربيع ١٢٥١ من اجل مساعدة الملك ضد «الكفار» . ولكن الكونتات والدوقات والبارونات والفرسان تجاهلوا هذه الدعوات . فقد كفاهم الدرس الذى تلقوه فى مصر .

ترددت دعوة الملك فى صفوف الشعب الفرنسى ، ولكن هذا الصدى لم يكن ذاك الذى كان يأمل فيه لويس التاسع . فان الوعظ بالحملة الصليبية اعطى ذريعة لانتفاضة قوية ضد الاقطاعية قام بها الفلاحون وعامة المدن . وقد كان للخطابات التعصبية التى القاها واعظ مسن سمّا مدونو الاختيار «المعلم من المعجر» تأثير كبير جدا فى بسطاء الناس . ومع الدعوة الى الحرب ضد «الكفار» ، طوّر الفكرة القائلة ان الرب امر بعدم الشفقة على الفرسان المغرورين ، اى ان انقاذ القدس هو شأن الفقراء . ونحن نعرف ان شعارات مماثلة قد انتشرت ذات مرة بين فقراء الريف ؛ وكان ذلك فى سنة ١٢١٢ . تقبل الجمهور على طريقته مواعظ «المعلم من المعجر» وغيره من الوعاظ الشعبيين . ذلك انهم كانوا يؤكدون على ان الرب العلى لا يميل الى الاعيان ولا يحسن اليهم ، ويشهّرون ببخل رجال الكنيسة وجشعهم . ولهذا اتجه

غضب الفلاحين وفقراء المدن ، لا ضد «اعداء الايمان المسيحي» البعيدين ، بل ضد اسيادهم وحمايتهم من رجال الدين . ومن مقاطعات فرنسا الشمالية حيث وعظ فيما مضى بطرس من مدينة اميان ، تحرك نحو باريس ومنها الى اورليسان عشرات الآلاف من الصليبيين الفقراء ، اسم يتحركوا لانتقاذ قبر السيد المسيح ، ولم تكن اعمالهم فرارا هائلا «الى ما وراء البحر» . وشملت نيران الاستياء الشعبى مناطق كثيرة من فرنسا . وقد احتج المنتفضون على نير البارونات والاساقفة . وسمى الفرسان «المتمردون» انفسهم «بالرعاة» . وانتقلوا الى الجنوب جموعا كبيرة ، فاتكين فى الطريق بالناس الميسورين ، والكهنة والرهبان . وقد اشترك فى الانتفاضة زهاء مائة الف شخص . وكانت الانتفاضة بشيرا بعيدا بانتفاضة الفلاحين (الجاكرى) فى مقاطعة ايل دى فرانس عام ١٣٥٨ . وقد بينت هذه الانتفاضة ان الدعاية للحملات الصليبية لم تصبح عقيمة بالنسبة للاقطاعيين وحسب ، بل امست كذلك خطرة اجتماعيا لأنها تستتبع امكانية نشوب تمردات «الرعاع» .

عبثا انتظر لويس التاسع فى فلسطين الامدادات ، فغادر عكا فى نيسان (ابريل) ١٢٥٤ وعاد الى فرنسا .

منذ الخمسينيات من القرن الثالث عشر ، اخذت مستعمرات الصليبيين فى سوريا ولبنان وفلسطين ، التى كان يمزقها الصراع الاجتماعى والسياسى الداخلى المتوتر ، تبنى المزيد والمزيد من العجز امام اعدائها فى الشرق - السلجوقيين والعرب والمغول . وفى اواخر الخمسينيات انزل المغول هزيمة شنعاء بالخليفة البغدادى ، وامتلكوا - لزمان غير طويل ، والحق يقال ، المقاطعات الداخلية من سوريا . اما الخطر الرئيسى على الصليبيين ، فقد كانت ترتسم معالمه من جهة مصر ، حيث وصلت الى الحكم فى سنة ١٢٥٠ ، بعد اغتيال المعظم طوران-شاه ، سلالة جديدة هى سلالة المماليك . وكانوا يسمون بالمماليك المقاتلين الذين كان يتألف منهم منذ زمن الملك الصالح نجم الدين ايوب (١٢٠٧-١٢٤٩) معظم الجيش المصرى . وكانوا من حيث التماؤهم الاثنى من البولوف . وكانوا يترحلون فى السهوب المشرفة على البحر الاسود ؛ وقد وقع عدد كبير منهم فى اسر المغول ، فباعهم هؤلاء عبيدا من التجار الايطاليين ، ثم باعهم هؤلاء من جديد فى مصر (وكلمة «مملوك» تعنى «عبد») . وتدرجيا ارتفع الامرون المماليك الى وضع الشريحة السائدة فى صفوف الاريستقراطية الاقطاعية . ومثلوها هم الذين قاموا فى سنة ١٢٥٠ بانقلاب فى البلاط ، حملوا به الى الحكم ملكهم المعز ايبسك (١٢٥٠-١٢٥٧) الذى بدأ منه بالفعل حكم سلالة المماليك .

استطاع المماليك ان يستبعدوا الخطر المغولى عن البلاد . فقد اوقفوا طليعة الجحافل المغولية فى ايلول (سبتمبر) ١٢٦٠ فى معركة عين جالوب . وكان بطل المعركة رئيس الحرس الملكى الذى ترقى فى البلاط ، العبد السابق ، الظاهر ركن الدين بيبرس بندقدارى . وفى سنة ١٢٦٠ صار ملكا . وفى عهده قويت مصر كثيرا . وكان بيبرس (١٢٦٠-١٢٧٧) يعتبر نفسه باعتزاز صلاح الدين الثانى . وقد وحد الملك الجبار ، الذى سار على خطوات سلفه الشهير ، مصر وسوريا . واعاد بناء الحصون ، وملا مستودعات الاسلحة ، وبنى اسطولا كبيرا ، وضبط المواصلات البريدية المنتظمة . وبعد ذاك ، وجه بيبرس همته ضد الافرنج . وكان قد تقرر وضع حد لبقايا محتلكاتهم فى سوريا ولبنان وفلسطين . وفى سنة ١٢٦٥ استولى على قيسارية وارسوف ، وفى سنة ١٢٦٨ على يافا ، وبعد شهرين - فى ايار (مايو) على انطاكية ، اغنى مدن الصليبيين . كانت سيادة الافرنج فى القسم الشرقى من البحر الابيض المتوسط تقترب بكل جلاء من نهايتها .

«انتزاع تونس من المسلمين»

فى صيف ١٢٧٠ قامت حملة صليبية اخرى ، كانت الحملة الاخيرة . وقد قام بها البارونات والفرسان الفرنسيون . وكان عددهم قليلا جدا ؛ اذ قل من كانوا يفكرون آنذاك هى استئصال الحروب فى الشرق التى منيت بالفشل بكل جلاء والتى انحطت سمعتها كليا . وهذه المرة ايضا كان الملك الفرنسى لويس التاسع ، او القديس لويس ، حليف الباباوية القديم ، والذى سبق له ان احرق اصابعه مرة فى مغامرة صليبية ، صاحب المبادرة الى الحرب المقدسة وقائد هذه الحرب . كان هذا الملك عنيدا ومثابرا فى بلوغ اهدافه السياسية ، تقييا بنحو تعصبى اعمى ، وكان يحيط نفسه بمستشارين من الرهبان الدومينيكان ؛ وقد اعلن للبارونات عن عزمه ، الذى كان يضمه من زمان ، فى ٢٥ آذار (مارس) ١٢٦٧ ، فى كنيسة سان شابيل فى باريس . وقد رأى الاسياد فى الكنيسة ذخائر من «الالام الربانية» وسمعوا من فم الملك بالذات انه سياتخذ الصليب . وان جان دى جوائفيل ، مؤرخ سيرة حياة لويس التاسع ، الذى كان من رجال البلاط ، والذى عاش مع الملك جميع تطورات حملته المصرية ، يروى ان نبا الحملة الصليبية الجديدة كان مفاجئا للغاية بالنسبة

له شخصيا وبالنسبة للأشخاص الآخرين المقربين من الملك ، وانه اذهل البارونات .

ولكن الحملة الصليبية لم تبد لجان دي جوائفيل وحده خاطئة . فهكذا كان يعتقد الجميع تقريبا في محيط الملك ، فان الحملة الصليبية الجديدة الى الشرق التي اعتزم الملك على القيام بها كانت تبدو للبارونات سخافة لا معنى لها ومفارقة تاريخية اكبر من تلك الحملة التي انتهت بكارثة منذ زهاء ٢٠ سنة . بل ان مدون الاخبار الفرنسي يزعم ان المجلس الملكي قد عارض الحملة الصليبية بالاجماع تقريبا . على كل حال ، لم يشعر الفرسان باية حماسة . فقد اضطر الملك البالغ من العمر ٥٣ سنة ، والذي كان فضلا عن ذلك يعاني من امراض لم يتخلص منها اثناء الحرب المصرية في الاربعينيات ، الى شراء حماسة الاسياد بالنقود ؛ فمن الاموال المحصلة لسد حاجات الحملة الصليبية من الضرائب المفروضة بصورة رئيسية على الكنيسة ، وهب كبار الاقطاعيين الفرنسيين والانجليز عشرات الآلاف من الليرات . ومع الملك نذر النذر الصليبي ابناؤه الثلاثة وصهره ، تيبو ، ملك نافار ، وابن اخيه ، تيبو الخامس ، كونت شامبانيا ، وروبر ، كونت دارتوا ، وغى ، كونت الفلاندر ، وبعض تابعي الملك الآخرين . وقد تهرب جان دي جوائفيل من الاشتراك في الحملة الصليبية ، متذعرا بان املاكه قد تضررت كثيرا حين كان في الارض المقدسة في المرة السابقة ، ولهذا من الافضل له ان يبقى لكي «يساعد رجاله ويحميهم» .

صحيح ان الحفلة الرسمية لاختد الصليب قد انتهت على هذا النحو في آذار (مارس) ١٢٦٧ ، ولكن الامر اقتضى ثلاث سنوات اخرى للانتقال من الاقوال الى الاعمال . فان الوضع السياسي لم يكن ملائما لتحقيق المقاصد الصليبية . ثم ان حماسة الاعيان الفرنسيين الدينية قد تناقصت كثيرا ؛ اما الرئيسي ، فهو ان الاخ الاصغر للويس ، التاسع الذي كان يأمل فسي مساعدته ، ملك مملكة نابولي (او ، بتعبير آخر مملكة الصقليتين - وكانت تتألف من بلاد نابولي وجزيرة صقلية) ، شارل كونت انجو ، لم يستطع ان يأتى الى مساندة اخيه وسيده ، ناهيك بانه لم يكن يتحرق الى تقديم هذه المساندة ؛ فان ايطاليا الجنوبية صارت من جديد مسرح عمليات حربية تقوم بها القوى السياسية المتعادية في اوروبا .

وكان البابا كليمنت الرابع قد صادق في سنة ١٢٦٥ على انتقال مملكة نابولي الى شارل ، كونت انجو وبروفانس ، اذ ان شارل وعد بان يصبح تابعا للكنيسة الرومانية . وفي ٢٦ شباط (فبراير) ١٢٦٦ ، هزم فرسان

شارل الذين اقتحموا إيطاليا الجنوبية ، وحلفاؤهم الايطاليون ، قوات الملك مانفرد هوهنشتاوفن ، وريث فريدريك الثانى ، فى معركة جرت فى ضواحي مدينة بينيفنت . وفى هذه المعركة لقي مانفرد نفسه مصرعه . ومنذ ذاك ، رسخ شارل الاول قدميه ، على ما بدا ، فى مملكة نابولى .

ان هذا الحاكم الفرنسى الاسمر ، الذى استقر فى المملكة ، والذى كان من حيث المزاج اسبانيا اكثر منه فرنسيا ، كان مقعما بنوايا ذات ابعاد كبيرة جدا فى سياسته الخارجية . فلم يكن يعتزم الاكتفاء ، لا بايطاليا الجنوبية ، ولا بواقع انهم رفعوه فى روما الى رتبة السيناتور ، وانه صار زعيم عصبة غلف واكتسب لقب فيكير توحكنا الامبراطورى . كان شارل الاول يطمح باكثر بكثير . وبعد ٥٠ سنة ، كتب المؤرخ الواسع الاطلاع من البندقية ، مارينو سائودو ، بكل حق وصواب ، ان ملك نابولى كان يسعى الى انشاء ملكية عالمية ، والاصح القول ، الى توحيد بلدان البحر الابيض المتوسط تحت سلطته . وبهذا المعنى ، واصل شارل الاول سياسته الثورمانيين الصقليين وابطاطة هوهنشتاوفن . كان شارل الاول بنجيلا ، سليم التفكير ، ومشغولاً فى الوقت ذاته بشتى الازمات السياسية ، شرط ان تلبى طموحه اللامحدود ؛ وكان متولعا ، اكثر ما كان متولعا ، بفكرة اعادة السيادة الفرنسية فى بيزنطية التى طرد منها فى سنة ١٢٦١ آخر امبراطور لاتينى هو بودوان الثانى . ولهذا الغرض قام شارل الاول بنشاط عاصف فى الحقل الديپلوماسى . وفى ايار (مايو) ١٢٦٧ عقد ملك الصقليتين فى فيترى ، مقر البابا كليمنت الرابع ، معاهدتين مع بودوان الثانى والامير غليوم فيلاردوان ، حاكم امارة موره . وقد تعهد الامبراطور اللاتينى السابق ، مقابل المساعدة السنوية بالفى فارس يتم ارسالهم فى غضون ست سنوات لاجل استرجاع القسطنطينية ، ان يحيل الى شارل ثلث الاراضى التى يستعيدها هؤلاء الفرسان بقوة السلاح ، كما تنازل لملك نابولى عن السيادة على امارة موره المقطعة ، وجزر الارخبيل ، والاراضى فى ابيروس وكورفو . واذا توفى وريث بودوان الثانى بدون ان يخلف اولادا ، فان كل الامبراطورية اللاتينية تعود الى بيت انجو . «فى مصلحة المسيحية والارض المقدسة» وافق امير موره ايضا على ان يحيل ممتلكاته فى جنوب البيلوبونيز الى شارل الاول . وقد ختمت المعاهدتان بالاختام بحضور البابا كليمنت الرابع والكرادلة وكبار الاعيان ، ودعمتهما ، كما كانت العادة آنذاك ، عرى الزواج بين اقارب وانسباء الاطراف المتعاقدة : فلكى يعلل

شارل الاول ويدعم حقوقه في القسطنطينية بمزيد من الوثوق زوج ابنته بياتريس من فيليب ، ابن بودوان الثاني .

من الممكن ان تكون مشاريع ملك نابولي قد شملت ، فيما شملت ، الحصول على تاج مملكة القدس . على كل حال ، كسب لقب ملك القدس بعد مرور عشر سنوات ، فوضعه قبل لقب ملك الصقليتين وسمى نفسه «شارل ملك القدس وصقلية بنعمة الله» . كانت اعتبارات المكانة تتسم بالنسبة لهذا الرجل الطموح باهمية من الدرجة الاولى . بل ان المؤرخ الالماني نوردان سماه «سلف نابليون في القرن الثالث عشر» .

قبل بداية المفاوضات بزمان قليل ، وصل الى هنا ، الى فيتربو ، رسولا لويس التاسع ، الماريشال هنري من كوزا والارشيدياكر (كاهن له حق زيارة كل كهنة رعايا ابريشية) غليوم من باريس . فقد اراد الملك الفرنسي ان يعرف مدى المساعدة التي سيلقاها فرسانه من مملكة الصقليتين .

تبين محاضر اللقاء بين شارل ورسولي اخيه المتوج (١-٣ ايار - مايو - ١٢٦٧) ان ملك نابولي لم يعرب البتة عن موافقته الصريحة على الاشتراك في الحملة الصليبية . لقد اضطر ، والحق يقال ، الى التعهد بتقديم السفن والقوات المسلحة والمؤن ، ولكنه لم يستطع ان ينفذ هذه التعهدات في اجل قصير . اما فيما يخص النقود - وقد طلب لويس التاسع زهاء ٥٠ ألف ليرة - فان شارل الاول لم يحرك ساكنا لتأمين هذا المبلغ .

وبينما كان ملك نابولي يعمل نفسه بالاحلام بصدد القسطنطينية ، تلبدت الغيوم من جديد فوق رأسه في ايطاليا . وفي تشرين الاول (اكتوبر) ١٢٦٧ اجتازت قوات سليل آل هوهنشتاوفن ، البالغ من العمر ١٦ سنة ، كونرادين ، حفيد فريديريك الثاني ، جبال الالب ودخلت ايطاليا . واذ ذاك ، لم يبق للملك شارل الاول حتى الوقت للتفكير في الحملة الصليبية .

في ٢٣ آب (اغسطس) ١٢٦٨ استطاع شارل الاول ان يهزم قوات عدوه في معركة تالياكوتسو ، ولكن اعضاء كتلة غيبيلين ، انصار آل هوهنشتاوفن ، تخفوا ، في ايطاليا وفي خارجها . ومنذ ذاك وجه شارل الاول جميع جهوده الى القضاء على اعدائه السياسيين الذين يدعمون حزب هوهنشتاوفن . وفي ذروة الصراع ، توفي البابا كليمنت الرابع . وبعد شهر ، وقع كونرادين الفتى في يد شارل الاول ، فأمر بقطع رأسه . وقد أعدم كونرادين في ٢٩ تشرين الاول (اكتوبر) ١٢٦٩ .

جميع هذه الاحداث اخرت لزمان طويل بداية الحملة الصليبية . ففي شباط (فبراير) ١٢٦٨ ، عين لويس التاسع ، وقد اقتنع بانه لا داعي الى

انتظار العون من اخيه ، موعد الشروع فى الحملة فى ايار (مايو) ١٢٧٠
واجرى مفاوضات مع البندقية ومرسيليا وجنوه بصدد نقل الصليبيين بحرا ،
واقنع بعض البارونات الانجليز وعلى رأسهم ابناء الملك ادوارد وادموند
بأخذ الصليب .

اما شارل الاول ، فقد استأنف ، من جهته النشاط الدبلوماسى باتجاه
القسطنطينية ، بعد ان قضى على المتمردين من كتلة غيبيلين فى ايطاليا .
فأرسل مفوضيه الى دوج البندقية ، «آمر ربع ونصف ربع رومانيا» ، لورنسو
تيوبولو ، لعقد حلف ضد «المنسقى» ميخايل باليولوغ . ولكى يعزز شارل
الاول موقعه فى منطقة الادرياتيك ، دخل فى علاقات تحالفية مع الملك اسطفان
المجرى (الذى كان يملك ساحل دلماسية) ومع الملك اوروش الصربى وكذلك
مع القيصر قسطنطين البلغارى . وفى اواخر سنة ١٢٦٩ فقط ، بدأت
الاتصالات من جديد مع لويس التاسع .

١ فى ١٤ آذار (مارس) ١٢٧٠ اخذ لويس التاسع من يد نائب البابا العكاز
والصليب ، وانطلق مع فرسانه من باريس الى جنوب البلاد ، الى بروفانس .
وفى ثغر اغمورت ركب المقاتلون الصليبيون - وبالكاد كان عددهم يربو على
١٠ آلاف - السفن . وكان مرفا كاليارى فى سردينيا نقطة التجمع . واليه
وصل الملك فى ٨ تموز (يوليو) ؛ وفى ١١ تموز وصلت السفن الباقية .
فى ١٢-١٣ تموز ، عقد لويس التاسع مع البارونات مجلسا ؛ فقد كان
ينبغى حل المسألة التالية : الى اين يمضون ؟ يفيد بريمات ، الراهب من دير
سان دينى الملكى فى مدوناته انه ظهرت فى المجلس آراء مختلفة ، وانهم
اتفقوا فى آخر الامر على دفع الاسطول نحو تونس ، ألما فيه خير الكنيسة .
وقد صادق نائب البابا على هذا القرار واعلن ان من يمضى «ضد ملك تونس»
سينال غفرانا تاما عن الخطايا كما لو ان الصليبيين انطلقوا الى الارض الى
لماذا اختاروا تونس بالذات هدفا ؟ عن هذا يفيد بالتفصيل شخص ،
اشترك فى الاحداث هو معرف الملك ، الدومينيكانى جوفروا دى بوليه ،
الذى رافق الملك فى الحملة . فهو يورد اساسا دوافع دينية محضة ألهمت ،
على حد زعمه ، الملك الفرنسى . فقبل بداية الحملة الصليبية ، تبادل لويس
التاسع ، حسب رواية دى بوليه ، الرسل مع «ملك تونس» المستنصر ،
الذى كان على استعداد ، كما اوحى الرهبان الدومينيكان ، «الجديرين بالثقة» ،
للويس التاسع ، لاعتناق الدين المسيحى بكل طيبة خاطر اذا كان فى وسعه
ان يفعل ذلك دون ان يتعرض لنقمة مواطنيه المسلمين . وحسب رواية
جوفروا دى بوليه كان لويس التاسع يفترض هو ايضا ان يجمد قوات

المسلمين بهجومه المفاجئ على تونس ، ويؤمن لامير تونس ومقربيه امكانية اعتناق الدين المسيحي بلا عائق ، وبدون التعرض لاي خطر .

بعد مرور مئات السنين تلقف بعض الباحثين الفرنسيين من ذوى الميول المحافظة رواية جوفروا دي بوليه الذى اكد بكل الوسائل على الاعتبارات الدينية التى قامت ، حسب زعمه ، فى اساس الاختيار الاستراتيجي . وبعض منهم لا يزالون يدافعون الى اليوم عن هذه الرواية ، مفتشين عن الجديد تلو الجديد من الذرائع فى صالحها . فان المؤرخ الفرنسى المعاصر لونيون ، مثلا ، الذى يتبنى رواية جوفروا دي بوليه بكل حماسة ، يصور لويس التاسع بصورة ملك-مرسل ، يتحرق ، اكثر ما يتحرق ، الى استمالة المستنصر الى الدين المسيحي ، والى تأمين انبعاث الدين المسيحي وانتصاره فى بلد عاش فيه ووعظ فيما مضى احد آباء الكنيسة ، القديس اوغسطينوس (٣٥٤-٤٣٠) . اما فى الواقع ، فان مدونات جوفروا دي بوليه تتضمن اوصافا اكثر واقعية بكثير لتلك الدوافع التى دفعت الملك لويس التاسع او القديس لويس الى تحريك اسطوله نحو تونس ؛ فان الرهبان الدومينيكان الذين كانت لهم ارسالياتهم هناك قد اقنعوا الملك بانه من السهل الاستيلاء على تونس ، وابلغوا لويس التاسع كذلك عن الثروات الطائلة فى مدينة تونس ، وقالوا له انه يمكن استعمالها لاجل استعادة الارض المقدسة ، وان ملك مصر ذاته يغرف من تونس مقادير كبيرة من الاموال ؛ فمنها يرسلون الى القاهرة الخيالة والاسلحة .

اغلب الظن ان هذه الذرائع بالذات هى التى كانت فى المقام الاول السبب الذى حمل الملك على توجيه السفن من كاليارى الى سواحل تونس . ويجب الظن ان زعماء الحملة استخلصوا الدروس من اخفاقات الصليبيين السابقة ؛ فان الهجوم المباشر على مصر مشروع لا امل فى نجاحه ، فلم لا يحاولون العمل بطريق غير مباشر ، ببدء النضال فى سبيل فلسطين من اخضاع تونس حيث سيكون من الممكن انشاء رأس جسر لاجل بلوغ الهدف الرئيسى ؟ يتبين من الوثائق المحفوظة ان لويس التاسع اعلم شارل الاول بمقصده . وقد فعل ذلك قبل المجلس فى كاليارى ؛ وفى ١٣ تموز (يوليو) ، امر شارل الاول ، اثناء وجوده فى باليرمو ، بشراء الفى قالب من الجبنة فى ابولى ونقلها الى مرفأ ترابانى فى صقلية «للاجل سفرنا البحرى الموفق من صقلية الى تونس» . وفى اوامر اقدم عهدا مؤرخة فى ايار (مايو) - حزيران (يونيو) ١٢٧٠ ، ومرسلة الى نابولى ، طالب شارل الاول بشراء الفى رأس من الخنازير و ٦٠٠ بقرة وخروف فى كالابرى وشراء الخبز فى ابولى تأمين كل

هذا بوفرة للملك لويس التاسع . الا ان تونس لم ترد في هذه الوثائق بوصفها هدف الحملة : فقد تناول فيها الكلام ببساطة عن بعثة «فيما وراء البحر» . وفي ٢١ تموز ، منح شارل الاول تجار مملكته الحق في تصدير احتياطات المأكّل بدون رسوم الى «ملك فرنسا الذي سيمضى بحرا الى تونس لعزمه على انتزاع هذه الارض من المسلمين» .

ولكن ملك نابولي نفسه لم يتسرع الى الانضمام الى قوات اخيه . فقد كان شارل الاول يفكر قبل كل شيء في مشاريع يونانية لم تسفر عن اية نتيجة . فان نحو عشرين سفينة - لم يفلح في جمع اكثر منها - لم تكن كافية لاجل الحرب ضد «المنشقين» ؛ ورفض دوج البندقية لورنسو تيوبولو التحالف مع المغامر من انجو ضد الامبراطور البيزنطي ميخايل باليولوغ . واستطاعت البندقية ، حتى بدون حرب ، ان تستعيد امتيازاتها السابقة في امبراطورية الروم . ولم تكن عند شارل الاول اية نقود - فان حيله الزوجية كانت تتطلب نفقات كبيرة - فغرق ملك نابولي في الديون .

وحتى عندما انطلق اسطول لويس التاسع في ١٥ تموز ١٢٧٠ باتجاه تونس ، وعندما نزل الصليبيون هناك في ١٨ تموز دون ان يلقوا مصاعب جدية نوعا ما ودون ان يتكبدوا اية خسارة تقريبا ، لم يتسرع شارل الاول في الالتحاق بهم . ولم يبحر الى تونس مع فصيلته الا في ٢٤ تموز ، ولكن افكاره ظلت مشغولة حتى في ذلك الوقت ايضا بالقسطنطينية وموره . ولم يكن شارل الاول يرغب في حرب ضد تونس ، وقد ارجأ الى الحد الاقصى اشتراكه في الحملة ، رغم ان لويس التاسع كان ينتظر منه العون بفارغ الصبر . وفضلا عن ذلك ، يتبين من رسالة لكابيللان لويس التاسع ، بيار دى كونده ، مؤرخة في تاريخ لاحق ، ان «ملك صقلية طالب باروناتنا في بداية الحرب بعدم التفكير في الاشتباك في حرب ضد ملك تونس» . لماذا ؟ كان شارل الاول يفضل على العموم ان يقيم علاقات حسن الجوار مع البلدان الاسلامية في افريقيا الشمالية . وكانت التجارة مع المشرق تعود على خزينته بارباح لا يستهان بها . كان دوق بروفانس وكان بالاضافة يسود على مدن ايطاليا الجنوبية ومدن صقلية . وكانت تونس تستورد الحبوب من صقلية بانتظام . وكانت الحرب تهدد بالاخلال بهذه العلاقات التجارية القائمة من زمان بعيد . ا

وعدا ذلك ، كانت للملك شارل الاول نظرات خاصة تماما الى تونس ؛ فقد سبق له ان اجرى خلال زمن طويل مفاوضات مفعمة بروح الصبر مع المستنصر لكي يدفع له المستنصر جزية كانت تونس تدفعها فيما مضى

للامبراطور فريديريك الثانى . وكان الطرفان يتبادلان الرسل بين الفينة والفينة . وشيئا فشيئا سارت المفاوضات اتسواطا الى الامام . الامر الذى حمل ملك نابولى على المماطلة فى الجواب عن عروض لويس التاسع للاشتراك فى الحملة الصليبية .

ولكن سرعان ما تعقدت العلاقات بين شارل الاول وامير تونس . فان ملك الصقليتين ، المستغرق فى الديون ، قد طلب من امير تونس ، علاوة على الجزية العادية ، دفع متأخرات عنها متراكمة منذ اواسط القرن الثالث عشر . وحين نزل صليبيو لويس التاسع فى تونس ، دخلت المفاوضات مع المستنصر طريقا مسدودا . وآنذاك فقط التحق شارل الاول بالصليبيين لفهمه انه ليس له ما يخسره .

بعد ان نزل الصليبيون الفرنسيون فى تونس ، استولوا على قلعة قرطاجا القديمة . وهب بيبرس ، ملك مصر ، الى مساعدة المستنصر . وكانت الشمس الافريقية الالهية تضئى الفرسان . وفى اواخر تموز ، دب فى صفوف قواتهم وباء - أمّا وباء الطاعون ، واما وباء الكوليرا . وفى ٣ آب (اغسطس) ، لزم لويس التاسع الفراش . وفى الوقت نفسه تقريبا شملت العدوى ابنه اللدين كانا معه (فيليب الذى خلفه فيما بعد ولقب بالجرى) ، وجان دى نيفر) وابنته ايزابيل وزوجها ، ملك نافار ، واخا هذا الاخير ، والفونس دى بواتيه وزوجته جان* ، - خلاصة القول - كل العائلة الملكية . ولم يعودوا الى فرنسا ، باستثناء ابن الملك البكر فيليب ، الذى شفى .

فى ٢٥ آب (اغسطس) ١٢٧٠ ، توفى لويس التاسع ؛ فان جسمه الذى اضعفته الامراض السابقة ، لم يصمد للمحنة الجديدة . وفى اليوم ذاته ، وصل اسطول شارل الاول الى سواحل تونس . فوجد ملك نابولى جثمان اخيه البارد . وقد فسدت معنويات العساكر كليا بسبب وفاة قائدهم المفاجئة . وكادت الحملة الصليبية تنهار وتفشل .

بعد وصول فصيلة شارل الاول الى تونس ، خاضت مع الصليبيين الذين ترأسهم خليفة لويس التاسع ، ابنه فيليب ، بضع معارك ناجحة ضد قوات امير تونس ؛ وانتهى الامر . فقد اعتبر شارل الاول من غير المعقول مواصلة الحرب فى تونس . وفى اول تشرين الثانى (نوفمبر) ١٢٧٠ ، تم التوقيع على معاهدة صلح مع المستنصر ، الزمته باستئناف دفع الجزية لملك الصقليتين ، ودفعها بمقدار الضعفين ، وبطرد افراد كتلة غيبيلين من تونس التى لجأوا اليها وتخفوا فيها ، وبالتعويض على الملكين المسيحيين عن النفقات الحربية ، علما بان ثلث المبلغ الاجمالى - ٧٠ الف اوقية من الذهب - يعود الى شارل

الاول . اما اهم شرط تضمنته المعاهدة ، فهو انها امنت الحصانة فى تونس للتجار من رعايا مملكة صقلية ؛ فانهم «سيكونون بحماية السيد اى هم بالذات واموالهم ، سواء عند دخولهم البلد ام فى زمن تصريح امورهم» . واخذ الطرف الثانى ايضا على عاتقه التزامات مماثلة . وهكذا انشأت هذه المعاهدة ضمانات حقوقية معينة لاجل تطور التجارة بين تونس وصقلية تطورا طبيعيا ، عاديا . وبعد ١٧ يوما على توقيع المعاهدة ، ركب الصليبيون السفن وغادروا تونس .

الا ان باباوات روما واصلوا دعوة الغرب الى تحرير القدس حتى بعد اخفاق حملة سنة ١٢٧٠ . وفى سنة ١٢٧٤ طالب البابا غريغوريوس العاشر فى مجمع ليون (فرنسا) بتنظيم حملة صليبية جديدة . ولكن نداءاته ظلت معلقة فى الهواء ؛ فلم يتواجد راغبون فى القتال من اجل قبر السيد المسيح . الموقف السلبي من الحملات الصليبية قد تجذر وترسخ الى حد ان مدون الاخبار الايطالى التقى ساليمبينه فسر حتى وفاة البابا بسياسته الشرقية التى لا تطيب للرب ؛ «ان الرب لم يشأ استعادة القبر المقدس من جديد ، ولذا دعا البابا اليه» .

واستمرت زمر الفرسان غير المنظمة تشن حملات منفردة حتى اواخر القرن الثالث عشر ، ولكن هذه الحملات لم تسفر عن اية نتائج جدية نوعا ما . وتوقفت الحركة الصليبية . وقد سحق ممالك مصر وابادوا آخر ممتلكات الافرنج فى الشرق الواحدة تلو الاخرى . وفى ٢٦ نيسان (ابريل) ١٢٨٩ استولت قوات الملك الاشرف خليل ابن قلاوون على طرابلس . وفى ١٨ ايار (مايو) ١٢٩١ ، اى فى ١٦ جمادى الثانى ٦٩٠ هجرية سقطت عكا ، وحولها المصريون فيما بعد الى انقاض . وزالت مملكة القدس الثانية من الوجود . ان مؤلف «البكاء على سقوط عكا» ، الراهب الدومينيكانى ريكولدو دى مونتي كروتشه ، قد فسر فى اواخر القرن الثالث عشر فشل الحملات الصليبية بكون الغرب رفض ان يقدم للارض المقدسة دعما فعلا ، لأن فكرة الاستشهاد من اجل القدس لم تعد ، برأى هذا الراهب ، تحمل الارتياح المعنوى . اما فى الواقع ، فان الحروب الصليبية قد توقفت لأنها قدمت البرهان الجلى الساطع على عقمها ، كما ان الحوافز الاجتماعية التى استثارها فيما مضى ، فى القرن الحادى عشر ، قد فقدت قوتها فى غضون ٢٠٠ سنة . وغير مرة ، قامت ، فى القرون التالية ، محاولات مصطنعة لاستئناف الحروب من اجل الارض المقدسة ، ولكنها اخفقت جميعها ؛ فان عهد الحملات الصليبية قد انتهى .

نتائج الحملات الصليبية



أهي صوّة في التاريخ العالمي ؟

هل اسفرت الحملات الصليبية عن عواقب طويلة الأمد نوعا ما ؟ هل كان لها ، الى حد ما ، تأثير خيّر في حياة شعوب الغرب والشرق ؟ وهل حملت شيئا ما ذا قيمة وفائدة ؟ وهل يمكن على العموم اعتبارها صوّة مهمة في التاريخ العالمي ؟ خلاصة القول ، اى مكان تشغل في هذا التاريخ ؟ من الصعب اعطاء جواب صريح وبيّن بنحو قاطع ، وشاف وواف في مدلوله الواحد . الا ان هناك على الاقل امر واضح ، هو ان الحملات الصليبية التي دامت زهاء ٢٠٠ سنة ، لم تمر دون ان تترك اى اثر . ولكن هناك امر آخر غنى عن البيان هو ان الاهداف المباشرة التي طرحها ملهموها ومنظموها والمشترون فيها لم تتحقق ، وان النتائج المحرزة كانت قصيرة الأمد جدا . فان الدول الاقطاعية التي أسسها الاقطاعيون الغربيون في المنطقة الشرقية من البحر الابيض المتوسط قد دامت بالفعل ، في اغليبيتها ، حقبة قصيرة نسبيا . كانت تمزقها التناقضات الاجتماعية والدينية والاثنية الداخلية ، فلم تستطع ان تصمد لضغط العالم الاسلامي ثم لضغط عالم

الروم ، وسرعان ما خرجت من الساح . وحسب التعبير المجازى الذى ساقه المؤرخان التشيكيان فيرا وميروسلاف غروخوف ، «طمر رمل النسيان آثار الفرسان المدرعين قبل ان تبته فى الغرب الذكريات عن افعالهم القاسية والبطولية بزمان طويل» .

ان الباباوية التى شنت الحروب المقدسة لم تحصل منها الا على كسب قصير الأمد ، علما بان هذا الكسب هو من حيث رفع مكانتها وهيبتها او بالاحرى من حيث تنفيذ المشاريع التيوقراطية العالمية التى حاكها «نواب القديس بطرس» اقل مما فى ميدان آخر ، بصورة رئيسية ، هو ان الكرسى الرسولى استطاع ان يعزز قاعدته المالية ، اذ اتسعت هذه بفضل الضرائب الصليبية وابتزاز الاموال الصليبية . وفى آخر المطاف ، ادى اخفاق الحملات الصليبية وما ارتبط به من فشل اصاب خطط الاتحاد الكنسى الى تقويض سمعة الباباوية نحو اواخر القرن الثالث عشر بصورة شديدة الى اطراد تدهورها لاحقا .

ان مشاريع الفرسان الاغتصابية التى قامت تحت الراية الدينية قد انعكست بصور مختلفة فى مصائر مختلف الدول الاوروبية الغربية . فان تدفق عدد كبير من «العراة» ومن «المحرومين من الارض» الى بلدان الشرق ، وكذلك كبار السادة الذين كانوا يحمون استقلالهم باكبر قدر من الغيرة والحماسة ، قد ساعد ، بقدر معين ، فى توطيد فرنسا سياسيا تحت حكم ملوكها . وهذا ما اسهم فيه ايضا نمو الوعي الذاتى القومى الذى اشترطته كذلك جزئيا الحملات الصليبية ؛ ذلك ان الفرنسيين بالذات هم الذين كانوا يشكلون المجموعات الاساسية من المشتركين فيها . وان الحملات الصليبية ذاتها التى كانت جزءا عضويا لا يتجزأ من النهج التوسعى الذى كانت تسير عليه امبراطورية آل هوهنشتاوفن الساعين الى اقامة السيطرة العالمية ، قد قوت ، على العكس ، واكثر من ذى قبل ، عواقب هذا النهج السلبية بالنسبة لالمانيا ، معززة عودة الميول اللامركزية فيها ، ومعجلة انقسام المانيا الى امارات اقليمية مستقلة . ولكن دول شبه جزيرة البيرينيه احرزت - وليس بدون دعم الصليبيين - نجاحات معينة فى استعادة الاراضى من العرب ؛ فان الحملات الصليبية كانت بين الفينة والفينة تتشابهك بوثوق مع الريكونكيستو ، كما ان المشتركين فيها كانوا يتحولون احيانا الى قوتها الضاربة ، كما حدث ، مثلا ، فى سنة ١١٤٧ (الحملة الصليبية الثانية) .

ولا ريب فى ان البندقية وجنوه قد كسبتا من الحملات الصليبية . الا

انهما ، والحق يقال ، فقدتا نحو اواخر القرن الثالث عشر ، نقاط الارتكاز على الساحل الفلسطيني اللبناني السوري ، ولكن بقيت لهما خلال زمن طويل دولة استعمارية شاسعة استطاع رجال المال من الجمهوريتين الايطاليتين الشمالييتين ان يبنوها بمساعدتهم الفرسان الصليبيين في فتوحاتهم . بيد انه لا يندر ان تتشوش الرؤية في تقييم هذا العامل بحكم التقاليد ؛ فان كثيرين من المؤرخين يعتبرون ان ازدهار التجارة المشرقية الذي لوحظ في القرنين الثاني عشر والثالث عشر كان يقترن على وجه الضبط بالهيمنة التجارية الايطالية في البحر الابيض المتوسط ؛ وان الوضع المميز لمستوطنات التجار من ايطاليا وفرنسا الجنوبية وكاتالونيا في سوريا قد آمن لها ، كما يزعمون ، افضليات تجارية مهمة وامكانيات للكسب ، وان تكن عابرة .

من الصعب الموافقة على هذا الرأي . فان التجارة كانت بالفعل تشغل مكانا مهما في الحياة الاقتصادية في الدول التي اسسها الصليبيون . وكان المسلمون يتحدثون بسخر عن حب التاجر الغربي للمال : فلو فقد حتى عينا واحدة ، لو اصل المجيء الى الشرق لاجل تسيير اعماله . ولكن النشاط التجاري الكثيف الذي كان يقوم به رجال المال من جنوة والبندقية ومرسيليا وكاتالونيا وغيرهم في المشرق كان مدينا بنطاقه الشاسع ، بصورة رئيسية ، للتطور الاقتصادي الداخلي في اوروبا في القرنين الثاني عشر والثالث عشر وبدرجة اقل بكثير للنظام المميز الذي كانت تتمتع به مستوطناتهم التجارية في دول الافرنج . مثلا . يستفاد من حسابات المستشرق الفرنسي كايّان ان عدد الصفقات التجارية المعقودة في سنوات ١١٠٠-١١٧٠ بين تجار البندقية وتجار الشرق في الاسكندرية كان اكبر من عدد الصفقات المعقودة في عكا ، بينما كان مماثلا تقريبا في القسطنطينية . وهذا يعني ان الاسكندرية والقسطنطينية اي المدينتين غير الخاضعتين لحكم الصليبيين كانتا ، في القرن الثاني عشر ، تتفوقان من حيث اهميتهما - بوصفهما مركزين للتجارة المشرقية - على المدن المينائية في دول الافرنج . ومما له دلالة ان التجار الاوروبيين الغربيين اخذوا مع مر الزمن يوقعون اكثر فاكثرا على اتفاقيات تجارية متبادلة النفع مع مصر وغيرها من الدول الاسلامية اذ كانوا يرون في ذلك اساسا او ثقا وآمن (بالمقارنة مع الامتيازات الاستعمارية) لاجل نجاح اعمالهم . وليس من قبيل الصدفة ان اهتمام التجار بالمشاريع الصليبية اخذ يقل تدريجيا كذلك لأنها لم تكن تفعل غير ان تعرقل كسب الارباح بصورة منظمة من التجارة المشرقية .

هل كانت للحملات الصليبية عواقب اجتماعية مباشرة ؟ كان الفرسان المشتركون الرئيسيون في هذه الحروب . وكانت فرقهم الصليبية شاسعة جدا بالاجمال . اما عدد اشهر العائلات الاقطاعية التي اقامت علاقات ثابتة مع الارض المقدسة ، فانه يبدو ، بالعكس ، غير كبير نسبيا ؛ وعلى العموم لم يكن عدد الصليبيين «الاشراف» الذين استقروا بثبات في الشرق ، حسبما يبدو ، متطابقا مع توقعات ملهميهم . ومنذ اواخر القرن الثاني عشر وبخاصة منذ بداية القرن الثالث عشر ، كانت الاراضي البيزنطية تغرى كثيرين من الاسياد اكثر بكثير ؛ واخذ تدفق الاريسستقراطيين من الغرب الى دول الصليبيين في سوريا ولبنان وفلسطين يقل اكثر فاكتر . وعدا ذلك ، وجد عدد لا يستهان به من الفرسان ، مع مر الزمن ، مخرجاً من الرغبة في القتال والحرب بالانتماء الى الجمعيات الرهبانية العسكرية التي لم يكن نشاطها يرتبط بالدفاع عن الشرق اللاتيني فقط . وعلى كل حال ، كانت الحملات الصليبية تعنى بالنسبة للطبقة الاقطاعية في اوروبا الغربية سفك الدماء بمقادير هائلة ؛ ذلك ان النجاحات في الشرق ، بما فيها حتى ايسرها واصغرها ، كانت تكلف ضحايا كبيرة . وبالنتيجة - وهذا هو الرئيسى - استتبع الحملات الصليبية تغيرات ، ملحوظة جدا احيانا ، في توزيع ملكية الارض في بلدان الغرب . وعلى الاخص ، اسهم رحيل الفرسان «الى ما وراء البحار» في توسيع ملكية الكنيسة للاراضى .

ومن عواقب اشتراك الاقطاعيين في الحركة الصليبية ، ارتفاع مستوى وعيهم الذاتى الطبقي ؛ فباشتراكهم في المعارك ضد العدو المشترك بوصفهم القوة الحاسمة ، ادركوا بجلاء انتماءهم الى فئة اجتماعية واحدة ذات مصالح مشتركة . وليس من باب العبث اذا كانت مدونات الاخبار ، وبصورة رئيسية مدونات اولى الحملات الصليبية التي اشتركت فيها كذلك جماهير غفيرة من اهل الريف ، تعارض الفرسان بكل جلاء بالفلاحين ، بالعامّة ، «التي لا تصلح للحرب والجبانة» . وان مدون اخبار الحملة الصليبية الاولى فولهير من شارتر ، يبرز على الخصوص بجميع الوسائل نبل مسلك الاقطاعيين اثناء معركة انطاكية ؛ فبعد الاستيلاء على المدينة ، «عمد الشعب بلا رادع ولا كابح الى نهب كل ما كان في الشوارع او في البيوت» ؛ اما الفرسان ، فقد بقوا ، حسب زعم فولهير ، مخلصين للشرف الفروسي .

خلاصة القول ان الحملات الصليبية شقت ثلما اعمق يفصل الاسياد عن الفلاحين الفقراء : فان الفرسان قد اضطروا رغم انوفهم الى رص صفوفهم ، وليس فقط امام الاعداء الكفار ، بل ايضا امام «الرعاى المتمردين والذين

يستحيل اصلاحهم» (البر من آخن) . وفي انطاكية ، اضطر الامير ريمون من تولوز ، والامير بوهيموند من تارنتو ، اللذان كانا يتنافسان بضراوة ، الى التصالح في اواخر سنة ١٠٩٨ حين واجها خطر فتنة فلاحية في صفوف القوات المسلحة . وهكذا اسهم النضال من اجل الاهداف المشتركة والنزاعات التي رافقته مع «القرويين ذوى الاخلاق الفظة» ، المنفلتين ، الذين لا انضباط عندهم» في توطيد تفهم الفرسان لتمييزهم الاجتماعى ولمصالحهم الخاصة التي تتطلب التلاحم والتراص .

ثم ان التعرف على الشرق اسهم فى احداث تغييرات فى نمط حياة الاسياد فى الغرب . فان الفارس الصليبي كانت تستحوذ عليه ، بعد عودته الى الوطن ، مطامح جديدة ، وكانت تظهر عنده ادلة تقييمية جديدة . ولم يكن ليعارض الاستعاضة عن اللباس الخشن المغزول فى البيت باللبسة الشرقية الناعمة والجميلة ؛ وتزيين جدران بيته بالسجاجيد ؛ والاستعاضة عن المرأة من البرونز المصقول او من الفولاذ بالمرآة من الزجاج . ولماذا لا يستكمل المائدة القروية البسيطة بمآكل متأنقة من المطبخ الشرقى ، وبالتوابل ؟ ولماذا لا يشرب هو نفسه ، ولماذا لا يقدم لضيوفه بعد الصيد ، الخمر الشرقى العاطر ؟ ولماذا لا يبهز فى جولة الفرسان او اثناء حفلة فى القصر بسيف ذى قبضة مطعمة ومرصعة باناقة وبخناجر من الذهب والعاج ؟ واى خير اذا ما قدم لضيف امضى معه النهار بشكل مستطاب الى مائدة فاخرة سلة من الفواكه النادرة الواصلة للتو من وراء البحار ؟ خلاصة القول ان حاجات الاقطاعيين تزايدت ، وان بنيتها تغيرت ؛ وفي الوقت نفسه اخذت تدخل حين الخدمة اكثر فاكثر وسيلة موثوقة لتلبية الحاجات هي النقود .

ونظرا لذلك ارتسمت تطورات وتغييرات معينة فى وضع الفلاحين الاقنان ايضا . ففيما مضى لم يستطع مئات الآلاف منهم ان يصمدوا لاغراء سراب ارض القدس «التي تسيل عسلا ولبنا» واشتركوا ببالح الهمة والنشاط فى الحملات الصليبية . وفى افضل الاحوال كان هؤلاء الفلاحون يزدادون فقرا وبؤسا بعد عودتهم الى الوطن . فان نير الاسياد لم يضعف من جراء الحملات الصليبية ، وليس هذا وحسب ، بل اشتد ايضا . ذلك ان الاشتراك فى الحروب ما وراء البحار وفى رحلات الحج قد تطلب من الاقطاعيين نفقات كبيرة ؛ وهذه النفقات كان الاسياد يلقونها بالطبع على كواهل الاقنان . واذا ابقى السيد ، عند انطلاقه فى «درب السيد» ، شيئا ما لفلاحيه من اجل سد رمقهم ، فائر وكيله الذى كان يطالب بالاتاوى والفرائض العينية

والنقدية ، كانت تنقض عصابات الجبابة الباباويين ، محصلي النقود الصليبية .
اما السواد الاعظم من الفلاحين الصليبيين ، فقد لقوا مصرعهم في الشرق
(في المعارك او من جراء الامراض) . ولم يفلح سوى عدد قليل جدا منهم
في تحقيق امانهم في حياة افضل فيما وراء البحار .

ومع ان الاستثمار الاقطاعي في الغرب لم يقل البتة في القرنين الثاني
عشر والثالث عشر ، الا ان اشكاله اخذت تتغير هنا وهناك . وان رحيل
الفلاحين الى الشرق (في زمن الحملات الصليبية الاولى) كان بعد ذاته
يستتبع احيانا في العقارات الاقطاعية نقصا في الايدي العاملة ، فاضطر
الاسياد رغم انوفهم الى التخفيف نوعا ما من حياة الفلاحين . ومن جراء تعاظم
حاجات الاقطاعيين الى النقود ، اخذ حق القناة يتلاشى شيئا فشيئا ، واخذت
الاقساط النقدية تحل تدريجيا محل الفريضة العينية ، بل ان بعض الفلاحين
كانوا ينالون الحرية الشخصية مقابل فدية نقدية . وقد جرت هذه الظواهرات
بالطبع ، وقبل كل شيء - وبصرف النظر عن الحملات الصليبية - بقدر ما
كانت تتطور الحرفة والتجارة والمدن والعلاقات النقدية في اوروبا .

والشيء نفسه تقريبا يصح ايضا على التغيرات في اوضاع المدن في
الغرب . فان الاسياد ، سعيا منهم الى التزود بالاموال قبل انطلاقهم في
الحملات ، كانوا احيانا يقدمون على التنازل عن حقوقهم حيال المدن : فمقابل
النقود كانت بعض المدن الواقعة في ممتلكات الكونتات والدوقات تشتري
لنفسها اصنافا متنوعة من الحريات . ولكن - ونؤكد مرة اخرى - خلافا
لرأى المؤرخين الذين ينسبون نهوض الحياة في المدن وتحرر المدن من
حكم الاقطاعيين الى الحملات الصليبية بالذات ، جرت هذه العملية في المقام
الاول الى جانب الحركة الصليبية وبدأت قبلها بزمان طويل . وهذا يعني ان
الحملات الصليبية ، ما دمنا نعن الفكر في عواقبها الاجتماعية ، لم تسهم
الا بصورة غير مباشرة في العمليات التقدمية في تطور الغرب الاقطاعي ،
ولم تكن في اي حال من الاحوال عاملا الحاسم . ان اساس التغيرات التي
طرأت في حياة المجتمع الاقطاعي قد تجذر في التطور الداخلي للاقتصاد
الاوروبي والاضاع الاجتماعية . ومن هنا ينجم ان الحملات الصليبية لم
تحمل اي شيء جديد مبدئيا وبالاخرى اي شيء جديد جوهريا الى المجرى العام
لنمو اوروبا الاقطاعية الاجتماعية .

يبقى ان ندرس النتائج الثقافية التاريخية للحملات الصليبية . في الادب
الغربي لا يزال يشيع رأي كان واسع الانتشار فيما مضى ، مفاده ان الحملات
الصليبية كانت في هذا المجال مثمرة على وجه الخصوص ، وانها ، بادخال

الاوروبيين الغربيين الى عالم جديد بالنسبة لهم من القيم الثقافية ، قد ادت الى ارتفاع مستوى الثقافة ، وحتى عنت فيها مرحلة جديدة . هذا الراى متحيز وسطحى ، ولا يرتكز على وقائع كافية وقابلة للتصديق نوعا ما .

لا ريب فى ان الشرق العربى وثقافته (باوسع معانى هذا المفهوم) قد اثرا تأثيرا بالغا فى شتى جوانب الحياة المادية والروحية فى المجتمع الاقطاعى الاوروبى الغربى . فقد اقتبس الغرب الكثير من الشعوب الشرقية فى مضمار التكنيك . ومن الشرق الى اوروبا راح الطاحون الهوائى ؛ ففي الغرب بدأوا يبنون الطواحين الهوائية منذ القرن الثانى عشر بعد ان شاهدها الصليبيون فى سوريا . ومن سوريا ايضا اخذ الغرب الدولاب المائى المحسن ؛ وقد كان معروفا فى الشرق منذ ازمان روما ، وحسنه الميكانيكيون العرب وكان فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر يُستعمل على نطاق واسع فى سوريا حيث اشتهر على الاخص حرفيو انطاكية بمهارة صنع هذا المحرك . وتتوفر المبررات للاشارة كذلك الى بعض المقتبسات الاخرى من المنجزات التكنيكية فى الشرق . فمنذ اواخر القرن الثانى عشر ، مثلا ، شرعوا فى اوروبا يربون ويستعملون (للاغراض الحربية فى بادى الامر) الحمام الزاجل الذى كان مستخدما من قديم الزمان فى بلدان المشرق ؛ ففي القرن التاسع ، كان الحمام يؤمن «خط البريد» بين الموصل وبغداد وغيرها من المدن .

ثم ان الاوروبيين اقتبسوا فى الشرق بعضا من مزروعات الحقول والبساتين والقرعيات لم يكونوا يعرفونها (الحنطة السوداء ، الرز ، البطيخ ، المشمش ، الليمون الحامض) وبعض اصناف الزهور (الورد الدمشقى) . وخلال زمن طويل كان العسل المنتج الغذائى الحلو الوحيد فى الغرب ، ولم يدخل سكر القصب قيد الاستهلاك الا منذ القرن الثانى عشر . وللمرة الاولى تعرف المقاتلون الافرنج على قصب السكر عندما جاعوا فى انطاكية سنة ١٠٩٨ . ويروى فولهير من شارتر ان رجال فصيلة بوهيموند من تارنتو وبودوان من بولونيا (ايطاليا) ، وعددهم ٢٥ الفا ، قد اضطروا ، اثناء مسيرتهم من انطاكية والرها الى القدس ، عندما رفض المسلمون تزويد الصليبيين بالحوّن ، الى الحفاظ على قواهم بقصب السكر : «كنا نحن الجياع نمضغ طوال اليوم كله باسنانا عيدان قصب السكر العسلى التى كانت تشبه القصب العادى والتى كانت تنمو فى الحقول المحروثة التى اجتزناها . والشعب البسيط يسمى هذه النباتات بعسل القصب» . ودخلت كلمة «السكر» العربية محورة الى كثير من لغات الشعوب الاوروبية . وفى القرن الثانى عشر ايضا تطور صنع الاقمشة حسب النمط الشرقى ومنها

نوعا الداما والموصلين (نسبة الى مدينتى دمشق والموصل) ، ونوع
الاطلس .

كذلك انعكس تأثير الشرق على نطاق واسع جدا فى ميدان الآداب
والمعيشة . فمنذ الحملات الصليبية شرع الاوروبيون يربون اللحن ويرتدون
العمايم على الطريقة الشرقية ، ويأخذون الحمامات الساخنة ، ويغيرون احيانا
كثيرة نسبيا الالبسة التحتانية والفوقانية (فى القرون الوسطى الاولى كانوا
فى اوروبا لا يغتسلون الا بالماء البارد ، ونادرا فقط ، وكانوا يلبسون
الاثواب حتى تبلى) .

كل هذا صحيح ، وكل هذا معروف من زمان على العموم ، ولكننا
نتساءل : ما شأن الحملات الصليبية هنا ؟ هل يمكن اعتبارها ، كما فعل بعض
المؤرخين ، «اسفارا تعليمية لاوروبا الفتية الى الشرق» ؟ هل يمكننا ان
نتصور ان فرسان الصليب الذين قاتلوا استجابة لنداءات باباوات روما ،
قد قاموا بنقل منجزات شعوب الشرق الى تربة الغرب ، وان جشع جنود
الصليب الاقفاظ فى الشرق قد ادى او يكاد الى بناء ثقافة جديدة فى الغرب ؟
لا ريب فى ان بعض الجوانب من الثقافة المادية والروحية ، من المعيشة
فى اوروبا الغربية ، قد تأثرت مباشرة بالحملات الصليبية . فان الفرسان ،
مثلا ، كانوا مدينين ، اغلب الظن ، بشعاراتهم المرسومة على الدروع وغير
ذلك من الشعارات لاولئك العرب والسلجوقيين الذين تقاتلوا معهم اثناء
الحملات الصليبية (ومن الممكن ان يكون الرمز الشعارى - النسر ذو
الرأسين - مثلا ، الذى كان العرب والسلجوقيون يعرفونه جيدا قد انتقل
الى الغرب عبر بيزنطية) . كذلك نقل الغزاة الغربيون الى اوروبا سمات
الاسلوب الشرقى فى الهندسة المعمارية . وقد كان جامع الخليفة عمر فى
القدس الموديل والمثال الاولى للهيكل ذات القبة - وقد بدأ بناء الهيكل
من هذا الطراز فى الغرب فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر ؛ فنقلا عن
جامع عمر ، بنيت القبة فى كنائس الرهبان الهيكليين ؛ وفى القرن الثانى
عشر بنى عدد كبير آخر من المعابد ، وبخاصة فى فرنسا ، نقلا عن كنيسة
القبر المقدس فى القدس .

ثم ان الصليبيين حملوا الى اوروبا بعض الادوات الموسيقية . ومنذ
زمن الحملات الصليبية قامت عادة عزف المؤلفات الموسيقية العسكرية فى
مجرى القتال فى مكان تواجد القائد ؛ فان اصوات الموسيقى كانت دليلا لاجل
المقاتلين . ومن الشرق اخذ الغربيون بعض اشكال المعاملة فى المعيشة .
ولكن الوقائع من هذا النوع ليست كثيرة جدا ؛ والرئيسى ان اهميتها

من حيث تقدم المجتمع الاوروبى ليست عظيمة بالقدر المظنون ؛ فهي تنحصر فى اطر ضيقة ، ناهيك بانها اطر قروسطية بحتة . فضلا عن ذلك ، من الضروري ان يؤخذ بالحسبان ان المنجزات الثقافية التى حققها الغزاة بالذات فى تربة الاتصالات مع الشرق كانت قليلة جدا . فقد طفقوا يربون اللحى ويرتدون العمائم ، بل ان بعض ممثلى البيوت الاقطاعية الاوروبية كانوا احيانا يعاشرون الاعيان المسلمين عن كذب . بل انهم دخلوا فى علاقات زواج مع السريانيات والارمنيات او مع المسلمات المعمدات وكانوا ، كما قال فولهير من شارتر ، «يعيشون حسب عادة زوجاتهم» . خلاصة القول ان الاسياد الافرنج قد تكيفوا خارجيا للوضع الجديد عليهم ، و«نسوا وطنهم» ، كما كتب مدون الاخبار المذكور («من كان رومانيا او فرنسا ، صار هنا جليليا او فلسطينيا ، ومن جاء من ريمس او من شارتر صار هنا سوريا او انطاكيا») . ورغم هذا ، بقوا عنصرا غريبا فى الشرق . فقد كان الاسياد الغربيون هناك فى بيئة غريبة عليهم .

فى دول الصليبيين ، لم يطرأ البتة تقريبا تفاعل او تأثير متبادل بين الثقافة الروحية الشرقية والثقافة الروحية الغربية ؛ فقد كان المناخ الاجتماعى والسياسى (الحروب ، تمردات السكان المحليين ، وضع المعسكر) لا يصلح ابدا لهذا الغرض . ومن المكتبات التى سلمت فى الشرق اللاتينى وصلت اليها ٢٧ مخطوطة فقط . ان رجال الكنيسة الكاثوليكين المتعصبين ، وهم ، على ما كان يبدو ، اكثر اقسام الصليبيين تحصيلا ، لم يكونوا يهتمون بشروات العالم العربى الروحية ، بل بالعكس تماما ؛ فان مكتبة طرابلس ، مثلا ، قد احرقها الصليبيون كليا بعد استيلائهم على المدينة ؛ وكيف لا ؟ فقد وجدوا فيها بضع نسخ مخطوطة من القرآن !

اجل ، ان تبادل القيم المادية والروحية بين الغرب والشرق كان يجرى ، ولكنه ، اولا ، بدأ قبل الحملات الصليبية بزمان طويل ؛ ثانيا ، لعبت اسبانيا العربية وصقلية العربية وبخاصة المناطق الغربية لبيزنطية الدور الاولى فى نقل منجزات الشرق الاقتصادية والثقافية والتكنيكية الى الغرب . فمن خلال هذه الاقطار بالذات «لقن» الشرق ، حسب قول المؤرخ الفرنسى ايبرسولت ، «الغرب درسا مديدا من التعليم قبل الحملات الصليبية بزمان طويل جدا» . وفى مرحلة الحملات الصليبية ، احتفظت اسبانيا وصقلية وبيزنطية كذلك بقدر كبير باهميتها كوسيلة فى التعاشر بين الغرب والشرق . وحتى فى زمن ذروة ازدهار دول الصليبيين ، تقبلت اوروبا الغربية من التأثيرات الشرقية

(والتقاليد القديمة) من الامبراطورية البيزنطية بسبيل الاضمحلال اكثر بكثير مما من بلدان المشرق .

وبالفعل ، اخذت حياكة الحرير ، مثلا ، تنتشر اكثر فاكثر في الغرب منذ القرن الثاني عشر . طيب ، وما في الامر ؟ لا شأن البتة للحملات الصليبية في هذا المجال ؛ فان العرب واليونانيين قد نقلوا الى اوروبا فن صنع الاقمشة الحريرية الغالية ؛ وكانت صقلية حلقة الوصل . وعندما استولى ملك صقلية ، روجر الثاني الصقلي ، في اواخر الاربعينيات من القرن الثاني عشر ، على كورنتوس وثيبة وغيرها من المدن اليونانية ، التي كانت منذ القرن الحادى عشر مراكز صناعة الاقمشة الحريرية ، اسكن في باليرمو المعلمين في حياكة الحرير وبدأ يشجع بجميع الوسائل انشاء مؤسسات الاقمشة الحريرية . او اليكم واقعا آخر نابتا ايضا كل الثبات : منذ القرن الثاني عشر شرعوا في البلدان الغربية يستعملون الورق ، ولكن ليست دول الشرق اللاتينى ابدا هي التي نقلت هذا المستحدث الى اوروبا . فقد سبق ان تعلم العرب من الصينيين صنع الورق في القرن الثامن ؛ وفي القرن العاشر ، كانوا يستعملون الورق على نطاق واسع في مصر وسوريا ولبنان وفلسطين . وكانت اسبانيا العربية وصقلية العربية الوطن الاوروبى لهذه المادة الكتابية ؛ فمن صقلية انتقل انتاج الورق الى ايطاليا (لا قبل سنة ١٢٧٠) ، ومن اسبانيا انتقل الى فرنسا ومنها في القرن الرابع عشر الى المانيا .

وفي التجارة مفاهيم ومصطلحات كثيرة عربية الاصل ايضا ، ولكنه يوجد في ميدان التجارة عدد لا يستهان به من المصطلحات ومن الاحكام الحقوقية المقتبسة من اسبانيا وصقلية وليس البتة من مناطق شرقى البحر الابيض المتوسط . ففي القرن العاشر ، مثلا ، انتقل سند الدين (الحوالة ، الكمبيالة) الذى اصبح فيما بعد جزءا لا يتجزأ من العمليات التجارية والنقدية في اوروبا الغربية .

وكانت لوحة مماثلة تظهر في ميدان المعيشة . لقد ذكرنا اعلاه الاغتسال بالماء الساخن وتدبير الحمامات التي استوعبها الغزاة الصليبيون في سوريا ولبنان وفلسطين وبيزنطية . ولكن اوروبا الغربية تلقت كذلك في اسبانيا العربية ايضا دروس الاستحمام في الحمام .

ولكن القضية لا تقوم في زمان ومكان انطلاق التأثيرات الشرقية . فهناك امر اهم بكثير ؛ فان قنوات التأثير المتعدد الجوانب الذي عرفه الغرب من جانب الشرق الاسلامى والبيزنطى الاكثر تطورا قد حددت في المقام الاول

العلاقات الاقتصادية العالمية التي ترسخت في القرنين الثاني عشر والثالث عشر بمعزل عن الحملات الصليبية ، والتبادل التجاري الشديد مع المشرق الذي اخذت تشترك فيه بنشاط متزايد ابدا المدن التي قامت في اوروبا الغربية على اساس انفصال الحرفة عن الزراعة . ان التجارة بالذات ، وليس الحروب الدموية دفاعا عن «الدين القويم» ، تبادل البضائع ، وليس الابداء المتبادلة لاجل اهداف دينية ، - ذلك ما ادى الى تماس مع المشرق مثمر بالنسبة للغرب . . . واذا كانت خيرات ما من الثقافة المادية والروحية في المشرق (ومن خلاله من الثقافة القديمة) قد صارت ملك اوروبا الغربية من جراء الحملات الصليبية ، فان هذه المكاسب قد تحققت بفضل العنف القاسي .

وغنى عن البيان ان الحملات الصليبية قد لقيت صدى في الادب الاوروبي القروسطي - فان المواضيع الصليبية قد اغنت تدوين الاخبار (التاريخ) اللاتيني ، والشعراء المغنين المتجولين ، والملحمة الفروسية . ونشأت الحكايات عن الحملة الصليبية الاولى - «اغنية عن انطاكية» ، «اغنية الاسرى» (التي تصور بجملة من التفاصيل المختلفة مصير الصليبيين الذين وقعوا في اسر كربقا) . واكتمل الاب الحقوقى ايضا بنصوص جديدة ؛ فان الحق الاقطاعي الاوروبي الغربي قد طرا عليه تطور معين في المشرق ، في سياق تكيفه للخصائص السورية اللبنانية الفلسطينية ، الامر الذي انعكس في اسيز دي جيروزاليم («اسيز القدس») وفي قوانين دول الصليبيين الاخرى . واشهر اثر من هذا النوع ، «اسيز انطاكية» ، وهو مبحث موضوع بطلب من احد امراء انطاكية ، في ١٢٥٢-١٢٥٣ ، وترجم الى اللغة الارمنية ثم ادرجه كونيئابل ارمينيا الصغرى سمبات في مؤلفة «كتاب القضاء» بوصفه مقابلا للحق البيزنطي .

وسعت الحملات الصليبية آفاق تصورات الاوروبيين الغربيين الجغرافية والاثنوغرافية . وحملت علاقات اصحاب السفن والتجار والاسياد الاقطاعيين والفرسان من المشرق وبيزنطية الى الغرب معارف اكثر دقة وتنوعا عن الجيران ، عن بلدان آسيا الامامية وافريقيا الشمالية . فان اسقف عكا ، جاك دي فيتري ، مثلا ، قد ترك في مؤلفه «تاريخ المشرق» وفي رسائله اوصافا مفصلة مفعة بالاهتمام الحي بالطبيعة ، بعالم الحيوانات وعالم النباتات في بلدان المشرق البحر الابيض المتوسط . وهو يعرض كل المادة المتعلقة بتاريخ مملكة القدس من وجهة النظر الجغرافية والاثنوغرافية اكثر مما من وجهة نظر المؤرخ ؛ فقلما تهمة افعال الصليبيين ، ولكنه بالمقابل يدخل في

السرد ، بدأب وانتظام ، معطيات احصائية عن الاحوال الطبيعية والحياة الاقتصادية فى مملكة القدس . ثم ان البحث الذى كتبه الراهب الدومينيكانى غليوم الطرابلسى فى سنة ١٢٧٣ عن «اوضاع المسلمين والنبيى الدجال محمد وعن طقوسهم وايمانهم» يتضمن هو ايضا معلومات كثيرة ذات طابع اثنوغرافى .

ولا ريب ايضا فى ان نظام العلاقات الدولية بين الغرب والشرق اجمالا قد ازداد تعقدا وصار اكثر تشعبا من جراء الحملات الصليبية .

ومع ذلك ، يتعين علينا ، اذ نستخلص النتائج ، ان نرفض قطعيا النظرات التى شاعت من زمان بعيد بين ايدىولوجى الطبقات السائدة فى الغرب والتى لم تندثر حتى الآن ومفادها ان الحملات الصليبية اضطلعت بدور تمدينى معين ، وان هذه الظاهرة قد اتسمت باهمية عالمية تاريخية ، وان الصليبيين كانوا «رواد عظمة الغرب» ، وان ممالك الصليبيين فى الشرق ، كما يزعم المؤرخ الاميركى داغتن ، كانت دولا ازدهرت فيها الحرية والعدالة ، وان الصليبيين ادوا رسالة التبادل الثقافى بين الغرب والشرق .

اما فى الواقع ، فان المنافع من الحملات الصليبية بالنسبة للغرب ، حسب التعريف الصائب الذى ساقه العالم الروسى المعروف فى الشؤون البيزنطية اوسبىنسكى ، كانت اقل بما لا يقاس من الخسائر والاضرار وان «تأثير الحملات الصليبية فى تقدم المجتمع القروسطى يتعرض (فى وعينا - المؤلف) لتذبذب كبير اذا اخذنا بعين الاعتبار عملية التطور الطبيعية التى كان بمقدورها ، بدون الصليبيين ، ان تحمل الشعوب القروسطية الى النجاحات فى طريق التطور السياسى» ، وكذلك - كما نضيف نحن - فى طريق التقدم الاجتماعى والاقتصادى والثقافى .

ان الحركة الصليبية قد كلفت شعوب اوروبا قوى هائلة ؛ وفى سياق هذه الحروب المضنية ، هلك مئات الآلاف من الناس ؛ وانفقت الملايين والملايين من الاموال التى ترسب قسم لا يستهان به منها فى خزائن باباوات روما . ان الحملات الصليبية قد تركت فى وعى الجماهير الشعبية فى اوروبا عن نفسها ذكرى حزينة ومشؤومة ؛ وفى الاغانى الشعبية الفرنسية القديمة المؤلفة فى زمن الحملات الصليبية ينداح الاسى على الذين لقوا مصرعهم بلا داع ولا معنى ، ويدوى الاحتجاج على تكرار مثل هذه الحروب مستقبلا .

فى الحملات الصليبية لم يهلك كثيرون من اولئك الحجاج الذين اصبحوا هم بالذات ضحية التعصب الدينى الاعمى او ضحية لجشعهم بالذات وحسب ،

ولم يهلك اولئك الذين ، كما كتب مدون الاخبار الالمانى اكهارد من اورا ، «تخلوا عن اموالهم بالذات وسعوا بطمع وراء اموال الغير» وحسب . فبسيوف الفرسان الصليبيين الذين اشتركوا فى الحملات الاربع الاولى ، اُبيد ايضا عشرات الآلاف من الناس فى اوروبا الشرقية الجنوبية . وبتعبير آخر نقول ان الحروب الدينية عنت ، من وجهة نظر التقدم الاوروبى العام ، تبتديد القيم المادية والموارد البشرية بمقادير كبيرة وعبثا وعلى المكشوف .

وتزداد صحة ما قيل اذا اخذنا بالحسبان تقدم البشرية على العموم . ذلك ان الاكتفاء بوصف العواقب السلبية او الايجابية للحملات الصليبية ، مع الانطواء فى اطار المنطقة الاوروبية الغربية وحدها ، سيكون احادى الجانب الى اقصى حد . فان التقييم الموضوعى لمثل هذه العواقب يتطلب كذلك تحليلا الزاميا للمسألة من موقع آخر ، من وجهة نظر تطور الشرق الاسلامى والبيزنطى لاحقا . وفى هذا المجال ، قد يكون تقييم اهمية الحملات الصليبية وحيد المدلول تماما : فان الحملات الصليبية كانت بالنسبة لبلدان شرقى البحر الابيض المتوسط كارثة حقيقية . ذلك ان الصليبيين حملوا اليها الخراب فى سياق عشرات السنين ، واجتاحوا ونهبوا المدن والقرى فى آسيا الصغرى وسوريا ولبنان وفلسطين ومصر ، واستحقوا عن جدارة فائق كره وازدراء شعوب الشرق الامامى .

لقد تسبب الغزاة بالانحطاط لمراكز الشرق الادنى المزدهرة اقتصاديا وثقافيا . اما فيما يخص مناطق العالم الاسلامى النائية ، فان الحملات الصليبية لم تمسها . ان الاعتداءات والفتوحات الصليبية لم تشمل سوى اطرافه ، ناهيك بان دول الصليبيين التى بسطت حدودها على نطاق واسع نسبيا فى غضون حقبة من الزمن لا تربو على مائة سنة ، نادرا جدا ما كانت عاملا سياسيا موزونا وفعالا نوعا ما . وان التغيرات التى طرأت فى هذه المناطق ، سواء قيام وتوطد السيادة السلجوقية ، وانهار الخلافة الفاطمية ، وارتقاء المماليك ، او بالاحرى غزو المغول ، قد تحققت بصورة مستقلة عن الحملات الصليبية ، واستغلتها دول الصليبيين فى مصلحتها فى افضل الاحوال .

ان سحق بيزنطية فى سنة ١٢٠٤ واقامة سيادة الاقطاعيين الاوروبيين الغربيين والتجار الاوروبيين الجنوبيين كانا اهم ثمرة او يكاد - وعلى الصعيد العالمى التاريخى بالذات - من الثمار المشؤومة للحروب الصليبية . فان الامبراطورية البيزنطية التى تعرضت للنهب والاجتياح ، لم تستطع يوما ، رغم انبعاثها كدولة مستقلة (بمساحة اقل بكثير من ذى قبل) بعد مرور بضعة

عقود من السنين ، ان تستعيد مواقعها الاقتصادية والسياسية السابقة . ثم ان بيزنطية السابقة ، المستضعفة داخليا ايضا ، والمقسمة فضلا عن ذلك ، امست ، بعد مرور حقبة قصيرة من الزمن ، غنيمة للعثمانيين ، ومن جراء ذلك اقترب خطرهم لصقا من اوروبا الغربية . ان الصليبيين قد دمروا بيزنطية التي كانت على امتداد مئات السنين حصنا للغرب في الجنوب الشرقي ضد ضغط جحافل البرابرة من كل شاكلة وطراز ، وبذلك فتحوا الطريق امام الاجتياح العثماني .

وهكذا اضطلعت الحملات الصليبية بالاجمال على الصعيد التاريخي العالمي بدور سلبي ولم تضطلع البتة بدور ايجابي .

الخرافات السياسية الدينية والواقع التاريخي

تشكل الحملات الصليبية صوة مهمة في تاريخ العلاقات بين الغرب الكاثوليكي والشرق الاسلامي ، التي كانت تتسم آنذاك على الاغلب بالمواجهة . وفي سياق وفي تربة هذه المواجهة ، نشأ في قلب الكاثوليكية نظام خاص من نظرات تحبذ على الصعيد الايديولوجي والصعيد الاخلاقي الحروب الاغتصابية التي تشنها اوروبا الاقطاعية ضد الشعوب التركية والعربية في شرقي البحر الابيض المتوسط وافريقيا الشمالية . وهذه النظرات كانت تؤلف بمجملها ، اذا جاز القول اصطلاحيا ، الايديولوجية الصليبية . وهذه الايديولوجية كانت ايديولوجية العداة والكره للمسلمين ، وكانت لا تبرر كل قساوة حيالهم وحسب ، بل تجعل كذلك من الصليبيين انفسهم ابطالا وشهداء يجترحون ، بآبادة «الكفار» ، افعالا ترضى الله («افعال الرب بواسطة الافرنج») ، ويؤمنون لانفسهم الخلاص الابدي في السماء بالموت في سبيل انتصار «الايمان القويم» ، وبالتضحية بانفسهم لهذا الغرض .

في القرن الثاني عشر وبخاصة في القرن الثالث عشر طرأت على ايديولوجية الحملات الصليبية جملة من التحولات الخطيرة بقدر ما كانت الحياة الاجتماعية والسياسية تزداد تعقدا . فان هذه الايديولوجية التي نشأت وتكونت في سياق حروب الفرسان في الشرق الاسلامي ، قد اصبحت تدريجيا ، بمعنى ما ، ذاتية الفعل كأنما انفصلت عن الواقع التاريخي الملموس الذي ولدها واطعمها ، وفارقت حدود نظام العلاقات المتبادلة بين الغرب والشرق ، وصارت ميدانا مستقلا نسبيا من ميادين البناء الفوقي السياسي الديني للاقطاعية الاوروبية

الغربية . ولهذا لقيت جميع العناصر الاساسية لهذه الايديولوجية والشعارات العملية النابعة منها تطبيقا شاملا كليا سواء فى سياسة الكنيسة الكاثوليكية الرومانية ام فى مجال النشاط الاجتماعى والسياسى لمختلف طبقات المجتمع الاقطاعى .

فتحت رايات الحملة الصليبية شنت الباباوية فى القرن الثالث عشر النضال ضد خصومها السياسيين بالذات . وتحت الوية الدفاع عن الكاثوليكية ، كانوا يكرسون ويقدمون القمع العنيف لكل معارضة للاوضاع القائمة كانت فى تلك الازمنة تبرز وتعمل ، كقاعدة ، بصورة هرطقات دينية . ومن هنا الحملات الصليبية ضد الهرطقة فى القرن الثالث عشر . هكذا كانت الحملة التى نظمها البابا اينوشنتيوس الثالث ضد الالبيجيين فى فرنسا الجنوبية (١٢٠٩-١٢١٢) ، والحملة التى قام بها الاقطاعيون الالمان الشماليون استجابة لنداء البابا غريغوريوس التاسع الى اراضى فلاحى فريسلند - الشتيدينيين - الذين ثاروا على العبودية القنيسة التى كانت تهددهم ، والذين رفضوا ان يدفعوا العشر للكنيسة . وكل عدوان يشنه الفرسان ويباركه الكرسي الرسولى كان يتخذ شكل الحملة الصليبية . وهكذا ، الى جانب مشاريع الفرسان الاوروبيين الغربيين الحربية الاستعمارية فى الشرق الاسلامى وفى اراضى الروم ، كان الفرسان الالمان يطبقون «دراغ ناخ اوستن» («الزحف على الشرق») ضد شعوب منطقة البلطيق الشرقية والجنوبية وكذلك ضد شعوب روسيا الشمالية الغربية . والى جانب رهبنة فرسان القديس يوحنا ورهبنة الفرسان الهيكلين اللتين وطدتا بالسيف سيادة الفرسان والتجار فى سوريا ولبنان وفلسطين ، نشرت رهبنة الفرسان التوتونيين ورهبنة حملة السيف الالمانية التى نشأت سنة ١٢٠٢ «نور الايمان الحقيقى» ؛ فلاجل انتصار الصليب سفك فرسان هذه الرهبنات دماء السلافيين والبروسيين والليتوانيين والاستونيين .

ان الطابع «العالمى» «الكللى» الذى اكتسبته القيمة الذاتية للايديولوجية الصليبية قد بقى فى القرون التالية - سواء فى القرون الوسطى ام فى الازمنة الجديدة وحتى فى احدث الازمنة . وفى القرون الوسطى استغلت الطبقة السائدة شعارات الحملة الصليبية على نطاق واسع وفى المقام الاول لاجل التنكيل بحركات التحرر للجماهير الشعبية . وفى سنة ١٣٠٥ نادى البابا كليمنت الخامس بحملة صليبية ضد فلاحى ايطاليا الشمالية الذين ثاروا بقيادة الانخ دولتشينو على الاسياد . وفى سنوات ١٤٢٠-١٤٣١ شن البابا مرتينوس الخامس والامبراطور سيغيزموند ، تحت الراية ذاتها ، خمس حملات تأديبية

بقوات الفرسان الالمان ضد المنتفضين الهوسيين الثوريين التشيكيين ،
الفلاحين والحرفيين ، الذين هبوا الى القتال لاجل الخلاص من النير الاجتماعى
والقومى ، لاجل استقلال بلدهم .

وفى الوقت نفسه لم تندثر فى اوروبا حتى القرن السادس عشر ضمنا
تقاليد الحملات الصليبية الشعبية . فان الايديولوجية الصليبية المفسرة بروح
متطلبات الفئات الدنيا قد تجلت غير مرة فى الفتن الفلاحية . وقد تكررت
الحملة الصليبية من طراز حملتى الاولاد وحركة «الرعاة» فى سنة ١٣٠٩
عندما احتشدت جموع الحرفيين الفقراء والفلاحين واندفعت فى فرنسا والمانيا
وانجلترا ، بتأثير دعوات البابا كليمنت الخامس الصليبية ، الى تحرير الارض
المقدسة ، ولكنها لم تذهب الى ابعد من مدينة افينيون (فرنسا) . وفى سنة
١٥١٤ ، ارتدى المشتركون فى الحرب الفلاحية العظيمة فى المجر - انتفاضة
ديورده دوجا - البسة الصليبيين وانضوا تحت راية الصليب لكى يقوموا
بحملة ضد العثمانيين استجابة لدعوة رئيس الكنيسة المجرية الكاردينال
تاماش باكوتسى ولكنهم حولوا اسلحتهم فيما بعد ضد الطواغيت الاقطاعيين
فى بلدهم بالذات .

ثم ان الايديولوجية الصليبية قد طُبِّقت ، بقدر متفاوت من الدأب
والانتظام ، وبمعنى واحد ، وفضلا عن ذلك بروح اقرب ما يكون الى ممارسة
الحملات الصليبية فى القرن الحادى عشر والثانى عشر والثالث عشر ، فى ميدان
السياسة الخارجية فى دول اوروبا الغربية ، - فيما يسمى الحملات ما بعد
الصليبية . وفى القرن الرابع عشر ، قامت هذه الحملات ضد المماليك وفى
القرنين الخامس عشر والسادس عشر ضد العثمانيين . وقد ترسخت فكرة
الحملات الصليبية فى الوعى الدينى السياسى فى الغرب الاقطاعى الى حد ان
سقوط عكا فى سنة ١٢٩١ لم يعتبر نهاية لهذه الحملات . وعلى امتداد بضعة
قرون ، كانت السياسة الشرقية للانظمة الملكية الاوروبية تتلون بلون
الايديولوجية الصليبية ، وكانت تفسر على انها استمرار للحملات الصليبية
القديمة ، المألوفة ، رغم ان هذه الايديولوجية كانت تتكيف فى كل حالة
بعينها للظروف الفعلية المتغيرة .

فى اواخر القرن الثالث عشر واول القرن الرابع عشر انعكست هذه
الايديولوجية فى الادب الاجتماعى السياسى ، وموضوعه مسألة السبيل الذى
سيتمكن الغرب بالسير عليه من دخول الارض المقدسة المفقودة وامتلاكها
من جديد . كان اصحاب البحوث الاجتماعية السياسية يصوغون وي طرحون
المشاريع لاختضاع الشرق من جديد . وبرز انصار هذه الفكرة بيار دوبوا ،

الحقوقي الفرنسي ، مستشار الملك فيليب الرابع الجميل ، الذي عرض خطته في مبحثه «استرجاع الارض المقدسة» (سنة ١٣٠٧) ؛ الشاعر والفيلسوف الاسباني ريمون لول الذي رسم في مؤلفه «كتاب النهاية» خطة حملة صليبية ، ودعا فيما بعد ، في مبحثه «جدال المسيحي ريمون مع المسلم عمر» ، الى اعتناق المسلمين للمسيحية بصورة سلمية (بل انه قام في الثالثة والثمانين من عمره برحلة الى تونس لغاية تبشيرية) ؛ هارينو سانودو تورسيلو من البندقية ، الذي ألف في الموضوع الصليبي مبحثه «كتاب اسرار المخلصين للصليب» (سنة ١٣٠٩) .

ولكنه كان مكتوبا لجميع هذه المشاريع ان تبقى حبرا على ورق . فلم يكن بمقدور الاسياد الاقطاعيين الغربيين ان يحاربوا دولة المماليك التي كانت لها قوات مسلحة قوية وحسنة الانضباط ، فاكتفوا بغارات القرصنة على سواحل مصر وسوريا ولبنان ؛ ولكن هذه الغارات لم تكن تفعل غير ان تثير الامتعاض في صفوف تجار المدن الايطالية الشمالية الذين كانوا يتكبدون الخسائر . ولم تقم حملة صليبية ضد المماليك الا في سنة ١٣٦٥ . وقد ترأسها ملك قبرص ، بطرس الاول لوزينيان (١٣٥٩-١٣٦٩) . ففي قبرص استقر عدد كبير من الفرسان الافرنج ممن فقدوا اقطاعاتهم في سوريا ولبنان وفلسطين . واليهم انضمت فصائل الفرسان ، ولاسيما منها فصائل الفرسان الفرنسيين التي جمعها بطرس الاول اثناء جولته التجنيدية في اوروبا قبل ذاك بثلاث سنوات . وفي تشرين الاول (اكتوبر) ١٣٦٥ ابحر من رودوس الى الاسكندرية اسطول من ١٦٥ سفينة . وفي ١٠ تشرين الاول ، احتل الفرسان الاسكندرية بهجوم خاطف ودمروها . ولم يبق الصليبيون حتى على كنيسة المسيحيين الاقباط . ان المذبحة المقترفة في هذه المدينة اعادت الى الازهان «حمام الدم» الذي عانتها القدس سنة ١٠٩٩ . وبعد ان غنم الفرسان غنيمة وفيرة ، ركبوا السفن وعادوا من حيث اتوا . وهكذا تحولت حملة سنة ١٣٦٥ الى غارة قرصانية كبيرة الابعاد ، الحقت الضرر بمصالح البندقية التجارية . وقد انقض الحكام المماليك باعمال القمع على المسيحيين المحليين لارتياهم في تعاونهم السري مع الصليبيين . وفي سنة ١٤٢٦ احتل المصريون قبرص .

في القرن الرابع عشر والخامس عشر والسادس عشر قامت حملات صليبية ضد العثمانيين الذين اقتحموا شبه جزيرة البلقان وهددوا اوروبا الشرقية الجنوبية . وفي سنة ١٣٩٦ هزم العثمانيون في جوار نيكوبول جيش الفرسان المتحد من بلدان مختلفة الذي كانت قوات الملك سيغيزموند المجرية تشكل

نواته . وفي سنة ١٤٤٤ ترأس الملك البولوني فلاديسلاف الثالث حملة صليبية ضد العثمانيين ؛ وقد منى الصليبيون بالهزيمة في معركة فارنا . وفي ٢٩ ايار (مايو) ١٤٥٣ استولى السلطان محمد الثاني على القسطنطينية . وبعد عشر سنوات انهارت الخطط الصليبية التي حاكها البابا بيوس الثاني . وفي سنة ١٥١٧ استولى العثمانيون على دولة المماليك المصرية السورية ؛ وفي سنة ١٥٢٩ اقتربت قوات سليمان الاول من فيينا . وفي هذه الاوضاع ، ظهر غير مرة على سطح الحياة السياسية الجديد تلو الجديد من المشاريع لتنظيم حملة صليبية اوروبية عامة برئاسة الملك الفرنسي «الاكثر مسيحية» . وفي سنة ١٦١٧ تقدم الدبلوماسي المعروف ، الاب الكبوشي جوزف ، المقرب من الكاردينال ريشيليو ، بمشروع ائتلاف هائل يضم الدول الكاثوليكية بقصد شن حملة صليبية ضد العثمانيين ، ولكن مشروعه ، مثل الكثير من المشاريع الاخرى من الطراز نفسه ، ظل معلقا في الهواء ، من جراء التنافس بين فرنسا و«الامبراطورية الرومانية المقدسة للامانة» اللتين كانت تسعى كل منهما الى الزعامة والهيمنة في اوروبا . ومنذ بداية حكم فرنسوا الاول ، ارتبط ملوك فرنسا بالدولة العثمانية بالمعاهدات التجارية وحتى بالمعاهدات التحالفية ، فلم يضمروا اى اهتمام بالحملات الصليبية ضد العدو الشرقي لاصحابهم ، آل هابسبورغ . عندما عرض الفيلسوف الالماني ليبنيثس على «الملك-الشمس» (Le Roi-Soleil) لويس الرابع عشر مجموعة من المشاريع الموضوعية والمعللة بصورة مفصلة لفتح مصر ، «هولندا الشرق» هذه كما سماها ، رد الوزير بومبونى على صاحبها بان الحملات الصليبية لم تعد تتسم باية اهمية منذ زمن لويس التاسع .

كان كثيرون من باباوات روما من المبادرين الى الحملات الصليبية ضد العثمانيين ؛ وكانوا يدعمون مختلف ائتلافات الدول الاوروبية بالنقود والقوات المسلحة . وان النصر على العثمانيين في معركة ليبانتو في سنة ١٥٧١ لم يكن نصرا لاسبانيا والبندقية وحسب ، بل كان ايضا نجاحا للباباوية . كذلك اهتم فكرة الحملة الصليبية اولى البعثات الاستعمارية لدولتي شبه جزيرة البيرينه - الكونكيستو (Conquisto) (الفتح ، الاحتلال) . فان شعارات الحملة الصليبية لم تعد تتجه ضد الاسلام وحسب ، بل صارت تتجه ايضا ضد كل العالم غير المسيحي . وحتى اكتشاف كولومبوس للعالم الجديد قيموه بمصطلحات الحملة الصليبية ، واعتبروه «فعل ايمان» . وفي انجلترا ايضا شاعت افكار مماثلة . فقد كتب الفيلسوف الانجليزى المشهور بيكون في سنة ١٦٢١ مؤلفه «حوار حول الحرب المقدسة» ؛ وقد اشار فيه الى

ضرورة اصفاء الصفة القانونية على الحروب الاستعمارية والحروب ضد
الأتراك ، متذرعاً في ذلك سواء بحجج دينية ام بحجج مستقاة من مذهب
الحق الطبيعي .

وجاء عصر النهضة ينزع عن الحملات الصليبية مجدها وبهاءها . فقد رأى
المنورون فيها وليداً مسخاً فظيماً للقرون الوسطى «السخيفة» و«الجاهلة» ،
«جنونا دموياً» ، «وباء الكلب» ، «نصباً غريباً للغباوة البشرية» . ووسم
روسو وفولتر وغيبن وروبرتسون بالعار افعال الصليبيين ، ونددوا بوحشيتهم
واعتبروا حروبهم نتيجة لتعكر الذهن بنشوة الدين ، وسخروا سخراً مرا من
تاريخها . كذلك نعت هرذر الحملات الصليبية بالحملات الطائشة وجادل
وعارض الثمار الايجابية التي كان ينسبها المؤلفون الكاثوليك آنذاك اليها ؛
وكان يعتبر ان الجنسـون الصليبي «كلف اوروبا من الاموال ومن الارواح
البشرية ما لا عد له» .

ومع ذلك ، لم يقض حتى مثل هذا التنديد الماحق بالحملات الصليبية على
الايديولوجية الصليبية ، رغم انه نسف من الاساس «اشراقها» الدينى . ففي
اشكال متغيرة خدمت كذلك فيما بعد القوى الرجعية اى خناقى الشعوب ،
والغزاة ، والمستعمرين فى عهد الرأسمالية ما قبل الاحتكار وفى عهد
الامبريالية .

فمنذ اواسط القرن التاسع عشر ، مثلاً ، وضع تمجيد الحملات الصليبية
فى خدمة السياسة الاستعمارية التي انتهجتها الدول الاوروبية فى آسيا
وافريقيا - لا فرنسا وبلجيكا الكاثوليكتين وحسب ، بل ايضا المانيا
البروتستانتية . وفى فرنسا تأسست لهذا الغرض فى سنة ١٨٧٥ جمعية دراسة
الشرق اللاتينى . ومنذ النصف الثانى من السبعينيات والثمانينيات من القرن
التاسع عشر ، اخذت الاوساط الحاكمة فى المانيا ، وقد تخلت عن
«الكولتر كامبف» («الكفاح الثقافى») الذى نادى به بيسمارك ، تقترب اكثر
فاكثر من الكنيسة الكاثوليكية . وفى الثمانينيات تأسس امتياز سكة حديد
برلين - بغداد ، وراحت الى تركيا بعثة عسكرية برئاسة فون در غولتس .
وفى سنة ١٨٨٩ أسس القيصر الالماني غليوم الثانى المعهد الانجيلى فى
القدس . وقد تحسّر هذا القيصر بنفاق ورياء بصدد ان «شعور الايمان الحقيقى
الذى يحمل المسيحى على التوجه الى حيث عاش وتعذب المخلص ، قد زال
كلياً تقريباً فيما يسمى بالطبقات العليا» ، وقام فى سنة ١٨٩٨ بالحج الى
فلسطين وسوريا . وفى ٢٩ تشرين الاول (اكتوبر) ١٨٩٩ راح الى القدس
وانبأ العالم انه ، هو الامبراطور ، لم تحمله الاعتبارات الدينية وحدها الى

هناك : «ليس للمرء ما يفعله هنا ، فى الشرق ، بالخطابات الفارغة» . وفى دمشق كرم القيصر الالماني ذكرى صلاح الدين واعلن نفسه عند قبره صديقا وحاميا للملايين الـ ٣٠٠ من المسلمين فى العالم . وكل هذه المسخرة الحجية كانت تستر خطط الرأسمال الاحتكارى الالماني الاستعمارية البعيدة المدى .

وفى سنوات الحرب الامبريالية العالمية الاولى ايضا ، وضعت الدعاية الصليبية موضع الاستعمال . فان كلا من الكتلتين المتحاربتين لجأت الى التمويه الدينى . ان مداحى وحماة «الحرب المقدسة» لم يرتبكوا البتة لواقع ان الدول المسيحية التى تحارب بعضها بعضا كانت ، مثل الصليبيين القروسطيين ، مرتبطة بقوى الاسلام . ففى بداية الحرب ، مجّد الكاهن ياكوبكيتر من بريمن (المانيا) انتصارات السلاح الالماني معلنا ان «روح الرب تحل علينا» . ودفعت دول الوفاق (فرنسا وانجلترا وروسيا) للمناضلين من اجل الايمان» الالمان والنمساويين والعثمانيين بالعملة ذاتها ؛ فان الحلفاء قد زعموا فى دعايتهم انهم يخوضون الحرب من اجل «القيم العليا للاخلاق المسيحية» ، ودفاعا عن الديموقراطية . وعندما احتلت قوات انجلترا القدس فى ٩ كانون الاول (ديسمبر) ١٩١٧ ، اعربت الصحافة الانجليزية عن فرح خاص : «من جديد يملك المسيحيون المدينة المقدسة . ان هذا النصر يعنى بنظر الملايين من المؤمنين العائشين فى خوف الرب انجازا عظيما اهم من ولادة الامم وابطادتها» .

الا ان انتصار ثورة اكتوبر الاشتراكية العظمى الذى دشن عهد انتصار الاشتراكية على الصعيد العالمى قد سدّد ضربة الى المذاهب الصليبية بوصفها تعليلا ايديولوجيا للنزاعات بين الامبرياليين . وبتأثير ثورة اكتوبر الاشتراكية نهضت فى العالم موجة عاتية للحركة الثورية . ومنذ ذاك شغلت «الحملة الصليبية ضد البلشفية» المقام الاول فى الدعاية الامبريالية ، اى ان هذه الدعاية اخذت تستر بالجمل والمصطلحات الصليبية المكيفة باسلوب جديد وللعهد الجديد من اجل نضال الاوساط الحاكمة فى الدول الامبريالية ضد اول دولة اشتراكية فى التاريخ ، وضد الحركة العمالية والحركة الشيوعية وحركة التحرر الوطنى العالمية . وفى هذا النضال لقي الساسة البرجوازيون المحترفون والكتاب السياسيون والاجتماعيون الرجعيون الذين يبذرون بذور الحقد والكراهة العون الكلى من رجال الدين من مختلف الطوائف . وفى سنوات ١٩١٨-١٩٢٠ ، دعم البابا بنديكتوس الخامس عشر (١٩١٤-١٩٢٢) ، بحجة الدفاع عن الدين ، التدخل الاجنبى المسلح ضد الجمهورية السوفيتية .

وفى الثلاثينيات ، تسلحت الفاشية واتباعها من عداد كبار رجال الدين بالايديولوجية والمصطلحات «الصليبية» المعادية للشيوعية ، واخذوا يبرزون فى دعايتهم ، بدرجات متفاوتة ، تارة الدوافع «المسيحية» وطورا الدوافع «التمدينية» ، تبعا للظروف . وفى شباط (فبراير) عام ١٩٣٠ دعا بابا روما بيوس التاسع الى حملة صليبية ضد الاتحاد السوفييتى . وتبريرا للاستيلاء على اثيوبيا (الحبشة) فى سنة ١٩٣٥ ، زعم الفاشيون الايطاليون ان ضرورة اطلاق الاحباش والهراطقة والمنشقين والوثنيين على الايمان الحقيقى هى التى أملتة . وبالتعاون مع الفاشية الالمانية والايطالية خنقت زمرة فرنكس-الجمهورية الاسبانية فى سنوات ١٩٣٦-١٩٣٩ تحت شعار «الحملة الصليبية» ايضا .

وجاءت الحرب العالمية الثانية تكهرب من جديد القاموس «الصليبى» . فان النازيين قد سمو خططهم للهجوم على الاتحاد السوفييتى «خطة بربروسا» ، على شرف احد قادة الحملة الصليبية الثالثة فى سنة ١١٨٩ ، الامبراطور الالمانى فريديريك الاول ذى اللحية الصهباء («barba rossa») . وعلى بكلات احزمة الجنود الهتلريين كان يظهر الشعار «الله معنا ا» ، وذلك بكل جلاء تقليدا لصيحة الصليبيين القروسطيين القتالية «هكذا يريد الرب ا» .

وبعد الحرب العالمية الثانية بفترة وجيزة ، وضعت المفاهيم القروسطية من جديد فى خدمة سياسة الدول الامبريالية . فالى كليشيات الايديولوجية «الصليبية» لجأ الزعماء السياسيون والعسكريون الانجلو-اميريكيون . وكان ونستون تشرشل اول من استغل هذه الكليشيات . ففى خطاب القاه فى فولتون فى آذار (مارس) ١٩٤٦ دعا حلفاء الاتحاد السوفييتى فى الامس القريب «الى حملة صليبية ضد الشيوعية» . وفى سنة ١٩٤٨ قام ايزنهاور بمحاولة لتفسير مفهوم «الحملة الصليبية» تفسيراً مصطنعاً واستغلاله فى السياسة ، وذلك فى كتابه «الحملة الصليبية فى اوروبا» .

ومن ابرز سمات الاعمال الهدامة التى تقوم بها الرجعية الامبريالية ، التفنن المتعاضم فى اعمالها التخريبية الايديولوجية الهادفة الى تسميم الجو الدولى ، والنفخ فى نار الحرب النفسية (واحيانا يعرفونها بالصيغة التالية «الحملة الصليبية ضد التعايش السلمى») ، وتشديد هستيريا العداء للشيوعية والعداء للاتحاد السوفييتى .

اما قوى السلام فانها تناضل بدأب وثبات ضد تسعير الحقد والكراهية بين الشعوب ، وضد الاوهام السياسية ، معارضين السياسة البالية القائمة على الحملة الصليبية بالاافكار الانسانية ، افكار توطيد السلام وامن الشعوب ،

افكار تجنيب البشرية سباق التسليح المضنى الذى تفرضه الامبريالية وخطر الحرب الحرارية النووية ، افكار تعزيز مبادئ التعايش السلمى والتعاون المتبادل النفع بين الدول على اختلاف انظمتها الاجتماعية والسياسية ومواصلة تعميقها . ان هذه القوى تناضل ضد سياسة الحملة الصليبية ، ضد هذه السياسة التى ولى عهدا واستنفدت قواها . ولكن لا يزال لها انصار فى الاوساط الامبريالية الرجعية . ان تاريخ الحروب الصليبية الحقيقى يبين وهن وبطلان اصفاء الصفة المثالية على هذه الحروب ، وعقم المحاولات ، ايا كانت ، لاستعمال سيوف الصليبيين القروسطيين ودروعهم الصدئة لما فيه الاضرار بقضية توطيد السلام .

محتويات

٣	شاهرو السيوف (مقدمة)
١٣	١ - نشوب الحروب الصليبية
١٤	ازمان الفتن
١٩	كلونى وعدوان الفرسان
٢٩	بيزنطية والغرب والسلجوقيون
٤١	٢ - الحملة الصليبية الاولى
٤١	الدعوة الى الحرب واصداؤها . تكوين ايدولوجية الحرب الصليبية
٥٠	حملة الفقراء
٥٩	بداية حرب الفرسان
٦٨	الصليبيون فى بيزنطية
٧٣	معركة نيقية
٧٧	عبور آسيا الصغرى
٨٣	دولة الصليبيين الاولى
٨٥	فتح الطاكية
٩٣	«معجزة الحربة المقدسة»
١٠٧	امارة الطاكية . مواصلة الحملة
١١٢	التناقضات الاجتماعية فى صفوف الصليبيين

١١٩	فتح القدس
١٢٤	لمن السيادة ؟ حملات المؤخرة
١٣١	٣- دول الصليبيين في الشرق
١٣١	الجديد والقديم في النظم القطاعية
١٣٣	وضع الفلاحين
١٣٦	نضال الاقنان ضد الاضطهاد القطاعي
١٣٩	النظام السياسي
١٤٣	اسير دى جيروزالم
١٤٨	التجارة
١٥١	الكنائس والاديرة
١٥٣	اسباب ضعف مملكة القدس اللاتينية
١٥٦	الحجاج الجدد وخدمتهم
١٥٨	وفرسان المسيح الفقراء
١٧٠	٤- الحروب الصليبية في القرن الثاني عشر
١٧٠	انتقام السلجوقيين . موعظة برنار من كليرفو
١٧٧	الحملة الصليبية الثانية وتصادم مصالح الدول الاوروبية في البحر الابيض المتوسط
١٨٣	فشل المغامرة الصليبية
١٨٨	المرحلة الجديدة في هجوم السلجوقيين المضاد . صلاح الدين واستعادة المسلمين للقدس
١٩٣	الحملة الصليبية الثالثة
٢٠٠	الوضع في البلقان والنزاع مع بيزنطية . مصرع فريدريك بربروسا واخفاق الفرسان الالمان
٢٠٥	التناقضات الانجلو-فرنسية والمخاضات في مملكة القدس . فتح عكا . نتائج الحملة
٢١٤	٥- الصليبيون في القسطنطينية
٢١٤	تاريخ الحملة الصليبية الرابعة ومؤرخوها
٢١٧	شمولية سياسة الباباوية واعداد الحملة على الشرق
٢٢٤	الاستعدادات للحملة . دوافع الفرسان
٢٢٨	المفاوضات في البندقية . التجارة المشرقية وعلاقات جمهورية القديس مرقس مع بيزنطية
٢٣٢	معاهدة النقل . مقاصد البلوتوقراطية البندقية
٢٣٧	الامبراطورية الالمانية وفرنسا ضد بيزنطية . بوليفاسيوس دى مونفيرات

٢٤٢	الديبلوماسية السرية للكورية الرومانية .
٢٤٥	فى « اسر » البندقيين . الحملة على دلماسية .
٢٥٢	نهج الكرسي الرسولى السياسى
٢٥٥	فتح زادار . التغير الثانى فى اتجاه الحملة .
٢٥٩	الخطط الجديدة وموقف الباباوية
	استقرار الصليبيين فى القسطنطينية . النزاع مع الامبراطورين .
٢٦٣	التفاضة الفقراء
٢٦٩	مشروع تقاسم بيزنطية . الاستيلاء على القسطنطينية .
٢٨٠	٦ - انحطاط الحركة الصليبية
٢٨٠	الامبراطورية اللاتينية . سنوات الهدنة فى الشرق .
٢٨٣	نضالات عامة الناس الجديدة - الحملتان الصليبيتان الطفوليتان .
٢٩٠	تحويل الحملات الصليبية الى مؤسسة
٢٩٣	الحملات الى مصر والسياسة الدولية
٣١٨	« النزاع تونس من المسلمين »
٣٢٧	٧ - فتايج الحملات الصليبية
٣٢٧	اهى صوة فى التاريخ العالمى ؟
٣٤٠	الخرافات السياسية الدينية والواقع التاريخى

الى القراء

ان دار التقدم تكون شاكرة لكم إذا تفضلتم وابدیتم
لها ملاحظاتكم حول موضوع الكتاب ، وترجمته ، وشكل
عرضه ، وطباعته ، واصریتم لها عن رغباتكم .

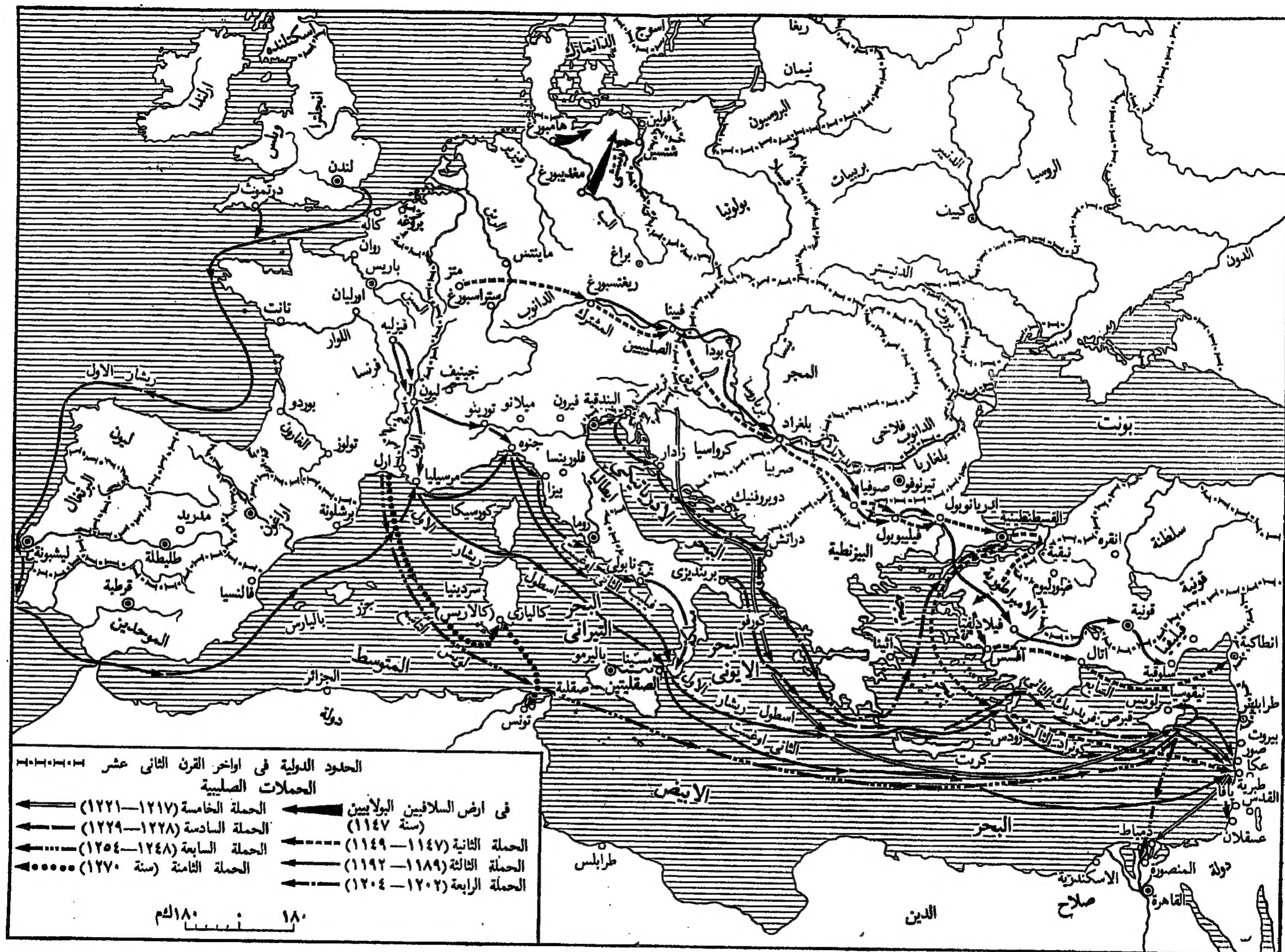
العنوان : زوبوفسكى بولفار ، ١٧
موسكو — الاتحاد السوفييتى

Заборов Михаил Абрамович КРЕСТОНОСЦЫ НА ВОСТОКЕ *На арабском языке*

Редактор русского текста В. Д. Галапович. Контрольный редактор Л. Д. Жигалева.
Художник И. Кондрашов. Художественный редактор И. М. Чернышева. Технические
редакторы Д. Я. Белиловская, Л. Ф. Шкилевич.

ИБ № 16522

Сдано в набор 23.06.87. Подписано в печать 07.01.88. Формат 60×84¹/₁₆. Бумага тип.
№ 1. Гарнитура «арабская». Печать высокая. Условн. печ. л. 20,46+0,93 печ. л. вкле-
ок. Усл. кр.-отт. 26,61. Уч.-изд. л. 31,21. Тираж 7430 экз. Заказ № 360. Цена 2 р. 70 к.
Изд. № 43918. Ордена Трудового Красного Знамени издательство «Прогресс» Государ-
ственного комитета СССР по делам издательств, полиграфии и книжной торговли 119841,
ГСП, Москва, Г-21, Зубовский бульвар, 17. Орда
ковская типография № 7 «Искра революции»
комитета СССР по делам издательств, полиг.
121019, пер. Аксакова, 13.



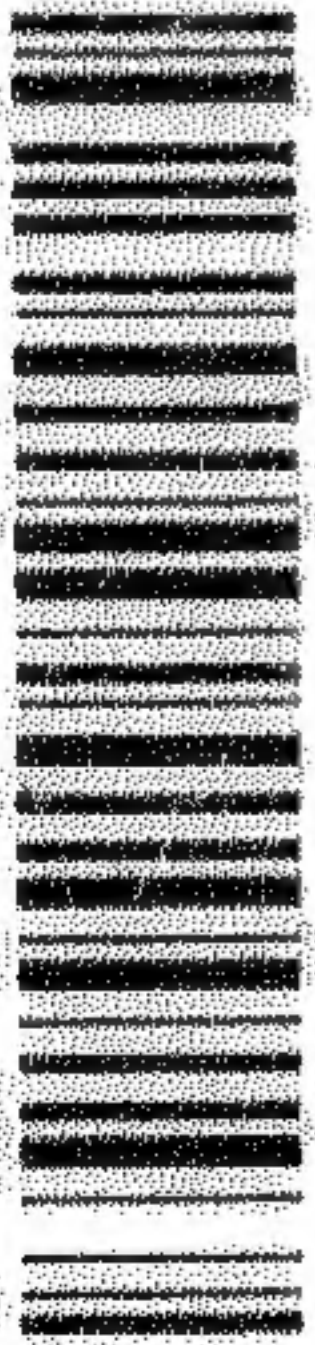
ميخائيل زابوروف



يرسم ميخائيل زابوروف في كتابه
تاريخ الحروب التي شنها الفرسان
وكبار الاقطاعيين من اوروبا الغربية
على آسيا الصغرى وسوريا ولبنان
وفلسطين ومصر في القرون الحادي
عشر والثاني عشر والثالث عشر
والتي اتخذت شكل الحملات والحروب
الصليبية . ولقد حقق الفرسان
الغربيون فتور

رق
دين
ن .
ياب
من
ملف
تم
على
في

Bibliotheca Alexandrina



0402482

متسترين بحجة
المسيحي من «ال»
والكتاب مكتوب
وبالاعتماد على
الوقائع الواردة
من اخبار تاريخي
ومؤلفات ادبية ،
عدد كبير من احا
الموضوع المعنى

دارالتقدم
موسكو

ISBN 5-01-000748-7